

المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية محكمة / العدد الثاني و العشرون / ربيع / ٢٠١٨

عمر شبلي	كونية الخالق وتعذب المخلوق
د.عزيز الأشقر	قبول الشيب والهرم عند الجاهليين (المعلقات)
د.زهراء سليمانى	تجليات قناع المسيح في أشعار محمود درويش ونزار قباني
د. مازن سليمان شلق	ابن الرومي شاعر الرومنطيقية الأول
د. الشيخ أحمد سيف	المقاصد الضرورية في الشريعة الإسلامية
د. نصر قرحاني	السياسة العثمانية تجاه العالم العربي في القرن السادس عشر
د. علي الحاج حسن	التعددية الدينية بين التحليل والنقد
فاطمة سوبرة	التلوث والبيئة - مقاربات
مهدي شمس	الماء كشخصية رئيسة في قصة "عالم الماء" لمخائيل مسعود
د. حسن ابراهيم	الاستقلال الوطني في مناقشات مجلس النواب اللبناني / ١٩٤٣
حسن علي عطوي	حول عمالة الأطفال
مايا شاهين	أدب الأطفال
الياس يوسف زغيب	المقامات في الأندلس
منى محمد يونس	مشغرة قلب البقاع الغربي بين الواقع والمرتجى
خلود عبدالغني ياسين	الصعلكة في شعر محمد زينو شومان
زهراء دخيل	الفصحى والعامية
ناهدة مصلح	مقالة تاريخية / العائلة الجنبلاطية
ليلى حسين عليق	التصخر

- موقف "المنافذ الثقافية"
من قضايا الانتماء الفكري والأدبي والروحي
للأمة العربية والاستجابة الإيجابية للتحدي

المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية محكمة تُعنى بأحوال الثقافة والفكر والأدب

رئيس التحرير
عمر محمد شبلي

الهيئة الثقافية والإدارية

د. خديجة شهاب	د. هالة أبو حمدان	د. درية فرحات
د. نصر قرحاني	د. هبة الحشيمي	د. عيدا زين الدين
د. عماد هاشم	د. ندى الرمح	د. منى دسوقي
د. رضا العليبي (تونس)	د. ماغي عبيد	د. زهور شتوح (الجزائر)
أ. سوزان زعيتير	أ. زينب راضي	أ. حكمت حسن
أ. مروان درويش	أ. إيمان صالح	

اللجنة المحكّمة

د. ديزيره سقال	د. حسن جعفر نور الدين	د. محمد فرحات
د. فؤاد خليل	د. لارا خالد مخول	د. علي حجازي
د. جمال زعيتير		

المدير المسؤول

علي حمود

إخراج

عبد القادر نجيب كرزي

٧٠/٦٢١٤١٠

تصميم المجلة

عبير سمير نجم

العدد الثاني والعشرون - ربيع ٢٠١٨

موقع المجلة الإلكتروني - www.al-manafeth.com
مركز المجلة: ريفيرا سنتر - كورنيش المزرعة - دار العودة - الطابق الخامس
الإشتراكات السنوية:

لبنان - للأفراد ١٥٠ ألف ليرة لبنانية - للمؤسسات ٢٢٥ ألف ليرة لبنانية

باقي الدول العربية:

للأفراد ١٢٥ دولار - للمؤسسات ٢٠٠ دولار

للمراسلات: chebli_omar@hotmail.com

المحتويات

٥	كونية الخالق وتعصُّب المخلوق
٥	عمر شبلي
١٠	قبول الشَّيب والهزم عند الجاهليين (قراءة نفسية لشعراء المعلقات)
١٠	د. عزيز الأشقر
٣٠	الفهم القرائي للتَّصوص: مراحل واستراتيجيات تعليمية - تعلّمية
٣٠	د. مايا بطرس
٤٦	تجليات قناع المسيح ﷺ في أشعار «محمود درويش» و«نزار قباني»
٤٦	د. زهراء سليمان
٦٣	الاستقلال الوطني في مناقشات مجلس النواب اللبناني/١٩٤٣
٦٣	د. حسن إبراهيم
٨٣	ابن الرومي (٨٣٥ م = ٢٢١ هـ/٨٩٦ م = ٢٨٣ هـ) شاعر الرومنطيقية الأول؟!!
٨٣	د. مازن سليمان شلق
٩٦	ممهّدات الحملة الفرنسيّة على لبنان ١٨٦٠م
٩٦	د. جهاد طرييه
١١٥	المقاصد الضروريّة في الشريعة الإسلامية
١١٥	د. الشيخ أحمد سيف الدين
١٤٦	السياسة العثمانية تجاه العالم العربي في مطلع القرن السادس عشر الميلادي
١٤٦	د. نصر قرحاني
١٥٧	التعددية الدينية بين التحليل والنقد
١٥٧	د. علي الحاج حسن
١٦٥	التلوث والبيئة - مقاربات
١٦٥	فاطمة سوبرة
١٨٤	حول عمالة الأطفال
١٨٤	حسن علي عطوي
٢٠٧	النزوح عبر سلسلة جبال لبنان الغربية وأثره في التوزيع الجغرافي للسكان غرب محافظة بعلبك
٢٠٧	د. صلاح عصام أبو شقرا
٢١٧	الماء كشخصية رئيسة في قصة «عالم الماء» لميخائيل مسعود المقتبسة عن «موباسان» الفرنسية
٢١٧	مهدي شمص
٢٣٢	أدب الأطفال
٢٣٢	مايا شاهين
٢٤٤	المقامات في الأندلس
٢٤٤	إلياس يوسف زغيب
	عبد الغني العُرَيْسي (١٨٩١-١٩١٦) - تنبيه مبكر من الخطر الصهيوني
	د. حسام محي الدين

٢٦٥	أثر سياسات الخصخصة على إدارة المؤسسات العامة في لبنان تجربة خصخصة الهاتف الخليوي حوراء عليّ سبيتي
٢٨٩	السياسة الضريبية لحكومات الاستقلال الأولى جان خليل طعمة
٣١٠	العلاقات الاجتماعية بين العالم الواقعي والعالم الافتراضي جومانا أسعد عباس
٣٢٤	مشغرة قلب البقاع الغربي النابض بين الواقع والمرتجى منى محمد يونس
٣٤٢	الصعلكة في شعر محمد زينو شومان خلود عبد النبي ياسين
٣٥٣	تأثير المناخ على الأعمال الحربية جهاد الأحمر
٣٧٤	تداعيات النزوح السوري إلى لبنان (نموذج بلدة البازورية الجنوبية) لينا حجازي
٣٨٥	قَوْلٌ على قَوْلٍ/ بلاغة على بلاغة زيتٌ على زيتون أ. محمد السيد
		التصحّر
		ليلي حسين عليق
		الزجاج الملون
٤٠٤	محمد إقبال حرب
		هجرة أبناء بلاد الشام إلى الولايات المتحدة الأميركية من النصف الثاني للقرن التاسع عشر لمطلع القرن العشرين
٤٠٨	د. خالد ممدوح الكردي
		الفصحى والعامة
٤٣٠	زهراء دخيل
		مقالة تاريخية العائلة الجنبلاطية
٤٣٦	ناهدة مصلح
		تحديد الموقع الأمثل لإنشاء مطمر صحي في منطقة بنت جبيل بتقنية نظم المعلومات الجغرافية
٤٥٥	زينب حمادة شعيتو & جوسلين أدجيزيان جيرارد
		Le tourisme d'affaire: enjeux et perspectives
٤٦٤	Racha Sultan
		Need of Innovation and Depth in the Teaching and Learning Process
٤٨١	Dr. Janet Ayoub
		A Consideration of Transformational Leadership in the Business
٤٩٩	Georgia Nicolas Hachem

كونية الخالق وتعصب المخلوق

عمر شبلي

لمفهوم العداء بين الناس. إن غاية الدين هي صنع السلام الكوني قبل كل شيء. فالإيمان والسلام الكوني هما هدف الدين وتحويل الإيمان في أعماق مراحل وجوده في الذات المؤمنة إلى سلوك تمارسه النفس المؤمنة. ويعني أيضاً أن الذين يحصرون الله في عقيدتهم يُضَيِّقُونَهُ، ويلغون كونيته التي تواجد فيها وبها في كل عقلٍ، وفي كل قلبٍ، وإن بمرايا مختلفة. فالله هو المطلق المتواجد في كل ما خلق بديارية ورحمة واتساع ومغفرة ومستمع لنجاوى كل القلوب، ومتفهمٌ لأحقية كل العقول في السلوك إلى ذاته على سبيلٍ تتباين ظاهرياً، وتتحد في عمومية وجوهريّة البحث عنه في كل ما خلق. وهو منفرد بكونيته، ومتعدد في ذوات مخلوقاته. وقد تبدو تعددية السبل متناقضة في العقول المحاصرة بجدران الفهم المحدود والتفسير الظاهري للنص الديني المأخوذ بظاهره. والمُلغى ما عداه بتصوّر يرى فيه ذوو الفكر المحدود

في هذه الافتتاحية أريد أن أؤكد أن التعصب الديني هو ضد الدين نفسه، التعصب يجعل أتباعه مقتنعين أن الله لهم وحدهم، وما عداهم إما ناقصٌ دين أو هو قطعة من حطب جهنم لأنه ليس من فئتهم، هم يعتقدون أنهم الفئة الناجية، ولهم وحدهم حق الدخول إلى النعيم، ولغيرهم الجحيم. وهذا يفضي إلى رفض كل من لا ينتمي إلى فئتهم الناجية، ويعني أيضاً أن على أتباع هذه الفئة أن يحاربوا الآخرين، لأن محاربتهم تضمن لهم النجاة.

الله في العقيدة الإسلامية هو «رب العالمين» كما جاء في فاتحة الكتاب. وليس ربّ المسلمين وحدهم، وهذا يعني أن الخلق جميعهم عيالٌ الله، وأقربهم إليه أنفعهم لعياله، وهكذا يجب أن نعي جوهر الرسالة الإيمانية الإسلامية الرابطة بين الإيمان والسلام بتعميم مطلق: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]. إن استخدام لفظة «كافة» هي إلغاء

حصرية عقيدية. وهذا عجز عن إدراك معنى الإيمان المترفع عن كل تحديد. فإذا كان العقل محدوداً فكيف يحق له أن يقولَ اللامحدود ويضع له حدوداً.

في هذا الفهم عجز عن إدراك كونيّة الخالق المطلقة التي وسعت كل شيء وتعدّدت في كل شيء. وكل ما وُجِدَ هو تجلُّ من تجلياته، وفي كل ذرة كونية «انطوى العالم الأكبر». وهذا يعني أن الإيمان يضيء الروح فتحب أخاها في الخلق، وتلغي العداوة، فالعداوة ظلمٌ، والله جعل العدل صفة من صفاته.

الدين ليس طقوساً تُمارَس بمنأى عن توهج الروح المطلقة المتعالية على كل ما يكبلها بقيود خارجية، يمارسها الناس أحياناً كثيرة طمعاً بنعيم مادي يغري الحواس ويوقظها، ويحاصر الروح ويغلقها. تُمارَس الطقوس بمنأى عن الشعاع المنبثق من حضور الإيمان الذي هو أبعد من الطقوس، وأنأى من أن تستفرد به ذاتٌ تدّعي ملكية الله وملكية ملكوته. الطقوس الحقيقية هي حركة الذات الذاهبة إلى ملاقات ربها خارج محدودية محتكري نعيم الله وحدهم، حتى لكأنّ ثوابه عقارات نقتسمها قبل الوصول إليها عبر طقوس لا يحركها حضور الله فيها.

إن حصرية الله في دين أحاديّ النظرة

والسلوك هي تحديدٌ له، وهي إساءة لكونيته التي تدرك كل شيء، وتُدرِك من كل شيء، لأن الله موجود في الأشياء كلها وغير محدود بعقولٍ لا تدرك أنه الكلُّ. أي كل ما عداه هو منه وفيه. فأبعد مخلوقاته عن إدراكه هم الحصريّون، والذين يرون الآخر منفصلاً عنه. إن المنقذ من هذه المحدودية هو الإيمان، والإيمان موجود في كل ما خلق. حتى المشرك هو مدرك كونيّته بفطرة الله فيه. وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]. حصرية الإيمان في جهة واحدة هو إساءة للدين، وجهل بكونية الخالق.

إن حصرية معرفة الله في جهة واحدة هي نتاج جهلٍ مطبّقٍ على عقولٍ مغلقةٍ بجدران سميكة، وهذه الجدران السميكة تؤدي إلى إلغاء الآخر ودعوة للعدوان عليه. وهنا تكمن مأسأة حصريّة الإيمان في ملّة واحدة، حيث تنمو البغضاء وتغطي العمق الإيمان الذي يجب أن يكون منزهاً عن الخلل والعدوان. والإيمان بالعدوان يصبح في العقول المغلقة هو الإيمان نفسه. والجهل هو ألدُّ أعداء الإيمان. والإيمان ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي. إن الذي يؤمن بالعدوان على الآخر لأنه ليس مسلماً إنما يعتدي على الإسلام نفسه. الإيمان

والامتداد. والتعصب ينتقل من الانغلاق إلى الرفض والعداء. فالمتعصب أعمى، وينقصه بصرٌ وبصيرة. ومن كان متعصباً فهو أعمى أضلُّ سبيلاً. والتعصب في حقيقته مرض، ودواؤه الانفتاح وسعة الروح وفتح مغالق الذات أمام النور الوافد من الذات الكبرى.

إن ظاهر النص والابتعاد عن مراميه الغائية قد يوقع في فهم سكوني محدود، وقد يتغذى الجوهر بالمظهر. وظاهر النص يجب أن لا يكون حاجزاً أمام محاولة تطوير فهمه بالتناسق والتكامل مع سيرورة الزمن الذي هو متحرك باستمرار ومتحول من حال إلى حال. ولذا لا بد من انسجام الفقه مع الوعي المتطور الذي أثبتته العلوم والإنجازات البشرية الواضحة بكل ما تعنيه وتقدمه من حقائق لا لبس فيها ولا غموض، ونخص بالذكر الإنجازات التي خدمت الإنسان ورفعته، وأنقذته من الأمراض والجهل والتخلف والظلام. وقد يكون فهم المقدس مرتبطاً بمرحلة زمنية محددة، وإذا كان الزمن كالنهر فإن الإيمان يقر التطور الإنساني وعدم التقوقع في الماضي مهما كان مجيداً. لقد تحاملت الكنيسة في أوروبا على «ماجلان» لأنه اكتشف أرضاً ليست مذكورة في العهد القديم، وحوكم «غاليله» لأنه قال: إن الأرض تدور، وهورب ابن

والعدوان لا يلتقيان أبداً. وإذا كان الإيمان موجوداً في الغرائز فواجب المؤمن أن يساعد الآخر بنزع الصداً وبقع الظلام عن الجوهر الإيماني الموجود في الموجودات كلها. لا يجتمع الإيمان والظلم في ممارسة تجعل القتل مفتاح باب الجنة. ولشدة نفور الذات الإنسانية ونفور الله من الظلم كتب أحدهم: «مُلْكٌ مَعَ الْكُفْرِ يَدُومُ، وَمَعَ الظُّلْمِ لَا يَدُومُ». والقرآن الكريم ربط الإيمان بخلع الظلم ورفضه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْآمَنُونَ هُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

الإيمان موقف يحول العمق الإنساني مدى لا يسكن فيه إلا الضوء ومعرفة الله خارج محصورة التعصب. والتعصب جهل وضيق أفق، وكل متعصب يكون فهمه الجوهر الإلهي الموجود فيه ناقصاً. الجوهر الإلهي مقترن بالإشعاع، والتعصب مقترن بالظلمة وانطفاء البصيرة. والنور فضاء متسع لا يُحَد، وهو أنأى وأفضى من الجهات التي تخضع للمقاييس المادية.. أما التعصب فهو انحسار الإيمان وتقوقعه في منطقة لا نور فيها، والله في حقيقته «نور السماوات والأرض». فلا يمكن للإيمان أن يقترن أو يكتمل بالتعصب لأنه مناقض لسعة روح الله الموجودة في الإنسان، ومناقض لقدرة الضوء على السطوع

على العقل الديني أن يعي تطور الحياة وعدم التنكر لحقائقها الجديدة الجليّة. الدين في حقيقته هو ثورة روحية اجتماعية، وتحنيطه اليوم في فقه متجمد يناقض روح الدين الذي يتسم بالثورة على كل ما هو ثابت. هناك حالات وُجدت في ظروف تاريخية محددة تجاوزها الزمن، وألغتها السيرورة التاريخية كظاهرة الرق وغيرها. لقد تجاوزتها العصور اللاحقة بحكم الحتمية التاريخية وتطور الحياة.

وكونية التفكير الإيماني في جوهرها تأمرنا بعدم التمترس وراء أحداث تاريخية خَلَّت، وهذا لا يعني عدم تنبهننا لها، وإنما ما جدوى الخلافات المذهبية القائمة اليوم والمرتبطة بصراع انتهى، ونحن ندري أن العودة إليه بشكل تعسبي جعلت مجتمعنا متناحراً، وجعلت صراعه مع أحداث التاريخ الغابر يلغي صراعنا مع عدونا الجاثم على صدورنا وأرزاقنا وحركات وعينا، منطلق الأشياء يقول: لا يمكن للماضي أن يصبح حاضراً. وإذا غرقنا في استحضاره دينياً فقد خسرنا وجودنا، وصرنا خارج الزمن. على المؤمن الحقيقي أن يسعى لزوال فتنة التاريخ مهما كانت مرة وقاسية. إن إثارته اليوم مزقت وحدتنا «وأورثتنا أفانين العداوات» كما يقول المعري. لقد أورثتنا الانقسام والتشتت والصراعات التي نراها

رشد لأنه عقد صلحاً بين النقل والعقل. وقُضِيَ على الفكر المعتزلي الذي كان مرتكزاً لتطور الفكر العربي وانتمائه لفكر تنويري اختراقِي يضع العقلَ أمام الجميع ويجعله إمامَ الجميع. لا بد من فهم الزمن المتجدد وأحواله، وإضافاته التنويرية التي تؤهلنا لدخول القرن الذي نحن فيه، وللأسف إننا موجودون مجازاً في القرن الواحد والعشرين، وحقيقة في القرن الرابع الهجري. لا بد من فتح باب الاجتهاد بقوة، والمبني على الضرورة الحياتية المفروضة علينا، شئنا أم أبينا. وإلا أصيب وعينا بالشلل والكساح. وصار الزمن يمشي ونحن واقفون. لا يجوز أن يقود الماضي الحاضر، مهما كان الماضي رائعاً، فلكل زمنٍ مكونات روعته. إن أبناءنا هم أبناء الحياة أكثر من كونهم أبناءنا، وقد خُلِقوا لزمنٍ غيرِ زمننا، وما تنتجه الثورة المعلوماتية الجديدة لا يمكن الوقوف أمامه منكرين ورافضين. إن النهر يتغير كل لحظة، وكذلك الحياة، ومن يقف في وجهها تتركه غير عابئة به. ولا بد من الجرأة الواعية أمام الفهم الجامد للنص. لقد منع عمر بن الخطاب قطع اليد في عام الرمادة بسبب الفاقة والجوع، رغم وجود نص قرآني بقطع يد السارق. ونحن اليوم نعيش في عالم لا يمكن إيقاف سرعته المذهلة.

الإيمان قوة، والمنهزم تاريخياً هو الذي لا يملك قوة إيمانٍ تزود عن القضية التي يؤمن بها. فكل إيمان قوة. وكل قوة تابعة عن إيمان. إيمان يجعل الإنسان سيد الطبيعة، وحاملاً روحاً مملوءة بضوء المعرفة واليقين، وبهذا نستطيع الدخول في ملكوت الإيمان الذي يدحر الشر ويُعلي إنسانية الإنسان.

بين أتباع الدين الواحد، وأصحاب القضية الواحدة التي تنتظرنا جميعاً للدفاع عنها، وعن وجودنا المرهون ضريبة عند سمسرة التاريخ ومرابيه صرافة الذهب. الصراع المذهبي حوّل الإيمان إلى عدوان. وحوّل الله رئيساً لحزب، بينما هو بكونيته العظيمة رب العالمين.

قبول الشيب والهزم عند الجاهليين (قراءة نفسية لشعراء المعلقات)

د. عزيز الأشقر

الإنسان عنها في كل مكان وزمان، فقد زخر الأدب الجاهلي، وتحديدًا المعلقات الجاهلية، بمواقف وجدانية طاولت هذا الموضوع وعبرت عنه بشتى الطرق، إذ كان للشيب في ذاك العصر وقع خاص جعله أكثر وطأة وقسوة نظرًا لما كان عليه نمط الحياة آنذاك بقيمه ومعتقداته حتى قيل: «ما بكت العرب على شيء بكاءها على شبابها، وما بلغت ما يستحق»^(١)، فالشاعر الهرم قد فقد هويته الذاتية، فقد «الأنا» المحورية – الشابة، وأضحى في حالة بحث عن هوية جديدة تتقبله ويتقبلها.

وإذا كان قد ذهب معظم الدارسين إلى البحث في الآثار النفسية السلبية التي خلفها الشيب، وصوروا الانحدار الاجتماعي والحياتي الذي ألم بالشعراء الجاهليين، فإننا سوف نتناول في هذه الدراسة مظاهر

الأدب العربي سجّل جامع لتاريخنا وحضارتنا، وصورة صادقة لكل ما مرّ على أمتنا من تاريخ مشرق أو مظلّم، وما أصابها من تقدّم أو تخلف، وقوّة أو ضعف، وارتفاع أو انتكاس، إنّه تراثنا الذي نعتمد عليه ونعتزّ به.

لقد صور هذا الأدب الحياة الجاهلية في صحرائها المقفرة وقبائلها وعصبيّاتها وحروبها القاسية، فالأدب الجاهلي هو أصل الأدب في عصوره المختلفة، وما من صورة في الحياة الجاهلية نبضت بها النفس الإنسانية واختلجت بها الطبيعة البشرية إلاّ وكان الأدب سجلاً أميناً ومصوراً دقيقاً.

ولمّا كان الإحساس بسطوة الدهر وهيبة الشيوخوخة من المشاعر التي عبّر

(١) محمّد بن يزيد، المبرّد: الفاضل، تحقيق عبد العزيز الميمني، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٥٥، ص٧٣.

قبول شعراء المعلّقات تقدّمهم في السنّ، وكيفية تدرّجهم النّفسيّ وصولاً إلى هذا القبول، ومن ثمّ تعاملهم مع واقعهم الجديد وتشكيل «أنا» جديدة تتكيّف مع الحاضر وتقبله.

ونشير في هذا السّياق إلى أنّ مصطلح «القبول» بحدّ ذاته، لا يعني الاستمتاع بهذه المرحلة الجديدة من العمر والترّحيب بها، إنّما توافر الاستعداد الدّهنيّ الكامل لقبول هذه المرحلة، بحسناتها وسيئاتها، والاعتراف بآثارها النّفسيّة والجسديّة، وتقبّل انقضاء زمن الشباب والفتوّة، وبالتالي التّعامل مع الذات ومع الآخرين انطلاقاً من هذا الواقع.

ومن ثمّ فقد قام الشعراء الجاهليّون عموماً، وشعراء المعلّقات تحديداً، بخطوات نفسية تبلورت في صورهم الشعريّة التي سنستعرضها في دراستنا، من شأنها أن تبعث الطّمأنينة فيهم، وأن تحرّرمهم تدريجياً من الحزن ومن القيود التي تربطهم بالماضي والتي تحول دون تخطّيمهم الواقع وقبوله، وصولاً إلى إعطائهم الدافع المؤدّي إلى تكوين «أنا» جديدة تمثّل الواقع الجديد. وفي سبيل مقارنة هذه الخطوات، كان لا

بدّ من اللّجوء إلى المنهج النّفسيّ^(١)، الذي يستمدّ آلياته النقديّة من نظريّة التّحليل النّفسيّ، بحيث يعتبر أنّ النّص الأدبيّ مرتبط بلاوعي صاحبه، وكذلك الاستعانة بالمنهج التّاريخيّ الذي يعوّل على دور البيئّة والتّاريخ في الأدب والشّعور^(٢)، بالإضافة إلى المنهج الوصفيّ التّحليليّ الذي يصف الظّواهر في تطوّرها ويحلّها^(٣).

وعليه، فمن الشعراء من حاول أن يستنبط من الهرم والشّيوخوخة صوراً إيجابيّة تُبقي على حضوره وتميّزه في بيئته، فلجأ إلى الشّعور الحكميّ (أولاً)، ومنهم من عاد إلى ذكريات الماضي المؤلمة وذكرى الحبيبة التي صدّته أو هجرته، ليجد في شيخوخته الحاضرة واقعاً أكثر أماناً وراحة، فكان الوقوف على الأطلال وذكر الحبيبة وسيلة لتشويه صورة الماضي والإعلاء من صورة الحاضر (ثانياً)، ومنهم أخيراً من أدرك اقتراب المنيّة الحتميّة فلجأ إلى الخمر والسّكر بغرض نسيان واقعه المرير، ما شكّل قبولاً ضمناً بالمشيب واعترافاً بالشّيوخوخة التي تؤذّن بالرحيل (ثالثاً).

(١) يوسف وغيلسي: مناهج النّقد الأدبي، جسر للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط١، ٢٠٠٧، ص٢٢.

(٢) عبد الرّحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٩٧٧، ص١٤٠.

(٣) المرجع نفسه، ص٧٨.

١ - شعر الحكمة في التعبير عن قبول الشيب

لقد أورد العديد من شعراء المعلقات صوراً وجدانية في أشعارهم تصطبغ بطابع حكمي، حاولوا من خلالها مقارنة الواقع بطريقة عقلانية، تخلو من الرعونة والانفعال، تُظهر تقبلاً ضمناً أو صريحاً للواقع، على غرار زهير بن أبي سلمى الذي أورد في معلقاته خلاصة تجربته التي اكتسبها خلال حياته، فصاغها بقالب حكمي لا يخلو من النفحة التأملية^(١):

سئمت تكاليف الحياةِ ومَنْ يعيشُ
ثمانينَ حَولاً لا أباً لكِ يسأمُ
وأعلمُ ما في اليومِ والأمسِ قبله
ولكنني عن علمٍ ما في غدٍ عمِ
رأيتُ المنايا حَبَطَ عشواءِ مَنْ تُصبِ
ثمتهُ ومَنْ تُخطئُ يعمّرُ فيهمِ
ومَنْ لم يصانعِ في أمورٍ كثيرةٍ
يُضرسُ بأنيابٍ ويوطأ بمَنسِمِ

لقد استهل زهير أبياته هذه، بالتذكير بسأمه من الحياة، رابطاً هذا السأم بسنة المتقدمة التي تخطت الثمانين، فالحياة المديدة أضحت مصدر بؤس عبّر عنه بقوله «لا أباً لك»، فقد أتعبته صعوبات الحياة، وأرهقه عجزه عن احتمال التبدلات المستجدة على حياته.

وإذا كان الهرم بمثابة لعنة حلت عليه، جردته من كل خواص البطولة والقوة التي يمتاز بها الفتیان الأشداء، فإنّ الشاعر يكشف في هذه الأبيات عن فلسفته التي اكتسبها من هذه الحياة المديدة، مُظهرًا ما أبدت له تجربته الطويلة من أساسيات لا بدّ منها لكل امرئ، شياً كان أو فتى للعيش بهناء ويسر.

وفي هذا السياق يمكن القول، إنّ تقدّمه في السنّ هو الذي أتاح لشاعرنا أن يبدي آراءه، وأن يدعي علم الحاضر وجزء ممّا جاء في الأمس، من غير أن يبدو ادّعاءً سخيفاً أو سطحياً صادراً عن فتى أرعن، وأن يكون لحكمه صدى يتردّد بين السامعين، إنّما من غير أن تتيح له خبرته الحياتية ادّعاء علم ما في الغد.

ويؤكد زهير في هذه الأبيات أنّ المنية قد تحلّ في كل أوان، من غير تمييز بين شابّ وهرم، أو رجل وامرأة.

ومن ثمّ، فإنّ تشبيه الشاعر الموت بالنّاقة العمياء (خبط عشواء)، يعكس أبعاداً نفسية لا بدّ من الوقوف عندها، فللنّاقة عند عرب الجاهلية، منزلة عالية، ولها رمزية كبيرة، وبالتالي فاستثارة مشهد الموت مع النّاقة، بما تمثّل من قربها إلى الجاهلي، يهدف إلى تصوير الموت يطاول كائنًا

(١) زهير بن أبي سلمى: ديوانه، تحقيق فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٠، ص ٢٨.

حيوانياً يجاور الإنسان أهميّة وقيمة، وفي ذلك إظهار خوفه من الموت بشكل جليّ وواضح من غير أن يذكره صراحة في قصيدته، ومن غير أن يقرنه بالإنسان بشكل مباشر.

كما نلاحظ استخدام كلمة منية بصيغة الجمع «منايا»، دلالة على تعددية أشكال الموت، ليهيء الإنسان لقبول هذه الحقيقة التي لا مفرّ منها.

وإذا كانت الناقّة ترمز عند الجاهليين إلى الخصوبة والأمومة^(١)، فقد أضحت هنا رمزاً إلى انتهاء الحياة، لا بل أمسى لها رمزيّتان متعارضتان: الحياة والموت، فشكّلت بالتالي وسيلة عبور من الحياة إلى الآخرة.

لقد أورد زهير في معلقته مجموعة حكم أو وصايا، تركز على مبدأ عام يقوم على ضرورة التقيد بها وعدم جدوى الخروج عليها، فليس للإنسان أن يعدلّ من نمط السلوك القويم، كما أنّ اكتساب الحكمة لا يرتبط بالتقدم بالسنّ، إنما تبدأ بذارها منذ عهد الشباب لتنمو مع نموّه ونضجه،

وبالتالي على الإنسان أن يعمل على تطوير قدراته ومعارفه من غير تأجيل إلى الغد^(٢):

وَأَنَّ سَفَاهَ الشَّيْخِ لَا حِلْمَ بَعْدَهُ
وَأَنَّ الْفَتَى بَعْدَ السَّفَاهَةِ يَحْلُمُ

تبدو من خلال هذا البيت نظرة زهير إلى الشيب والفتوة في آن، فالشيب إذا كان جاهلاً سفيهاً لم يُرجّ حلمه، لأنه لا حال بعد الشيب إلا الموت، والفتى وإن كان نزقاً سفيهاً أكسبه شبيهه حلمًا ووقاراً^(٣).

إذاً، يذهب زهير في هذا البيت إلى ما أوردناه حول ضرورة التفكير والتأمل واقترانهما بالتجربة والعمل ليصل إلى مرحلة الحكمة التي تخوله رؤية الحياة من منظور جديد، ولكنّ شاعرنا يُسبق موقفه هذا بمجموعة أبيات يضمنها نظرتة الخاصة في مختلف المجالات الحياتيّة والاجتماعيّة، ويؤكد على وجوب التقيد بوصايا والعيش في نطاقها، فمن شأن ذلك أن يضمن للإنسان صون عرضه وأمنه وذاته^(٤):

وَمَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسِبْ عَدُوًّا صَدِيقَهُ
وَمَنْ لَمْ يُكْرَمْ نَفْسَهُ لَمْ يُكْرَمْ
وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ

(١) نصرت عبد الرحمن: الصورة الفنيّة في الشعر الجاهليّ في ضوء النقد الحديث، مكتبة الأقصى، الأردن، ١٩٧٦، ص ١٦٨. أنظر كذلك: علي البطل: الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط ٢، ١٩٨١، ص ١٥١-١٥٢.

(٢) زهير بن أبي سلمى: ديوانه، ص ٢٩.

(٣) أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني: شرح المعلقات السبع، مكتبة المعارف، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤، ص ١١٤.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٨.

وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعَلِّمُ
وَكَأَنَّ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبِ
زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ
لِسَانُ الْفَنَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ
فَلَمْ يَبْقُ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالِدَمِّ

يتبدى لنا من خلال هذه الأبيات وجوب اقتتران الأقوال بالأفعال، ليكسب المرء الاحترام في مجتمعه، فالشجاعة تقترب بالأفعال وليس بالأقوال فحسب، وعلى أفكار المرء وتوجهاته أن تتصف بالراقي والنزاهة، ذلك أن الاغتراب والتخلي عن الديار يكسبان الأصدقاء المزيّفين، كما أن خليفة المرء تُعلم مهما سترها، والقول قد يكرّم المرء أو يكشف نقصه، فالإنسان بأصغريه: قلبه ولسانه^(١).

لقد سخر الشاعر قدراته الشعرية لإعادة تموضعه اجتماعياً، دفاعاً عن واقعه الجديد، فقد قرن قيمة الإنسان بالمبادئ الخلقية والقيم الإنسانية التي يحيا بها، والتي تخطت مكانتها مكانة المقدر الجسدية والقوة، وأضحت منزلة الإنسان تُحدّد من خلال الحفاظ على وجوده المعنوي، والعيش بحسب نظم مبدئية تكسبه الاحترام، ما مكن الشاعر من الحفاظ على منزلته الاجتماعية لا بل الارتقاء بها، فهو صاحب قيم وأخلاق، وفقدان المقدر

الجسدية والقتالية لا يقلل من حضوره الذهني والمعنوي، وبذلك فقد تجنّب تهمة الجبن التي كانت تلقى على من لا يحمل السلاح أو يعجز عن خوض الحروب والتفاخر بطولاته، فالفضل للقيم والأخلاق وليس للقوة والشجاعة.

إذاً، لقد كان الشعر الحكمي ملاذ زهير لإثبات وجوده والحفاظ عليه، والإحساس بذاته بعدما غلبه الشيب وأفقدته الإمكانيات الجسدية التي كان يتحلّى بها في شبابه، فقدّم ذاته بصورة جديدة، لا تتماهى وصورة الفتوة الجاهلية والفروسية الجاهلية التقليدية، تركز على إمكانية الحفاظ المرء على شجاعته وبطولاته من خلال حكمته ورضانته، وإن تكن قدراته الجسمانية لم تعد تسمح له بذلك حسب المفاهيم الجاهلية.

نستنتج من ذلك، أنه قد أضحي للشعر الحكمي دور جديد يقوم على محاولة قبول ما هو غير مقبول فعلياً، وتخطي الصعوبات والمحن النفسية التي يعاني منها الشاعر، وإظهاره بصورة البطل الشجاع، وبذلك نرى أنّ هذه الأبيات تشكل تمجيداً للشجاعة المعنوية القائمة على الحكمة والمعرفة والرضانة، والحياة وفق قيم أخلاقية عالية، كما نرى فيها تقديمًا للذات بصورة جديدة،

(١) الزوزني: شرح المعاني السبع، ص ١١٤.

تتخطى أحكام الآخرين ونظرتهم إليه باعتباره هرمًا ضعيفًا، لا بل على العكس تمامًا، فشجاعة المرء وقوته تكمنان في جنباته المعنوية والداخلية والنفسيّة.

أخيرًا يمكن القول في هذا السياق، إنّ هذه الأبيات الحكيمية قد أسهمت في عملية تخطي الحزن على فقدان الشّبَاب، ومهدت لقبول هذه الخسارة، إذ بالعودة إلى تحليل علم النفس ظاهرة تعامل الإنسان مع الحزن الناتج من المصائب أو الصّدّامات، فإنّ المرء يمرّ بمراحل نفسيّة خمس في مسيرته إلى قبول واقعه^(١)، بدءًا بالإنكار الذي يشكّل دفاعًا مؤقتًا للفرد، ورفضًا مطلقًا للواقع المستجدّ، فالغضب ثانيًا، بحيث أنّ الدّخول في هذه المرحلة من شأنه أن يجعل الفرد يدرك أنّ عملية الإنكار لا يمكن أن تستمرّ نتيجة الغضب الممزوج بالأسى والحقد على ما آلت إليه الأمور، وصولاً إلى مرحلة المساومة ثالثًا، التي يتمسك فيها الفرد بالأمل، معتقدًا بإمكانية العودة إلى سابق عهده، وتجنّب سبب الحزن، وكأنّه يحاول أن يقيم نوعًا من التّوافق أو التّسوية مع القدر، لينتقل رابعًا إلى مرحلة الاكتئاب التي تدخله في دوامة الإحباط، فيلزم الصّمت،

ويرفض التّخالط الاجتماعي ويتوقع على ذاته، فيبدأ عندئذٍ بالاعتراف بالواقع، وتبدأ ملامح التبدّل في الشّخصيّة والنّظرة إلى الحياة، ليصل أخيرًا إلى مرحلة القبول، وهي مدار بحثنا، بحيث يبدأ الشّخص بالتّصالح مع واقعه، وقبول ما أصابه من وهن وعجز، فيعود الهدوء إليه والطمأنينة العقلية والنفسيّة، وبالتالي يتقبّل الشّخص حالته ومصيره وتنتهي المقاومة^(٢).

ومن ثمّ فإنّ الشّاعر، بعد أن مرّ بالمراحل الأربعة الأولى تراه قد وصل إلى المرحلة الأخيرة، مرحلة القبول، ويحاول من خلال تجاربه وحكمه إعادة بناء «أنا» جديدة، تتكيّف مع الواقع الجديد الذي يعيشه، قوامها البصيرة والحكمة والقوّة المعنويّة لا قوّة السيف وشجاعة الفتیان.

من جانب آخر، فقد ذهب بعض الشعراء إلى الإقرار بأنّ الشّيخوخة، لا بل الرّمّن بحدّ ذاته، ما هو إلّا أفق جديد يمهد للموت الحتمي الذي ينهي بطبيعة الحال كلّ حيّ، يقول عمرو بن كلثوم^(٣):

وإنّا سوف نُدرِكُنَا المَنَايا
مُقَدَّرَةٌ لَنَا وَمُقَدَّرِينَا

(١) Elisabeth Kubler - Ross, On Death and Dying, Simon & Schuster/Touchstone, New York, 1969.

(٢) أحمد عبد الخالق: قلق الموت، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١١١، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨، ص ١٢٦.

(٣) عمرو بن كلثوم: ديوانه، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩١، ص ٦٦.

تبدو حكمة الشاعر مستمدة من إدراكه استحالة الهروب من القدر المحتوم، ومن عدم جدوى مواجهته، وبالتالي عدم القدرة على تحديد ما سيحمل الغد^(١):

وإنَّ غداً وإنَّ اليومَ رهنٌ
وبعدَ غدٍ بما لا تعلمينا

فالغد رهن بما لا يحيط علمه به، وقد يأتيه بما لا يعلم من الحوادث، وبذا يتكشف قبول الشاعر بما يحمل المستقبل، واستسلامه لقدره، فيبدو جلياً انتهاء مقاومته للشيب والهزم، واستعداده الكلي لما يأتي في الغد.

أمّا عبید بن الأبرص، فقد حاول التخفيف من حدة الواقع بإقراره أنّ واقعه أمر طبيعي وهو من سنن الطبيعة، وليس أول من واجهه ولن يكون الأخير^(٢):

فإنَّ يَكُنْ حالَ مِنْها أَجمَعُها
فلا بَدِيٍّ ولا عَجيبُ
أوْ يَكُ أَقْفَرَ مِنْها جَوْها
وعادَها المَحْلُ والجُدوبُ
وكلُّ ذي نِعمَةٍ مَخْلوسُ
وكلُّ ذي أَمَلٍ مَكْذوبُ
وكلُّ ذي إبِلٍ مَوروثُ
وكلُّ ذي سَلْبٍ مَسْلوبُ

وكلُّ ذي غَيْبَةٍ يَؤوبُ
وغائبُ المَوْتِ لا يَؤوبُ

فعبید بن الأبرص القانع بأنها ليست أول أرض خلت من أهلها وأصابها القحط بعد تفرّق أهلها حتّى يعجب لها، فالموت يأتي على الجميع، وكلّ ذي نعمة سيفقد نعمته، وكلّ مواصل لن يحقق كلّ آماله، وتأسيساً عليه، كلّ شاب سيفقد شبابه، وكلّ فتى سيحول هرمًا يومًا، فلمّ التعجب على تغيّر الأحوال، وبذلك يؤكّد الشاعر عبثيّة الشكوى والبكاء، وفقدان الحبيبة والشباب إنما يعني أنّه قد تمتّع بهما ذات يوم، لذا عليه بالفرح وتقدير ما قُدّر له، فكلّ غائب يعود إلى أهله، أمّا من غيبه الموت فلا رجعة له، وهذا ما يحدو بنا إلى القول بقبول الشاعر الموت ومن قبله الشيب والاعتراف بسطوتهما.

خلاصة القول، إنّ استفاضة الشعراء في التعبير عن نظرتهم إلى الحياة، وبثّ عصارة تجاربهم وخبراتهم، وإيراد أفكارهم الحكمية، ليست إلا وسيلة لإثبات خيارهم المتمثّل بمقاومة الحزن والتكيّف مع الواقع، أفليس قبول واقع الموت وانتظار حتميته يشكّل إذعانًا صريحًا للشيب واعترافًا بمفاعيله؟

(١) عمرو بن كلثوم: ديوانه، ص ٦٧.

(٢) عبید بن الأبرص: ديوانه، تحقيق أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤، ص ٢١.

٢ - الوقوف على الأطلال وتذكّر الحبيبة: عسر الماضي وسيلة لقبول الشيب

إذا كان الوقوف على الأطلال هو تقصّد الشّاعر استهلال قصيدته بذكر الديار والدّمّن والآثار: فبكى وشكا وخاطب الرّبّع واستوقف الرّفيق، ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الطّاعنين عنها^(١)، فإنّه في الواقع يمثّل بداية القبول أو العمل الفعليّ لتقبّل الشّاعر تقدّمه في السنّ، إذ إنّه يجسّد في شعره اندثار ذاك الماضي المثاليّ، ذلك أنّ الآثار التي يمعن الشّاعر نظره فيها في حاضره لا تمتّ بصلة لما في مخيلته من ذكريات محفورة من الماضي حين كان يضجّ بالحياة، فتراه اليوم قد أصبح خاليًا، عقيمًا موأنا، ومهما يكن من أمره فهو لن يعود يومًا إلى حالته السّابقة، الأمر الذي دام طويلًا قبل أن يدركه الشّاعر ويسلمّ به فعليًا. لقد حاول لبّيد بن ربيعة أن يعيد بعث هذا الطلّل، ويجدّد صورته، يقول في معلّقة^(٢):

وجلا السّيول عن الطلّول كأنّها
زبرٌ تجدُّ متونها أقلامها
فوقفتُ أسألها، وكيفَ سألنا
ضمًا خوالد ما يُبينُ كلامها

لقد كشفت السّيول عن أطلال الديار فأظهرتها بعد ستر التّراب إيّاها، فكأنّ الديار كتبتْ تجدّد الأقلام كتابتها، فشبهه الشّاعر كشف السّيول عن الأطلال التي غطّاها التّراب بتجديد الكتاب سطور الكتاب الدّارس، ومن ثمّ وقف الشّاعر يسأل الطلّول عن قطنانها ولكن كيف يُجدي هذا السّؤال وكيف ينتفع به السّائل^(٣)؟

وفي مقارنة أوليّة بين الطلّل والشّيب، يمكن القول إنّ الأول يرمز إلى الحاضر الذي يحاول إعادة كتابة الماضي وتصويره، والسّؤال عمّن كان يمثّل حاضر ذلك الماضي يومًا، لكنّ الشّاعر يعبر عن واقع شبيه بكتابة جديدة تتطابق والحال، تنسجم مع «الأنا» الجديدة التي تشكّلت لدى الشّاعر، وبذلك يبدو لنا جليًا القبول النّفسي للشّيب ومفاعيله في هذّين البيّتين، لا سيّما أنه عادةً ما تنحو الذات الإنسانيّة عند المشيب إلى إعادة تسطير الماضي بتصوير قد يخرج عن سياقه الحقيقيّ، تجميلاً لذلك الماضي، أو إعلاءً من شأن الشّاعر، ولكن في الحالّتين ما كان ذلك ليحصل لو لم تحلّ الشّيوخة التي تبيح للشّاعر رسم «أنا» جديدة تقبل الماضي وتقبل الحاضر في آن.

(١) ابن قتيبة: الشّعْر والشّعراء، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤، ج١، ١٩٦٤، ص٢٠.

(٢) لبّيد بن ربيعة: ديوانه، تحقيق حنا نصر الحّيّ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤، ص٢٠٤.

(٣) الرّوزني: شرح المعلّقات السّبع، ص١٥٩-١٦٠.

أما الحارث بن حلزة اليشكري، فيكاد لا
يمسك دمه حين خلت تلك المواضع من
حبيبته، غير أنه مدرك بأنه لا طائل في
البكاء، يقول^(١):

لا أرى من عهدتُ فيها فأبكي الـ
يومَ دلها وما يُحيرُ البُكاءُ
ويندرج هذا البيت في السياق عينه الذي
ورد سابقاً، فالبكاء على الأطلال، وعلى
الحبيبة، والماضي الذي لن يرجع، ما هو
في الواقع إلاّ قبول بالشيب الحاضر،
فالبكاء لا يجدي على الشاعر شيئاً، ولا يردّ
على صاحبه فائتاً، فأى نفع يُرجى منه
سوى الاعتراف بانقضاء ذلك الزمن، بحلوه
ومرّه، وبحلول زمن جديد لا بدّ من قبوله
والتكيّف معه.

وإذا كان الشاعر يرى في الماضي الذي
يعود به إلى حبيبته ومغامرات العشق التي
جمعتها زمنًا جميلاً، يرمز إلى السعادة
والحبّ، فإنّ هذا الشّعور يعود إلى ذكرى
الشباب والحبّ وليس إلى العلاقة بحدّ
ذاتها، أو وفاء الحبيبة وتمسّكها به، فلطالما
اشتكى الشعراء من صدّ الحبيبة وقسوة
القدر وصعوبة الواقع، فما الذي يجعل
الشاعر يرى في ذاك الماضي المليء
بالخيّبات ذكرى جميلة سوى أنه يرجع به
إلى زمن لن يعود مجدداً؟

ومن ثمّ، فإننا نرى الأعشى يصف
مرحلة حبّ الشباب بمرحلة الجنون^(٢):

عَلَّقْتُهَا عَرَضاً، وَعَلَّقْتُ رَجُلًا
غَيْرِي، وَعَلَّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ
وَعَلَّقْنَهُ فَتَاةً مَا يُحَاوِلُهَا
من أهلها مَيِّتٌ يَهْذِي بِهَا وَهَلُ
وَعَلَّقْتَنِي أُخَيْرَى مَا تَلَايْمُنِي
فَاجْتَمَعَ الْحُبُّ حُبَّ كُلِّهِ تَبِلُ
فَكَلْنَا مُغْرَمٌ يَهْذِي بِصَاحِبِهِ
نَاءٍ وَدَانٍ، وَمَحْبُولٌ وَمُحْتَبِلٌ

يضحك الأعشى من أمره وأمر الناس،
فهل أعجب من هذه المصادفات التي ألفت
بين هذه المجموعة من الحبّ الفاشل؟ فهو
متيّم بـ «هريرة» التي تحبّ سواه. ومن
العجب أنّ هذا الذي تحبّه هريرة مولع
بأخرى. أمّا شاعرنا الذي لم تلتفت إلى حبه
«هريرة»، ففتاة أخرى قد تعلق قلبها به،
ولكنّها لا تلائمه.

تشكّل الأبيات الأربعة نوعاً من الإيقاع
الدائري، أو الرّقصة الدائريّة، بحيث أنّ
الحبيبتين لن يلتقيا يوماً، فتكرار كلمة «علق»،
واستخدام كلمة «تبل» (جنون)، و«مغرم»،
و«محبول» (مصيد) و«وهل» (زاهب العقل)
من شأنه أن يوحي إلينا بهذا الإيقاع
الدائري الذي لا يؤدّي في الواقع إلى مكان،

(١) الحارث بن حلزة اليشكري: ديوانه، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩١، ص ٢٠.

(٢) الأعشى، ميمون بن قيس: ديوانه، تحقيق محمّد حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، لا ت، ص ٥٧.

ولا يفضي إلى شيء، إذ لا يوجد سوى ذلك الإحساس بالحبّ والشباب، الذي يرمي الشاعر إلى التأكيد على زواله، وبالتالي استذكار شبابه المنصرم.

ويذهب عنتره بن شدّاد إلى ما ذهب إليه الأعشى في وصف عشقه لحبيبتة وشغفه الذي أصابه على حين غفلة، بالرغم من القتال والمعاناة بين حيّه وحيّها، إلا أنه باقٍ على حبّها، يقول^(١):

عَلَّقْتُهَا عَرَضاً وَأَقْتُلُ قَوْمَهَا
زَعَمًا لِعَمْرٍ أَبِيكَ لَيْسَ بِمَرْعَمٍ

فإذا كانت أسباب التّباعد عند الأعشى عدم تبادل الحبّ بين أفراد مجموعة العشق تلك، فأسباب الموانع تختلف عند عنتره بن شدّاد بحيث أنّ جنونه يبقيه على حبّها بالرغم من أن حبّها محرّم، لعلّة التّقاتل وقومها.

ولكن إذا أمعنا النظر قليلاً، نجد أنه من النّادر أن تتّصف العلاقة مع الحبيبة بالسعادة، ومن النّادر أن يكتمل مشهد الحبّ بينهما، فقد يُصدّ الشاعر من غير أمل في استمالة الحبيبة أو كسب ودّها، وقد يُفرّق بينهما فيمنع من الارتباط بمحبوبته، من غير أن يملك الشّاعر أي قدرة على تغيير هذا الواقع، يقول الأعشى^(٢):

أَنْ رَأَتْ رَجُلًا أَعْشَى أَضْرَّ بِهِ
رَيْبُ الْمَنُونِ، وَدَهْرٌ مَفْنِدٌ خَبِلُ

فالأعشى هنا، الذي يخاطب نفسه بصيغة الغائب، يحاول تعليل ازدياد حبيبتة «هريرة» له، وتبرير استقبالها المجحف، ولربما يعود سبب ذلك إلى تعاميتها عن مشاعره، أو إلى القدر الذي لم يُخالفه، وفي الحالتيّن هو ليس مسؤولاً عن رفضها، فالدهر مفنّدٌ خبيلٌ فاسدٌ، لم يسعفه ولم يعنه، فعمد الشّاعر عندئذٍ إلى الدّفاع عن نفسه والتّعبير عن ظلم الحبيب الذي صدّه.

فالشّاعر إذًا، في وحدته الحاضرة، يدخل مرحلة الشّعور بالنّقص، وهو على يقين أنها ستدوم طويلاً، وستؤثّر بالتّالي على وجوده وحضوره، وسترتدّ حكماً على جميع خياراته ومواقفه، لذا فقد أمسى بحاجة إلى إيجاد وسيلة تؤمّن له الخروج من أشجانه، واستعادة كيانه، والتّخفيف من وطأة هذا التحوّل الحاصل في حياته، بعيداً من الذكريات التي تسكنه والحنين إلى زمن ولّى ولن يعود.

هذه العودة إلى الماضي، إلى زمن الشباب، تُسجّل عودة إلى نقطة الانطلاق في تجواله الدائري المستمرّ في متاهات الذّاكرة، كما تسجّل انتهاء هذا التّجوال

(١) عنتره بن شدّاد: ديوانه، تحقيق مجيد طراد، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٢، ص ١٥٢.

(٢) الأعشى، ميمون بن قيس: ديوانه، ص ٥٨.

وعودة إلى الواقع: فتبدأ عملية الحداد على زمن الشباب، وينغمس الشاعر لا إرادياً في مرحلة قبول الحاضر والتكيف معه عوضاً عن الاستمرار العبثي في العودة إلى ذكريات الماضي والحنين إليه، فتراه تارةً يثور على الحاضر ويتمسك بذكريات الأمل وطوراً يعود إلى واقعه فيهدأ ويستكين، وقد يمثل عبيد بن الأبرص خير دليل على ذلك في قوله^(١):

عَيْنَاكَ دَمْعُهُمَا سَرُوبٌ
كَأَنَّ شَأْنِيهِمَا شَعِيبٌ
وَاهِيَةٌ أَوْ مَعِينٌ مَمْعِنٌ
مِنْ هَضْبَةٍ دُونَهَا لَهُوبٌ
أَوْ فَلَاحٌ وَادٍ بِبَطْنِ وَادٍ
لِلْمَاءِ مِنْ تَحْتِهَا سَكُوبٌ
أَوْ جَدُولٌ فِي ظِلَالِ نَخْلِ
لِلْمَاءِ مِنْ تَحْتِهَا قَسِيبٌ

فهذا شاعرنا يصف في هذه الأبيات دموعه، مستخدماً إحياءً يقوم على صورة المياه التي تنسكب باستمرار، ببطء ثم بغزارة لتعود إلى التباطؤ مجدداً، وكأنه يعكس نوبة بكاء مصوراً مراحلها بدقة، بحيث تبدأ طفيفة، لتزداد قوة فتبلغ حدّها،

ليعود إلى هدوئه مجدداً، كذلك هي حال الشاعر ثورة على الشيخ المائل أمامه، ثم استكانة وتقبل.

ومن ثمّ يكتمل مشهد القبول أكثر فأكثر حين يعاتب الشاعر نفسه ويلوم ذاته على التّصابي^(٢):

تَصْبُو وَأَنْتَى لَكَ التَّصَابِي؟
أَنْتَى وَقَدْ رَاعَكَ الْمَشِيبُ

فالشاعر باستخدامه فعل «تصبو»، إنما قد يقصد أحد معنيين اثنين: الأول هو الصّبوة أي جهلة الفتوة واللّهو من الغزل^(٣)، والثاني الصّبوة جمع الصّبي أي الصّغر والطفولة^(٤).

ويذهب التبريزي في شرحه إلى أنّ الشاعر قد استخدمه بمعنى الحبّ، بحيث يتساءل كيف له أن يجرؤ على الحبّ وتحمل تبعات الهوى وقد غزا الشيب مفرقه، وبلغ من السنّ تقدماً يحول دون ذلك^(٥)، وما هذا التساؤل سوى استسلام للشيب وقبول بسلطته.

من جهة أخرى، لقد تميّز وصف المغامرات العاطفية في شعر الأعشى، إذ جاء بشكل حوار بين الشاعر ومحبوبته، وهو ما لم نعهده في شعر سواه، بحيث

(١) عبيد بن الأبرص: ديوانه، ص ٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤١.

(٣) ابن منظور: لسان العرب، بيروت، مط دار صادر ودار بيروت، لا.ت، مادة صبا.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) شمس الدين التبريزي: شرح القصائد العشر، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٥٣٧.

أعطى المرأة دورًا إيجابيًا فاعلاً في العلاقة،
فقول الشاعر: «قالت هريرة» يحمل «هريرة»
مسؤولية إنهاء العلاقة بينهما، والتأكيد على
أنها لم تبادله المشاعر^(١):

قَالَتْ هُرَيْرَةُ لَمَّا جِئْتُ زَائِرَهَا
وَيَلِي عَلَيْكَ، وَيَلِي مِنْكَ يَا رَجُلُ^(٢)

ومن ثمّ يعلّل الأعشى من خلال الأبيات
الثلاثة الآتية رفضها له، ونلاحظ قبولا لهذا
الرفض، قبولا ما كان لولا إدراكه أنّ الزائر
الأبيض قد حلّ ضيفا، وأنّ نكران هزيمة
الماضي لم يعد مبررا، يقول^(٣):

إِمَّا تَرَيْنَا حُفَاةً لَا نِعَالَ لَنَا
إِنَّا كَذَلِكَ مَا نَحْفَى وَنَنْتَعِلُ
فَقَدْ أَخَالَسُ رَبَّ الْبَيْتِ غَفْلَتُهُ
وَقَدْ يَحَانِزُ مِنِّي ثُمَّ مَا يَيْلُ
وَقَدْ أَقْوَدُ الصَّبِيَّ يَوْمًا فَيَتْبَعُنِي
وَقَدْ يُصَاحِبُنِي ذُو الشَّرَّةِ الْغَزْلُ

تتبدى لنا من خلال هذه الأبيات القناعة
الجديدة التي تشكلت عند شاعرنا، فإذا كان
حزينا ومرفوضا، فعلة ذلك الدهر الذي تارة
ينصفه ويعزّه، وأطوارا يحرمه ويذله،
فتعاقب الدهر عليه، وإكثاره من نوائبه
وصروفه، يلزمه موضعا ليس له فيه سوى
انتظار تبدله وقدوم ما هو أفضل.

وبذلك نرى أنّ ما من شأنه أن يبدو
وصف مغامرات عاطفية، وتفاخرا بفحولته،
ليس في الواقع سوى وسيلة للاعتراف
بصدّ هريرة له وقبوله هذا الصدّ، لا بل
عرضا للمبررات التي دفعتها إلى قرارها،
الأمر الذي عجز عن القيام به أيام الشباب،
وما الاعتراف بالهزيمة اليوم إلا دليل على
محو الماضي وآثاره النفسية من ذات
الشاعر، وقبوله الشيب، فزمن الشباب قد
انقضى إلى غير رجعة، والتّصالح والماضي
دليل على انتصار الشيب الذي جعله يقبل
في آن ماضيه وحاضره.

وبالعودة إلى التركيب اللفظي في البيت
الأول، وتحديداً في شطره الثاني، «ما نحفى
وننتعل»، تبدو جليلة اللّعبة اللّغوية التي قام
بها الشاعر، والتي تؤكد ما ذهبنا إليه لجهة
قبوله الحاضر من خلال قبوله الماضي
أولاً، فالشاعر الذي يقرب بصدّ هريرة له، لا
يجد الشجاعة للاعتراف بذلك بشكل صريح
ومباشر، فاستخدم صيغة لغوية تحتمل
وجهين: الأول، وبحسب التبريزي، الذي
يرى أنّ «ما» هي زائدة للتوكيد، بمعنى تارة
نحفى وتارة ننتعل^(٤)، في حين أنّه إذا
ذهبنا إلى اعتبار «ما» نافية، بمعنى أنّه لا
يحفى أبداً، وإنما دائماً ينتعل، دلالة على

(١) نوري حمودي القيسي: الحوار في القصيدة الجاهلية، مجلة آفاق عربية، عدد ٦، ١٩٧٤.

(٢) الأعشى: ديوانه، ص ٥٧.

(٣) التبريزي: شرح القصائد العشر، ص ٤٩٣.

اليسر، فيختلف المعنى اختلافاً كلياً، وبذلك نجد الشاعر قد أوجد حلاً يخرج منتصراً على الماضي وعثراته، منتصراً على القدر نفسه الذي حرمه «هريرة».

لقد تشكل انتصار الشاعر في كونه هو مَنْ يوجّه العاطفة ومَنْ يقود الشَّغف (أقود الصِّبا)، فهو إن كان ينتظر أمام بيتها (يحاذر)، يراقبه (أخالس)، يقتنص الفرص التي تُتاح له لرؤيتها (غفلته)، فقد حوّل بذلك انكساره إلى افتخار، وخسارته إلى ربح، فهذا إن دلّ على شيء، فعلى قبوله الواقع الحاضر، الذي حوّل فيه هزيمة الأمس إلى نصر مبین، لا بل يدلّ على التمسك بهذا الواقع، فهو رمز الانتصار الذي يعيد إلى الشاعر اعتباره، فالنَّضج والمشيب جعلاه يرى الرِّفض والبُعد بطريقة إيجابية، فما كان صدّاً وهجراً زمن الشباب أمسى نصراً معنوياً للشاعر وخسارة للحبيبة التي لم تقدّر حبّ الشاعر الشابّ.

وكذلك حال عنتره بن شدّاد الذي يشكو صعوبة لقاء حبيبته، بحيث أنّهما يسكنان في موضعين تفصل بينهما مسافة بعيدة، ويستشعر بعزمها على الفراق، فلقاؤهما دونه عقبات عديدة، فبُعد المسافة من جهة، والتقاتل مع أهلها من جهة أخرى، وإزماعها

على فراقه من جهة ثالثة، كلّ ذلك من شأنه أن يسدل الستار على مأساة الماضي، الذي ما يتذكّره بحنين، إلاّ لأنّ الحاضر بشيبيه ووقاره محا آثاره الدفينة في ذاته^(١):

كَيْفَ الْمَزَارُ وَقَدْ تَرَبَّعَ أَهْلُهَا
بِعُنَيْرَتَيْنِ وَأَهْلُنَا بِالْغَيْلِمِ
إِنْ كُنْتَ أَرْمَعْتَ الْفِرَاقَ فَإِنَّمَا
رَمَتْ رِكَائِبُكُمْ بِلَيْلٍ مُظْلِمِ

نستنتج أنّ الماضي لم يكن ممتعاً أو سعيداً، إنّما الذكرى والحنين هما اللذان جمّلاه، وبالتالي فجمال الماضي صنيع الشَّيب، ناهيك عن أنّ بعضاً من آثار الماضي لا يمحوها الزمن، وتبقى محفورة في وجدان الشاعر الذي لا يملك من أمره سوى قبول الحاضر، أملاً أن يكون أكثر هدوءاً وأقلّ إساءة وظلماً.

وبذلك يظهر قبول الشَّيب عند الشاعر، فهو لا يرى في ماضيه سوى العذاب والصدّ والرِّفض، وأمّا الحاضر فيخلو من هذه المواقف ويحميه من الشُّعور بالمذلة والهوان، لا بل يمحو هوان الماضي، وبالتالي فإنّ الشاعر قد فتّش في لاوعيه عمّا يشوّه من صورة الشباب بنظره، ويخدش صورة الحبيبة التي كانت رمز السعادة والفرح يوماً، كلّ ذلك في سبيل إقناع نفسه بأنّ مرحلة الشَّيب هي أكثر

(١) عنتره بن شدّاد: ديوانه، ص ١٥٣-١٥٤.

هدوءاً وأماناً وسعادة، ما يقودنا إلى القول بتقبل الشاعر مرحلة الشَّيخوخة والتَّسليم بحضورها، فبحثه عن محاسن التقدّم في السنّ ما هو إلاّ وسيلة لقبول هذا الواقع.

٣ - شعر الخمريّات: هروب من القبول

لم تخلُ معلّقة من ذكر الخمرة ومفاعيلها، غير أنّ أسباب اللّجوء إليها تباينت ما بين شاعر فتّي وآخر هرم، فاختلفت صورتها وغايتها فيما بينهما. فطرفة بن العبد، الشّاعر الشابّ، لجأ إليها وسيلة للتّباهي والمفاخرة وعرض الذات^(١):

فَإِنْ تَبَغْنِي فِي حَلَقَةِ الْقَوْمِ تَلَقِّنِي
وَإِنْ تَلْتَمِسْنِي فِي الْحَوَانِيَّتِ تَضْطَبِدِ
وَمَا زَالَ تَشْرَابِي الْخُمُورَ وَلَذْنِي
وَبَيْعِي وَإِنْفَاقِي طَرِيفِي وَمُتَلَدِي
إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا،
وَأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمُعَبَّدِ

فالشّاعر الشابّ الذي يجمع بين الجدّ والهزل، ما زال يشرب الخمر ويشتغل باللذات حتّى تجنّبتة عشيرته لما رأت من إتلاف مال ولهو زائد، وهو ما دفع به إلى التّفاخر بهذا الأمر.

بالمقابل، فقد لجأ الشّعراء المعمرّون

إلى الخمرة وسيلة للحزن والتحصّر على الشّبّاب المنصرم، فنرى الأعرشى على سبيل المثال، قد أفرد قسماً من معلّقاته لوصف الخمرة ومجلسها، والحديث عنها، فهذا المجلس يبدأ منذ الفجر، حيث يصحبه غلام له يمتهن الشّواء، ويجيد شوي اللّحم وطبخه وتقديمه بأحسن ما يكون من خفة وسرعة، يقول^(٢):

وَقَدْ عَدَوْتُ إِلَى الْكَانُوتِ يَتَّبِعُنِي
شَاوٍ مِثْلُ شَلُولٍ شُلْشُلٍ شَوْلٍ
فهذا البيت للأعرشى يشتمل على كلّ العناصر الأساسيّة لهذا المجلس، بما فيها رفاق المدام^(٣):

فِي فَنِيَّةِ كَسْيُوفِ الْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا
أَنْ هَالِكٌ كُلٌّ مِنْ يَحْفَى وَيَنْتَعَلُ
نَارَعَتُهُمْ قُضِبَ الرَّيْحَانِ مُتَكِّئاً
وَقَهْوَةً مُرَّةً رَاوُوقَهَا خَضِلُ
لَا يَسْتَفِيْقُونَ مِنْهَا، وَهِيَ رَاهِنَةٌ
إِلَّا بِهَاتِ ! وَإِنْ عَلُوا وَإِنْ نَهَلُوا

وإذا كان صحب الشّاعر فتية شباناً، فهم لا يخلون من الشّجاعة، إذ يشبّههم بسيوف الهند صلابة وقوّة، ينازعهم حسن الأحاديث وطريفها، فإذا أبطأ عليهم السّاقى قالوا هات! وبذلك نرى أنّ للشّاعر مجتمعه

(١) طرفة بن العبد: ديوانه، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصّقال، المؤسسة العربيّة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠، ص٤٢-٤٣.

(٢) الأعرشى: ديوانه، ص٥٩.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الخاصّ، الذي يتألّف من ندمانه والذي يؤمّن له السّعادة والمتعة التي تسليه عن همومه.

وإذا كان البيت الأول يشتمل على معنى غائي يحمل مفهوم النّهاية المحتمّة بحيث رأى النحويّون أنّ «أنّ» مخفّفة واسمها ضمير شأن محذوف، و«هالك» خبر مقدّم، و«كلّ» مبتدأ مؤخّر، في حين رأى آخرون أنّ هناك إضماراً للهاء في «أنّ» وتقديره: أنّه هالك^(١)، فإنّه يتكامل والبيت الذي أوردناه سابقاً:

إمّا تَرِينَا حُفَاةً لَا نِعَالَ لَنَا
إِنَّا كَذَلِكَ مَا نَحْفَى وَنَنْتَعِلُ

فالشّاعر يجدد التّأكيد على رفض «هريرة» له، غير أنّ هذا التّأكيد أضحى أقلّ أسى وسوداويّة كون الخمرة تخفّف من وطأة الحدث ومن قسوته، ما يجعل القبول الفعليّ للواقع يتغلغل إلى ذهنه، بعد أن لعب الخمر دوره في نقل الشّاعر من حال إلى حال، فمرارة الماضي وما أحدثه من خيبات ما كانت لتنقضني، كذلك صعوبة الواقع الحاضر ما كانت لتنجلي لولا تلك الخمرة التي أرتته الأمور أكثر بساطة ويُسراً.

إذاً، لقد شكّل النّدمان مجتمعا خاصّا

بهم، ليس لجهة خصائصه المتعلقة بالمجلس الخمريّ والجوّ الممتع الذي يرافقه فحسب (قضب الرّيحان)، إنّما لعلمهم أنّ الحياة قصيرة، ورغبتهم العارمة في الاستمتاع بكلّ لحظة منها (وهي راهنة)، ولا يكتمل هذا المجلس إلاّ بالغلّمان والراقصات والمغنّيات، الذين يصفهم الأعرشي في معلقته^(٢):

يَسْعَى بِهَا ذُو رُجَاجَاتٍ لَهُ نُطْفٌ
مُقْلَصٌ أَسْفَلَ السَّرْبَالِ مُعْتَمِلٌ
وَمُسْتَجِيبٌ تَخَالُ الصَّنَجَ يَسْمَعُهُ
إِذَا تُرْجِعُ فِيهِ الْقَيْنَةُ الْفُضْلُ
وَالسَّاجِبَاتُ ذُيُولَ الْخَزِّ أَوْنَةٌ
وَالرَّافِلَاتُ عَلَى أَعْجَازِهَا الْعَجَلُ

أمّا عنتره بن شدّاد الذي يشرب الخمر بعد سكون حرّ الهواجر لا فجرًا كالأعرشي، فيلتقي معه في وصف الخمرة ولونها^(٣):

وَلَقَدْ شَرَبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَمَا
رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ
بِرُجَاجَةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أَسْرَةٍ
قُرْنَتْ بِأَزْهَرِ فِي الشَّمَالِ مُقَدَّمِ

فالشّاعر الذي يشرب خمّره بزجاجة صفراء، لم يستطرد كالأعرشي في وصف الغلمان والقينة، فهذا الأخير، وبعد أن شبّه

(١) أحمد بن الأمين الشنقيطي: شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، دار الكتب العلميّة، لبنان، ط ٥، ٢٠١٢، ص ١٢١.

(٢) عنتره بن شدّاد: ديوانه، ص ١٦٧.

(٣) الأعرشي: ديوانه، ص ٥٩.

الرَّجَاجَاتِ بِاللَّالِيءِ، ووصف القينة، يذهب إلى إعلان الهدف من هذا المجلس^(١):

مِنْ كُلِّ ذَلِكَ يَوْمٌ قَدْ لَهَوْتُ بِهِ
وَفِي التَّجَارِبِ طُولُ اللَّهْوِ وَالْغَزْلُ

فالشاعر الذي يصرّح بأنه قد أكثر من اللّهو في تجاربه، ومغازلة النساء، لكأنه يقرّ ضمناً بانتهاء ذلك الزمن، وبأنّ الحاضر يحول دون ذلك النوع من اللّهو، مع ما يشكّل ذلك من تسليم بالشيب، بحيث أنّ الشاعر وإن لم يرق له الضيف الجديد، إلا أنّ هذا الضيف قد أرخى بثقله عليه، وصرف تفكيره عن الأمور التي كانت تشغله زمن الشباب، ليجعله يعترف بعجزه، ولم يبق له سوى الخمر رفيقاً مؤنساً.

يتبين معنا من كلّ ما تقدّم، أنّ الخمر ومجلسه يمثّلان هروباً من الواقع، ووسيلة متعة تنسي الشاعر هموم هذا الواقع، فالسكر هنا ليس عبثياً يقوم به شخص متهور من دون أي غائيّة أو هدف، إنما يهدف حقيقةً إلى تسكين روع الشاعر وتهدئة باله من خلال اللجوء إلى متعة آنيّة، فالخمر عظيم الأثر والمفعول.

فإذا عدنا إلى أصل كلمة خمر لوجدناها مشتقة من فعل «خمر» الذي يعني أخفى

وستر^(٢)، ما يجعلنا نتساءل عن الوجه الخفي لهذا المشروب الذي ينقل الناس من حال إلى حال فيخفي همومهم ويسترها، والذي لم يكشف سرّه سوى الشعراء السكارى بالمشاعر الفيّاضة ذوي القدرة التعبيريّة العالية الذين لجأوا إليه باعتباره وسيلة تسهم في تخطّي الآلام والدموع، وطريقاً سلساً لقبول التقدّم في السنّ والتعامل معه.

وبالعودة إلى بنية المعلّقات، فإنّه من الملاحظ أنّ بنية كلّ معلّقة تقوم على ثلاثة عناصر لا تكاد تعدوها، بحيث تبتدئ كلّ منهنّ بذكر الطلل أو وصفه، ثمّ ذكر الحبيبة ووصفها، ثمّ الانتقال بعد ذلك إلى الموضوع، «فإنّه من الملاحظ أيضاً أنّه لا يُستثنى من هذا النّظام إلا عمرو بن كلثوم الذي خرق العادة ببدء معلّقته بالغزل وبالخمريّات، ثم وصف الطلل وصولاً إلى الغرض المقصود من معلّقته^(٣)»، فقد استهلّ معلّقته بمشهد خمريّ يدور عند الفجر، في خمّارة حيث أمضى الشاربون ليلهم، ذاكرًا فضائل الخمر ومفاعيله بحيث يلين الشارب وينسى همومه وأحزانه^(٤):

تَجُورُ بِذِي اللَّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ
إِذَا مَا ذَاقَهَا حَتَّى يَلِينَا

(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة خمر.

(٣) عبد الملك مرتاض: السبع معلقات، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٨، ص ٦٢.

(٤) عمرو بن كلثوم: ديوانه، ص ٦٥.

وأذ يلتقي عمرو بن كلثوم مع الأعشى
في تشبيه الدمان بأشياء لماعة كالنجوم أو
السيف، فإنه يصرّ على ذكر الحرارة
(حمية) الناتجة عن الخمر، والتأكيد على
مفاعيلها المحرّرة من كل قيود أو أفكار أو
هموم^(٣):

إِذَا صَمَدَتْ حُمَيَّاهَا أُرَيْبًا
مِنَ الْفَتِيَانِ خَلَّتْ بِهِ جُنُونًا
فَمَا بَرِحَتْ مَجَالَ الشَّرْبِ حَتَّى
تَغَالُوهَا وَقَالُوا قَدْ رَوِينَا

وبذلك يصل الشاعر إلى ختام هذا
المجلس، فبعد أن قام الخمر بفعله، وأصبح
التحرّان الفكري والنفسي في أقصاهما،
يتنادى الشاربون إلى التوقّف عن الشرب،
فقد أفضى بهم الخمر إلى النتيجة المرجوة،
فتكامل الصورة في هذا البيت مع تلك التي
أطلقها الأعشى في معلقته^(٤):

لَا يَسْتَفِيْقُونَ مِنْهَا، وَهِيَ زَاهِنَةٌ
إِلَّا بِهَاتِ! وَإِنْ عَلُّوا وَإِنْ نَهَلُوا
فمن خلال هذين البيتين نلاحظ حركة
دائرية متكاملة، فإذا كان بيت الأعشى يرمز
إلى الاستمرار في شرب الخمر، فإنّ عمرو
بن كلثوم يذهب إلى إنهائه، وإذا كان
الأعشى يرى في الاستمرار في معاقره

لقد أشار الشاعر في هذا البيت إلى
معاناته في الحبّ بطريقة ملتوية غير
مباشرة، فتراه يصرّح في شطره الأول أنّ
ألامه قد غفت نتيجة الخمر، وعلّها لن
تستيقظ مجددًا، وبذلك نرى أنّ وظيفة
الخمر هنا مزدوجة، من جهة أولى تسعى
إلى إعانته على التعبير عن حزنه وأساه،
ومن جهة ثانية التأكيد على ضرورة
النسيان وتخطّي الواقع.

ومن ثمّ، فإنّ شاعرنا يمجّد شرب الخمر
ويُعلي من شأنه، ويحتقر من يرضنّ بماله
في سبيل الخمر، لا بل إنها تجعل البخيل إذا
ذاقها يسرف من ماله ويحسن خلقه، يقول
الأعشى^(١):

تَرَى اللَّحْزَ الشَّحِيحَ إِذَا أُمِرْتُ
عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهَيَّنَا

وكذلك فقد وصف الشاعر مفعول الخمر
ذاكرًا الحرارة التي تبتّها في الشارب الذي
تحمرّ أذنيه كالشّهب متى أفرغ كأس
الخمر^(٢):

كَأَنَّ الشُّهْبَ فِي الْأَذَانِ مِنْهَا
إِذَا قَرَعُوا بِحَافَتِهَا الْجَبِينَا
صَبْنَتْ الكَاسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو
وَكَانَ الكَاسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينَا

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) الأعشى: ديوانه، ص ٥٩.

(١) عمرو بن كلثوم: ديوانه، ص ٦٥.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الخمرة سبيلاً لاستمرار النشوة والسعادة وبالتالي التخفيف من وطأة الواقع، لا بل قبوله لما في الخمرة من بعث للنشوة وخلاص من الوعي وآلامه، فإن عمرو بن كلثوم قد ذهب إلى أن مفعول الخمرة في ذهن الشارب، يجعله حين يتوقّف عن الشرب، يرى الأمور ببساطتها وجماليتها، وبالتالي يقبل واقعه نتيجة تأثير الخمر الذي ساعده في تصفية ذهنه وإيضاح صورة حاضره.

فالشاعران، وإن اختلفا في وصف نهاية مجلس الخمر، فهما يتكاملان في الرؤية المتعلقة بقبول الشاعر مشيبه، وما كان هذا القبول ليتمّ لولا الخمرة ومفعولها في ذهنه ونفسيته. فعمرو بن كلثوم الذي يصف حبيبته ومغامراته في تلك المعلقة، هو على يقين أنّ هذه الذكريات سوف تطفو مجدداً حين يزول مفعول الخمر، وبالتالي فهو يستعدّ نفسياً لعودة الأحزان إليه، غير أنّها لن تكون عودة قاسية، فالخمر قد أدّى وظيفته، وقدم إلى الشاعر سعادة تقابل ذلك الحزن، كما أنّه جهّز الشاعر إلى الرحيل، فالتوقّف عن شرب الخمر يؤذن برحيل الشارب سواء أكان رحيلاً من الخمارة أم رحيلاً بمعناه الأبعد، وبذلك فإنّ حزنه على فقدان الشباب لن يكون كما في السابق، لا بل إنّ استعداده للرحيل يؤشّر إلى قبوله المشيب وانتظاره ما بعده.

وبذلك نلاحظ، أنّ الشاعر بلجوثه إلى الخمرات، يلتفّ على التصريح المباشر بحقيقة أوجاعه وأسبابها، وبدا يبدأ بسلوك درب القبول. أمّا في تعرّضه لموضوع الرحيل، فالشاعر باستعراضه خبراته وتجاربه وآلامه وصولاً إلى رغبته في الرحيل يكون قد أدّى حساب حياته، واستعرض أفراحها وأتراحها، ليصل أخيراً إلى التخلّي عن تلك الأحزان، وإلى قناعة أن آلامه ستزول كلياً، وشفقته على ذاته ستزول عند موعد الرحيل، وهذا ما يؤكّد على الاستسلام للواقع وقبول حاضره واستعداده لكلّ ما قد يأتيه في الغد.

صفوة القول، لقد قضت مضاجع الجاهليين عموماً، وشعراء المعلقات بشكل خاصّ، مخاوف معيّنة عبّروا عنها في أشعارهم بطرق مختلفة تتراوح بين التلميح والتصريح، بحيث يمكن اختصار هذه الموضوعات بالوحدة والموت والهرم، مع ما يثير الأخير في نفس الشاعر من ذكرى حتمية الموت ودنوّه.

ومهما يكن من أمر، فإنّنا نرى الشاعر يقف عاجزاً مستسلماً أمام الحواجز المعنوية التي تكبله، سواء أكان الزمن الذي يجتاح شبابه ويفرّقه عمّن يحبّ بغيره وظلمه، أم القدر الذي قد حدّد اجتماع

بحقيقة أنه قد أصبح هرمًا فتقوده تدريجيًا إلى قبول هذا الواقع، ومن ثم ينطلق الشاعر في رحلة البحث عن «أنا» جديدة، تكرر الحاضر، وتنتظر المستقبل، الذي لن يكون سوى الموت الذي عبر عنه بالرحيل.

الحبيبين من عدمه، أو العوائق المادية التي تحيط به من كل صوب، تلك المتعلقة بمصالح القبائل بحد ذاتها والتي قد تتفق على التفريق بين الشاعر وحبيبته، أم الحروب التي لا مفر منها، مع ما ينتج منها من موت حتمي رهيب... أمام كل تلك التجاذبات والعوائق، يجد الشاعر نفسه ضحية تحولات عصره وظروفها، فيبرز استسلامه في بعض أبياته، ويستحيل عليه الدفاع عن مواقفه ورغباته، وتبرير انهياره النفسي الذي يسلب منه كل عنجهية وكرامة، فيعزو عثراته وفشله إلى قدر يعاكسه ويعانده، وإلا فالإغاية الأسمى في الحفاظ على القيم والتقاليد، التي أولاها مرتبة تسمو على كل شيء آخر.

ويبقى أن نقول إن الشخوخة والموت أمران لا مفر منهما، بحيث أن الأولى تؤدي حكمًا إلى الثانية، فالحاضر الذي أصبح ثقیلاً على صاحبه، إنما في الواقع يحتوي حياة بأكملها، ولكنه فارغ في صميمه، أما زمنه فبطيء جدًا وسريع جدًا في آن: لا يصلح لشيء. لقد أمسى الحاضر ذلك الغياب الذي يمحو كل شيء. وبرغم قسوة الحاضر، تبقى ذكريات الماضي قائمة، فلا يتردد الشاعر في العودة إليها، فهذه الذكريات تفيقه من عدمه، تعود به إلى زمن مضى لن يعود، هذه الذكريات تصفعه

٤ - البطل، علي: الصّورة في الشّعر العربي حتّى آخر القرن الثاني الهجري، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٨١.

٥ - التّبريزي، شمس الدّين: شرح القصائد العشر، مكتبة محمّد علي صبيح، القاهرة، ١٩٦٤.

٦ - الرّوزني، أبي عبد الله الحسين بن أحمد: شرح المعلّقات السّبع، مكتبة المعارف، بيروت، ط١، ٢٠٠٤.

٧ - الشّنقيطي، أحمد بن الأمين: شرح المعلّقات العشر وأخبار شعرائها، دار الكتب العلميّة، لبنان، ط٥، ٢٠١٢.

٨ - عبد الخالق، أحمد: قلق الموت، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١١١، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨.

٩ - عبد الرّحمن، نصرت: الصّورة الفنيّة في الشّعر الجاهليّ في ضوء التّقّد الحديث، مكتبة الأقبص، الأردن، ١٩٧٦.

١٠ - عبد الملك، مرتاض: السّبع معلقات، من منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، ١٩٩٨.

١١ - القيسي، نوري حمّودي: الحوار في القصيدة الجاهليّة، مجلة آفاق عربيّة، عدد ٦، ١٩٧٤.

١٢ - المبرّد، أبو العباس محمّد بن يزيد: الفاضل، تحقيق عبد العزيز الميمني، مطبعة دار الكتب المصريّة، القاهرة، ط٢، ١٩٥٥.

١٣ - وغيلسي، يوسف: مناهج التّقّد الأدبي، جسر للتّشّير والتّوزيع، الجزائر، ط١، ٢٠٠٧.

14 - Elisabeth Kubler- Ross, On Death and Dying, Simon & Schuster/Touchstone, New York, 1969.

مصادر البحث:

١ - الأعرشي، ميمون بن قيس: ديوانه، تحقيق محمّد حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، لا.ت.

٢ - الحارث بن حلّزة البشكري: ديوانه، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩١.

٣ - زهير بن أبي سلمى: ديوانه، تحقيق فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٣، ١٩٨٠.

٤ - طرفة بن العبد: ديوانه، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصّفّال، المؤسّسة العربيّة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠.

٥ - عبّيد بن الأبرص: ديوانه، تحقيق أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤.

٦ - عنتر بن شدّاد: ديوانه، تحقيق مجيد طراد، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٢.

٧ - عمرو بن كلثوم: ديوانه، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩١.

٨ - لبيد بن ربيعة: ديوانه، تحقيق حتّان نصر الحتّي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤.

مراجع البحث:

١ - ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري: الشّعر والشّعراء، دار الثقافة، بيروت، ج١، ١٩٦٤.

٢ - ابن منظور، محمّد بن مكرّم بن علي: لسان العرب، بيروت، مط دار صادر ودار بيروت، لا.ت.

٣ - بدوي، عبد الرّحمن: مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٩٧٧.

الفهم القرائي للنصوص: مراحل واستراتيجيات تعليمية - تعلمية

د.مايا بطرس

النصوص. لذلك من المهم أن يكتسب المتعلم مهارات فهم المقروء قبل وصوله إلى مراحل التعليم المتقدمة، فينتقل من مرحلة تعلم القراءة إلى مرحلة القراءة من أجل التعلم.

والقراءة التحليلية طريق إلى فهم المكتوب، فالفهم بدوره هو معرفة استخدام المعارف المتاحة المرتبطة بمضمون النص، وهو إيجاد المحسنات والصّور وتحليلها، كما هو تفكيك عناصر النصّ ومكوناته لاستخدامها لاحقاً لأغراض أخرى (GDPI, 2013).

وعن طريق القراءة تتحسن قدرات الفرد على التفكير والنقد، فتتنامى فكره وعواطفه، وتثري خبراته، وتعينه على التعامل مع مشكلات الحياة المختلفة، بما تمده من أفكار وحقائق وآراء وتجارب. وعن طريق القراءة يتعلم الفرد أن يفسّر، ويقارن، وينقد، ويحلّل، ويستنتج (أبو ناصر،

مقدمة

لطالما كانت القراءة عملية آلية بصرية، تهدف إلى تعرّف الحروف والكلمات والنطق بها، من دون الاهتمام بالفهم (فضل الله، ١٩٩٨). ولكن ومع تطوّر الدراسات والأبحاث في مجال القراءة، وبعد اكتشاف الباحثين أنّ القراءة البصرية وحدها من دون الفهم غير كافية، ولا تؤدّي الهدف المنشود، باتت القراءة «عملية فكرية ديناميكية تفاعلية تنطلق من التّعريف إلى أصوات اللّغة، إلى فكّ رموزها، وإدراك معاني تعابيرها وجملها، واكتشاف استعمالاتها الحقيقية والمجازية، والتعمّق في استدلالاتها، وذلك بهدف الوصول إلى الفهم القرائي للنصوص» (صياح، ٢٠٠٨، ص. ٦٦).

ويعتبر فهم المكتوب من المراحل المهمة في المرحلة التعليمية، فالمتعلم الذي يتقن فهم ما يقرأه قادراً على التفاعل مع مختلف

٢٠١٢). فالقراءة هي السبيل إلى الإبداع وإلى طرد الجهل والتخلف والخرافة (السامرائي، ٢٠١٣). وبهذا أصبح هدف القراءة الوصول إلى المعنى وفهمه فهماً مفصلاً ومجماً. ولكي يتمّ الفهم ينبغي أن يكون هناك تفاعل بين العناصر الثلاثة، القارئ والنصّ والسّياق (Tardif, 1994).
ونعرض في ما يلي خصائص عناصر فهم المقروء التي اتّفق عليها التربويون (Giasson, 1996)، و (Deschenes, 1988) وغيرهم:

١ - خصائص فهم المقروء

١-١ خصائص القارئ

يُجمع الباحثون على أنّ نجاح القراءة يتوقّف على النّضج الجسمي والعقلي والانفعالي والاجتماعي للقارئ (المرسي، ٢٠١١). ويُعدّ القارئ العنصر الأوّل من عناصر الفهم القرائي، فهو يمارس القراءة من خلال تفاعله مع الموضوع، ويتمّ هذا التّفاعل من خلال توظيفه الجيّد لقدراته العقلية، واللّغوية بشكلٍ صحيح، والتي تتضمّن ما يأتي: (أبو علام، ٢٠٠٤)

أ - الكفاءة المعرفية، وتشمل:

● الانتباه.

● الذاكرة.

● القدرة على التّحليل النّاقد.

● الاستدلال أو الاستنتاج.

● القدرة على التّصوّر أو التخيّل.
ب - الدافعية نحو القراءة، وتتضمّن الأبعاد الآتية:

● تحديد الغرض من القراءة.

● الميل للمحتوى القرائي.

● كفاءة الذات القرائية.

ج - القدرة اللّغوية، وتشتمل:

● معرفة دلالات المفردات اللّغوية.

● معرفة المعلومة الرّئيسة للموضوع.

● المعرفة بنظام اللّغة (قواعدها

الصّرفية، والنّحوية، والإملائية، والمعنوية والأسلوبية).

د - المعرفة باستراتيجيات الفهم القرائي، وتتضمّن معرفة القارئ بعدد من الإجراءات التي تتيح له التّفاعل الجيّد مع موضوع القراءة، وفهمه واستيعابه لما يتضمّن من أفكار.

هـ - خبرة القارئ، والتي تتيح له استدعاء ما لديه من معلومات ومعارف سابقة عن الموضوع، والرّبط الجيّد بين معلوماته السابقة، وبين المعلومات الجديدة، وتنظيمه لها في شكل مخطّطات عقلية، تتيح له استدعاءها بسرعة وقت الحاجة.

ولا تقتصر خصائص المتعلّم القارئ على ما ورد فقط، إنّما تتطلّب أيضاً منه أن يفعل تعلّمه الدّاتي وأن يكون مستقلاً فيه من خلال اعتماد استراتيجيات تفكير معيّنة،

١ - ٣ خصائص السياق

وهي خصائص تتعلق بالغرض أو الهدف من النص، كما ترتبط بمعتقدات كل من المعلم والمتعلم والبيئة التي ينتميان إليها، وهي خصائص شكلية تتضمن ضبط الصف، وتحديد الوقت المخصص للفهم (جابر، ١٩٩٥).

ويضيف ديشين (Deschênes, 1988)، إلى خصائص السياق أيضاً، عناصر التمهيد، والعنوان وتداعياته، والأسئلة المساعدة، والرّسوم التوضيحية، وطرائق عرض النص.

وتعتبر جياسون (Giasson, 1996)، أنّ السياق يشمل عناصر لا تتعلق مباشرة بعملية فهم النص ومراحله، بل هي عوامل مساعدة على الفهم تتعلق بإطار العام للنص وللبيئة النصية. أما فان داك (Van Dijk, 2008) فيعتبر أنّ القارئ لا يمكنه أن يدرك الغرض من القراءة من دون الإلمام بالسياق الاجتماعي للنص المقروء. فالأفراد يتصرفون على أساس تفسيراتهم ومعرفتهم ومواقفهم. والعمليات الإدراكية تربط بين البنى النصية وأشكال السلوك الاجتماعي، فلا يمكن أن يؤثر نص ما في المعرفة والآراء ووجهات النظر، إلا حين يستوعب معرفياً على مستويات عدّة، ويحلل دلاليًا ووظيفيًا وتداوليًا، ويُعاد تركيب المعنى، وتحديد الموقف، ومقاصد المتحدث بمساعدة التفسير الإدراكي.

فينظّم تعلّمه، ويوظّف معارفه ومكتسباته السابقة في معالجة المشكلات المطروحة، كما يقوم عمله ذاتياً من خلال إجابته عن الأسئلة التقويمية (Kail.M et Fayol. M, 2003).

١ - ٢ خصائص النص

يُعدّ النصّ القرائيّ من العناصر المُعيّنة على الفهم أو المعيقة له. لذا ينبغي أن تتوافر مجموعة من الخصائص التي من شأنها أن تساعد القارئ على الفهم ومنها: (جابر، ١٩٩٨).

أ - خصائص الشكل، كالمفردات المفهومة وغير الغامضة، والجمل التامة المعنى، والمقاطع المترابطة والبنية النصية الواضحة التي من شأنها أن تساعد القارئ على الفهم الكلي للنص المكتوب.

ب - خصائص المضمون، وتشتمل على دراسة معمّقة لتراكيب المفردات والجمل والمقاطع، وتطرّق إلى التّنظيم الداخلي للنصّ بحسب نوعه ونمطه. ويشير جيلي (Gili, 2007) إلى أنّ النصّ غالباً ما يكون مرآة للبيئة الخارجية ممّا يتيح للقارئ أن يقاربه وأن ينشئ علاقة تحاورية مع المقروء وفق استراتيجيات قرائية معيّنة. ومن خصائص المضمون أيضاً اكتشاف المعاني الكامنة في النصّ، والعلاقات الارتباطية لهذه المعاني (zakaria, 2011).

٢ - عمليات الفهم

يستمدّ الفهم القرائي طبيعته من عملية القراءة، فهو «العملية التي تُستخدم فيها الخبرات السابقة وملامح المقروء، لتكوين المعاني المفيدة لكل قارئ فرد، في سياق معيّن (Fijalkow, 2000). وهذه العملية يمكن أن تشمل انتقاء أفكار معيّنة، وفهمها، في جملة واحدة (العمليات الصغرى)، واستنتاج العلاقات بين أشباه الجمل والجمل (العمليات التكامليّة)، وتنظيم الأفكار في صورة ملخّصة (العمليات الكلية)، واستنتاج معلومات غير مقصودة من الكاتب (العمليات المتممة). وتعمل هذه العمليات معاً في تأثير وتأثر متبادلين، ويمكن ضبطها والتحكّم بها، وملاءمتها لأغراض القارئ (ما وراء المعرفة) (البصيص، ٢٠١١). والشكل الآتي يوضح العلاقة بين النّصّ وعمليات فهم المكتوب:

العمليات الما وراء معرفيّة Processus métacognitifs
métacognitifs



٢ - ١ العمليات الصغرى

تساعد على فهم المعلومة الواردة في الجملة، وتتضمّن ثلاث مهارات هي: (Giasson, 1996) و (Van Dijk, 1983).

أ - مهارة تعرّف مفردات النّصّ، وتتفاوت هذه المهارة باختلاف مهارة القارئ وقدراته على الاستيعاب السّريع.

ب - مهارة قراءة مجموعة من الكلمات، وتتمّ من خلال استخدام القرائن النّحويّة لتحديد العناصر التي ترتبط في المعنى والتي تشكّل وحدة فرعيّة sous-unité.

ج - مهارة تحديد الفكرة الرّئيسة من الجملة، ومجموع الأفكار يساعد القارئ لاحقاً في مرحلة التّأخيص.

٢ - ٢ - العمليات التّكامليّة أو الكلية

ومن شأنها أن تُنشئ علاقة بين العبارات أو بين الجمل، ويتمّ ذلك من خلال: (Giasson, 1996).

أ - استخدام المرجعيّات ويُقصد بها الضّمائر وهي ما ينوب عن الاسم الظّاهر ويحلّ مكانه.

ب - استخدام الرّوابط، ومنها أدوات التّعاض، والاستدراك، وأحرف العطف، وظروف الزّمان والمكان وغيرها.

ج - الاستدلالات، ونعني بها ما يستدلّه القارئ من النّصّ المكتوب، وقد تؤدّي هذه

الاستدلالات إلى معارف أدبية، أو متداخلة، أو منطقية، أو تداولية.

٢ - ٣ - العمليات الكبرى

وتتضمن: (Giasson, 1996) و (Van Dijk, 1983)

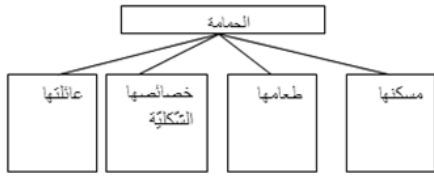
أ - تحديد الأفكار، الرئيسة منها، والتي يدور حولها النص، وتتضمن المعلومات المهمة، وقد تكون هذه الأفكار ظاهرة في النص أو غامضة بحاجة لقارئ ماهر لاستخراجها؛ والأفكار الثانوية، التي تشرح الفكرة الرئيسة وتحافظ على تسلسل الأحداث المنطقي.

ب - التلخيص: وهو «عملية أدبية إخبارية، تهدف إلى نقل مضمون نص معين من النصوص، بصورة مختصرة، يحافظ فيها على العناصر الأساسية، وعلى الروابط المنطقية القائمة في ما بينها، وعلى العناصر الثانوية الأكثر التصاقاً بالفكرة الرئيسة، والأكثر دعماً لها، بطريقة تساعد القارئ على فهمها واستيعابها بسرعة أكبر، وبسهولة أكثر». (صياح، ١٩٩٥، ص. ٢٣٠). لذا على الملخص أن يراعي مراحل التلخيص وأساسه.

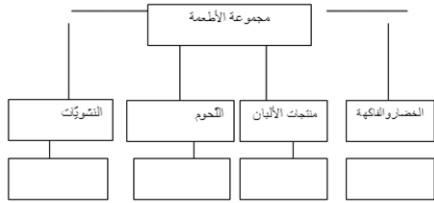
ج - الالتزام ببنية النص، فيسهل تحليله وفهمه. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن لكل نوع من النصوص بنية خاصة به، لا بل قد نجد مجموعة بنى لنوع واحد. وعلى سبيل

المثال بنية النص التفسيري الذي يُعتبر من أصعب النصوص فهماً وكتابةً بالنسبة للمتعلم، لما يتضمنه من مفردات ومعتقدات جديدة، ومن بنى معقدة ومختلفة، وهي:

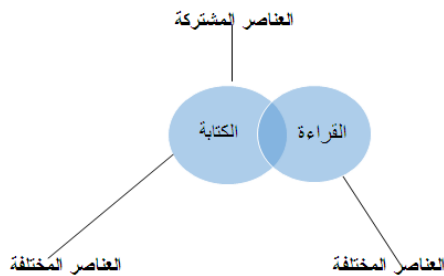
١ - البنية التفسيرية - السردية، وترسيمها كالاتية: (Giasson, 1996)



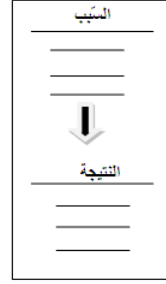
٢ - البنية التفسيرية - التعددية، وتتوضح من خلال الترسيم الآتية:



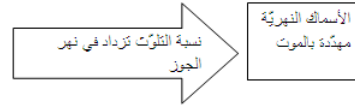
٣ - البنية التفسيرية - المقارنة، وترسيمها الآتية:



٤ - البنية التفسيرية - السبب والنتيجة، وتتجلى في الترسيمتين الآتيتين:
الترسيمة الأولى:



الترسيمة الثانية:



٥ - البنية التفسيرية - المشكلة والحل، وتظهر في الترسيم الآتية:



٢ - ٤ - العمليات المتممة

وكما يدل عليها اسمها، هي متممة لعملية الفهم، وتتضمن:

أ - التنبؤات، ونعني توقع القارئ لما سيحصل مع شخصيات النص أو مع الأحداث. ففي النص التفسيري مثلاً، وبعد الاطلاع على المسببات، تكون التوقعات حول النتائج.

ب - تشكيل صورة ذهنية، تزيد من قدرة الذاكرة العاملة في أثناء القراءة، عن طريق جمع تفاصيل في مجموعات كبيرة، كما وتسهّل عملية إبداع التشابيه والمقارنات، وتساهم في حفظ المعلومات المكتسبة في الذاكرة، إضافة إلى أنها تربط القارئ بالنص وتزيد من رغبته في القراءة.

ج - التفاعل عاطفياً مع النص والشخصيات والأحداث، ممّا يسهّل عملية الفهم واستخراج المعلومات أو المغزى.

د - تقويم النص ونقده، ويتم ذلك عبر القارئ الذي يفعل ذكاه ومعارفه لمقاربة مضمون النص، ولتحليله أو نقده.

هـ - دمج المعلومات الجديدة وضمها إلى المعارف السابقة، وبهذه الطريقة تنمو معارفه ومداركه، وتزيد ثقافته.

٢ - ٥ - العمليات الما وراء معرفية

هي معارف يمتلكها القارئ حول عملية القراءة، تتيح له أن يكتشف مكامن الخلل في الفهم، فيعتمد استراتيجيات خاصة لتصحيحه (Giasson, 1996). وتتضمن هذه العمليات استراتيجيات تسهّل الحصول على المعلومات الجديدة من خلال قراءة النص.

وتقوم هذه العمليات على التعرف إلى العمليات الفكرية التي يقوم بها المتعلم عندما يتعلم، وإلى الخصائص التي تجعل هذه العمليات منتجة، وعلى تقييم مسار هذه

العمليات وتصحيحه، من خلال تدريب المتعلمين على استراتيجيات التصحيح الذاتي المرافقة لكل عمل تعلمي. (صياح، ٢٠١٢).

لقد اتضح مما سبق أنّ الفهم يمرّ بعمليات متسلسلة وواضحة، وبناءً عليها ينبغي أن نضع أسئلة النصوص المقروءة، منطلقين من العمليات الصغرى، وصولاً إلى العمليات الما فوق المعرفية التي تجعل المتعلم «شريكاً فاعلاً في تعلمه، مسؤولاً عن تقدمه، مكتشفاً طرائق التعلم التي يتقدم بواسطتها في تعلمه الدائم». (صياح، ٢٠١٢، ص. ٩٦).

والفهم القرائي يتوزع إلى مستويات مختلفة، يميز كل منها بمهارات خاصة.

٣ - مستويات الفهم القرائي

تتوزع مهارات الفهم القرائي، من حيث القدرة على الفهم، ومستوى انتباه القارئ، وما يواجهه من تركيز عقلي تجاه المقروء إلى: (Thompson, 2000) و(طعيمة والشعبي، ٢٠٠٦)

- مستوى الفهم المباشر.

- مستوى الفهم الاستنتاجي.

- مستوى الفهم الناقد.

- مستوى الفهم التذوقي.

- مستوى الفهم الإبداعي.

وتندرج تحت كل مستوى، مهارات فرعية هي:

٣ - ١ - مستوى الفهم المباشر

● تحديد معاني بعض الكلمات الواردة في النصّ المقروء.

● تحديد الضدّ لبعض الأسماء.

● تحديد المفرد المناسب لبعض الكلمات.

● تحديد الجمع الصحيح لبعض الأسماء المفردة التي وردت في النصّ.

● توضيح العلاقة بين فقرات النصّ ونوع هذه العلاقة.

● تحديد الأفكار الرئيسية في النصّ المقروء.

● تحديد الأفكار الثانوية.

● ترتيب الأحداث وفقاً لتسلسلها الزماني والمنطقي.

● توضيح زمان ومكان وقوع الأحداث الواردة في النصّ.

● تصنيف الكلمات المتشابهة المعنى في مجموعات تنتمي إليها.

● الربط بين النصّ المقروء وخبرات القارئ ومعارفه السابقة.

٣ - ٢ - مستوى الفهم الاستنتاجي

● علاقة السبب بالنتيجة.

● العنوان المناسب للمقروء.

- أهداف الكاتب في النَّصِّ.
- خاتمة الموضوع التي لم يذكرها الكاتب في نصّه.
- خصائص أسلوب الكاتب.
- سمات الشّخصيّات من خلال الحوار والأحداث الواردة في النَّصِّ.
- القيم المتضمّنة في النَّصِّ المقروء.
- أوجه الشّبه والاختلاف بين عناصر الموضوع.
- النَّتائج من خلال مجموعة من المقدّمات.
- الملامح الشّخصيّة التي يمكن أن نرسمها لصاحب النَّصِّ.
- ٣ - ٣ - مستوى الفهم النّاقِد
- المسلمات والفروض.
- الحقائق والآراء.
- ما يتّصل بالموضوع وما لا يتّصل به.
- الأهداف الضمنيّة والصّريحة.
- الفكرة المبتكرة والشّائعة.
- الواقع والخيال في المقروء.
- كما ويشمل مستوى الفهم النّاقِد بعض المهارات التي تتضمّن قدرة القارئ الماهر في الحكم على مدى:
- صدق الكاتب.
- موضوعيّة الكاتب أو ذاتيّته.
- الإفادة من الموضوع في بعض جوانب الحياة.
- حداثة الموضوع.
- وضوح أفكار النَّصِّ.
- صدق أدلّة الكاتب وقوّتها في التّأثير.
- أهميّة النَّصِّ المقروء في ضوء خبرات القارئ.
- موضوعيّة شخصيّات النَّصِّ، وخصائصها في ضوء معايير معيّنة.
- منطقيّة الأفكار وتسلسلها.
- التزام الكاتب بالأمانة العلميّة في نصّه.
- ٣ - ٤ - مستوى الفهم التّدوِّقي
- ترتيب الأبيات أو العبارات بحسب قوّة المعنى.
- اختيار أنسب المعاني التي تضمّنها النَّصِّ.
- تحليل بعض مواطن الجمال في النَّصِّ.
- تحديد مدى صدق عاطفة الكاتب ومشاعره.
- توضيح مدى التّرابط بين الفكر والوجدان.
- إدراك القيمة الدلاليّة في بعض الكلمات والعبارات.
- تحديد مدى مناسبة الألفاظ لمشاعر الكاتب وعاطفته.

الآتية: (صياح وآخرون، ٢٠٠٨)، و(صياح، Conseil، ٢٠٠٩)، و(Quittelier, 2014) و(Conseil des ministres de l'Education, 2008)

١ - المرحلة الأولى: مرحلة التهيؤ

للقراءة

إنها مرحلة تذكّر وربط، تنطلق من تمثّلات المتعلّم السابقة لغويّة كانت أو تاريخيّة أو أدبيّة، يحملها من قراءاته ومن خبراته في الحياة. وتتضمّن هذه المرحلة الاستراتيجيّات الآتية:

سير العمل	الاستراتيجية
يتوقّع المتعلّم بنية معرفيّة للنّص انطلاقاً من عنوانه أو مقدّمته، وتناقش التوقّعات في الضّف.	استراتيجية التوقّعات أو التنبؤات
يستخرج المتعلّم عشر كلمات مفاتيح يدوّنها على اللّوح، فيتوقّع المتعلّمون من خلالها تصوّراً للنّص.	استراتيجية الكلمات المفاتيح
يصوغ المتعلّم المفاهيم الأساسيّة في النّص في عدد من الجمل غير البديهيّة والضحيفة والبديهيّة والخاطئة، وتتمّ مناقشتها مع المتعلّمين	استراتيجية الاستباق
ضمن عمل فريقين، مدّته ثلاث دقائق، يقمّم المتعلّمون أكبر عدد من المفردات والعبارات، انطلاقاً من خمس مفردات يعرضها المتعلّم على اللّوح.	استراتيجية توارد المفردات والعبارات
ضمن عمل فريقين، مدّته ثلاث دقائق، يكون المتعلّمون سلسلة من التدايعات والمفردات المترابطة، انطلاقاً من مفردتين يعرضهما المتعلّم على اللّوح.	استراتيجية التدايعات

٢ - المرحلة الثانية: مرحلة القراءة الاستكشافية العامّة

تقوم هذه المرحلة على الاقتراب من النّص عن طريق قراءة العنوان ومراقبة

● فهم المعاني الرّمزيّة المتضمّنة في النّص المقروء.

● استخلاص بعض المفاهيم العامّة والمبادئ الإنسانيّة الرّاقية.

● تلخيص النّص المقروء بإيجاز.

٣ - ٥ - مستوى الفهم الإبداعي

● إعادة ترتيب الأحداث أو الأفكار بصورة مبتكرة.

● اقتراح حلول جديدة لبعض المشكلات الواردة في النّص المقروء.

● اقتراح توقّعات للأحداث في ضوء مجموعة من الفرضيّات المناسبة.

● تعبير القارئ عن انفعاله بالنّص في بعض المواقف الحياتيّة.

● استخدام اللّغة المجازيّة والكلمات المثيرة للعاطفة في أساليب لغويّة خاصّة.

● إعادة صياغة المقروء وترتيب أحداثه.

● كتابة مادّة مقروءة مشابهة للمادّة التي قرأها.

● إعادة مسرحة العمل الأدبي وتمثيله.

● تصوّر نهاية مناسبة لقصة معيّنة.

ثانياً: مراحل واستراتيجيّات تعليم القراءة التحليليّة

لكي يتمّ الفهم القرائيّ، ينبغي على المتعلّم أن يتبّع في تعليمه القراءة المراحل

استراتيجية استنثار مميزات النّص الفنيّة	لكلّ نوع من النصوص مميزات خاصّة به، يستقرئها المتعلّم بواسطة الأسئلة، ويستثمرها لتحديد بنية النّص ووضع التصميم.
استراتيجية استنثار التوقّعات حول الأحداث أو الأشخاص أو الوضعيات في النّص	يساعد المعلّم القارئ على إظهار ما عنده من توقّعات حول الأشخاص أو الوضعيات من خلال أسئلة استدرجية ودراسة حواشي النّص.
استراتيجية القراءة وإعادة القراءة الجهرية أو الصّامتة	يقرأ المتعلّم النّص قراءة صامتة تليها أسئلة في الفهم، ثمّ يقرأ المعلّم النّص قراءة جهرية، بعدها يعيد المتعلّم القراءة الجهرية، وتُراعى فيها الأسس الشكلية للقراءة.
استراتيجية تفعيل الذاكرة القصيرة والطويلة المدى	تفعل الذاكرة القصيرة المدى من خلال أسئلة تُطرح على المتعلّم تبحث عن معلومات قريبة متعلّقة بالنّص، أمّا الذاكرة الطويلة المدى فتُفعل بالأسئلة التي تحتاج إلى استرجاعات زمنية بهدف ربط المعارف السابقة بالحاضرة.
استراتيجية تقويم النّص المقروء	يتعلّم القارئ تقويم النّص المقروء لناحية سهولته وصعوبته ومدى قدرته على إيضاح الفكرة أو الأفكار بطريقة متماسكة.
استراتيجية التخطيط للفهم القرائي	يتعلّم القارئ أن يتحقّق من تفعيل استراتيجيات ضبط الفهم القرائي ومن تعديلها إذا لزم الأمر.
استراتيجية تعديل النشاط الفكريّ الهادف إلى الفهم القرائي	يدفع المعلّم بالمتعلّم إلى طرح مجموعة أسئلة تعينه في تفعيل هذه الاستراتيجيّة، كالنّسأل عن نوع النّص المقروء، ثمّ النّسأل حول صحّة التوقّعات، إضافةً إلى النّسأل حول ما تعلّمه من النّص.

٤ - المرحلة الرّابعة: مرحلة انفتاح القراءة بالتخيّل والإبداع

ويُطلق على هذه المرحلة أيضًا، مرحلة الفهم الإبداعيّ، (صياح، ٢٠٠٨) وتقوم على مراجعة معاني النّص المقروء وأفكاره

الحواشي، والاطّلاع على اسم الكاتب واسم الكتاب الذي أخذ منه النّص، وقراءة المقدّمة والنّهائية، ووضع فرضيات حول دلالة أو دلالات معيّنة مفترضة فيه، من دون الاستغراق في معاني المفردات، أو تدخّل في مناقشة مميزات النّص الشكلية والفنية. (صياح، ٢٠٠٨)

٣ - المرحلة الثالثة: مرحلة القراءة المنظّمة المستنفدة

وتتضمّن هذه المرحلة الاستراتيجيات الآتية: (صياح، ٢٠٠٨)

الاستراتيجية	سير العمل
استراتيجية فهم مفردات النّص	يتعرّف المتعلّم إلى كلمات النّص المقروء، ويربطها بمعجمه الذهنيّ.
استراتيجية فهم الجمل	يفهم المتعلّم بنى الجمل وتراكيبها للتوضّل إلى مدلولها.
استراتيجية فهم الروابط والبدائل	يتنبّه المتعلّم إلى الروابط والبدائل الواردة ويربطها بأصحابها في النّص، ويحدّد وظيفة كلّ منها.
استراتيجية فهم بنية النّصوص	يستخرج المتعلّم بنية النّص، ويوظّف قدراته على التوقّع وطرح الفرضيات واستقراء المعاني الضمنية بما يخدم فرضياته ومعلوماته السابقة أو يحدّثها.
استراتيجية تحديد الأفكار الأساسية	يحدّد المتعلّم الأفكار الرئيسيّة في النّص.
استراتيجية اختصار النّصوص	يختصر المتعلّم النّص وفق قواعد اختصار النّصوص لكي يتجنّب النسخ الحرفي وركاكة الأسلوب.
استراتيجية اكتشاف معاني النّص	من خلال أسئلة تستهدف المعاني المباشرة وغير المباشرة.
استراتيجية الاستدلال الضمني المنطلق من النّص	وقد يستنتج المعنى الضمني (غير الصّريح) من بعض العلامات في بناء الكلمة أو تركيب الجملة.

- ينبغي أن تناسب الاستراتيجية المختارة قدرة المتعلمين على تفعيلها.

وعلى هذا، نجد لزاماً أن يتدخل المعلم للإشراف على المراحل والتأكد من تحقيقها، فيطرح على المتعلمين مجموعة أسئلة تعينهم في تفعيل هذه الاستراتيجيات، كالتساؤل عن نوع النص المقروء، وموضوعه، وعن معلوماتهم السابقة، ثم يعلم المتعلمين أن يتساءلوا حول صحة توقعاتهم، وحول إمكانية مواجهة صعوبة ما في النص وتذليلها. (السيد، ٢٠٠٥).

إن إهمال مراحل فهم المقروء تولد عند المتعلم ضعفاً في التحليل والفهم (السيد ٢٠٠٥)، مما سيؤثر سلباً على أنشطة التعليم والتعلم الأخرى بخاصة الكتابة، كما سيتضح في عرض هذا البحث. ويرجع ضعف المتعلمين في تحليل المقروء وفهمه إلى أسباب عدة ينبغي تلافيتها.

ثالثاً: ضعف المتعلمين في القراءة التحليلية

١ - أسباب ضعف المتعلمين في

تحليل المقروء وفهمه

يتفاوت المتعلمون في مدى تمكّنهم من تحقيق مهارات فهم المقروء واستراتيجياته، سواء الخاصة بحجم المقروء، أو بالتركيز والانتباه العقلي للقارئ. ونعرض في ما يلي أبرز أسباب ضعف المتعلمين في الفهم القرائي:

والتأمل فيها، وإطلاق آليات التخيل والإبداع حولها، وتخزينها في الذاكرة الطويلة المدى بهدف استرجاعها واستثمارها في نصوص أخرى. في هذه المرحلة، يقارن المتعلم - القارئ بين معارفه الثقافية وتلك التي اكتسبها من نص القراءة، ويجيب عن تساؤلاته رابطاً تجاربه وثقافته بالنص المقروء وبالعالم المحيط به. كما وبإمكانه أن يُبدي رأيه بالمقروء وأن يطلق الأحكام النقدية، وأن يدون بعض العبارات المُلفتة أو الصور البيانية والبدعية التي أكسبت النص جماليته لسيخدمها في التعبير الكتابي أو الشفهي. (Conseil des ministres de l'Education, 2008).

بعد عرض مراحل القراءة واستراتيجيات فهم المقروء، لا بدّ من عرض بعض الشروط والمستلزمات الكفيلة بتحقيق الفهم وهي: (Giasson, 2014).

- ليس من الضروري أن تتواجد هذه الاستراتيجيات كلها في نص واحد.

- على المعلم اختيار الاستراتيجية المناسبة للوضعية القرائية المعروضة، وأن يشرح عناصرها والأسباب الداعية إلى اختيارها، وأن يشرح كيفية تطبيقها.

- على المعلم أن يتأكد من امتلاك المتعلم الاستراتيجية قبل الانتقال إلى غيرها.

١ - ١ - ضعف التّركيز وتدني مستوى الفهم القرائي.

وقد حصر جاب الله، ومكاوي، وعبد الباري (جاب الله وغيره، ٢٠١١)، و(Quittelier, 2014)، أسباب ضعف التّركيز وتدني مستوى الفهم القرائي في مجموعة من العوامل، هي:

● صعوبة المفردات اللّغويّة في النّصّ المقروء.

● صعوبة إدراك الأفكار المتضمّنة في النّصّ المقروء.

● عدم ملاءمة الحالة الدّهنيّة عند القراءة.

● سوء تنظيم الوقت المخصّص للقراءة.

● طغيان بعض المشتّتات في أثناء القراءة.

● فقدان الحافز والدّافعيّة للاستمرار في القراءة.

١ - ٢ - قصور في معالجة المعلومات.

١ - ٣ - قصور الخلفيّة المعرفيّة.

١ - ٤ - نقص الثّروة اللّغويّة.

١ - ٥ - الفشل في توظيف المعلومات السّابقة.

١ - ٦ - الاستفادة بصورة خاطئة من المعرفة السّابقة.

١ - ٧ - قلّة القراءة.

١ - ٨ - القراءة الجهرية الخاطئة.

١ - ٩ - القراءة الصّامتة الخاطئة.

١ - ١٠ - مشكلات في التّنظيم الدّاتي، أي عدم التمكن من مراقبة الفهم ذاتياً، كأن يعتاد المتعلّم أن يطرح على نفسه الأسئلة الآتية: ماذا فهمت ممّا قرأته؟ ما الذي لم أفهمه؟ ما الذي منعني من الفهم؟ ما الذي ساعدني على أن أفهم ما فهمته؟ ما الذي استفدت منه لقراءتي المقبلة في مجال الفهم والاستيعاب. (صيّاح، ٢٠١٢، ص. ٨٦). ويشمل التّنظيم الدّاتي التعلّم الما وراء معرفي الهادف إلى تنمية استقلاليّة المتعلّم وتنظيم ذاته، والاهتمام بشخصيّة من خلال استخدام استراتيجيات ومهارات مخصّصة لتحسين تعلّمه (Giasson, 2012).

١ - ١١ - مشكلات عدم التّمييز بين القراءة والتّحليل.

ونضيف إلى المشكلات السّابقة، مشكلة الخلط بين تعليم القراءة والتّحليل في الحصّة الواحدة. وتتمثّل هذه المشكلة في عدم تكريس المعلّم حصص القراءة لتعليم مهاراتها وتقييمها، إنّما يتدخّل من خلال الأسئلة والشّرح المستفيض، فتحوّل حصّة القراءة إلى حصّة تحليل للنّصّ المقروء قبل تحقيق أهداف القراءة واكتساب مهاراتها.

٢ - نتائج ضعف المتعلمين في فهم المقروء

يؤثر الضعف في فهم المقروء على مستوى تركيز المتعلم، فيضعف تركيزه ويتدنّى مستوى الفهم القرائي لديه. لذا نجد المتعلم متأثراً سلوكياً على النحو الآتي:

- مشوّش، لا يستطيع البقاء جالساً.
- غير مهتمّ بالنشاط المتبّع.

- يعاني من الانشغال العقليّ الدائم.

- لا يستطيع انتظار دوره في الأنشطة الاجتماعية.

- يقاطع الآخرين بطريقة غير ملائمة.

- لا يكثرث عندما يوجّه إليه المعلم الحديث.

- يبدأ نشاطاً مختلفاً بدون استكمال النشاط الأول.

- من السهل التشويش عليه بالمؤثرات الخارجية.

- يعاني من صعوبة العمل الجماعيّ أو استكمال مهمة إلى نهايتها.

- يفقد الأدوات والمستلزمات المطلوبة منه في أثناء النشاط.

ومن ناحية ثانية، يؤثر الضعف في فهم المقروء على معارف المتعلم القرائية واكتساب المهارات المطلوبة، وبالتالي يتحوّل إلى قارئ ضعيف، غير متمكّن من تهجئة الكلمات، وغير قادر على استخراج الأفكار وتلخيص النصّ، والإجابة عن

الأسئلة بالفصحى السليمة، وغيرها من النتائج التي توصله في النهاية لأن يصبح كاتباً فاشلاً، غير قادر على التعبير كتابياً بأسلوب واضح، ومن دون أخطاء تركيبية ولغوية وإملائية.

وتُعرض في الجدول الآتي نتائج سوء فهم المقروء على كفاية الكتابة: (عاشور، ٢٠٠٥) و(عبد الباري، ٢٠١٠).

نتائج على الكتابة	سوء فهم المقروء
عدم القدرة على ربط المفردات بخاصة الجديدة منها، بمجمعه الذهنيّ واستحضارها في أثناء الكتابة، فنجد المفردات نفسها متكررة في العمل الكتابي. إضافة إلى استخدام مفردات في غير سياقها، فيأتي المعنى مخالفاً لما قصده المتعلم.	عدم القدرة على فهم المفردات
استخدام خاطئ لبنى الجمل النحوية، (الجمل الاسميّة والفعلية، والتعجيبية، والاستفهامية والإنكارية والتأكيدية...)، كما وقد يختلط المحكيّ والمكتوب، كذلك المسموع والمقروء، فيقع المتعلم في الخطأ التركيبيّ واللغويّ والإملائيّ.	عدم القدرة على فهم الجمل
فقدان تماسك النصّ الداخليّ، وتكرار لبعض الكلمات ممّا يُضعف الأسلوب.	عدم فهم الروابط
إنتاج نصّ مفكّك البنية والأجزاء، وعدم قدرة المتعلم على التوقع وطرح الفرضيات واستقراء المعاني الضمنية التي تخدم كتابته.	عدم فهم بنية النصوص
صعوبة تحديد وصياغة الأفكار الرّئيسة كتابةً، وعدم فصلها عن الثانوية، وأحياناً تكرار الفكرة نفسها. وهذا الخلط يُضعف الأسلوب، ويجعل المضمون ركيكاً ومشوّشاً وغير منظمّ.	عدم القدرة على تحديد الأفكار الأساسية
مشاكل في تحديد المعلومات الأساسية، وفي تدوين رؤوس الأقسام قبل المباشرة بالكتابة، فتأتي بنية النصّ الكتابيّ مفكّكة.	عدم القدرة على اختصار النصّ

يتّضح ممّا سبق أنّ القراءة والكتابة عمليّتان متلازمتان، تربطهما علاقة تأثر وتأثير، فالقراءة عملية استخلاص معنى من

منفتحة على التعبير الكتابي، وغرس الرغبة لدى المتعلم في التحوّل من قارئ إلى كاتب. وبعد، لا بدّ من أن نتساءل حول المنهجية التي ترى أنّ بالإمكان فهم النصّ قبل تحليله. ولئن سلّمنا جدلاً بحصول هكذا إمكانية، - لأنّ بعض المعلمين يدرجون على إيراد عبارة: «في الفهم والتحليل» عوضاً من تقديم التحليل على الفهم، ربّما لأنّهم يرون أنّ «نظرية الشكل» Gestaltisme (كوهلر وكونفكا وورتيمر Kurt Koffka, Max Wertheimer Wolfgang Köhler)، تُطلق عملية الفهم، ثمّ يأتي التحليل لاحقاً لترسيخ المعلومات، فالسؤال الذي سوف يطرح آنذاك ما جدوى التحليل إذا كان بإمكان المتعلم أن يفهم النصّ من دون تحليله؟ أو ليس الهدف النهائي من تحليل النصّ أو دراسة النصّ هو الوصول إلى فهم النصّ المكتوب؟

وعلى هذا، لكي يتمكّن المتعلم من فهم النصوص عليه أن يتعلّم تحليلها، أي تفكيكها، ومن ثمّ، يتفهم تراكيبها وبناءها وغايتها. «فالتحليل عملية منهجية دقيقة، تقتضي تمريناً مستمراً يتناسب ونضج المتعلم وثقافته وقدراته الفكرية» (عبيدات، ٢٠٠٧)، فالأحرى أن يُقال: في التحليل والفهم، لأننا نحلّ النصوص لفهمها.

وعملية تحليل النصّ أو تفكيكه تعني الانطلاق من العمليّات الصغرى

رمز مكتوب، وهي أداة اتّصال فكريّ بين القارئ والكاتب من خلال الرمز المكتوب (السيد، ١٩٩٦). ويتمثّل مفهوم القراءة في أن يكون المرء قادراً على تحويل المادّة المكتوبة إلى اتّصال شفويّ في ضوء مجموعة من القواعد الواضحة، وأن يفهم المكتوب، ويكون قادراً على الحكم عليه، وأن يقوم قيمته الجمالية. أمّا الكتابة فتعرّز تعرّف الكلمة، وفهم الجملة، وتزيد من ألفة الفرد بالكلمات. بالمقابل، تتطلّب الخبرات القرائية مهارات كتابية، بدءاً من تكوين جملة وصولاً إلى كتابة نصّ متكامل. (البصيص، ٢٠١١).

٣ - معالجة ضعف المتعلمين في فهم المكتوب

يمكن التغلّب على ضعف المتعلمين في فهم المقروء من خلال: (Giasson, 2012).

١ - اعتماد الاستراتيجية المناسبة لفهم المقروء، وتوضيح طريقة تنفيذها.

٢ - فصل القراءة عن التحليل في الحصّة الواحدة، وإعطاء كلّ نشاط حقه في المعارف والمهارات، من خلال تنظيم الوقت المخصّص للقراءة من ناحية، وللتحليل من ناحية ثانية.

٣ - اعتماد نصوص ثلاث مستوي المتعلم الذهنيّ واللغويّ، وتتوافق واهتماماته.

٤ - جعل نشاط فهم المقروء، نشاطاً

النَّصَّ في الشَّكل والمضمون التِّي وإن لم تتوفَّر فهي قد تعيق الفهم. وإنَّ الالتزام بعملِيَّات الفهم أساس لفهم المكتوب، وهذه العملِيَّات تتدرَّج بالتَّتابع من العملِيَّات الصَّغرى، والكلِّيَّة، والكبرى، والمتمِّمة، إلى العملِيَّات الما وراء معرفيَّة. فالفهم يبدأ من فهم الأحرف والكلمات وصولاً إلى انفتاح القراءة بالتَّخيُّل والإبداع. ويبقى أنَّ الضَّعف القرائي يعيق الفهم، وكلَّ خلل في فهم المكتوب قد يؤثِّر سلبيًّا على مهارات المتعلِّم وكفائاته، خصوصًا تلك المتعلِّقة بإنتاج المكتوب أي بالتَّعبير الكتابي.

فهرس المصادر والمراجع

- ١ - البصيص، حاتم حسين (٢٠١١). تنمية مهارات القراءة والكتابة، استراتيجيَّات متعدِّدة للتدريس والتقييم. دمشق: منشورات الهيئة العامَّة السوريَّة للكتاب.
- ٢ - أبو علاَم، رجاء محمود (٢٠٠٤). التعلُّم أسسه وتطبيقاته. عمَّان: دار الفكر.
- ٣ - أبو ناصر، محمد (٢٠١٢). نزهة في عقول البشر... القراءة وأهميَّتها.
- ٤ - جاب الله علي سعد، مكاي سيد فهمي، وعبد الباري ماهر شعبان (٢٠١١). تعليم القراءة والكتابة، أسسه وإجراءاته التَّربويَّة. عمَّان: دار المسيرة.
- ٥ - جابر، عبد الحميد جابر. (١٩٩٨). سيكولوجية التعلُّم ونظريَّات التَّعليم. القاهرة: دار النهضة العربيَّة.
- ٦ - فضل الله، محمَّد (١٩٩٨). الاتِّجاهات التَّربويَّة المعاصرة في تدريس اللُّغة العربيَّة. القاهرة: عالم

(microprocessus) (zakaria, 2011)، أي التعرَّف إلى الكلمات وتجميع عناصرها الدالَّة لإدراك المعنى الَّذي تتضمَّنُه مجتمعة، وصولاً إلى العملِيَّات الكبرى (macroprocessus) أي الفهم الشَّامل للنَّصِّ، وإدراك العلاقات القائمة بين عناصره التِّي تجعل منه كلاً منسجماً. ويتمُّ ذلك بالتَّعرَّف إلى بنية النَّصِّ الكلِّيَّة (macrostructure) والمراد بها، المعنى الشَّامل المستخلص من مجموع الجمل الواردة في النَّصِّ، والبنية الفوقيَّة (superstructure) والمراد بها تحليل المفاصل الداخليَّة للنَّصِّ كالأشكال والأنواع النصيَّة. (Giasson, 1996, p.16).

خلاصة

وفي خلاصة هذه الدراسة، نذكر بما ورد آنفًا، أنَّ القراءة وفهم المكتوب عمليَّتان متكاملتان. فلا يتمُّ الفهم بمجرد قراءة نصِّ معيَّن، بل يتطلَّب اعتماد استراتيجيَّات ومراحل قبل القراءة وفي أثناءها وبعدها. والهدف من القراءة هو أن يفهم المتعلِّم معنى المكتوب باختلاف أنواع النَّصوص وأنماطها، وأن يوظِّف ما تعلَّمه وفهمه في أنشطة أخرى، وفي وضعيَّات مغايرة.

لذا ينبغي التنبُّه في أثناء تعليم القراءة التَّحليليَّة إلى خصائص القارئ والعمل على جعله مستقلاً في تعلُّمه، وإلى خصائص

- 15 - Conseil des ministres de l'Education. (2008). Stratégies en lecture et en écriture, de la maternelle à la 12e année. Guide Pédagogique. Canada.
- 16 - Deschênes, A-J. (1988). La compréhension et la production de textes, Monographies De Psychologie. Québec: Presses de L'université.
- 17 - Fijalkow, J. (2000). Sur la lecture, Perspectives sociocognitives dans le champ de la lecture, Paris: ESF éditeur.
- 18 - Giasson, J. (1996). La compréhension en lecture. Paris: Gaëtan Morin éditeur.
- 19 - GDPI. (2013). Je lis Je comprends, inspection académique Indre.
- 20 - Gili, Y. (2007). le texte et sa lecture, une analyse de l'acte de lire selon W. Iser.
- 21 - Kail, M. et Fayol, M. (2003). les sciences cognitives à l'école. Paris: PUF.
- 22 - Quittelier, S. (2014). Enseignement explicite de la compréhension en lecture au cycle 3, ESPE centre de val de loire. Université de l'Orléans.
- 23- Tardif, J. (1994). L'évaluation du savoir-lire: une question de compétence que de performance, In J-Y. Boyer, J-P. Dionne & P. Raymond (éds) (1994). évaluer le savoir- lire. Montréal: Editions logiques.
- 24- Thompson, S. (2000). Effective content reading comprehension and retention strategies. Educational Resource Information Center, ED 440372.
- 25- Van Dijk, T. A. (2008). Discourse and Context, A socio-cognitive approach, Cambridge: University Press.
- 26- Van Dijk, T.A. (1983). Strategies of discourse comprehension. New York: Academic Press.
- 27- Zakaria, Norma, (2011). Pour une approche méthodologique des textes, Collection Repères Didactiques. Liban: Edition Zakaria.
- الكتب.
- ٧ - السامرائي، حذيفة (٢٠١٣). القراءة وأهميتها للفرد وللمجتمع.
- ٨ - السيد، عبد الحميد سليمان السيد (٢٠٠٥). صعوبات فهم اللّغة ماهيتها واستراتيجياتها. القاهرة: دار الفكر العربيّ.
- ٩ - صيّا، أنطوان (٢٠٠٨). تعلّم اللّغة العربيّة، الجزء الثّاني. بيروت: دار النّهضة العربيّة.
- ١٠ - صيّا، أنطوان (٢٠١٢). كميّات التّعليم والتعلّم. بيروت: دار النّهضة العربيّة.
- ١١ - طعيمة رشدي أحمد، والشّعبي محمّد علاء اللّدين (٢٠٠٦). تعليم القراءة والأدب، استراتيجيات مختلفة لجمهور متنوّع. القاهرة: دار الفكر العربيّ.
- ١٢ - عاشور راتب قاسم، ومقدادي محمد فخري (٢٠٠٥). المهارات القرائيّة والكتائيّة، طرائق تدريسها واستراتيجياتها. عمّان: دار المسيرة.
- ١٣ - عبد الباري، ماهر شعبان. (٢٠١٠). المهارات الكتائيّة من النّشأة إلى التّدرّيس، ط١. عمّان: دار المسيرة.
- ١٤ - المرسي، وجيه. (٢٠١١). القراءة.

تجليات قناع المسيح ﷺ

في أشعار «محمود درويش» و«نزار قباني»

د. زهراء سليمان

إبداعه» (كندي، ٢٠٠٣م، ٧). فلجأ الشاعر العربي إلى استخدام الرمز وسيلة فنية للتعبير غير المباشر عما يريد. وتقنع بشخصية من شخصيات التاريخ فتشبهت بها وانطلق منها نحو ذاته، معبراً بوساطة التقنع بها عن مكنونات نفسه، مبيحاً لتلك الشخصية التعبير عن أسرارها إلى المتلقي. وصارت تقنية القناع مظهرًا من مظاهر الحداثة وما بعدها في الشعر العربي الحديث ولم يستفد الشعراء من الأساطير الدينية والمقتبسة من التاريخ والكتب المقدسة في آثارهم الأدبية في أي عصر من العصور كما استفادوا في عصرنا الحاضر. ولعلّ محمود درويش ونزار قباني شاعران عبقریان في مجال استخدام تقنية القناع، فنجد في شعرهم قناع السيد المسيح ﷺ وهذا البحث يتّجه إلى دراسة هذا الاستخدام.

يعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي

١ - المقدمة

يرى النقاد أنّ الأدب ابن بيئته. وتبقى هذه المقولة صحيحة جزئيًا، إذ تلقينا معلومات عن واقع المجتمعات الغابرة عبر الأدب إضافة إلى معرفتنا بكثير من الشخصيات التي بقيت مع مرور الوقت رموزًا. والمسيح كان الشخصية / الرمز التي بدأت أقلام الأدباء العرب بتناولها في القرن التاسع عشر بعد تجريدتها من فحواها الديني وربطها بفكرة الموت والقيامة.

إنّ العوامل السياسية والاجتماعية في الوطن العربي، وما ألحقته بالإنسانية من أضرار فادحة، ماديًا ومعنويًا جعلت الإنسان العربي والشاعر العربي خصوصًا، إزاء مجموعة من التناقضات مما دفعه إلى الخروج عن دائرة المألوف، والتمرد على قيم الثبات والجمود. فكانت القصيدة الشعرية محطة أولى أمام الشاعر، وميدان

عنوان «دراسة شخصية المسيح ﷺ في شعر خليل حاوي» لمؤلفه هادي رضوان ونسرين مولودي (أدب عربي، العدد الثاني، شتاء ١٣٩٢) ومقال آخر تحت عنوان «دراسة تطبيقية في أشعار أدونيس وشاملو حول شخصية المسيح ﷺ» (پژوهش هاي زبان وادبيات تطبيقي، العدد الثالث، خريف ١٣٩٠) لمؤلفه خليل برويني وآخرين، ومقال آخر بعنوان «الشخصية القرآنية عند شعراء الشتات الفلسطينيين» لعاطي عبيات ورسول بدوي (اللغة العربية وأدبها، العدد الثالث، خريف ١٤٣٦)؛ أما في بحثنا حول مكانة شخصية المسيح ﷺ واستخدامها القناعية في الشعر المعاصر على أساس أشعار محمود درويش ونزار قباني فلم أر مقالة أو دراسة كتبت من قبل، وهذه الدراسة تعالج هذا الموضوع بصورة مختلفة.

٢ - ماهية القناع في ساحة الشعر العربي المعاصر

من أبرز الظواهر الفنية التي تلفت النظر في تجربة الشعر الجديدة هو الإكثار من استخدام الرمز والأسطورة، والقناع أدوات للتعبير، فيلجأ الشعراء والأدباء إليها للتعبير عما يختلج في صدورهم وأذهانهم. وفي أدبنا المعاصر، تؤدي الأقنعة دوراً كبيراً. وأصبح القناع وسيلة لتبيين الآمال والمقاصد الإنسانية، وهو الجزء الناطق من

التحليلي، فقد تمّ تعريف القناع اللغوي والاصطلاحي بالإجمال ومن بعد ذلك تمّت دراسة وتحليل مكانة شخصية السيد المسيح ﷺ ومظاهرها القناعية في ساحة الشعر العربي، وتمت دراسة تجليات المسيح ﷺ القناعية المستخدمة في شعر محمود درويش ونزار قباني كشاعرين تناولا مفهوم الأسطورة الدينية، ويعالج السؤال الأساسي: كيف استطاع أن يبيّن محمود درويش ونزار قباني معاناة الشعب والذات من خلال شخصية المسيح؟ والفرضية المطروحة في البحث أنّ محمود درويش ونزار قباني استخدما قناع المسيح في الشعر، ويعتمدان في قصائدهما القناعية على الأفكار والرموز المسيحية ويستعيران ملامح شخصية المسيح كالصلب والفداء والتضحية والحياة من خلال الموت، ويستلهمان قصة صلب المسيح تعبيراً غير مباشر عن الأفكار السياسية والاجتماعية والثقافية، ويستمدّ الشعاران من آلام السيد المسيح وقيامته للتعبير عن معاناة الأمة الإسلامية والأمة العربية.

وأما من ناحية خلفية البحث، في وقتنا هذا فقد كانت شخصية المسيح ﷺ محطّ اهتمام في البحوث الأدبية، وقد أصبحت موضوعاً للمقالات المختلفة ومن جملة هذه البحوث يمكن الإشارة إلى مقال تحت

الشعائر البدائية والذي نمّاه الخيال الإنساني واستخدمته الآداب العالميّة. وهو إحدى الوسائل التي يستخدمها الأديب للتعبير عن لسان شخصية قناعية، ويبين صراعاته النفسية، ويتحدث عن آلامه وآماله اللتين يحاط بهما.

تشير كلمة القناع في اللغة العربيّة إلى معان متعدّدة في دلالاتها ومتفاوتة نسبياً. القناع في اللغة: «ما تتقنع به المرأة من ثوب يغطي رأسها ومحاسنها» (ابن منظور، ١٩٨٨م: مادة «قنع»). أما في الاصطلاح فهو «وسيلة فنيّة لجأ إليها الشعراء للتعبير عن تجاربهم بصورة غير مباشرة، أو تقنية مستحدثة، في الشعر العربي المعاصر شاع استخدامه منذ ستينيات القرن العشرين بتأثير الشعر الغربي وتقنياته المستحدثة، للتخفيف من حدة الغنائية والمباشرة في الشعر، وذلك من خلال شخصية تراثية تتحدّث عن تجربة معاصرة بضمير المتكلم. وهكذا يندمج في القصيدة صوتان: صوت الشاعر، وصوت الشخصية التي يعبر الشاعر من خلالها (عزام، ٢٠٠٥م: ١). فالشاعر يتحدث من وراء الأغطية ويبين آراءه من وراء هذه الشخصية القناعيّة. بحيث يمكن أن يكون هذا القناع أسطورياً أو خيالياً أو تاريخياً أو مذهبياً مقدساً، والشخصية التي يتّخذها الشاعر قناعاً ويختفي وراءها هو الشاعر نفسه ولا غير.

وهذا المصطلح لم يظهر إلا بعد مضي أحد عشر عاماً، تقريباً، على ظهور أول قصيدة قناع تكويني في الشعر العربي المعاصر، وهي قصيدة «المسيح بعد الصلب» لبدر شاكر السياب التي كتبت ونشرت في العالم ١٩٥٧م (بسيسو، ١٩٩٩م: ١٠٨).

فالقناع مصطلح جديد، وهو وسيلة إيحاء وتعبير عن تجارب معاصرة، عن طريق الاختفاء وراء شخصية من الشخصيات التاريخية - التراثية ويحقّق الشاعر بهذا الأسلوب حالة من الاتّحاد والامتزاج بينه وبين القناع، بحيث يصبحان معاً كياناً جديداً لا يمثل الشاعر تمام التمثيل ولا يمثل الشخصية تماماً أيضاً، أي يتوحدان توحداً فنياً رائعاً.

و«القناع حيلة بلاغية أو رمز أو وسيلة للتعبير عن تجربة معاصرة، وهذا يعني أنه لا بدّ من أن يكتشف المتلقي بنفسه وبمساعدة القرائن النصية أن المقصود هو الحاضر، وما القناع سوى وسيلة إخفاء وأبعاد فنيّة، لذلك جناح الشاعر إلى الاستفادة تناصياً من تجربة أو موقف أو رؤيا أو حدث شهير في الماضي، ليتقنع بها، ويعيدها إلى الأذهان ضمن تجربة جديدة مماثلة» (الموسي، ١٩٩٩م: ١).

لم يستفد الشعراء من الأفضة في آثارهم الأدبيّة في أي عصر من العصور كما

استفادوا في عصرنا الحاضر فالقناع في الشعر العربي الحديث، ظاهرة مهمة من ظواهره، وأداة فعالة اتكأ عليها الشاعر الحديث في النهوض بتجارب شعرية عديدة، شكّل بعضها أهم النتاجات الشعرية. ولقد اعتمد أغلب الشعراء على شخصيات تراثية - تاريخية عند اتّخاذهم الألقاب الفنية واعتاد رواد الشعر الحديث استخدام الرموز، والأساطير، والقصص الدينية في شعرهم كفكرة المسيح المخلص والمنقذ.

٣ - تجلّي شخصية المسيح ﷺ القناعية في الشعر العربي المعاصر

إنّ الشخصيات الدينية تعدّ حقلاً خصباً للتحوّل إلى رموز، وذلك لكونها اختزالاً لتجربة عامة ورسداً لواقع نفسي في عصر ما، لكن دائماً يتصدّر المشهد الرمزي لهذه الشخصيات الدينية صورة المعاناة والألم ودلالاتهما، فيحتلّ النبي أيوب الصورة الرمزية النموذجية عند العامة بينما السيد المسيح يكاد يكون أكثر شخصية دينية تحوّلت إلى رمز لدى المثقّفين والأدباء، وذلك من خلال تثبيت معجزتي الميلاد والقيامة. شخصية المسيح برزت في الديوان الشعري للعرب على طول تاريخه الفني، ومع مجيء مدرسة شعر التفعيلة في الشعر العربي أصبح للرمز دور في تشكيل الصورة الشعرية، واعتلت الحلبة رموزاً شعريّة معبرة عن آلام الإنسان المعاصر،

ويكاد يجمع رواد الشعر الحديث على رمزية السيد المسيح في تشكيل الشعر، فنجد بدر شاكر السياب «المسيح بعد الصلب»، صلاح عبد الصبور «عيد الميلاد»، بعد ذلك محمود درويش «أغنية صلب المسيح» ونزار قباني «الصلب الذهبي». وظلّ المسيح يشكّل الرمز للصورة الشعرية في أجيال السبعينيات والثمانينيات وفي القصيدة الحديثة المسماة بقصيدة النثر، حيث أصبحت رمزية السيد المسيح درعاً واقياً من تهمة الفناء البشري في هذا العالم الكبير.

ويظهر من معالجة الآثار الأدبية المعاصرة «أنّ استخدام كلمة «مسيح» في آثارهم رمز يدلّ على البعث والنشوء وهو رمز للقيامة والبعث بعد الموت. المسيح مات مصلوباً ويتخذ شعراً دلالة على المعاناة والمحنة كما فعل أمير الشعراء أحمد شوقي، ففي شعره إشارات كثيرة إلى شخصية السيد المسيح وما فيها من طيبة ورحمة وطهارة ونبل» (حلاوي، ١٩٩٤م: ٧١)، وربّما يمكن القول إن الفقر والمجاعة المنتشرة في أكثر البلاد العربية سببت أن يكون المسيح رمزاً لإنقاذ عالم البشرية والقول إنه سيأتي شخص وسيقوم بطل بإنهاء هذه المجاعة والفقر والجذب وهو الذي يعد البشرية بولادة جديدة. فشخصية المسيح ﷺ من الشخصيات التي

استخدمت بكثرة في الشعر المعاصر وراح الكثير من الشعراء يعلقون همومهم الذاتية وقضاياهم الموضوعية على عاتق تلك الشخصية الدينية والتي تجلّت فيها روح التضحية والفداء والتضحية في سبيل الآخر ما لم تحمله شخصية أخرى .

ولقد عرفت الدلالات المسيحية طريقها إلى القصيدة العربية الحديثة بشكل لافت ابتداء من عام ١٩٥٧ م ودامت هذه الظاهرة حتى أوائل الستينات مع الشاعر بدر شاكر السياب والبياتي وصلاح عبدالصبور ودنقل وآخرين «لتتعرض بعضها إلى مرحلة الضمور وانسحاب تدريجي من النص الشعري لأسباب عدّة» (كرم، ٢٠٠٧م: ٢). ولكن ما إن اختفت الدلالات المسيحية من نصوص القصيدة الحديثة التي ظهرت في العراق ولبنان حتى ظهرت من جديد في القصيدة الفلسطينية والسورية الحديثة مع الشعراء «محمود درويش» و«نزار قباني» و«معين بسيسو» و«سميح القاسم» وغيرهم. فقد احتلّت هذه الدلالات مكانة بارزة في النص الشعري الفلسطيني والسوري واكتسبت نكهة خاصة بها رسّخها طعم المعاناة التي نافتها الشعوب الفلسطينية والسورية من تشريد واحتلال للأرض ومن مشقة وفقر وبؤس.

٣ - ١ - تجليات المسيح ﷺ القناعية في شعر محمود درويش ونزار قباني

اكتسب قناع المسيح ﷺ بعداً دلالياً

تمتلكه الحافظة الإنسانية بتقدير وإجلال، وشخصية المسيح تأخذ شرعيتها الدلالية من وجهتي النظر الدينية والإنسانية. لقد «عاش المسيح بين الناس ورأى ما يتعرضون له من مشقات تتعبهم وآلام تحزنهم، ومسرات تفرحهم، وكان يفعل وتجيش نفسه بشتى العواطف والانفعالات التي يعرفها كل الناس من هنا ومن خلال هذا التشكل لهذه الشخصية القناعية غدت رافداً ثراً ارتكز عليه الشعراء الكبار البارزون المعاصرين من أمثال محمود درويش ونزار قباني» (عبدالوهاب، ١٩٧٩م: ٧٦) اللذين يستخدمان قصة المسيح ﷺ للتعبير عن المعاناة، وامتحان وبلاء، وكأنهما يعانيان معاناه المسيح ﷺ مع الرضا بما أصابهما. ويصوران ما ابتلى به من صبر، ومرض، و... فهناك صفات مشتركة بين شخصية الشاعر وشخصية النبي المسيح ﷺ.

وقد تطور محمود درويش ونزار قباني في كيفية استدعاء الشخصيات وحاولوا أن يجذبا القناع إلى تجربتهما، ويستلهما صوته أو تجربته، ويتقمصا شخصية القناع ويقوما بدوره للتعبير عن واقع معاصر وتجربة معاصرة. وكانت حاجتهما إلى الرموز قوية بسبب نشوب أزمات وتقلبات نفسية وبسبب التغييرات العنيفة في المسرح السياسي في البلاد العربية حينئذ،

ولهذا السبب يصلح محمود درويش ونزار قباني أنموذجًا للشاعر الذي يطلب الرمز في قلق ويبحث عن مهدئ لأعصابه، وهما يجعلان الرمز أداة فنية وسياسية يصبان فيه كل الطاقات الشعريّة، متّخذين من إحياءاته الحيّة وما يفجّره من مغزى وإيماء بدائي طريقًا إلى تعميم التجربة الإنسانيّة في كل حين.

اعتبر محمود درويش ونزار قباني الرّمز مظهرًا من مظاهر الشعر الحديث، ومن أبرز الوسائل في بناء الصورة وتوسيع دلالاتها وبناء العالم الشعري المغاير. «فوجد الشعاران في الأسطورة وسيلة رمزية للتعبير عن الإيمان بانتصار الحياة على الموت فضلًا عن إدراك قيمة استعمال الرمز اللغوي غير المباشر والملازم للحسن والفاعلية. وكانا يتّخذان الرموز والشخصيات، في البداية، نماذج لتوضيح الفكرة أو تأكيدها، ثم أخذوا يرتقيان بأسلوب توظيفه لها حتى تمكّنا من بناء القصيدة كلها على الرمز الواحد» (عباس، ١٩٧٨م: ١٣١). فقصائدهما القناعيّة تعدّ نماذج عالية من هذا الأسلوب. «كان الشعاران من السبّاقين في بلوغ قصيدة القناع حين تقمّصا صوت المسيح وتجربته الإنسانيّة ترميزًا شاملًا في تحقّق القصيدة العضوية بأفضل ما يكون متماهيين مع فكرة الفادي المخلّص في وجه

الطغاة والخونة إلى حد الأسطورة فالمهم هو جوهر التجربة في هذا المبنى الرمزي لعملية التقنّع». (ابوهيف، ٢٠٠٤م: ٩٩).

٣ - ١ - ١ - شخصية المسيح في شعر محمود درويش

كثرت الرموز الدينيّة والمسيحية كثرة ملحوظة في أشعار درويش وأبرز هذه الرموز قاطبة هو رمز المسيح، ويرمز به إلى الشاعر الذي يُضحّي في سبيل بلاده وشعبه، وقد يرمز به أحيانًا إلى الشعب بأكمله. وتندرج تحت هذا القناع رموز أخرى متصلة به ومتفرعة عنه كالصليب أو الصلب الذي يشير إلى عبء التضحية والسير في طريق المعاناة ودرب الآلام الطويلة، فيظلّ الشاعر يُعاني من محنته على الصليب بدافع الإيثار والمقاومة من أجل السعادة والخلّاص. يقول درويش في قصيدة «عن الصمود»:

«إنّا سنقلع بالرّموش/الشوك والأحزان... قلعا؟/والإم نحمل عارنا وصليبنا؟/والكون يسعي...» (درويش، ١٩٩٤م: ٩٣).

و في قصيدته الموسومة بـ «رباعيّات» يقول:

«وطني؟ لم يُعطني حبّي لك/غير أخشاب صليبي» (درويش، ١٩٩٤م: ١٠٣). «من أكثر الرموز المسيحية عنده

الغزل التقليدية وحرّرها من أحادية المعنى، وأدرج فيها قيم المقاومة وجمالية الوطن فقد صالح بدوره بين المسيح - الرمز و«القصيدة التمزوية»، جاعلاً من «جسد الشهيد» آية على الموت والانبعاث في جميع الفصول وواقع الأمر أنّ رمز المسيح، في عناصره المختلفة، حاضر في دواوين الشاعر الأولى وحاله حال كثير من الشعراء العرب الفلسطينيين، فهو موجود في ديوان عاشق من فلسطين» (بلقزيز، ٢٠٠٩م: ٤٥).

ولا غرو أنّ رمز الصلب وما يتعلّق به من الصلب والمسامير والجرح، يعبّر بصورة موحية ذات أبعاد عن الموقف والتجربة التي يمرّ بها الشاعر الفلسطيني، فقد عانى ألم الصلب ومات منتصرًا، موتاً يستدعي تضحية المسيح وفدائه، فالصليب منبر الشاعر ليعبّر من فوقه عن موقفه، والمسامير وتره المشدود الذي يعزف عليه ألحان الخلود. ويلتزم الشاعر بصليبه حتى العذاب فيقول:

«لو كان لي/ حتى صليبي ليس لي/ إنّي له/ حتى العذاب» (درويش، ١٩٩٤م: ١١٥).

استعمل محمود التجليات المسيحية في نصّه ليعطي تجربته بعداً عميقاً ومعرفياً من خلال تضحية السيد المسيح وخير قصيدة تبرز الرّموز المتّصلة بالمسيح كالصليب وإكليل الشوك هي قصيدة «شهاد الأغبية»

«الصلب» كرمز لتضحية الشاعر/الرسول من أجل شعبه، رامياً حاملاً الصليب وسائرًا حتى النهاية والصليب هنا متعدد الدلالة. بل إنّه يكاد يكون هو الرمز المسيحي السائد في المرحلة الأولى تحديداً، بالإضافة للتناص من خلال بعض المواقف والشخصيات بصورة قريبة من السطح، المراد من الصلب همّ المظالم والتعذيب والقتل الذي يتعرّض له الشعب الفلسطيني» (سامي، ١٩٩٩م: ٨٦) وهو في الوقت نفسه (القصيدة) و(الحلم) الذي يحمله الشاعر راضياً وهو دافع جيّد للصدور، يمنح الشاعر والمقاتل حقّ الوجود من خلال الدفاع أو الاستشهاد على أخشاب هذا الصليب ففي قصيدته «قال المغني» يُعاني الشاعر على صليبه حتى يموت منتصرًا حيث يتحول الصليب منبرًا ومساميره وترًا:

«المغني على صليب الألم/ جرحه ساطع كنجم/ هكذا يصبح الصليب/ منبرًا أو عصا نغم/ ومساميره وتر/ وإذا كان الصليب بداية المرحلة، فهو الجرح الذي لا يستطيع التخلي عنه ليكون/ مرة أخرى...

ترحلنا عن صليبنا/ فلم نعثر على أرض» (درويش، ١٩٩٤م: ١١٣).

يشير فيصل درّاج أيضًا إلى قناع المسيح وامتزاجه مع القصيدة التمزوية قائلاً: «إذا كان درويش قد استعاد قصيدة

يكثر وجود المواقف التراثية المسيحية في نصه الشعري انطلاقاً من تعاطفه الشديد مع الفكرة المسيحية في مقابل الاعتداء الصهيوني تحت ستار اليهودية. فكثيراً ما يتردد في أعماله ما يشير للعشاء الأخير وما شابه من المواقف التي لا يمكن فصلها عن النص والتراث المسيحي، وكتب في القصيدة الملحمة «مأساة الفضة ملهاة النرجس» من مجموعة أريد ما أريد (١٩٩٠) عن هاجس العودة إلى الوطن يختفي بعودة المسيح ومريم إلى العشاء الذي يريده الشاعر أن يُنهي الاحتلال:

«عاد المسيحُ إلى العشاء/ كما نشاءُ/
ومريمٌ عادتُ إليه على جديلتها الطويلة/ كي
نغطّي مسرح الرومان فينا/ هل كان في
الزيتون ما يكون من المعنى... لنملاً/ راحتيه
سكينة وجروح حبق» (درويش، ٢٠٠٠م: ٧١٢).

في تجارب محمود درويش الأولى نراه يعانق الصليب عناقاً رومانسياً وعاطفياً ويعزف على وتر الألم أغنية المحبة والفداء، ويعيد توليف الحكاية في عملية تناص بين فداء المسيح من أجل الخلاص وبين الموت وقوفاً من أجل النصر. إلا أنه بعد سقوط القدس عام ١٩٦٧ يصبح لمعنى الصليب بعداً آخر هو المحبة والعطاء والخير، كما نقرأ له في قصيدة «أغنية على الصليب»:

«أحبك كوني صليبي/ وكوني، كما

فالشاعر يأبى الخضوع والخنوع ويحتمل العذاب متصبراً ليتحوّل صليبه إلى «سهوة» يمتطيها منطلقاً، وليتبدّل إكليل الشوك المنقوش بالدم والندى إلى إكليل غار رمزاً للانتصار، وهو إلى ذلك ليس «أول حامل إكليل شوك»، يأبى الشاعر الذلّ ويختار عليه اعتلاء «خشب الصليب».

«نصبوا الصليب على الجدار/ فكّوا
السلاسل عن يدي/ والسُّوط مروحة...
ودقّات النُّعال/ لحن يصفّر: سيدي/ ويقول
للموتي حذار؟.../ تعتلي خَشَبَ الصليب/
شاهد أغنية وشمس/ ما كنتُ أول حامل -
إكليل شوك/ فعسى صليبي سهوة/
والشوك فوق جبيني المنقوش/ بالدم
والندى/ إكليل غار؟» (درويش، ١٩٩٤م: ١٢٠).

أجرى محمود درويش حواراً مع المسيح وشكا إليه عمل إسرائيل في احتلال وطنه وبين له معاناة الشعب الفلسطيني. لأنّ هذا الشعب يعيش حياة مضمّنية في أرضه وفي قدميه مسامير ويحمل إكليلاً من الشوك. يجيب المسيح على نداء محمود درويش ويدعوه إلى التقدم:

«ألو/ أريد يسوع/ نعم من أنت/ أنا أحكي
من «إسرائيل»/ وفي قدمي مسامير...
وإكليل/ من الأشواك أحمله/ فأبّي سبيل/
اختار يا ابن الله... أيّ سبيل؟» (درويش، ١٩٩٤م: ١٤٤).

شئت، برج حمام/إذا نوبتني يداك/ملأت الصحاري غمام» (درويش، ١٩٩٤م: ١٥٠). ترى سحر سامي أنّ صورة المسيح خرجت من دلالتها الجامدة ودخلت في تشعبات ثقافية أخرى. فهي تقول: «إلا أنّ استمرار المعاناة والإبحار في الوقت والثّقافات عمّق علاقته بهذه الشخصية التي - بعد أن كانت تأتي كاسم جامد صلب وكرمز محدود الدلالة - أصبحت تتفتّت وتفاجئنا خلف لغة النص الشعري الذي يمتصّ كل أو معظم ما يتعلّق بهذه الشخصية من مواقف ممّا يتعلّق بالعقيدة المسيحية من التطهير والقيامة والخلّاص... أو معجزات وصفات كإنزال المائدة من السماء بطلب الحواريين» (سامي، ١٩٩٩م: ٨٩) كما ينشد درويش:

«كلوا رغيفي... اشربوا من نبيذي/ولا تتركوني/على شارع العمر وحدي/ كصفافة متعبة» (درويش، ٢٠٠٠م: ٣٠٦).

يعالج درويش قضية الموت والانبعاث كرؤية رئيسة في سياق نصوصه الشعرية، وأصبحت هذه القضية خلفية ينقش عليها تجاربه الشعرية منذ خروجه من الوطن، إذ يسود الموت على الشعب العربي ولاسيما على الشعب الفلسطيني، فيثور الشاعر على هذا الواقع التعيس ويبحث عن الخلود باستخدام قناع المسيح والتعامل معه،

فيتّحد الشاعر الفدائي مع المسيح، لأنه فدائي يأبى أن يستسلم للصهاينة ويطمح إلى الموت لتحقيق ولادة جديدة بفداء نفسه وإعطاء دمه لأرضه فلسطين والأمة العربيّة. أراد محمود درويش من كلّ الطرقات القريبة والبعيدة والعواصم التي أخذت أحمد العربي وبعثرت جسده على الصليب فهو المسيح الذي ناضل من أجل استقلال الأرض الفلسطينية:

«لا تسرقوه من الأبد/وتبعثروه على الصليب/فهو الخريطة والجسد/وهو اشتعال العنديل/لا تأخذه من الحمام/لا ترسلوه إلى الوظيفة/لا ترسموا دمه وسام/فهو البنفسج في قذيفة» (درويش، ٢٠٠٠م: ٣٠٧).

«تسيطر على درويش في هذه القصيدة لهجة الانكسار فهو من الناحية الإنسانيّة، ورغم الدعوة المستمرة للثورة، يقربه القنوط، فهو يتحسّر لأنه الفلسطيني المتروك وحيداً، المشرد الدائم»، يظهر درويش أن سقوط تل الزعتر مرده إلى حياض العرب بين الفلسطينيين وأعدائهم مغتصبي الأرض، ثم إهمال القضية الفلسطينية (مغنيه، ٢٠٠٤م: ١٤٣).

يلتزم محمود درويش بوطنه وقومه ويستلهم التراث الفلسطيني والعربي ويوظّفهما توظيفاً حيويّاً لاسيّما بعد خروجه من وطنه أي في الستينات، كما

ينفتح عندئذ على الثقافات والحضارات العالمية ويتعامل معها، لكن هذا التعامل لم يزد إلا تشبُّهًا بأرضه وتمسُّكًا بتقاليده الوطنية وإلحاحًا على تحقيق حلمه حرية وطنه فلسطين، في قصيدة «الأرض» يعطي المسيح بعدًا نضالياً ومقاومًا لشعر محمود درويش. فالشاعر ينتهي من الانكسار ويخضّر عنده المدي:

«هذا اخضرار المدي واحمرارُ
الحجارة/ هذا نشيدي/ وهذا خروج المسيح
من الجرح والريح/ اخضّر مثل النبات يغطّي
مساميره وقيودي/ وهذا نشيدي/ وهذا
صعود الفتى العربيّ إلى الحلم والقدس»
(درويش، ١٩٩٤م: ٣٦٥).

«في قصيدة الأرض تحيل الانتفاضة في
مرجع الواقع إلى القيامة في البعد الدلالي
القيومي للرمز. فتموز والمسيح رمزان
ديناميكيان قيوميان، ينهض الأول في دورة
المواسم في الأرض، وينهض الثاني في
الروح، تندمج الدلالة المسيحية (المسامير،
الخروج بدلالة القيامة والانبثاق من الموت)
بالدلالة التمزوية (أم تموز أو نعمات التي
توقظ الربيع في الأرض) في دلالة قيومية
انبعاثية كونية - روحية» (بلقزيز، ٢٠٠٩م:
٩١).

ففي قصيدة «نشيدٌ إلى الأخضر» حاول
محمود درويش أن يصوّر نفسه حالة من
الحلم الأخضر والسعادة في زمن الغربية

المقيّنة. لذا أراد من اللون الأخضر أن يجدّد
صوته لأن في حنجرتيه حلمًا وأسماء
المسيح الحيّ التي مع الاخضرار والسعادة:
«وجدّد أيها الأخضر صوتي. إنّ في
حنجرتي خارطة/ الحلم وأسماء المسيح
الحيّ» (درويش، ١٩٩٤م: ٣٧٤).

بدأ محمود درويش يقارن نفسه
بالمسيح وما تحمّله المسيح من أذى بأمل
رؤية مريم/الأرض. ولكن هذا الحلم لم
يستمرّ طويلاً. نقرأ له في قصيدة «ربما لأن
الشتاء تأخّر»:

«أنا والمسيح على حالنا/ يموت ويحيا،
وفي نفسه مريم/ وأحيا، وأحلم ثانيةً أنني
أحلم/ ولكنّ حلمي سريعٌ كبرقية/ تذكّرني
بالأخوة بين السماوات والأرض» (درويش،
٢٠٠٠م: ٦٩١).

إنّ شخصية المسيح عليه السلام إحدى
الشخصيات الدينيّة الأكثر تمثيلاً لنقاء
الإنسان في الأرض، والأكثر سموًا في
اختيار التضحية من أجل إنقاذ الآخرين،
فإنّ محمود درويش يخلق اتحادًا كليًا بين
الذات ومرجعها الثقافيّ في المسيحية؛ هذا
الاتحاد الذي نلمسه في استعارة لسان
المسيح والبوح على طريقته، وفي قصيدة
الجدارية في بحث الشاعر عن معنى الخلود
يستحضر امتحان الشيطان للسيد المسيح
كما ورد في الإنجيل، ولكنه يُسقط هذه
الحكاية على نفسه حين كان بين الموت

والحياة، وكأن الاختبار كان له فيقول
الشاعر:

«أعلى من الأغوار كانت حكمتي/إن قلت
للشيطان: لا، لا تمتحنني!/لا تضعني في
الثنائيات، واطركني/كما أنا زاهدًا برواية
العهد القديم/وصاعدًا نحو السماء، هناك
مملكتي/خذ التاريخ، يا ابن أبي، خذ/
التاريخ، واصنع بالغرائز ما تريد»
(درويش، ٢٠٠٠م: ٥٦١).

إنّ المسيح الجديد الذي يطالعنا هنا
يقلّب المفاهيم والقيم المرتبطة بالمسيح
القديم، فهو يبدو مختلفًا من حيث تمرّده
على «العهد القديم» ومن حيث أنه يخاطب
الشيطان بدل الله سبحانه، عندما ينهاه قائلاً
«لا تمتحنني! لا تضعني في الثنائيات» وهي
العبارة نفسها التي خاطب بها المسيح
القديم ربّه طالبًا منه عدم «وضعه في
التجربة»، لكنّ ما يوحد بين المسيحيين -
المناصّ والمتناصّ - وهو الموت الأسمى
الذي يتجلّى في الصعود إلى السماء
(المساوي، ٢٠٠٩م: ٨٨). وإذا كانت الروح
ستحظى بهذا الموت المقدّس فإنّ الجسد
هو الآخر يذهب سُدى في التراب، بل تتحلّل
عناصره في التراب وسيمنح الأحياء بعد
نشوة الفرح المفقود، بما سيشربون من
عصير الكروم... وفي الأمر إحالة إلى دم
المسيح في العشاء الأخير:

«سأصير يومًا كرمةً/فليعتصرني

الصيفُ منذ الآن/وليشرب نبيذي العابرون
على/ثُرَيّات المكان السكّريّ!» (درويش،
٢٠٠٠م: ٥٧٠).

فالمسيح يمثل للذات النموذج الأكثر
دلالة والأكثر عمقًا لكونه مسعفًا لها من
محنة الوجود والموت معًا، باعتبار أن
الوجود لدى المسيح - طريق محفوف
بالتضحيات الجسام، إلا أنه ينتهي بموت
سعيد ومستحقّ. لكن الذات سرعان ما
تكشف البون الشاسع بينها وبين النموذج
المسيحي، وتستدرك أن ما يصلها به لا
يعدو أن يكون تشبّهًا في الشكل، لأنها لا
تقوى على اجتراح معجزاته؛ فللمسيح عونٌ
خارق يجعله قادرًا على المشي فوق
البحيرة، كما يعضده وهو مصلوب يبشر
بالقيامة... وبالمقابل فإنّ الذات لم تأخذ من
نموذجها الأعلى سوى القدرة الموازية على
تحقيق اختياراتها في الحياة، تلك التي
تتجلّى في النزول عن الصليب والتفرّغ
لشريعة القلب:

«مثلما سارَ المسيح على البحيرة/سرتُ
في رؤيائي، لكنّي نزلتُ عن/الصليب لأنني
أخشى العلوّ، ولا/أبشُرُ بالقيامة. لم أُغيّر
غَيْرَ/إيقاعي لأسمع صوت قلبي واضحًا»
(درويش، ٢٠٠٠م: ٤٨٠).

٣-٢-١ - شخصية المسيح في شعر نزار قباني
يستدعي نزار قباني شخصية المسيح
في شعره ويستفيد منها ويسعى أن يبيّن

السيد المسيح في سبيل الحرية والإنسانية:
«جميع ما قالوه عنِّي صحيح/جميع ما
قالوه عن سمعتي/في العشق والنساء قول
صحيح/لكنهم لم يعرفوا أنني/أنزف في
حبك مثل المسيح» (قباني، ١٩٩٨م: ج ١،
٧٥٩).

يعيش نزار قباني احتمالات الحب فهو
غير واثق من نبضات وينتظر المعجزات
الكبرى. من هذا المنطلق من بنى قصيدته
«ربما» على عدة احتمالات تسيطر على
المنظومة المعرفية والجمالية عند الإنسان.
لم يكن نزار قباني مطمئناً بإتيان الهوى
لكنه بشّر المرأة بانتظار الهوى لربما يأتي
كما أتى السيد المسيح:

«اشربي القهوة يا سيّدي/ربّما يأتي
الهوى كالمسيح المنتظر/ليس عندي الآن
ما أعلنه/فلقد يأتي... ولا يأتي» (قباني،
١٩٩٨م: ج ٢، ٨٣٢).

بدأ نزار قباني يخاطب المرأة التي قتلت
العصفور في كيانه بمرارة وطرح عليها
أسئلة عدة استفهامية حاول من خلالها أن
يشبه هذا العصفور بضوء القمر والوتر
والمطر والسيد المسيح. نقرأ له في قصيدة
«العصفور»:

«قمرًا كان/ومن يقتل، يا سيّدي، ضوء
القمر؟/وترًا كان/ومن يقطع من عودٍ
وتر؟/مطرًا كان/ولن يأتي إلينا مرة أخرى

أغراضه في هذا المنطلق، لأنّ القمع
السياسي والحالة الاجتماعية التي في
عصره، لا تسمح له أن يعبر عن أغراضه
بصورة واضحة، فأدخل نزار قباني
المسيح في خضم التجربة العاطفية وبدأ
يعبر من جسد المرأة ورغباتها المكتوبة.
فضلاً عن ذلك لم ينس نزار قباني تضحية
المسيح وانبعائه ونهضته بوجه الطغاة.
يتخيّل نزار قباني بأنّ الصليب واقفاً بين
نهدي المرأة وعندما يقترب المسيح منهما
تبدأ جراحاته وينتهي فيه الأسى. نقرأ له
في قصيدة «الصليب الذهب»:

«أنقطة نور... بين نهديك ترجف/صليبك
هذا... زينة أم تصوف؟/... على صدرك
المعتزّ ينتحر الأسى/وتبرا جراحات
المسيح وتنشف» (قباني، ١٩٩٨م: ج ١،
٢٢٦).

لم يكن نزار قباني خاضعاً للمرأة. فهو
في أكثر الأحيان المشوق والشهريار الذي
يقبل تحديها ويفور عنده الحقد كالطوفان.
لا يغفر نزار قباني خطايا المرأة كما كان
يغفر السيد المسيح للآخرين:

«إن كان حقدك قطرة/فالحقد كالطوفان
عندي/أنا لست أغفر كالمسيح/ولن أدير
إليك خدي» (قباني، ١٩٩٨م: ج ١، ٥٤٧).

عندما يكون الحب صادقاً ينتهي هذا
العنفوان وهذه المزاجية. ف يبدأ نزار قباني
بالنزف في سبيل الحب كما كان ينزف

المطر/أنتِ لو أعطيته الفرصة يا سيّدي /
ربّما كان المسيح المنتظر» (نزار قباني:
ج ٢، ١٩٨).

هو الشاعر الذي فقدَ ذاكرته وما تحمله
من دلالات. ولهذا النسيان تاريخ يرجع إلى
عهد المسيح:

«نسيت أمام حمامة نهديك... فنّ الكلام /
نسيت النقاط... نسيتُ الحروف / نسيت
الحليب... نسيت الرّخام / نسيت مداعبة
النهد... / من عهد عيسى عليه السلام»
(قباني، ١٩٩٨ م: ج ٥، ٣٠).

يرى نزار قباني أنّ اللغة حُطفت وانتهت
المعرفة في عالم المادّة. فهو لا يعلم كيف
يخاطب المرأة في زمن تسيطر عليه
الماترياليستية ويبيعُ الإنسان شاعره
ليقتني جهاز فيديو ويصبح مايكل جكسون
أكثر شعبية من السيّد المسيح:

«في هذا الزمن الذي باع كلّ أنبيائه /
ليشتري مكيفًا للهواء / وباع كل شعرائه /
ليقتني جهاز فيديو / في هذا الزمن الذي
يعتبر سيلفستر ستالوني / أعظم من
الإسكندر المقدوني / ويصبح فيه مايكل
جكسون / أكثر شعبيةً من السيّد المسيح»
(قباني، ١٩٩٨ م: ج ٥، ٢٣٦).

يؤمن نزار قباني بتقارب النهد والسماء
ويحاول أن يعطي النهد فضاء مقدسًا من
خلال إشاراتهِ إلى الله والسيّد المسيح

والأنبياء. نقرأ له في قصيدة «من يوميات
رائد فضاء»:

«إذا ما وقفت على قمة النهد... / أشعر
أني اقتربت من الله / أنني اقتربت من الأفق /
أني اقتربت من الشعر / أشعر أنني أسير على
الماء، مثل المسيح / وانتظر الوحي
كالأنبياء» (قباني، ١٩٩٨ م: ج ٥، ٥٠١).

أما في شعره السياسي يستخدم نزار
قباني الشخصيات الدينيّة مثل
المسيح ﷺ، للتعبير عن رجائه
بالمستقبل والحرية، وتحفيز الحماسة
الثوريّة، وإثارة الشعور بالوطنية. «عندما
بدأت القصيدة السياسية في ديوانه تبشر
بتحوّل نزار بعد نكسة حزيران ١٩٦٧
وتعلن انشغاله بهموم الأمة العربية
ومجريات الأحداث الكبيرة التي يشهدها
الوطن العربي» (أبو علي، ١٩٩٩ م: ٦) كما
يقول:

«الذين احتفلوا واستبشروا... / بملاقاة
المسيح المنتظر... / تركوا نهدك يا سيدي
حجرًا... فوق حجر...» (قباني، ١٩٩٩ م: ج ٢،
١١٧).

استعمل نزار قباني صورة المسيح
محرصًا على المقاومة تاركًا روح الخضوع
خلفه. فاستبشر في قصيدة «فتح» بحركة
فتح الحرّيّة وفجر جديد وشبّهها بالوردة
الجميلة التي تطلع من الجرح. عندما يلتئم
الجرح ينهض الشعب الفلسطيني كالسيد
المسيح:

«جاءت إلينا (فتح)/كوردة جميلة طالعة من جرح.../وفجأة ثرنا على أكفاننا، وقمنا/وفجأة/كالسيد المسيح... بعد موتنا نهضنا» (قباني، ١٩٩٨م: ج ٣، ١٤٠).

«فهو في قصيدة (فتح) نراه يتوعد اليهود ويبشر العرب بفجر الحرية، وتعبّر شخصية المسيح عن النهوض والانبعاث، الذي يأتي بعد موت، إنَّ انطلاقة العمل الفدائي الذي ساهم في إبراز الحقّ العربي أشبه بقيامة المسيح» (عرود، ٢٠١٠م: ١٤٨).

أما في قصيدة «القدس» نراه متشائمًا يبحث عن محمد واليسوع في مدينة القدس عندما ملّه الركوع:

«بكيْتُ حتى انتهت الدموع/صلّيت حتى نابت الشموع/ركعتُ حتى ملّني الركوع/يا قدس يا مدينة تفوح أنبياء/يا قدس يا مدينة الأحزان.../سألتُ... عن محمّد/فيك وعن يسوع» (قباني، ١٩٩٨م: ج ٣، ١٦١).

ها هي الكلمات تعبّر عمّا في ضمير الشاعر من حزن تجاه هذه المدينة المقدّسة التي هي القبلّة الأولى للمسلمين وهي مدينة المعراج ولكنّه رغم حزنه والدموع التي باتت تنتهي لغزارتها، فالشاعر له أملٌ في الغد فسوف تفرح القدس بانتهاء العدوان.

«ونراه يركع ويصلّي ويبكي على أعتاب القدس المدينة الجليليّة وقد احتلّها اليهود

وراحوا يضعون بصماتهم الصهيونية على مقدساتها وانتهكوا حرمة المسجد الأقصى. فالقدس هي المدينة التي اجتمع فيها الأنبياء، مسجدها هو المسجد الذي صلّى فيه الأنبياء» (دهان، ميرفت، ٢٠٠٢م: ٩٢).

ويذكر نزار قباني السيّد المسيح كعامل لتقوية الحماسة وإحياء الأمل في قلوب الناس الذين يفقدون الأمل ويقبلون الظلم وفقدان الأمل ينتهي إلى التسليم أمام المشاكل والشقاوة وعندما تفاقمت عنده الحالة بدأ يطرح عدة أسئلة استفهامية عن الحرية والغد المشرق متذكّرًا الإنجيل والقرآن والسيد المسيح:

«من يغسل الدماء عن حجارة الجدران/من ينقذ الإنجيل؟/من ينقذ القرآن؟/من ينقذ المسيح ممّن قتلوا المسيح؟» (قباني، ١٩٩٨م: ج ٣، ١٦١).

وفي قصيدة أخرى يخاطب الناس الذين لا يجهدون أيّ جهد للوصول إلى الحرية والخلّاص من يد المحتلّين ويوصلون الأوضاع السائدة في بلادهم إلى قدرٍ وينتظرون النجدة الغيبية ويقودون إلى اليأس فنزار يدعو أمّته للاعتماد على مقدرتها ومكانتها ولا يسوّغ الصمت أمام الأعداء ربّما تنتهي كل المشاكل والمصائب والمتاعب بظهور المسيح ﷺ وتبدأ حياة جديدة:

«لا تقولي: (لا تُؤاخذي).../فقد كان

قضاءً وَقَدَّر.../رَبِّمَا كَانَ الْمَسِيحُ الْمُنْتَظَرُ...»
(قُبَانِي، ١٩٩٨م: ج٤، ١٩٨).

«سَرَقْتُمُ الْمَسِيحَ مِنْ مَنْزِلِهِ فِي
الْناصِرِهِ/فَصَقُّ الْعَالَمِ لِلْمَغَامِرِهِ» (قُبَانِي،
١٩٩٨م: ج٣، ١٨٠).

«سَرَقُوا عَيْسَى بَنَ مَرْيَمَ/وَهُوَ مَا زَالَ
رَضِيْعًا» (قُبَانِي، ١٩٩٨م: ج٩، ٧٤٩).

أَصْحَابُ الْمَنَاصِبِ وَالْكَرَاسِيِّ وَأَصْحَابُ
الْخَطَابَاتِ الرَّئَانَةِ هُمُ مَنْ قَتَلُوا الْجَنْدِي
العَرَبِي وَتَاجَرُوا بِدَمِهِ. وَهُمُ مَنْ قَتَلُوا السَّيِّدَ
الْمَسِيحَ وَأَطَاحُوا بِمَجْدِهِ. يَقُولُ فِي قَصِيدَةِ
«إِلَى الْجَنْدِي الْعَرَبِي الْمَجْهُولِ»:

«لَوْ يُقْتَلُونَ... مِثْلَمَا قُتِلْتُ/لَوْ يَعْرِفُونَ أَنْ
يَمُوتُوا... مِثْلَمَا فَعَلْتُ/لَوْ أَنَّهُمْ مِنْ خَلْفِ
طَاوَلَاتِهِمْ/قَدْ خَرَجُوا... كَمَا خَرَجْتَ أَنْتِ/
وَاحْتَرَقُوا.../فِي لَهَبِ الْمَجْدِ، كَمَا احْتَرَقْتَ/
لَمْ يَسْقُطِ الْمَسِيحُ مَذْبُوحًا/عَلَى تَرَابِ
الْناصِرِهِ» (قُبَانِي، ١٩٩٨م: ج٣، ١٦٣).

اتَّخَذَ نِزَارُ قُبَانِي مَوْقِعَهُ فِي خَنْدِقِ
الشَّعْرِ الْمَقَاوِمِ بَعْدَ الْخَامِسِ مِنْ حَزِيرَانِ
١٩٦٧ لِيَبْرَهِنَ عَلَى صِدْقِ التَّزَامِهِ بِهَمُومِ
الْأُمَّةِ وَأَمَالِهَا فَسَكَنْتْ هَمُومُ فِلَسْطِينِ فِي
وَجْدَانِهِ، فَخَاضَ بِهَا مَعْرَكَتَهُ ضِدَّ الْإِنْهَازِيَّةِ
وَالْتِخَاذِ الْعَرَبِيِّ وَالتَّفَتِّ إِلَى حَالَةِ الْوَهْنِ
العَرَبِيِّ، وَوَقَفَ عَلَى أَسْبَابِهَا، بَيْنَ طَرِقِ
الْخِلَاصِ، وَسِيَاسَتِهَا الْقَمْعِيَّةِ ضِدَّ شَعُوبِهَا

فَلَا يَرِيدُ نِزَارُ قُبَانِي وَطَنًا مَحْكُومًا بِالْإِعْدَامِ
وَيَتَمَلَّقُ لِلنِّظَامِ وَيَمْنَعُ مِنْ حُرِيَّةِ التَّعْبِيرِ
وَيُصَلِّبُ كَالْمَسِيحِ. مَا يَرَاهُ الشَّاعِرُ مِنْ
أَوْطَانِ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ هِيَ حُبُوبِ
«إِسْبَرِينَ» نَقَرًا لَهُ فِي قَصِيدَةِ «قِرْصِ
الإِسْبَرِينَ»:

«لَا.../لَيْسَ هَذَا الْكَائِنُ الْمَحْكُومُ
بِالإِعْدَامِ/وَالْمِصَابُ بِالْفِصَامِ/وَالْجَالِسُ
كَالْكَلْبِ تَحْتَ جِزْمَةِ النِّظَامِ/وَالْمَمْنُوعُ مِنْ
حُرِيَّةِ التَّعْبِيرِ/لَا.../لَيْسَ هَذَا الْجَسْدُ
الْمِصْلُوبُ/فَوْقَ حَائِطِ الْأَحْزَانِ كَالْمَسِيحِ»
(قُبَانِي، ١٩٩٨م: ج٦، ٥٥).

«دَخَلُوا قَانَا... كَأَفْوَاجِ نِثَابٍ جَائِعَةٍ.../
يَشْعَلُونَ النَّارَ فِي بَيْتِ الْمَسِيحِ...» (قُبَانِي،
١٩٩٨م: ج٩، ٧٥٨).

مَرَّتْ أَعْوَامٌ كَثِيرَةٌ وَالشَّارِعُ الْعَرَبِيُّ
مُتَخَاذِلٌ وَلَا يَطْرَحُ أَسْئَلَتَهُ وَخَيْمَ عَلَيْهِ الظَّلَامُ
وَلَمْ يَأْتِ مَسِيحٌ لِيَنْقِلِ الصُّورَةَ مِنْ
التَّرَاجِيدِ إِلَى السَّعَادَةِ:

«لَقَدْ مَرَّ عَشْرُونَ عَامًا عَلَيْنَا/لَقَدْ مَرَّ
عَشْرُونَ عَامًا/وَلَيْسَ هُنَاكَ مَنْ يَطْرَحُ
أَسْئَلَةَ/وَلَيْسَ هُنَاكَ مَسِيحٌ... وَلَا جُلُجَلَةٌ»
(قُبَانِي، ١٩٩٨م: ج٦، ٢٦٠).

٤ - النَتِيْجَةُ

عِلَاقَةُ الْعَرَبِ بِالْمَسِيحِيَّةِ عِلَاقَةٌ تَارِيخِيَّةٌ
مُتَوَاجِدَةٌ مِنْ عَصْرِ قَبْلِ الْإِسْلَامِ حَتَّى يَوْمِنَا

الحالي وشكّل الكتاب المقدس والتراث المسيحي أصلاً خصباً من أصول الشعراء المعاصرين الأسطوريين كمحمود درويش ونزار قباني، وبخاصة ما كان قائماً من قصصه الدينيّة على فكرة الفداء والتضحية والمعجزات. فقد كان حرص الشعارين منصباً على الإفادة من رموزه المتعلقة بالتضحية والفداء وما كان يشكّل جوهر عقيدة السيد المسيح ﷺ من تحمّل خطايا البشر، وصولاً إلى عالم المعجزات الذي ظلّ يحلم به حتى آخر لحظة من عمره. ويستمدّ الشاعران من الكتاب المقدس معظم الرموز المتعلقة بآلام السيد المسيح وقيامته، متّخذين منها دلالات ذاتية على المعاناة من غربة روحية وانكسارات واكتئابات نفسية سببها تحولات خاصّة على أنّ هذه الرموز ما تلبث أن تتحوّل إلى مواقف اجتماعية تتدفّق حيوية وأصالة، تتجاوز الذات لتشكّل مع العام توحّداً. إنّ نظرة عامة لما سبق تؤدّي إلى النتائج التالية: إنّ القناع أحد أشكال الرمز ووسيلة للتعبير عن تجربة معاصرة وقصيدة القناع تجلّ من تجلّيات حداثة القصيدة العربية، وأخذ محمود درويش ونزار قباني شخصية المسيح ﷺ قناعاً في شعريهما وتحديثاً من خلال هذه الشخصية عن محنتيهما وكانا يعتمدان في قصائدهما القناعيّة على الأفكار والرموز المسيحية،

أكثر من اعتمادهما المصادر الإسلامية، ويستعيران ثلاثة من ملامح شخصية المسيح ﷺ الصلب والفداء، والحياة من خلال الموت، ويستلهمان قصة صلب المسيح ﷺ ليقوما نوعاً من التوازي بين تجربة المسيح المصلوب، وتجربتيهما الشخصية، ويعبران من خلال القناع تعبيراً غير مباشر عن أفكاره السياسية والاجتماعيّة والثقافيّة، واستعمل محمود درويش شخصية المسيح وجسّد من خلالها ألم فلسطين ومعاناة شعبها المظلوم وألم ذاته كالعربة النفسية والوطنية والتشريد في حين يتبع هذه الآلام محرّضاً للنضال والمقاومة لنجاح الانتفاضة واستقلال فلسطين ووطنه العزيز المحبب كما استعمل نزار قباني هذه الشخصية لتجسيد تجربته العاطفية والنفسية كعواطفه اتّجاه المرأة وهواها وفقدان أحبائه ومآسي ومرارة الحياة ومتاعب العالم الجديد وغربته عن موطنه دمشق وبعده منها طوال حياته فضلاً عن ذلك فقد اهتمّ بالقضية الفلسطينية والحرية والإنسانيّة.

المصادر والمراجع

- ابن منظور، محمد بن مكرم (١٩٨٨). لسان العرب. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- أبو علي، نبيل خالد (١٩٩٩). نزار قباني شاعر المرأة والسياسة. القاهرة: مكتبة مدبولي.
- أبو هيف، عبدالله (٢٠٠٤)، قناع المتنبّي في الشعر العربي الحديث. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- بسيسو، عبدالرحمن (١٩٩٩). قصيدة القناع في الشعر العربي المعاصر. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- بلقزيز، عبدالإله والآخرين (٢٠٠٩). هكذا تكلم محمود درويش: دراسات في ذكري رحيله. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- حلاوي، يوسف (١٩٩٤). الأسطورة في الشعر العربي المعاصر. بيروت: دار الآداب.
- درويش، محمود (٢٠٠٠). الأعمال الشعرية الكاملة. بغداد: دار الحرية.
- درويش، محمود (١٩٩٤). ديوان. بيروت: دار العودة.
- دهان، ميرفت (٢٠٠٢). نزار قباني والقضية الفلسطينية. بيروت: بيسان للنشر والتوزيع.
- سامي، سحر (١٩٩٩). المختلّف الحقيقي دراسات وشهادات محمود درويش. عمان: دار الشروق.
- عباس، احسان (١٩٧٨). اتجاهات الشعر العربي المعاصر. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- عبدالوهاب، أحمد (١٩٧٩). نبوة الانبياء في إلهودية المسيحية والاسلام. بيروت: مكتبة وهبة.
- عرود، على احمد محمد (بلاتا). جدلية نزار قباني في النقد العربي الحديث. أردن: دار الكتاب الثقافي.
- عزام، محمد (٢٠٠٥). قصيدة القناع في الشعر السوري المعاصر، مجلة الموقف الادبي، اتحاد الكتاب العرب، العدد ٤١٢، دمشق: www.awu-dam.org.
- قباني، نزار (١٩٩٨). الأعمال الشعرية الكاملة. بيروت: منشورات نزار قباني.
- كرم، سرجون (٢٠٠٧). الدلالة الدينية في الشعر الفلسطيني. www.ssnp.info.
- كندي، محمد علي (٢٠٠٣). الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.
- المساوي، عبدالسلام (٢٠٠٩). جماليات الموت في شعر محمود درويش. بيروت: دار الساقي.
- مغنيه، احمد جواد (٢٠٠٤). الغربية في شعر محمود درويش. بيروت: دار الفارابي.
- الموسي، خليل (١٩٩٩). بنية القناع في القصيدة العربية المعاصرة. مجلة الموقف الادبي، اتحاد الكتاب العرب، العدد ٣٣٦، دمشق: www.awu-dam.org.

الاستقلال الوطني

في مناقشات مجلس النواب اللبناني/١٩٤٣

د. حسن إبراهيم

اللبناني، كانت طبيعته الانتخابات النيابية في العام ١٩٤٣.

وشهد الصراع الفرنسي البريطاني تزامناً متزايداً، في العديد من المواقع، إذ شكّل لبنان وجهاً آخراً لتفاقم ذلك الصراع، نتيجة المصالح العامة للبلدين القويين في منطقة الشرق الأوسط، وأفضت التجاذبات بينهما، لصالح نيل لبنان استقلاله عن فرنسا.

ففي خضمّ الحرب الدائرة، وما نتج عنها من متغيرات جغرافية عسكرية، في خارطة السياسة الفرنسية، صدر موقف بارز من الدولتين، الفرنسية والبريطانية، عبر ممثليهما، الجنرال «كاترو»، وسفير انكلترا في القاهرة مايلز لامبسون (Miles Lampson)، بتاريخ ٨ آذار ١٩٤١، أعلننا فيه استقلال كل من سوريا ولبنان، ونهاية الانتداب الفرنسي عليهما^(١).

تمهيد

شهد الاستقلال الوطني اللبناني، في العام ١٩٤٣، تطورات محلية هامة، إضافة إلى متابعات من الدول المجاورة والدولية، وقد نشأ النزاع اللبناني الفرنسي، بعد سماع اللبنانيين وعد الجنرال جورج كاترو (Georges Catroux) خلال مجريات أحداث الحرب العالمية الثانية، بمنح لبنان وسوريا الاستقلال التام، فكان بمثابة الركيزة الأولى التي انطلق منها اللبنانيون، من أجل المطالبة الفعلية بتنفيذه.

قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية، ظهرت فرنسا منهكة القوى، فعملت بريطانيا على استغلال هذا الضعف، ودخلت الساحة اللبنانية بقوة حنكتها السياسية والعسكرية، لتفرض واقعاً مؤيداً لها بين الساسة اللبنانيين، الذين شكّلوا معبرها إلى الداخل

(١) Catroux, Georges: «Dans La Bataille de la Méditerranée, Egypte, Levant, Afrique du Nord, 1940 - 1944. Témoinages et Commentaires», René Julliard, Paris, 1949, P. 178.

وقامت مصلحة مشتركة بين الفرنسيين والبريطانيين، بتغيير حكومي في لبنان^(١)، عبر انتخاب رئيس جديد وحكومة جديدة بإبعاد سامي الصلح، يتبعها انتخاب مجلس نيابي جديد، حاولت فرنسا إعادة المجلس الذي تمّ حلّه في العام ١٩٣٩، فرفضته بريطانيا، وجرى التوافق على انتخابات جديدة.

بعد وصوله إلى لبنان، طالب «كاترو» أثناء وجوده في السراي في ٢٦/١١/١٩٤١، ربط استقلال لبنان بعقد معاهدة بين لبنان وفرنسا، تستوحي مضمونها من روح المعاهدة اللبنانية الفرنسية في العام ١٩٣٦، لكن في الوقت عينه، يتمتع لبنان بالحقوق والامتيازات التي تعتبره دولة سيّدة ومستقلة، شرط خضوعها للقيود التي تفرضها حالة الحرب القائمة^(٢)، لكن طلبه باء بالفشل.

أولاً: انتخاب المجلس النيابي ١٩٤٣، وبداية الصراع اللبناني - الفرنسي
بتاريخ ١٨ آذار ١٩٤٣، أصدر «كاترو»

القرار الرقم FC/129، أعاد بموجبه تطبيق الدستور، من خلال إجراء انتخابات نيابية، بعد تأخير تنفيذ وعده بتحقيق استقلال لبنان زهاء السنتين، فأعلن مرحلة جديدة من الحياة الدستورية اللبنانية، استهأها بإقالة ألفرد نقاش، وتعيين أيوب ثابت رئيساً للدولة وللحكومة معاً^(٣)، بموجب القرار الرقم FC/131، وهو المعروف «بنزعتة اللبنانية المصطبغة بمسيحية متطرفة»^(٤)، في وقت كان الخلاف الفرنسي - البريطاني جلياً في دعم اللائحتين المتصارعتين، المحسوبتين على كلا الدولتين، في انتخابات العام ١٩٤٣.

ظهر الاصطفاف السياسي الداخلي للوائح الانتخابية، ففازت اللوائح المدعومة من بريطانيا، في مناطق الشمال والجنوب والبقاع^(٥)، وقد وجد كمال جنبلاط، أن الدور البريطاني الكبير في الانتخابات أدى إلى وصول معارضي إميل إده إلى المجلس^(٦)، بعد تدخل مباشر من الجنرال

- (١) حسان حلاق: التيارات السياسية في لبنان، ١٩٤٣ - ١٩٥٢، مع دراسة للعلاقات اللبنانية - العربية، والعلاقات اللبنانية - الدولية، الدار الجامعية، بيروت، ١٩٨٨، ص ٩٣.
- (٢) DAHDAH, Najib: «Evolution Historique du Liban», Eddition Oasis, Paris, 1964, Annexe N°7, P.
- (٣) يوسف قزما خوري: البيانات الوزارية اللبنانية ومناقشاتها في مجلس النواب، ١٩٢٦ - ١٩٨٤، دار المطبوعات الشرقية، بيروت، ط ١، ١٩٨٦، مجلد ١، ص ١٢٤.
- (٤) بشارة الخوري: حقائق لبنانية، مطابع باسيل إخوان، ١٩٦٠، م ٣، ص ١٢.
- (٥) منير تقي الدين: ولادة استقلال، دار النهار، بيروت، ط ٢، ١٩٩٧، ص ٣٠.
- (٦) كمال جنبلاط: حقيقة الثورة اللبنانية، الدوافع الحقيقية للانتفاضة اللبنانية الأخيرة، دار النشر العربية، بيروت، ط ١، ١٩٥٩، ص ٥١.

الفرنسيين، نزولاً عند الوعود التي أطلقوها إبّان الحرب العالمية الثانية، بمساعدة بعض الدول الخارجية، وتأييد شعبي عارم في الداخل.

١ - تعديل الدستور اللبناني، وبداية الأزمة مع الانتداب

لم تمضِ إلا أيام معدودة حتى تصاعدت حدة التوتر بين رئيسي الجمهورية والحكومة، من جهة، وبين المندوبية الفرنسية، من جهة أخرى، بدءاً من تنفيذ بعض البروتوكولات الإدارية، أدت فيما بعد إلى نشوب أزمة فعلية، حيث كان يترتب على كل حكومة عند تأليفها، زيارة المندوب الفرنسي، إلا أن حكومة رياض الصلح، خالفت هذا العرف، واعتبرت المندوب الفرنسي سفيراً كسواه من سفراء الدول في لبنان، وأن زيارته هي انتقاص من استقلال لبنان^(٥)، وبلغت ذروة التوتر أثناء تقديم مشروع القانون الذي يرمي إلى

سبيرز، وضعف السلطات الانتدابية بالضغط على ناخبي مختلف المناطق اللبنانية خارج بيروت وجبل لبنان^(١).

وبنتيجة الانتخابات، تشكّل برلمان جديد برئاسة صبري حماده^(٢)، ما لبث أن انتخب بشارة الخوري رئيساً للجمهورية^(٣)، بتأييد من بريطانيا، وقد أرغمت فرنسا على القبول به، بعدما وجدت فيه أقلّ خطورة من سواه، وتعبيراً عن انزعاج فرنسا لانتخابه، غاب مؤيدوها من النواب عن جلسة الانتخاب تلك، فلم يحضر كل من إميل إده، كمال جنبلاط، أسعد البستاني، جورج عقل، أحمد الحسيني، عبد الغني الخطيب وجميل تلحوق، الذين يشكلون الكتلة الوطنية، كما غاب أيوب ثابت (مستقل)^(٤)، وهم ممن يدورون في فلك السياسة الفرنسية.

وسرعان ما توافق أركان الحكم في لبنان على المطالبة بالاستقلال التام عن

- (١) مسعود ظاهر: لبنان الاستقلال، الصيغة والميثاق، دار المطبوعات الشرقية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٤، ص ١٤٢.
- (٢) نال صبري حماده ٣٩ صوتاً، مقابل نقولا غصن صوتاً واحداً، ووجود ٦ أوراق بيضاء. راجع: المجلس النيابي الخامس، العقد الاستثنائي الأول، محضر الجلسة الأولى، المنعقدة في ٢١ أيلول سنة ١٩٤٣.
- ثم أعيد انتخابه خلال الدورة العادية الأولى، في شهر تشرين أول لنفس العام، فنال ٤٧ صوتاً، مقابل إبراهيم حيدر صوتاً واحداً. راجع: المجلس النيابي الخامس، العقد العادي الأول، محضر الجلسة الأولى، المنعقدة في ١٩ تشرين أول ١٩٤٣.
- (٣) نال بشارة الخوري ٤٤ صوتاً، من ٤٧ مقترعاً، ووجدت ثلاثة أوراق بيضاء. راجع: المجلس النيابي الخامس، العقد الاستثنائي الأول، محضر الجلسة الأولى، المنعقدة في ٢١ أيلول سنة ١٩٤٣، مصدر سابق.
- (٤) بشارة الخوري: حقائق لبنانية، مصدر سابق، م ٢، ص ١٥.
- (٥) منير تقي الدين: ولادة استقلال، مصدر سابق، ص ٣٦.

تعديل بعض مواد الدستور اللبناني، المواد ١١، ٥٢، ٩٥ و١٠٢، وإلغاء المواد ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣ و٩٤، وقد وجّه رئيس الحكومة حينها، مذكرة يطلب فيها استعمال اللغة العربية في المراسلات الحكومية، جاء فيها: «أرجو من حضرتكم أن تحرروا التعليمات اللازمة إلى جميع الدوائر التابعة لوزارتكم بأن جميع المخابرات والمعاملات بين الدوائر الرسمية يجب أن تحرر منذ الآن فصاعداً باللغة العربية التي هي لغة البلاد الرسمية، وذلك عملاً بالعهد الذي قطعتة الحكومة على نفسها في البيان الوزاري»^(١).

تضمّن البيان الوزاري، نقاطاً أساسية باعتبار لبنان دولة حرة مستقلة، غير خاضعة للانتداب الفرنسي، ودعا «قبل كل شيء أن ننظم هذا الاستقلال تنظيمًا محكمًا بحيث يصبح أمراً واقعياً»^(٢)، عبر المباشرة بتعديل الدستور، معتبراً أن «في الدستور اللبناني مواد لا يتفق وجودها وقيام الاستقلال وفيها ما يجعل لغير الشعب اللبناني وممثليه الشرعيين مشاوره في

تسيير شؤونه، وستعتمد الحكومة حالاً فتطلب إلى مجلسكم الكريم أن يجري في الدستور التعديلات التي تجرده من هذه القيود فيصبح دستور دولة مستقلة تمام الاستقلال»^(٣)، وقد ركّز على تعديل المادة الحادية عشرة المتعلقة باللغتين العربية والفرنسية، مطالباً بأن تكون «اللغة العربية لغة الدواوين الرسمية»^(٤)، وأما فيما يتعلّق بالسياسة الخارجية للبلاد، وهي ركن أساسي في العلاقات الدولية للبنان، فقد تطرق إليها الصلح في بيانه الوزاري، على قاعدة اعتبار أن لبنان دولة مستقلة، ذات سيادة سياسية داخلية وخارجية، ووعده بإنشاء وزارة الخارجية، وأولى الاعتناء «بتنظيمها عناية تامة بعد أن أصبحت كل علاقاتنا بالدول ومخابراتنا لها تجري بواسطة هذه الوزارة، ومما سنخصه بالعناية أمر التمثيل الخارجي فسنبادر إلى تأسيسه على خير ما تقوم به مصلحة البلاد»^(٥)، ومما انبثق عن فكرة إنشاء وزارة الخارجية، هو استحداث لجنة الشؤون الخارجية، كما طالب النائب جورج

(١) جريدة صوت الأحرار، العدد ٥٠٥٨، تاريخ ١٤/١٠/١٩٤٣.

(٢) المجلس النيابي الخامس، العقد الاستثنائي الأول، محضر الجلسة الثالثة، المنعقدة في ٧ تشرين الأول ١٩٤٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المجلس النيابي الخامس، العقد الاستثنائي الأول، محضر الجلسة الثالثة، المنعقدة في ٧ تشرين الأول ١٩٤٣، مصدر

سابق.

عقل، معتبراً أنها «أحدثت في هذا الدور الاستقلالي»، وقد شارك في عضويتها، بعد موافقة المجلس على استحداثها^(١).

٢ - إقرار تعديل الدستور في المجلس النيابي

اجتمع المجلس النيابي، في جلسة تشريعية عامة، من أجل إقرار التعديل الدستوري، بتاريخ ١١/٧/١٩٤٣، أراد منها أركان الحكم جلسة إعلان الاستقلال عن فرنسا، فاعتبرها الانتداب الفرنسي جلسة تحدٍ له، تعتمد «فعل عصيان»^(٢)، فكانت النذير لابتداء المواجهة السياسية والعسكرية، وما كان من المندوب الفرنسي بالوكالة «ايف شاتينو» (Yve Chataigneau)، إلا أن طلب من بشارة الخوري التخلي عن التعديل، وطلب من الحكومة أن تسترد المشروع من المجلس، فلم يفلح^(٣).

انعقد المجلس الخامس، بدعوة من رئيس الجمهورية، بموجب المرسوم الرقم (٩٢) تاريخ ١١/٥/١٩٤٣، لمناقشة

مشروع القانون الذي تقدّم به، ولم يستمر نقاش التعديل لأكثر من جلسة واحدة، وقد شهدت نقاشاً مسهباً في الموضوع، عبّر عدد وافٍ من النواب، عن تأييدهم له، معتبرين أن الاستقلال حق اللبنانيين جميعاً، فيما غاب ثلاثة نواب من الكتلة الوطنية، مؤيدون للانتداب الفرنسي، بناء لطلبه، هم أيوب ثابت، أحمد الحسيني، در كالوسيان^(٤)، في حين حضر عدد آخر من أعضاء الكتلة نفسها، أبرزهم الفرد نقاش الذي اعترض على التعديل، وحاول إرجاءه، فاقترح أن «يدرس المشروع الحالي درساً وافياً من جميع جهاته وخصوصاً من الوجهة القانونية قبل أن يطرح للتصويت على هذا المجلس في السرعة المعلومة لا سيما وأن تعديل القوانين الأساسية في جميع المجالس له الأهمية الكبرى»^(٥)، ثم عقب يعقوب الصراف الذي وجد في الانتداب حالة شاذة «قد طال أمده»^(٦).

توالت المواقف المؤيدة لتعديل الدستور من العديد من النواب اللبنانيين، فاجتمعت كلماتهم على وحدة الموقف، وتأييد

(١) المجلس النيابي الخامس، العقد العادي الثاني، محضر الجلسة الثالثة، المنعقدة في ٨ تشرين الثاني ١٩٤٣.

(٢) ستيفن هامسلي لونغريغ: تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ترجمة بيار عقل، دار الحقيقة، بيروت، ط ١، ١٩٧٨، ص ٤١١.

(٣) منير تقي الدين: ولادة استقلال، مصدر سابق، ص ٤٨.

(٤) المجلس النيابي الخامس، العقد العادي الثاني، محضر الجلسة الثالثة، المنعقدة في ٨ تشرين الثاني ١٩٤٣، مصدر سابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

الحكومة في عملها ذلك، الذي لم يكن «انتقاصاً لصدقات ولا انتقاصاً لكرامات إنما هو مهر لتلك الصداقة وإقرار لتلك الكرامة»^(١)، فما كان من جورج عقل، المنضوي تحت كتلة إميل إدة، التي تعمل على تأجيل البحث بتعديل الدستور، وفق المطلب الفرنسي، إلا أن طلب «احالة المشروع إلى لجنة خاصة لدرسه»^(٢)، تمهيداً لسحبه من التداول، فاعترض النائب إميل لحود عليه، مؤيداً مشروع التعديل، واعتبر أنه «ليس من المستلزم أن يحيل المجلس كل مشروع على اللجنة»^(٣)، لأن المجلس له وحده الحق بإقرار القوانين، أما إذا كان المشروع المطروح «من الخطورة بمكان فأرى أن نتناقش به الآن بحضور أعضاء الوزارة لا سيما وقد وزع علينا منذ ثلاثة أيام وأظنها تكفي لدرسه وإذا كنا نخشى المسؤولية تجاه الرأي العام فهو بتأجيلنا البت فيه فوراً لأن ذلك يتعلق باستقلال لبنان وكرامته، فأطلب طرح المشروع حالاً والمناقشة»^(٤)، ورفض «أن يتأخر استقلال لبنان مرة ثانية بل نريد أن نخلص من هذه القيود فأرجو أن نختتم باب المناقشة ونطرح هذا المشروع على التصويت»^(٥)، معتبراً أنه يتناول ثلاث فئات:

- إن البلاد اللبنانية ذات سيادة تامة فهل يتلکأ لبناني واحد في الموافقة على ذلك؟....

- روج بعضهم أن الحكومة تريد أن تقهر الناس على التكلم باللغة العربية ورئيس الحكومة صرح منذ قليل أنه يريد جعل لغة الدواوين الرسمية اللغة العربية.
- أن يُلغى من الدستور مراقبة الانتخاب وجمعية الأمم^(٦).

بعد المداولات العامة، ومشاركة بعض النواب في صياغة مضمون التعديل الذي طرأ على المادة الأولى، وجد النائب أسعد البستاني أن «مشروع التعديل قد أهمل ذكر الحدود الجنوبية اللبنانية بالتفصيل»^(٧)، لذا كان لا بدّ من تحديد الحدود الجنوبية، بشكل واضح لا لبس فيه، وأتى سؤال النائب رشيد بيضون عنها^(٨)، ليزيد من توضيحها، فقبل التعديل النهائي بالإجماع، وأصبحت كما يلي:

أ - المادة الأولى: «لبنان دولة مستقلة ذات وحدة لا تتجزأ وسيادة تامة، أما حدوده فهي التي تحده حالياً:

- شمالاً: من مصب النهر الكبير على خط يرافق مجرى النهر إلى نقطة اجتماعه (بوادي خالد) الصاب فيه على علو (جسر القمر).

(١ - ٨) المجلس النيابي الخامس، العقد العادي الثاني، محضر الجلسة الثالثة، المنعقدة في ٨ تشرين الثاني ١٩٤٣، مصدر سابق.

- شرقاً: خط القمة الفاصل بين (وادي خالد) ووادي نهر العاصي (أورونت) ماراً بقرى . معيصرة . حربعانة . هيت . ابش . فيصان . على علو قريتي . بريفا ومطربا وهذا الخط تابع حدود قضاء بعلبك الشمالية من الجهة الشمالية الشرقية والجهة الجنوبية الشرقية ثم حدود أقضية بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا الشرقية.

- جنوباً: حدود قضائي صور ومرجعيون الجنوبية الحالية.
- غرباً: البحر المتوسط».

ثم دار نقاش حول اعتماد اللغة الفرنسية في بعض الدوائر الرسمية، فرفضها النائب كاظم الخليل، مكتفياً باللغة العربية وحدها، لأننا «بلاد عربية ولغتنا عربية وكافة معاملتنا باللغة العربية فما الحاجة لوضع الشطر الثاني من المادة الثانية»^(١)، فيما وجد البعض ضرورة اعتمادها نظراً لوجود محاكم مختلطة، ولا يستغنى عن اللغة الفرنسية، فيما رفض رئيس الحكومة اقتراح النائب جميل تلحوق، بإدراج عبارة «اللغات الأجنبية بدلاً من كلمة اللغة الفرنسية»^(٢)، وأكد على اعتمادها لوجود المحاكم المختلطة، فهذا «لا يدخل في صلب الدستور بل بقرار يزول بزوال المحاكم المختلطة»^(٣).

ثم كانت مداخلة للنائب حميد فرنجية، ذكّر فيها بارتباط لبنان باتفاقات دولية، يتوجب عليه احترام تعهداته، كما يوجد في لبنان جامعتان، تدرّس إحداها باللغة الفرنسية، وتدرّس الأخرى باللغة الإنكليزية، وهذا لا يمنع أحداً من «أن يتعلم ويتكلم باللغة التي يريدها بها، جلّ ما نريد ونصبو إليه أن تبقى لغتنا العربية لغة دواويننا الرسمية، فلا يمكننا أن نتخاطب مع بقية الدول بغير اللغة الفرنسية كما لا يمكننا أن نتخاطب مع جيراننا إلا باللغة العربية ومع أصدقائنا إلا بلغتهم، فأطلب أن يصوتوا على هذه المادة كما هي حتى لا نحتاج إلى تعديل الدستور مرة ثانية»^(٤)، وعندما طرح تعديل المادة نال الموافقة بالإجماع، فأصبحت كما يلي:

ب - المادة الثانية: عدلت المادة الحادية عشرة كما يلي: «اللغة العربية هي اللغة الوطنية الرسمية، أما اللغة الفرنسية فتحدد الأحوال التي تستعمل بها بموجب قانون».

ج - المادة الثالثة: ترمي إلى تعديل المادة الثانية والخمسين وهذا نصها: «يتولى رئيس الجمهورية المفاوضة في عقد المعاهدات الدولية وإبرامها ويطلع

(١ - ٤) المجلس النيابي الخامس، العقد العادي الثاني، محضر الجلسة الثالثة، المنعقدة في ٨ تشرين الثاني ١٩٤٣، مصدر سابق.

الدول المجاورة الواقعة ضمن نطاق الانتداب الفرنسي التي يرغب لبنان في توثيق عرى الولاء معها في جو هادئ من الوثام على شرط المعاملة بالمثل».

– «المادة الثالثة والتسعون: تتعهد الجمهورية اللبنانية بمقتضى الدستور تعهداً رسمياً أن تحكم الدولة المنتدبة بتسوية الخلافات التي من شأنها أن تعكر جو الأمن ولذلك فالجمهورية اللبنانية مستعدة لإبرام الاتفاقات بينها وبين جيرانها وكل الدول الأخرى الراغبة في الاتفاق معها على أن تتضمن هذه الاتفاقات نصاً صريحاً يقضي بإلزام الدول المتعاقدة بالتحكيم الاجباري في كل خلاف».

– «المادة الرابعة والتسعون: تتفق الحكومة اللبنانية فيما بعد مع ممثل الدولة المنتدبة على انشاء وكالة لبنانية في باريس ووظائف ملحقين لبنانيين بدور الاعتماد السياسية والقنصليات الفرنسية في المدن الأجنبية حيث تدعو الحاجة إلى ذلك بالنسبة إلى عدد اللبنانيين المقيمين فيها.

وتبذل الحكومة الفرنسية كل ما في وسعها في سبيل توثيق العرى التي تربط اللبنانيين المهاجرين بوطنهم الأصلي».

هـ – **المادة الخامسة:** ترمي إلى تعديل المادة الخامسة والتسعين ونصها:
«بصورة مؤقتة وعملاً بالمادة الأولى

المجلس عليها حينما تمكنه من ذلك مصلحة البلاد وسلامة الدولة. أما المعاهدات التي تنطوي على شروط تتعلق بمالية الدولة والمعاهدات التجارية وسائر المعاهدات التي لا يجوز فسخها سنة فسنة فلا تعد مبرمة إلا بعد موافقة المجلس عليها».

حذف منها «مع الاحتفاظ بنص المادة الثالثة من صك الانتداب»، وبعد التصويت عليها قُبلت المادة بالإجماع.

د – **المادة الرابعة:** «ألغيت المواد التسعون والحادية والتسعون والثانية والتسعون والرابعة والتسعون»، فنالت الموافقة بالإجماع أيضاً.

وفيما يلي مضمون المواد الملغاة:

– «المادة التسعون: ان الأحكام المقررة في هذا الدستور يعمل بها مع الاحتفاظ بما للدولة المنتدبة من الحقوق والواجبات الناتجة عن المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم وعن صك الانتداب».

– «المادة الحادية والتسعون: عندما تسمح الظروف تطلب دولة لبنان الكبير قبولها في جمعية الأمم مستعينة بتوسط الدولة المنتدبة».

– «المادة الثانية والتسعون: تؤكد الجمهورية اللبنانية في هذا الدستور حسن قصدها في المحافظة على روح السلام والوفاق مع الدول الأخرى وخصوصاً

من صك الانتداب والتماساً للعدل والوفاق تمثل الطوائف بصورة عادلة في الوظائف العامة بتشكيل الوزارة دون أن يؤول ذلك إلى اضرار بمصلحة الدولة».

ألغيت الفقرة التالية وهي: عملاً بالمادة الأولى من صك الانتداب.

و - **المادة السادسة:** ترمي إلى تعديل المادة الثانية بعد المئة من الدستور ونصها: «يوضع هذا الدستور في عهدة الجمهورية الفرنسية بصفة كونها منتدبة من لدن عصبة الأمم، وقد ألغيت كل الأحكام الاشتراعية المخالفة لهذا الدستور.

ألغيت الفقرة الأولى من هذه المادة وهي: «يوضع هذا الدستور في عهدة الجمهورية الفرنسية بصفة كونها منتدبة من لدن عصبة الأمم». واحتفظ بالفقرة الأخيرة المتعلقة بإلغاء الأحكام الاشتراعية المخالفة للدستور.

ثانياً: سلطات الانتداب ترفض التعديل

لم يرق للانتداب الفرنسي تعديل الدستور، فصدر بلاغ عن اللجنة الفرنسية في الجزائر، أنكر حق اللبنانيين في تعديل دستورهم دون مشاركة الفرنسيين^(١)، وصمّم على المواجهة مع الدولة اللبنانية

إلى أبعد الحدود، طالباً من النواب المؤيدين له، عدم حضور جلسة التعديل، لكنّه أخفق بذلك، ومع وصول السفير الفرنسي «جان هيللو» (Jean Helleu)، إلى لبنان بتاريخ ٩/١١/١٩٤٣، بعد أن توافق مع اللجنة الفرنسية^(٢)، وما لبثت أن اشتدت الأزمة اللبنانية توتراً، حينما ألغى دعوة الحكومة إلى استعراض بذكرى الهدنة، المزمع عرضه بتاريخ ١١/١١/١٩٤٣، فردّ الرئيس الخوري بإلغاء مشاركته، واتخذت الحكومة قراراً بعدم مشاركة الدرك والشرطة اللبنانية في العرض^(٣).

١ - الانتداب الفرنسي والتصعيد

بعد أن سلك تعديل الدستور مسلكه، ورفض خضوع أركان الحكم في لبنان لإرادة الانتداب، ومن ثمّ نسف البروتوكولات التقليدية، وجد «هيللو» أن الأمور تسير نحو الإفلات من سيطرة الفرنسيين عليها، ما يشكل خطراً داهماً على أصل الانتداب ووجوده، عمد حينها في يوم ١١/١١/١٩٤٣، إلى اعتقال رئيس الجمهورية بشارة الخوري، ورئيس الحكومة رياض الصلح، مع معظم أعضاء الحكومة اللبنانية، عادل عسيران، كميل شمعون، سليم تقلا وعبد الحميد كرامي.

(١) جريدة البشير، العدد ٦٩٧٨، تاريخ ٩/١١/١٩٤٣.

(٢) جريدة البشير، العدد ٦٩٧٩، تاريخ ١٠/١١/١٩٤٣.

(٣) منير تقي الدين: لبنان، ماذا دهك، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩، ص ٥٣.

٢ - تحركات المجلس النيابي اللبناني الأولى

في هذه الأثناء، وجّه رئيس المجلس دعوة إلى مختلف النواب، في صباح ١١/١١/١٩٤٣، بمذكرة تحت الرقم (١٩٣)، إلى عقد جلسة استثنائية مستعجلة، لمناقشة التطورات الميدانية، حاول الفرنسيون الحؤول دون وصول النواب إلى مبنى المجلس لعقدها، فتمكن بعضهم من الدخول إليه، وأصدر رئيس المجلس مذكرة تفيد أن النواب الذين تمكنوا من «الوصول إلى المجلس يعتبرون أنهم ينطقون بإسم المجلس كافة، الذي انتخب فخامة الشيخ بشارة الخوري رئيساً دستورياً شرعياً للجمهورية اللبنانية بالإجماع والذي منح حكومة دولة رياض بك الصلح ثقته بالإجماع والذي عدّل الدستور اللبناني بما يتعلق مع كرامة الأمة بالإجماع»^(٣)، واستنكر هؤلاء النواب المجتمعون برئاسة صبري حمادة «الاعتداء الغاشم والتدابير المستنكرة التي أقدم عليها جنود إفرنسيين مسلحون في ليل ١١/١٠ على أشخاص فخامة الشيخ بشارة الخوري رئيس

أثار اعتقال رجال الحكم، الحشود الشعبية التي ثارت منددة بالاعتقال التعسفي، فقابلها «هيللو» بإصدار القرار الرقم (٤٦٤)، في ١٠/١١/١٩٤٣، يقضي بحلّ المجلس النيابي واعتبار أن مشروع تعديل الدستور هو لاغٍ، وخال من كل صبغة شرعية، ولا مفعول له، كما عمد إلى وقف العمل بالدستور، وطلب إجراء انتخابات نيابية جديدة^(١)، ثم أصدر قراره اللاحق تحت الرقم (٤٦٥)، في اليوم نفسه، عين بموجبه إميل إده رئيساً للجمهورية ورئيساً للحكومة^(٢).

عمل إميل إده على تأليف حكومة، بناء على متطلبات السلطات الفرنسية، محاولاً إسناد حقائب الوزارات إلى المديرين في الوزارات، فرفض أغلبهم تلك المهمة، وتقدموا باستقالاتهم، معتبرين أنها حكومة لا تخدم لبنان.

عند ذلك، احتشد الشعب أمام مجلس النواب، في تظاهرة عارمة مؤيدة لهم، ومتضامنة معهم، في وجه التعسّف الفرنسي، الذي عملت قواته على محاصرة المجلس بمن فيه من النواب.

(١) منير تقي الدين: ولادة استقلال، مصدر سابق، ص ٧٠.

(٢) منير تقي الدين: لبنان ماذا دهاك، مصدر سابق، ص ٦٦.

(٣) المجلس النيابي الخامس، العقد العادي الثاني، محضر الجلسة الرابعة، المنعقدة في ١ كانون الأول ١٩٤٣.

ونحن نضع هذه الوثيقة بين أيدي حكومة الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وجمهورية روسيا المتحدة وبين أيدي اخواننا في الأقطار العربية وملوكهم ورؤسائهم وحكوماتهم»^(١).

وخلال وجودهم في مبنى المجلس، عمل النواب على كسب الوقت، قبل دخول الجنود الفرنسيين، فتقدم ١٣ نائباً^(٢)، باقتراح حول تعديل العلم اللبناني، ونزع الصبغة الفرنسية عنه، ليكون علم البلاد، وتضمن الاقتراح: «عملاً بالمادة السابعة والسبعين من الدستور يتشرف النواب الموقعون بأن يقترحوا على المجلس تعديل المادة الخامسة من الدستور على الوجه التالي:

– مادة وحيدة: العلم اللبناني أحمر فأبيض فأحمر أقساماً أفقية تتوسط الأرزة القسم الأبيض بلون أخضر أما حجم القسم الأبيض فيساوي حجم القسمين الأحمرين معاً، وأما الأرزة فهي في الوسط يلامس رأسها القسم الأحمر العلوي وتلامس قاعدتها القسم الأحمر السفلي، ويكون حجم الأرزة موازياً لثلث حجم القسم الأبيض.

الجمهورية اللبنانية المعظم ودولة رياض بك الصلح رئيس الوزارة وأصحاب المعالي الوزراء، واقتحام هؤلاء الجنود المسلحين منازل رؤساء الأمة ووزرائها الشرعيين وترويعهم نساءهم وأطفالهم مما تستنكره مدينة القرن العشرين، وهم إذ يحتجون بشدة وعنفاً على هذا التداخل الفاضح من قبل الجنود الفرنسية الغاشمة ومن ورائها من الأمرين ضد الدستور وممثلي الدستور ان الدستور قائم وأن البرلمان يمثله تمثيلاً شرعياً رغم اعتداء المعتدين وان السلطات الفرنسية والجنود الفرنسية المسلحة التي أقدمت على هذه الأعمال المستنكرة يقابلها النواب بالاستفزاز والتقيح ويرسلون هذه المذكرة إلى الدول الحليفة العظمى التي أعلنت استقلال لبنان وضمنته ويتوجهون بها إلى البلدان العربية الشقيقة التي اعترفت بهذا الاستقلال.

وفي هذه الدقيقة التي يوقع فيها رئيس المجلس والنواب الذين تمكنوا من الحضور هذه الوثيقة قد صدرت أوامر لا نقرها بإخراجنا من المجلس، وسنبقى هنا ولا نخرج إلا بقوة السلاح.

(١) المجلس النيابي الخامس، العقد العادي الثاني، محضر الجلسة الرابعة، المنعقدة في ١ كانون الأول ١٩٤٣.
(٢) النواب الذين وقعت أسماؤهم في ذيل الاقتراح: نائب الشمال: سعدي المنلا، نائب البقاع: هنري فرعون، نائب بيروت: صائب سلام، نائب الجنوب: رشيد بيضون، مارون كنعان، محمد الفضل، اميل لحود، جميل تلحوق، محمد المصطفى المرعي، نسيب الداود، يوسف الهراوي، محمد يوسف بيضون، وديع نعيم.

ويرجو النواب الموقعون عرض هذا الاقتراح ليصير التصديق عليه بالأكثرية الدستورية المطلوبة في أول جلسة تعقد.

وتفضلوا يا فخامة المجلس بقبول فائق الاحترام.

بيروت في ١١ تشرين الثاني سنة ١٩٤٣^(١).

٣ - المجلس النيابي اللبناني أثناء الثورة

بعد إخراجهم بالقوة من مبنى المجلس النيابي، من قبل القوات الفرنسية، سارع صبري حمادة إلى عقد جلسة تشريعية، في ١٢ ت ١٩٤٣، بمن حضر من النواب، في منزل صائب سلام، هي الأولى له خارج مبنى المجلس، ينكبّ فيها على متابعة المستجدات الطارئة في البلاد، لا سيّما بعد محاولة إدة تأليف حكومته، واتخذت المقررات التالية:

- «اعتبار الدستور قائماً.

- منح الثقة للحكومة المؤلفة من الأستاذين حبيب أبو شهلا والأمير مجيد ارسلان واعتبارهما يؤلفان مجلس الوزراء يقوم مقام رئيس الجمهورية وذلك عملاً بالدستور.

- اعتبار أن الحكومة التي يرأسها اميل اده باطلة وكل قرار أو قانون أو مرسوم أو تدبير تتخذه باطلاً لا يعتد به.

- تفويض الحكومة تفويضاً تاماً مطلقاً باتخاذ جميع التدابير والقيام بجميع المساعي والمخابرات في سبيل عودة الحياة الدستورية والمعتقلين إلى لبنان^(٢).

صدّق هذه المقررات ٣٣ نائباً، وبذلك تكون هذه المقررات حاسمة، لجهة الاستمرار في مواجهة الفرنسيين، من خلال تثبيت حكومة حبيب أبي شهلا ومجيد أرسلان، ومنحها صلاحية استثنائية، لجهة تمثيلها السلطة التنفيذية بكامل صلاحياتها، بما تشمل صلاحيات رئيس الجمهورية، وصلاحيات الحكومة مجتمعة، كما كان الإعلان بأن العمل بالدستور ما زال قائماً، يلغي صلاحيات المندوب الفرنسي، ولم يعد لمقرراته سبيل لتنفيذها، وهو ما أضاف إلى حركة الاستقلال، معنى إضافي، استطاعت أن تسلك المسار الفعلي لها، منذ جلسة التعديل المشهورة، حيث باتت المقررات الفرنسية لاغية، في نظر أركان السلطة اللبنانية الجديدة.

وأيضاً كان لتداعيات مقررات الجلسة،

(١) (١ - ٢) المجلس النيابي الخامس، العقد العادي الثاني، محضر الجلسة الرابعة، المنعقدة في ١ كانون الأول ١٩٤٣، مصدر سابق.

إبطال عمل حكومة إده، وبالتالي تحويلها إلى حكومة غير شرعية، تعمل على اغتصاب السلطة واستغلالها من أجل تحقيق مكاسب سياسية، تأتي في صالح السياسة الفرنسية القائمة على بسط نفوذها في البلاد، واستكمال السيطرة عليها، ما دفع بالنواب إلى وصف إده بأنه «اقترب جرم الخيانة العظمى»^(١).

عاش المجلس النيابي أياماً من الجلسات المتتالية، للوقوف على مجريات الأحداث بشكل فوري، ولم يغيب عن اتخاذ المقررات في مواجهة التصعيد الفرنسي، فكانت مواكبته أنيَّة لكل حدث، فعقد جلسة بتاريخ ١٥/١١/١٩٤٣، قرَّر بنتيجتها المثابرة على «المطالبة بحقوق البلاد على أساس عودة الحياة الدستورية والحكومة المعتقلة إلى حريتها وسلطاتها»^(٢)، ثمَّ توالى الجلسات، فكانت جلسة بتاريخ ١٦/١١/١٩٤٣، برئاسة نقولا غصن، صدَّق المجلس خلالها بالإجماع على اقتراح حميد فرنجية، المتضمَّن ما يلي:

«إن مجلس النواب رفعاً لكل ابهام والتباس حول موقفه من مفاوضات قد تحصل بشأن الأحداث الحاضرة يقرر ما يلي:

إن حق المفاوضة وعقد الاتفاقات محصور بموجب الدستور بالحكومة ورئيس الجمهورية وليس للمجلس إلا حقَّ إبرامها، لذلك فالمجلس يقرر أن لا مفاوضة ممكنة قبل رجوع الأوضاع الدستورية إلى ما كانت عليه قبل ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩٤٣.

وان المفاوضة تجري بموجب المادة ٥٢ من الدستور اللبناني المؤرخ في ٢٣ أيار سنة ١٩٢٦ المعدَّلة بالقانون الدستوري المؤرخ في ٩ تشرين الثاني سنة ١٩٤٣»^(٣).

ثم اجتمع المجلس في أماكن مختلفة، وبأيام متتالية، ما بين ١٧ حتى ٢٠ تشرين الثاني، في بلدة بشامون التي أصبحت مقراً للحكومة اللبنانية، وفي كل هذه الاجتماعات كان الموضوع يتعلق بتطورات الموقف^(٤).

ثالثاً: إنجاز الاستقلال

لم تستطع سلطات الانتداب الفرنسي، الوقوف في وجه الثورة اللبنانية، بعدما تبين لها أن معظم الشعب اللبناني داعماً لقيادته السياسية، بعيداً عن النعرات الطائفية التي عملت على تجييشها، طيلة فترة سيطرتها على زمام الأمور في لبنان،

(١) منير تقي الدين: لبنان ماذا دهاك، مصدر سابق، ص ٨٢.

(٢) (٤ - ٤) المجلس النيابي الخامس، العقد العادي الثاني، محضر الجلسة الرابعة، المنعقدة في ١ كانون الأول ١٩٤٣، مصدر سابق.

الطاعة والولاء، وتدافع عن الحكومة بما تملك من امكانات بشرية وتسليحية، فلم يلق تأييداً.

على صعيد موازٍ، شهدت بلدة بشامون مواجهات عسكرية، بين الجنود الفرنسيين وجموع الأهالي الذين وفدوا إليها للدفاع عن رموز الدولة اللبنانية، فدارت معارك صمد خلالها المقاتلون اللبنانيون، وأوقعوا خسائر في صفوف المهاجمين الفرنسيين^(٢).

وتميّز الموقف اللبناني بالوحدة في صفوف المدافعين عن الحكومة ورمزيتها، فاتّحد المواطنون من مختلف الانتماءات السياسية، على اختلاف طوائفهم، كما اجتمع رؤساء الأحزاب اللبنانية، واتفقوا على توحيد الجهود من أجل تحقيق الاستقلال^(٣).

واجه اللبنانيون بالوحدة الوطنية، كل التعنّت الفرنسي بما يمتلك من قوات عسكرية، وبذلك تكون تلك الوحدة قد قضت على آمال السلطات الانتدابية، في تحقيق هدفها ومنع الحكومة من اللبنانية من تحقيق الاستقلال.

٢ - الضغوط الدولية على فرنسا

في يوم ١٨/١١، أبرق «كاترو»

فاستطاع أركان الحكم اللبناني، بمؤازرة المساندة الشعبية له، أن يفرض وجوده الميداني، وذلك لأسباب عدة، منها ما يتعلّق بالوضع الفرنسي العام، نتيجة انخراطه في الحرب العالمية الثانية، ومنها ما يتعلّق بالدور البريطاني المستجد على الساحة الدولية والمحلية، والعمل على تحقيق المصالح البريطانية في لبنان، ومنها ما هو محليّ، لا سيّما بعد التماسك الشعبي مع الحكومة ورئيس الجمهورية، واتحاد عمل المجلس النيابي معهم، ما أفضى إلى نزع الشرعية عمّن حاول الالتحاق بركب السياسة الفرنسية، من خلال تنفيذ سياستها في لبنان.

١ - ثبات اللبنانيين في مواجهة الفرنسيين

استطاع رئيس مجلس النواب، صبري حمادة، مع عدد قليل من الوزراء، الصمود في وجه القوات الفرنسية، وقد انتقلوا إلى بلدة بشامون، حيث تشكلت الحكومة المؤقتة، من حبيب أبي شهلا ومجيد ارسلان، وكان حمادة قد طرح انتقال تلك الحكومة إلى بعلبك أو الهرمل^(١)، لتصبح في مأمن من القوات الفرنسية، وإثارة العشائر والعائلات الكبيرة، التي تبدي له

(١) أحمد زين الدين: صفحات من حياة الرئيس صبري حمادة، دار نوفل، بيروت، ط ١، ١٩٩٧، ص ١٤٥.

(٢) أنظر: منير تقي الدين: لبنان ماذا دهاك، مصدر سابق، ص ٨٨ - ٩١.

(٣) منير تقي الدين: لبنان ماذا دهاك، مصدر سابق، ص ٩٣.

السوري، الذي عبّر عنه أعضاء المجلس النيابي، حينما وجد هؤلاء أن اعتداء السلطات الفرنسية، على استقلال لبنان، هو اعتداء على استقلال سوريا، وفيه ما يؤثر على العلاقات الحيوية بين البلدين^(١).

٣ - إطلاق المعتقلين وإعلان الاستقلال

إزاء تلك المواقف الشاجبة والمهددة للسلطات الفرنسية في لبنان، وجدت لجنة التحرّر الفرنسية في الجزائر، أنها لم تكن تتوقع أن تؤول مجريات الأحداث في لبنان إلى ما هي عليه، ولم تكن في وارد الحسبان أن تصل العلاقات الفرنسية اللبنانية إلى هذا الدرك^(٧)، ما دفعها إلى إيفاد «كاترو» إلى لبنان، بغية إيجاد حل للأزمة القائمة، بعد دراسة الإنذار البريطاني الجدّي.

عندها اضطرّ «كاترو» للرضوخ وإعادة كل أركان الحكم اللبناني المسجونين إلى مناصبهم، في يوم ١١/٢٠، واستدعى «هيللو» بعدما تسبب بتلك الأزمة، ما شكّل

بتوصيات تضمن إطلاق المعتقلين اللبنانيين، خوفاً من الأسوأ^(١)، وتحت الضغط البريطاني المتزايد، بعدما حدّد «كايسي»، مهلة ثلاثة أيام على إطلاقهم، والذي انطلق من رؤية سياسية لحلف شمال الأطلسي، للأزمة اللبنانية وما تعمل على ترويجه الدعاية الألمانية من خلالها، إضافة إلى المصالح البريطانية فيه^(٢)، فوجهت لندن حينها، رسالة احتجاج إلى لجنة التحرّر الفرنسية، ملوّحة بإعلان الأحكام العرفية، وتولّي قائد الجيش السابع البريطاني مهام الأمن^(٣)، والاعتراف بالوزراء المعتقلين على أنهم يشكلون الحكومة اللبنانية الشرعية^(٤).

وقفت الدول العربية موقفاً مسانداً للحكومة اللبنانية، كما أتت المواقف العربية مؤيدة للثورة الشعبية، المطالبة بالاستقلال عن فرنسا، في طليعة تلك الدول مصر والعراق، وانطلقت المظاهرات في بغداد والقدس والقاهرة^(٥)، وبرز الموقف

(١) ستيفن هامسلي لونغريغ: تاريخ سوريا ولبنان، مصدر سابق، ص ٤١٢.

(٢) أنظر: حسان حلاق: التيارات السياسية في لبنان، مرجع سابق، ص ١٢٦ - ١٢٨.

(٣) منير تقي الدين: لبنان ماذا دهاك، مصدر سابق، ص ١٣٠.

(٤) علي عبد المنعم شعيب: تاريخ لبنان من الاحتلال إلى الجلاء، ١٩١٨ - ١٩٤٦، دار الفارابي، بيروت، ط ١، ١٩٩٠، ص ٢٢٠.

(٥) المرجع السابق، ص ٢١٧.

(٦) محمد مراد: العلاقات اللبنانية السورية، دراسة اقتصادية - اجتماعية - سياسية، دار الرشيد للعلوم، بيروت، ط ١، ١٩٩٣، ص ٤٧٧.

(٧) علي عبد المنعم شعيب: تاريخ لبنان من الاحتلال إلى الجلاء، مرجع سابق، ص ٢١٨.

ضربة موجعة للسياسة الفرنسية في لبنان.

في ٢٢/١١/١٩٤٣، أطلق سراح المعتقلين جميعاً، وعادوا إلى ممارسة نشاطهم المعتاد، وفي صباح اليوم التالي، أعلن «ايف شاتينو» قراره القاضي بإلغاء كل القرارات التي أصدرها «هيللو»، التي تضمنت تعليق الدستور وحلّ المجلس النيابي، وتعيين «إده» ريساً للجمهورية والحكومة.

رابعاً: المجلس النيابي يصون الاستقلال

لعب رئيس المجلس النيابي صبري حمادة، دوراً وطنياً كبيراً، في سبيل تحقيق الاستقلال، فكان المقاتل العسكري، الذي أبى أن يقال عنه إن «ابن حمادة هرب من الشر»^(١)، إضافة إلى كونه الرجل السياسي، في طليعة المدافعين عن مطلب الاستقلال، والعاملين على تحقيقه.

وبعد تحقيق مطلب الاستقلال، وإطلاق سراح أركان الحكم في لبنان، من سجن قلعة راشيا، عقد المجلس النيابي جلسته الأولى بحضور رئيسي الجمهورية

والحكومة، واعتلى حينها صبري حمادة منبر المجلس، متحدثاً باسم مجلس النواب، مخاطباً «الأمة اللبنانية الواعية اليقظة، الغاضبة لكرامتها الواقفة وراء نوابها وحكومتها صفاً واحداً، أوجه إلى الأمة اللبنانية الكريمة تحياتي الخالصة وجزيل شكري على موقفها المشرف وغضببتها الرائعة في سبيل المحافظة على الدستور حامى الحريات وسياج الاستقلال»^(٢)، وقد أبدى ارتياحه لما كان مجلس النواب قد أدى «الأمانة التي في عنقه وقام بما يجب عليه منذ الدقيقة الأولى ولا يزال»^(٣).

١ - اقتراحات النواب في تكريم الشعب اللبناني والدول المساندة

بعد الأحداث السياسية والعسكرية، التي شهدتها لبنان، وفي الجلسة الأولى لمجلس النواب، تقدّم ستة من أعضائه^(٤)، باقتراح يحيي «الأمة اللبنانية التي برهنت عن نضوج ووعي قومي حملها إلى مصاف الأمم الديمقراطية المستقلة، ويسجل الشكر للدول والمؤسسات والشخصيات التي أيدت البلاد في مطالبها الحقّة وساندها في

(١) أحمد زين الدين: صفحات من حياة الرئيس صبري حمادة، مرجع سابق، ص ١٥٠.

(٢) المجلس النيابي الخامس، العقد العادي الثاني، محضر الجلسة الرابعة، المنعقدة في ١ كانون الأول ١٩٤٣، مصدر سابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) النواب الذين وقعت أسماؤهم في ذيل الاقتراح: اميل لحود، مارون كنعان، وديع نعيم، إبراهيم حيدر، أديب الفرزلي ونسيب داود.

الأقطار العربية حذوها جميعاً مما سيحفظه لبنان إلى الأبد»^(٣).

إلى ذلك، تقدم رشيد بيضون باقتراح، تكريماً للمواجهة مع الفرنسيين، وعرفاناً بالجميل يقضي:

«أولاً - تزفيت طريق بشامون.

ثانياً - شراء الدار التي كانت مقراً للحكومة الشرعية وتحويلها إلى مدرسة باسم مدرسة المقر العام.

ثالثاً - اعفاء أهالي بشامون من ضريبة سنة ١٩٤٣.

رابعاً - أن يجمع رفات الشهداء في مدفن واحد.

خامساً - أن يكون الرابع والعشرون من تشرين الثاني يوم عيد الاستقلال اللبناني فتعطل فيه الدوائر شأنها في سائر الأعياد الرسمية.

سادساً - أن يفرض لعائلات الشهداء تعويض اما مقطوع واما شهري. وهذا أقل ما يجب علينا نحو شهدائنا الأبرار طيب الله ثراهم»^(٤).

٢ - اقتراحات صيانة الاستقلال

وجد العديد من النواب اللبنانيين، وجوب تحصين البلاد واستقلالها، من التيمر

جهادها المقدس»^(١)، لاسيما بريطانيا وممثلها «سبيرز»، والولايات المتحدة، والاتحاد السوفياتي، كما أثنى على الدور الذي لعبته الدول العربية، في مختلف مواقف الدعم والتأييد، وموقفها النبيل في مساندة لبنان، ثم توجه إلى المجتمع اللبناني، عبر «رؤساء المذاهب والطوائف في لبنان، وسيدات البلاد وأنساتها، ونقابتي المحامين والأطباء والصحافة اللبنانية ونقابات المهن الحرة على اطلاقها، ومؤسستي الكتائب والنجادة والمؤتمر الوطني اللبناني»^(٢).

وفي كلمة شكر لرئيس المجلس، توجه بالشكر إلى الدول التي ساندت لبنان في محنته، وقد بين فيها مواقفهم عندما «غضب العالم بما حل بلبنان وسارعت الدول الكبرى إلى تأييدنا فسمعنا صوت مصر العظيم رفعت رئيس حكومتها يطالب بحريتنا المسلوبة وبادر مجلس الأمة العراقيان إلى الاجتماع واتخذوا المقررات الخطيرة لنصرتنا وقدمت حكومة العراق الجليلة المذكرة تلو المذكرة بالدفاع عن حقوقنا وكذلك فعلت سوريا الشقيقة حكومة وشعباً ومجلساً فأيدتنا وسندتنا ودافعت عن وجهة نظرنا الحقّة وحذت باقي

(١ - ٤) المجلس النيابي الخامس، العقد العادي الثاني، محضر الجلسة الرابعة، المنعقدة في ١ كانون الأول ١٩٤٣، مصدر سابق.

لم يكن اقتراح فرنجية يتيماً، فقد واكبه اقتراح آخر من النائب هنري فرعون، طالب بإنزال العقوبة المستحقة بحق إميل إده، لما اقترفه من تأمر على الوطن، وقد جاء في حرفيته على ما يلي: إن مجلس النواب على أثر الحوادث المؤلمة التي هزت لبنان وأثارت الأمة وكادت تذهب بأقدس أمانيتها القومية، يشجب بشدة موقف أحد أعضائه إميل اده وهو موقف يقابله المجلس والشعب اللبناني بالسخط والاستنكار الشديدين ويطلب من الحكومة أن تتقدم إلى المجلس بأسرع ما يمكن باقتراح العقوبة التي يجب أن تنزل به. وينتقل إلى جدول الأعمال.

بيروت في أول كانون الأول سنة ١٩٤٣.

نائب البقاع، الامضاء: هنري فرعون»^(٢).
وبعد عرض الاقتراح على التصويت، رفض التصويت عليه، أعضاء الكتلة الوطنية، نظراً لترؤس إده كتلتهم النيابية، وهم جورج عقل، أسعد البستاني، أحمد الحسيني، أمين السعد، عبد الغني الخطيب ودر كالوسيان، وقد وعد حينها رئيس الحكومة النظر بالاقتراح وأخذه بعين الاعتبار من الوجهة القانونية والوطنية، لما

الداخلي، وتعريض الأمن الوطني للاستغلال من قبل دول خارجية، عبر عملائها بمختلف مكاناتهم الاجتماعية والسياسية، وعلى اختلاف طوائفهم، لأنهم وجدوا أن حفظ البلاد أوجب من حفظ الأفراد أو الأشخاص ومصالحهم الخاصة، فبعد ما أقدم عليه إميل إده، من محاولة إجهاض ثورة الاستقلال وتقديمها إلى الانتداب الفرنسي، تقدّم النائب حميد فرنجية باقتراح، قُبل بإجماع النواب أثناء التصويت عليه، وقد نص الاقتراح على ما يلي: «إن مجلس النواب نظراً للحوادث المؤلمة التي مرت بالبلاد ونظراً لأن نفعاً من اللبنانيين كان والحمد لله قليل العدد تأمر على دستور البلاد وحكمها الوطني ولما كانت القوانين الحالية لا تكفي لحماية الدستور والحكم الوطني من تأمر المتآمرين واعتداء المعتدين خصوصاً عندما يتخذ هذا التآمر سبيل التفريق بين عناصر البلاد وترويج الإشاعات الكاذبة للنيل من الدستور والحكم الوطني.

لذلك: فإن المجلس يطلب الى الحكومة بإلحاح بأن تضع بأقرب وقت مشروع قانون تقدمه للمجلس لقمع الجرائم التي تقترب ضد دستور البلاد وحكمها الوطني»^(١).

(١ - ٢) المجلس النيابي الخامس، العقد العادي الثاني، محضر الجلسة الرابعة، المنعقدة في ١ كانون الأول ١٩٤٣، مصدر سابق.

فيه من حساسية سياسية من جهة، وخيانة بحق الوطن من جهة ثانية.

٣ - إده ما بين الإقالة والمسامحة

لم تنته فصول ما أقدم عليه إميل إده، أثناء ثورة الاستقلال ١٩٤٣، عندما التحق بركب السياسة الفرنسية، في وجه الحكومة اللبنانية، والعمل على تهشيم الثورة ومحاولة القضاء عليها، باعتلائه منصب رئاسة الجمهورية والحكومة معاً، بناءً على قرار المندوب الفرنسي «هيللو»، ما أفضى إلى اعتباره عميلاً فرنسياً برتبة نائب في البرلمان، ومحاولاً للسيطرة على منصبى الرئاستين التنفيذيتين في لبنان.

لم يكن الاقتراح المقدم من النائب هنري فرعون، قد سلك مسلك التنفيذ الفعلي، بعد نياله الموافقة بالأكثرية، نظراً لموقف رئيس الجمهورية بشارة الخوري، الذي رأى في تجنب الدخول في هذه القضية، وتريث في استصدار الحكم عليه، تاركاً أمره لعامل الوقت الذي «يداوي جرحاً عميقاً أصيبت به البلاد ودستورها في الصميم»^(١)، كما اتخذ رئيس الحكومة رياض الصلح، الموقف نفسه، من خلال اتخاذه موقفاً مضاداً لاتخاذ أي إجراء بحق إده، لأسباب عديدة،

منها إقامة التوازن السياسي، واتفاق الخوري مع «كاترو»، بعدم المساس به^(٢).

وبعد طي صفحة إده، من قبل الدولة اللبنانية، عاد ليثير مسألة الأحداث السابقة، عبر إفشائه لأسرارها، فاستعر النزاع بين مختلف أركان الحكم اللبناني، حيث أعاد النائبان إميل لحود وهنري فرعون، مسألة إقالته من المجلس بتهمة الخيانة، بعد تلاوة اقتراحهما، بما يتضمنان إنزال العقوبة به، وانبرى إميل لحود مجدداً بتقديم اقتراح جديد، يقوم على:

«لما كانت المادة ٢٨ من القرار رقم ٢ الصادر في ٢ كانون الثاني سنة ١٩٣٤ تنص على أن كل عضو من أعضاء المجلس النيابي يعين أو يرقى إلى وظيفة عامة ذات راتب يعد منفصلاً عن المجلس بمجرد قبوله لها.

ولما كان السيد إميل إده قبل أن يعين بتاريخ ١١ تشرين الثاني سنة ١٩٤٣ في وظيفة عامة وأن يمارسها.

فلهذه الأسباب:

يقرر مجلس النواب اعتبار السيد إميل إده منفصلاً عن المجلس وابلغ الحكومة قراره هذا للعمل بمقتضاه»^(٣).

(١) بشارة الخوري: حقائق لبنانية، مصدر سابق، م ٢، ص ٦٤.

(٢) أنظر: حسان حلاق: التيارات السياسية في لبنان، مرجع سابق، ص ١٣٠ - ١٣١.

(٣) المجلس النيابي الخامس، العقد العادي الأول، محضر الجلسة الرابعة، المنعقدة في ٣١ آذار ١٩٤٤.

اعترض النائب جورج عقل على ما تقدّم به النائبان لحود وفرعون، داعياً إلى أن «تنظر لجنة من النواب في هذا الأمر ومن باب أولى وخصوصاً إذا كان أحدنا نائباً لا يجوز أن يفصل عن النيابة بمجرد اقتراح اتفق فريق عليه وأعدّه في الدواوين السرية»^(١)، ما دفع بلحود إلى مهاجمة إده، مذكراً بأنه قد أقفل المجلس «في وجه ٥٤ نائباً، وأذكره أيضاً أنه أراد أن يكس صوت الأمة، وأذكره أيضاً وأيضاً أن أربعة أشهر كافية لاختمار هذه الفكرة، وأذكره أخيراً أنه ما نزل عليّ وحي ولكنه وحي الأمة يدوي الآن، فأطلب أن يصوت المجلس على اقتراحي»^(٢)، فنال اقتراحه موافقة أكثرية النواب، بأصوات ٣٥ نائباً، في حين انسحب أمين السعد قبل التصويت، وخالفه كل من النواب يوسف سالم، جبرائيل المر، وديع الأشقر، محمد العبود، أحمد الحسيني، جورج عقل، أسعد البستاني، جورج زوين^(٣).

(١ - ٣) المجلس النيابي الخامس، العقد العادي الأول، محضر الجلسة الرابعة، المنعقدة في ٣١ آذار ١٩٤٤.

ابن الرومي (٨٣٥ م = ٢٢١ هـ / ٨٩٦ م = ٢٨٣ هـ)

شاعر الرومنطقيّة الأوّل؟!؛

د. مازن سليمان شلق^(١)

(٢٢١ هـ - ٢٨٣ هـ / ٨٣٥ م - ٨٩٦ م) في القرن الثالث للهجرة (التاسع الميلادي).

فلماذا؟

لأنّ هذا الشّاعر اصطدم، منذ نعومة أظفاره، بمأسّ ومواجع متتالية، لعلّ أهمّها: موت أبيه، ثمّ أخيه الأكبر الذي تعهّده بالتربية والرّعاية، ثمّ موت زوجته (التي خلّفت وراءها ثلاثة صبية لحقوا بها الواحد تلو الآخر، بعد أن أنس بهم والدهم فترة من الزمن. بالإضافة إلى ما هاله من الأحداث الجسام ولا سيّما ثورة الزنج الذين نكّلوا بأهل البصرة وانتهكوا حرّاماتها وعاشوا فيها فساداً وإحراقاً (٢٥٧ هـ - ٨٧١ م)...

وقد كان ابن الرومي من مُحبّي الحياة، لكن فقره حال دون تحقيق رغباته فيها؛

إذا كانت الرومنطقيّة التي هي نزعة ذاتيّة داعية إلى الحرّيّة في كلّ شيء. تقدّس الطّبيعة، وتعظّم الخيال في رحاب الأحلام التي يسعى من خلالها الشّاعر إلى الانعتاق من قيود العقل والواقع الهزيل بقلب يضجّ بمشاعر الحزن والألم، وبصدر يخفق بالرّجاء بين الكآبة والأمل... قد بدأت، كما هو متّفق عليه، لدى طائفة من أدباء أوروبا الغربيّة (إنكليز - ألمان - فرنسيين) في النّصف الثّاني من القرن الثّامن عشر أو أوائل القرن التّاسع عشر^(٢)... فإنّني لاحظتُ ومنذ أن كنتُ أدرس في الأدب الفرنسي والأدب العربيّ، في المرحلة الثّانويّة، أنّ جُلّ مظاهر هذا المذهب الأدبيّ لم تكن بعيدة عن مناخ الشّاعر العبّاسيّ أبي الحسن علي بن العبّاس بن جريج المعروف بابن الرومي

(١) أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانيّة/الفرع الثّالث.

(٢) راجع في كتاب الرومانتيكيّة، لمحمّد غنيمي هلال. بيروت، دار العودة - دار الثقافة. ص (١١-١٣)، ١٩٧٣ م.

فشاءت الأقدار بذلك أن تلبسه ثوبَ الحزن المنسوج من أحاسيسه المرهفة التي أنتجتها صروف الدهر، ونكباته، وصقلتها الثقافة والتجربة. وجعلته شاعراً ممتلئاً بالانفعالات الإنسانية المتدفقة؛ فانعكس ذلك على فكره وأعصابه وسلوكياته، وأيقظ في روحه الشعاعرة كوامن فنيّة حلّق بها خيال خصب؛ لترسم في نتاجه، صوراً شعريّة ذات رؤى مُبدعة... ولذا، لُقّب بـ «شاعر الحسّ والخيال» أي ما يشير بالدلالة إلى مُجمل مظاهر الرّومنتيقيّة التي «كانت تدلّ على الإنسان الحالم ذي المزاج الشعريّ، المنطوي على نفسه. ثمّ امتدّ معناها إلى ما يشمل شوب العاطفة، والاستسلام للمشاعر، والاضطراب النّفسيّ، والفردية، والذاتية»^(١).

ومن أهمّ عناصرها في شعر ابن الرّومي ما يأتي:

– النّزعة الحزينة: المتمثّلة في شعره ألماً ومرارةً، وشعوراً بالغربة في وطنٍ تخلو مجتمعاته من العدالة الإنسانيّة، والغلبة فيه لأولي الأمر وأصحاب الجاه، وأهل النّفاق والخديعة...

وفي ذلك يقول (من الخفيف):

«ورجالٌ تغلّبوا بزمانٍ
أنا فيه وفيهمُ ذو اغترابٍ»^(٢)

ولكي يوازي إخفاقه في تحقيق أمانيه، وفشله في ما تصبو إليه ذاته الطامحة وما تستحقّه من مكانة مرموقة وصل إليها، في نظره، من هم أقلّ مستوى منه ثقافةً وموهبةً وجدارةً؛ فإنّه يعزو ذلك كلّه إلى عامل الحظّ الذي يحول الشّيء إلى غير حقيقة مادّته بفعل سحر كيميائه العجيب. (يقول من الخفيف):

إنّ للحظّ كيمياء إذا ما
مسّ كلباً أحاله إنساناً»^(٣)

فهو يعيش في مجتمعٍ ظالم، اختلّت فيه المقاييس، لا يتبوأ فيه المرء المراتب العلياً بفضل ما يتمتّع به من مواهبٍ مميّزة ومعطيات ذات قيمة. وأمّا أهل العلم والشّمائل الكريمة فهم فيه مغمورون في عتمة الحسرة والحرمان. وفي ذلك يقول (من الخفيف):

فليطرُ معشرٌ ويعلو فإني
لا أراهمُ إلّا بأسفل قابٍ
جيفٌ أنتنّت فأضحت على اللّجة
والدرُّ تحتها في حجابٍ»^(٤)

(١) محمّد غنيمي هلال: م. س. ص ٦.

(٢) ديوان ابن الرّومي: شرح مجيد طراد: جالمجلد الأول: ص ٤٠٧.

(٣) الديوان: المجلد الأول، ص ٢٠.

(٤) الديوان: المجلد الأول، ص ٤٠٦.

ولم يسلم بعض المحظوظين ومنهم
البحثري (أبو عبادة بن عبيد بن يحيى
الطائي/ت سنة ٢٨٤هـ) من حملة ابن
الرّومي على نكد الدهر وعمى الحظ؛ إذ
يقول (من البسيط):

الْحَظُّ أَعْمَى وَلَوْلَا ذَاكَ لَمْ نَرَهُ
لِلْبَحْثَرِيِّ بَلَا عَقْلٍ وَلَا حَسَبٍ...
قُبْحًا لِأَشْيَاءَ يَأْتِي الْبَحْثَرِيُّ بِهَا
مِنْ شَعْرِهِ الْغَثِّ بَعْدَ الْكَدِّ وَالتَّعَبِ»^(١)

إنّه دائمُ الشّعور بالغربة والخسارة، في
عصر لا يعطيه حقّ قدره، وأناس يتنكّرون
له. حتّى بات يشعر وكأنّه «طائرٌ يغرد
خارج سربه». لذلك، فهو حزينٌ ناغم على
مجتمع يسوده المتملّقون من أهل التّفاق
والاحتيال والخديعة...

– الكآبة والقلق: المنبتقان من مزاجه
السّوداويّ نتيجة ظروف قاسية عاشها
الشاعر إثر نكبات مهولة توالفت في عصره،
وما رزى به من فقدٍ للأهل والأبناء والأحبة،
ثمّ تسارع الشّيوخوخة إلى شبابه لتفتك
بأعصابه وتوهن جسمه المعتلّ
الضعيف. أضف إلى ذلك فقره وعوزة،
وإسرافه في طلب ملذّات الحياة ومسراتها،

ولكنّ فقره حالٌ دون تحقيقها وبلوغ
غاياتها؛ الأمر الذي أدّى إلى شعوره
بالحسرة وضياع العمر سدى. يقول متلهّفًا
(من المتقارب):

سَقَى اللهُ بَغْدَادَ مَنْ جَنَّةٍ
عَدَّتْ لِلْوَرَى نُزْهَةَ الْأَنْفُسِ
عَلَى أَنَّهَا مُنْيَةُ الْمَوْسِرِينَ
وَلَكِنَّهَا حَسْرَةُ الْمُفْلِسِ»^(٢)

فهو مرهف الحسّ محتلّ الصّحة
والأعصاب، منطويّ على عالمه الدّاخليّ،
متوهّم يعيش في خوف وتوجّس دائمين؛
لذلك نراه في معظّم الأحيان، أسير
وساوسه مفرطًا في الطّيرة والخوف...
يقول في خوفه من مياه نهر دجلة: (من
الطّويل):

وَلَوْ ثَابَ عَقْلِي لَمْ أَدْعُ ذِكْرَ بَعْضِهِ
وَلَكِنَّهُ مِنْ هَوْلِهِ غَيْرُ ثَائِبٍ...
أَظْلُ إِذَا هَزَّتْهُ رِيحٌ وَلَاأَثُ
لَهُ الشَّمْسُ أَمْوَاجًا طَوَالَ الْغَوَارِبِ
كَأَنِّي أَرَى فِيهِنَّ فُرْسَانَ بُهْمَةَ
يُليحون نحوي بالسّيوف القواضب»^(٣)

ولفرط هلعه من الماء؛ يقول إنّه يمرّ به
في الكوز مرّ المجانب، وإنّه قد أحجم عن

(١) الدّيان، المجلّد ١، ص ٣٩١.

(٢) عبّاس محمود العقّاد: ابن الرّومي، حياته من شعره، منشورات المكتبة العصريّة، صيدا - بيروت، ص ١٣٧،
١٩٨٤م.

(٣) الدّيان: المجلّد الأوّل، ص ٢٩٧-٢٩٨.

اجتياز دجلة لطلب الرزق والعطايا خوفاً
ورعباً (من الطويل):

فقدمتُ رجلاً رغبةً في رغبةٍ
وأخرتُ رجلاً رهبةً للمعاطب...
ولم لا، ولو ألقيتُ فيه وصخرةً
لوافيتُ منه القعرَ أولَ راسبٍ...
فأيسرُ إشفاعي من الماءِ أنني
أمرُّ به في الكوزِ مرَّ المجانبِ
وأخشى الردى منه على كلِّ شارِبٍ
فكيف بأمنيهِ على كلِّ راكبٍ»^(١)

ولكن أكثر ما يسوؤه، في حياته كلها،
هو يقينه بحتمية الموت، وزوال نعمة الحياة
التي هي عطية الله للإنسان، وأمانة لا بد من
استردادها. يقول: (من الخفيف)

سوأه للحياة والموت حنمٌ
ولبذل الزمان واستزادته»^(٢)

وهذا الشعور المقلق بزوال حياته، التي
يعشقها أجمل عشق، ويتعلق بها أيما تعلق،
لم يفارقه مذ كان في ريعان الشباب الذي
لا عزاء بفقده؛ لأنه يساوي الحياة
بنضارتها وحيويتها وعطاءاتها. يقول: (من
الطويل)

وفقد الشباب الموت، يوجد طعمه
صراحاً، وطعم الموت بالموت يُفقد

ومالي عزاء عن شبابي علمته
سوى أنني من بعده لا أُخلد»^(٣)

وهو، كمعظم العباقرة الموهوبين، يعاني
عقدة الوجود، ويرى الآتي قبل أوانه، وأنه
مهما كان بعيداً فهو قريب ومحقق لا محالة؛
وأن السعادة ومضات زائلة غير باقية؛ الأمر
الذي ينغص عليه حياته كلها...

وبهذا الإدراك المستشرف والشعور
المقلق، سبق شاعرنا رومنطيق العصور
اللاحقة الذين أصبحوا يرون في شروق
الشمس غيباً لها وجنازة في موتها
وأقولها. وما هذا المشهد إلا صورة مصغرة
لغياب العمر كله؛ ولذلك نجد هؤلاء وعلى
رأسهم شاعرنا يستغرقون في جو من
الحزن والكآبة الشديدين... يقول: (من
البسيط)

كيف العزاء وما في العيش مُغتبط
ولا اغتباط لأقوام يموتونا؟
متى نعش فبلى الأحياء يُدرِكنا
وإن نمث فبلى الأموات يُغفونا»^(٤)

وقوله في مرارة عيش المدرك الواعي:
(من الطويل)

رأيت حياة المرء رهناً بموته
وصحته رهناً كذلك بالسقم

(٢) الديوان: المجلد ٢، ص ٤٧٢.

(٤) الديوان: المجلد ٧، ص ٥.

(١) الديوان: المجلد الأول، ص ٢٩٧.

(٣) الديوان: المجلد ٢، ص ٢٣٢-٢٣٩.

إِذَا طَابَ لِي عَيْشٌ تَنَعَّصْتُ طَيْبَهُ
بِصِدْقِ يَقِينِي أَنْ سَيَذْهَبُ كَالْحُلْمِ
وَمَنْ كَانَ فِي عَيْشٍ يُرَاعِي زَوَالَهُ
فَذَلِكَ فِي بؤْسٍ وَإِنْ كَانَ فِي نُعْمٍ»^(١)

إنَّ فكرةَ الفواتِ والزَّوالِ كانتِ تلازمه
ملازمةَ الأشواكِ للوردةِ، وتنغَّصَ عليه
حياتُه؛ فهو في مركبِ القلقِ والتَّوجُّسِ
والكآبةِ إلى أن يرسو به على شاطئِ النَّهايةِ.

- النَّفُورُ مِنَ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ،
ونشْدانِ الوحدَةِ: وذلك بالارتقاء في
أحضانِ الطَّبيعةِ حيثُ الهدوءُ والجمالُ
والوداعةُ بعيداً عن صخبِ المجتمعِ
وقساوتهِ، وليجد في مجالِها ما يجده
العاشقُ المضمَّنِي لدى معشوقتهِ، وينعم بما
ينعم به المسافرُ المتعبُ لدى وصوله إلى
واحةٍ زاهرةٍ في صحراءِ عمره؛ وإذا هي في
تبرجِّها وزينتها حسناء ذاتِ عَفَّةٍ ووقارِ،
تأخذ بمجامعِ قلبه وتأسره بجمالها الطَّاهرِ
المصونِ: (من الخفيف)

فَهِيَ فِي زِينَةِ الْبَغِيِّ وَلَكِنْ
هِيَ فِي عَفَّةِ الْحَصَانِ الرَّزَانِ»^(٢)

إنَّه يحيا مع نسَماتها العليَّة التي تنعش
روحه، وتُضيء في جسده أنوارَ البهجةِ
والحياةِ: (من الخفيف)

من نَسِيمٍ، كَأَنَّ مَسْرَاهُ فِي الْأُرُ
وَاحِ مَسْرَى الْأَزْوَاحِ فِي الْأَجْسَادِ»^(٣)

وهي، في فَوْحها الطَّيبِ، روضةٌ أنسٍ
وهناء؛ يشتمُّ فيها رائحةَ أبنائه الذين أنسَ
بهم مدَّةً من الزَّمنِ، ثمَّ افتقدهم الواحد تلو
الآخر؛ ليمسي أباً مفجوعاً يعاني مرارةَ
الفقدانِ وقسوةِ الوحدة... يقول: (من
الخفيف)

مَنْظَرٌ مُعْجِبٌ، تَحِيَّةٌ أَنْفٍ
رِيحُهَا رِيحُ طَيْبِ الْأَوْلَادِ»^(٤)

وبين الطَّبيعةِ وابنِ الرُّوميِ وحدةٌ
وجود؛ فهو في وصفه «روضة الأصيل»
يحيا معها حياةً متناغمةً متكاملةً؛ فينبضُ
بنبضاتها، ويترجم حالاتها في أنشودةٍ
تنضح بحيويةِ الفنِّ الدَّاتي، وتحلِّقُ بخيالِ
الإبداعِ المُجنَّح؛ يقول: (من الطَّويل)

بَكَيْتَ فَلَمْ تَتْرُكْ لِعَيْنِكَ مَدْمَعاً
زَمَانًا طَوَى شَرَحَ الشَّبَابِ فَوَدَّعَا...
إِذَا رَنَّقَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ وَنَفَّضَتْ
عَلَى الْأَفْقِ الْغَرْبِيِّ وَرَسَا مُرَعْرَعَا»^(٥)
وَوَدَّعَتِ الدُّنْيَا، لِتَقْضِي نَحْبَهَا
وَشَوَّلَ بَاقِي عُمْرِهَا فَتَشَعَّشَعَا»^(٦)

(٢) الدِّيوان: مجلَّد ٦، ص ٥٦٠.

(٤) الدِّيوان: مجلَّد ٢، ص ٤٣٠.

(٥) رَنَّقَتْ: ضعفت، كانت منكسرة الطرف حين دنا غيابها. الأصيل: العشي. ورس: نبات أصفر. مززعزعا: محرّكا.

(٦) شَوَّلَ: نقص. تشعَّشع: تفرَّق.

وَلَا حَظَّتِ النَّوَّارُ، وَهِيَ مَرِيضَةٌ
 وَقَدْ وَضَعَتْ خَدًّا إِلَى الْأَرْضِ أَضْرَعًا...^(١)
 وَظَلَّتْ عُيُونُ النَّوْرِ تَخْضَلُ بِالنَّدَى
 كَمَا اغْرُورَقَتْ عَيْنُ الشَّجِيِّ لِتَدْمَعًا...^(٢)
 وَبَيْنَ إِغْضَاءِ الْفِرَاقِ عَلَيْهِمَا،
 كَأَنَّهُمَا خِلَاءٌ صَفَاءٍ تَوَدَّعًا^(٣)
 وَقَدْ ضَرَبَتْ فِي حُضْرَةِ الرَّوْضِ صُفْرَةَ
 مِنَ الشَّمْسِ، فَاخْضَرَ اخْضِرَارًا مَشْعَشَعًا^(٤)
 إِنَّهُ بِهِذِهِ اللَّوْحَةِ الشَّعْرِيَّةِ، يَشَخَّصُ
 أَشْيَاءَ الطَّبِيعَةِ وَيَعَكْسُ عَالَمَهُ الْإِنْسَانِيَّ مِنْ
 خِلَالِ عَالَمِهَا؛ حَيْثُ يَرَى الْإِنْسَانَ
 الرَّوْمَنطِيقِيَّ صُورَةً مَخْتَصِرَةً لِحَيَاتِهِ فِي
 أَقْوَالِ شَمْسِ النَّهَارِ وَزَوَالِ نِعْمَةِ الْحَيَاةِ فِيهِ...
 وَإِذَا كَانَ الرَّهْرُ تَخْضَلُ عَيْونَهُ بِالدَّمْعِ
 لِحِظَةِ الْفِرَاقِ، وَالشَّمْسُ تَوَاكَبُ جِنَازَةَ النَّهَارِ
 عِنْدَ الْمَسَاءِ؛ فَإِنَّ لِلطَّبِيعَةِ وَقْعَ آخَرَ، فِي نَفْسِ
 الشَّاعِرِ الْمَبْتَهَجَةِ سَاعَةَ السَّحْرِ. يَقُولُ: (مِنْ
 الْبَسِيطِ).

حَيْثُكَ عَنَّا شِمَالٌ طَافَ طَائِفُهَا
 بِجَنَّةٍ فَجَرَّتْ رَوْحًا وَرِيحَانًا
 هَبَّتْ سَحِيرًا فَنَاجَى الْغُصْنَ صَاحِبَهُ
 مُوسُوسًا وَتَنَادَى الطَّيْرُ إِعْلَانًا

وَزُقُّ تَغْنِي عَلَى حُضْرٍ مُهْدَلَةٍ
 تَسْمُو بِهَا وَتَمْسُ الْأَرْضَ أَحْيَانًا
 تَخَالُ طَائِرَهَا نَشْوَانَ مِنْ طَرَبٍ
 وَالْغُصْنَ مِنْ هَزِّهِ عِطْفِيهِ نَشْوَانًا»^(٥)

فِي هَذَا الْجَوْ الصَّبَاحِيِّ الْهَامِسِ بِنِسَائِمِ
 الْعَطْرِ، يَجِدُ ابْنَ الرَّومِيِّ فِرْدَوْسَهُ الْمُنَشُودَ؛
 فَيَنْخَطِفُ نَشْوَانًا مَعَ ذَاتِ الطَّبِيعَةِ النَّشْوَى
 بِغِنَاءِ أَطْيَارِهَا وَتَهْدَلُ أَغْصَانُهَا... وَيَتَأَلَّفُ مَعَ
 تَأَلَّفِ عِنَاصِرِهَا فِي كُلِّ لَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِهَا وَكُلِّ
 حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِهَا، وَفِي كُلِّ لِحْظَةٍ مِنْ
 لِحْظَاتِ الْعَيْشِ فِيهَا... وَإِنَّهُ لِشِدَّةِ انْدِفَاعِهِ
 مَعَهَا وَتَعَلُّقِهِ بِهَا، لَيْسْتَ تَشْعُرُ بِالْأَسْرَارِ
 الْكَامِنَةِ فِي حَيَاةِ الْأَرْضِ، وَيَصْغِي إِلَى
 بُوْحِهَا وَنَجْوَاهَا فِي شَتَّى حَالَاتِهَا: (مِنْ
 الْبَسِيطِ)

لَمْ يَبْقَ لِلْأَرْضِ مِنْ سِرِّ تَكَاثُمِهِ
 إِلَّا وَقَدْ أَظْهَرْتُهُ بَعْدَ إِخْفَاءِ
 أَبَدَتْ طَرَائِفَ شَتَّى مِنْ رَوَاهِرِهَا
 حُمْرًا وَصُفْرًا، وَكُلُّ نَبْتٍ غِبْرَاءِ»^(٦)
 لَقَدْ فَاضَ مِنْ نَفْسِهِ عَلَيْهَا حَيَاةً، وَفَاضَتْ
 مِنْ حَالَاتِهَا وَفِصُولِهَا عَلَيْهِ أُنْسًا وَوَحْدَةً
 حَالٌ...

(١) النَّوَّارُ: النَّوْرُ، زَهْرٌ أَيْضٌ. الْأَضْرَعُ: الضَّرْعُ، مِنْ ضَرَعَتِ الشَّمْسُ، غَابَتْ أَوْ دَنَتْ لِلْمَغِيبِ، وَهُوَ أَيْضًا الْخَاشِعُ،
 الذَّلِيلُ، الْمُسْتَكِينُ.

(٢) تَخْضَلُ: تَنْدَى وَتَبَتَّلُ.

(٣) الْإِغْضَاءُ: الْإِظْلَامُ مِنْ أَغْضَى اللَّيْلِ أَظْلَمَ، وَأَرَادَ بِإِغْضَاءِ الْفِرَاقِ زَوَالَ النَّهَارِ.

(٤) الْمَشْعَشَعُ: الْمَخْلُوطُ. الْمَمْزُوجُ، أَرَادَ اخْتِلَاطَ الْخُضْرَةِ بِالصُّفْرِ.

(٥) الدِّيوان: مجلد ١، ص ٧٠.

(٦) الدِّيوان: ج ٦، ص ٤٩٥.

– الحنين إلى الطفولة وربيع العمر:
الذي هو صنو ربيع الطبيعة، في حيوية الحياة وجمالها؛ فكلاهما مرآة للآخر، حيث الانعتاق والشعور بالحرية والسعادة الغامرة. يقول بحسرة الملهوف: (من الوافر):

صَبَا مَنْ شَابَ مَفْرَقُهُ تَصَابٍ
وَإِنْ طَلَبَ الصَّبَا وَالْقَلْبُ صَابٍ...
يُذَكِّرُنِي الشَّبَابَ جِنَانُ عَدْنٍ
عَلَى جَنَابَاتِ أَنْهَارٍ عَذَابٍ
تُفِيئِي ظِلَّهَا نَفْحَاتُ رِيحٍ
تَهْزُ مَتُونَ أَغْصَانِ رِطَابٍ
إِذَا مَاسَتْ ذَوَائِبُهَا تَدَاعَتْ
بِوَاكِي الطَّيْرِ فِيهَا بَانْتِحَابٍ...
يُذَكِّرُنِي الشَّبَابَ وَمِيضُ بَرَقٍ
وَسَجْعُ حَمَامَةٍ وَحْنِينُ نَابٍ
فَيَا أَسْفَا وَيَا جَزَعًا عَلَيْهِ
وَيَا حَزَنًا إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ
أُفْجِعُ بِالشَّبَابِ وَلَا أُعْرِئُ
لَقَدْ غَفَلَ الْمُعْزِي عَنْ مُصَابِي
تَفَرَّقْنَا عَلَى كُرِّهِ جَمِيعًا
وَلَمْ يَكْ عَنْ قَلِي طُولُ اصْطِحَابِ...
وَعَزَّ عَلَيَّ أَنْ تَبْلَى وَأَبْقَى
وَلَكِنَّ الْحَوَادِثَ لَا تُحَابِي
إِنَّهُ دَائِمُ الْحَنِينِ إِلَى جِنَائِنِ شَبَابِهِ

المنصرم، الذي أشبه ما يكون بشباب الطبيعة الغني باللذائذ والطيبات وبكل مبهج زاهر ساحر عاطر...، وهو ما يستحق أن يجزع عليه، ويبكيه بكاءً مريراً، ويأسف على انقضائه السريع دون أن يرتوي من مناهله العذبة النقية.

إِنَّ حَنِينَهُ إِلَى شَبَابِ الطَّبِيعَةِ وَجَنَّةِ أَيَّامِ
شَبَابِهِ حَنِينٌ وَاحِدٌ؛ فَكَلَّ مَا فِي رَبِيعِهَا يَرَاهُ
فِي رَبِيعِ عَمْرِ الْجِسَانِ، وَكَلَّ مَا لَدَى
الْحَسَانِ يُذَكِّرُهُ بِمَا فِي رِيَاضِهَا الْمُثْمَرِ
وَبَسَاتِينِهَا الزَّاهِرَةِ... يَقُولُ: (مَنْ الْخَفِيفُ)
مَتَّعِ الظُّلْمِي مِنْ جَنَى غُضْبِكَ اللَّذِّ
نِ يَمْتَنَّكَ مِنْهُ قَبْلَ انْخِضَاذِهِ^(١)
مِنْ عِنَاقِيهِ وَتَفَاجِهِ الْغُضِّ
ضِ وَرُؤْمَانِهِ وَمِنْ فِرْصَادِهِ^(٢) (٣)
وقوله: (من البسيط):

أَجْنَتْ لَكَ الْوَجْدَ أَغْصَانٌ وَكُثْبَانٌ
فِيهِنَّ نَوْعَانِ: تَفَاحٌ وَرُؤْمَانٌ...
أَلْفَنَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ طَيِّبٍ حَسَنٍ
فَهِنَّ فَاكِهَةٌ شَتَّى وَرِيحَانٌ...
يَا لَيْتَ شِعْرِي، وَلَيْتَ غَيْرَ مُجْدِيَةٍ
إِلَّا اسْتِرَاحَةَ قَلْبٍ وَهُوَ أُسْوَانٌ...
تَجَاوَرَتْ فِي غُصُونِ لَسْنٍ مِنْ شَجَرٍ
لَكِنْ غُصُونٌ لَهَا وَضَلُّ وَهَجْرَانٌ

(٢) الفرصاد: التوت الأحمر.

(١) اللذن: الطري - الانخضاد: الانكسار.

(٣) الديوان: مجلد ٢، ص ٤٧٣.

تلك الغصون اللواتي في أكمّتها
نغمٌ وبؤسٌ وأفراحٌ وأحزانٌ...»^(١)

ولشدة تعلقه بزمن الشباب ونعمائه؛
نراه، في قصيدة كافية، يشكو إلى والي
بغداد سليمان بن عبد الله بن طاهر تاجرًا
يدعى ابن أبي كامل بغى عليه، وجار على
داره فنقض جدارها وتلفها؛ ليجبره على
بيعها قسرًا. يقول ملتفتًا إلى ملاعب الصبا
وذكريات عهد الشباب: (من الطويل)

وَلِي وَطَنٍ أَلَيْتُ أَلَّا أْبِيعَهُ
وَأَلَّا أَرَى غَيْرِي لَهُ الدَّهْرَ مَالِكًا
عَهْدْتُ بِهِ شَرَحَ الشَّبَابِ وَنِعْمَةً
كَنِعَمَةِ قَوْمٍ أَصْبَحُوا فِي ظِلَالِكَا
فَقَدْ أَلْفَنُهِ النَّفْسُ حَتَّى كَانَهُ
لَهَا جَسَدٌ إِنْ بَانَ غَوِدَتْ هَالِكَا
وَكَبَبَ أَوْطَانَ الرَّجَالِ إِلَيْهِمْ
مَارَبُ قَضَاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَا
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرْتُهُمْ
عُهُودَ الصَّبَا فِيهَا فَحَنُّوا لِذِكَا»^(٢)

فالمكان الفردوس والزمان المسكر
مقرونان دائمًا بفسحة مرحلة الشباب
ودوحته؛ لذلك حقّ له أن يتحسّر على
انقضائه ويبكيه في غير قصيدة وأكثر من
مناسبة. يقول في دالية مطوّلة: (من الطويل)

أَبِينَ ضُلُوعِي جَمْرَةً تَنْوَقِدُ
عَلَى مَا مَضَى؟ أَمْ حَسْرَةٌ تَتَجَدَّدُ؟

خَلِيلِي مَا بَعْدَ الشَّبَابِ رَزِيَّةٌ
يُجَمُّ لَهَا مَاءَ الشُّؤُونِ وَيُعْنَدُ...^(٣)
شَبَابُ الْفَتَى مَجْلُودُهُ وَعَزَاؤُهُ
فَكَيْفَا؟ وَأَنْي؟ بَعْدُ يَنْجَلِدُ...؟
كَفَى حَزْنًا أَنْ الشَّبَابِ مُعْجَلٌ
قَصِيرُ اللَّيَالِي، وَالْمَشِيبُ مُخَلَّدٌ...»^(٤)

بهذا الدفق من الشعور، ترسم الصور
المشخصة في شتى الموضوعات التي
تناولها ابن الرومي في شعره. ومن ذلك
صورة مشخصة لبغداد؛ يذكر فيها صباه:
(من الكامل)

بَلَدٌ صَحِبْتُ بِهِ الشَّبِيْبَةَ وَالصَّبَا
وَلَبِسْتُ فِيهِ الْعَيْشَ، وَهُوَ جَدِيدٌ
فَإِذَا تَمَثَّلَ فِي الضَّمِيرِ رَأْيَتُهُ
وَعَلَيْهِ أَفْنَانُ الشَّبَابِ تَمِيدُ»^(٥)

حلّق ابن الرومي في عوالم ذاته؛
فانداحت أحلامه وتساوَلت في رحابها.
وتشادّت بين ماضٍ زاهٍ جميلٍ وآتٍ ضبابيٍّ
غامضٍ يصبغ الوجود بحزنٍ مخيفٍ ويُفحّه
بأملٍ شفيفٍ...

فماذا قال رومنطيقيو الغرب أكثر ممّا
قاله هذا الشاعر في وحدته وخلواته، تأمله

(٢) الديوان: مجلد ٥، ص ٣٧.

(١) الديوان: مجلد ٦، ص ٤١٢-٤١٣.

(٣) يجم: يكثر - الشؤون: مجاري الدمع - يُتمد: يُستنبط.

(٥) الديوان: مجلد ٢، ص ٥٨٥.

(٤) الديوان: مجلد ٢، ص ٢٣١-٢٣٢.

– أوستاش دا شام^(٢) Eustache des
champs. ومن مأثور قوله:

Quand j'ai la terre et mer avironnée
Et visité en chacune partie
Jérusalem, Egypte et Galilée,
Alexandrie, Damas et la Syrië
Et tous les ports qui y sont,
Les épices est sucrés qui s'y font
Les fins draps d'or et soie du pays
Valent lien mieux ce que les Français ont
Rien ne se peut comparer à Paris
De tous les arts c'est la fleur quoi qu'on
die
Rien ne se peut comparer à Paris

وفي هذا المناخ من التَّشْوَقِ إِلَى
الأوطان، والحنين إلى مسقط الرَّأس، نتذكَّر
قصيدة ابن الرُّومي حيث يقول أيضًا: (من
الطَّويل)

رَقَدْتُ وما ليلُ الغَريبِ بِراقِدِ
وما راقِدٌ لَمْ يَرِعْ نَجْمًا كَسَاهِدِ
وكيفَ رُقَادُ الصَّبِّ ما بين سائِقِ
مَنْ الشَّوْقِ يُقْرِيه النَّزاعِ، وقائدِ...
ألا هَلْ لآيَامِ تَعَلَّلْتُ عَيْشَها
بها عَوْدَةٌ أم ليس دَهْرٌ بِعائِدِ
بلى، رُبَّما عادَ الزَّمانُ بِمِثْلِ ما
بَدَا فَحَمَدْنَا فَعَلَّهُ غَيْرَ عَامِدِ

وآماله، أنسه ووحشته، وموقفه من المجتمع
والحياة والموت والمصير؟!...

وللبينة نتوقَّف عند نماذج من مقتطفات
شعراء الرُّومَنطيقِيَّة الأوروبِيَّة ولا سيَّما
الفرنسيِّين منهم، في العصر الوسيط
(Moyen-age) وفي القرن التَّاسع عشر
حيث تبلورت خصائص الرُّومَنطيقِيَّة وبلغت
ذروتها:

– شارل دورلايان^(١) Charles
Dorléan الذي خرج من أسرهِ واعتزل في
قصره «chateau des bois» وكتب قصائد
مفعمة بالحنن والأسى والشَّوق والحنين.
ومن ذلك قوله:

Le temps a laissé son manteau
De vent de droidure et de pluie
Et se vêtu de broderie
De soleil laissant clair et beau
Il n'ya bête ni oiseau
Qu'en son jardin ne chante ou crie
Le temps a laissé son manteau!
Rivière fontaine et ruisseau
Portent en livrée jolie
Goutte d'argent et d'orfèvrerie,
Chacun rehabille de nouveau
le temps a laissé son manteau.

(١) هو أصغر أولاد شارل الخامس. كان سيِّدًا شجاعًا سُجن بمؤامرة الإنكليز ربع قرن بعيدًا عن موطنه فرنسا. وُلد في
باريس عام ١٣٩٤ وتوفِّي في أمبواز عام ١٤٦٥ (راجع كتاب علي شلق).

(٢) أديب ساطع، شغل مناصب مهمَّة لدى شارل الخامس وشارل السَّادس. وُلد سنة ١٣٤٦ وتوفِّي سنة ١٤٠٧ (المرجع
ذاته، ص ٣٧).

En écrivant cette parole
Afin que le coeur ne me fend

وابن الرومي يردد قائلاً: (من الكامل)

يَوْمٌ يُبَكِّينَا، وَأَوْنَةٌ
يَوْمٌ يُبَكِّينَا عَلَيْهِ عَدُّهُ
نَبْكِي عَلَى زَمَنِ، وَمِنْ زَمَنِ
فَبُكَأُونَا مَوْضُولَةً مُدَدُّهُ
وَنَرَى مَكَارِهَنَا مُخَلَّدَةً
وَالْعُمُرُ يَذْهَبُ فَانِيًا عَدُّهُ
أَفَلَا سَبِيلَ إِلَى تَبَخُّبِنَا
فِي سَرْمَدٍ لَا يَنْقُضِي أَبَدُهُ؟
سَكْرَى شَبَابٍ لَا يُعَاقِبُهُ
هَرَمٌ، وَعَيْشٌ دَائِمٌ رَعْدُهُ»^(٣)

– شارل بودلير (Charles Baudelaire)^(٤). ومن روائعه قوله الذي
يصبّ في مُنَاخِ ابْنِ الرَّومِيِّ، عن صورة
الشَّمْسِ سَاعَةَ الْمَغِيبِ، تحت عنوان
«recueillement»:

Le Soleil moribond, s'en dormir sous
une arche»
Et comme un longlicent traînant à L'orient,
Entends ma chère, entends la douce nuit
qui marche»^(٥)

فَمَا مِثْلُهَا لِلْمُلْكِ دَارٌ خِلَافَةٍ

أَجَلٌ، لَا وَلَا لِلطَّيِّبِ مُرْتَادُ رَائِدٍ»^(١)

– فرانسوا فيلون^(٢) Francois Villon

الذي عاش حياة قاسية في منفاه (في
إنجلترا ثم في بلجيكا) متحرِّقًا، مثل ابن
الرّومي، على عهد الشّباب، في زمن
الشّيخوخة البائسة، ومتحسّرًا عليه بلوعة
صادقة؛ إذ مرّ بسرعة ولم يترك سوى
الذكريات الحلوة، حيث التّنزّه على الأقدام،
وركوب الخيل، والهروب من المدرسة...
يقول:

Je plains le temps de ma jeunesse
Auquel j'ai plu qu'outre gallé
Jusque a l'entrée de vieillesse
Qui son partement m'a celé
Il me s'en est le pied allé
Ni a cheval: las! comment doue
Soudainement s'en est vole
Et ne m'a laissé quelque don
Hé Dieu si jeunesse étudié
Au temps de ma jeunesse folle
Et a bonnes moeurs dédie
J'usse maison et couche mollir
Mais quoi? Je fuyai l'école
Comme fait le mauvais enfant

(١) ديوان ابن الرومي: ج ٢، ص ٦٢٥-٦٢٦.

(٢) ولد في ile de France سنة ١٤٣١... تخرّج من جامعة باريس، ونبغ في الفنّ أثناء دراسته في السوربون...
(المرجع ذاته، ص ٤٠).

(٣) الدّيوان: م س. مجلد ٢، ص ٣٨٧.

(٤) من أشهر شعراء فرنسا في القرن التاسع عشر. وُلِدَ في باريس سنة ١٨٢١ وتوفّي فيها سنة ١٨٦٧. (م.س.).

(٥) علي شلق: م.س. ص ١٥٧.

في مثل هذا الموقف من حزن الطبيعة
والحياة عبّر ابن الرّومي والمتنبّي عن
خبيتهما من سعادة سريعة الزّوال ليحلّ
محلّها حزن مؤكّد عميق. قال أبو الطّيب
(من الوافر):

أَشَدُّ الْعَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ
تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالَاً^(٢)
وقال ابن الرّومي (من السّريع):

لَوْ أَنَّ عُمْرِي مِئَةٌ هَدَّنِي
تَذَكَّرِي أَنِّي نَصَفْتُهَا...^(٣)

وفي هذه المثابة لم يكن لامارتين (La
Martine)^(٤) بعيداً عن مناخ هذه
الرّومنيّة فيما كتبه عن وحدته وبؤسه،
وتغرّبه عن الوجود وحنين الرّوح الحزينة
المتفطّرة عشقاً في قصائد شهيرة له:
L'automne- Heraillon - L'isolement
وHarmonies poétiques de religions.

ومن روائع قوله، في هذا المضمار، على
سبيل المثل، في قصيدة «L'isolement» ما
يأتي:

Souvent sur la montagne, à l'ombre du
vieux chêne,
Au coucher du soleil tristement je m'as-
sieds;

ومزاج بودلير شبّيه بمزاج ابن الرّومي
في ذهوله واضطرابه وحالته النّفسيّة
المتشائمة، في عالم شقيّ بائس، تسيطر
فيه فكرة الموت والفوات على ذوي المشاعر
المرهفة من عباقرة الوجود.. رغم عشقهم
لمباهج الحياة في بعض مناحيها الموسقة..
يقول تحت عنوان: «chant d'automne»:

Bientôt nous plongerons dans les froides
lénèbres

A dieu vivre charté de nos étés trop
courts!

J'entends déjà tomber avec de chocs fu-
nébres

Le bois retentissant sur le pavé des
cœur...

Et pourtant aimez-moi tendre cœur,
soyez mère

Même pour un ingrat, même pour un
méchau

Amante au cour soyez la douceur éphe-
mère

D'un glorieux automne ou d'un soleil
couchant.

وهكذا تتوالى أحزان هذا الشّاعر في
رومنسيّاته:

Vaincu, pleure, et l'angisse atroce, des
potique

Sur mon écran incline, plante son dra-
peau noir⁽¹⁾

(١) علي شلق: م.س. ص ١٦٦.

(٢) ديوان المتنبّي: شرح عبد الرّحمن البرقوقي، ج ٣، ص ٣٤١.

(٣) ديوان ابن الرّومي: م.س. ج ١، ص ٥٥٣.

(٤) هو ألفونس ده لامارتين أستاذ الرّومنيّة في فرنسا. وُلِدَ في Mâcon سنة ١٧٩٠، وتوفّي في Paris سنة ١٨٦٩.

رومنطقيّ الغرب في عصور لاحقة ولا
سيّما في نطاق معاناة الوجود، وحبّ
الطّبيعة، والتّحرّق على الشّباب والتّأسّف
على رحيله في إطار غريزة حبّ البقاء
والحياة.

فهرس المصادر والمراجع :

أوّلا - العربيّة:

- ١ - ابن الرّومي (أبو الحسن علي بن العباس بن جريج
ت ٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م): «الديوان» سبعة أجزاء، شرح
مجيد طراد، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦ م.
- ٢ - ابن قُتيبة (أبو محمّد عبدالله بن مسلم الدّنوري،
المتوفّي سنة ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م): الشّعر والشّعراء،
بيروت، ١٩٨٠ م.
- ٣ - ابن منظور (جمال الدّين أبو الفضل محمّد بن مكرم،
المتوفّي سنة ٧١١ هـ / ١٣١١ م): لسان العرب (١-
١٥) دار صادر، بيروت، ١٩٩٢ م.
- ٤ - حاوي، إيليا: «ابن الرّومي، فته ونفسيته من خلال
شعره. دار الكتاب اللّبناني، ط ٢، بيروت،
١٩٦٨ م.
- ٥ - حسن، محمّد عبد الغني: ابن الرّومي، نوايح الفكر
العربي، مصر، ١٩٧١ م.
- ٦ - شلق، علي: ابن الرّومي في الصّورة والوجود،
المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنّشر، ط ١،
بيروت، ١٩٨٢ م.
- الشّعر الفرنسي والشّعر العربي، دار الاجتهاد،
ط ١، بيروت، ٢٠٠٣ م.
- ٧ - العقّاد، عبّاس محمود: ابن الرّومي، حياته من
شعره، منشورات المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت،
١٩٨٤ م.
- ٨ - فاخوري، حتّا: الموجز في الأدب العربي وتاريخه،
دار الجيل، ط ١، بيروت، ١٩٨٥ م.

Je promène au hasard mes regards sur la
plaine,
Dont le tableau changeant se déroule à
mes pieds.

Mais à ces doux tableaux mon âme indif-
férente

N'éprouve devant eux ni charme ni
transports;

Je contemple la terre ainsi qu'une ombre
errante:

Le soleil des vivants n'échauffe plus les
morts.

Que le tour du soleil ou commence ou
s'achève,

D'un oeil indifférent je le suis dans son
cours;

En un ciel sombre ou pur qu'il se couche
ou se lève,

Qu'importe le soleil? je n'attends rien des
jours.

Quand je pourrais le suivre en sa vaste
carrier,

Mes yeux verraient partout le vide et les
deserts:

Je ne désire rien de tout ce qu'il éclaire;

Je ne demande rien à l'immense uni-
vers⁽¹⁾.

يُستنتج من ذلك كلّه أنّ الطّبيعة البشريّة
واحدة أو متقاربة إلى حدّ بعيدٍ، وما ينتج
عن تفاعل النّفوس الموهوبة متشابه، وهو
صدى لمعطيات الحياة في الكون والمجتمع
والظّروف التي يحيها الإنسان. وأنّ ثمة
تلاقٍ بين ما رسمه ابن الرّومي شاعر
العصر الدّهبيّ، منذ مئات السّنين، وبين

(١) انظر : Morceaux choisis des poètes français du xlx^e siècle: Les Méditations, p.14-15

ثانياً - المراجع الأجنبية:

- ٩ - مارون، يوسف: ابن الرّومي، شاعر الحزن والوجدان الإنساني، المؤسسة الحديثة للكتاب، ط ١، لبنان، ٢٠١٣م.
- ١٠ - هلال، محمّد غنيمي: الرّومانتية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣م.
- التقّد الأدبيّ الحديث، دار العودة، بيروت، ١٩٧٣م.
- ١١ - يارد، نازك سابا يارد: ابن الرّومي شاعر الحسّ والعاطفة والخيال، بيت الحكمة، ط ١، بيروت، ١٩٦٩م.
- Dulong, G. Et clarac, P. - Morcaux choisis des poètes Français. Paris, Librairie Delalain.
 - Guillemin (Henri). - Lamartine et sa Chute d'un ange. Mercure de France, No. du 1^{er} avril 1936.
 - Lamartine, l'homme et l'œuvre. Paris, Boivin et Cie, 1940. ("Connaissance des lettres").
 - Lamartine et son voyage en Orient (documentation inédite), Dialogues, avril 1952.
 - Victor Hugo et les fantomes de Jersey (documents inédits), in Revue de Paris, septembre 1953.
 - Lamartine, celui qui voulut marchander avec Dieu. - Témoignage chrétien, 21 janvier 1955.
 - Victor Hugo interroge les esprits - (documents inédits). - Médecine de France.
 - Chateaubriand savait rire. Les Mémoires d'Outre-Tombe regorgent d'histoire drôles et aussi d'humour noir. - in Figaro littéraire du 18 mai 1957.
 - Guimbaud (Louis). - Les "Orientales" de Victor Hugo. - (édition originale) Paris, Malfère.
 - Jourda (Pierre).- L'exotisme dans la littérature française depuis Chateaubriand. Le Romantisme. - (Etudes de littérature étrangère et comparée) Paris, Boivin, 1938.
 - Moreau (Pierre). - Romantisme français et syncrétisme religieux. - Symposium (summer 1955).
 - Chateaubriand. L'homme et l'œuvre. Paris, Hatier, 1956. (Coll. "Connaissance des lettres").
 - Rousseau (Jean -Jacques). - Discours sur les sciences et les Arts, le contrat social, l'Emile, in œuvres complètes. - Paris, Ed. V.-D. Musset- Pathay, P. Dupont; 1823-1826.

ممهّات الحملة الفرنسيّة على لبنان ١٨٦٠م

د. جهاد طريبه

ستطرح من جديد فإنّ ما يجري هنا حالياً يشكّل دافعاً قوياً لتحريك أولئك الذين أصبح من الواجب عليهم «أن يتخلّوا عن دور المتفرّج اللامبالي، تجاه وضع ليس بالإمكان القبول به ولا تركه يستمرّ أكثر من ذلك»^(١).

«فهبت الأوساط الكاثوليكيّة الفرنسيّة تطالب بوضع حد لما جرى وساندتها في ذلك الأوساط الفرنسيّة الأخرى»^(٢). وكذلك اهتمّت حكومات فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا بالأمر وأخذت تتشاور في ما بينها للقيام بالخطوات اللازمة لدى الباب العالي وإيقاف الفتنة بصورة فعّالة. وقد تولّت فرنسا تحريض الدول الأوروبيّة الكبرى على الاحتجاج عبر قناصلها في الاستانة «فعمدوا اجتماعاً قرّروا فيه الاتصال بالصدر الأعظم لاتخاذ تدابير

١ - ممهّات الحملة الفرنسيّة

بعد أن انتشرت تفاصيل الحرب الأهليّة اللبنانيّة في أوروبا في ربيع سنة ١٨٦٠م، بدأ الفرنسيّون في لبنان يكتبون عمّا شاهدوا. فكتب القنصل الفرنسي العام في بيروت، السيد بونتيفلويو «Bentivoglio» إلى وزير خارجيّته السيد توفينيل Thouvenel في ٧ حزيران يقول: «... إلى أيّ مدى ستصل أعمال التدمير هذه (يقصد الحرب الأهليّة)... إنّ الحكومة لا تبذل أيّ جهد من أجل إيقاف نزيف الدم، والبؤس وصل إلى الذروة ولم يمض بعد أكثر من عشرة أيّام على اندلاع الحرب... إن بيروت قد امتلأت بالنساء والأطفال والشيوخ. ونقص المواد الغذائيّة وأصبحت الأموال نادرة الوجود... إذا كانت المسألة الشرقيّة

(١) ISMAÏL, A.: *Documents diplomatiques et consulaires relatifs à l'histoire du Liban*, T.10, 1977, Beyrouth, 1978, p. 178.

(٢) رستم، أسد: لبنان في عهد المتصرّفة، دار النهار، بيروت، ١٩٧٣، ص ٢٠.

سمعان الخازن: يوسف كرم قائمقام نصارى لبنان، ص ٩٥.

قاسية وسريعة تضع حدّاً للفتنة الطائفية في الجبل»^(١).

فأجابهم علي باشا أنّ السلطان قرّر إيفاد فؤاد باشا وزير الخارجية العثمانية إلى لبنان للضرب على أيدي المجرمين وأنه سيرسل على الفور بعض الفرق النظامية ووحدات من الأسطول العثماني إلى السواحل اللبنانية للقيام بما يجب»^(٢).

لم يُقنع هذا الجواب نابوليون الثالث، فقرّر أن يعمل بسرعة، وحزم أمره على «التدخل في شؤون لبنان حيث يتلکأ السلطان ويتردّد»^(٣)، ولكنّه اصطدم بعقبة قانونية دولية. وتفصيل ذلك أن الدول الموقعة على معاهدة باريس في ٣٠ آذار سنة ١٨٥٦م وفي مقدمتها فرنسا كانت قد حرّمت على نفسها التدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية كي تبعد روسيا عن رعايا السلطان الأرثوذكسيين الذين نالوا من تدخلها ما لم ينله غيرهم من «رعايا السلطان من حماية وتعزيز فتعلقوا بها وتعاونوا معها»^(٤).

وكان أن دفعت الدول السلطان العثماني

إلى إعلان استعداده لتحسين أحوال رعاياه النصارى عموماً وصدر الخط الهمايوني بهذا المعنى في شباط عام ١٨٥٦م واعتبر هذا الخط جزءاً من معاهدة باريس، فأشارت المادة التاسعة منها إليه وأكدت «أن ليس للدول مجتمعة أو متفرقة أن تتدخل في شؤون رعايا السلطان أو في إدارة السلطنة الداخلية»^(٥).

وهكذا وجد نابوليون الثالث «Napoléon III» نفسه أمام هذه العقبة القانونية التي التمس وزير خارجيته توفينيل مخرجاً قانونياً لها، فقال: «إن السلطان إذ أصدر الخط الهمايوني في ١٨ شباط عام ١٨٥٦م وأبلغه إلى الدول الأوروبية، فأقرت مضمونه في مؤتمر باريس قد جعل هذا الخط جزءاً من المعاهدة التي وضعها هذا المؤتمر وأخضع تنفيذه لإشراف الدول الموقعة عليها، فلا يمكن والحالة هذه اعتباره عملاً داخلياً محصوراً بعلاقة السلطان برعاياه، بل هو في الواقع ذو صفة دولية وما «حوادث لبنان إلا نتيجة امتناع السلطات العثمانية عن تنفيذ أحكامه»^(٦).

(١) Edward, Richard: *La Syrie (1840-1862)*, Amyot, Paris, 1862, p. 164.

(٢) Ibid., p. 164.

(٣) إسماعيل، عادل وإميل الخوري: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج ٣، دار النشر للسياحة، بيروت، ١٩٦١، ص ٢٥٩.

(٥) Ibid., p. 346.

(٤) ISMAIL, A.: *op. cit.*, t.IV, p. 345.

(٦) إسماعيل وإميل الخوري: المرجع المذكور، ص ٢٥٩.

الفرنسيّة اللورد كاولي «Cowley» موضحاً له أن الحالة أصبحت تتطلب ضرورة القيام بعمل ما لحماية الرعايا الأوروبيين المهديين في أرواحهم وممتلكاتهم، مقترحاً إرسال قوات بحريّة إلى سواحل سوريا وإيفاد لجنة خماسيّة إلى لبنان لإجراء تحقيق واسع وتنفيذ الوعود المقطوعة بشأن «حماية المسيحيين في الشرق»^(٢). وإذا وجد أن الباب العالي غير قادر على إرسال ما يكفي لتعزيز قواته واستعادة النظام، أليس بمستطاع السلطان أن يدعو عزيز مصر لمعاونته»^(٣).

كان يدير شؤون الحكم في بريطانيا آنذاك الفيكونت بالمرستون «Palmerston» الذي كان يدرك جيّداً مدى استياء الدوائر الفرنسيّة من معاهدة فيينا عام ١٨١٥م، ولهفتها لتعديلها وردّ الاعتبار لفرنسا، وكان السفير البريطاني في الأستانة السير هنري بولوير «Henry Bulwer» يرسل تقاريره إلى بالمرستون، فتؤكّد إفادات القناصل والعملاء الإنكليز في بيروت وصيدا وطرابلس وكلّها تتهم الإكليروس الماروني بإثارة أحداث الجبل، وتعتبر أن أحداث لبنان ليست مذابح شتّى الدروز على

يتوهم معظم الكتّاب أو بعضهم ممّن عالجوا المسألة الشرقيّة ومسألة الامتيازات، خصوصاً أنه كان بإمكان نابوليون الثالث الاستناد إلى حق فرنسا التقليدي في حماية الكاثوليكين في الشرق للوصول إلى غاياته ولكن هؤلاء نسوا أن الدولة العثمانية لم تعترف في أي وقت من الأوقات بأي حق لفرنسا في ذلك، وجلّ ما فعلته في هذا الشأن أنها أصغت حبيّاً لتدخل ممثلي فرنسا بصفة غير رسميّة. ولو افترضنا أن حكومة الباب العالي فعلت ما لم تفعل، ومنحت فرنسا هذا الحق في التدخل تدخلاً رسمياً يبقى أن فرنسا وقّعت معاهدة باريس بأكملها فأسقطت بهذا التوقيع كل حق لها سابق من هذا النوع بموجب المادة التاسعة المشار إليها»^(١).

٢ - موقف الدول العظمى من الحملة الفرنسيّة

على كلّ حال، وفي ٥ تموز عام ١٨٦٠م، تتابعت الاتصالات الأوروبية، فاجتمع في هذا التاريخ وزير الخارجية الفرنسيّة السيد توفنيل «Thouvenel» في باريس مع السفير البريطاني لدى الحكومة

(١) طرايين، أحمد: أزمة الحكم في لبنان منذ سقوط الأسرة الشهابية حتى انتهاء عهد المتصرفية، (١٨٤٢-١٨٦١)، الطبعة الأولى، ١٩٦٦، ص ١٢٤.

رستم، أسد: المرجع المذكور، ص ٢٠-٢١.

(٢) Edward, Richard: op. cit., p. 165.

(٣) Ismaïl, A.: op. cit., t. IV, p. 546, 347.

النصارى، وإنما «حرباً بين الطائفتين وفرصة أوجدها نابليون الثالث نفسه لتحقيق أغراض شخصية وفرنسية»^(١). فرأى بالمرستون أن يترئّث قبل أن يرسل رده إلى توفنيل ريثما يتّضح الموقف.

ولكن توفنيل لم ينتظر الرد البريطاني فأرسل في ٦ تموز عام ١٨٦٠م كتاباً إلى سفراء دولته في كل من لندن وفيينا وبطرسبورغ وبرلين أشار فيه إلى حوادث لبنان واهتمام الدول الأوروبية بحماية المسيحيين، وبين أن تدخّل الدول الأوروبية في شؤون لبنان، ليس بالأمر المستحدث ولا يُعدّ تدخّلاً يمكن أن يمس بهيبة الحكومة التركية أو استقلالها، بل هو نتيجة إنفاذ سابق رضي به الباب العالي ولا بدّ أن يكون راغباً في بقاءه. ثم طلب إلى سفراء دولته أن يقترحوا على حكومات البلدان المعتمدين لديها تأليف لجنة دولية تتألّف من مندوبي الدول والباب العالي وإرسالها إلى لبنان للتحقيق في أسباب حوادث عام ١٨٦٠م وتحديد المسؤوليات المتوجّبة على كل فريق وتعيين التعويضات المتوجّبة

لذوي الضحايا «ثم إيجاد نظام حكم يحول دون تكرار الحوادث الدامية في الجبل»^(٢).

وأكد توفنيل «أن حكومته لن تحابي في هذا الموارنة من دون الدروز ولن تتبع في الشرق سياسة خاصة إذ إنها «لا تقصد من هذا كلّ سوى تدخل جماعي»^(٣).

وكذلك في اليوم ذاته (٦ تموز عام ١٨٦٠م)، كتب توفنيل إلى الماركيز دولافاليت «Delavalette» سفير فرنسا في الاستانة معرباً له عن الأثر السيئ الذي تركته حوادث لبنان لدى الحكومة الفرنسية منحياً باللوم فيها على الموظفين الأتراك، متهماً الحكومة التركية بالعجز عن توفير النظام والأمن، مطالباً سفيره أن يحثّ الحكومة التركية على معاقبة المجرمين وإحقاق الحق في الجبل، منهيّاً كلامه بالإشارة إلى «ضرورة إعادة النظر في نظام لبنان»^(٤).

انتقل توفنيل من القول إلى العمل، فأرسل عمارة بحريّة إلى بيروت، بقيادة الأميرال جييهين «Jehenne» «بحجة حماية الرعايا الفرنسيين والموارنة»، غير أن

(١) أحمد طرايين، المرجع المذكور، سنة ١٨٥٦، تولّى رئاسة الوزراء الانكليزية تمبل جون بالمرستون، وأصبحت مشاكل الدول الأخرى إن كانت فرنسا أو الدولة العثمانية بيده، واحتفظ بمبدأ المحافظة على سلامة أراضي السلطنة العثمانية، بمكر ودهاء، حتى أصبحت الامبراطورية العثمانية تُدار سلطتها انطلاقاً من قراراته.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٥.

(٣) رستم، أسد: المرجع المذكور، ص ٢٢.

(٤) الخازن، فليب وفريد: المرجع المذكور، ج ٢، ص ١٦٧، ١٦٨.

مباشراً قد «أصدر فرماناً في أول تموز بإناطة هذه المهمة إلى وزير خارجيته فؤاد باشا بصلاحيات فوق العادة»^(٤).

والواقع أن اختيار فؤاد باشا بالذات لهذه المهمة، لم يكن سوى ضرورة فرضتها الحاجة الملحة إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه من هيبة السلطان في سوريا، وإبقاء هذه المنطقة الغنيّة بالمال في حوزة الباب العالي وبما أن «فؤاد باشا داهية لا يغيب عنه شيء من دقائق السياسة الأوروبية في الشرق، فإنّه الأقدر على معالجتها»^(٥).

وقد أراد السلطان أن يبالغ في إظهار اهتمامه بالمهمة التي عهد بها إلى فؤاد باشا، فنزع عن طربوشه الطغراء السلطانية، وهي شعار السلطة العسكريّة، وسلّمه إياه قائلاً له: «إنه يعتمد عليه للثأر لشرف جيشه»^(٦). وكان يحيط به وزراؤه وبعض ممثلي الدول الأوروبية، «وعند وصول فؤاد باشا إلى قبرص في طريقه إلى بيروت،

انكلترا لم ترض أن تكون فرنسا الممثلة الوحيدة لأوروبا في هذه المهمة، فطلبت إلى وكيل الأدميرال «Martin أن يلحق بالعمارة البحرية الفرنسية على رأس عدد كبير من القوات البحرية، للذود عن المصالح البريطانيّة في الشرق»^(١) «والعمل على التشاور مع القناصل لحماية حياة وأملاك المسيحيين»^(٢).

٣ - موقف الباب العالي واعتراضه على الحملة

ولما كانت فرنسا تعلق على هذه القضية أعظم الأهمية، وكان الباب العالي بدأ يدرك خطورة الموقف، فقد وجّه السلطان عبد المجيد إلى الإمبراطور نابوليون الثالث في ١٦ تموز عام ١٨٦٠م رسالة خاصّة، أعرب له فيها عن أسفه لحوادث «سوريا» وأكد له عزمه «على إعادة الأمن والسلام وإنزال العقوبات بالجنّة وأبلغه أنّه عهد بهذه المهمة إلى وزير خارجيته فؤاد باشا»^(٣). وكان الباب العالي إذ توقع تدخلاً أوروبياً

(١) Ismail, A., op. cit., t.IV, p. 348.

(٢) Edward, R., op. cit., p. 165.

(٣) الخازن، فليب وفريد، المرجع المذكور، ج ٢، ص ١٦٨.

(٤) Edward, R., op. cit., p. 185-187.

جاء في كتاب Edward: «إن محمد فؤاد باشا، ولد عام ١٨١٤، درس الطب والتحق بالجيش. عُيّن سكرتيراً للسفارة العثمانية في لندن وأوفد بمهمتين سياسيتين إلى بطرس برغ والقاهرة. عام ١٨٥١ تولّى وزارة الخارجية ثم قاد الجيش العثماني في حرب القرم وعاد لوزارة الخارجية قبل أحداث لبنان بفترة قصيرة».

(٥) إسماعيل، عادل: المرجع المذكور، ج ٣، ص ٢٧٦.

وأيضاً: Ismail, A.: op. cit., p. 354P; Edward, R., op. cit., p. 166.

(٦) الخازن، فليب وفريد: المرجع المذكور، ج ٢، ص ١٧٢.

وصلته أنباء حوادث دمشق^(١). «فتقبلها بارتياح لما وجد فيها من حظوظ لنجاح مهمته»^(٢). وكان وصوله إلى بيروت في منتصف شهر تموز ١٨٦٠م، وفور وصوله أمر بتلاوة فرمان السلطاني المتضمن بيان السلطات الواسعة المخوَّله له ونقطف بعض ما ورد فيه.

فبعد عبارات الإطراء والتفخيم بشخصية فؤاد باشا، يقول فرمان: «... فأما ما اضطرب به جبل لبنان من الحركات الغادرة الظالمة فإنها من جميع الوجوه تغاير رضانا ولهذا انطنا بوزارتك النظر في ذلك... لتسرع في اخماد هذه الثورة واستئصال جرثومة الذين أيقظوا الفتنة. فلا تبقِ عليهم ولا تذر أولئك الذين عاثوا مفسدين وكانوا سفّاكين دماء البشر... وقد سيرنا نحو هاتيك الأقطار الجيش العرمم والعسكر الجرار... حتى اذا وطئتها أضحى وزراء الجيش كافة، إليك مرجعهم وبرأيك يأترون وعلى تدبيرك يسرون فيما ينبغي لاضمحلال أثر هذه الفتنة في أسرع حين. والجهد كل الجهد في رد الأمن والسكون والراحة... والذين تجاسروا على سفك

الدماء عدواناً اجعل جزاءهم بمقتضى الأحكام التي نص عليها عدلنا في قانون الجزاء ردياً وتأديبياً. والهمة في محي أثر الغائلة الفظيعة مستعملاً في ذلك ما استقلت به رأياً واجتهاداً وما قد فوّضناه إليك وأنطناه بك من تدبير مصالح السياسة، وترتيب الجيش إيفاء بما يجب حق الدراية، والقيام بواجبات الوظيفة وبذل ما تصل إليه الاستطاعة.

وعلى ذلك صدرت إليك الأوامر من ديواننا لملكي بولاية هذا العمل، والذهاب لتكون متجهاً بمقتضاه مؤتمناً به معتمداً على علاقتنا الشريفة.

تحرير في أواخر ذي الحجة سنة ١٢٧٦هـ/ ١٨٦٠م^(٣).

وبعد تلاوة فرمان السلطاني بتعيينه وزيراً مفوضاً مطلق الصلاحية، أصدر فؤاد باشا نشرة إلى أهالي سوريا ولبنان في ١٩ تموز، اشتملت على الترغيب والترهيب والأمر بوقف القتال فوراً، والوعد بالاستماع إلى شكاوى الكبار والصغار. ومما جاء فيها: «إن الحرب الأهلية التي نشبت في جبل لبنان بين الموارنة والدروز

(١) Edward, R., op. cit., p. 185.

(٢) Ismaïl, A., op. cit., t.IV, p. 354.

إسماعيل، عادل: المرجع المذكور، ج ٣، ص ٢٧٦.

(٣) الخازن، سمعان: يوسف كرم قائم مقام نصارى لبنان، المرجع المذكور، ص ٩٧،

رستم، أسد: المرجع المذكور، ص ٢٣.

قد بدأت تتخذ منحى جديداً في اتجاه الاتفاق على إرسال حملة أوروبية مشتركة إلى الشرق.

٤ - الدول العظمى توافق على الحملة

«كان موقف بريطانيا من دعوة فرنسا للتدخل المسلح، يتّسم بالشك والحذر الشديدين. فما عرف عن أطماع نابوليون الثالث في بعض عروش إيطاليا وما كان من ضم نيس وسافوا «Nice - Savoie» إلى فرنسا بموجب الصفقة التي عقدها إمبراطور الفرنسيين مع كافور «Cafour» رئيس وزراء مملكة سردينيا، مقابل سكوت الأول على إدماج ولايات إيطاليا الوسطى في المملكة المذكورة (نيسان عام ١٨٦٠ م)»^(٢). كل ذلك جعل الأصوات تتردد في لندن وعواصم أوروبا بأن ذلك الضم هو «بداية لسياسة ترمي إلى التوسع في حدود فرنسا الشرقية، وإعادة النظر في المعاهدات التي وضعتها الدول الظافرة في حروب نابوليون الأول»^(٣). ولكن ما إن وصلت أنباء مذابح دمشق إلى أوروبا في ١٦ تموز ١٨٦٠ م، حتى ضجّت الأوساط المسيحية في جميع العواصم الأوروبية، وتعالّت الصيحات بوجوب وضع حد لسفك الدماء

وأسالت أنهرًا من الدم، قد أوجبت استياء جلالته السلطان الشامل برأفته جميع رعاياه على السواء من دون أي تمييز، من الأمور المخالفة لنيّة جلالته اعتداء فرد على فرد، أو ملّة على ملّة لأي سبب كان. وبناء عليه فجميع الذين يخالفون هذه الأوامر يعدون متمردين على الحكومة، ومن ثم يجب محي آثار كل عداء، بعد الفظائع التي اقترفها أهل لبنان. لقد جنّت موفداً من قبل الحضرة السلطانية بهمة مستقلة، لمعاقبة الذين ارتكبوا هذه الجنايات...

فليرتاح بال الجميع. أما في ما يختصّ بالعيال التي طردت من بيوتها فإنني أتكفّل بإعادتها وسدّ حاجاتها المعاشية، مظهرًا لها بذلك الشفقة الشاهانية». «وينبغي أن يقف الاقتتال حالاً. فإن الجنود السلطانية التي بإمرتنا ستعمل منذ اليوم ضد من يخالف هذه الأوامر، ويبدأ بالعداء منذرين بإنزال العقوبات العاجلة في كل من يخلّ بالأمن والراحة... وقد فوّض إلينا لوضع حدّ للاقتتالات، صلاحيات غير عادية لمحاكمة الأفراد الذين اقترفوا الجنايات. فلجميع كباراً وصغاراً أن يبسطوا شكواهم فنغيرهم أذناً صاغية»^(١). وبينما انصرف فؤاد باشا للقيام بمهمته، كانت الاتصالات الأوروبية

(١) الخازن، فيليب وفريد، المرجع المذكور، ج ٢، ص ١٧٥. Edward, R., op. cit., p. 185.

(٢) De La Gorge, Pierre, *Histoire de second Empire*, t. 3, Paris, 1805, p. 210.

(٣) طرين، أحمد: المرجع المذكور، ص ١٣٦.

وافتت الحكومة البريطانية على وجهة النظر هذه بات سهلاً علينا أن نتفاهم معها من دون تأخير على أسس الاتفاق مع الدول الأخرى، والباب العالي على الوسائل اللازمة للدفاع عن المبادئ الإنسانية وإعادة الهدوء والسلام إلى سوريا... فأرجو أن تطلعوا اللورد راسل «Russel» على ما تقدم، وتبحثوا معه الأمر». ولما كانت الأوضاع في الشرق لا تسمح بأي تأجيل، فإني أنتظر منكم أن توافقوني بأسرع وقت برأي الحكومة البريطانية»^(٤).

وقد أجاب الكونت برسيني سفير فرنسا في لندن في ١٨ تموز: «إن وزير خارجية بريطانيا اللورد راسل اضطرب لدى سماعه الاقتراح الفرنسي المتعلق بإرسال جنود إلى سوريا وأن الحكومة الإنكليزية قبلت على الرغم من ذلك الاقتراح الفرنسي بصورة مبدئية، معلنة أنها لا تستطيع إرسال جنود بريطانيين، لأنه ليست لديها قووات برية كافية... غير أن بريطانيا وعدت بتعزيز قواها البحرية على الشواطئ السورية، شرط أن يعهد بحماية البلدان الداخلية إلى جنود فرنسيين، يمكن أن يضاف إليهم جنود نمساويون ورفضت

هناك. «وبادر السيد توفنيل، وزير الخارجية الفرنسية، إلى مقابلة الأمبراطور نابوليون الثالث في سان كلو»^(١). «وقرراً معاً مبدأ التدخل المسلح وإرسال حملة عسكرية إلى لبنان بالإضافة إلى الوحدات البحرية التي كانت تلقت أمراً بالإبحار إلى مياهه»^(٢).

وفي مساء ١٦ تموز من السنة نفسها، اطلع السيد توفنيل اللورد كاولي «Cowley» سفير بريطانيا في باريس على قرار الحكومة الفرنسية، كما «أبلغه إلى السيد برسيني «Persigny» سفير فرنسا في لندن»^(٣). وقد جاء فيه: «إنّ الحالة تقتضي عملاً حازماً وسريعاً، ولما كنا نخشى أن تكون قوى الباب العالي غير كافية لمواجهة الأحداث، فقد رأينا أن تتفق الدول في ما بينها وتساعد على معالجة أوضاع بلغت من الخطورة حدّاً بعيداً. والأوامر التي أصدرناها إلى قادة الأساطيل، بأن يضعوا قواهم تحت تصرف القناصل لا تفي بالغرض المقصود، لأنّ هذه القوى لا تستطيع القضاء على أسباب الفتنة في الجبل وفي المدن الداخليّة التي وقعت فيها. فلا بدّ إذن من إرسال فرقة عسكرية للقيام بهذا الواجب على ما تقتضيه الظروف. فإذا

(١) المرجع السابق، ص ١٣٦.

(٢) Ismail, A., op. cit., t. IV, p. 3249.

إسماعيل، عادل...، المرجع المذكور، ج ٣، ص ٢٦٠.

(٣) الخازن، فليب وفريد، المرجع المذكور، ج ٢، ص ١٧٥؛ Ismaïl, A., op. cit., p. 549.

(٤) Edward, R., op. cit., p. 189.

اشترك الجنود الروس والبروسيين، واشترطت «أن لا ينزل الجنود الفرنسيون أرض لبنان إلا بعد التوقيع على اتفاق بهذا الشأن بين الدول صاحبة العلاقة»^(١).

لكن توفنيل وزير الخارجية الفرنسية أرسل إلى قنصله في بيروت، السيد دي بونتيفوليو في ٢٠ تموز عام ١٨٦٠م يبلغه أنه «...إزاء الحرب المفجعة التي كانت دمشق مسرحاً لها، قرّرت حكومة صاحب الجلالة إرسال بعض القطع البحرية لحماية السواحل، وأبلغت ذلك لبريطانيا التي وافقت على زيادة عدد قطعها البحرية في المنطقة، وعلى إرسال قوات عسكرية فرنسية إلى المناطق الداخلية... إن رحيل قواتنا سيبدأ قبل انتظار الموافقة الدوليّة على هذا التدخل»^(٢).

الواقع أن حوادث دمشق والحملة الصحفية التي شنتها فرنسا في أوساط الرأي العام الأوروبي على المسؤولين عنها، أضعفت حجة اللورد راسل في الدفاع عن سياسة العثمانيين وتجردهم، ثم «جاءته معلومات تفيد أن حكومات روسيا وبروسيا وسردينيا لأسباب تتعلق بمصالحها وسياستها في البلقان والشرق، ستوافق

فرنسا على قرارها، فمال مرغماً على الموافقة»^(٣)، ولكن ليس حسب الشروط الفرنسية، بل أعطي المشروع صبغة دولية، وحاول الحدّ من مهمة القوات الفرنسية بحيث جعلها مقتصرة على حماية مسيحيي الداخل ولاسيما مسيحيي جبل لبنان، وأن يكون بالإمكان تعزيزها بقوات نمساوية إذا اقتضت الحاجة. ولم يكن الإنكليز على كل حال يؤمنون بتجرّد نابوليون الثالث، فحرصوا أن يرتدي التدخل طابعاً دولياً وفقاً لاتفاق دولي يجري التفاوض بشأنه، بينما تكون القوّات الفرنسية في طريقها إلى البلاد المعنية. «وقد طلب اللورد راسل من السيد توفنيل وضع مسودة الاتفاق وفقاً لشكوك الحكومة الفرنسية وملاطفة لها»^(٤). على الرغم من أن الحكومة البريطانية كانت لا تزال حتى هذه الفترة تحافظ على سياستها التقليدية في المسألة الشرقية القاضية بالحوول دون وقوع أي جزء من أراضيها في أيدي أية دولة أوروبية.

غير أن بريطانيا التي كانت تعرف أن الموارد في لبنان يتمتعون بحماية منافستها فرنسا، على الرغم من موافقتها المبدئية على الخطوة الفرنسية، عادت

(١) الخازن، فليب وفريد، المرجع المذكور، ص ١٧٠.

(٢) إسماعيل، عادل، المرجع المذكور، ج ٣، ص ٢٦١.

(٣) الخازن، فليب وفريد: المرجع المذكور، ج ٢، ص ١٧١؛ Ismaïl, A., op. cit., p. 360.

فارتأت تأجيل البعثة العسكرية الفرنسية بحجة أنه أصبح لدى الباب العالي في سوريا قوة كبيرة من الجند كافية لضمان الأمن والسكينة، «مستندة على الأنباء القائلة بأن الأمن قد استتب في سوريا»^(١).

وفي هذا الصدد، كتب القنصل الفرنسي في بيروت بونتيوليو إلى وزير خارجيته توفنيل يقول: «إنه إذا ما صحت الأنباء التي تروّج هنا منذ ثلاثة أيام من قبل الإنكليز حول العدول عن فكرة إرسال الحملة، فإنّ النفوذ الفرنسي في الشرق سيتعرض لضربة قويّة يقابلها تصاعد كبير للنفوذ الإنكليزي، خاصة وأنّ الناس هنا بدأوا يشعرون بأنّ للإنكليز أثراً كبيراً في إفسال مشاريع الحكومة الفرنسيّة»^(٢).

على هذا الأساس، أصرت الحكومة الفرنسيّة على ضرورة إيفاد الحملة، فاضطرت بريطانيا في النهاية على الموافقة شرط أن يحدد ميعاد جلاء الجيوش الأجنبية في الاتفاقية الدولية، التي عهد لفرنسا بوضع مسودتها وأن تجعل مدة الاحتلال مثلاً ستة أشهر، وأن لا يفرض على السلطان تأمين نفقات الحملة، كما حرصت بريطانيا على الملاحظة أنها لم

توافق على إرسال الجيوش الأجنبية إلى داخل سوريا، إلاّ مرغمة إذ ربما أثار إرسالها تعصّب المسلمين، فيؤخر إعادة السلم إلى البلاد بدلاً من التعجيل به فتحدث عراقيل دولية خطيرة، وعليه يرغب «بأن لا يقدم على احتلال إلا متى ثبت وجوبه، ويبادر فوراً إلى وضع حد له عندما لا يبقى إليه حاجة»^(٣).

ولتطمين بريطانيا أكثر، عادت الحكومة الفرنسيّة لتوضح للحكومة البريطانيّة «بأنه صحيح أن اتفاقاً قد وقّع بين الأطراف المتقاتلة، إلا أنه يخشى أن يكون قد جرى لغير مصلحة المسيحيين، كما أن مجازر دمشق حدثت بعد الاتفاق المشار إليه، وأنه يخشى أن تمتد المذابح إلى سائر المناطق السورية، كما أن الحكومة الفرنسيّة لم تخص نفسها بأي دور استثنائي في هذه القضية بل حرصت على إشراك سائر الدول الكبرى في الوصول إلى اتفاق دولي مع الباب العالي، بهذا الشأن، وأنها تلح على الحكومة البريطانيّة أن تشارك وإياها في العمل على قدم المساواة»^(٤).

فسارعت بريطانيا إلى «تبديد ما دعته بأوهام الحكومة الفرنسيّة، فأكدت لها

(٢) Ismail, A. op. cit., t. 10, p. 223.

(١) المرجع السابق، ص ١٨٦.

(٣) الخازن، فليب وفريد، المرجع المذكور، ج ٣، ص ١٩٠.

(٤) المرجع السابق، ص ١٩٢-١٩٤.

رغبتها في مجاراتها إلى ما تريد، عندما تتأكد من ضرورة التدخل بالقوة في سوريا، وأنه «ليس كثيراً إذا طالبت لقاء ذلك التروّي قبل الإقدام على هذا التدخل»^(١).

٥ - موقف بعض الدول الأوروبية من إرسال الحملة

وافقت بروسيا على المشروع الفرنسي ووافقت روسيا عليه أيضاً وأبلغت بهذه الموافقة سفراء الدولة لديها وسفراءها لدى الدول المعنية. وفي ٢١ تموز عام ١٨٦٠م كتب الدوق دي مونتيللو «de Montebella» سفير فرنسا في بطرسبرغ إلى توفنيل يقول: «إن البرنس غورشاكوف «Garsakow» وزير الخارجية الروسي يوافق على اقتراحنا في هذه الظروف والأوضاع، لأنه كلما دعت حالة المسيحيين الى اتخاذ تدابير لحمايتهم، فإن روسيا من دون تمييز بين عنصر وعنصر ومذهب ومذهب تكون دائماً على استعداد للإسهام في هذه التدابير، وأنه أعطى تعليماته لمفاوضة حكومتنا والحكومات الأخرى، لوضع الاتفاق الدولي الذي أشرنا إليه، ثم أضاف أن القيصصر أمره أن ينص هذا الاتفاق على تعهد من الدول والباب العالي

بتحسين أحوال المسيحيين في البلاد العثمانية كلها، وبالتعويض عن المظالم التي ارتكبت باتخاذ تدابير إدارية شديدة، تحول دون وقوع هذه المظالم مرة أخرى، وأن «تتعهد الدول والباب العالي أيضاً في حال وقوع اضطرابات شديدة في المستقبل بأن تقوم بمثل ما تقرر لوضع حدّ للاضطرابات السورية»^(٢).

ولما اطلعت الحكومة البريطانية على صيغة الموافقة الروسية هذه رفضت وجهة نظر الروس لما وجدته فيها من تطّلع «للتدخل في شؤون البلقان إذا وقعت فيه أحداث مشابهة لأحداث سوريا، أو إذا أرادت الحكومة الروسية أن تخلق فيه أحداثاً أو مذابح طائفية تبرّر تدخلها»^(٣). كذلك عارضت تركيا وبروسيا والنمسا وجهة النظر الروسية^(٤).

أما النمسا، فرفضت الموافقة على فكرة الحملة، لأن الصفة الدولية المطلوبة لها تجعل من سردينيا عدوتها، وهي حاملة لواء الوحدة الإيطالية كونها موقّعة على معاهدة باريس دولة كبرى، فكان لا بدّ للحكومة الفرنسية من إزالة هذه الصعوبة، «فاقترح وزير خارجيتها توفينيل أن لا

(١) الخازن، فليب وفريد، المرجع المذكور، ج ٣، ص ١٩٦.

(٢) إسماعيل عادل، المرجع المذكور، ج ٣، ص ٣٦١.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٦٢.

(٤) Ismail, A., op. cit., t. IV, p. 350-351.

فاضطرت فرنسا إلى قبول الشروط الانكليزية لإزالة المخاوف التي كانت تبديها بريطانيا^(٣). وهكذا يتبين أن بريطانيا حرصت على أن يكون التدخل وفقاً لاتفاق دولي واضح الأهداف والشروط وذلك لتشديد المراقبة على الأعمال الفرنسية في سوريا.

٦ - الباب العالي والاعتراض الأخير

خشى الباب العالي من مغبة التدخل الأوروبي العسكري في لبنان، «فأعلن فؤاد باشا أنه كفيل بإعادة الأمن والنظام بالقوة العثمانية وحدها، وبمعزل عن كل قوة أوروبية»^(٤)، و«لكنه (الباب العالي) قبل إيفاد لجنة أوروبية إلى سوريا لإجراء التحقيق والنظر في تعديل نظام عام ١٨٤٥م»^(٥)، على أنه إذا تراءى للدول العظمى صديقات الدولة العثمانية وحليفاتها، وجوب إرسال تلك القوة لتعمل بالاتفاق مع مندوب الباب العالي لضمان إعادة السلام عاجلاً إلى سوريا، وتوطيد سلطة الحكومة الشاهانية، فالباب العالي يخول سفيره في باريس أن يبحث مواد الاتفاقية مع ممثلي الدول وتوقيعها بالشروط الآتية:

تستند الحملة على نصوص معاهدة باريس والخط الهمايوني شباط عام ١٨٥٦ م بل على مقررات ٧ كانون الأول عام ١٨٤٢م التي كرّست اتفاق الباب العالي والدول الخمس على نظام تقسيم لبنان إلى قائمقاميتين، باعتبار أن الاضطرابات كانت نتيجة إخفاق هذا النظام. وأن الدول الأوروبية ملزمة «بالتدخل لوضع اتفاق جديد يصلح ما أفسده الاتفاق القديم»^(١). وعلى هذا الوجه، أقصيت سردينيا عن شؤون الامبراطورية العثمانية وزالت معارضة النمسا.

بعد أن أعلنت كل الدول المعنية موافقتها على المشروع الفرنسي، «أقرّ مجلس الوزراء البريطاني في ٢٥ تموز عام ١٨٦٠م مبدأ إرسال حملة أوروبية إلى سوريا بالشروط الثلاثة الآتية:

١ - أن يطلب فؤاد باشا تدخل هذه القوات، أي أنه لا يلجأ إلى استخدامها إلا إذا عجز الأتراك عن إعادة الراحة.

٢ - أن تعقد اتفاقية بين الدول الكبرى والباب العالي في أقرب وقت ممكن.

٣ - «أن لا يستمر احتلال سوريا أكثر من ستة أشهر»^(٢).

(٢) الخازن، سمعان: المرجع المذكور، ص ١٠٥.

(١) رستم، أسد: المرجع المذكور، ص ٢٥.

(٣) Ismail, A., op. cit., t. IV, p. 352.

(٤) إسماعيل، عادل... المرجع المذكور، ج ٣، ص ٢٦٣. (٥) طرين، أحمد، المرجع المذكور، ص ١٣٨.

١ - أن تكون تحرّكات القوة المراد إرسالها بالاتفاق مع مندوب الباب العالي.

٢ - أن يعيّن عدد أفرادها وفقاً لمقتضيات الحالة الراهنة.

٣ - أن يحدّد وقت جلائها^(١).

ولكن على الرغم من ذلك، ظلّ الباب العالي يعمل على عرقلة التدخّل، فأرسل إلى سفيره في لندن السيد موزوروس أفندي كتاباً قدّمه السفير إلى اللورد راسل وزير الخارجية الإنكليزية وإلى سفراء الدول بتاريخ ٣٠ تموز عام ١٨٦٠ م، جاء فيه: «إن قبول الباب العالي لقرار الدول يجب ألاّ يفهم منه إلاّ أنّه دليل يقدّمه على رغبته الصادقة في القضاء على اضطرابات يأسف لوقوعها أكثر من أيّ أحد... على الرغم من أن وصول عساكر أجنبيّة إلى نقطة ما من الأراضي العثمانيّة، من شأنه أن يوجد عند النّاس المختلفي الطوائف والمذاهب في جميع هذه الأراضي، أفكاراً ويثير عواطف وشهوات، قد تؤدّي بفعل اختلافها وتناقضها إلى كارثة، فعناصر الشغب في الأوساط المسيحيّة ستفسّر الحملة العسكريّة بأنها ظاهرة تصميم أوروبي على مساعدتها ضد المسلمين، فتطلق العنان لشهواتها. ومن جهة أخرى، فإنّ الرعايا

المسلمين الذين ليس لهم ما يمكنهم من تفهّم المبادرة الأوروبية على حقيقتها، سيأخذهم اليأس ويتولى عليهم الغضب لأنّ الدول تجعلهم مسؤولين عن أعمال قام بها الدروز أو حفنة من المجرمين، وشجبها كل مسلم فيقابلون تلك العناصر المسيحية بعنف مثله، يُضاف إلى ذلك أنه إذا ذاع بين المسلمين «أن الحكومة العثمانية قد استعانت بعساكر أجنبية فإن هذه الحكومة تفقد بنظرهم كل هيبة واحترام»^(٢).

وانتهى الكتاب بما يلي:

«ولما كانت الحكومة الشاهانيّة قد اتّخذت الوسائل الفعّالة التي تكفل قصاص مقترفي هذه الفظائع، وكانت قد أوفدت ناظر خارجيّتها وخولته مطلق الصلاحية، فهي موقنة بأن في وسعها وحدها بعون الله قمع الفتنة ومعاقبة المذنبين. والباب العالي يرجو من حكومة صاحبة الجلالة الملكة أن تأخذ بالحسبان كل هذه الملاحظات، وقد أبلغت أيضاً إلى ممثلي الدول ليرفعوها إلى حكوماتهم»^(٣).

وقد ردّ اللورد راسل: «إن سلوك الباشوات الاتراك وجنودهم الشائن في سوريا، هو الذي أرغم حكومة إنكلترا على قبول مقترحات فرنسا وكان في إمكانها أن

(١) الخازن، فليب وفريد، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٢٢٧، ٢٢٨.

(٢) إسماعيل، عادل، المرجع المذكور، ج ٣، ص ٢٦٣. (٣) Edward, R., op. cit., p. 191-192.

كيسيليف «de Kisselef» سفيراً لروسيا، وملك بروسيا الأمير دي روس وكيل السفارة البروسية، جلالة ملكة بريطانيا العظمى وإيلدنا اللورد كاولي السفير البريطاني، وجلالة أمبراطور النمسا السيد مترنيخ «Metternich» السفير النمساوي»^(٤).

وبعد مداوات عديدة، وضع ممثلو الدول والباب العالي نص بروتوكول مؤلفاً من ست مواد حدّدت صفة الحملة وشروطها كما يلي: «أنه لما كان جلالة السلطان يريد حقن الدماء في سوريا بأقرب الوسائل وأنجعها ويريد إظهار عزمه على المحافظة على النظام والأمن بين الشعوب الخاضعة لسلطته، وكان أصحاب الجلالة أمبراطور النمسا وأمبراطور فرنسا وملكة بريطانيا العظمى وإيرلندا وسمو كفيل الملك في بروسيا وجلالة أمبراطور روسية، قد عرضوا على جلالة السلطان مساعدتهم الفعّالة فقبلها، فإن ممثليهم قد اتفقوا على المواد الآتية:

المادة الأولى: يرسل إلى سوريا جيش من العساكر الأوروبية يمكن جعل عدد رجاله إثني عشر ألفاً ليعمل على توطيد الراحة فيها.

تناط معاقبة مقترفي مذابح لبنان وقمع الفتنة بعدالة فؤاد باشا ودرأيته لو لم ترد الأنباء المفجعة من دمشق، الأمر الذي أوضح بجلاء عجز السلطة التركية عن حماية المسيحيين في أهم مدن السلطنة»^(١). وهكذا فشلت كل جهود الباب العالي للحؤول دون إرسال الحملة الأوروبية، واضطر للخضوع مبدئياً لملاحظات حول تحديد عدد جنود الحملة ووقت جلائها عن سوريا، ووجوب أن تتم تحركات جنودها مع مندوبي الباب العالي. وانتهت المكالمات بين باريس ولندن وبين هاتين العاصمتين والعواصم الكبرى الأخرى إلى الاتفاق على مؤتمر في باريس، توجه فرنسا الدعوة إليه لتقرير شروط الحملة الفرنسيّة ويشترك في هذا المؤتمر الباب العالي^(٢)...

٧ - مؤتمر باريس وبروتوكول عام ١٨٦٠م

وجهت فرنسا الدعوة رسمياً، فاجتمع ممثلو الدول لأول وهلة في ١ آب ١٨٦٠م في باريس، ثم عادوا «فاجتمعوا في ٣ آب من السنة نفسها، وتباحثوا مع ممثل الباب العالي بشأن الخطة المشتركة للتدخل في سوريا»^(٣). وقد مثل جلالة السلطان أحمد وفيق أفندي السفير التركي لدى فرنسا، وجلالة أمبراطور روسيا الكونت دي

(٢) طرين، أحمد: المرجع المذكور، ص ١٣٩.

(٣) إسماعيل، عادل: المرجع المذكور، ج ٣، ص ٢٦٤. (٤) Edward, R., op. cit., p. 195.

(١) Ibid., p. 192.

أشهر لتيقننها أنها كافية لإعادة الأمن والراحة.

المادة السادسة: يتعهد الباب العالي أن يبذل ما في وسعه لتسهيل تمويل هذه الحملة الفرنسية. ويلى التوقيع...^(١).

كما أصدر المؤتمرون ملحقاً مع القرار، حرصوا فيه على تهدئة روع السلطان بإعلانهم أنهم ليس لديهم مجتمعين أو منفردين أي مطمع بنشر نفوذ خاص، أو الحصول على امتيازات تجارية لرعاياهم، وأن عملهم هذا جاء نتيجة طبيعية لما جاء في المادة التاسعة من معاهدة باريس وأكدوا أن حكوماتهم تعلق أكبر أهمية على «تنفيذ وعود جلاله السلاطين، باتخاذ تدابير جدية لتحسين أحوال الطوائف المسيحية بمختلف مذاهبها في جميع الأراضي العثمانية»^(٢).

وقد اعتبر هذا البروتوكول نصراً للدبلوماسية البريطانية، إذ «إنه حصر الحملة الفرنسية في إطار أوروبي، وحد من سلطة قائدها إذ فرض عليه الاتصال بالوزير العثماني والتفاهم معه على ما يجب عمله وحدد عدد الجنود الفرنسيين المشاركين في الحملة، ولم يحدد في

المادة الثانية: إن جلاله امبراطور الفرنسيين قد قبل أن يجهز في الحال نصف الجيش إذا قضت الظروف بإبلاغه العدد المحدد في المادة السابقة وعلى الدول أن تتفق من دون تأخير مع الباب العالي، وبطريق المفاوضة العادية على تعيين الدولة التي يتوجب عليها تقديم الجنود اللازمة.

المادة الثالثة: على قائد هذه الحملة أن يخبر فور وصوله مندوب الباب العالي فوق العادة للاتفاق على اتخاذ جميع الوسائل التي تستدعيها الأحوال، وعلى احتلال المواقع التي يجب احتلالها لبلوغ الغاية المقصودة.

المادة الرابعة: إن أصحاب الجلالة امبراطور النمسا وامبراطور الفرنسيين وملكة بريطانيا العظمى وسمو كفيل الملك في بروسيا وجلالة امبراطور الممالك الروسية، وعدوا بمواصلة إرسال القوات البحرية اللازمة إلى شواطئ سوريا وإبقائها في مياها لإنجاح المساعي المشتركة الأيلة إلى توطيد الراحة في تلك البلاد.

المادة الخامسة: إن الدول المتعاقدة جعلت مدة احتلال الجنود الأوروبيين ستة

(١) Ibid., p. 195-196.

فليب وفريد الخازن، المرجع المذكور، ص ٢٤٢؛ رستم، أسد: المرجع المذكور، ص ٢٦.

(٢) الخازن، فليب وفريد، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٢٤٢. Edward, R., op. cit., p. 196.

أضيق حدود ممكنة للمساعدة الأوروبية، فأخضعت هذه الحملة لموافقة السلطان وإشرافه المباشر كما حرصت على إضفاء الطابع الدولي عليها، حتى لا تستطيع القوات المرسلّة أن تقوم بأي عمل من غير موافقة الدول الموقعة على الاتفاقية، تمكّنت من إحراز موافقة إجماعية على السماح للدول الأوروبية ذات العلاقة بإرسال عدد غير محدود من السفن الحربية من دون تعيين مدة رسوؤها في المياه الإقليمية العثمانية. ولما كان في حوزة بريطانيا أكبر أسطول بحري فقد كانت أكثر الدول الخمس قدرة على الاستفادة من هذه المادة^(٣). «ثم أرسل البروتوكولان إلى حكومات الدول الممثلة في المؤتمر، فوافقت عليهما وأعطتهما الصفة الدولية»^(٤).

٩ - التحضير للحملة

انتهت المفاوضات السياسية حول إرسال الحملة بتوقيع اتفاقية ٣ آب عام ١٨٦٠م، وبدأت الاستعدادات التقنية

المقابل عدد الوحدات البحرية التي سترسل إلى المياه اللبنانية والسورية، ولا مدة بقائها تاركاً بذلك لبريطانيا حرية مطلقة في إرسال ما تريده من أساطيل، وفقاً لمصالحها وتطورات الحالة»^(١).

وقد «وافق أعضاء المؤتمر على أن تتخذ الدول الست المتفق عليها في ٣ آب صفة الاتفاقية من دون أن يطرأ على نصّها أي تغيير وأن توضع شروط تطبيق هذه المواد موضوع التنفيذ حالما يتمكّن ممثلو الدول من الحصول على اعتماد التواقيع من حكوماتهم»^(٢).

٨ - إتفاقية ٥ أيلول عام ١٨٦٠م

في الخامس من أيلول ١٨٦٠م، أصبح البروتوكول اتفاقية بالمواد الست الآتية الذكر، مضافاً إليها مادة سابعة تضمّنت تحديد المدة للموافقة على الاتفاقية فحدّدت بخمسة أسابيع على الأكثر.

وهكذا فإنّ بريطانيا بذلت كل ما في وسعها لتبقي على سيادة السلطان، ولترسم

(١) طربين، أحمد، المرجع المذكور، ص ١٤٠.

(٢) Ismaïl, A., op. cit., t.IV, p. 353.

(٣) عادل إسماعيل، السياسة الدولية، المرجع المذكور، ج ٣، ص ٢٦٥.

(٤) الجنرال دي بوفور دوتبول، ولد في تارنت Tarent عام ١٨٠٤، تلقى دروسه في سان سبر أكبر مدارس فرنسا الحربية وتعيّن في حملة الجزائر عام ١٨٣٠. وقد كلفه المارشال سولت بمهمات عسكرية في مصر وسوريا (١٨٣٤-١٨٣٧) وكان رئيس أركان حرب سليمان باشا الفرنساوي (الكولونيل دو سيف) قائد جيش ابراهيم باشا، ارتقى إلى رتبة كولونيل عام ١٨٥٠ ورتبة جنرال عام ١٨٥٤، توفي في ١٧ أيار عام ١٨٩٠ (اسطفان البشعلاني، لبنان ويوسف بك كرم، بيروت، ١٩٢٥، ص ٣٠١).

المتعلّقة بها، فاختر نابوليون الثالث لقيادتها «الجنرال دي بوفور دوتبول de» «Beaufort d'Hautpoul» وكان عسكرياً عليمًا بأمور الشرق، وأوسع الضباط الفرنسيين معرفة بالأوضاع اللبنانية^(١).

وقد شهد الوقائع في الجزائر ووقف على أحوال العرب والسوريين والترك، ما جعل الإمبراطور يوكل إليه أمر قيادة الحملة الفرنسية سنة ١٨٦٠م. «ولكن لهذا الرجل هفوات عسكرية. فقد كان عصبي المزاج، سريع التأثر، بنقصه شيء من الرزانة والحزم والصلابة»^(٢). «وجعل الجنرال ديكرو «Ducrot» قائداً للمشاة والكولونيل أوسمونت «Osmont» رئيساً للأركان»^(٣). «ثم بدأت الاستعدادات العسكرية لتجهيز الحملة في باريس ومرسيليا، وشرع وزير الخارجية الفرنسي ومستشارو الإمبراطور في وضع مخططاتها السياسية على هامش الاتفاق الدولي الذي تمّ بشأنها»^(٤). «وفي ٧ آب عام ١٨٦٠م، أي بعد أربعة أيام من توقيع البروتوكول، استعرض الإمبراطور نابوليون الثالث جنود

الحملة إلى سوريا في معسكر شالون «Chalon» في مدينة تولون وكان عددهم حوالي ستة آلاف»^(٥)، ووجه إليهم أمراً يومياً أوضح لهم فيه مهمتهم بمنتهى الحكمة واللباقة، قائلاً لهم:

«إنكم مسافرون إلى سوريا... إن فرنسا تحيي بسرور حملة غايتها الوحيدة نصر الحق والعدالة والإنسانية... لستم زاهبين لمحاربة إحدى الدول بل لمساعدة السلطان في إخضاع رعايا أعماهم تعصّب الأجيال الغابرة... إن عددكم قليل ولكني واثق من أن بسالتكم تغنيكم عن كثرة العدد، لأن الشعوب تعلم أنه حيثما يجتاز علم فرنسا، فهناك غاية نبيلة تتقدمه وشعب عظيم يتبعه»^(٦).

كذلك أذاع الجنرال دوتبول «D'Hautpoul» نشرة في مرسيليا بهذا المعنى، فقال: «إن الحملة زاهبة باسم أوروبا المتمدنة لمساعدة جنود السلطان على من تعدّى على افرنسانية ولطّخها بالعار... إنكم زاهبون إلى مهد الديانة المسيحية... إلى الأمكنة التي شرفها

(١) عادل إسماعيل، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٧٥.

(٢) اسطفان البشعلاني، نقلاً عن ديكرو رئيس أركان الحملة، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٢٥، ص ٣٠١.

(٣) رستم، أسد، المرجع المذكور، ص ٢٧.

(٤) طربين، أحمد، المرجع المذكور، ص ١٤١.

رستم، أسد، المرجع المذكور، ص ٢٧.

(٦) Edward, R., op. cit., p. 197.

غودفروا دي بويون والصليبيون والجنرال بونابرت وجنود الجمهورية الباسلة»^(١).

وهكذا ارتدى التدخّل الأوروبي في الأمبراطورية العثمانية لأول مرة طابعاً جماعياً، إذ اشتركت فيه الدول الأوروبية الخمس الكبرى ووقع الباب العالي على اتفاقية بشأنه. ولكن الطابع الجماعي هذا لم يكن سوى شكلاً قانونياً، إذ إن التناقضات المرتبطة بمصالح هذه الدول جميعاً، ستؤدي إلى خلافات عديدة في ما بعد، خاصة بين المتنافستين الرئيسيتين فرنسا وبريطانيا. وتمّ الاتفاق على أن تتألف اللجنة الدولية التي ستوجه إلى سوريا على الشكل الآتي:

«عن بريطانيا اللورد دوفري Dufferin» ممثلاً في القسطنطينية، عن فرنسا السيد بكلامر «Beclard» قنصلها العام في الإسكندرية، عن النمسا السيد دي ويكبيكر «de Weckbecker» قنصلها العام في سوريا، عن بروسيا السيد دو ريفوس «de Rehus» السكرتير الأول لسفارتها في الاستانة، عن روسيا السيد نوفيكوف «Novikow» ممثلاً في القسطنطينية»، على أن يتراأس أعمالها ممثل الباب العالي مندوب السلطنة فوق العادة السيد فؤاد

باشا، وقد حُدّدت مهمات اللجنة بالتعاون مع الباب العالي على الشكل الآتي:

- البحث عن جذور ومسببات الأحداث وتحديد مسؤوليّة الذين ساهموا فيها من مشايخ وموظفين وإنزال القصاص بهم.
- تقدير الخسائر وإيجاد الطرق الكفيلة بتخفيف شقاء المنكوبين والتعويض على المتضرّرين.
- اقتراح ما يجب إدخاله على نظام الجبل مع تعديلات كفيلة بمنع تجدد الأحداث»^(٢).

وفي ١٦ آب عام ١٨٦٠ م أرسل وزير الخارجية الفرنسية السيد توفنيل إلى قنصله العام في بيروت السيد بونتفوليو يبلغه: «أنّ تحرّك قواتنا تبع مباشرة توقيع البروتوكول (٣ آب عام ١٨٦٠ م) ... أنا متأكد من أنك ستقدم كل المعلومات الضرورية اللازمة لممثل صاحب الجلالة في اللجنة الدولية السيد بكلامر لكي يقوم بمهمته على أكمل وجه. وبما أن رعايا فرنسيين وأبناء طوائف هي تحت الحماية المباشرة لفرنسا قد تعرّضوا للقتل ودُمرت ممتلكاتهم، فإنّ مهمة ممثل الأمبراطور هي مراقبة ومتابعة العقوبات التي ستُنخذ بحق الذين اقترفوا هذه الأعمال، فأرجو منك أن

(١) الخازن، سمعان: المرجع المذكور، ص ١٠٨.

رستم، أسد، المرجع المذكور، ص ٢٧.

(٢) Edward, op. cit., p. 198.

أعرفه أن ظهور جنودنا هنا قد أحدث لديهم شعوراً بالخوف، ويبدو أن مشايخهم قد بدأوا يهزّبون الأشياء الثمينة من منازلهم استعداداً لفرارهم في حال اتجاه جنودنا نحو منطقتهم»^(٥)...

تحيط أصدقاءنا علماً بوصوله لكي يخضعوا لأوامره عندما يطلب ذلك»^(١).

نزل الجنود الفرنسيون الذين أقلّتهم القطع البحرية الفرنسية على دفعات على سواحل مدينة بيروت بين ١٦ و ٢٢ آب عام ١٨٦٠ م، أي قبل توقيع إتفاقية ٥ أيلول. «وكنت ترى بتاريخ ٢٢ آب اثنين وعشرين قطعة بحرية راسية في مرفأ بيروت، رافعةً أعلام تركيا وفرنسا وانكلترا وروسيا والنمسا»^(٢). «وخيمت الفرق العسكرية الفرنسية بقيادة الجنرال دي بوفور دوتبول في حرج الصنوبر في ضاحية بيروت»^(٣)، جاعلةً مقرّها العام في المحل الذي يقوم فيه قصر الصنوبر وميدان سباق الخليل اليوم»^(٤). وقد أرسل بونتيڤوليو قنصل فرنسا العام في بيروت إلى وزير خارجيتها السيد توفنيل، في ٢٢ آب عام ١٨٦٠ م، يقول: «إنّ قواتنا تصل تباعاً إلى الساحل... لقد أثار وصولها فرحاً عظيماً عند كل الفئات المسيحية، فقام المسيحيون يستقبلون جنودنا بالترحاب. أما المسلمون فكانت نظرات الاحتقار بادية على وجوههم... أما بشأن الدروز، فإن كل ما

(١) ISMAIL, A.: *Documents diplomatiques...*, op. cit., t.19, p. 240.

(٢) الخازن، فيليب وفريد، المرجع المذكور، ج ٢، ص ٢٤٢،

(٣) سمعان الخازن، المرجع المذكور، ص ١٠٨.

(٤) أسد رستم، المرجع المذكور، ص ٢٧.

(٥) ISMAL, A., *Documents diplomatiques*.

المقاصد الضرورية في الشريعة الإسلامية

د. الشيخ أحمد سيف الدين

وقد قسّمت هذا البحث إلى مقدمة وخاتمة ومطلبين. ففي المقدمة بيّنت عظمة الإسلام، وفي المطلب الأول: عرّفت المقاصد لغّةً واصطلاحاً، والضرورة لغّةً واصطلاحاً، والشريعة لغّةً واصطلاحاً، وتحدثت عن مفهوم مقاصد الشريعة. وأما المطلب الثاني، عرضت أقسام المقاصد الضرورية وهي الدين والنفس والعقل والنسل والمال. وجاء في الخاتمة بعض النقاط التي وردت في البحث.

المطلب الأول:

١ - تعريف المقاصد لغّةً واصطلاحاً:
لغة: «جمع مقصد، بمعنى الغاية، والإرادة والهدف»^(١). ويأتي بمعنى: «التوسط والاعتدال كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَسِّكِ وَأَعْصُصْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [القمان: ١٩] وقيل: القصد هو الاعتزام، والتوجّه نحو

المقدمة:

إنّ المسلمين لم ينالوا ما نالوه من عز ومجد وشرف، إلا بفضل تمسكهم بالإسلام عقيدةً وشريعةً وأخلاقاً، وما أصابهم من ضعف ووهن وشتات إلا بسبب تهاونهم فيه وإهمالهم له، حكماً ومحكومين، وناموا في سبات عميق. وبدأ التشويه للإسلام من قبل أعدائه وأتّهم أنّه قاصر عن رعاية شؤون النّاس الدنيويّة، وأنّ شريعته لا تسائر متطلبات العصر الحاضر، وأما الناظر في الإسلام يجد أنه يواكب العصور كلها والأمكنة التي يعيش فيها الناس، فلقد وضعت الشريعة أحكاماً لتضبط النفس الإنسانية والسلوك، فجاء هذا البحث الذي هو بعنوان «المقاصد الضرورية في الشريعة الإسلامية» ليبيّن حقيقة هذا الدين المنزّل من لدن حكيم عليم وهو الله سبحانه وتعالى.

(١) الفيومي، المصباح المنير، بيروت: نوبليس، ج ٥، ص ٦٩٢.

شيء على الاعتدال والنهوض»^(١). يقول الأصفهاني: «القصد استقامة الطريق، يقال: قصدت قصده، أي: نحوت نحوه»^(٢).

اصطلاحاً: قال الطاهر بن عاشور: «هي الأعمال والتصرفات المقصودة لذاتها التي تسعى النفوس لتحصيلها بمساع شتى، وتحمل على السعي إليها امتثالاً»^(٣). وقال الريسوني: «هو ما قصد، وتريد الوصول إليه وهو مقصود لك ولسعيك. يستعمل المقصد والمقصود بمعنى واحد»^(٤).

٢ - تعريف الضرورة لغة واصطلاحاً:

لغة: «الضرورة اسم لمصدر الاضطرار، تقول: حملتني الضرورة على كذا وكذا، وقد اضطر فلان إلى كذا وكذا، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]. أي: فمن

أُجئ إلى أكل الميتة وما حُرِّم، وضيق عليه الأمر بالجوع»^(٥).

اصطلاحاً: «هي التي يتوقف عليها حياة الناس الدينية والدنيوية، بحيث إذا فقدت، اختلَّت الحياة في الدنيا وضاع النعيم، وحلَّ العقاب في الآخرة، وقد روعيت هذه الضروريات في الإسلام من ناحيتين:

- الأولى: تحقيقها وإيجادها.

- الثانية: المحافظة على بقائها»^(٦).

ويقول الشاطبي: «إنَّها لا بد فيها من قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين»^(٧).

٣ - تعريف الشريعة لغة واصطلاحاً:
لغة: «والشريعة والشراع والمشرفة: المواضع التي ينحدر إلى الماء منها»^(٨). قال الخليل الفراهيدي: «الوارد الماء شروعاً

(١) ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ج ١١، ص ٤٢.

(٢) الأصفهاني، معجم مفردات القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ص ٤٥١.

(٣) ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد الميساوي، بيروت: دار الفنايس، ط ٢، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ص ٤١٥.

(٤) الريسوني، الفكر المقاصدي، الرباط، جريدة الزمن، ١٩٩٩م، ص ١٣.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، ج ٨، ص ٤٦.

(٦) وهبة الزحيلي، نظرية الضرورة الشرعية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٤، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص ٥٢.

(٧) الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، بيروت: دار المعرفة، ج ٢، ص ٨.

(٨) ابن منظور، لسان العرب، ج ٧، ص ٨٦.

وشرعاً فهو شارع، والماء مشروع فيه إذا تناوله بغية، والشريعة والمشرعة: موضع على شاطئ البحر أو في البحر يُهياً للشرب الدّواب، والجميع: الشرائع، والشارع، قال ذو الرمة:

**وفي الشرائع من جلان مقتنص
رث الثياب خفي الشخص منزرب^(١)**

اصطلاحاً: عرفها الجرجاني بأنها: «الائتمار بالالتزام العبودية، وقيل: الشريعة هي الطريق في الدين»^(٢). ويقول سعدي أبو حبيب: «الشريعة ما شرعه الله تعالى من العقائد والأحكام»^(٣).

٤ - مفهوم مقاصد الشريعة:

يقول الغزالي هي: «المحافظة على مقصود الشرع من الخلق، ومقصود الشرع من الخلق خمسة وهو: أن يحفظ عليهم دينهم، وعرضهم وعقلهم ونسلهم ومالهم»^(٤).

وعرفها ابن تيمية بأنها: «الغايات المحمودة في مفعولاته، ومأموراته

سبحانه، وهي ما تنتهي إليه مفعولاته، ومأموراته من العواقب الحميدة»^(٥).

ويقول الأمدى: «المقصود من شرع الحكم إما جلب مصلحة، أو دفع مضرّة، أو مجموع الأمرين بالنسبة إلى العبد لتعالى الرب تعالى عن الضرر والانتفاع، وربما كان ذلك مقصوداً للعبد، لأنّه ملائم له، وموافق لنفسه»^(٦).

وعرفها ابن عاشور: عبارة عن الوقوف على المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، وتدخّل في ذلك أوصاف الشريعة وغاياتها العامة، والمعاني التي لا يخلو التشريع من ملاحظاتها، وكذلك ما يكون من معان من الحكم لم تكن ملحوظة في سائر أنواع الأحكام، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها^(٧).

ومن خلال هذه التعريفات يتبين لنا أنها متقاربة، وتدور حول معنى واحد وهو: أغراض الشارع وغاياته من وضع الشريعة، وهي مصالح العباد.

(١) الخليل الفراهيدي، العين، تحقيق: عبد الحميد هندواي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ج ٢، ص ٣٢٣.

(٢) الجرجاني، التعريفات، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ص ١٢٧.

(٣) سعدي أبو حبيب، القاموس الفقهي، دمشق: دار الفكر، ط ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ص ١٩٣.

(٤) الغزالي، المستصفى، تحقيق: حمزة بن زهير حافظ، المدينة المنورة: شركة المدينة المنورة للطباعة، ج ١، ص ٢٨٦.

(٥) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، الرياض: مجمع الملك فهد، ط ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ج ٣، ص ١٩.

(٦) الأمدى، الإحكام في أصول الأحكام، الرياض: دار الصميعة، ط ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ج ٣، ص ٢٣٩.

(٧) ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص ٢٥١.

والدنيويّة، ويتوقف عليها وجودهم في الدنيا ونجاتهم في الآخرة، وإذا فقدت هذه المقاصد الضروريّة اختلّ نظام الحياة، وفسدت مصالح الناس، وعمّت فيهم الفوضى، وتعرّض وجودهم للخطر والدمار والضياع والانهيار، وضاع النعيم في الآخرة وحلّ العقاب.

«وهذه المصالح الضروريّة هي الأساس لحقوق الإنسان، وهي السند لها، والركيزة التي تعتمد عليها، والكوكب الذي تشع منه، سواء كانت حقوقاً عامة تنادي بها جميع الأمم والشعوب والدساتير والمواثيق العالمية، والقوانين والاتفاقات الدولية، وتسمّى الحقوق الأساسية للإنسان، ومنها حق الحياة، وحق التدين، وحق الحرية، وحق المساواة، أم كانت حقوقاً فرعية وخاصة، وكلا النوعين هي واجبات على الآخرين، يجب عليهم الالتزام بها، وحفظها لأصحابها، لأنّ كل حق يقابله واجب، والحق هو مصلحة مقررة شرعاً أو قانوناً، فالحق منفعة تثبت لإنسان على آخر، فالحق مصلحة قررها الشرع أو القانون، لينتفع بها صاحبها، ويتمتع بمزاياها، وبالتالي تكون واجباً والتزاماً على آخر يؤديه، لتحقيق الغاية منها»^(٢).

وإنّ معرفة مقاصد الشريعة تبين الأهداف السامية التي ترمي إليها الشريعة في الأحكام، وتوضح الغايات الجليلة التي جاءت بها الرسل، وأنزلت لها الكتب، فيزداد المؤمن إيماناً إلى إيمانه، وقناعة في وجدانه، ومحبة لشريعته، وتمسكاً بدينه، وثباتاً على صراطه المستقيم، فيفخر برسوله ويعتز بإسلامه، وبخاصة إذا قارن ذلك مع بقية التشريعات والديانات والأنظمة الوضعية. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ آيَاتٌ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْكُتُبُ وَالرَّسُولُ يَأْتِيهِمْ بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ لَا يُجَادِلُ فِي شَيْءٍ وَاللَّهُ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]..

يقول ابن القيم: «إنّ الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه، وعلى صدق رسوله ﷺ أتم دلالة وأصدقها»^(١).

المطلب الثاني:

– أقسام المقاصد الضروريّة:

هي التي تقوم عليها حياة الناس الدينيّة

(١) ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، بيروت: المكتبة العصرية، ط ١٩٨٧، ج ٣، ص ١٤.

(٢) محمد الزحيلي، حقوق الإنسان في الإسلام، بيروت: دار ابن كثير، ط ٢٠٠٥م، ص ١٤٠.

وتنحصر المقاصد الضرورية للناس في نظر الشريعة الإسلامية في خمسة أشياء وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل أو العرض أو النسب، والمال.

قال الغزالي: «ومقصود الشرع من الخلق خمسة وهو: أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعها مصلحة... وهذه الأصول الخمسة حفظها واقع في رتبة الضرورات، فهي أقوى المراتب في المصالح»^(١).

قال الخادمي: «المقاصد الضرورية: وهي لا بد منها في قيام مصالح الدارين وهي الكليات الخمسة: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، والتي تثبت بالاستقراء والتنقيص في كل أمة وملة وفي كل زمان ومكان»^(٢).

إنّ منهج التشريع الإسلامي رعى هذه المصالح الضرورية باتباع طريقتين أساسيتين وهما:

«الأول: تشريع الأحكام التي تؤمن تكوين هذه المصالح وتوفير وجودها.

الثاني: تشريع الأحكام التي تحفظ هذه

المصالح وترعاها وتصونها وتمنع الاعتداء عليها أو الإخلال بها، وتؤمن الضمان والتعويض عنها عند إتلافها أو الاعتداء عليها»^(٣).

وبذلك تُصان حقوق الإنسان، وتحفظ وينعم الناس بها، ويتمتعون بإقرارها عملياً في الحياة وهو ما نريد تفصيله:

المقصد الأول: الدين:

«هو مجموعة العقائد والعبادات والأحكام والقوانين التي شرّعها الله سبحانه لتنظيم علاقة الناس بربهم، وعلاقاتهم بعضهم ببعض. وقد شرّع الإسلام لإيجاده وإقامته إيجاب الإيمان وأحكام القواعد الخمس التي بني عليها الإسلام، وهي: شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وسائر العقائد، وأصول العبادات، التي قصد الشارع بتشريعها، إقامة الدين وتثبيتته في القلوب باتباع الأحكام التي لا يصلح الناس إلا بها، وأوجب الدعوة إليه، وتأمين الدعوة إليه من الاعتداء عليها وعلى القائمين بها ومن وضع عقبات في سبيلها»^(٤). فالدين الحق مصلحة ضرورية للناس جميعاً، لأنّه ينظّم علاقة

(١) الغزالي، المستصفى، ج ١، ٢٨٧.

(٢) نور الدين الخادمي، الاجتهاد المقاصدي، قطر: كتاب الأمة، ط ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ج ١، ص ٥٣.

(٣) انظر: الشاطبي، الموافقات، ج ٢، ص ٨.

(٤) عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه، القاهرة: مكتبة الدعوة الإسلامية، ص ٢٠٠.

الإنسان بربه، وعلاقة الإنسان بنفسه، وعلاقة الإنسان بوالديه، وعلاقة الإنسان بأرحامه، وعلاقة الإنسان بجاره، وعلاقة الإنسان بالمسلمين، وعلاقة الإنسان بغير المسلمين، وعلاقة الحاكم بالرعية، وعلاقة الرعية بالحاكم، والدين الحق يعطي التصور الرشيد عن الخالق، والكون، والحياة، والإنسان، وهو مصدر العدل والحق، والاستقامة والرشاد.

فالدين الحق هو الإسلام بمعناه الكامل، الذي يعني الاستسلام والخضوع والانقياد لرب السموات والأرض، وهو الذي دعا إليه الأنبياء جميعاً وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْسِنَةٌ سَمِيحَةٌ وَمَا أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْغِ عِوَجَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد شرع الله تعالى أحكام الدين، وتكفل بحفظها وبيانها للناس منذ لحظة وجودهم على الأرض، وأناط الله سبحانه التكليف والمسؤولية بعد بيان الدين، فقال تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَلِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَلِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَنْزِرُ وَزَرَّ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وكيفية حفظ الدين يكون من جهتين أكد عليها الله سبحانه في كتابه ومن خلال سنة نبيه محمد ﷺ:

الأولى: «من جانب الوجود أسس العقيدة السليمة، لتقويتها، واجتناب ما يضعفها، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيرهما وشرهما من الله تعالى، وإقامة شعائر العبادات المفروضة على كل مسلم بالغ عاقل، من صلاة وزكاة وصيام وحج، والتطوع بإتيان السنن الراتبة وغيرها، والتخلُّق بأخلاق الإسلام كالصدق والأمانة والصبر... وتحكيم أحكامها وتطبيقها قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

إنَّ الإيمان بالله أصل الدين، والإنسان يصل إليه بهداية من الله عن طريق إرشاد الوحي للعقول بشتى الأدلة، وإنَّ القرآن في أدلته وإرشاده يسلك طرقاً عديدة ليجد كل من له عقل ما يناسبه من الحجج والبراهين ولا يترك كبيرة ولا صغيرة من أجزاء الكون إلا أشار إليها ونبه العقل عليها.

وبعد استقرار الإيمان في القلب تأتي المرتبة الثانية وهي مرحلة العبادة، والعبادة هي الطاعة، مع غاية الخضوع والتذلل، وهي تعتبر جزءاً أساسياً لا بد منه لقيام الدين، وكماله والمحافظة عليه، لأنَّه يشمل باطن الإنسان وظاهره. قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ

أَفِيمُوا لِلدِّينِ وَلَا تَنْفَرُوا فِيهِ كَبْرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ
مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ
وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿الشورى: ١٣﴾.

الثانية: من جانب العدم، وتكون في مشروعية الجهاد في سبيل الله بالأنفس والأموال وكذلك تكون في مشروعية قتل المرتدين والزنادقة، وبمحاربة الابتداع في الدين، ومعاقبة المبتدعين والسحرة، وتحريم المعاصي ومعاقبة من يقتربونها بالحد أو بالتعزير^(١).

ولقد ورد في القرآن الكريم حفظ الدين حيث قال تعالى: ﴿وَفَضَىٰ رَيْكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أٰفٌ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

«ويدل على أن الدين أسهل المقاصد كلها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَنبَتْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١]. فهذه الآية تدل على أنه يلزم من اتباع الأهواء الفساد، وذلك لأن أهواء الناس تختلف، ومصالحهم تتعارض، فإذا لم يكن هناك دين يضبط المصالح، وينظم

الحياة، فإن كل شخص سيفعل ما يراه مصلحة له بحسب ما يمليه عليه هواه فيحصل الاعتداء على الأنفس والأموال والأعراض والأنساب»^(٢).

«وإن مصلحة الدين أساس للمصالح الأخرى ومقدمة عليها، فيجب التضحية بما سواها إذا عارضتها إبقاءً لمصلحة الدين، وبناءً على ذلك فإن أية مصلحة إذا عارضت دليلاً شرعياً (أي نص من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس) فإن هذه المصلحة ملغاة ولا اعتبار لها»^(٣).

المقصد الثاني: حفظ النفس:

وهو الحفاظ على النفس من جانب الوجود، ويكون عن طريق مراعاة حق الإنسان في الحياة، وحفظ حياته من الهلاك أفراداً وجماعات، ويكون ذلك عن طريق تشريع نظام الحلال والحرام، وهذا النظام يعتبر معياراً للنفع والضرر، ومرجع ذلك، أن المصالح والمفاسد لا يستطيع العقل البشري أن يحيط بها إحاطة تامة، وإنما مرد ذلك إلى عالم الغيب والشهادة، سبحانه وتعالى حيث يقول: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وأما الحفاظ على النفس من جانب العدم،

(١) يوسف حامد العالم، المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط ١٤١٥هـ-١٩٩٤م، ص ١٢٥.

(٢) عبد العزيز بن ربيعة، علم مقاصد الشارع، الرياض، ط ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص ١٣٠.

(٣) يوسف الشيبلي، مقاصد التشريع الإسلامي، دروس أقيمت في المعهد الإسلامي بواشنطن.

فيكون عن طريق تحريم القتل، وتشريع القصاص، ومنع التمثيل والتشويه، ومعاقبة المحاربين وقطاع الطرق وغير ذلك^(١).

المقصد الثالث: حفظ العقل:

«الذي عليه مدار التكليف وبه امتاز الإنسان عن سائر الحيوانات، وبه تسير الأمور على منهج قويم، فشرع الله لحفظه وجوب التعليم على كل مسلم ومسلمة، وشرع تحريم المسكرات، والمخدرات، وكل ما تعاطيه يضر بالعقل، وأوجب إقامة الحد على شرب المسكر.

وتحريم القدر المسكر هو الأصل، وتحريم اليسير الذي لا يسكر مكمل له مبالغة في مقصود الشارع وهو حفظ العقل^(٢). يقول الخادمي: «كما أنّ العقل قد حفظه الإسلام، واهتم به من خلال منع ما يعيقه ويعطله، وذلك كمنع المسكرات والمخدرات والمفترات، وكل ما يغيّب العقل عن دوره في التفكير والتدبير، وكمنع كثرة السهر ودوامه، وقتل الأوقات وإضاعته، كذلك نهى عن بقاء الجهل وانتشار الأمية، وأمر بطلب العلم ونشره وتعميمه، لأنّ بقاء العقل معطلاً بالجهل أو الأمية أو غيرها يعد

من أسوأ حالات العقل، وأفسد سماته وعواقبه»^(٣).

المقصد الرابع: حفظ النسل والنسب والعرض:

حفظ النسل معناه: «التناسل والتوالد لإعمار الأرض. وحفظ النسب معناه: القيام بالتناسل المشروع عن طريق العلاقة الزوجية الشرعية، وليس التناسل الفوضوي كما عند الحيوانات، أو في بعض المجتمعات الإباحية المادية التي لا تعلم منها لا أصول ولا فروع ولا آباء ولا أبناء، إذ يعيش الفرد أحياناً كل حياته من دون أن يعلم من أبوه ومن أمه.

وحفظ العرض معناه: صيانة الكرامة والعفة والشرف. والمعاني الثلاثة المذكورة (النسل والنسب والعرض) تعد المقصد الشرعي الكلي الرابع الذي أقره الإسلام في نصوصه وأحكامه، وأثبتته وجذّره من خلال تشريعات عدة نذكر منها:

أ - الحث على الزواج والترغيب فيه، وتخفيف أعبائه وتيسير مصروفاته، قال رسول الله ﷺ: «إن أعظم النكاح بركة أقله مؤونة»^(٤).

(١) عيسى منون، نبراس العقول في تحقيق القياس عند علماء الأصول، القاهرة: مطبعة التضامن الأخوي، ص ٢٨١.

(٢) يوسف حامد العالم، المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، ص ١٦٢.

(٣) نور الدين الخادمي، علم المقاصد الشرعية، الرياض: مكتبة العبيكان، ط ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، ص ٨٢.

(٤) البيهقي، كتاب السنن الكبرى، تحقيق: محمد عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، كتاب الصداق، باب ما يستحب من القصد في الصداق، ج ٧، ط ٢، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص ٣٨٥.

ب - منع الزنا، وسد منافذه وذرائعه، كالخلوة والتبرج والنظر بشهوة والمماساة والالتصاق.

ج - معاقبة المنحرفين الممارسين للزنا أو اللواط أو السحاق.

د - الأمر بالتمسك بالأخلاق الفاضلة والقيم العليا، والنهي عن الرذائل والفواحش والمنكرات.

منع التبني، ووجوب أن يدعى الإنسان بأبيه وليس بمتبنيه، قال تعالى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١) [الأحزاب: ٥].

المقصد الخامس: حفظ المال:

«والمال يعتبر عصب الحياة وسر العمران، والتقدم المادي للشعوب والأمم. فشرع الله طرقاً لكسبه، وإنفاقه، وتنميته، وشرع تحريم الاعتداء عليه بالسرقه، والغصب، وقطع الطرق، وأوجب الحد بالسرقه، والزجر بشرع التعزير في الغصب والغش، وحرّم أكل أموال الناس بالباطل، وأوجب ضمان المتلفات عمداً أو خطأ، فحرّم أكل أموال الناس بالباطل وكل

ما يؤدي ذلك حرام تكميلاً لهذا الأصل» (٢).
«والمال كما يقال: قوام الأعمال، لذلك عدّ مقصداً شرعياً كلياً وقطعياً لدلالة النصوص والأحكام عليه ومن تلك الأحكام نذكر ما يلي:

الحث على العمل، والضرب في الأرض، والبحث عن الرزق، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

١ - النهي عن التبذير والإسراف وإضاعة المال.

تحريم السرقة، والغصب والغش والرشوة والربا، وكل وجه من وجوه أكل مال الغير بالباطل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

معاقبة أكلي أموال الناس بالباطل بالحدود والتعزيرات، كمعاقبة السارق بقطع يده، والمحارب أو قاطع الطريق بإحدى العقوبات المنصوص عليها بحد الحرابة في سورة المائدة قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ

(١) نور الدين الخادمي، علم المقاصد الشرعية، ص ٨٣.

(٢) يوسف حامد العالم، المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، ص ١٦٣.

الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿المائدة: ٣٣﴾.

٢ - تضمين المتلفات.

٣ - منع اكتناز الأموال وتكديسها كي لا يسهم في تعطيل ترويجها والانتفاع بها والاستفادة منها^(١).

وختلاصة القول:

المقاصد الضرورية كما ذكرنا هي المصالح التي لا بد منها من أجل أن يقوم أمر الحياة ونظام الوجود على صلاح واستقرار وسعادة في الدنيا والآخرة.

ولقد حافظت الشريعة على هذه الضروريات الخمس بدليل إجمالي وتفصيلي:

- «أما الدليل الإجمالي: فهو الاستقراء لأدلة الشريعة، فإنها ترجع إلى حفظ هذه الضروريات الخمس.

قال الشاطبي: «فقد اتفقت الأمة، بل سائر الملل على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس وهي: الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وعلمها عند الأمة كالضروري، ولم يثبت لنا ذلك بدليل معين، ولا شهد لنا أصل معين يمتاز برجوعها إليه، بل علمت ملاءمتها للشريعة بمجموع أدلة لا تنحصر في باب واحد»^(٢).

وأما الدليل التفصيلي فهو في آيات منها: قول الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهِنَّ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُرٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿الأنعام: ١٥١﴾. فقد ورد في هذه الآية حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل»^(٣).

الخاتمة

من خلال هذا البحث تبين لنا:

- ١ - أن ضرورة المقاصد الشرعية توصل إلى زيادة الإيمان بالله تعالى وترسيخ العقيدة الإسلامية.
- ٢ - تحصينه ضد الغزو الفكري والعقدي الدخيل والتيارات المنحرفة.
- ٣ - اعتبار حفظ الدين أساس المقاصد وغايتها وما عداه من حفظ النفس والعقل والنسل والمال إنما هو مكمل ومتمم له.
- ٤ - ضرورة مراعاة حفظ الدين باطنياً وظاهراً.
- ٥ - مراعاة المقاصد الضرورية ثابت في كل الشرائع وهو من الأمور القطعية.

(١) نور الدين الخادمي، علم المقاصد الشرعية، ص ٨٤. (٢) الشاطبي، الموافقات، ص ٣٨.

(٣) عبد العزيز بن ربيعة، علم مقاصد الشارع، ص ١٢٦.

- ٦ - أن حفظ مقاصد الشريعة من جانب الوجود وجلب المصالح مقدم على حفظها من جانب العدم وتعطيل المفسد.
- ٧ - أن الدين بمعنى الوحي ضروري لهداية العقول إلى الخير والحق.
- ٨ - أن الدين بمعنى الإيمان بالله ضروري لحياة الإنسان الفردية، لإيجاد النفس المطمئنة المستقرة بعيدة عن الجزع والاضطراب والقلق.
- ٩ - أن الدين بمعنى الأحكام الشرعية ضروري لتوفير قواعد العدل والمساواة بين الناس، وحفظهم من مزالق الأهواء والشهوات.
- ١٠ - أن مقاصد الشريعة لها ارتباط وثيق الصلة بالأحكام الشرعية وأدلتها الأصولية، إذ مقاصد الشريعة محراب الأدلة الشرعية وقبلتها وغايتها.
- المصادر والمراجع**
- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - الأمدي، الإحكام في أصول الأحكام، الرياض: دار الصميعي، ط ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- ٣ - ابن تيمية، مجموع الفتاوى، الرياض: مجمع الملك فهد، ط ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- ٤ - ابن ربيعة، عبد العزيز، علم مقاصد الشارع، الرياض، ط ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- ٥ - ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد الميساوي، بيروت: دار النفائس، ط ٢، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
- ٦ - ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، بيروت: المكتبة العصرية، ط ١٩٨٧.
- ٧ - ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- ٨ - أبو حبيب، سعدي، القاموس الفقهي، دمشق: دار الفكر، ط ٢، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- ٩ - الأصفهاني، معجم مفردات القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- ١٠ - البيهقي، كتاب السنن الكبرى، تحقيق: محمد عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- ١١ - الجرجاني، التعريفات، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٣، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- ١٢ - الخادمي، نور الدين، الاجتهاد المقاصدي، قطر: كتاب الأمة، ط ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- ١٣ - الخادمي، نور الدين، علم المقاصد الشرعية، الرياض: مكتبة العبيكان، ط ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
- ١٤ - خلاف، عبد الوهاب، علم أصول الفقه، القاهرة: مكتبة الدعوة الإسلامية.
- ١٥ - الخليل الفراهيدي، العين، تحقيق: عبد الحميد هنداري، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- ١٦ - الريسوني، الفكر المقاصدي، الرباط، جريدة الزمن، ١٩٩٩م.
- ١٧ - الزحلي، محمد، حقوق الإنسان في الإسلام، بيروت: دار ابن كثير، ط ٢٠٠٥م.
- ١٨ - الزحلي، وهبة، نظرية الضرورة الشرعية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٤، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- ١٩ - الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، بيروت: دار المعرفة.
- ٢٠ - الشيبلي، يوسف، مقاصد التشريع الإسلامي، دروس ألقيت في المعهد الإسلامي بواشنطن.
- ٢١ - العالم، يوسف حامد، المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
- ٢٢ - الغزالي، المستصفي، تحقيق: حمزة بن زهير حافظ، المدينة المنورة: شركة المدينة المنورة للطباعة.
- ٢٣ - الفيومي، المصباح المنير، بيروت: نوبليس.
- ٢٤ - منون، عيسى، نبراس العقول في تحقيق القياس عند علماء الأصول، القاهرة: مطبعة التضامن الأخوي.

السياسة العثمانية تجاه العالم العربي في مطلع القرن السادس عشر الميلادي

د. نصر قرحاني

«الدولة العثمانية دولة عالمية عظمى» - أرنولد ج تويني

العثمانيين كانوا مسلمين وقت نزولهم
الأناضول^(١).

تضاعف عدد العثمانيين في الفترة من
١٢٩٠م إلى ١٣٠٠م، وامتدت حدود
إمارتهم الثغرية حتى شارفت حدود الدولة
البيزنطية. وتكوّن شعب جديد عُرف
بالعثماني، وكان لفظ عثماني يدل على
رعايا هذه الدولة أياً كان عرقهم أو دينهم،
ولا يحمل أي مدلول قومي، إنّما يدل على
الانتماء إلى الدولة التي أسسها عثمان، على
الرغم من أنّها كانت بحكم فتوحاتها الأولى
في الأراضي البيزنطية والبلقان، وكانت
كوادرها الإدارية لا تهتم بالعرق الذي
ينحدر منه العثماني، إنّما تشترط عليه
الإسلام فحسب^(٢).

نشأت الدولة العثمانية وتطورت بعيداً
عن العالم العربي... وبدأت احتكاكها به بعد
مرور أكثر من قرنين من الزّمان على
تأسيسها... حيث أن نشأة الدولة العثمانيّة
كانت في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي
وهذا ما يتفق عليه معظم المؤرخين
المهتمين بها، وتختلف النظريات حول قيام
الدولة العثمانية، لكنها تتفق على أن أرطغرل
أبو عثمان الذي انتسبت إليه الدولة، كان
رئيس قبيلة صغيرة وفدت إلى الأناضول
في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي
في عهد السلطان علاء الدين الأول
السلجوقي، واستقر في سكود شمال غربي
الأناضول. ولا يُعلم على وجه التّحديد متى
اعتنقت هذه القبيلة الإسلام، لكن المؤكد أن

(١) محمد فؤاد كوبريلي: قيام الدولة العثمانية، ترجمة عن التركية أحمد السعيد سليمان - الهيئة العامة للكتاب، ط ٢، ١٩٩٣ م، ص ١٢٨.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢ م، ص ١١، ١٨.

كانت الفتوحات العثمانية طوال قرنين من الزّمان شاخصه نحو أوروبا التي كانت تعني في الاصطلاح العثماني آنذاك «دار الكفر» وهو الاصطلاح نفسه الذي كان المؤرخون الأوروبيون يطلقونه على العثمانيين، ويصفونهم بأنهم كفار^(١) وترتب على ذلك أن المسألة الشرقيّة بدأت منذ هذا التاريخ أي منذ القرن الرابع عشر، وكانت تعني آنذاك كيفية وقف الغزو العثماني الإسلامي الدّاهم في ربوع أوروبا. المسألة الشرقيّة إذاً مسألة أوروبية في أساسها، وصارت تعني في القرون المتأخرة «المحافظة على الرجل المريض أي الدولة العثمانية، حتى يحين وقت اقتسام أملاكه».

ونحن بهذه المقدمة نفتح الطريق لبحثنا عن السياسة العثمانية تجاه الوطن العربي في الثلث الأول من القرن السادس عشر، حيث كانت علاقة الدولة العثمانية بالعالم العربي قبل هذا التّاريخ (أي قبل مطلع القرن السادس عشر)، علاقة صداقة في أغلب الأوقات^(٢) باستثناء بعض الفترات التي توترت فيها العلاقة بين الدولة

العثمانية والدولة المملوكية بدءاً من عصر السلطان محمد الفاتح بسبب رفض السلطان المملوكي أن يسمح للسلطان محمد الفاتح بتعمير عيون الماء على طريق الحج إلى الحجاز، وبسبب تنازع أمراء (ذو القادر)، كما كان مسلمو الشرق ينظرون إلى الفتوحات العثمانية في الغرب نظرة ارتياح وانتصار كبير لهم. وهكذا نجد السلطان المملوكي إينال يقيم احتفالاً كبيراً في القاهرة بمناسبة فتح القسطنطينية^(٣).

هكذا كانت العلاقات بين الدولة العثمانية والعالم العربي طوال قرنين من الزّمان، إلا أنه في بداية القرن السادس عشر ظهرت عوامل جديدة كان لها أثرها على الاستراتيجية العثمانية، فبعد أن كانت فتوحات العثمانيين في معظمها أوروبية، اتجهت فتوحاتهم إلى ناحية الشرق. بمعنى آخر أن هذه الفتوحات توقفت مؤقتاً في الغرب، وانتقلت إلى الشرق. ولقد أثار هذا التحول في الاستراتيجية العثمانية مؤرخي تلك الفترة، وحاولوا إيجاد تفسيرات علمية معقولة لهذا التحول الكبير.

أحد هذه التفسيرات ذهبت إلى أنّ الدولة

(١) نيقولا باربارو: الفتح الإسلامي للقسطنطينية، يوميات الحصار العثماني ١٤٥٣، دراسة وترجمة وتعليق، حاتم عبد الرحمن الطحاوي، دار عين، للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م، ص ٩٠.
(٢) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م، ج٧، ص ٢٧٧.
(٣) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤-١٩١٤)، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٠، ص ١٠٢.

العثمانية قد وصلت إلى مرحلة آخر المدى المستطاع في التوسع في الاتجاه الأوروبي، وإنها لو زادت على ذلك لما استطاعت الحفاظ على ما استولت عليه من أراضٍ^(١)، خاصة وأن في آخر هذه الحدود الأوروبية كانت تقوم دولة شديدة المراس هي النمسا التي استعصت على العثمانيين، فكان طبيعياً أن يحقق التاريخ قوانينه في الدولة العثمانية فتؤثر الاتجاه بتوسعاتها إلى أماكن أقرب وأسهل منالاً فكان توجهها إلى العالم العربي^(٢).

وكانت الدولة الصفوية قد أسست على يد إسماعيل الصفوي عام ١٥٠٠م، بعد أن استطاع توحيد فارس الممزقة آنذاك. وقد اتخذ إسماعيل المذهب الشيعي كمذهب رسمي للدولة التي أسسها. ثم تطلع للسيطرة على العراق المجاور، طمعاً في ثرواته الطبيعية وموقعه الاستراتيجي المتميز، وأملأ في نيل شرف حماية الأماكن الشيعية المقدسة الموجودة فيه.

وقدّم آخرون تفسيراً لهذا التحول، فرأوا أن التوجه العثماني نحو الشرق في بداية القرن السادس عشر يعود إلى الأحداث التي كانت تدور داخل العالم العربي وحول أطرافه.

وقد أتاح له ضعف العراق في ذلك الوقت تحقيق ما يريد؛ فنجح بالفعل في السيطرة على العراق عام ١٥٠٨م. وبذلك أصبحت الحدود الصفوية متاخمة للحدود العثمانية. ثم شهدت السنوات التالية تدهور العلاقات بين البلدين لأسباب عدة، كان أولها سعي الشاه اسماعيل الصفوي إلى تهديد الأمن القومي العثماني بتدخله لتحريض سكان شرق الأناضول ضد دولتهم العثمانية في عهد السلطان بايزيد^(٣). كما كان تجاهل الشاه اسماعيل الصفوي تماماً اعتلاء السلطان سليم عرش الدولة العثمانية، وعدم إرساله رسالاً للتهنئة بهذه المناسبة، على خلاف تقاليد ذلك

لكن هؤلاء اختلفوا حول تفسير هذه الأحداث؛ فالفريق الأول رأى أن هذه الأحداث تتمثل في ظهور الدولة الصفوية الشيعية في إيران وتوسعها في العراق، ثم محاولاتها إثارة القلاقل ونشر المذهب الشيعي في شرقي الأناضول على حساب المذهب السني الذي كان المذهب الرسمي للدول العثمانية.

(١) إسماعيل سرهنك: تاريخ الدولة العثمانية، طبعة دار الفكر الحديث، ١٩٨٤م، ص ٦٢-٦٣. وابراهيم بك حليم:

تاريخ الدولة العثمانية العلية ط. مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٠ ط، ١٩٨٨م، ص ٧٦.

(٢) نيقولا: صعود العثمانيين، فصل في كتاب تاريخ الدولة العثمانية، إشراف روبرت مانتوران، ترجمة بشير السباعي، ط ١، القاهرة، ١٩٩٣م، ج ١، ص ١٦٦.

(٣) المرجع نفسه: ص ١٣٥.

الوقت، سبباً ثانياً لتدهور هذه العلاقات^(١). أضف إلى ذلك أنّ الشاه اسماعيل كان دائم السّعي لإحداث حالة من الفوضى في الأناضول عن طريق من يدعى حسن خليفة^(٢)، وذلك ما شهده سليم عندما كان أميراً على طرابزون قبل اعتلائه العرش العثماني؛ فقد أتاح له وجوده في طرابزون فرصة كافية لتتبع نشاط أتباع الشاه اسماعيل الصّفوي وعملائه لإثارة الفتن في الدولة العثمانية بما يهدد كيائها والأمن فيها. ومن أمثلة ذلك، التّمرد الشّيعي الذي اندلع في شرق الأناضول في عام ١٥١١م كان بتحريض من الشاه اسماعيل الصّفوي نفسه^(٣)، وقد أثار شاه قولي بابا بن حسن خليفة هذا التّمرد إكمالاً لأداء المهمة التي اضطلع بها والده من قبل وبذات المهمة، فاضطر السلطان بايزيد أن يرسل خمسين ألفاً من جنده تحت إمرة الصدر الأعظم علي باشا الخادم، لقمع هذا التّمرد، وانتهت المعركة بمقتل كل من شاه قولي والصدر الأعظم العثماني^(٤). وبعد ذلك ثار أيضاً من

يُدعى نور علي خليفة وأعاد تجميع الشيعة حوله وأثار فتنة كبيرة وناراً مستعرة في الأناضول، واستولى على توقاد وقرأ الخطبة فيها باسم الشاه اسماعيل، وقتل سنان باشا العثماني قائد القوات العثمانية وقتل معه ١١٥٠ جندياً عثمانياً من القوات التي توجهت لقمع تلك الفتنة.

وفي بداية عام ١٥١٢م، دبّر الشاه اسماعيل تمرداً آخر ألحق الهزيمة بالقوات العثمانية ما تسبب في إثارة غضب الإنكشارية فالتفوا حول الأمير سليم وساعده على اعتلاء العرش العثماني في أبريل ١٥١٢م^(٥).

بالإضافة إلى ذلك، كان الشاه اسماعيل الصّفوي دائم الاتصال مع الدول الأوروبية التي كانت تمثل العدو الأساس للدولة العثمانية، كما كان يسعى لإيجاد نوع من التحالف مع قانصوه الغوري سلطان مصر المملوكي ضد الدولة العثمانية^(٦). هذا كله يعني أن الشاه اسماعيل الصّفوي كانت ينتهج سياسة منظمة وشاملة منذ مطلع

(١) نيقولا فيتان: نفس المرجع، ص ١٦٧.

(٢) روبر مانتران: تاريخ الدولة العثمانية، ج ١، ص ٢٠٩.

(٣) زياد أو غنيمه: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الاتراك، ط ١. دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، بدون تاريخ، ص ٩٦.

(٤) عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦م، دمشق، ط ١، ١٩٧٤، ص ٦٠.

(٥) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، (١٥١٤-١٩١٤)، المرجع السابق، ص ٨٧.

(٦) محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العليا العثمانية، تحقيق احسان حقي، دار النفائس، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ص ١٧٩.

حقيقة هذه العوامل والوقائع ودورها في دفع العثمانيين للتوجه بتوسعاتهم نحو البلاد العربية؛ ينبغي الإجابة على هذا التساؤل: كيف كانت العلاقات العثمانية المملوكية قبل معركة جالديران؟ فيتبين لنا أن استقراء الوقائع والأحداث التاريخية يكشف عن وجود اتجاهين في العلاقات العثمانية المملوكية هما:

أولاً- اتجاه الصداقة

وقد عبر هذا الاتجاه عن نفسه بطرق عديدة لعل على رأسها نظرة كل جانب للجانب الآخر؛ فحتى فتحهم للقسطنطينية عام ١٤٥٣م، كان الحكام العثمانيون يعترفون بالأولوية الدينية والسياسية للمماليك كزعماء للمسلمين. وفي المقابل كان المماليك ينظرون إلى انتصارات العثمانيين باعتبارها انتصارات لهم وللمسلمين كافة. أما الواقع العملي الذي يؤكد هذا الاتجاه فقد تمثل في كثير من المواقف والأحداث، ومن أمثلتها:

١ - إرسال السلطان مراد الأول ابن أورخان وفداً خاصاً إلى مصر ليزف البشرى بتحرير مدينة أدرنة من البيزنطيين وبرفع الرأية فوقها سنة (٧٦٣ = ١٣٦٢م).

القرن السادس عشر تهدف إلى هدم الدولة العثمانية من الداخل ومن الخارج^(١). وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه السياسة إلى التصادم، وعليه بالتالي أن يتصدى بنفسه لتلك السياسة؛ ففي ٢٧ نيسان ١٥١٤م، التقى الجيشان العثماني والصّفوي في جالديران قرب العاصمة الصفوية تبريز، وانتصر العثمانيون، وهرب الشاه اسماعيل إلى داخل فارس حيث المناطق الوعرة من الهضبة الفارسية. وواصل سليم سيره حتى دخل تبريز، وأمن أهلها وصى الجمعة في جامع السلطان حسن فيها، وأقام فيها نحو تسعة أيام^(٢) وبعد مشاورة أمراء جيشه قرر العودة إلى استانبول على أن يعاود الكرّة في الربيع التالي^(٣).

يرى بعض المؤرخين أن الدولة العثمانية بعد انتصارها على الصفويين أرادت أن تضيف على سلطانها السياسي سلطاناً روحياً، فاتجهت إلى المنطقة العربية شاخصة من وراء ذلك إلى القضاء على الدولة المملوكية حتى يتسنى لها وراثتها في شرف حماية الأماكن الإسلامية المقدسة، وهذا القول يتجاهل الكثير من العوامل والوقائع التاريخية والسياسية التي دفعت العثمانيين إلى التوجه نحو المنطقة العربية، خاصة الشام ومصر. ولتبيين

(٢) محمد أنيس: المرجع السابق، ص ١٠٩.

(١) زياد أبو غنيم: مرجع سابق، ص ١٠٥.

(٣) نيقولا إيفانوف: المرجع السابق، ص ٦٠ - ٦١.

أخشاباً لبناء الأسطول المملوكي ليكون قادراً على مواجهة الخطر البرتغالي الذي يهدد الدولة المملوكية والأماكن الإسلامية المقدسة^(٢).

٦ - اشتباك السفن المصرية والعثمانية مع سفن فرسان القديس يوحنا عام ١٥١٠م بالقرب من الإسكندرية، ثم نجاح العثمانيين في إيصال أربع مائة مدفع، ووطنين من البارود إلى المماليك في ١٥١١م.

ثانياً- اتجاه التوتر

أما أسباب هذا التوتر فيرجعها المؤرخون إلى ما يلي:

- التجاء الأمير جم بن السلطان محمد الفاتح إلى مصر، وذلك بعد أن ثار على أخيه بايزيد الثاني مطالباً بالعرش.

- محاولات السيطرة على البلاد الحدودية التي تقع بين الدولتين، ما أدى إلى حدوث مناوشات بين الدولتين في الفترة ما بين ١٤٨٥ و ١٤٩١م. والتي كان سببها تعرض الحجاج الأتراك للسلب من جانب البدو، ما دفع الدولة العثمانية لطلب الموافقة على إرسالها جنود لتأمين حجاجها، ما أدى إلى غضب المماليك. وقد

٢ - إرسال السلطان المملوكي برقوق وفداً للتعزية في وفاة السلطان مراد الأول بعد استشهاده في معركة قوصوه سنة (٧٩١ = ١٣٨٩م).

٣ - قيام السلطان برقوق بدور مهم في إقناع الخليفة العباسي بمنح لقب «سلطان الروم» لبايزيد الصاعقة.

٤ - إرسال السلطان محمد الفاتح وفداً إلى مصر ينقل إلى سلطانها المملوكي إينال شاه بُشري انتصار المسلمين وفتح القسطنطينية، ومعه رسالة عبارة عن درة بلاغية جاء فيها: «حاربناهم وحاربونا، وقاتلناهم وقاتلونا، وجرى بيننا القتال أربعة وخمسين يوماً وليلة وحتى طلوع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى، وقد منَّ الله تعالى بالفتح قبل أن تظهر الشمس من مشرقها، فلما ظهرنا على هؤلاء الأرجاس الأنجاس الحلوس، صيرنا معابد عبدة الأصنام مساجد أهل الإسلام وعندما وصلت هذه الرسالة إلى مصر، أُعلنت الاحتفالات فيها وفي البلاد العربية وتبودلت الرسائل والهدايا بين سلاطين الدول الإسلامية وبين الدولة العثمانية^(١).

٥ - إرسال السلطان بايزيد الثاني

(١) ابن إياس، مرجع سابق، ١٥١/٥.

(٢) روجر أوين: الشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي، ترجمة سامي الرزاز، ص ١٧.

وهناك من يرى أن المماليك كانوا يسعون إلى إثارة الصدام بين الجانبين العثماني والصفوي، حتى يتحطم أحدهما، ويُنهك الآخر وعندئذ يتقدم المماليك للقيام بدور منقذ للإسلام والسنة، وربما بدور وريث للسلطة العثمانية في حالة هزيمتها؛ حيث لم يساورهم شك في قدرتهم الحربية، وفي أن العثمانيين لن يتمكنوا من التغلب على الصفويين، ولكن شاءت الظروف أن ينتصر العثمانيون في معركة جالديران ولا يتتبعون الصفويين إلى الداخل، وإنما ينتهي الأمر بهم إلى المصالحة السلبية التي عبر عنها توينبي: (بالموقف الراكد)... والتي نستطيع أن نقول: إنه الموقف المجمد بلغة العصر الحديث^(٤).

ومن هنا يعتقد بعض المؤرخين أن معركة العثمانيين مع الصفويين لم تكن سوى خطوة أولى استهدفوا من وراءها تحجيم القوة الصفوية فقط للانصراف بعدها إلى تحقيق مطامعهم في السيادة على البلاد العربية. ولذلك نجد سليم الأول يقطع رأس أمير إمارة البستان الموالية للمماليك يوم ذاك، ورأس ابنه وزيره ويرسلها إلى قانصوه الغوري السلطان المملوكي في مصر، متهماً إياهم بالخيانة لموقفهم من

عبر المماليك عن غضبهم من هذا الطلب بطريقة سيئة، حيث أخرجوا إرسال بعض المجوهرات التي كان قد أرسلها سلطان الهند الجنوبية محمود شاه سلطان، عن طريقهم، إلى السلطان بايزيد الثاني الأمر الذي أثار حفيظة العثمانيين. وقد استمرت المناوشات بين الدولتين حتى اتصل السلطان قايتباي بالسلطان يحيى الحفصي سلطان تونس الذي توسط في عقد الصلح بين الجانبين عام ١٤٩١م^(١).

وهناك مؤرخون آخرون يرون أن محاولة الأمير جم التحالف مع السلطان المملوكي قايتباي كانت نتيجتها الفشل، ما دفع الأمير جم إلى مغادرة مصر واللجوء إلى أوروبا حيث بقي بها حتى توفي عام ١٤٩٥م^(٢). لكن التوتر العثماني المملوكي لم يتطور إلى نزاع عنيف إلا بعد أن وقف المماليك موقفاً اعتبره العثمانيون عدائياً أثناء الحرب العثمانية الصفوية في جالديران؛ ففي تلك الأثناء أوعز المماليك لأمير إمارة البستان علاء الدين، بالتعرض للمؤن الزاهية إلى الجيش العثماني الزاحف على فارس^(٣)، وذلك بسبب سوء العلاقات بين السلطان المملوكي قانصوه الغوري والسلطان العثماني سليم الأول.

(١) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، مرجع سابق، ١٥٣/٥، ص ١٥٤.

(٢) أطلس تاريخ القاهرة: ص ١٢١.

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، ص ٨٥. أنظر: محمد أنيس: المرجع السابق، ص ٣٦٣.

اعتراض المون التي كانت زاهية من الدولة العثمانية إلى جيشهم في جالديران^(١).

وقد حاول كلاهما (السلطان العثماني والسلطان المملوكي) أن يستثيرا مشاعر المسلمين ليقفوا في صفهما؛ فاستصدر السلطان سليم فتوى من علماء السلطنة ومن مفتي استنبول الأكبر «أن من يساعد أعداء الله هو عدو الله أيضاً» وأخرى تقول بأن المماليك خانوا الإسلام وأنهم يساعدون الكفار، وأن هدفه من هذه الحرب هو «تحرير المضطهدين وحماية المسلمين من العدو الخارجي»^(٢).

وقد حاول المماليك، على غرار العثمانيين، إضفاء الطابع الديني على الحرب، واتهموا سليما بالارتداد عن الدين الحنيف والسنة النبوية، لا سيما وأنه كان يحلق ذقنه ويرتدي القفطان والعمامة الكبيرة بدلاً من الملابس الإسلامية التقليدية^(٣). وقد التحم الجيشان في مرج دابق وكان النصر حليف العثمانيين^(٤). وقد روى ابن إياس كيف أن السلطان الغوري عندما تأكد من الهزيمة تناول السم من الخاتم الذي يحمله بصورة مستمرة،

وعندما انساب السم إلى جوفه، فقد وعيه وسقط عن الحصان ومات على الفور.

وقد صلى السلطان سليم صلاة الجمعة بحلب وخطب الخطيب باسمه، وعندما سمع السلطان سليم الخطيب يقول في تعريفه «خادم الحرمين الشريفين»، سجد لله تعالى شكراً وقال: الحمد لله الذي يسر لي أن صرت خادم الحرمين الشريفين وبذلك اتخذ لنفسه اللقب الذي كان يحمله حكام مصر منذ صلاح الدين، ونصّب نفسه زعيماً روحياً ومدنياً لدار الإسلام^(٥).

بعد موت قانصوه الغوري، وقع اختيار المماليك في مصر على طومان باي بن شقيق قانصوه الغوري الذي كان قد أنابه عنه فترة غيابه، وكان في الثامنة والثلاثين من عمره وقرر مقاومة العثمانيين إلا أنهم هزموه في معركة الزيدانية عام ١٥١٧م، وعرض عليه العثمانيون المنتصرون أن يضرب السكة باسمهم وأن يخطب للجمعة باسم سلطانهم، ولكنه أبى الخضوع لهم ولم يقبل شرطاً من شروطهم وأثر المقاومة على الررغم من عدم ثقته بالنصر^(٦). وقد ظل العثمانيون يطاردونه

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: النشاط التجاري في البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، جامعة عين شمس، ص ٢٤١ - ٢٤٦، (بدون تاريخ).

(٢) محمد شكري: أسفار بحرية عثمانية، ص ٥١. (٣) عبد العزيز الشناوي: مرجع سابق، ص ٨٦٢.

(٤) محمد شكري: أسفار بحرية عثمانية، ص ٣٤٣.

(٥) إبراهيم بجوي: تاريخ بجوي ٢١٩/١، مطبعة عامرة، استانبول ١٢٨٣ م.

(٦) بلناز اوزتونا: مرجع سابق، ٣٢٨/١.

حتى قبضوا عليه وأعدموه في ١٢ أبريل ١٥١٧م عند باب زويله^(١).

استتبع هزيمة طومان باي دخول الحجاز تلقائياً تحت الحكم العثماني؛ لأن الحجاز كان يرتبط بمصر ذاتها بصرف النظر عن الحكومة أو الدولة القائمة فيها^(٢). لهذا سارع الشريف بركات بإرسال ابنه «أبانمي» إلى القاهرة حاملاً للسلطان سليم تهاني أبيه ومفاتح الحرمين الشريفين والأمانات المقدسة، وكان هذا إقرار بالسيادة العثمانية. وقد أكرم السلطان سليم وفادة «أبانمي» وأعطاه تفويضاً بحكم والده. ويعزو بعض من المؤرخين قبول الشريف بركات للسيادة العثمانية إلى رغبته في مواجهة الخطر البرتغاليين، ما كان يدعوه إلى الحصول على مساعدة دولة إسلامية كبيرة. بالإضافة إلى أن الحجاز يجب أن يكون مسالماً مع الدولة الحاكمة في مصر ليستفيد من الأوقاف المحبوسة على الحرمين الشريفين وفقراء مكة والمدينة فيها. كما أن دخول نظام الحكم في الحجاز تحت السيادة العثمانية سيقوي من مركز الشريف أمام خصومه في الشرافة^(٣).

أما في الفريق الثاني من المؤرخين فيفسر الانقلاب المفاجئ في اتجاه التوسع العثماني والذي تحدثنا عنه آنفاً بأنه يعود إلى رغبة العثمانيين في تولي مسؤولية الدفاع عن العالم الإسلامي ضد الخطر البرتغالي والإسباني الذي بدأ بمحاصرة العالم الإسلامي؛ وأنهم بعد أن فقدوا الأمل في قدرة المماليك على التصدي للهجوم البرتغالي الشرس على الحرمين الشريفين، قرروا القيام بذلك بأنفسهم خاصة وأن العلاقات بين الصفويين والبرتغاليين أخذت في التوثق، وهو ما كان العثمانيون يعتبرونه تهديداً لهم.

وإذا تركنا الأمور الاقتصادية وهي إعادة التجارة الشرقية إلى سابق عهدها، وتركنا الأمور السياسية وهي صراعهم مع الصفويين والمماليك، فمن المؤكد أن تهديد البرتغاليين للأماكن المقدسة في الحجاز كان يقض مضاجع العثمانيين. حيث أننا يجب ألا ننسى موقفهم من «الجهاد» وأنه أساس من أسس بنية الدولة العثمانية ونشأتها. فالسلطان العثماني يجب أن يكون غازياً في سبيل الإسلام ومقدساته^(٤). وينظر هؤلاء المؤرخون إلى المساعدات

(١) اندري كلو: سليمان القانوني، تعريب البشير بن سلامة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١، ص ٧٧.

(٢) أحمد عبد الكريم مصطفى: مرجع سابق، ص ٩٠.

(٣) عبد الحميد البطريك: من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧ - ١٨٤٠، معهد البحوث والدراسات العربية، بيروت، ص ٢٥.

(٤) تاريخ بجوي: مرجع سابق، ص ٢١٩/١ - ٢٢٤.

كما أنّ السلطان سليم- كما ذكرت بعض المصادر- أمر ببناء ١٦٠ بارجة بحرية، بيد أن ظهور الصّفويين وتوتر العلاقات العثمانية المملوكية، حثّ تطبيق قاعدة «تقديم الأهم على المهم» ولذا توقف النّشاط البحري العثماني^(٢).

وبعد أن انتحت الأحداث في الخليج منحىً خطيراً يتمثل في تقارب البرتغاليين إلى الصّفويين الذين هزموا في جالديران، وتوقيعهم اتفاقية معهم في عام ١٥١٥م تعهدوا فيها بمساعدة الشاه اسماعيل الصّفوي في غزو كل من البحرين والقطيف، وكذلك الوقوف معه ضد الدولة العثمانية^(٣).

وفقد استفاد البرتغاليون كثيراً من هذا الاتفاق حيث سهل لهم القضاء على القوى العربية في الخليج العربي ونقصد بها هرمز، التي كانت تعتبر آنذاك أهم المراكز الثلاثة لتجارة الشّرق والسيادة العالمية. أما المركزان الآخران فهما: مالقا عند مدخل مضيق سنغافورة، وعدن عند مدخل البحر الأحمر.

ولم يكتف الشاه اسماعيل بذلك بل دخل

التي قدمتها الدولة العثمانية إلى الممالك لمجابهة البرتغاليين والتي تحدثنا عنها، بأنها مواجهة عثمانية برتغالية غير مباشرة وبأن سيطرة العثمانيين على مصر، ما هي إلا مرحلة استعداد للمواجهة المباشرة، مع العدو الذي بدأ بالفعل يهدد الأماكن المقدسة، خاصة بعد تّعذر صده من قبل الدولة القائمة على تلك الأماكن يوم ذاك.

في بداية القرن العاشر الهجري، كانت طلائع الأسطول البرتغالي قد وصلت إلى مياه البحر الأحمر عبر الطريق الجديد (رأس الرجاء الصالح) بهدف تهديد الأماكن المقدسة وإضعاف نشاط السفن الإسلامية في البحار العربية الهندية، وعندما طلب أمير مكة من الممالك مساعدته في حماية الحجاز تمّ التنسيق بين الممالك والعثمانيين لتأمين احتياجات الأسطول الذي سيقوم بمهمة الحماية وذلك في سنة ١٥٠٩م، لمواجهة البرتغاليين في المحيط الهندي، ولكن توتر العلاقات بين الدولتين بسبب خشية التحالف الصّفوي المملوكي أثر على ذلك، وأصبح لزاماً على الدولة العثمانية حماية المقدسات الإسلامية^(١).

(١) بلمار اوزتونا: مرجع سابق، ص ٣٢٨/١.

(٢) عزيز سامح التر: الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية بيروت، ص ٥٠.

(٣) عبد الجليل التميمي، أول رسالة من أهالي الجزائر إلى السلطان سليم الأول، سنة ١٥١٩م، المجلة التاريخية المغربية، تونس، العدد ٦، تموز ١٩٧٦.

في مفاوضات مع الدُول الأوروبيَّة - خاصة البندقيَّة - لمساعدته ضد العثمانيين، حتى أنَّه عرض عليها مشروعه الرامي إلى القضاء على الدَّولة العثمانيَّة، وحاول إغراءها بضمان حصولها على المكاسب التي تريدها، فطلب منها أن تهاجم الدَّولة العثمانيَّة من الرُّوميللي أي من الغرب، بينما يهاجمها هو من الشَّرْق لتضطر إلى الحرب في جبهتين في وقت واحد وفي مقابل ذلك وعدهم أن تكون مصر «للبنديَّة»، بينما يستأثر هو بحكم الشَّام والأناضول.

إذاً كان الخطر الصَّفوي هو السبب المباشر لاتجاه النشاط العسكري للدَّولة العثمانيَّة إلى المشرق الإسلامي، بالإضافة إلى أسباب أخرى، تتصل من قريب أو بعيد بهذا الخطر منها:

١ - تسرب النُّشاط البرتغالي إلى مياه الخليج العربي وعدم قدرة المماليك على إيقاف تقدمه، بل وتهديده للحرمين الشريفين كما ذكرنا.

٢ - ظهور إمكانيَّة قيام تحالف بين القوى الإسلاميَّة المعاديَّة للدَّولة العثمانيَّة والقوى الصليبيَّة في الغرب.

٣ - تحرير السَّواحل الإسلاميَّة في شمالي أفريقيا من الاستعمار الأوروبي.

بعد مصر والحجاز دخلت اليمن تحت الحكم العثماني سلمياً؛ فقد ذهب جيش المماليك إلى اليمن للتصدي للبرتغاليين، ولما سمع اسكندر الشركسي قائد الجيش المملوكي في اليمن آنذاك بموت طومان باي أثر اتباع سياسة الأمر الواقع والدُّخول في سيادة الدَّولة العثمانيَّة، فاعترف بالخضوع لها، حتى يقضي على الخلافات التي ثارت بين صفوف جيشه نتيجة لموت طومان باي وحتى يُقوِّي جانب الحملة في اليمن أيضاً. إضافة إلى أن خضوعه للدَّولة العثمانيَّة جعل منه صاحب كيان واضح، وأصبح من حقِّه أن يطلب المساعدات من الدَّولة العثمانيَّة القوية ضد القوة المعادية له، أما إذا امتنع عن الخضوع كان سيصبح هو ومن معه كمن لا دولة لهم^(١).

بدخول اليمن تحت السيادة العثمانيَّة أصبح للعثمانيين وجود عسكري وسياسي في جنوبي شبه الجزيرة العربيَّة، فاكتفوا خلال السنوات التي تلت ذلك، بدور المُدافع عن البحر الأحمر في مواجهة الخطر البرتغالي الرَّاحف عليه من المحيط الهندي^(٢).

وقد فسَّر بعض المؤرخين الموقف العثماني المدافع أنَّه كان نتيجة لانشغالهم

(١) ارجمند كوران: السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة عبد الجليل التميمي، ص ١١.

(٢) عبد العزيز الشناوي: الدَّولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مرجع سابق، ٩١٥/٢.

في الجبهة الأوروبية، حيث كان السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م) مشغولاً بحملته التي استولى خلالها على بلغراد في أغسطس ١٥٢١م، وعلى جزيرة رودس في ديسمبر ١٥٢٢م^(١) وانتصر على ملك المجر في معركة موهاكس في أغسطس ١٥٢٦م^(٢) ثم تقدّم حتى وصل بجيوشه إلى فيينا عاصمة النمسا ودق أسوارها أياماً عدة، حتى كادت تستسلم، لكن القائد العثماني رفع الحصار عنها في ١٥ أكتوبر ١٥٢٩م لقلّة المؤن وبعد المسافة. وبعد ذلك كانت حملة ١٥٣٢م التي وصلت مرة ثانية إلى فيينا لكنّها لم تستطع دخولها^(٣).

مؤرخون آخرون يفسرون عدم اتباع العثمانيين سياسة الهجوم ضد البرتغاليين في العقدين الثاني والثالث من القرن السادس عشر، أنه يعود إلى عدم استعداد العثمانيين الحربي لمثل هذه المجابهة آنذاك، بالإضافة إلى أن الدلائل أثبتت أن العثمانيين الذين تصدّوا لزعامة العالم الإسلامي، لم يقدّروا النتائج السلبية التي كانت ستنعكس على ذلك العالم وعلى دولتهم جراء التحولات الكبرى التي طرأت

على خطوط التجارة العالميّة، وكذلك تأثير هذه التحولات الكبرى على الاقتصاد العالمي وموازن القوى الدولية^(٤).

لكن الأحداث في اليمن والهند في ذلك الوقت، لم تلبث أن تطورت وفرضت على العثمانيين التحرك لتثبيت دعائم سيطرتهم على اليمن ومساعدة مسلمي الهند في التصدي لمظالم البرتغاليين، فأرسلوا حملة كبيرة بقيادة سليمان باشا الخادم سنة ١٥٣٨م، كُلفت بمهمة مزدوجة تتضمن إحكام السيطرة العثمانيّة على اليمن، بالإضافة إلى وضع حد لطموحات البرتغاليين الذين أرادوا إخراج المسلمين من الهند، وإعادة فتح طريق التجارة الشرقية أمام العثمانيين.

بدأ سليمان باشا الخادم بمحاولة تحقيق مهمته الأولى، وهي تأمين السيطرة العثمانيّة على اليمن، وأبدى حاكم عدن في ذلك الوقت - وهو عامر بن داود الطاهري - ترحيباً بالحملة واستعداداً للتعاون مع قائدها؛ إلا أن الحملة لم تحقق هدفها على الوجه الأكمل بسبب سوء تصرف جنود الحملة العثمانيين تجاه اليمنيين، وغدر سليمان باشا شخصياً بعامر بن داود

(١) عبد العزيز سليمان نوار: «الشعوب الإسلامية» دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٣، ص ١١٩.

(٢) H.De GRAMONT: Histoire d'ALGER, sous la Domination Turque, (1516-1830), Paris, 1887, P211.

(٣) ibid: P. 227.

(٤) عبد العزيز الشناوي: مرجع سابق، ص ٩٢٨/٢.

الطاهري، بالإضافة إلى ظهور الإمام الزيدي «المطهر بن الإمام يحيى شرف الدين» الذي نجح في جذب أعداد كبيرة من اليمنيين إليه وجعلهم يلتفون حوله لمقاومة الحملة، بالإضافة إلى استخدامه الأسلحة النارية ضد قوات سليمان باشا الخادم، الذي عجز عن التغلغل في المناطق الداخلية، فكانت نتيجة الحملة النهائية فتح عدن ومسقط والسيطرة على المناطق الساحلية من دون المناطق الداخلية. وعلى الرغم من عدم قدرة سليمان باشا على تحقيق مهمته على الوجه الأكمل، إلا أن سيطرته على المناطق الساحلية كانت تعني حصول الدولة العثمانية ولأول مرة على قواعد استراتيجية جديدة ومتقدمة تمكنها من الدفاع عن منطقة البحر الأحمر في مواجهة الغارات البرتغالية، كما أن عدن بصفة خاصة كانت تمثل قاعدة الارتكاز الأساسية التي يمكن منها التصدي للبرتغاليين في المحيط الهندي فضلاً عن الصفويين والبرتغاليين في الخليج العربي.

بعد ذلك اتجه سليمان باشا نحو الهند فوصل إلى سواحل كجرات واستولى على حصون عديدة؛ كان البرتغاليون قد أقاموها هناك، لكنه أخفق أمام ثغر ديو الحصين. وعندما علم بتوتر الأحوال في اليمن عاد

مسرعاً في فبراير ١٥٣٩م وسيطر في طريق عودته على «مُخَا» و«جيزان» وثبت دعائم السلطة العثمانية في اليمن، واعتبر ذلك بداية ضم العثمانيين لليمن^(١).

يرى بعض المؤرخين أن هذه الحملة العثمانية لم تنجح في تحقيق مهمتها على الوجه الأكمل؛ لأنها كانت تفتقر إلى القائد المحنك العالم ببيكولوجية الشعب اليمني وبطبيعة الصراعات الدائرة في المجتمع اليمني. وكانت النتيجة أن سليمان باشا قائد الحملة لم يتمكن من كسب التعاطف الشعبي في اليمن وفي عدن بصفة خاصة، بالإضافة إلى افتقاره شخصياً إلى صفات القائد الحكيم الشجاع القادر على المبادرة والمغامرة، وهو ما بدا في حروبه في الهند التي انتهت بالفشل الذريع.

ومن المؤرخين من يرى أنه لو توفّر للعثمانيين يوم ذلك القائد الذي يتناسب وأهمية هذه الحملة لما بقيت الهند تحت السيطرة البرتغالية. ولما بقيت القوى الإسلامية في المحيط الهندي ممزقة، هذا التمزق الذي أوجد فرصة البقاء والاستمرار للاستعمار البرتغالي في الخليج ومنطقة المحيط الهندي^(٢).

لكن الدولة العثمانية لم تكن لترضى بضعف سيطرتها على اليمن، نظراً لما يمثلها

(١) عبد العزيز سليمان نوار: مرجع سابق، ص ١٢٤.

(٢) محمد أنيس: مرجع سابق، ص ١٣٥.

من أهميّة استراتيجية، فأرسلت حملة كبرى لبسط سيطرتها الكاملة عليه في ١٥٦٨- ١٥٦٩م بقيادة سنان باشا. وبعد قتال عنيف توصل سنان باشا إلى اتفاق مع الزيديين على حكم اليمن مع اعترافهم بالسيادة العثمانية، واعتبر المؤرخون ذلك فتحاً ثانياً لليمن. لكن هذا لم يؤد إلى هدوء الأحوال في اليمن بشكل دائم وظلت الدولة العثمانية تعاني كثيراً من ثورات اليمنيين التي لم تتوقف.

الفتح العثماني للمغرب العربي

في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي كانت الفوضى السياسية والاضطرابات وتداخل الممالك ببعضها قد بلغت في الشمال الإفريقي مبلغاً عظيماً وقد أدى هذا الاختلاف إلى سباق كل من البرتغال وإسبانيا لاحتلال المغرب الإسلامي. إذ كاد أن يؤدي إلى الحرب بينهما لولا تدخل البابا وعقده لمعاهدة (تورد- سيلاس) سنة ١٤٩٥م، وأعقب ذلك الاتفاق على اقتسام المغرب العربي وفقاً لمعاهدة (فيللا فرنكا) سنة ١٥٠٩م، والتي نصّت على منح الغرب الأقصى للبرتغال مقابل حصول إسبانيا على المغرب الأوسط (الجزائر). واستطاع الأسبان فتح كثير من البلدان في المغرب العربي^(١).

ولقد ارتبط الصّراع في المغرب العربي، بعروج خير الدين بربروسا نحو الدولة العثمانية، وقد أدرك أنه لن يستطيع أن ينتصر في هذا الصراع بقواه الخاصة، أو بمغرب ممزق، وأنّه ليس أمامه سوى الاعتماد على قوّة إسلامية أخرى كالدولة العثمانية، والتي كانت أنباء فتحها للشام ومصر قد وصلت إليه، وقد أراد من ذلك الحصول على مساعداتها المالية والعسكرية، بالإضافة إلى القوّة المعنوية التي سيحصل عليها بالانتماء إلى دولة قوية مرهوبة الجانب. لذا فقد أوحى لسكان الجزائر على مختلف مستوياتهم أن يرسلوا إلى السلطان سليم برسالة في فبراير ١٥١٩م يربطون فيها مصير قضية الجزائر بالدولة العثمانية. وقد تضمنت هذه الرسالة إعلانهم الخضوع والتبعية لها؛ فقبل السلطان العثماني ذلك، ومنح خير الدين رتبة بكربكي

(أمير الأمراء) وزوده بعدد من الجنود الإنكشارية. وكان إعلان بارباروس ولاءه، مفاجأة سارة للسلطان العثماني سليم الذي قبّله من دون تردد، وسارع بإرسال ألفين من الإنكشارية ليكونوا تحت إمرته. كما سمح لرعايا الدولة العثمانية بالتطوع في جيش المغرب حتى يتمكن من رد الهجمات

(١) عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون، ص ٦٦.

الإسبانية البرتغالية وهكذا دخلت الجزائر منذ ذلك الوقت ١٥١٩م ضمن الولايات العثمانية. وفي الفترة من ١٥٢٠ - ١٥٢٥م استطاع خير الدين باشا إخضاع الملاحة في البحر المتوسط لسيادة الأساطيل الإسلامية حتى هابته جميع الدول الأوروبية وأصبح مشهوراً عندها باسم «خير الدين برباروس» أي ذي اللحية الحمراء. وقد استطاع هذا القائد بعد موافقة السلطان العثماني فتح تونس في أغسطس ١٥٣٤م، والتي كانت تحوز أهمية كبيرة لتوسطها الساحل الشمالي لإفريقيا، ووقوعها بين الجزائر وطرابلس الغرب ولقرب سواحلها من سواحل إيطاليا التي تشكل أهم موقع بالنسبة إلى الإمبراطورية الرومانية ومجاورتها لسواحل جزيرة مالطة معقل فرسان القديس يوحنا حلفاء الإمبراطور شارل الخامس والتي تُعدُّ أشد الطوائف المسيحية عداً للإسلام. فضلاً عن تحكم موانئها - تونس - في المواصلات البحرية في البحر المتوسط، ولذلك سَير إليها السلطان العثماني حملة ضخمة يقودها سنان باشا فاتح اليمن، فانتزعها من نفوذ الإسبان وقضى نهائياً على الدولة الحفصية سنة ١٥٧٤م^(١).

أما طرابلس الغرب فقد خضعت

للسيطرة العثمانية في سنة ١٥٥١م بعد طرد الإسبان منها، وبهذا أصبحت ولاية عثمانية، كما صار ميناء طرابلس معقلاً هاماً من معاقل الدولة العثمانية في شمال أفريقيا وفي البحر المتوسط، لكن المغرب الأقصى، تحت حكم الأشراف السعديين ظل ممتنعاً على العثمانيين، واستطاع أن يحتفظ باستقلاله حتى أوائل القرن العشرين حين اقتسمته إسبانيا وفرنسا.

ويمكن إرجاع نجاح الدولة العثمانية في البحار التي تطل على شمال أفريقيا أكثر من نجاحها في المياه الجنوبية للأسباب الآتية:

- العمليات التي تدربت عليها البحرية العثمانية كانت أكثر ملاءمة لحرب البحار منها لحرب المحيطات أو ما وراء البحار في البحر الأحمر، وفي المحيط الهندي.
- قرب الشمال الإفريقي من الأناضول ومصر ما يُسهّل وصول الإمدادات، ويجعل صورة الأحداث واضحة والتطورات العسكرية مفهومة.
- استناد القواعد العثمانية في شمال أفريقية إلى خلفية إسلامية واسعة مستعدة للتعاون إلى حد كبير مع العثمانيين.

(١) يلماز أوزتونا: مرجع سابق، ص ١٣٧.

● الإغراء الكبير الذي كانت تمثله المستعمرات الأمريكية للإسبان مقارنة بشمال أفريقيا، على الرغم من إصرار إسبانيا على مواصلة حملتها على شمال المغرب^(١).

الفتح العثماني للعراق

لم تضع موقعة جالديران نهاية للصراع الصفوي العثماني حول العراق؛ وإنما تركت فتيلاً كان من الممكن اشتعاله في أية لحظة، هذا الفتيل تمثل في استيلاء السلطان سليم الأول على المناطق الشمالية في العراق بعد معركة جالديران، أمّا وسط العراق وجنوبه، فقد بقي في يد الصفويين حتى وفاة الشاه اسماعيل الصفوي عام ١٥٢٤م. وبالنسبة إلى إدارة بغداد؛ فقد وُضعت تحت إشراف حاكم يُعيّن من قبل الشاه ويطلق عليه اسم الخان.

وبموت الشاه اسماعيل الصفوي وتولي ابنه طهماسب البالغ من العمر عشر سنوات الحكم، ضعف النفوذ الصفوي في بغداد ما أدى إلى ازدياد الصراع حول منصب حاكمها، وكان طبيعياً جداً أن ينعكس هذا الصراع على الصراع الصفوي العثماني؛ بأن تسعى الفئات المتناحرة من أجل هذا المنصب للحصول على تأييد إحدى

الدولتين الكبيرتين ودعمها؛ وحدث فعلاً أن استغل أحد الطامعين في حكم بغداد واسمه ذو الفقار فرصة وفاة الشاه فقام بمهاجمة بغداد وقتل حاكمها ابراهيم سليمان عام (١٥٠٨ - ١٥٢٤ م) وأعلن ولاءه للسلطان سليمان وطلب الحماية منه.

وقد حاول طهماسب استرداد بغداد عام ١٥٣٠م، إلا أنه فشل، ولكن الخيانة نجحت حيث فشل السّلاح؛ فقد قام إخوة ذي الفقار باغتياله فأعيدت السيطرة الصفوية على بغداد وعُين محمد خان والياً عليها عام ١٥٣٠م، وقد هددت هذه السيطرة بشكل خطير الطرق التجارية بين الشرق وأوروبا لأنها كانت تمر في العراق. وعلى الرغم من ذلك لم يتحرك السلطان سليمان ولم يعلن الحرب إلا عام ١٥٣٤م؛ بعد محاولة طهماسب إثارة القزل باش في الأناضول على الدولة العثمانية، تماماً مثلما فعل جده الشاه اسماعيل الصفوي من قبل، وتسبب في ظهور الخلافات التي لم تحسمها إلا الحرب في جالديران التي سبق الحديث عنها. لذا فقد خرجت القوات العثمانية من مركزها في حلب بقيادة الصدر الأعظم ابراهيم باشا في سبتمبر عام ١٥٣٣م، وكان عددها مائة وأربعين ألف جندي وانضم إليها حاكم أذربيجان التي كانت

(١) محمد أنيس: مرجع سابق، ص ١٣٧.

بالماء باستمرار لزراعة المنطقة حول العتبات المقدسة.

وقبيل مغادرة السلطان سليمان لبغداد هرع زعماء القبائل إليه معلنين ولاءهم له، وكان من بينهم شيخ المتفق، وأمير البصرة الذي بعث بولده مانع حاملاً المفاتيح ورسائل الخضوع؛ فألحقت البصرة على هذا النحو بالدولة العثمانية، وأصبحت إمارة عثمانية وعين الأمير رشيد والياً عليها. إلا أن هذا الأخير لم يبق في السلطة طويلاً؛ فقد شق عصا الطاعة وحاول التحرر من السيادة العثمانية، فوجهت إليه حملة بقيادة إياس باشا - ثاني حكام بغداد - عام (١٥٤٦-٥٤٧م) فلم يستطع أن يتصدى لها وفر أمامها باتجاه الإحساء بعد أن خارت قواه تماماً. وكان من نتيجة ذلك أن ضُمت البصرة والمناطق المحيطة بها إلى الإمبراطورية العثمانية كولاية عثمانية، وعُيّن إياس باشا كأول والٍ عثماني عليها^(١).

لم تنته سيطرة العثمانيين على بغداد النزاع الصفوي - العثماني حول العراق؛ حيث استمر هذا الصراع طوال القرن السادس عشر، وسعى الصفويون كثيراً لاسترداده حتى نجحوا في الاستيلاء على بغداد في عهد الشاه عباس الصفوي عام

تحت حكم الصفويين. واشتبكت هذه القوات أولاً مع قوات شريف بك حاكم بدليس التي تقع على الحدود العثمانية الصفوية؛ الذي كان قد استولى عليها عام ١٥٣٠م وتمكن حاكم آذربيجان من قتل شريف بك هذا. ثم زحف ابراهيم باشا بهذه القوات حتى وصل إلى تبريز، واستولى عليها، ومكث فيها إلى أن لحق به السلطان سليمان في سبتمبر ١٥٣٤م حيث بدأت المرحلة الثانية من الحملة؛ فتقدم الجيش عبر طريق شمال غربي فارس من دون أن يلقى مقاومة من جانب الصفويين ومرّاً بطريق همدان حتى وصل إلى سهل العراق وقطعه حتى دخل إلى بغداد من دون قتال.

وقد أرهقت هذه الحملة الجيش العثماني واضطر السلطان سليمان إلى البقاء في بغداد بضعة شهور للراحة ولتنظيم أحوال الولاية الجديدة، وعُيّن والي ديار بكر السابق والياً على بغداد. ولقد كان السلطان سليمان حريصاً على عدم الإساءة إلى مشاعر الشيعة باعتباره سلطاناً سنياً فزار الكثير من أضرحة الشيعة، وأوقف لها مقاطعات عدة. كذلك بنى سداً لوقاية كربلاء من مياه الفيضان في الربيع، وسماه بسد السلمانية نسبة إليه شخصياً. كما وسع التربة المعروفة بالحسينية حتى تأتي

(١) سيار الجميل: مرجع سابق، ص ٣٣٠.

١٦٢٣م. إلا أن هذا الاحتلال لم يستمر طويلاً؛ حيث استطاع السلطان مراد الرابع الاستيلاء عليها مرة أخرى عام ١٦٣٨م، وبعد ذلك بقي العراق تحت الحكم العثماني حتى الحرب العالمية الأولى.

الخاتمة

مما سبق نستنتج أنه من الواضح تماماً أن جميع العوامل السابق ذكرها قد أسهمت بنسب متفاوتة في تغيير اتجاه التوسعات العثمانية من الغرب إلى الشرق.

ونتساءل في هذا المقام: هل حركة التاريخ إذا توافرت لها عناصرها تعمل من تلقاء نفسها شأن ما يقول به الشيوعيون أو أصحاب التفسير المادي للتاريخ والذين يقولون، كما نعلم جميعاً: إن حركة التاريخ تمشي غير مستأذنة ولا مأذونة من الإنسان، حتى أنها فوق إرادة الفرد؟

هنا يمكننا القول: إننا لسنا مع هذه المادية التاريخية؛ لأننا نؤمن بأن الإنسان عنصر مهم من عناصر الحركة التاريخية؛ فلا بد أن يوجد الفرد المستجيب لهذه المرحلة التاريخية والمحرك لها. ونحن نعتقد أن سليم الأول كان هذا الفرد المستجيب والمحرك للأحداث في تلك الحقبة التاريخية، لما تميز به من خصائص أجمع عليها المؤرخون. فقد شملت

خصائصه القدرات القيادية - الحربية، والإمكانات الحيوية الذهنية الجسدية؛ فقد قيل إنه لم يكن ينام إلا قليلاً، ويبقى متربصاً متحفزاً، لا تعنيه مباحج الحياة ومسراتها؛ بالإضافة إلى كل هذا؛ فإننا نرى أن استجابته التلقائية لمنطق التاريخ ودعمه لحركته كانت العنصر الأهم في دوره الذي قام به في توجيه الأحداث.

كما رأينا آنفاً تزامنت حالة التثبّع العثماني في أوروبا مع بروز الأخطار البرتغالية والإسبانية التي كانت تهدد، ليس فقط العالم العربي وحده، بل كانت تشكل خطراً مستقبلياً على الدولة العثمانية ذاتها، والتي أدركت ضرورة مجابهة هذا الأخطار قبل استفحالها، والخروج لها قبل أن تأتي إليها؛ خاصة وأن الوطن العربي يوم ذلك لم يكن في حالة تسمح له بصد هذه الأخطار، وهذا أيضاً شجع الدولة العثمانية على الشروع في السيطرة عليه والاستفادة من ثرواته في هذا الشأن.

والواقع أن الحكم العثماني للبلاد العربية، على الرغم من جميع ما يقال عن سلبياته، قد أسفر عن تحقيق أكثر من نتيجة إيجابية لتلك البلاد وشعوبها. ويأتي على رأس هذه النتائج حماية تلك البلاد من التفكك، وخلق حالة من ترابط شعوبها العربية نتيجة للتواصل الاجتماعي والعلمي بينها لم تكن لتتحقق لو لم تنضو جميعها

المصادر والمراجع

- ١ - محمد فؤاد كوبريلي: قيام الدولة العثمانية، ترجمة عن التركية أحمد السعيد سليمان - الهيئة العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٣، ص ١٢٨.
- ٢ - أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢، ص ١١، ١٨.
- ٣ - نيقولا باربارو: الفتح الإسلامي للفلسطينية، يوميات الحصار العثماني ١٤٥٣، دراسة وترجمة وتعليق، حاتم عبد الرحمن الطحاوي، دار عين، للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢، ص ٩٠.
- ٤ - ابن ثغري بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٦، ج٧، ص ٢٧٧.
- ٥ - محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ - ١٩١٤)، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٠، ص ١٠٢.
- ٦ - إسماعيل سرهنك: تاريخ الدولة العثمانية، طبعة دار الفكر الحديث، ١٩٨٤، ص ٦٢ - ٦٣. وإبراهيم بك حليم: تاريخ الدولة العثمانية العلية ط. مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١٠، ١٩٨٨، ص ٧٦.
- ٧ - نيقولا: صعود العثمانيين، فصل في كتاب تاريخ الدولة العثمانية، إشراف روبر مانتران، ترجمة بشير السباعي، ط١، القاهرة، ١٩٩٣، ج١، ص ١٦٦.
- ٨ - المرجع نفسه: ص ١٣٥.
- ٩ - نيقولا فيتان: نفس المرجع، ص ١٦٧.
- ١٠ - روبر مانتران: تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص ٢٠٩.
- ١١ - زياد أو غنيمه: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الاتراك، ط. دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، بدون تاريخ، ص ٩٦.
- ١٢ - عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦م، دمشق، ط١، ١٩٧٤، ص ٦٠.
- ١٣ - محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، (١٥١٤ - ١٩١٤)، المرجع السابق، ص ٨٧.

تحت حكم دولة واحدة، وكان من أهم مظاهر هذا التواصل الزيارات والرحلات العلمية التي يقوم بها علماء المشرق والمغرب العربيين بطول البلاد العربية وعرضها من دون عائق من حدود أو قوانين ليلتقوا بغيرهم من العلماء للتعلم والتشاور والبحث والدراسة. بل إن بعضهم أتاحت له فرصة الإقامة والزواج وتولي المناصب في البلد العربي الذي راق له أن يقيم فيه بصرف النظر عن البلد الذي ولد فيه، وما يدل على أهمية هذه النتيجة ما رأيناه بعد سقوط الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى وكيف سيطرت الدول الغربية الاستعمارية على دول العالم العربي ومزقته أقطاراً، ولا تزال تعاني شعوبه إلى هذا اليوم من فوضى التجزئة والتقسيم.

كان من هذه النتائج الإيجابية تحمل الدولة العثمانية مسؤولية التصدي للهجمة الاستعمارية الشرسة والمتعصبة من جانب الإسبان ضد مسلمي إسبانيا ومناطق شمال إفريقيا التي كانوا يريدون الاستيلاء عليها وتحويلها إلى إمبراطورية كاثوليكية.

- ١٤ - محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العليا العثمانية، تحقيق احسان حقي، دار الفنائس، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ص ١٧٩.
- ١٥ - زياد أبو غنيمه: مرجع سابق، ص ١٠٥.
- ١٦ - محمد أنيس: المرجع السابق، ص ١٠٩.
- ١٧ - نيقولا إيفانوف: المرجع السابق، ص ٦٠ - ٦١.
- ١٨ - ابن إياس، مرجع سابق، ١٥١/٥.
- ١٩ - روجر أوين: الشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي، ترجمة سامي الرزاز، ص ١٧.
- ٢٠ - ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، مرجع سابق، ١٥٣/٥، ص ١٥٤.
- ٢١ - أطلس تاريخ القاهرة: ص ١٢١.
- ٢٢ - محمد فريد بك المحامي: المرجع السابق، ١٩٣.
- ٢٣ - أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، ص ٨٥.
- محمد أنيس: المرجع السابق، ص ٣٦٣.
- ٢٤ - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: النشاط التجاري في البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، جامعة عين شمس، ص ٢٤١ - ٢٤٦، (بدون تاريخ).
- ٢٥ - محمد شكري: أسفار بحرية عثمانية، ص ٥١.
- ٢٦ - عبد العزيز الشناوي: مرجع سابق، ص ٨٦٢.
- ٢٧ - محمد شكري: أسفار بحرية عثمانية، ص ٣٤٣.
- ٢٨ - إبراهيم بجوي: تاريخ بجوي ١/٢١٩، مطبعة عامرة، استانبول ١٢٨٣ م.
- ٢٩ - بلناز اوزتونا: مرجع سابق، ١/٣٢٨.
- ٣٠ - اندري كلو: سليمان القانوني، تعريف البشير بن سلامة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١، ص ٧٧.
- ٣١ - أحمد عبد الكريم مصطفى: مرجع سابق، ص ٩٠.
- ٣٢ - عبد الحميد البطيرك: من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧ - ١٨٤٠، معهد البحوث والدراسات العربية، بيروت، ص ٢٥.
- ٣٣ - تاريخ بجوي: مرجع سابق، ص ٢١٩/١ - ٢٢٤.
- ٣٤ - بلماز اوزتونا: مرجع سابق، ص ١/٣٢٨.
- ٣٥ - عزيز سامح التري: الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية بيروت، ص ٥٠.
- ٣٦ - عبد الجليل التميمي، أول رسالة من أهالي الجزائر إلى السلطان سليم الأول، سنة ١٥١٩م، المجلة التاريخية المغربية، تونس، العدد ٦، تموز ١٩٧٦.
- ٣٧ - ارجمند كوران: السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة عبد الجليل التميمي، ص ١١.
- ٣٨ - عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مرجع سابق، ٩١٥/٢.
- ٣٩ - عبد العزيز سليمان نوار: «الشعوب الإسلامية» دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٣، ص ١١٩.
- ٤٠ - H.De GRAMONT: Histoire d'ALGER, sous la Domination Turque, (1516-1830), Paris, 1887, P211.
- ٤١ - ibib: P. 227.
- ٤٢ - عبد العزيز الشناوي: مرجع سابق، ص ٢/٩٢٨.
- ٤٣ - عبد العزيز سليمان نوار: مرجع سابق، ص ١٢٤.
- ٤٤ - محمد أنيس: مرجع سابق، ص ١٣٥.
- ٤٥ - عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون، ص ٦٦.
- ٤٦ - يلماز اوزتونا: مرجع سابق، ص ١٣٧.
- ٤٧ - محمد أنيس: مرجع سابق، ص ١٣٧.
- ٤٨ - سيار الجميل: مرجع سابق، ص ٣٣٠.

التعددية الدينية بين التحليل والنقد

د. علي الحاج حسن^(١)

١ - لا يقصد من الدين في بحث التعددية الدينية، الأديان التوحيدية (الإسلام، المسيحية، اليهودية) فقط، بل يشتمل البحث الأديان غير التوحيدية أيضاً أمثال البوذية، الهندوسية و...^(٤)

٢ - قد يفترض البعض أن المقصود من التعددية الدينية، وجود أديان ومذاهب وتيارات اعتقادية دينية في مجتمع واحد، والواقع أن هذا الفرض غير مقصود بالأخص وأن الادعاء واقع لا يمكن إنكاره ولا يخل بالنظام الاجتماعي والسياسي الموجود، بل المقصود الاثر الذي يترتب على الاعتراف بالتعددية والمقصود بالضبط الاعتراف بتعدد سبل النجاة والفلاح والصلاح وعدم حصر ذلك في دين أو مذهب خاص. لذلك قد يسود مجتمعاً واحداً أديان متعددة ويدّعي كل منها أنه الحق والصلاح فقط، فينفي قدرة الأديان الأخرى على إيصال باقي المتدينين إلى ذلك الأثر

مقدمة

التعددية^(٢) تعني الكثرة ويُستخدم المصطلح في مجالات عديدة من فلسفة الدين وفلسفة الأخلاق والحقوق والسياسة والمشارك بينها الاعتراف بالكثرة التي تقابل الوحدة.

التعددية في الاصطلاح تعني الميل نحو القول بالأصول المتعددة، ويقابل هذا المعنى القول بأحادية الأصل^(٣). لذلك فالتعددية غير مختصة بالبحث الديني والمعرفة الدينية بل تصدق على كافة الحالات والأطر المعرفية. طبعاً عند استخدام مصطلح التعددية في مجال المعرفة الدينية فلا بد من ذكر صفة الديني معه.

بناءً على هذا المعنى الاصطلاحي ولعدم الخلط في معاني التعدد واجرائه على الكثير من الحالات، وللتأكيد على استخدامه في مجال المعرفة الدينية، لا بد من لحاظ الأمور الآتية:

(٢) pluralism.

(٤) العقل والاعتقاد الديني، مايكل بترسون، ص ٣٩٧.

(١) أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية.

(٣) monism.

مما يدعو هنا للقول بالانحصارية والآحادية وليس التعددية.

٣ - تفترض التعددية الدينية أن أتباع الأديان كافة هم من أهل النجاة وأن تعاليم واعتقادات الأديان التوحيدية وغير التوحيدية، صحيحة وحق ومطابقة للواقع. وهذا يعني عدم وجود دين خطأ أو منحرف وباطل. والنتيجة أن محل النزاع في التعددية هو حقانية كافة الأديان.

وعليه يكون المقصود من التعددية الدينية^(١) هو أن الحقيقة والصلاح لا يمكن اختصارهما بدين خاص، فكل الأديان على السواء لها حظ من الحقيقة المطلقة والغاية القصوى، وهذا يعني أن إتباع أي من هذه الأديان يوجب نجاة وصلاح الإنسان. وهذا يعني أن النزاع القائم بين الأديان والمذاهب على مستوى الحق والباطل لا موضوعية له^(٢).

النشأة

يعتبر جان هيك أول من طرح مسألة التعددية الدينية بشكل مستقل في كتاباته محاولاً مواجهة ومحاربة الفكر الانحصاري أو الأحادي في الأديان فرفض اعتبار

خلاص و نجاة الإنسان يتحقق في ظل الدين المسيحي فقط بل أكد على أن كافة الأديان على حق، وأن اتباع كافة الأديان هم من أهل النجاة. طبعاً بدأت بوادر الحديث عن الموضوع قبل جان هيك وبأسلوب يختلف عنه فتحدث البعض حول الحوار بين الأديان والذي مهد الطريق للحديث حول التعددية. يقال إن الأسقف يانيس مسكينوس أول من طرح فكرة الحوار بين الأديان^(٣) وطبعاً لم يتحدث حول الحقانية بشكل مباشر بل كانت فكرة الحوار التي طرحها مدخلاً لقبول واقع الأديان الموجودة. وفي هذا الإطار فإن ما وصل إليه الفكر المسيحي هو القول بمعذورية أتباع الأديان الأخرى في اتباعهم لأديانهم مع تأكيدهم على حقانية الدين المسيحي.

بدأ جان هيك الحديث حول التعددية في العالم المسيحي خلال العقود الأخيرة. يقول في هذا الصدد: «إن مصطلح تعدد الأديان من ناحية علم الظواهر عبارة عن هذه الحقيقة التاريخية وهي أن الأديان تبين تعدد السنن وكثرة ما يتفرع عنها... والمقصود من هذا المصطلح أن الأديان العالمية الكبيرة تشكل قراءات مختلفة من حقيقة غائبة والهيبة واحدة»^(٤). ويضيف في

(١) Religious pluralism.

(٢) تحليل ونقد التعددية الدينية، علي رضا كلبايكاني، مؤسسة الفكر والمعرفة المعاصرة، ص ٢٠.

(٣) مجلة الأفاق [جشم انداز]، العدد ١، ص ٣٥.

(٤) مقال تعدد الأديان، جان هيك، مجموعة البحث الديني، ميرتشيالاده، ص ٣٠١.

مكان آخر أن «الأديان على اختلافها هي حركات مختلفة تعبر عن التجربة الدينية وقد بدأ كل منها في مرحلة مختلفة من التاريخ البشري...»^(١).

شددت قراءات هيك للتعددية على مسألتى الحقانية والصلاح من الناحية الدينية، فالحق أمر مشترك بين كافة الأديان، وكل دين يمكنه أن يكون سبباً لصلاح وكمال الأتباع.

قدم البعض قراءة أخرى للتعددية الدينية ركزت على البعد الاجتماعي للدين، فاعتبر أصحابها أن المقصود من التعددية الدينية هو أن يكون بإمكان أتباع الأديان المختلفة الحياة بسلام في مجتمع واحد وبالتالي احترام بعضهم حدود وحقوق البعض الآخر^(٢).

ويمكن من جهة أخرى الحديث عن شكلين من الكثرة الدينية: الكثرة الطولية والكثرة العرضية. المقصود من الكثرة الطولية أن الأديان والشرائع السماوية قد ظهرت على امتداد التاريخ البشري وقد اختلفت بالشريعة السماوية المحمدية. وهذا يعني أن الأديان قد ظهرت في حقبات زمانية متلاحقة، ومن هذه الناحية لا تتعارض هذه الكثرة مع حقانية الأديان ولا

تؤدي إلى إشكال عملي فيما بينها، فالأديان السماوية على اختلافها هي أديان إلهية وتوحيدية لم تتعرض للتحريف. وأتباع الأديان في كل حقبة نزل فيها دين معين يحملون ما يدل على حقانية دينهم. أما المقصود من الكثرة العرضية فهو وجود عدد من الأديان والشرائع في زمان واحد يدعي أصحابها حقانية دينه دون الأديان الأخرى. وهذا يعني أن صاحب الدين الذي يعتقد بحقانية دينه يرفض الدين أو الأديان الأخرى من هذه الناحية أيضاً. لعل أبرز مصداق على الكثرة العرضية في الأديان السماوية، وجود الأديان الثلاثة أي اليهودية والمسيحية والإسلام في زمان واحد. ويؤدي وجودها في زمان واحد إلى الحديث حول الحقانية والصلاح في الأخرى، هذا إذا ما علمنا أن العديد من أصحاب الأديان يعتقدون أن الدين اللاحق ينسخ السابق. أي إن الحقانية تصبح من نصيب اللاحق دون السابق.

الحصريّة الدينية^(٣)

تقع الحصرية أو الانحصارية الدينية في مقابل نظرية التعددية الدينية، حيث يعتقد أصحابها أن الصلاح والكمال وكل

(١) فلسفة الدين، جان هيك، ص ٢٣٨.

(٢) قاموس oxford جاء فيه : the existence in one society of a number of groups that belong to different races or have different political or religious beliefs

(٣) religious exclusivism.

التعبير عنها بنظرية الشمولية الدينية وهي تجتمع معهما في بعض المدعيات وتفترق عنهما في أخرى. فالشموليون يعتقدون أنّ طريق الصلاح والكمال موجود في دين واحد، أما سلوك هذه الطريق فهو ميسر للجميع من دون استثناء بشرط رعاية الضوابط المذكورة في هذا الدين، كما يعتقدون أن لطف الله وعنايته قد تجليا في مختلف الأديان، باعتبار أن الجميع يسعى للصلاح والكمال. وهذا يعني أنّ غير المسيحي يُعدّ من الناجين ومن الصالحين حتى لو لم يعرف عن المسيحية شيئاً لأنه يبحث عن تلك الحقيقة^(٢).

مبادئ التعددية الدينية: التحليل والنقد

تعتمد نظرية التعددية الدينية على مجموعة من المبادئ التي تسوّغ القبول بها وهي مبادئ تنطلق من خلفيات فكرية فلسفية في كيفية قراءة الدين وفهم النص. من أبرز هذه المبادئ:

١ - التفكيك بين جوهر الدين

وقشوره

من جملة المبادئ التي قدمها القائلون بالتعددية مبدأ التفكيك بين جوهر الدين وقشوره. فالدين يشتمل على أمور تشكل

شيء يعتبر هدفاً نهائياً للدين، فهو محصور بدين خاص. وهذا يعني أن أصحاب الأديان الأخرى لا يمكنهم الوصول إلى الكمال والصلاح أو الحصول على الحقيقة المطلقة عن طريق أديانهم. وقد تمسك أصحاب هذه النظرية بمسألة أن الصلاح لا يحصل إلا من خلال اللطف والعناية الإلهية التي يجب البحث عنها في إطار الدين الذي يمثل اللطف والعناية. يشير كارل بارت إلى الرؤية الانحصارية في المسيحية حيث لا يمكن الحديث حول الله والإنسان وعلاقة بعضهما البعض الآخر إلا عن طريق عيسى المسيح، لأن الدين المسيحي الذي يمثله عيسى هو نقطة الأوج والكمال بالنسبة لكافة الأديان الأخرى، لا بل شخص عيسى هو الحامل للدين الحق. فالله قد حصر الحقيقة بشخص عيسى، وعن طريقه فقط يتمكن الإنسان من الوصول للكمال^(١)...

طبعاً يمكن توجيه النقد للحصرية الدينية من منطلق عدم وجود دليل ديني يسوغ حصر الحقيقة والكمال بدين خاص، فالأديان السماوية تقف بعيداً عن حصر الحقيقة بدين واحد.

إلى جانب النظريتين المتقدمتين راجت في العالم المسيحي نظرية ثالثة يمكن

(١) العقل والاعتقاد الديني، مايكل بترسون وآخرون، طباعة «طرح نو»، طهران ١٣٧٦ هـ ش، ص ٤٠٢-٤٠٤.

(٢) م.ن.، ص ٤١٤-٤١٧.

حقيقته ويراد منها ما يأخذ على عاتقه إيجاد التحول في شخصية الإنسان ودفعه نحو الكمال والخلوص. أما قشور الدين فهي عبارة عن القضايا والأحكام الدينية التي تتغير من دين لآخر. ثم إن أحكام الدين ليست نظرية علمية فلا يصح عليها الصدق والكذب. وتكون الأحكام صادقة ما دامت قادرة على إيجاد تحول ما في الإنسان وإذا ظهر التناقض بين الأحكام باعتبار تعدد الشرائع فهي تحكي عن تجربتنا التي نعيشها في بيئتنا الدينية الخاصة. أما حقائق الدين فهي واحدة، وهي عبارة عن الأبعاد الوجودية في الدين لأن المراد منها تبديل محورية الإنسان بمحورية الله. وهذا واحد على امتداد كافة الأديان. وبعبارة أخرى بما أن الغاية في الأديان واحدة لذلك يكون جوهر الأديان واحداً^(١).

يظهر عند دراسة هذه النظرية وجود مسألتين هامتين، الأولى: إن التعاليم والأحكام الدينية لا تمتلك قيمة ذاتية، والثانية: إن هذه الأحكام ليست قضايا علمية فلا يصح عليها الصدق والكذب. وإذا كان الأمر كذلك وإذا لم يحصل الاعتقاد بصحة الأحكام الدينية فكيف يمكن لها أن تؤثر على مستوى المتدينين أي كيف يمكن لهذه

الأحكام أن تؤدي إلى إيجاد تحول أساسي ونقل المحورية من الإنسان إلى الله^(٢). بين جان هيك هذا الإشكال على هذا المبدأ عندما اعتبر أن الأحكام الدينية يجب أن تُبنى على أساس الحقيقة وليس الوهم^(٣).

٢ - الاختلافات المفهومية واللغوية

ينطلق بعض أصحاب نظرية التعددية من أن تجليات الأديان ووجود أديان عديدة يحكي عن الصورة الظاهرية أو المفهومية للأديان باعتبار كل بيئة على حدة بحيث لا يكون لهذه الصور المفهومية أي حقيقة في بيئة أخرى. لذلك يحتفظ كل دين بما يخصه من مفاهيم تختلف عن المفاهيم الأخرى في الأديان الأخرى ويبقى أن الصورة الحقيقية لا تختلف الأديان فيها. على هذا الأساس فالتصورات الموجودة في الأديان تجد معناها الحقيقي في نصوص الدين عينه المنحصر بشخصه. حصرت هذه النظرية الاختلافات بين الأديان بالبعد اللغوي والتصورات المفهومية^(٤).

طبعاً يرد على هذه النظرية إشكال أساسي، وهو أن الاختلافات بين الأديان ليست ظاهرية كما أنها ليست لغوية، بل هي اختلافات حقيقية، فالبعض يدور حول التوحيد، والبعض الآخر حول التثليث

(٢) م.ن.

(١) العقل والاعتقاد الديني، ص ٤٠٨-٤٠٩.

(٣) فلسفة الدين، جان هيك، ص ١٩٥-١٩٦.

(٤) تحليل ونقد التعددية الدينية، علي رباني كلبايكاني، ص ٦٧-٦٨.

والتنزيه والتشبيه وما شابه ذلك من أمور تدل على الاختلاف الحقيقي والبعد الجوهري. وقد عدد جان هيك بعض الاختلافات الجوهرية بين الأديان والتي تبين أن الفروقات ليست ظاهرية^(١).

٣ - التفريق بين الدين في نفسه والتجربة الدينية

يعتقد أصحاب نظرية التعددية الدينية أن أساس التدين هو «التجربة الدينية». والتجربة هذه عبارة عن مقابلة الأمر المطلق أي المتعالي. بعبارة أخرى هناك فرق بين الدين كما هو وبين الدين عندما يتنزل إلى ساحة الحياة البشرية وتفصيلها. طبعاً التجربة تتطلب نوعاً من التأويل الذي يحكي عن التأثير ببعض المحدوديات أمثال المحدوديات التاريخية واللغوية والاجتماعية والمادية. وإذا كانت الحقيقة الدينية واحدة باعتبار ما هي عليه عند الله إلا أن ذلك لا يعارض القراءات المتعددة الناشئة من تعدد التجارب البشرية^(٢).

استعان أصحاب هذه النظرية بأحد الأصول التي عرضها كانط في باب علم المعرفة حيث فرق بين «الشيء في نفسه» (نومن) والشيء لنا (فينومن)^(٣).

وقد استعان جان هيك لتوضيح النظرية بقصة الفيل والعميان. فكلما دخل أعمى ليتعرف على الفيل كان يصفه بما تصل إليه يده. فمن لمس رجل الفيل قال: الفيل كالعمود الكبير، ومن لمس خرطومه قال: الفيل كالثعبان... وهكذا ولكن أيّ منهم لم يدرك حقيقة الفيل التي هي حقيقة قائمة بنفسها لا تتطابق مع أيّ من الآراء التي قدمها العميان. مع العلم أن ما أدركوه من الفيل لا يتنافى بالكامل مع الحقيقة، فكل واحد أدرك جزءاً صحيحاً حسبما وصلت إليه يده^(٤).

أما أبرز الإشكالات التي تحوم حول هذه النظرية فهي أن المعرفة البشرية والتجربة الدينية تبين في أحسن حالاتها «كثرة المعارف البشرية» فيما يتعلق بالحقيقة الغائية والحقيقة المطلقة وكذلك أسباب ظهور المذاهب والفرق الدينية، إلا أن هذه التجربة لا يمكن أن تشكل معياراً لمعرفة الحق أو عدم الحق فيها. وهذا يعني أن التجربة عاجزة عن الحديث حول الحقائق وعدمها^(٥).

٤ - تعدد الفهم وكثرة التفسير البشري للدين

تعتمد فكرة التعددية على مبدأ هام وهو

(١) فلسفة الدين، جان هيك، ص ٢٢٩-٢٣١

(٢) التعددية، محمد مجتهد الشبستري، مجلة كيان، العدد ٢٨، ص ٤.

(٣) فلسفة الدين، جان هيك، ص ٢٤٥. (٤) العقل والاعتقاد الديني، ص ٤٠٧.

(٥) تحليل ونقد التعددية الدينية، عليربانيكلبايكاني، ص ٧٨-٧٩.

نظريات التعددية هو تعدد عرضي يحمل معه الكثير من التعارض، مع العلم أن التعدد في مستويات النص الديني هو في الواقع تعدد طولي لا يتنافى مع كافة الخلفيات ولا يؤدي إلى إيجاد تعارض في الفهم لا بل لا يؤدي إلى الكثرة، لأن التعدد الطولي يؤدي إلى فهم حقيقة واحدة مشككة.

أما فيما يتعلق بحاجة النصوص إلى تفسير ينطلق من الخلفيات الفكرية و... للإنسان، فهذا كلام لا إشكال فيه. إلا أن الذي يجب التوقف عنده: أولاً تفسير الدين يجب أن ينطلق من مقدمات يوفرها الدين بنفسه وثانياً، لا نقاش في تأثير الإنسان بالعلوم الأخرى، إلا أن الذي يحكم الإنسان في قراءته هو القراءة الصحيحة أو الباطلة، لأن القراءة الصحيحة على سبيل المثال لا تتعارض مع قراءة الدين وتفسيره، وهي تحكي بشكل واضح عن كافة خلفيات الإنسان العلمية، كما أن القراءة الباطلة تتعارض مع تفسير الدين وتحكي عن خطأ المقدمات حتى لو كان يطلق عليها عنوان العلمية. لذلك فإن ما يحكم القراءة الصحيحة وبغض النظر عن الخلفيات هو وجود معيار صحيح للحق والباطل فيها، وقد أوضحت الأديان أن هذا المعيار يجب أن يكون معصوماً عن الخطأ أو مستنداً إلى

أن البشر يتعدد فهمها للنص الديني الصامت. والسبب في ذلك أن البشر تستحضر توقعاتها وأسئلتها عند قراءة النص الديني، وهي توقعات وأسئلة خارجة عن الدين في أغلب الأحيان أي أن مصدرها ليس الدين بحد ذاته. وبما أن التعددية الدينية تعني حجية كافة الأفهام، فإن ذلك يكون مقبولاً عند أصحاب المدعى في ظل أمور من أبرزها:

أ - الاعتقاد أن الكلام الإلهي والنصوص الدينية المتضمنة كلام الله، هو كلام ونصوص ذات بطون، باعتبار أن الكلام الإلهي يبين الواقع، والواقع متعدد، وذو بطون ومستويات، لذلك كانت الأفهام المتعددة باعتبار مستويات الواقع المتعددة أيضاً.

ب - الاعتقاد أن النصوص الدينية صامته أي أنها بحاجة إلى تفسير وتوضيح، وبما أن الإنسان لا يمكن أن يتعاطى مع هذه النصوص إلا من خلال خلفياته المتشكلة خارج الدين والمتأثرة بالعلوم والثقافات الأخرى، لذلك لا بد أن يتنوع الفهم ويتعدد التفسير^(١).

طبعاً لا يمكن قبول كون التعددية مبررة باعتبار تعدد مستويات الواقع وتعدد الفهم لأن التعدد الذي يتحدث عنه أصحاب

(١) تحليل ونقد التعددية الدينية، عليربانيكلبايكاني، ص ٩١-٩٣

معصوم. وتبين الدقة في النصوص الدينية أنها تحدثت عن معيارين للصحة وعدمها، أي العقل الذي تحدثت عنه الروايات تحت عنوان الحجة الباطنة والأنبياء والأئمة المعصومون الذين هم الحجة الظاهرة^(١).

٥ - يحكم التعددية الدينية فكرة أن أمور العالم هي أمور غير خالصة وغير كاملة ولا يحكي أيّ منها عن الحقيقة المطلقة، فكل يقاربها من زاوية ومن بعد، لذلك لا بد من التعدد الذي يقرب من الحقيقة المطلقة. ويعتمد هذا المدعى على تصورات تبرر الاعتراف به من جملتها:

أولاً إن عالم الممكنات هو عالم ناقص غير كامل في أيّ من أبعاده سواء أكانت طبيعية أم تشريعية، لذلك لا بد أن يمتزج فيه الحق بالباطل. ثانياً إن الأديان والمذاهب لا تمتلك الدليل على أن مذهباً أو ديناً أو فرقة معينة تمثل الحق بكل أبعاده، لذلك كان الحق ممتزجاً بالباطل فيه. وإلا لما تردد الإنسان في اختيار الدين أو المذهب الحق إذا كان واضحاً فيه^(٢).

ويسجل على هذه الرؤية أنها يعوزها الدقة في العديد من الأمور، فإذا كان عالم الممكنات ناقصاً وهذا صحيح، إلا أن هذا لا يستلزم بطلانه وبالتالي لا يستلزم عدم

القدرة على تبيان وإظهار الحق فيه وتميزه عن الباطل. فعالم الممكنات المحدود هو عالم حق صحيح لأنه فعل إلهي، وبالتالي ليس في هذا العالم باطل من ناحية العلل الأربعة المعروفة في الفلسفة. وإذا كان عالم الممكنات هو فعل الله العليم والحكيم فهو منزّه عن البطلان وبعبارة أخرى هو النظام الفعلي الأحسن^(٣) وبالتالي ليس صحيحاً القول بامتزاج الحق بالباطل وعدم القدرة البشرية على التمييز بينهما.

الرؤية الإسلامية

يعتقد المسلمون أن حقيقة وجوه الدين عبارة عن التسليم والانقياد للمقام الربوبي الذي يختلف باختلاف الأزمان والأعصار. وقد ربط المسلمون التسليم والانقياد للمقام الربوبي بقبول الشريعة الإلهية والعمل بالأحكام الدينية، لأن من مقتضيات التسليم العمل بما اراده الله صاحب الدين. لا بل أكد المسلمون على أن العمل بما أراده الله والالتزام بشريعته والتصديق بالنبوة وشرائع الأنبياء هي فرع معرفة وجود الله.

من هنا يتحدث المسلمون عن أن الدين الحق هو الإسلام مع عدم نفيهم أو رفضهم

(١) أصول الكافي، الكليني، ج ١، كتاب العقل والجهل، ح ١٢.

(٢) الصراط المستقيمة، عبد الكريم سروش، ص ٣٦-٣٨.

(٣) تحليل ونقد التعددية الدينية، علي رباني كلبايكاني، ص ١٣٤.

للأديان الأخرى وعدم إنكارهم صحة العمل الصادر من أتباع الأديان الأخرى لا بل وتأكيدهم على معذورية الجاهل وغير العالم. وقد ذكروا مجموعة من الأدلة على هذا المدعى تتراوح بين العقلية والنقلية.

١ - الأدلة العقلية

أ - حكم العقل باختيار الدين الأكمل

مما لا شك فيه أن وجود دين أكمل من الآخر يدفع باتجاه القول إن الأكمل هو الذي يمتلك أكبر مقدار من الحقانية، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن وجود معايير لتحديد الدين الحق هو الذي يؤكد صحة وجوده. من جملة الأمور التي يمكن الإشارة إليها في هذا الخصوص والتي تميز القرآن الكريم ودين الإسلام عن الكتب الدينية والشرائع الأخرى:

- بشرية الكتاب المقدس^(١).

- عدم استطاعة الوصول إلى النصوص الأصلية والأولى للكتاب المقدس^(٢).

- تحريف الكتاب المقدس^(٣).

إن هذه الأمور وغيرها تبين وجود نقص وتحريف في الكتاب المقدس، وهذا ما لا يمكن إثباته أو نسبته إلى القرآن الكريم، فهو كتاب إلهي وموجود ولم يتمكن أحد من إثبات تعرضه للتحريف، عدا عن أن القرآن

الكريم ما زال يشكل معجزة في حقيقة وجوده سواء على مستوى اللفظ والبلاغة أو على مستوى المعنى والهدف وتحقيق الهداية التي تنبع من مبدأ تقديم دستور ونظام حياتي كامل للإنسان على الأرض وفي علاقته مع الله والموجودات الأخرى^(٤).

ب - حكم العقل بحقانية الدين المتأخر

يتباين العقلاء في وضع القوانين على الاعتراف بحقانية ما يوضع أخيراً باعتبار أن الأخير يسد الثغرات والإشكاليات الموجودة في السابق. وإذا ما انتقلنا إلى الأديان وأكدنا على أن الأديان تتصل بشكل طولي وليس عرضي، فهي نزلت في فترات زمنية متوالية ولأهداف وعاوین محددة بما تقتضيه عناوین الزمان والمكان، وإذا ما لاحظنا أن كل دين لم ينف أو ينقض الدين المتقدم عليه بل كان بمثابة المكمل لما فيه من شريعة، عند ذلك يجب الاعتراف بان ما يأتي أخيراً يحمل شريعة السابق بالاضافة إلى ما تقتضيه ظروف البيئة الأخيرة وما تتطلبه الحياة البشرية في علاقتها مع الله تعالى.

٢ - الأدلة النقلية

المقصود من الأدلة النقلية، مجموعة الآيات القرآنية والروايات التي أشارت بشكل علني إلى:

(١) تاريخ الأديان، جان بيناس، نقله إلى الفارسية علي اصغر حكمت، طهران، ص ٥٧٦.

(٢) تاريخ الحضارة، ويل ديورانت، ج ٣، ص ٦٩٥.

(٣) بشارة العهدين، محمد صادقي، ص ٧٣ و ١٧٧.

(٤) الالهيات، جعفر السبحاني، ج ٣، ص ٢٢٩.

أ - دعوة أصحاب الأديان الأخرى إلى قبول الإسلام حيث قيدت النصوص هذه الدعوة بالهداية واتباع سبيل السلام والخروج من الظلمات إلى النور^(١).

ب - عالمية دين الإسلام وكونه صالحاً لحياة كافة أبناء البشر^(٢).

ت - ظهور الإسلام وتقدمه على الأديان الأخرى^(٣).

مسألة النجاة

من جملة القضايا الهامة التي يجب الإشارة إليها أثناء الحديث عن أحقية الدين الإسلامي، قضية النجاة وهل هي مختصة بالمسلمين أم أنها تشمل غير المسلمين أيضاً؟ وهل هناك من قيمة لأعمال الخير التي تصدر من غير المسلم أم أنها تفتقد القيمة الحقيقية والواقعية؟.

بداية يجب الإشارة إلى أنّ هذه المسألة ترتبط وبشكل كبير بموضوع العدل الإلهي حيث يجري الحديث فيه عن أعمال الخير الصادرة من غير المسلم. فإن كانت مقبولة فما الاختلاف بينها وبين الاعمال الصادرة عن المسلم وإن كانت تختلف عنها، فكيف يمكن تصحيح فكرة العدل الإلهي.

طبعاً مسألة الحقانية في الدين تختلف عن بحث النجاة، لا بل فإن القول بالتعددية على مستوى النجاة لا يستلزم القول بالتعددية على مستوى الصدق والحقانية. والسؤال الذي يُطرح هنا والذي يعالج فكرة عمل الخير من غير المسلم ويبين قضية النجاة بناءً على القول بوحدة الدين الحق: إذا أتى غير المسلم بعمل صالح يعتبره الإسلام صالحاً، فهل يستحق الثواب وبالتالي هل يكون من اهل النجاة؟

تعددت الإجابات على هذا السؤال من أبرزها:

١ - يعتقد البعض^(٤) أن عدالة الله تعالى تقتضي عدم التفريق بين المسلم وغير المسلم وبالتالي يكون الثواب من نصيب عامل الخير كائناً من كان. واستدلوا على هذا الجواب بان الله تعالى تربطه علاقة واحدة مع كافة مخلوقاته فهو خالقهم وبيده تدبيرهم، ولا معنى لأن يقبل عمل أحدهم ويرفض عمل الآخر. يضاف إلى ذلك أن حسن وقبح الأعمال ذاتي، فعمل الخير يستحق الثواب ولا فرق ممن يصدر وعمل الشر يستحق العقاب أيضاً. وقد

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) سورة التكويد، الآية: ٢٧؛ سورة الفرقان، الآية: ١؛ سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

(٤) راجع: العدل الالهي، مرتضى مطهري، ص ٣١٨-٣٢١.

أيدت آيات القرآن الكريم الرؤية المذكورة حيث جاء في العديد من الآيات: ﴿... وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢]؛ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) [الزلزلة: ٧-٨]؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

من دون تقصير فلا يكون من أهل العذاب. لذلك جاء في الحديث: «كل شيء يجره الإقرار والتسليم فهو الإيمان وكل شيء يجره الإنكار والحجود فهو الكفر»^(٣). وهذا يعني أن كل من عمل عملاً صالحاً وهو عالم عارف غير جاحد فهو مؤمن يستحق الثواب وبالتالي النجاة^(٤).

نتيجة:

الواضح أن ظهور فكرة التعددية أملتها العديد من المتغيرات المعرفية البشرية التي كانت تحاكي الواقع انطلاقاً من مبدأ محورية الإنسان والنهوض به نحو الكمال الأعلى. أما الإطالة على الأفكار والمعتقدات الأخرى انطلاقاً من زاوية الحصر ورفض الآخر وبعيدا عن المعرفة البشرية الجمعية فلا يسوغ القول بالتعدد. يضاف إلى ما ذكر قد يبدو عند التفحص أن التعددية لا تعارض نزوع الإنسان إلى الكمال من أية جهة أتي، بل ما يجب التركيز عليه التركيز على عمق الفهم البشري للدين والابتعاد عن التأويلات التي قد لا تتطابق مع جوهر الأديان على اختلافها.

٢ - يعتقد البعض الآخر بأن المسلمين فقط هم من أهل النجاة وليس كل المسلمين، بل من كان عارفاً بدينه عاملاً به. فلو كان كل من عمل صالحاً من أهل النجاة لما بقي أي مبرر للحديث عن جامعية وأكلمية الدين الإسلامي وكان الإسلام وغير الإسلام على السواء. واستدلوا بآيات قرآنية من جملتها قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلْوُ الْبَعِيدُ﴾^(١) [إبراهيم: ١٨].

٣ - فصل البعض في المسألة مستعيناً بتوضيح حقيقة الايمان التي يقصد منها في الواقع تسليم القلب والعقل لله تعالى^(٢). فمن أسلم قلبه وعقله لله وأتى بعمل الخير

(١) التفسير الوسيط، وهبي الزحيلي، ج ١، ص ٧٣٣.

(٢) راجع: العدلالا لهي، مرتضى مطهري، ص ٣٢٦ ينسب هذا القول إلى المرجئة وهي فرقة ظهرت زمن الامويين.

(٣) الحديث مروى عن الإمام الباقر عليه السلام. الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، ج ٤، ص ١٠٠، الحديث ٤.

(٤) راجع: العدل الالهى، مرتضى مطهري، ص ٣٣١.

التلوث والبيئة - مقاربات

فاطمة سوبرة

باستخدامه الجائر للموارد المتاحة، من دون النظر إلى الحدود المتوفرة لهذه الموارد وكيفية تطوير استخدامها، ولا للآثار السلبية التي سوف تترتب عن تراكم مخلفات استخدامه لتلك الموارد وتأثيرها في هذا الاتزان البيئي، وقد أشار القرآن الكريم إلى مشكلة التلوث بأنها نتيجة لما تصنعه يد الإنسان، فقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وإذا كانت البلدان المتقدمة، في معظم أنحاء المعمورة، استطاعت، بنسب متفاوتة، مواجهة بعض آثار التلوث البيئي، ووضعت الحلول المناسبة لها، إلا أنها في العديد من الميادين، لا تزال عاجزة عن إيجاد الحلول العلمية لمكافحة بعض أنواع التلوث. أما البلدان النامية، المتخلفة، فلا تزال تعاني الكثير من ويلات التلوث وآثاره السلبية، وعاجزة، حتى اليوم، عن التعاطي بشكل إيجابي مع هذه المعضلة الكارثية.

تعد قضية حماية البيئة والمحافظة عليها من مختلف أنواع التلوث واحدة من أهم قضايا العصر، وبعداً رئيساً من أبعاد التحديات التي تواجهها الدول النامية، خاصة في مجالات التخطيط للتنمية الشاملة المستدامة، ووفقاً للتجارب التي خاضتها الدول المتقدمة، والإنجازات التي حققتها، ولا تزال، قبل أن تقضي تراكمات التلوث، بمختلف أنواعه وأشكاله، الناتجة عن المشكلات البيئية المعقدة، على إمكانية العلاج الناجح.

من المتعارف عليه علمياً، أن الأرض ومن عليها، وما في باطنها، والسماء التي تغطيها، تكونت في توازن دقيق وكامل، تحكمه نظم بيئية، طبيعية من جهة، وإرادية من جهة أخرى، تُسير الحياة في هذا الكوكب. إلا أن الإنسان، بطبيعة تكوينه، وحاجاته المتجددة، وتراكم مشاكله وتطلعاته وميوله، وفي بحثه الدائم عن وسائل آليات تساعد على الحياة، أساء، بوعي ودون وعي، لهذه المنظومة،

السياسة البيئية:

بالإنسان، وعلاقة الإنسان بالطبيعة، فإن «الإيكولوجيا» تعني «علم إدارة شؤون البيئة»، أي العلم الذي يدرس القوانين الطبيعية التي تنظم الوجود، والتي تحدّد العلاقات بين الكائنات الحية والمحيط الطبيعي المناسب لعيشها بأفضل الشروط^(٢).

قبل التطرّق إلى موضوع السياسات البيئية، في شؤونها وشجونها، في وجودها وعدم وجودها، لا بد من البحث في معنى «السياسة البيئية»، أي البحث في تحديد المفاهيم وتمييزها.

خلافاً للاعتقاد السائد الذي يفهم «السياسة البيئية» باعتبارها مجرد «إدارة الشؤون البيئية»، أو مجرد تدخل السياسة في شؤون البيئة، فإن «السياسة البيئية» هي في تدخل البيئة (بقضاياها ومعطياتها العلمية) بشؤون السياسة.

لقد أطلق العلماء العديد من التعريفات لعلم البيئة، وأجمعت هذه التعريفات أنّ «علم البيئة يعتبر من أحدث العلوم التي تتناول العلاقة بين الإنسان ومحيطه الطبيعي». ومن خلال هذا العلم الحديث تمّ دراسة التوازن بين الأنواع الحية في الطبيعة، وتلك النباتية وأحياناً المعدنية، والتعمّق في التناقضات التي شهدها هذا العلم على مرّ الزمن، وإمكانات التوصل إلى توافقات عبر استمرارية علم البيئة وتطويره على الدوام، والتركيز على أهميته يوماً بعد آخر، ليشكل الجذر العلمي الذي من خلاله نضع السياسات البيئية، وتتمكن الجهات الرسمية وغير الرسمية من وضع تصورات وتقديم اقتراحات عملية للتصدي لحالات التلوّث التي تتعرض لها البيئة، وإيجاد حلول لمعالجة التلوّث ومكافحة كل أشكال النفايات المسببة له.

عالم الحياة الألماني، أرنست هيكل، الذي يعتبر أحد أكبر المدافعين عن مذهب التحول، ويعتبر الأنواع الحية غير ثابتة وهي في حالة تطور مستمر، حدّد أن كلمة «Ecologie» مشتقة من كلمتين يونانيتين: «Oikos» وتعني السكان، و«Logos» وتعني العلم، أي «العلم الذي يدرس علاقة الكائنات الحية بالوسط الذي تعيش فيه»^(١).

إلا أنّ كلمة «الإيكولوجيا» تشترك مع السياسة، بأنّهما يتّصفان بالعلمية، فإذا كانت السياسة هي علم أو فنّ إدارة وتنظيم المجتمع، أي تنظيم علاقة الإنسان

(١) أسد غندور، البيئة والمجتمع، ص ٩١.

(٢) حبيب معلوف - مجلة منبر البيئة، عدد ١٢، كانون الأول ١٩٩٨.

وإذا كان علم البيئة «قد اهتم بدراسة الكائنات الحية وطرق تغذيتها ومعيشتها، وبالتالي تنميتها، وتحديد أماكن تواجدها في مجتمعات أو تجمعات سكنية، فإن هذا العلم يضمن أيضاً دراسة العوامل غير الحية مثل: المناخ بكل خصائصه (الحرارة - الرطوبة - الضوء - الإشعاعات المختلفة - غازات المياه والهواء). وكذلك الخصائص الفيزيائية والكيميائية للأرض والماء (مسألة الحموضة - المقاومة النوعية - نسبة الأيونات - المواد الصمغية - التركيب الفيزيائي للتربة والترسبات)، بالإضافة إلى مجموعة عوامل فيزيائية وميكانيكية مرتبطة بوضعية كوكب الأرض، وخاصة الجاذبية»^(١).

أما العوامل الحيائية، فتتألف من مجموعة من الكائنات الحية الموجودة في الوسط، إذ لكل فرد علاقة ما بأفراد نوعه الذين يعيش معهم ويختلط بهم ويتأثر بكل ما يتعرضون له من سلبيات وإيجابيات الطبيعة، كما يتواصل مع أنواع مختلفة من الكائنات الحية التي تعيش في محيطه الجغرافي، قد يآلف البعض وقد يفترس البعض الآخر، ويزاحم ويصارع قسماً منها أثناء بحثه عن الطعام والشراب والسكن.

من خلال ذلك، يتضح لنا أنّ علم البيئة يتسع ويتشعب باستعمال التقنيات الحديثة، وتعمقت الدراسات لتطوير تلك التقنيات والتغلب على العوائق المختلفة أمامها، ما جعل علم البيئة متجذراً في علم العادات والفيزيولوجيا وعلم التغيرات والظواهر الجوية، وعلم المناخ، والمحيطات والبحار، وعلم الحياة والديمغرافيا، وعلوم الكيمياء الحياتية والكيمياء العضوية، والعلوم كافة التي تلامس الطبيعة والحياة بشكل عام^(٢).

ومن خلال هذا التشابك بين علم البيئة ومختلف العلوم الأخرى، ولكون الطبيعة، وثرواتها الهائلة، ليست ملكاً لفئة محددة من الكائنات الحية، وأنها تُورث من جيل إلى آخر، فإن المطلوب المحافظة عليها وجعلها نظيفة خالية من كل تلوث، ومن الضرورة التصدي للأضرار التي تسبب هلاكها، واستنفادها، مما يساهم بالتالي في هلاك الكائنات الحية، ويتطلب عدم الإسراف في استخدام مواردها الأولية، أو هدم تلك الموارد، والحفاظ على استمراريتها وتنميتها على الدوام.

من هنا، فإن أي سياسة بيئية، يجب أن تأخذ بعين الاعتبار قضايا وشؤون البيئة بكل جوانبها، مما يساهم في تنظيم علاقة

(١) دائرة المعارف - يونيفرسال.

(٢) د. أحمد رشيد، كتاب علم البيئة - الصادر عن معهد الإنماء العربي.

والكوارث وكل ما يهدّد حياة الإنسان في صراعاته الدائمة.

إن التخلّف مشكلة سياسية وثقافية بالأساس، ولا يمكن مواجهتها والتغلّب عليها إلاّ عبر متغيرات عميقة وجذريّة في البنى الاجتماعية والعقلية والاقتصادية، والأطر الفكرية والثقافية المتعددة الجوانب. إنّه من أكثر مشاكل العصر أهمية وخطورة في آن واحد. ولكي تتمكّن الشعوب من مواجهة حالة التخلّف والتغلّب عليها، يتطلّب المزيد من الوعي والتماسك والوحدة، والتوصّل إلى سياسات حديثة وعلمية على الصعيد المجتمعيّ والاقتصاديّ والثقافيّ والصحيّ والعمرائيّة والبيئيّة. فإما أن تتمكّن الشعوب «المتأخرة» قهر حالة البؤس التي ترزخ تحت وطأتها، وإما أن تغرق أكثر فأكثر في الفوضى والتخبط والتسيب والضياع والانهازم أمام قوى جبابرة استطاعت، بقدراتها وسياساتها العدوانية، أن تفرض سيطرتها على الدول المتخلفة والتحكّم بها، وأن تنهب ثرواتها وخيراتها، وتعطل أو تقضي على مبدعيها، وتغيّب دورهم في عملية التنمية والتقدّم، والإصرار على إغراق الشعوب الضعيفة المقهورة في حالة من التخلّف والتأخر والتناحر، وإبقاءها رهينة لهم إلى أطول مدة زمنية.

الإنسان بالطبيعة، وأن تتشدّد تلك السياسات في عمليات المراقبة والمتابعة لحركة الإنسان اليومية وكيفية تعاويه مع الطبيعة، وقد وضعت القوانين والآليات لتنظيم هذه الأمور في مختلف دول العالم، كما أعدت البحوث والدراستات لتصحيح السياسات التي أخفقت في تنظيم العلاقة بين الإنسان والطبيعة، وإدارة هذه العلاقة بما يحقّق الهدفين: الحفاظ على الطبيعة وعدم تلوثها أو العبث بمواردها، وخدمة الإنسان وتوفير كلّ وسائل الراحة والنمو له.

«السياسة البيئية إذًا، هي شيء جديد، مختلف عن السياسات التقليدية كافة التي أدت إلى اختلالات خطيرة في التوازن الطبيعي، وأصبحت تهدد نوعية الحياة وديمومتها»^(١). وكل ذلك جاء نتيجة تدخل الإنسان بالطبيعة، من خلال نشاطه وعلمه ونظامه السياسي والاقتصادي والإنتاجي والاستهلاكي والاجتماعي والثقافي. وعلى هذا الأساس، فإن «السياسات البيئية» تُدخل علم البيئة بالسياسة، وتتدخل في الاقتصاد والتشريع والتربية والثقافة، وفي كل الأنماط الحضارية التي نعيشها.

التخلّف والتنمية وعلم البيئة:

يشكل التخلّف أكبر وأوسع عائق أمام التقدم والتنموية والتطور ومعالجة الأزمات

(١) حبيب معلوف - مصدر سابق.

مرتبطة بشعوبها، تمتلك فكراً عقلانياً متنوراً ومتجاوزة كل الأطر التقليدية الرثة، قيادات سياسية وفكرية وعلمية قادرة على كسب ثقة شعوبها بها، ودفع هذه الشعوب إلى الارتقاء، باسم المصلحة القومية العليا، إلى اتخاذ القرارات والمواقف الجريئة التي تشكك بالسلوكيات القديمة والسلبية والجمود القديم وبكل أشكال التضامن الرخوة، والانطلاق إلى رسم سياسات تحديثية، واعية، متزنة، متقدمة، واندماج مجتمعي متين، وبالتالي تلاحم وطني وقومي^(٢).

ولا يمكن تصور إحداث تنمية حقيقية إلا في إطار تجمعات بشرية كبيرة، متعلمة، راقية، ترفعت عن ذاتياتها، عقلانية وعصرية.

هذا ما أدركته شعوب البلدان المتقدمة، منذ عصر التنوير في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وانطلاق التصنيع، وإيجاد حلول لكل المشكلات والبلايا التي كانت تتخبط بها، وعلى رأسها كيفية التماهي مع الطبيعة ومواردها، وتجاوز كل وسائل هدر الموارد الطبيعية والعبثية في أساليب استخدامها، وتخريبها، وكل ما يساهم بتلوث الطبيعة ويعمل على

إن التنمية، بمفهومها الواسع والشامل، تتطلب مبادرات خلاقية من قبل المفكرين المتنورين وقوى ورجالات الحكم المتعاقبة، والتوصل إلى صياغة مشروعات علمية وجذرية، مرتكزة على وحدة المجتمع والدولة، وتماسك ووعي وثقة بالنفس وامتلاك القوة، ما يساهم في كسر إطارات التخلف، وتجميده أولاً، وبالتالي الانطلاق لتوجهات وممارسات وبرامج تحد من آثاره التدميرية، وتتيح إنشاء شبكات تنموية حديثة متجددة ومتطورة على الدوام^(١).

ونحن في عالمنا العربي، وفي نضالنا ضد التأخر والتخلف والسعي نحو التنمية ومواكبة العصر، نواجه عدة عقبات، يقع في أولويتها: التجزئة والانقسامات العامودية، والتفوق في بنى اجتماعية ضيقة الأفق، متصارعة على الدوام، وغياب الانتماء الوطني وكسب صفة المواطنة.

فلكي تكون هناك تنمية، لا بد من شعب. ولكي يكون هذا الشعب فاعلاً، ينبغي أن يتوفر له اندماج قومي، وتلاحم قومي، لا أن يغرق في توقعات محصورة مخصصة، ضعيفة القدرات، متناحرة فيما بينها، ثم يدافع عنها. فلا تنمية حقيقية بدون تلاحم قومي، والتلاحم القومي يتطلب قيادات

(١) ج.م. البرتي، كتاب التخلف والتنمية في العالم الثالث، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٩.

(٢) اللاعقلانية في السياسة، من كتابات الراحل ياسين الحافظ، كاتب ومفكر سوري.

إفناء ما تختزنه من ثروات عظيمة وضرورية، وهذا ما يجب أن تدركه شعوب وبلدان العالم الثالث.

وعلى سبيل المثال، يمكننا القول إنه عندما كان عدد السكان قليلاً، لم يكن استعمال الأنهار لتصريف الفضلات ذات أهمية كبيرة، ومع الزمن، ومن خلال حلول الصناعة، راح الإنسان يستخدم بالصناعة القوة الجاذبية والانحدار الطبيعي لتصريف الفضلات الصناعية في مجاري الأنهار، وكانت نتيجة ذلك سيئة جداً، وألحقت الضرر بالأنهار وبالبيئة، وبالموارد الطبيعية على حد سواء. كما أن تخريب الأراضي عبر الجرف المتزايد للتربة بهدف تحويل الصخور المكتنزة في الجبال إلى حصى ومواد بناء وغير ذلك، وتحويل الجبال إلى أودية سحيقة، شكل كارثة بالنسبة للنظم البيئية وللموارد الطبيعية.

من هنا يمكننا القول، إنَّ الإنسان غير الممنهج، الذي افتقد الكثير من العلاقات العقلانية بتعاطيه مع الموارد الطبيعية، ولم يتوصّل إلى امتلاك وسائل حديثة وعلمية تحول دون ندرة الموارد الطبيعية، وبتعاطيه السلبي مع البيئة وزيادة مكونات التلوث بشتى أوجهها، هذا الإنسان هو المسؤول بالدرجة الأولى عن التلوث والعمل على الحد من آثاره السلبية عبر سياسات بيئية متنامية ومتطورة.

مصادر التلوث، اقتراح حلول:

لسنا بمعرض إجراء دراسة تاريخية تلقي الضوء على كيفية تخريب الطبيعة بفعل «الحضارات المزيفة»، إلا أننا يمكننا القول إن قضية حماية البيئة والمحافظة على مواردها، ومواجهة التلوث بمختلف أنواعه هي من أهم القضايا التي تواجه العصر. ويمكننا أن نحدّد أهم أنواع ومصادر التلوث التي يفترض العمل لإيجاد حلول لها والتخلص من آفاتهما، هي على سبيل المثال وليس الحصر:

- تلوث الهواء.
- تلوث المياه.
- التلوث بالمخلفات الصلبة.
- التلوث بالمعادن الثقيلة.
- التلوث الإشعاعي.
- التلوث الحراري.
- التلوث الكيميائي.
- التلوث الضوضائي.
- الأمطار الحمضية والضباب الحمضي.

ولكل نوع من هذه الأنواع أسبابه ومصادره، وقد تمكنت العديد من الدول الحد من آثارها السلبية، وغرقت دول أخرى في كوارثها، وعجزت حتى الآن عن التوصل إلى حلول علمية للحد من آثارها. وأكثر

الدول معاناة من التلوث وأثاره السلبية هي دول العالم الثالث أو ما يطلق عليها «الدول المتخلفة».

وفي لبنان، تزداد من يوم إلى آخر مشاكل التلوث، بعوامل ذاتية إرادية وغير إرادية، ونتيجة عوامل خارجية جراء الحروب والتقنيات الإشعاعية التي استخدمت في هذه الحروب. إلا أن أهم مصادر التلوث، والتي تظهر للعيان وعلى شكل مكشوف هو النفايات ومخلفات المواد الصلبة، مما لوّث الهواء والمياه والطبيعة والشوارع والتربة، والحدائق والغابات وكل جميل في الطبيعة.

إن معالجة التلوث يتطلب العديد من الدراسات والخطط والبرامج والسياسات البيئية والقوانين اللازمة لحماية الطبيعة ومحاسبة المسؤول عن هذا التلوث. وعلى الرغم من الجهود التي بذلت ولا تزال، على المستويين الرسمي والأهلي، إلا أن مشكلة التلوث وتراكم النفايات يوماً بعد آخر، يزيد من صعوبة إيجاد حلول علمية لها، ويتطلب أحياناً قرارات حاسمة وجريئة وقاسية، وثقافة بيئية واعية تبدأ من البيت والمدرسة والمجتمع وصولاً إلى الإدارات والمؤسسات والمصانع والمحلات التجارية والمستشفيات والدوائر الصحية وكل ما يمت بصلة إلى حياة الإنسان.

وقد عقدت عشرات اللقاءات والندوات وألقيت مئات المحاضرات حول هذه

الإشكالية المتفاقمة، كما نظمت المؤتمرات على مدى أيام لعرض المشاكل البيئية ومصادرها وكيفية معالجتها، وكان مؤتمر «البيئة والمجتمع» الذي عقده «هيئة تكريم العطاء المميز» في محافظة النبطية في كانون الثاني من العام الفائت، على مدى يومين، وشارك فيه نخبة من الباحثين والعلماء والأساتذة، من أهم المؤتمرات وأحدثها، ونشرت الدراسات في كتاب ضخم، يمكن اعتباره من أهم المصادر التي يمكن الاستعانة بها للوقوف على حالة التلوث ومصادرها وطرق وأساليب الحد منها. «كتاب البيئة والمجتمع» - مقاربات علمية.

ومن خلال الدراسات والأبحاث،
أمكننا التوصل إلى الجدول التالي:

نسبتها العامة	مصادرها	أنواع المخلفات الصلبة
٤٢٪	القمامة المنزلية.	١ - مخلفات المنازل.
٢٧٪	الأسواق والعمليات التجارية المختلفة.	٢ - مخلفات تجارية وشوارع.
٩٪	أعمال الإنشاء والتعمير.	٣ - مخلفات المباني.
٥٪	الأعمال والأنشطة الصناعية والورش.	٤ - مخلفات صناعية.
٢٪	مجال الخدمات الطبية.	٥ - مخلفات مستشفيات ومؤسسات صحية.
٣٪	الأعمال الزراعية وطرق الري وجمع الإنتاج.	٦ - مخلفات زراعية.
٢٪	مواد متبقية في محطات الصرف الصحي.	
١٠٪	سيارات خردة - حيوانات نالفة - مخلفات مجازر وخلافه.	٧ - مخلفات الصرف الصحي.
		٨ - مختلف.

ومن خلال هذا الجدول التقريبي، يمكن الإشارة إلى أن المخلفات المنزلية هي من أضخم المخلفات، وبما أن مصادرها المنازل، فإن معالجتها تبدأ من المنازل، أي من المصدر نفسه، وهذا العمل يتطلب جهداً وتضافر كل من الأسرة، والمدرسة، والإدارات المحليّة الرسمية أي البلديات، والجمعيات والأندية بشتى تلاوينها وأنواعها، وزارة البيئة ووزارة الداخلية والبلديات ووزارة الزراعة، والقوانين البيئية وكيفية تطبيقها بشكل موضوعي بعيداً عن التدخلات من هنا وهناك.

المراجع

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - البرتي، ج.م، التخلّف والتنمية في العالم الثالث، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٩.
- ٣ - الحافظ، ياسين، اللاعقلانية في السياسة، دمشق، دار الحصاد.
- ٤ - رشيد، أحمد، علم البيئة، معهد الإنماء العربي.
- ٥ - دائرة المعارف - يونيفرسال.
- ٦ - غندور، أسد، البيئة والمجتمع «مقاربات بيئية وعلمية»، بيروت، منشورات رشاد برس، الطبعة الأولى، ٢٠١٧.
- ٧ - معلوف، حبيب، مجلة منبر البيئة، عدد ١٢، كانون الأول ١٩٩٨.

حول عمالة الأطفال

حسن علي عطوي

«إن عمل الأطفال شرّاً لا يحتمله الضمير الإنساني»^(١)

المقدمة

وتتوسع في الآونة الأخيرة وتترك آثاراً سلبية تنعكس على الطفل بشكل خاص، وعلى الأسرة والمجتمع بشكل عام.

بدأ الاهتمام العالمي بهذه القضية منذ إعداد مسودة الإعلان العالمي لحقوق الطفل في عام ١٩٥٧م، حيث نص الإعلان على وجوب حماية الطفل من الإهمال والاستغلال، وأن لا يتعرض للإتجار به بأي وسيلة من الوسائل.

كما ألزمت الجمعية العامة للأمم المتحدة الدول الأعضاء اتخاذ التدابير التشريعية والإدارية والاجتماعية والتربوية التي تكفل هذه الحماية، وبشكل خاص وضع حد أدنى لسن الالتحاق بالعمل ونظام ملء ساعات العمل وظروفه وفرض عقوبات مناسبة لضمان فعالية تطبيق هذه النصوص على أن تكون الأولوية لمكافحة الأعمال السيئة والخطرة التي قد يبتلئ بها الأطفال.

منذ القدم والأسرة تطلب من أطفالها المساهمة في أداء العديد من المهام مثل الزراعة وغيرها من الأعمال المنزلية، إذ كان الأهل يعتبرون هذا العمل نوعاً من التدريب للطفل ليساعده مستقبلاً على تحمل المسؤولية والقدرة على القيام بأنشطة اقتصادية. وتسمى هذه الأعمال التطوعية «عمل الأطفال الإيجابي» فهي لا تشكل أي آثار سلبية على نمو الطفل العقلي والجسدي والذهني وخاصة عندما يقوم بها الطفل عن رغبة منه واستمتاع.

أما عمل الأطفال بمفهومه السلبي فهو العمل الذي يضع أعباء ثقيلة على الطفل ويستغلّه اقتصادياً ما يؤدي إلى تهديد سلامته وصحته ورفاهيته. وتعتبر ظاهرة عمل الأطفال ظاهرة عالمية بدأت تنتشر

(١) مجلة عالم العمل - منظمة العمل الدولية.

تعريف عمل الأطفال:

بحسب المادة ٣٢ من اتفاقية حقوق الطفل فإنّ عمل الأطفال يعرّف بأنه:

«كل جهد فكري أو جسماني يبذله الطفل لقاء أجر أو بدون أجر سواء كان بشكل دائم أو عرضي أو مؤقت أو موسمي ويعتبر ضاراً له، على المستوى العقلي، والجسمي، والاجتماعي، والأخلاقي، والمعنوي، والذي يعترض دراسته، ويحرمه من فرص التعلم والدراسة، من خلال إجباره على ترك المدرسة قبل الأوان، أو أن يستلزم منه محاولة الجمع ما بين الدوام المدرسي، والعمل المكثف الطويل الساعات».

ويُعدّ كل شخص طفلاً ما لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، وبالتالي فإن تعريف الأطفال قد يشمل بهذا المعنى كل من هم دون الثامنة عشرة ولم يبلغوا سنه. ولكن في ما يختص بالعمل، ثمة تمييز بين مستويين: الأول هو عمل الأطفال الذين لم يبلغوا السن القانوني للعمل، وهو ١٣ سنة مكتملة في لبنان وفق التعديل الذي أدخل على قانون العمل عام ١٩٩٦م، بعدما كانت هذه السن سابقاً ٨ سنوات فقط، والمستوى الثاني هم المراهقون العاملون ممن تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ١٨ سنة، ويسمح القانون بدخولهم سوق العمل مع وضع بعض الشروط الخاصة بحمايتهم.

كما لا بد من التمييز بين عمل الأطفال «child work» وعمالة الأطفال «child labor»، فالعمل يقصد به مساهمة أي شخص عمره لم يتجاوز الحد الأدنى المسموح للاستخدام (خمسة عشر سنة مثلاً) في النشاط الاقتصادي بغض النظر عن نوع العمل أو إذا كان لدى الأسرة من دون أجر أو بأجر مع الغير.

بينما العمالة هي استغلال للأولاد للقيام بأعمال تفوق قدراتهم أو تحرمهم من حقوقهم في الصحة والتعليم أو من التمتع بطفولتهم. وفي الأديان نلاحظ نظرة المسيحية عند الكنائس الشرقية الكاثوليكية حيث تشمل تحديد سن الرشد في الباب التاسع عشر من القوانين بعنوان «الأشخاص والأفعال القانونية»: يكون الشخص راشداً الذي أتم السن الثامنة عشر من عمره، ومن دون هذا السن يكون قاصراً. كما تؤكد المسيحية على أنّ من حق الأطفال ألا يكونوا عرضة للاستغلال المادي والجسدي من قبل الراشدين.

أما في الإسلام فهناك مجالات واسعة تتحدث عن حقوق الطفل على والديه، ومنها حقه في التأديب والتعلم والمعاملة الحسنة وغيرها والتي هي أسمى وأشمل من مجرد فكرة العمل، فتراعي إلى جانب النواحي الجسدية مسألة التعلم مع التركيز على مراعاة الجانب السلوكي والأخلاقي لمحيط الطفل.

أسباب عمل الأطفال:

١ - **السبب الاقتصادي** ويشمل كل من الفقر وارتفاع معدل البطالة وتدني مستوى المعيشة والتهجير، فالعديد من الأطفال يتوجهون لسوق العمل رغبة في زيادة دخل الأسرة أو بسبب عجز الأهل عن الإنفاق على الطفل وخاصة في الأوضاع الاقتصادية الصعبة أو بسبب فقدان معيل الأسرة وخصوصاً الأب لعمله وبالتالي انعدام وجود دخل للأسرة.

٢ - **التسرب المدرسي**: تتنوع أسباب تسربهم من مقاعد الدراسة، من العنف المدرسي، وعدم الرغبة بالدراسة، وضعف التحصيل العلمي.

٣ - **المشاكل الاجتماعية**: وأهمها اليتيم أو مشكلة التفكك الأسري، وحجم العائلة الكبير وتواضع المستوى الثقافي للأسرة، حيث لا تنظر الأسرة إلى أهمية التعليم للطفل وفائدته.

٤ - **اكتساب مهنة**: وهي وفقاً لاعتبارات المجتمع التقليدي بأن مستقبل الطفل هو في تعلم مهنة تنفعه في حياته.

عمل الأطفال في العالم

تقدّر منظمة العمل الدولية عدد الأطفال العاملين في العالم ممن أعمارهم ٥-١٧ سنة حوالي ١٦٨ مليون طفل، يقسمون إلى ٨٣ مليون طفل يعملون أعمالاً خطيرة و ٨٥ مليون طفل دون الحد الأدنى المسموح

للاستخدام، كما تشير إحصاءات المنظمة إلى وجود ٥,٥ مليون طفل مجبرون على العمل رغماً عنهم. ويشكل الأطفال العاملون في الزراعة ما نسبته ٧٠٪ من الأطفال العاملين، مقابل ٩٪ فقط في الصناعة.

في إيطاليا مثلاً يضطر ٨٠٠٠ طفل من القاصرين للتسول في الشوارع سنوياً وتنظيف نوافذ السيارات أو بيع المناديل عند إشارات المرور، ويعمل قسم كبير منهم في دباغة الجلود، كما أنّ تقارير منظمة العمل الدولية تؤكد أنّ عمالة الأطفال تصل إلى نحو ثلث القوى العاملة الزراعية في بعض البلدان النامية.

ففي بنغلادش يشكل هؤلاء ما نسبته ٨٢٪ من الأطفال الناشطين اقتصادياً والبالغ عددهم حوالي ٦ مليون طفل، وفي البرازيل يعمل أكثر من ٣ ملايين طفل (بين ١٠-١٤ سنة) في مزارع الشاي وقصب السكر والتبغ، أما في أميركا فيعمل الأطفال من أصول مكسيكية في المزارع بدءاً من عمر ٩-١٦ سنة، وفي ماليزيا يتعرضون لاستنشاق المبيدات الحشرية الضارة أثناء جني محاصيل البن وكذلك في تنزانيا.

أما الأطفال الذين يمارسون «أسوأ أشكال عمل الأطفال» فتقدر أعدادهم وفقاً لمصادر منظمة العمل الدولية بنحو ٨.٤ مليون. هؤلاء الأطفال يعملون في ظروف سيئة: فهم يجبرون على الانخراط في بعض

٢٠٠٠م وعلى الأخص أسوأ أشكالها، لكن الصعوبات التي تواجهها تمنعها من الإحتواء نتيجة العوامل الاقتصادية والاجتماعية المتفاقمة والأزمة السورية المستجدة.

وأولى مظاهر الضبابية في معالجة هذا الموضوع هو التناقض الحاصل في تعداد الأطفال العاملين ونسبة اللبنانيين منهم في ظل تزايد أعداد الأطفال الفلسطينيين والسوريين العاملين. إذ تتفاوت الاحصاءات عن عدد الأطفال العاملين من مرجع لآخر، وذلك نتيجة غياب المرجعية الرسمية في هذا المجال وسأذكر بعض الاحصاءات والتي لا تعني أن أحدثها هو الأصح لأن التداول بالقديم قد يكون أقوى:

● بحسب إدارة الإحصاء المركزي في العام ٢٠٠٨م قَدَّر العدد بحوالي ٤٥ ألف طفل^(٢) وهو رقم قد نراه مبالغ فيه نسبة إلى عدد سكان لبنان المقدر بـ ٤ ملايين نسمة لكن العديد من مقالات الجرائد تستند عليه وقد تعطي أرقاماً أعلى بكثير.

أما التفاصيل فقد ذكرتها دراسة لإدارة الإحصاء نفسها في العام ٢٠٠٩^(٣) بأن نسبة عمل الأطفال من عمر ٥-١٤ سنة هي ١,٩٪ (٢,٧٪ للفتيان و٠,٩٪ للفتيات)،

الأعمال المؤذية لأجسادهم أو المخلة بالأداب والتي تؤثر على أخلاقهم أو على المشاركة في النزاعات المسلحة أو في الأنشطة غير المشروعة الأخرى.

ولقد تبني المؤتمر العالمي لعمل الأطفال الذي انعقد في لاهاي عام ٢٠١٠م خارطة طريق للقضاء على أسوأ أشكال عمل الأطفال بحلول العام ٢٠١٦ وترتبط هذه المهمة بالأهداف الإنمائية للألفية وبخاصة الحد من الفقر وتوفير التعليم للجميع.

وبخصوص عدد الأطفال العاملين في الدول العربية فإنه يقدر^(١) بحوالي ١٠ ملايين طفل (٦ ملايين صبي و٤ ملايين بنت). والمعروف أن اتفاقية العمل العربية تحدد سن الثالثة عشر كحد أدنى لسن العمل.

وبحسب هذه الاتفاقية: فإنه مع مراعاة الحد الأدنى لسن الأحداث يجوز استثناء الأعمال الزراعية غير الخطيرة وغير الضارة بالصحة مع مراعاة الضوابط التي تضعها كل دولة.

ظاهرة عمالة الأطفال في لبنان:

في لبنان انطلق العمل لمكافحة عمل الأطفال رسمياً وعلى المستوى الوطني عام

(١) ندوة عن عمل الأطفال في البلدان العربية - المجلس الأعلى للطفولة والتنمية - ديسمبر ١٩٩٣.

(٢) دراسة الفقر والنمو وتوزيع الدخل المعدة من قبل دائرة الإحصاء المركزي وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي العام ٢٠٠٨.

(٣) مسح وضع الأطفال والأمهات في لبنان للعام ٢٠٠٩ - الإحصاء المركزي.

٢٠٠٢م^(٣) فقد تحدثت عن رقم ٣١,٧١٠ طفل عامل (٨٦٪ ذكور و١٤٪ إناث)، وأعطت تفاصيل توزعهم على المحافظات نستطيع من خلاله الاستئناس بالنسب المئوية وفق الجدول الآتي:

المحافظة	عدد الأطفال العاملين	النسبة المئوية
بيروت	٢٦٦٤	٨٪
جبل لبنان	٨٣٩٩	٢٧٪
الشمال	١٠٩٠١	٣٥٪
الجنوب	٣٥٨٣	١١٪
البقاع	٤١٨٥	١٣٪
النبطية	١٩٧٨	٦٪
لبنان	٣١٧١٠	١٠٠٪

معظم الأطفال أو ما يعادل ٥٥٪ يعملون في ورش عمل صغيرة، ١٧٪ في أعمال خاصة أو لوحدهم، ١٤٪ في أعمال غير احترافية، و٩٪ في المكننة.

لكن هذه الدراسة لم تلاحظ الأطفال العاملين في زراعة التبغ وهي لوحدها تشمل ٢٥,٠٠٠ طفل في الجنوب، كما تشير الدراسة إلى أن ٩٢,٦٪ من الأطفال هم لبنانيون بينما ٣,٦٪ سوريون و٣,٨٪ من جنسيات أخرى.

● وبحسب دراسة مؤسسة البحوث والاستشارات^(٤) حول أطفال الشوارع فقد شملت مقابلات مع ٧٠٠ طفل من مجمل ما

كما ويبدأ التسرب المدرسي في لبنان بعمر مبكر^(١)، ليصبح لدينا ٢,٥٪ من الأطفال بعمر ١٠-١٤ خارج المدرسة، ثم ٢٨٪ من الأطفال بعمر ١٥-١٨. أما المنخرطون في سوق العمل فإن نسبتهم ترتفع من ٣,٠٪ بين الأطفال بعمر ١٠ سنوات إلى ٥,٤٪ لمن هم بعمر ١٤ سنة إلى ١,١٥٪ لمن هم بعمر ١٨ سنة.

يعمل الأطفال في مهن يغلب عليها الطابع الحرفي، وفي المناطق الريفية يغلب العمل الزراعي على ما عداه. لا يحظى أكثر من ٩٠٪ من الأطفال العاملين بأي ضمان صحي، علماً بأن قانون العمل اللبناني يفرض على صاحب العمل تسجيل العاملين من الأطفال بعمر ١٤ سنة وما فوق بعد ثلاثة أشهر من بدء العمل في مؤسسته.

● وتقدر مديرة المكتب السويدي^(٢) لرعاية الأطفال عدد الأطفال العاملين بنحو ٤٣,٤٠٠ طفل وهو رقم يتناسب مع دائرة الإحصاء، منهم ١٢٪ ما بين ١٠-١٣ سنة و٨٨٪ بين ١٤-١٧ سنة، كما تتوزع هذه النسب بين ٨٧,٥٪ للذكور و١٥,٥٪ للإناث.

● أما منظمة العمل الدولية في العام

(١) دراسة وضع الأطفال في لبنان - ٢٠٠٠ - الإحصاء المركزي.

(٢) ربي خوري مديرة مكتب لبنان في المنظمة السويدية لرعاية الأطفال.

(٣) عمالة الأطفال في لبنان، تقرير ٢٠٠٢، منظمة العمل الدولية، مركز البحوث والدراسات.

(٤) الأطفال المتواجدين والعاملون في الشوارع في لبنان: خصائص وحجم - إعداد مؤسسة البحوث والاستشارات - شباط ٢٠١٥.

● ومن الجدير الالتفات إلى نسب الأطفال العالية للمتسربين من المدرسة والذي يؤشر بأغلبه أنهم يتجهون نحو العمل فبحسب دراسة إدارة الإحصاء المركزي^(٢) إنَّ نحو ٤٥٪ من الأطفال يتسربون من الدراسة قبل نهاية الحلقة الدراسية الثالثة من التعليم الأساسي من دون الإنخراط في التعليم المهني، ما يعرضهم للتهميش أو العمل بأجر منخفض. وتعتبر معالجة هذه المشكلة من أهم التحديات التي يواجهها النظام التربوي في لبنان.

● بعض الدراسات تحدثت عن بعض أنواع الأعمال التي يقوم بها الأطفال، لتسليط الضوء على معاناتهم ومنها دراسة ماجستير لإحدى الطالبات^(٣) تذكر بعضاً من نتائجها:

المشكلة التي يعانون منها	عدد ساعات العمل	العمر	طبيعة العمل
أغلبهم بسبب التسرب من المدرسة وهم غير مهرة في مجال عملهم (ليست مصلحة دائمة لهم)	٦-١٢ ساعة	١٥-١٨ سنة	مهن ذات طابع حرفي
العمل يكون ضمن العائلة لكن له تأثيرات صحية على الجهاز التنفسي (تيارات هوائية باردة) ناهيك عن مخاطر البحر	٨ ساعات	غير محدد	قطاع الصيد
الاحطار الصحية (جروح وكدمات وحوادث قد تكون مميتة) بالإضافة إلى المشاكل النفسية	٩-١٣ ساعة (غير الساعات الإضافية)	١٢-١٥ سنة	مناشر الحجر (حالة عرسال والتي يعمل بها ٢٨٦ طفلاً)
العمل ضمن العائلة: المشاكل الجلدية، وتناول الطعام بأيدي ملوثة بالتبغ المضر لصحتهم طوال النهار بالإضافة إلى المشاكل النفسية.	٩-١٣ ساعة	٥-١٥ سنة	مزارع التبغ

يقارب ١,٥١٠ أطفال في عينة الدراسة التي تغطي ١٨ قضاء. ولوحظ أنَّ أغلبهم يعيشون و/أو يعملون في الشوارع في المدن لا سيما في بيروت وطرابلس. كما أظهرت الدراسة أن ثلثي الأطفال في الشوارع في لبنان هم من الفتيان، تتراوح أعمار أكثر من نصفهم بين ١٠ و ١٤ عامًا. أما عن واقعهم فهم في أغلبهم يعملون أكثر من ٦ أيام، بمتوسط عدد ساعات يتجاوز الـ ٨ ساعات/اليوم. ومن الملفت أنَّ ٣٧٪ من «أطفال الشوارع» في لبنان هم سوريون.

● وعن أعداد الأطفال الفلسطينيين العاملين في لبنان نستطيع أخذ فكرة من النسبة المئوية، وفق تقرير أعدَّ في العام ١٩٩٧م^(١) والذي قدرَّ عددهم بنحو ٨٨٨٨ ولداً عاملاً، نسبتهم حوالي (١٦,٢٢٪)، من مجموع الأطفال الفلسطينيين والبالغ عددهم ٥٦,٧٧٩ ولداً.

(١) «عمالة الأطفال الفلسطينيين في لبنان» - رفيف أحمد.

(٢) «الدراسة الوطنية حول أوضاع الطفل في لبنان»، والتي أطلقتها إدارة الإحصاء المركزي بمشاركة وزارات الصحة والتربية والشؤون الاجتماعية، وبدعم من منظمة اليونيسف.

(٣) رسالة ماجستير: حماية الأطفال من مخاطر العمل - اعداد رزان عطا الله موسى - اشراف د. سليمان الديواني ٢٠٠٩.

وطنية لمكافحة عمل الأطفال وتشمل وزارات عدة (الداخلية والبلديات - الشؤون الاجتماعية - العدل - الصحة العامة - التربية والتعليم والزراعة) بالإضافة إلى أصحاب العمل والعمال والصندوق الوطني للضمان الاجتماعي والمؤسسة الوطنية للاستخدام وأعضاء من المجتمع الأهلي في لبنان وممثلين عن وكالات الأمم المتحدة (منظمة العمل الدولية - اليونيسيف - اليونيسكو).

وقد عملت وحدة مكافحة عمل الأطفال وبالتعاون مع وزارات أخرى وجهات معنية على مشاريع عدة وشكلت لجان خاصة كما أنشأت مراكز في مناطق لبنانية عدة هدفها العمل على الحد من تواجد الأطفال في الشوارع وتحويلهم إلى مراكز رعائية.

كما تقوم الوزارة بدور تفتيشي من خلال مراقبة كيفية تطبيق قانون العمل عبر دائرة التفتيش والوقاية والصحة والسلامة المهنية، وبدور تدريبي عبر دائرة التدريب المهني، بإعداد وتدريب الأطفال العاملين الذين لا يقل عمرهم عن الرابعة عشرة. وتتم هذه الدورات في المركز الوطني للتدريب المهني، وقد بلغ عدد المتدربين للأعوام ١٩٩٨ - ٢٠٠١ م: ١٠٧٠ متدرباً(*) .

● وعن تفاصيل الدراسة حول أطفال المناشر في عرسال^(١) والتي أجريت على ٧٧ طفل من أصل ٢٨٦ طفل عامل تبين أن ٥٥٪ من المناشر المدروسة يوجد فيها أطفال يعملون بالمعدات والآلات الكهربائية الخطرة على أجسادهم على الرغم من معرفة أصحاب العمل بخطورتها وتأثير هذه الأعمال على الأطفال إلا أنهم لا يباليون لذلك، ومعظم المناشر لا وجود فيها لتأمين صحي.

ومن أهم أسباب عمل هؤلاء الأطفال التسرب المدرسي بالدرجة الأولى والوضع الاقتصادي، واقتناع الأهل بضرورة تشغيل أولادهم بعمر مبكر كما أن الأجر المرتفع في المنشأة نسبة إلى باقي الأعمال يشجع الأولاد على العمل فيها.

الواقع الحالي للوزارات المعنية

وزارة العمل

نشأت في العام ٢٠٠١ م وحدة مكافحة عمل الأطفال في الوزارة حيث بدأت بمراجعة الإطار التشريعي للتوافق بين القانون اللبناني والاتفاقيات الدولية. وساهمت الوحدة في إعداد المرسوم الوزاري الذي ينص على تشكيل لجنة

(١) رسالة ماجستير: عمالة الأطفال (دراسة حالة أطفال المناشر في عرسال) - اعداد رقية الحجيري - د. علي الموسوي - ٢٠٠٨ .

(*) معلومات صادرة عن دائرة التدريب المهني في وزارة العمل .

وزارة الداخلية والبلديات

ساعد البرنامج الدولي للقضاء على عمل الأطفال في تشكيل لجنة تعمل على مكافحة أسوأ أشكال عمل الأطفال (وخصوصاً الأطفال العاملين في الشوارع وتجارة الأطفال) في وزارة الداخلية، إضافة إلى تدريب الشخص المسؤول الذي عينته الوزارة لهذه الغاية. وقد تم إجراء مسح حول الاحتياجات الأساسية ومشكلة الأطفال العاملين في الشوارع، وتجارة الأطفال، وقد حدث ذلك في الوزارة وقام به خبراء دوليون. وبمساعدة هذا البرنامج، من المقرر:

● تدريب المحافظين في لبنان على مكافحة أسوأ أشكال عمل الأطفال، إضافة إلى كيفية تشكيل وإدارة اللجان في المحافظات لهذه الغاية.

● سحب الأطفال العاملين في الشوارع من قبل قوى الأمن الداخلي وإحالتهم إلى مخافر الشرطة في مرحلة أولى ومن ثم إلى الجمعيات المختصة بهم.

● تدريب عناصر وضباط من قوى الأمن الداخلي والدفاع المدني على كيفية التدخل مع هؤلاء الأطفال.

وزارة الشؤون الاجتماعية

من أبرز الأعمال التي تعمل عليها الوزارة:

● برامج الاستلحاق المدرسي في مراكز الخدمات الإنمائية التابعة لها.

● برامج محو الأمية للأطفال العاملين، وقد بلغ عدد الأطفال العاملين المستفيدين من هذه الدورات خلال الأعوام ١٩٩٩-٢٠٠٢ م، وفي الفئة العمرية ١٤-١٨ سنة: ٧١٠ مستفيداً. كما نفذت اللجنة الوطنية لمحو الأمية ٦ دورات تدريبية على طرق وتقنيات محو الأمية خلال الأعوام ١٩٩٩-٢٠٠٢ م.

● برامج التدريب المهني السريع. وتمتلك الوزارة مراكز خدمات إنمائية تضم عدداً من الأخصائيين الاجتماعيين المدربين على وسائل التدخل الاجتماعي، ومن أبرز خدمات هذه المراكز: التدريب المهني المعجل - محو الأمية وبرامج الدعم الأكاديمي - برامج الدعم المالي المدرسي وبرامج الدعم الاقتصادي للعائلات والأطفال المهمشين. كما شاركت الوزارة وبالتعاون مع وزارتي العمل والداخلية على انتشار عدد من الأطفال من الشوارع وإحالتهم للخدمات الملائمة.

وزارة التربية والتعليم العالي

تعمل المديرية العامة للتربية والتعليم العالي على:

- إعداد مشروع مرسوم ينظم ويحدد شروط التعليم المجاني الإلزامي للمرحلة الأساسية على أن يشمل كافة الأطفال

مركزية ووحدات فرعية في المحافظات كافة وبلغ عدد المتطوعين فيها ٤٥٠ متطوعاً، كما أصدر عدداً من نشرات التوعية للأهالي وقام بنشاطات عدة وبرامج بالتعاون مع البلديات واتحاداتها من أجل دعم حقوق الطفل وإيصال صوتهم إلى اللجان النيابية المختصة.

جمعية الصناعيين اللبنانيين

عملت الجمعية على زيادة الوعي حول المخاطر في بعض المهن على الأطفال، كما تضم جهودها إلى منظمة العمل الدولية لدعم مفهوم المسؤولية الاجتماعية للشركات في مجال حقوق الطفل وعمل الأطفال.

كما أجرت الجمعية مسحاً سريعاً حول الأطفال العاملين في لبنان في قطاعات الملابس والأحذية في أحزمة الفقر الموجودة في بيروت، وبناءً عليه ستضع برنامجاً لبناء القدرات يشمل أصحاب العمل الذين يتم اختيارهم من القطاعات أنفة الذكر، إضافة إلى برنامج لدعم مكافحة عمل الأطفال في القطاع المختار.

الخطة الوطنية للقضاء على أسوأ أشكال عمل الأطفال

أطلق رئيس الجمهورية السابق «ميشال سليمان»: «خطة العمل الوطنية للقضاء على أسوأ أشكال عمل الأطفال في لبنان بحلول

الموجودين في لبنان بمن فيهم مكتومي القيد أو الذين جنسيتهم قيد الدرس، ويتم التعاون مع وزارة الداخلية والبلديات لتزويدهم باللوائح سنوياً عن أسماء القاصرين بهدف التثبت من دخولهم المدارس.

- إعداد برامج تربية مكثفة للحد من التسرب ومساعدة ذوي الصعوبات التعليمية.
- المعالجة الوقائية، عبر تطوير المناهج وتحديث طرائق التدريس، معالجة الرسوب والتأخر المدرسي.

- إعداد برامج التدريب المهني السريع بالتعاون مع البنك الدولي ومنظمة اليونيسيف.

ومن الجدير ذكره أنّ الوزارة قد أنشأت مركزاً للأطفال العاملين في محافظة النبطية (جنوب لبنان)، تعمل مع المنظمات غير الحكومية المحلية على تلبية احتياجات الأطفال العاملين وعائلاتهم وأقاربهم، إضافة إلى توعية المجتمع المحلي على القضايا الخاصة بعمل الأطفال. كما تم تدريب العاملين في المركز والمنسقين من المنظمات غير الحكومية على تنمية مهارات التنسيق والتعاون لإدارة المشروع بشكل جيد.

الاتحاد العمالي العام

ويعتبر الشريك الأساسي لوزارة العمل في مكافحة عمل الأطفال حيث شكل وحدة

العام ٢٠١٦ م» التزاماً بالقرار الذي اتخذ في المؤتمر العالمي عن عمل الأطفال الذي عقد في لاهاي عام ٢٠١٠ م والذي شاركت فيه ٩٧ دولة ومنها لبنان.

فكان أن أطلق وزير العمل السابق «سليم جريصاتي» شعار «معاً من أجل مجتمع خال من أسوأ أشكال عمل الأطفال»، وتتمحور الخطة الوطنية حول أحد عشر محوراً استراتيجياً كان من المؤمل أن يؤدي تنفيذها مجتمعة بشكل صحيح إلى القضاء على أسوأ أشكال عمل الأطفال في لبنان، مع نهاية العام ٢٠١٦ م.

وهذه المحاور الاستراتيجية هي:

١ - الإطار القانوني

٢ - التعليم الإلزامي والمجاني

٣ - الإدماج في نظام التعليم

٤ - الفرص الاقتصادية للأهل الذين تم

انتشال أطفالهم من أسوأ أشكال العمل

٥ - بناء القدرات

٦ - مراكز خدمات التنمية

٧ - السلطات المحلية

٨ - المجتمع المحلي والقادة

المجتمعيون

٩ - الوقاية

١٠ - الانتشال

١١ - إعادة التأهيل

● البرنامج الدولي للقضاء على عمل الأطفال في لبنان (ايبك) التابع لمنظمة العمل الدولية

تم توقيع مذكرة تفاهم بين الحكومة اللبنانية والبرنامج الدولي للقضاء على عمل الأطفال في حزيران ٢٠٠٠ م، وتضمن البرنامج تنفيذ مشاريع نموذجية مع جهات مختلفة في لبنان، بعضها حكومي والبعض الآخر غير حكومي، وهي:

- إنشاء وحدة لمكافحة عمل الأطفال في وزارة العمل وتعزيز دور الوزارة في تنسيق النشاطات كافة ومنها تأهيل مفتشي العمل في الوزارة ليتمكنوا من التعامل مع مشكلة عمالة الأطفال.

- مشروع وزارة التربية والتعليم العالي لتحسين الوضع الدراسي للأطفال العاملين الملتحقين بالمدارس في آن واحد ولمنعهم من التسرب المدرسي.

- إنشاء لجان على مستوى المحافظات لمكافحة عمل الأطفال في لبنان ومنها لجنة في محافظة النبطية عملت على مساعدة أكثر من ١٠٠٠ طفل بالتعاون مع وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وارتكز على انشاء مركز متخصص للوقاية وحماية الأطفال وتأمين حقوقهم، وتأهيل العاملين منهم اجتماعياً وتربوياً بالإضافة إلى عائلاتهم وأقاربهم، وإلى توعية المجتمع المحلي على القضايا الخاصة بعمل الأطفال.

كما تم تم تدريب العاملين في المركز والمنسقين من المنظمات غير الحكومية على تنمية مهارات التنسيق والتعاون لإدارة المشروع بشكل جيد.

- مشروع وزارة الداخلية لمكافحة ظاهرة الأطفال العاملين في الشوارع ٢٠٠٢م.

- مشروع جمعية الصناعيين اللبنانيين: ويتضمن إعداد دراسات وإقامة ندوات توعية حول المخاطر التي يواجهها الأطفال في العمل...

- مشروع الوقاية وإعادة تأهيل الأطفال العاملين والمعرضين للعمل بأسوأ أشكاله حيث تم العمل على نموذج في سنّ الفيل وبرج حمود والنبعة عام ٢٠٠١م واستهدف ١٥٠٠ طفل عامل، تدريب ٢٠ باحثة اجتماعية، برامج توجيه وتدريب مهني، إيجاد فرص عمل لعائلات الأطفال العاملين...

- عام ٢٠٠٣ م تم افتتاح مركز جديد للحد من عمل الأطفال في مدينة طرابلس/ شمال لبنان. بالإضافة إلى مشاريع أخرى لمكافحة عمل الأطفال تمت بالتعاون مع الاتحاد العمالي العام، في مناطق باب التبانة (الشمال) وعين الحلوة (الجنوب).

وحدة مكافحة عمل الأطفال

هي وحدة متخصصة في وزارة العمل تأسست في تشرين الأول سنة ٢٠٠١م

بالتعاون مع IPEC معنية بمكافحة عمل الأطفال والقضاء عليه تدريجياً وبنشر الوعي بالمخاطر الناجمة عن هذا العمل.

كذلك تنسيق الجهود مع مختلف الإدارات الحكومية وهيئات المجتمع المدني والمنظمات الإقليمية والدولية

- أسباب إنشاء الوحدة حجم مشكلة عمل الأطفال وتأثيرها السلبي المباشر على الطفل خاصة والمجتمع عامة.

الهدف العام: نشر الوعي عن أعمال الأطفال الخطرة وتنسيق الجهود بن مختلف الإدارات الحكومية، الهيئات المدنية والاجتماعية، المنظمات الإقليمية والدولية.

● **أهداف الوحدة:** القضاء على عمل واستخدام الأطفال تدريجياً من خلال:

- ١ - نشر الوعي بمشكلة عمل الأطفال.
- ٢ - التعريف بالاتفاقات الدولية والعربية بعمل الأطفال.
- ٣ - المساهمة في تطوير التشريعات الوطنية المتعلقة بعمل الأطفال وتوحيدها وتصنيفها.
- ٤ - المساهمة في تطوير الاستراتيجيات وخطط العمل الوطنية في مجال القضاء على عمل الأطفال.

مجالات العمل

- المساهمة في تطوير التشريعات المتعلقة بعمل الأطفال
- تحديد أسوأ اشكال عمل الأطفال

- العمل على إشراك المجتمع المحلي في برامج تنموية تهدف إلى مكافحة عمل الأطفال

نشر الوعي بالمخاطر الناجمة عن عمل الأطفال

- التعريف بحقوق الطفل مع التأكيد على كل طفل في التعليم الإلزامي والمجاني. - تلقي الشكاوى ومراجعات المواطنين بشأن مخالفة الاحكام التشريعية المتعلقة بعمل الأطفال.

إنشاء قاعدة بيانات متعلقة بمشكلة عمل الأطفال.

- إنشاء مكتبة خاصة بعمل الأطفال.

- إنشاء موقع الكتروني (Web Site) على شبكة الإنترنت يتعلق بمشكلة عمل الأطفال

العمل على تطوير برامج التدريب المهني للأطفال العاملين

- تنظيم دورات تدريبية متخصصة للمعنيين بمشكلة عمل الأطفال

✓ قريباً سيصدر عن هذه الوحدة الملف الرسمي الذي يتضمن الخطط الوطنية والاستراتيجيات وهي بانتظار إقرارها من وزير العمل.

التدابير التشريعية والاتفاقيات الدولية والعربية التي صادق عليها لبنان والخاصة بعمل الأطفال

- اتفاقية العمل الدولية رقم

١٨٢ والتوصية رقم ١٩٠ الملحق بها تاريخ ٢/٨/٢٠٠١م، التي تحظر أسوأ أشكال عمل الأطفال وتعتبره انتهاكاً جسيماً لحقوق الطفل وخرقاً فاضحاً للكرامة المتأصلة في الإنسان.

- اتفاقية العمل الدولية رقم ١٣٨، تاريخ ٥/٦/٢٠٠٢م، المتعلقة بتحديد الحد الأدنى لسن الاستخدام وهو سن إتمام التعليم الإلزامي والذي اعتبرت أنه لايجوز أن يقل عن الخامسة عشرة، كما منع تشغيل الأطفال حتى سن الثامنة عشرة في الأعمال التي يحتمل أن تعرض للخطر صحة أو سلامة أو أخلاق الأحداث بسبب طبيعتها أو الظروف التي تؤدي فيها.

تهدف هذه الاتفاقية على المدى البعيد إلى القضاء الكامل على عمل الأطفال.

- اتفاقية الأمم المتحدة الخاصة بحقوق الطفل في أيار من عام ١٩٩١م.

تنص الوثيقة الصادرة عن مؤتمر حقوق الطفل، باتفاق وإجماع ١٩١ دولة من جميع أرجاء العالم في المادة ٣٢ من إتفاقية حقوق الطفل على أن: «كل طفل يملك الحق في أن يكون» محمياً من الاستغلال الاقتصادي ومن تأدية والقيام بأي عمل من الممكن أن يكون مؤذياً له أو يعرضه لمخاطر جسيمة أو يتدخل في تعلمه ودراسته، أو يضر بصحة أو تطور الطفل الجسمي والعقلي والروحي والمعنوي

والنّفسي أو الاجتماعي. وهذا ينطبق بالضرورة على كل طفل في سن السابعة عشرة أو أقل، ويحميه من أي شكل من أشكال العمل.

– اتفاقية العمل العربية رقم ١ ورقم ١٨، تاريخ ٢٤/٥/٢٠٠٠ م. تتعلق الأولى بتحديد ظروف عمل الحدث الذي لم يبلغ الثانية عشرة من العمر، وتتعلق الثانية بعمل الأحداث التي تناولتها اتفاقيات العمل الدولية لجهة تعريف الحدث، وتحديد الأعمال الصناعية حسب العمر وعدم تعارض عمل الأحداث مع التعليم الإلزامي... بعض بنود إتفاقية العمل الدولية والمتعلقة بمخاطر بعض الأعمال: مثل الرقم ١٣٦ المتعلق بالوقاية من مخاطر التسمم الناتج عن البنزين.

على صعيد التشريعات اللبنانية

ميّز قانون العمل اللبناني بين الأولاد والأحداث، إذ عرّف بالأولاد الأطفال الذين لم يبلغوا الثالثة عشر من العمر، وحظر استخدامهم قبل إكمالهم تمام سن الـ ١٣، أما الأحداث وهم الذين تجاوزوا الثالثة عشر ولم يبلغوا الستة عشر فقد اشترط إخضاعهم لفحص طبي قبل استخدامهم، وحظر تشغيلهم في بعض الأعمال المبيّنة ضمن ملاحق، كما منع استخدامهم لأكثر من سبع ساعات يومياً يتخللها ساعة

للراحة على الأقل، ومنع تشغيلهم أيضاً بين السابعة ليلاً والسابعة صباحاً ومنح الأحداث فترة راحة لا تقل عن ١٣ ساعة متعاقبة بين كل فترتي عمل.

ومن أهم القوانين التي نظمت عمل الأحداث المرسوم رقم ٨٩٨٧ الصادر عام ٢٠١٢ م، والذي ينص على تحظير استخدام الأحداث قبل بلوغهم سن الثامنة عشر في الأعمال التي تشكّل خطراً على صحتهم أو سلامتهم أو سلوكهم الأخلاقي. – ويشترط المرسوم استخدام الأحداث الذين تجاوزوا سن السادسة عشرة في أعمال محددة بأن يكونوا قد تلقوا تعليماً خاصاً أو تدريباً مهنيّاً ملائماً في الميدان الذي سيعملون فيه.

– يتضمن ملحقات المرسوم لوائح بأسوأ أشكال عمل الأطفال والمحظورة كلياً لمن هم دون الثامنة عشرة، وهي التي تشكل مخاطر جسدية أو نفسية، أو أخلاقية أو تحدّ من تحصيله التربوي.

– القائمة أوردت عمل الأطفال في الشوارع على رأس لائحة الأعمال الأكثر خطورة، فيما تضمنت قطاعات عمل مثل: ميكانيك السيارات، والنجارة، واللحام، وتعبئة اسطوانات الغاز وغيرها. كذلك فإنّ الأطفال العاملين يوجدون في مواقع صناعية تفتقر إلى البنية التحتية الملائمة،

ويستخدمون مواد متفجرة وقابلة للاشتعال ومواد ضارة أو خطيرة في كثير من المصالح.

وبالمقارنة بين القانون الدولي والقانون اللبناني لجهة التشريعات نذكر بعض الفروقات على سبيل المثال لا الحصر:

التشريعات اللبنانية	اتفاقية العمل الدولية ١٨٢
المادة ٢ - « مفهوم الطفل . . . »	المادة ٢ - « مفهوم الطفل . . . »
المادة ٣ - « أسوأ أشكال عمل الأطفال . . . »	المادة ٣ - « أسوأ أشكال عمل الأطفال . . . »
مادة ٦/٢ - « ينبغي تعميم برامج عمل . . . »	مادة ٦/٢ - « ينبغي تعميم برامج عمل . . . »
مادة ١/٧ - « . . . تطبيق وإنفاذ الأحكام . . . على عقوبات جزائية . . . »	مادة ١/٧ - « . . . تطبيق وإنفاذ الأحكام . . . على عقوبات جزائية . . . »
مادة ٧/٢ وبنودها المتعلقة بضمن حصول الأطفال المنتسبين على التعليم والتدريب المهني . . . »	مادة ٧/٢ وبنودها المتعلقة بضمن حصول الأطفال المنتسبين على التعليم والتدريب المهني . . . »

الفرص المتاحة في لبنان للقضاء على عمالة الأطفال

نظراً للاهتمام العالمي بموضوع عمالة الأطفال فإنّ له حيزاً كبيراً من الاهتمام لدى العديد من الجهات المانحة والمنظمات الدولية والتي تموّل الكثير من المشاريع

والبرامج التي تتقاطع مع أهداف الألفية للتنمية وعالم صالح للأطفال منها:

أ - البنك الدولي:

- مشروع تطوير التعليم

يعمل على دعم مساعي الحكومة لتعزيز قدرات وزارة التربية لإدارة قطاع التعليم وإعادة المصادقية إلى التعليم الرسمي.

- مشروع تنمية المجتمعات المحلية:

يعمل على إنشاء أداة فاعلة ومستدامة لتحسين الأوضاع المعيشية والاقتصادية في المناطق اللبنانية التي تعاني من أوضاع اجتماعية صعبة وذلك من خلال تأمين فرص للفئات المهمشة في الحصول على الخدمات الاجتماعية والاقتصادية الأساسية من تربية وصحية وبيئية.

إن مجلس الإنماء والإعمار هو الجهة المناط بها تنفيذ هذا المشروع علماً أن آلية التنفيذ هي من مسؤولية جمعيات أهلية غير حكومية في الأراضي اللبنانية كافة.

- برنامج الهبات الصغيرة:

يعمل البنك الدولي على برنامج هبات صغيرة لجمعيات غير حكومية لتنفيذ مشاريع تهدف إلى تمكين فئات مهمشة في المجتمع من المشاركة المدنية، إن عدداً من المشاريع التي تم تمويلها حتى الآن في إطار هذا البرنامج قد تناول بشكل أو بآخر جوانب مختلفة من وضع الأطفال والشباب في لبنان.

ب - منظمة اليونيسكو:

تساهم اليونيسكو في تمويل العديد من المشاريع والخطط منها خطة التعليم للجميع، برامج رعاية وتنمية الطفولة المبكرة، برامج دمج الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة.

ج - غوث الأطفال السويدي:

تساهم مع المجلس الأعلى للطفولة في تمويل برامج حول العنف على الأطفال وبرامج الطفولة المبكرة وبرامج تدريب على حقوق الطفل.

د - مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة:

فقد بلغت مساهمة مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة لدعم القدرات المؤسسية والتشريعية في حقل عدالة الأحداث ما بين الأعوام ٢٠٠٢ و ٢٠٠٦ م حوالي ٥٠٠ الف \$^(١).

هـ - منظمة العمل الدولية/IPEC

بلغ مجموع مساهمة منظمة العمل الدولية/IPEC في ميزانية وزارة العمل لبرامج عمل الأطفال من العام ٢٠٠١ م حتى العام ٢٠٠٤: حوالي ٤٠,٥٠٠ \$ بينما مساهمة وزارة العمل في موازنة برامج عمل الأطفال للفترة ذاتها هي ١٦,٥٠٠ \$.

أما في العام ٢٠٠٦ م فبلغ مجموع موازنة منظمة العمل الدولية للمرحلة الثانية لمشروع تعزيز قدرة وزارة العمل للقضاء على عمل الأطفال من خلال البرنامج الدولي للقضاء على عمل الأطفال حوالي ١٠٠,٠٠٠ \$. أما مساهمة وزارة العمل في المرحلة الثانية من البرنامج الدولي للقضاء على عمل الأطفال فتبلغ قيمتها ٤٥٠,١٦٥ \$ بدءاً من نيسان ٢٠٠٦ م حتى آذار ٢٠٠٨^(٢).

و - جهات أخرى:

قدمت العديد من المنظمات الدولية موارد اضافية خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م، حيث دعمت كل من السوق الأوروبية المشتركة ومنظمة اليونيسف البرنامج الوطني للدعم النفسي والاجتماعي للأطفال وعائلاتهم.

التحديات التي يواجهها لبنان لمعالجة مشكلة عمالة الأطفال:

بعد الإطلاع على تجارب العديد من الدول حتى المستقرة نوعاً ما والتي لا يزال الأطفال يعانون فيها من مشكلة الاستغلال والعمالة السيئة، وبعد مصادقة أغلب الدول على الاتفاقيات الدولية المتعلقة بسبل

(١) الميزانية الوطنية المخصصة للأطفال حسب القطاعات.

(٢) وضع الأطفال في لبنان إنطلاقاً من أهداف الألفية وعالم صالح للأطفال - المجلس الاعلى للطفولة - وزارة الشؤون الاجتماعية - ٢٠٠٨.

٥ - قلة الفرص الاقتصادية المتاحة في لبنان للنهوض بأوضاع الأسر الفقيرة وبالتالي انتفاء الحاجة من تشغيل أبنائهم.

٦ - عدم المصداقية عند تنفيذ المشاريع المحصلة من الجهات المانحة حيث تذهب بأموالها لاتجاهات أخرى ولا تصب مباشرة لخدمة الأطفال أنفسهم.

● المقترحات والتوصيات

▷ التدخل العام على الصعيد الوطني

١ - مشاركة الجمعيات الأهلية في أعمال اللجنة الوطنية لمكافحة أسوأ عمل للأطفال وباقي اللجان في الوزارات الأخرى لمواكبة استحداث القوانين ولتصويب التعديلات المطلوبة على بعض القوانين والمساهمة في تطبيقها لأنها أقرب إلى المجتمعات وأقدر على تحديد المشكلات.

٢ - على الصعيد التعليمي، الحث على تطبيق القوانين المتعلقة بمجانية وإلزامية التعليم وتحسين جودة الخدمات التي تقدمها المدارس الرسمية لتخفيف التسرب كما دمج الأطفال المنتشليين من أسوأ أشكال عمل الأطفال في نظام التعليم.

٣ - نشر الوعي المجتمعي والأسري على وسائل الإعلام للتوجيه والإرشاد حول أهمية استمرارية الأسر بتعليم أبنائها حتى إكمال المراحل الأساسية.

٤ - توجيه الدراسات البحثية عن

معالجة عمالة الأطفال وحث البلدان الموقعة على تحديد أسقف زمنية للتخلص من هذه الآفة الاجتماعية، انضم لبنان إلى الموكب العالمي وبدأ باعداد خطط وحدد مهل زمنية كان آخرها تحديد عام ٢٠١٦ م للقضاء على أسوأ أشكال العمالة، لكن التحديات التي تواجهنا في بلدنا كبيرة ومن أهمها:

١ - مشكلة الأطفال السوريين العاملين والمنتشرين في الشوارع في ظلّ تزايد أعداد النازحين.

٢ - وجود المخيمات الفلسطينية: لناحية الأطفال الفلسطينيين العاملين من ناحية أو لكونه مكاناً يأوي إليه من يودّ الهروب من ملاحقة القانون حيث ينتشرون في أماكن العمل أو في الشوارع ويختبئون داخل المخيم حين وجود المداهمات.

٣ - تطبيق القوانين التي أقرتها الحكومة اللبنانية بشأن حقوق الطفل عامة وعماله الأطفال خاصة، وتعديلها لتصبح مجدية خاصة لجهة الغرامات الرادعة وكون مؤسسات الدولة تفتقد للفرق المدربة والمطلوبة لضمان التطبيق على الأرض.

٤ - الثقافة السائدة في المجتمع وغير المشجعة لأهمية متابعة التحصيل الدراسي وخاصة في القرى والمناطق النائية والنظرة الدونية للتعليم المهني الذي قد يكون الحلّ مقابل التسرب من المدرسة.

الموضوع لتعطي بعداً عملياً بعيداً عن التنظير الوصفي والذي قد لا يتوجه لمعالجة المشكلة.

٥ - العمل مع البلديات لدعم وجود مرشدين اجتماعيين في المدارس الرسمية للتدخل في الوقت المناسب مع الأطفال ومعالجة مشاكلهم الدراسية والنفسية ومتابعة أوضاعهم الاجتماعية كالوقاية من توجيههم إلى سوق العمل باكراً.

٦ - السعي لحصول أهالي الأطفال على فرص عمل لائقة ومناسبة تمكنهم من تحسين وضعهم الاقتصادي لتخفيف العبء عن كاهل الطفل العامل وسط أسرته.

برنامج للتدخل الخاص والذي يركز على:

١ - إعطاء الأولوية للمناطق التي تكثر فيها التجمعات الصناعية كالمدن في المناطق والضواحي.

٢ - إعطاء الأولوية لانقاذ الأطفال العاملين في بعض الميادين الخطرة (أسوأ أشكال عمل الأطفال): أعمال الميكانيك، حداة السيارات، أعمال الدهان وإصلاح وتركيب الآلات، النجارة، زراعة التبغ.....)

٣ - العمل على برامج للوقاية من حدوث حالات عمل الأطفال في المجتمع:

أ - برامج توعوية لأهل وطلاب المدارس وخاصة الرسمية منها على

أهمية التعلم وعدم ترك المدرسة وذلك عبر عرض أفلام هادفة وورش عمل، والتوجيه نحو التعليم المهني في حال الرغبة أو الحاجة للانخراط السريع في سوق العمل.

ب - الوقاية من ظاهرة التسرب المدرسي: وذلك بإقامة برامج داعمة لذوي الصعوبات التعليمية منعاً لهروبهم إلى سوق العمل.

ت - نشرات وبرامج على وسائل الإعلام لتوعية أصحاب العمل على القوانين والتحذير من استخدام الأطفال كما تجدر الإشارة إلى الأشغال الممنوعة على الشباب دون سن ١٨ ولفت النظر إلى العقوبات القانونية المترتبة عليها.

ث - التوعية الدينية عبر خطباء المساجد والكنائس: لنشر الوعي باتجاه حقوق الطفل في الإسلام والمسيحية، والمسؤوليات المترتبة على الأهل والمجتمع لناحية تعزيز التكافل الاجتماعي.

٤ - انتشار الأطفال من العمل:

حث البلديات على تدريب عناصر شرطة تكوّن من مهماتهم الرصد في مكان العمل من أجل تحديد ظروف العمل على الأطفال ومدى خطورته على صحتهم وسلوكهم وإصدار بلاغات بحقهم وبحق أصحاب العمل الذين يعملون لديهم، مع الإشارة إلى أنّ التدريب يتضمن كيفية التعامل مع هؤلاء

الأطفال وعدم أذيتهم بشيء لأنهم ضحايا محيطهم.

٥ - إعادة التأهيل:

أ - تخصيص لجنة في كل بلدية تكون مهمتها دراسة الحالات التي تصلها ببلاغات الشرطة من الجوانب كافة: الاجتماعية - الوضع الاقتصادي للأسرة - السيرة التعليمية للطفل مع مدرسته،..... ومن ثم المتابعة مع الوزارات المختصة لحل مشكلته.

ب - بعد دراسة الحالة التدخل مع الطفل ومع الأهل والمدرسة: السعي لإرجاع الطفل إلى مدرسته أو مدرسة أخرى، أو إلحاقه بإحدى المهنيات لمتابعة اختصاص ما. وإن تعذر ذلك وكان بعمر فوق الـ ١٥ سنة إلحاقه بدورات التدريب المهني المعجل التي تؤهله ليصبح متمكناً من المهارات المطلوبة في الاختصاص الذي يستهويه.

ت - تطوير قدرات الأطفال العاملين عبر دورات مهنية معجلة بغية تحضيرهم للانخراط في سوق العمل «الرسمي» فبمرحلة لاحقة.

إن هذه الدراسة لا يمكن أن تغطي حجم مشكلة عمالة الأطفال على النحو الذي تؤمنه عادة البحوث والدراسات الشاملة، لكنها قد تكون نواة أولية لدراسة أشمل من قبل أخصائيين أو أن تشكل حافزاً لزيادة اهتمام المعنيين بهذه القضية.

المراجع والملحقات

- اتفاقية حقوق الطفل - الجمعية العامة للأمم المتحدة - ١٩٩٠.
- الاتفاقية العربية رقم ١٨ بشأن عمل الأحداث - منظمة العمل العربية - ١٩٩٦.
- اتفاقية العمل الدولية - ١٩٨٨.
- اتفاقية العمل الدولية - رقم ١٨٢.
- قانون العمل اللبناني.
- حقوق الطفل في القانون اللبناني.
- المرسوم رقم ٥١٣٧ تاريخ ١ تشرين الأول ٢٠١٠ حول تشكيل لجنة وطنية لمكافحة عمل الأطفال في لبنان - وزارة العمل.
- المرسوم رقم ١١٠١٩ حول تنظيم عقد التدريب في المؤسسات التجارية أو الصناعية أو الحرفية أو المهنية.
- المرسوم رقم ٨٩٨٧ تاريخ ٢٩ أيلول ٢٠١٢ حول: تحذير استخدام الأحداث قبل بلوغهم سن الثامنة عشرة في الأعمال التي تشكل خطراً على صحتهم أو سلامتهم أو سلوكهم الأخلاقي.
- «عمل الأطفال في لبنان، الوضع الراهن وتوصيات عامة لسياسة وطنية «بيروت، ٢٠٠٢ - منظمة العمل الدولية، مؤسسة البحوث والاستشارات.
- «عمل الأطفال في لبنان»، بيروت، ٢٠٠٢ - وزارة الشؤون الاجتماعية، منظمة اليونيسف.
- الأطفال المتواجدين والعاملون في الشوارع - وزارة العمل - منظمة العمل الدولية - شباط ٢٠١٥.
- تقرير عن التقدم المحرز حول أوضاع الأطفال في لبنان ٢٠٠٣-٢٠٠٦ - وزارة الشؤون الاجتماعية.
- البرنامج الدولي للقضاء على عمل الأطفال في لبنان - وزارة العمل - منظمة العمل الدولية - ٢٠١٣.
- خطة العمل الوطنية للقضاء على أسوأ أشكال عمل الأطفال في لبنان بحلول العام ٢٠١٦ - وزارة العمل - منظمة العمل الدولية - ٢٠١٣.
- الحق في الحماية من عمل الأطفال في لبنان - وزارة الشؤون الاجتماعية - المجلس الأعلى للطفولة.
- مسح وضع الأطفال والأمهات في لبنان للعام ٢٠٠٩

- التقرير النهائي - ادارة الاحصاء المركزي بالتعاون مع اليونيسيف .
- وضع الأطفال في لبنان إنطلاقاً من أهداف الألفية وعالم صالح للأطفال - المجلس الاعلى للطفولة - وزارة الشؤون الاجتماعية - ٢٠٠٨ .
- الدراسة الوطنية للأحوال المعيشية للأسر - عام ٢٠٠٤ - وزارة الشؤون الاجتماعية - ادارة الاحصاء المركزي (صادر عام ٢٠٠٧). البحث الاجتماعي السريع «بيروت وضواحيها» - ٢٠٠٥ - مجلس الانماء والاعمار بتمويل من البنك الدولي .
- البحث الاجتماعي السريع «بعلبك - الهرمل» - ٢٠٠٥ - مجلس الانماء والاعمار بتمويل من البنك الدولي .
- نحو تطبيق الزامية التعليم على الأولاد غير الملتحقين بالمدرسة «عمر ٦-١٥ سنة» - المركز التربوي للبحوث والانماء - ٢٠١١ .
- سوق العمل في لبنان، Statistics In Focus، إدارة الاحصاء المركزي، لبنان، العدد رقم ١، تشرين الأول - ٢٠١١ .
- الأطفال في لبنان - إدارة الاحصاء المركزي، لبنان، العدد رقم ٤، أيلول ٢٠١٣ .
- قائمة الجداول الاحصائية - ادارة الاحصاء المركزي .
- خطة الأمم المتحدة للتنمية ٢٠١٢-٢٠١٥ .
- تقرير اللجنة الجامعة المخصصة للدورة الاستثنائية السابعة والعشرين للجمعية العامة - الأمم المتحدة - ٢٠٠٢ «عالم جدير بالأطفال» .
- وضع حد لعمل الأطفال : هدفني المتناول - منظمة العمل الدولية - ٢٠٠٦ .
- Child_Labour_Paper_No.1_FINAL_162.
- تجربة المجلس العربي للطفولة والتنمية في مجال مكافحة عمل الأطفال في الدول العربية - نيسان ٢٠١٣ .
- التقرير العربي المقارن لمدى إعمال توصيات دراسة الأمين العام للأمم المتحدة لوقف العنف ضد الأطفال - المغرب - ٢٠١٠ .
- الإطار الوطني لمكافحة عمل الأطفال - المجلس الوطني لشؤون الأسرة - الأردن - ٢٠١١ .
- رسالة ماجستير: حماية الأطفال من مخاطر العمل - اعداد رزان عطا الله موسى - اشراف د. سليمان الديراني ٢٠٠٩ .
- رسالة ماجستير: عمالة الأطفال العاملين في أحياء الضاحية الجنوبية - اعداد مايا حمودي - د. علي الموسوي - ٢٠١١ .
- رسالة ماجستير: عمالة الأطفال (دراسة حالة أطفال المناشر في عرسال) - اعداد رقية الحجيري - د. علي الموسوي - ٢٠٠٨ .
- رسالة ماجستير: عمالة الأطفال في بيروت - اعداد ليليانا صالحه - د. عصام غرلي - ٢٠٠٤ .

النزوح عبر سلسلة جبال لبنان الغربية وأثره في التوزيع الجغرافي للسكان غرب محافظة بعلبك الهرمل

د. صلاح عصام أبو شقرا^(١)

السكان عموماً في المجال السهلي من المحافظة، الذي يشمل الطريق الدولي العابر لمدن زحلة، بعلبك، وحمص السورية، أو بالقرب من الينابيع، على السفوح الدنيا، القريبة نسبياً من المجال السهلي. أما المجال الجردني المرتفع، الذي كان مأهولاً بالسكان في الحقب الماضية، بات منطقة طاردة، وهو اليوم شبه خال من السكان باستثناء مواسم محددة.

تنحصر الدراسة بالجزء الغربي من المحافظة، من الطريق الدولي صعوداً حتى السفوح الشرقية المرتفعة لسلسلة جبال

المقدمة

باتت منطقة بعلبك الهرمل محافظة مؤلفة من قضاءي بعلبك والهرمل، منذ العام ٢٠٠٣^(٢)، تبلغ مساحتها ٣٠٠٩ كيلومتراً مربعاً، وتتوزع جغرافياً على ثلاثة مجالات، السهلي، السفوح الدنيا Piedmont، والجردي في السفوح المرتفعة.

قدر عدد السكان المسجلين في المحافظة سنة ٢٠٠٤ م بنحو ٣٦٥,٥١٢ نسمة^(٣)، أي بكثافة سكانية ١٢١,٤ نسمة في الكيلومتر المربع، وهي الأدنى على مستوى المحافظات اللبنانية^(٤). يتركز

(١) استاذ مساعد، في قسم الجغرافيا في الجامعة اللبنانية.

(٢) بموجب القانون ٥٢٢ الصادر عن مجلس النواب اللبناني في ١٦ تموز ٢٠٠٣.

(٣) وزارة الداخلية والبلديات.

(٤) هذه الكثافة السكانية مبنية على المعطيات الرسمية للمسجلين في نفوس قضاءي بعلبك والهرمل، إنما المقيمين منهم في هذين القضاءين أقل بكثير، بسبب النزوح بأعداد كبيرة إلى الساحل عموماً، وتحديداً إلى الضاحية الجنوبية لبيروت. وعندها تصبح الكثافة السكانية أقل من ١٠٠ نسمة في الكيلومتر المربع الواحد.

لبنان الغربية، التي كانت محطة للوافدين من السفوح الغربية. ثم شهدت في فترات زمنية لاحقة نزوحاً تدريجياً باتجاه السفوح الدنيا والمجال السهلي، نتج عنه نشوء بلدات وقرى جديدة. كما تغيرت إثر تلك الحركات المجالية للسكان مورفولوجية بعض البلدات، الموجودة من قبل، وباتت أقرب إلى المدينة من حيث البنية.

تهدف الدراسة إلى التنقيب عن الأصول الجغرافية لسكان المنطقة الجردية في محافظة بعلبك الهرمل، إضافة إلى البحث عن أسباب تمركز السكان في النطاق الطارد للسكان، فضلاً عن تتبع الممرات الجبلية التي سلكتها موجات النازحين. ثم معالجة الظروف الطبيعية والبشرية التي أدت إلى تخليهم عن ذلك المجال، وتوجههم نزولاً إلى المجالين الأكثر اعتدالاً، وأثر تلك الحركات السكانية في نشوء قرى وبلدات جديدة في المجال السهلي، ولا سيما الطريق الدولي بين زحلة وحمص.

انحصرت الدراسات السابقة عن الحركات السكانية بين سفحي سلسلة جبال لبنان الغربية في مجالي التاريخ وعلم الاجتماع. على الصعيد التاريخي، تركزت الدراسات على الصراعات الطائفية والمذهبية في جبل لبنان، وقد تناولت الحركات السكانية بصورة عرضية، ولا

سيما في إطار تتبع المسار الزمني للنزوح من محافظتي جبل لبنان والشمال باتجاه بعلبك الهرمل، من دون التركيز على أثره في تشكل البلدات والقرى في بعلبك الهرمل. أما على صعيد علم الاجتماع، فقد تمحورت الدراسات على البنية العشائرية والعائلية لسكان بعلبك الهرمل، إضافة إلى العادات والتقاليد، وهي كذلك تأتي عرضاً على أصول تلك العشائر وكيفية وصولها إلى بلداتها وقراها الحالية.

وعلى الرغم من أهمية هذين المجالين، تأتي أهمية هذا البحث على أنه أول محاولة جغرافية لدراسة أصول السكان في غرب بعلبك الهرمل، وكذلك أول دراسة تهدف إلى معالجة أسباب ونتائج النزوح بين سفحي سلسلة جبال لبنان الغربية، وكيفية تكوّن القرى والبلدات الجردية، إضافة إلى النزوح من تلك البلدات الجردية إلى السهل، وربطها بالعوامل الجغرافية.

إشكالية الدراسة :

- تحديد الأصول الجغرافية لسكان غرب بعلبك الهرمل.

- معالجة الأسباب التي دفعت بسكان المنطقة الأوائل، على اختيار المجال الجردية، أي السفوح الأكثر وعورة، والأكثر جفافاً في منطقة بعلبك الهرمل، مقرأً دائماً لهم، قادمين من بلدات وقرى على السفوح

الغربية للسلسلة الغربية غنية بالمياه، وخصبة التربة.

- تفسير العوامل التي أدت إلى النزوح من المجال الجردى باتجاه السفوح الدنيا والمجال السهلي، وتشكل بلدات وقرى جديدة في تلك المنطقة.

فرضيات البحث:

- إن الأصول الجغرافية لسكان المجال الجردى من محافظة بعلبك الهرمل هي القرى والبلدات الواقعة على السفوح الغربية للسلسلة الغربية، وتحديداً من أفضية الضنية، بشري، البترون، وعلى نطاق أوسع من قضاء جبيل وكسروان.

- النزوح عبر السلسلة الغربية إلى جرود بعلبك الهرمل، في جانب منه قسري تهجيرى للسكان الشيعة تدريجياً من الأفضية السالفة الذكر. وفي جانب آخر اقتصادي ودفاعي للنزوح الماروني من بلدات بشري وبعض قرى جرد جبيل.

- النزوح من المجال الجردى إلى مجالي السفوح الدنيا والسهل يعود لأسباب اقتصادية - اجتماعية، وأمنية.

المناهج العلمية المعتمدة:

اعتمدت في هذه الدراسة مناهج علمية متعددة، منها الوصفي، من أجل شرح البنية التضاريسية والمناخية الطاردة للسكان في منطقة الدراسة. وكذلك استعنت بالمنهج الاستقرائي التاريخي، لمقاربة الظروف

والأحداث التاريخية المتصلة بموجات النزوح باتجاه منطقة الدراسة، كما لتفسير أسباب استكمال النزوح من الجرد باتجاه السفوح الدنيا والسهل. أضف إليها المنهج التحليلي، من أجل توليف المعطيات الجغرافية، والتاريخية، والاجتماعية لبلوغ النتائج والاستنتاجات المفيدة في الرد على إشكالية البحث. كما اعتمدت المقابلة كوسيلة لتوثيق بعض المعلومات، ولا سيما مع كبار السن، الذين سمعوا عن النزوح من أجدادهم المباشرين. أو من المسنين الذين عايشوا مرحلة النزوح من الجرد باتجاه البلدات والقرى المحاذية للطريق الدولي.

١ - الجغرافيا الطبيعية لجرود بعلبك الهرمل:

سوف يعتمد في هذا الجزء من البحث على المعطيات الطبيعية عن المجال الجردى الغربي لحوض نهر العاصي، وذلك لسببين، أولهما هو امتداد هذا الحوض على مساحة تقارب ثلاثة أرباع مساحة المحافظة عموماً. وثانيهما تركز الأكثرية الساحقة للقرى والبلدات الجردية الغربية في هذا المجال الجغرافي، ومن ثم فإن أكثر الحركات السكانية الوافدة والمغادرة حصلت في حوض العاصي، الذي اصطلح على تسميته البقاع الشمالي.

إن المجال الجردى في محافظة بعلبك الهرمل عموماً، أي في الجهتين الشرقية والغربية، هو نطاق السفوح الوعرة والحائطية الشكل، لسلسلتي جبال لبنان

أما على صعيد الأمطار، فقد بينت دراسة يوردانوف أن القسم المحاذي للأراضي السورية من سهل البقاع، تحديداً مثلث الهرمل - القاع - رأس بعلبك، يقع بشكل شبه كلي في ظل جبل المكمل، الذي يصل ارتفاعه إلى ٣٠٠٠ متر فوق سطح البحر، وبالتالي لا يحصل هذا النطاق على أكثر من ٢٠٠ - ٣٠٠ ملم من الأمطار سنوياً. وعلى الرغم من ازدياد معدل التساقط السنوي مع الارتفاع في المنطقة الجردية ليصل إلى أعلاه، وقدر بنحو ٥٠٠ ملم سنوياً^(٣)، على ارتفاع ٩٠٠ متراً وما فوق، فإن البقاع الشمالي يشهد تذبذباً في كميات التساقط، التي بلغت ٤٦٨ ملم سنة ١٩٤٤ م في بلدة الهرمل ثم قابلها تدني معدل التساقط سنة ١٩٥٢ م لنحو ١٠٨ ملم^(٤). هذه التقلبات المناخية تهدد المحاصيل الزراعية، ومن ثم حياة المزارعين من سكان تلك المناطق.

من جهة ثانية، فإن وقوع منطقة الدراسة في نطاق المناخ شبه الصحراوي، فهي تشهد اتساعاً في المدى الحراري بين الشتاء والصيف كما بين النهار والليل، والتي تبلغ درجة التجمد ليلاً، التي تؤدي

الغربية والشرقية باتجاه السهل، الذي يخترقه نهر العاصي، وهي المنطقة التي يتراوح ارتفاعها بين ٩٠٠ و ١٨٠٠ متراً فوق سطح البحر والذي تبلغ مساحته نحو ١١٧٠ كلم^٢، أي نحو ٥٤٪ من مجمل مساحة منطقة البقاع الشمالي^(١)، التي تبلغ نحو ٢٢٣٠ كلم^٢^(٢). سمي يوردانوف النطاق الشمالي للبقاع «حوض العاصي»، الذي يعتمد تصريفه المائي على مياه الينابيع الدائمة التدفق، التي تغذيه طوال أيام السنة، كما على الروافد الجبلية الموسمية الجريان، التي تتراتب على السفوح الشرقية لسلسلة جبال لبنان الغربية، من الشمال إلى الجنوب، الشربين، زغرين، وادي التركمان، وادي الرطل، وادي بنيت، وادي النيرة، مراح النعواس، وادي فعرا، وادي الأوس، ووادي اللوز. وتتميز تربة الأودية المذكورة بتجدها، مع الإرسابات التي تحملها السيول التي تجتاحها سنوياً من المرتفعات التي تعلوها، وقد يكون التركيز السكاني في هذه الأودية، على الرغم من وعورة مسالكها، وبرودتها شتاءً على مر العصور، نتيجة لخصوبة تربتها، وهو ما سوف يتم بحثه في مفاصل هذه الدراسة.

(١) تشكل منطقة البقاع الشمالي النسبة الأكبر من مساحة محافظة بعلبك الهرمل.

(٢) أبو العينين، حسن سيد أحمد. لبنان، دراسة في الجغرافيا الطبيعية. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٨٠. ص، ٤٧٥.

(٣) أبو العينين. المرجع السابق.

(٤) Sanlaville, Paul. Les regions Agricoles du Liban. Revue de Geographie de Lyon. 1963. Volume 38. p: 83.

إلى تساقط زهر الأشجار المثمرة، ولا سيما اللوز والكرز، المحصولين اللذين يعتمد عليهما سكان جرود الهرمل بشكل أساسي.

وبالانتقال إلى المجال السهلي، فإن الأمطار القليلة المتساقطة تتعرض لعملية تبخر سريع، ما يترك على سهل البقاع الشمالي مشهداً جافاً وحصوياً^(١)، ومن ثم يتقهقر الغطاء النباتي، ويقتصر على بعض نباتات نطاق الإستبس شبه الجاف، الذي لا يصلح إلا للرعي.

كما أن افتقار المنطقة للغطاء النباتي يؤدي إلى تقلص الحياة الحيوانية إلى أدناها، وبالتالي تحرم التربة من المواد العضوية الناتجة عن البقايا النباتية والحيوانية، لذلك تتميز تربة شمال البقاع باللون الأصفر الذي يدل على افتقارها للمواد العضوية، وقلة خصوبتها. وهو عامل إضافي لتصنيف هذه المنطقة بالطاردة للسكان، ومع ذلك شهدت وفود النازحين إليها في حقبات زمنية متعددة لأسباب قاهرة، سيتم بحثها في هذه الدراسة.

٢ - أسباب ومراحل النزوح الوافد إلى المجال الجردى غرب محافظة بعلبك الهرمل

شهد المجال الجغرافي للجرد الغربي لمنطقة بعلبك الهرمل نزوحاً جماعياً كبيراً في مراحل متفاوتة، من السفوح الغربية لجبال لبنان الغربية، ولأسباب متعددة مذهبية طائفية، اقتصادية، ودفاعية - استراتيجية.

أ - الأسباب المذهبية والطائفية.

إن النزوح للأسباب المذهبية والطائفية جرى على مرحلتين، مبكرة ومتأخرة، الأولى تأتي في سياق ما حملته فتاوى ابن تيمية من حالة عداة بين الدولة المملوكية وسائر المذاهب الإسلامية المختلفة عن مذهبها، وقد ظهرت مفاعيلها بالتهجير الجماعي بين سنتي ١٢٩١ و ١٣٠٥م. والثانية في القرن الثامن عشر، بسبب التهجير في عهد الإمارة الشهابية، خلال الحكم العثماني، واتخذت طابعاً طائفيًا مع ترحيل العائلات والعشائر الشيعية من مناطق جبيل، البترون، والزاوية^(٢)، لتحل مكانها العائلات المارونية، القادمة من الشمال. كما حصلت هجرات متفرقة بين هذين التاريخين وما بعدهما.

مرحلة الهجرات المبكرة بين العامين ١٢٩١ و ١٣٠٥م، عندما قام المماليك بتنفيذ

(١) Yordanov, Y. V. "Aperçu succinct sur l'hydrogéologie du Liban". Dar El Fann. Beirut 1962. P: 38.

(٢) خليل، فؤاد. دولة المجتمع المحلي "عشائر جرد الهرمل". الطبعة الأولى. دار الفكر اللبناني. بيروت ١٩٩٠. ص: ٣٦.

أما موجة النزوح الثانية فقد حدثت لأسباب طائفية في نهاية القرن الثامن عشر، بعد الحملات التي قام بها الشهابيون لإبعاد العشائر والعائلات الشيعية عن المناطق المارونية في جبيل والبترون وبشري، لينحصر وجود من تبقى من شيعة جبل لبنان الشمالي في قضاء جبيل^(٤)، وبعض القرى والبلدات المحدودة من قضاء كسروان، إضافة إلى زغرنا المتأولة في الكورة، وحبشيت في عكار. أما وجهة النازحين قسراً خلال تلك الحقبة هو منطقة بعلبك الهرمل، وما يؤكد ذلك هو انقسام أفخاذ العشائر والعائلات بين قرى وبلدات سفحي سلسلة جبال الغربية، إضافة إلى أن عدداً من العشائر لا تزال محتفظة بصكوك وحجج الملكية منذ العهد العثماني^(٥).

وتجدر الإشارة إلى أن قسماً من القادمين في تلك الحقبة كانوا قد هجروا خلال الحملة الأولى من كسروان باتجاه جبيل، البترون، بشري، والكورة وهو ما

ثلاث حملات عسكرية كبرى لإخضاع الشيعة في منطقة كسروان. بعد نجاح الحملة الأخيرة في تشتيتهم، أدخلوا مكانهم مجموعات من قبائل التركمان لمراقبة المنطقة وطريق الساحل، كما لتأمين الطرق الجبلية المؤدية إلى الداخل ودمشق^(١). على الرغم من أن الصليبي لم يذكر وجهة نزوح العشائر والعائلات الشيعية المشتتة، إنما بحسب معظم المؤرخين، فإن موجات النزوح الجماعي عبرت السلسلة الغربية نحو منطقة بعلبك، وفي هذا المجال سنكتفي بمؤرخين من حقبتين زمنيتين مختلفتين، وهما سعدون حمادة^(٢)، الذي توصل إلى أن العامل الجغرافي أدى دوراً مهماً في توجيه مسار النازحين من السفوح الغربية لجبال لبنان الغربية، وتحديداً من منطقة كسروان إلى شمسطار وجوارها. وصالح بن يحيى^(٣)، الذي أثبت أن التشيع في كسروان وجوارها استمر مع من نجا من سكانها بعد حملات الإفناء المملوكية، وباقي الناجين تفرقوا في بلاد بعلبك وبلاد جزين.

(١) Salibi, Kamal. A House of many Mansions, the History of Lebanon reconsidered. Published by: University of California Press, Berkley and Los Angeles - California. october 1990. p: 14.

(٢) حمادة، سعدون. تاريخ الشيعة في لبنان، تهجير الشيعة من جبل لبنان. المجلد الثاني. ط: ٢. دار الخيال. بيروت ٢٠١٣. ص: ٣٨٣.

(٣) بن يحيى، صالح. تاريخ بيروت: وهو أخبار السلف من ذرية بحتري بن علي، أمير الغرب ببيروت. تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال سليمان الصليبي. دار المشرق. بيروت ١٩٦٩ ص: ٩٦.

(٤) Salibi, Kamal. The Modern History of Lebanon. Weidenfeld and Nicolson. London. Third impression. May 1968. p: 26.

(٥) راجع أرشيف الصحف اللبنانية المختلفة.

أكده المؤرخان سعدون حمادة وراغب حيدر أحمد.

في السياق نفسه يرجح عدد من المؤرخين أن مسلسل النزوح استمر حتى القرن التاسع عشر، وذلك على أثر الفتنة الطائفية الكبيرة، التي عصفت في جبل لبنان الجنوبي، والتي امتدت تداعياتها إلى منطقة جبيل في جبل لبنان الشمالي سنة ١٨٦٠م وما قبلها سنتي ١٨٤٢م و١٨٤٥م وما بعدها سنة ١٨٩٨م، وقد استمرت حتى مطلع القرن العشرين^(١).

وتجدر الإشارة إلى أن سفوح السلسلة الغربية قد شهدت نزوحاً معاكساً، بين التهجيرين الكبيرين الأول والثاني، تمثل بعودة النازحين من قرى بعلبك الهرمل باتجاه قراهم في كسروان وجبيل، قبل إعادة تهجيرهم. وكذلك حصل نزوح معاكس في مراحل متأخرة، وما يؤكد ذلك هو مشاركة عدد من سكان بلدات قضاء جبيل في الانتخابات النيابية والبلدية في قضاء بعلبك والهرمل، حيث سجلت قديهم.

من ناحية أخرى، فإن مخاطر المجاعة إبان الحرب العالمية الأولى دفعت ببعض سكان السفوح الغربية إلى التوجه نحو

السفوح الشرقية، القريبة من المجال السهلي لزراعة القمح والحبوب لتوفير الأمن الغذائي^(٢)، فاستقرت هناك. وهكذا يكتمل مشهد النزوح باتجاه بعلبك الهرمل، ويبدأ البحث عن تركيز تلك المجموعات البشرية ونشوء القرى والبلدات.

* الإستقرار في شمسطار والبلدات والقرى في السفوح القريبة منها (موجات النزوح المبكر) - الخريطة (١).

بناءً على ما تقدم، نستنتج أن الاستقرار في منطقة بعلبك الهرمل مرتبط إلى حد كبير بمراحل التهجير، كما من الجائز الربط بين تلك المراحل ووفود العائلات والعشائر من مناطق الطرد السكاني في المقلب الغربي إلى مناطق الجذب في المقلب الشرقي. ما يؤكد صحة هذا الربط هو النزوح المبكر من كسروان، التي شتت المماليك شمل سكانها شمالاً باتجاه منطقة جبيل، جنوباً باتجاه منطقة جزين، ومن خلالها إلى جنوب لبنان عموماً، وشرقاً باتجاه منطقة بعلبك، وتحديداً إلى بلدة شمسطار والقرى والبلدات المجاورة لها.

يدعم هذه الفرضية عدد من الدلائل، أبرزها أسماء بعض العائلات في شمسطار

(١) حيدر أحمد، علي راغب. المسلمون الشيعة في كسروان وجبيل، سياسياً تاريخياً إجتماعياً. ط: ١. دار الهادي.

بيروت ٢٠٠٧. ص: ٦٧٣.

(٢) من المقابلات مع المسنين من أبناء المنطقة.

أيضاً، الذين قدموا من جبيل، وتحديدًا بلدة مزرعة السياد، التي تستقر فيها فروع العائلة حتى يومنا هذا.

وفي السياق نفسه لا بد من الإشارة إلى سكان المنطقة الممتدة من وادي الكريمات، شمال غرب شمسطار، إلى وادي أم علي، أعلى بلدة بوداي، مروراً بوادي الكوار، أعلى بلدة كفردان، مكونة مزارع بيت مشيك^(٦)، التي تشمل قرى وبلدات قلد السبع، رماسا، مزرعة التوت، ومصنع الزهرة، والتي كانت تابعة إدارياً لبلدية شمسطار، وباتت تنعم كل منها ببلدية خاصة بها. مع الإشارة إلى أن جذور آل مشيك تعود إلى بلدتي فاريا وحراجل في قضاء كسروان^(٧).

ونستنتج في هذا السياق أن باقي عائلات شمسطار قد قدمت إليها في مراحل لاحقة، ومن مناطق جبيل تحديداً، مثل حالة آل الحسيني الذين نزحوا من مزرعة السياد^(٨)، وقد قدمت في الفترة ذاتها، إلا أن أسماءها لا تحمل كنية تدل على الجذور الكسروانية، وقد هاجر أفرادها بشكل كامل

المنسوبة لبلدات كسروانية، على سبيل المثال لا الحصر، آل الدلاني، نسبة لبلدة دلبتا، أو عين الدلبة^(٩)، آل الحلاني، نسبة لبلدة حلان، آل شحيتلي، نسبة لبلدة شحتول، كما أن عائلي سلمان دياب تعود جذورهما إلى بلدتي الحصين - حلان، ولا تزال لهاتين العائلتين فروع في البلديتين الأخيرتين^(١٠). وكذلك آل العزيز، الذين قدموا من حراجل الكسروانية، وأقفا الجبيلية إلى شمسطار^(١١)، وإنما يفترض أنهم نزحوا على مرحلتين، الأولى من كسروان مع النزوح القديم، والثانية من جبيل مع النزوح الأحدث.

هذا بالنسبة إلى بعض العائلات في بلدة شمسطار، أما بالنسبة إلى العائلات المقيمة في بلدات وقرى أخرى مجاورة لشمسطار، على سبيل المثال آل عمرو، المقيمين في مزرعة سلوقية صيفاً وشتاءً، الواقعة أعلى بلدة شمسطار^(١٢)، تعود جذورهم إلى بلدة المعيصرة الكسروانية^(١٣)، التي لا تزال جذور العائلة تعيش فيها إلى الآن. والأمر نفسه ينطبق على آل الحسيني في شمسطار

(١) عين الدلبة إسم بلدة كسروانية، كما هناك بلدة بنفس الإسم في قضاء جبيل .

(٢) حيدر أحمد، علي راغب. المرجع السابق. ص: ١٦٥ .

(٣) بلاد جبيل، أرضاً وشعباً. الحركة الإنمائية لبلاد جبيل. الطبعة الأولى ١٩٩١. ص: ٢٩٧ .

(٤) نفس المرجع. (٥) حيدر أحمد. المرجع السابق. ص: ١٩٣ .

(٦) المعلوف، عيسى اسكندر. تاريخ الأسر الشرقية. دار رياض الرئيس. ص: ٤٧٥ .

(٧) بلاد جبيل. المرجع السابق. ص: ٢٩٥ .

(٨) لا تزال جذور آل الحسيني إلى يومنا هذا في مزرعة السياد.

ولم يعد لهم أي أثر في منطقة كسروان يدل على وجودهم فيها.

السلسلة الغربية إلى مقلب الجبل لجهة قضاء بعلبك.

من ناحية ثانية، لا بد من الإشارة إلى أن هذا النزوح أسهم في إنشاء بلدات أخرى إضافة إلى شمسطار، لم تكن موجودة من قبل، وهي اليمونة، بوداي، السعيدة، مقنة، وحربتا^(١).

* الإستقرار في جرود بعلبك الهرمل (موجات النزوح المتأخرة) - الخريطة (١).

اتخذت العشائر التي نزحت من جبيل والبترون والزاوية من الأجزاء الشمالية لجرود بعلبك الهرمل الغربية وجهة لها. وفي هذا المجال أظهرت دراسة حمادة^(٢) أن النازحين من جبيل اتجهوا إلى المنطقة الوسطى بين بعلبك والهرمل، بينما اتجه القادمون من الجبة^(٣) وعكار إلى جرود الهرمل والسهول المجاورة. كما من غير المستبعد وفود بعض العشائر من الضنية^(٤)، والتي يجمع المؤرخون أن سكانها الأساسيين من الشيعة، الذين يفترض أنهم انتقلوا للأسباب المذكورة آنفاً إلى السفوح الشرقية في قضاء الهرمل.

وبما أن التحركات السكانية في تلك الحقبة اعتمدت إما على الخيل والدواب، وإما على السير مشياً، وفي كلا الحالتين يبحث السائرون نحو الطريق الأسهل والأقل وعورة، وبعد اجتيازه يقصدون السفوح المنبسطة الصالحة للسكن والبعيدة نسبياً عن الطريق الذي يربط البقاع بحمص لكي يتحصنوا من الغزوات المعادية، ولا سيما المماليك ومن بعدهم العثمانيين.

إن ما يؤكد حصول ذلك النزوح من السفوح الغربية لجبال لبنان الغربية نحو شرقها هو تحديد القرى والبلدات التي

على صعيد مواز فإن نسبة النازحين مباشرة من البلدات الكسروانية تقل مع الاتجاه شمالاً، وتطغى العائلات ذات الأصول الجبيلية، وهكذا يتضح أن موجات النزوح الثاني هي جبيلية عموماً ونزلت عبر

(١) حمادة، سعدون. الثورة الشيعية، ص: ٩٦.

(٢) حمادة. تاريخ الشيعة. المجلد الثاني. ص: ٣٨٣.

(٣) يقصد بها جبة المنيطرة، التي هجر منها ومن كل من وادي علمات وجبيل والبترون والفتوح، الشيعة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. راجع: نايل أبوشقرا. البنى السكانية في جبل لبنان ١٢٥٠ - ١٨٥٠: تحولات ونتائج. بحث منشور في مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية. العدد ٣، شتاء ٢٠١٣. ص: ٢٠٥.

(٤) الضنية هو تحوير للظنية، وهي تسمية كانت تطلق على عدد من الفرق الباطنية ومنها الإسماعيلية. ويصح منطقياً أن تقطنها جماعات شيعية أخرى كانت قد عانت من الغزوات المملوكية.

قدمت منها العشائر الحمادية^(١)، متخذة الجرود الوعرة في منطقة البقاع الشمالي موطناً لها،

على الرغم من وعورتها وقساوة مناخها، وتقع معظم قرى العشائر والعائلات الوافدة في الأودية السيلية، التي تتسم بتربة متجددة، تصلح لزراعة اكتفائية تقيهم خطر المجاعة، وهي تتوزع جغرافياً من جرد الهرمل شمالاً وحتى اليمونة جنوباً على الشكل التالي: قرى البستان، جوار الحشيش، الحميرة، مراح السويصة، الحريقة، قنافظ و فيسان في جرد قضاء الهرمل، وتسمى جميعها قرى «بيت جعفر» نسبة لآل جعفر، وهي توضع تحت المسمى نفسه، على سبيل المثال لا الحصر فقد ورد بيت جعفر كاسم لمنطقة تشمل عدداً من القرى، في بعض الأطالس^(٢)، وكذلك الخرائط المخصصة للبنان^(٣)، وفي قضاء بعلبك، استقر آل جعفر في بلدة دار الواسعة، قادمين من قرية فرحت في قضاء جبيل، خلال الثلث الأول من القرن التاسع عشر كنتيجة للضغوط التي مارسها الأمراء

الشهابيون على تلك العشائر^(٤). وكذلك بالنسبة إلى قرى الشربين، زغرين، مزرعة سجد، وبريصة، التي وفد إليها آل ناصر الدين من بلدة بزيون في قضاء جبيل^(٥)، حيث تشهد هذه الأخيرة نزوحاً موسمياً لأبناء العشيرة إلى الشربين شتاءً، ومنها إلى قرى النعناعية، سمحات، والجزء الشمالي من مرجحين صيفاً.

ينتشر آل ناصر الدين من الجرد إلى بلدة الهرمل، وإلى سهلها في بلدات القصر، البويضة، المنصورة، والدورة. أما قرى وادي التركمان، وادي الرطل، والجزء الجنوبي من مرجحين وهي موطن آل علوه منذ النزوح، مع باقي العشائر من بلدة مشان في قضاء جبيل^(٦)، باتت حالياً شبه خالية من السكان، شأنها شأن باقي البلدات والقرى الجردية، وكذلك وادي الرطل موطن آل علام، الوافدين من قرية عين الدلبة في قضاء كسروان. إضافة إلى ما تقدم فإن قرى وادي النيرة، وادي بنيت، مراح النعواس، جباب الحمر، ومراح حسين

(١) نسبة لآل حمادة، أي تبعية هذه العشائر من الناحيتين السياسية والاجتماعية لعائلة حمادة الإقطاعية.

(٢) بدران، شارل جورج. أطلس العالم. مطابع فالاردي (مكان النشر غير محدد). ١٩٧٨. ص: ٥٤.

(٣) خريطة لبنان. جيوبروجيكتس. بيروت، التاريخ غير محدد.

(٤) Salame, Michel. Une Tribu Chiite Des Montagnes De Hermel (Liban), Les Nacer Ed Dine (Article). Revue de Geographie de Lyon. Volume 32, Issue 2, 1957. p: 115.

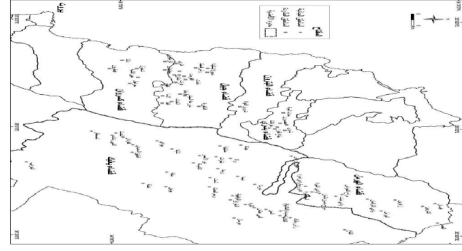
(٥) Loc. Cit..

(٦) بلاد جبيل، أرضاً وشعباً. الطبعة الأولى. إعداد ومشورات الحركة الإنمائية لبلاد جبيل. ص: ٢٩٤.

طعان، يسكنها آل دندش القادمون من قرية فترى في قضاء جبيل^(١).

وأما قرى بوداي، الخرايب، شعت، اللبوة، وبعض القرى والبلدات الأخرى فيسكنها آل شممص النازحون من قرية مشان في قضاء جبيل، وقرية يحشوش في قضاء كسروان^(٢)، والأرجح أن الموطن الأساسي لآل شممص هو الخرايب، التي انطلقوا منها لينتشروا لاحقاً في القرى والبلدات المذكورة آنفاً.

الخريطة - ١: خريطة حركة النزوح من جبل لبنان باتجاه بعلبك الهرمل.



في السياق نفسه إن قرية وادي فعرة، التي يتركز فيها آل شعيب، القادمين إليها مع موجات النازحين من السفوح الغربية في جبيل وكسروان، تبين من المشاهدة الميدانية أن معظم سكانها نزحوا عنها.

أما قرى ربحا، الكنيسة، حدث بعلبك،

كفردان، السعيدة، وجبعا في قضاء بعلبك، إضافة إلى القصر في قضاء الهرمل، فيسكنها آل زعيتر النازحون من قرية أفقا في قضاء جبيل. وكذلك الأمر بالنسبة إلى قرى نبعا الدموم وحربتا، والتي يسكنها كل من آل أمهز، القادمين من قمهز في قضاء جبيل^(٣)، وآل المولى، القادمين من بلدة بلاط في قضاء جبيل أيضاً، ويعرف آل المولى ببلوط أيضاً، نسبة إلى بلدة بلاط التي قدموا منها^(٤). إضافة إلى قرى وبلدات شعت، حوش النبي، وشمسطار في قضاء بعلبك، الشواغير على ضفاف نهر العاصي كما في مدينة الهرمل، التي يعيش فيها آل الحاج حسن، القادمون من قرية قرقر في قضاء جبيل^(٥) وكذلك الأمر بالنسبة إلى بلدة حلبتا، إذ يتخذها القادمون من جبيل موثلاً لهم، وهم آل سيف الدين، الذين لا تزال جذورهم موجودة في بلدات لاسا، أفقا، ومزرعة السيادة في أعالي قضاء جبيل^(٦). إضافة إلى بلدة اليمونة، التي وفد إليها آل شريف النازحون من بلدة المغيري^(٧)، في المقلب الغربي في قضاء جبيل أيضاً. ومن اليمونة انتشروا في قضاء

(٥) نفس المرجع. ص: ٢٨٣.

(٦) نفس المرجع. ص: ٢٨٩.

(٧) نفس المرجع. ص: ٢٩٢.

(١) Salame.Loc. Cit..

(٢) حيدر أحمد. المرجع السابق.

(٣) بلاد جبيل. ص: ٢٩٤.

(٤) المرجع السابق. ص: ٢٨٩.

بعلبك ليصلوا إلى اللبوة، والمقراق على الطريق الدولي. أخيراً بلدة قرحا، ويسكنها آل الموسوي القادمون إليها من بلدة إهمج في قضاء جبيل^(١).

مما تقدم نستنتج أن الاستقرار المعروف حالياً في المناطق السهلية والسفوح القرية منها، يدل على قَدَم النزوح إليهما، إذ من المنطقي أن النزوح الحديث دفع بسكان الجرود الذين سبقوهم، نحو السهل، وقد كان السكن والاستقرار فيه غير مأمونين للأسباب نفسها التي دفعت تلك العائلات إلى النزوح، وهو ما يدل على نزول ناجم عن الضغط الديموغرافي، ومن ثم الاقتصادي، عبر التسابق على المراعي وقطع الأشجار والحصول على أخشابها كوقود للتدفئة، أو كمادة أولية لصناعة الفحم^(٢). وبالتالي فإن الحاجة إلى استصلاح الأراضي السهلية الخصبة للزراعة دفع بالنازحين مكانياً إلى نزوح قطاعي من حرفة الرعي إلى حرفة الزراعة، متخليين عن الجرود والسفوح الشرقية المرتفعة لسلسلة جبال لبنان الغربية للنازحين الجدد.

ب - الأسباب الاقتصادية المعيشية:

يختلف وضع السكان في المناطق الواقعة إلى الشمال من بلدة شمسطار، فقد حصلت موجات نزوح مماثلة، أي من السفوح الغربية للسلسلة الغربية باتجاه السفوح الشرقية للسلسلة نفسها، وذلك لأسباب مختلفة تماماً عن الأسباب التي أدت إلى النزوح للمناطق السالفة الذكر.

يدرج النزوح إلى بلدة دير الأحمر وجوارها، ضمن موجات النزوح الإرادي، وهي حركة الرعيان من السفوح الغربية للسلسلة الغربية، وتحديداً من نواحي بشري والعاقورة^(٣) باتجاه السفوح الشرقية المطلّة على الجزء الشمالي من سهل البقاع، حيث يشكل القادمون من هاتين الناحيتين نحو ثلاثة أرباع سكان منطقة دير الأحمر^(٤)، أي بلدة الدير والقرى والبلدات المجاورة لها.

يتميز قضاء بشري ببلداته وقراه المعلقة بين غابة الأرز ووادي قنوبين بمنحدرات شديدة لا تناسب العمل الزراعي، ولا سيما أن عملية بناء المدرجات الزراعية صعبة، كما أن المراعي في السفوح الجبيلة

(١) نفس المرجع. ص: ٢٩٥.

(٢) حرفة صناعة الفحم، ما زالت رائجة في بعض المناطق الجردية، وإن تراجعت لأسباب متعددة.

(٣) كرم، عصام فريد. تاريخ دير الأحمر، منطقتها وعائلاتها. شركة توش دار. ذوق مكابيل ١٩٨٠. ص: ٤٨.

(٤) تم الحصول على هذه الأرقام بالاعتماد على «تاريخ دير الأحمر»، المرجع السابق.

العليا شبه مستحيلة شتاءً. وبالتالي كان الحل لتلك المعضلات هو التجربة في ما وراء السلسلة الغربية، وما يفسر الأسباب الحقيقية للنزوح من بشري والعاقورة.

إن حركات السكان باتجاه منطقة دير الأحمر لم تقتصر على الرعيان فحسب، بل شملت أيضاً المزارعين، وفي هذا المجال لا بد من التوقف عند ما توصل إليه غازي جعجع^(١)، من أن محدودية الإنتاج الزراعي في بشري، بسبب وعورة الأراضي، كان عاملاً أساسياً لهجرة العائلات البشراوية إلى منطقة دير الأحمر الوفيرة السهول والإنتاج.

هكذا بدأ النزوح على مراحل مختلفة من نواحي جرود بشري، البترون وجبيل، بدءاً من القرن السابع عشر وصولاً إلى نهاية القرن التاسع عشر، وتمثلت تلك الموجات من النزوح بفروع من عائلات كبيرة منفصلة عن العائلات الأم في السفوح الغربية من السلسلة الغربية، والتي لا تزال إلى يومنا هذا في قراها وبلداتها، باستثناء عائلة وحيدة نزحت بالكامل إلى السفوح الشرقية من هذه السلسلة، وهي عائلة خضراء، التي تشكل الأكثرية الساحقة من

سكان بلدة صفراء، الواقعة شمال شرق بلدة دير الأحمر.

وقد وصف عصام كرم هذه الهجرات بما يلي: «إن الرعاة القادمين من الجبل من ناحية بشري والعاقورة اتخذوا من الموقع، في وسط الغابات وعلى عتبة السهل الفسيح الوافر المراعي، مركز إشتاء لهم ولمواشيهم من قطعان الماعز والغنم، حتى إذا ما انقضى فصل الشتاء وطلع الربيع، عادوا إلى المراعي الجردية في السلسلة الغربية»^(٢)، ويقصد تحديداً السفوح الغربية لهذه السلسلة.

ونستنتج مما تقدم أن المشهد الجغرافي لبلدة دير الأحمر كان يتخلله الغابات، وهو ما لم يعد له أثر يذكر في يومنا هذا. كما تجدر الإشارة إلى أن القرى والبلدات المسيحية في محافظة بعلبك الهرمل شهدت نزفاً سكانياً، خلال حقبة الحرب الأهلية التي بدأت سنة ١٩٧٥ م، على خلفية الصراع الطائفي الذي عصف بالبلاد، ولم يبق في بعض البلدات سوى ما بين ١٠ و ٣٠٪ من سكانها، ومن تلك البلدات: دورس، الطيبة، حوش بردى، بيت شاما، ورأس بعلبك^(٣)، أضف إلى أن بلدة دير

(١) جعجع، غازي. تاريخ بشري الحديث ١٤١٥ - ١٩٢٠. بشاريا للنشر. بيروت ١٩٩٤. ص: ٢١.

(٢) كرم. المرجع السابق. ص: ٤٨.

(٣) فاعور، علي. جغرافية التهجير، دراسات ميدانية، وقائع وحلول. الطبعة الأولى. دار المؤسسة الجغرافية. بيروت ١٩٩٣. ص: ١٢٧.

* النزوح إلى دير الأحمر والبلدات والقرى المجاورة لها - الخريطة (١).

نتج عن هذا النزوح نشوء بلدات وقرى مسيحية مارونية على السفوح الشرقية للسلسلة الغربية في منطقة بعلبك الهرمل. وتعود الأصول الجغرافية لسكان تلك البلدات كما يلي:

بلدة دير الأحمر، وهي أقدم البلدات المجاورة لها، ولها طابع مدني جامع بخلاف البلدات والقرى المارونية المجاورة التي تشبه المزارع العائلية، كما سيتبين في سياق البحث. يعود تاريخ عائلات بلدة دير الأحمر إلى القرن السابع عشر، وللدلالة على ذلك لا بد من مراجعة تاريخ نزوح آل حبشي، الذين يشكلون حوالي نصف سكانها، وهم قدموا من العاقورة إلى الدير عن طريق معاد، في قضاء جبيل، وقد كان ذلك في القرن السابع عشر. ويبدو أن أسباب نزوح هذه المجموعة السكانية كانت على خلفية النزاعات مع أهل العاقورة وليس من أجل تأمين الماء والكلأ لقطعانهم^(٢)، ومن ثم تجدر الإشارة إلى أن هناك بعض الاستثناءات في تفسير أسباب النزوح إلى دير الأحمر والبلدات والقرى المجاورة لها. كما أن عائلتي سعادة وبو رفول غادروا بشري سنة ١٧٠٠ باتجاه دير الأحمر.

الأحمر والقرى المجاورة لها قد شهدت بدورها نزوحاً باتجاه زحلة وبيروت وضواحيها الشرقية، لا سيما بعد حصار دير الأحمر سنة ١٩٧٦ م وما تلاها من أحداث أمنية.

ج - الأسباب الدفاعية - الإستراتيجية:

لا بد من الإشارة إلى الأسباب الدفاعية، التي ارتأت وجهاء الموارد في بشري والعاقورة ضرورتها لحماية بلداتهم المهددة بالغزو من الشرق، أي من جهة البقاع. وهكذا قرروا تشكيل خط دفاع أول في المنطقة المتاخمة لحدودهم، وهي تحديداً بلدة دير الأحمر حالياً. ومن ثم اتفقوا على أن يتشكل ذلك الخط الدفاعي^(١).

يبدو أن دير الأحمر هي باكورة البلدات المستقبلية للنازحين من بلدات مختلفة أبرزها بشري والعاقورة، الذين شكلوا في ذلك الزمن خط الدفاع المذكور آنفاً. ونستنتج أنه بعد نشوء دير الأحمر، استكمل الخط الدفاعي بمزيد من المتطوعين من بشري والعاقورة وتنورين، ومن ثم تشكلت القرى والبلدات التالية: شليفا، بشوات، برقا، بتدعي، نبعا القدام، الزرايزير، عيناتا، والصفرا.

(٢) كرم. المرجع السابق. ص: ١٢٧.

(١) <http://www.deirelahmar.com/>

القرن التاسع عشر، وما يرجح هذه الفرضية أنّها من البلدات الجردية الأبعد عن السهل، أي أن النازحين إليها لم يتمكنوا من نزول السهل، الذي كان قد استُملك من العائلات التي نزحت مبكراً، كما يبدو. أما بلدة بتدعي، فيشكل النازحون من بشري الأكثرية الساحقة من سكانها، وهم من عائلة الفخري، وعائلة غصين القادمون من بلدة حدث الجبة في قضاء بشري، ويتركزون في مزرعة بيت بو صليبي، التابعة إدارياً لبلدة بتدعي. وكذلك الأمر بالنسبة إلى بلدة شليفا، ويشكل النازحون من أقضية المتن، البترون وجبيل أكثرية سكانها، وتحديدًا من العاقورة عائلات الهاشم، العاقوري، الخوري، ومطر، إضافة إلى عائلة رعيدي من تنورين، والمعلوف من كفر عقاب في قضاء المتن، حيث يؤكد عيسى اسكندر المعلوف^(١) أن آل المعلوف أتوا من المتن الأعلى لاستصلاح أراض زراعية، فوقع اختيارهم على سهل شليفا الغني بالمياه، فضمنوها من الحرافشة سنة ١٨٧٠ م، ومن ثم نشأت البلدة، التي لم تكن موجودة قبل هذا التاريخ.

ويبدو لنا أن توافد النازحين إلى شليفا من المناطق الأخرى المذكورة آنفاً هو بهدف العمل الزراعي بعدما وجدوا من

وكذلك تشمل هذه البلدة عدداً من العائلات الأخرى المتواجدة في مختلف القرى والبلدات، المذكورة أعلاه. وفي فترة أحدث شهدت دير الأحمر موجة نزوح جديدة تمثل بعدد من العائلات أبرزهم آل سكر، ويسمون في دير الأحمر بآل القزح، وهم جزء من آل سكر البشرايين، نزحوا من بلدة بشري سنة ١٨٠٧م باتجاه بلدة اليمونة، حيث عملوا في حرفة الرعي، وتابعوا مسلسل نزوحهم بعدها باتجاه دير الأحمر، سعياً لتأمين الماء والكأ لقطعانهم.

أما بالنسبة إلى باقي البلدات الصغيرة، التي نشأت وازدهرت نتيجة للنزوح من السفوح الغربية عموماً، ومنطقة بشري على وجه الخصوص، والتي لا تزال جذور عائلاتهم فيها، وهي بشوات، ويشكل آل كيروز العمود الفقري لبنيتهما السكانية، وهم بدورهم من العائلات البشراية التي عبرت السلسلة الغربية نحو البقاع. وبلدة برقا، ويشكل آل جعجع الأكثرية الساحقة من سكانها، وهم نزحوا أيضاً من بلدة بشري باتجاه تلك البلدة. بلدة عيناتا، يستقر فيها آل رحمة، القادمون من بلدة بشري. ويفترض أن آل رحمة من أحدث السكان وجوداً في المنطقة التي شملتها الدراسة، ومن المفترض أن بلدة عيناتا أنشئت في

(١) المعلوف. المرجع السابق.

القرية - الوادي عدد من أفراد عائلة طوق البشرية، في نحو عشرين منزل^(٢). وهم يتجهون إلى العيون صيفاً لاستثمار مواردها الزراعية والرعية، فضلاً عن مردودها السياحي.

تشهد عيون أرغش حركة نزوح معاكس مع نهاية فصل الصيف باتجاه بشري، وذلك بالتزامن مع اقتراب موسم البرد الذي يبدأ في الخريف، وتتغذى بالثلوج شتاءً.

وفي سياق البحث في الدوافع الاقتصادية المعيشية للنزوح عبر السلسلة الغربية، فقد أظهرت الدراسة أن عدداً من العائلات المسيحية المارونية، التي تتعاطى العمل الزراعي، قد وفدت من بلدة بسكنتا في قضاء المتن إلى السهل المحيط بمدينة بعلبك لاستثمار أراضيها الخصبة في الزراعة، ومع استمرار التوافد في حقبات زمنية مختلفة تزايدت أعداد المزارعين في السهل وأسست بلدات وقرى بات لكل منها مجلس بلدي ومختار، مثل: بلدتا طليا وحوش بردى، التي يسكنهما آل أبي حيدر، الوافدين من بلدة بسكنتا المتنوية، ولا تزال النسبة الأكبر من عائلتهم تقيم فيها^(٣). ويفترض قدوم آل المر من بلدة بتغرين في المتن أيضاً إلى حوش بردى.

يستثمر في الزراعة ومساحات سهلية ذات تربة خصبة، ووفرة المياه. بلدة نبعا القدام، ويشكل النازحون من قضاء بشري الأكثرية الساحقة من سكانها، يستدل على ذلك من أسماء العائلات المنسوبة إلى البلدات التي قدموا منها، مثل الحدشيتي والبرقاشي، نسبة لبلدتي حدشيت وبقرقاشا في قضاء بشري، إضافة إلى آل ججع النازحين من بلدة بشري، ويشكلون أكثر من ثلث السكان. بلدة نبعا المحفارة، وهي أيضاً موئل للقادمين من قضاء بشري، وتحديداً عائلتي كيرون، والحدشيتي، إضافة إلى عدد قليل من القادمين من منطقة الضنية، والذين تنسب عائلتهم إلى تلك المنطقة أي الضناوي. بلدة الزرازير، وهي مقر لبعض النازحين من العاقورة، وتحديداً آل حبشي، الذين يشكلون سكان البلدة حصراً، وهي محاذية لدير الأحمر، وإنما مستقلة إدارياً عنها وتمتع بمجلس بلدي خاص بها. أخيراً، وادي عيون أرغش، وهو مظهر كارستي^(١)، غني بالينابيع التي تتخذ شكل برك كبيرة، يتبع إدارياً لبلدة نبعا، وهو يشهد نزوحاً موسمياً، من بلدة بشري على السفوح الغربية باتجاه عيون أرغش، حيث يسكن

(٣) من مقابلة مع أحد أبناء البلدة من المسنين.

(١) أبو العينين. المرجع السابق.

(٢) من المشاهدة الميدانية، صيف ٢٠١٧.

٣ - حركة النزوح الداخلي من المجال الجردى إلى البلدات والقرى في المجال السهلى (النزوح المعاصر والمستمر)

إن أصل معظم سكان منطقة بعلبك الهرمل، ومدينة بعلبك ومحيطها عموماً، يعود للهجرات عبر السلسلتين الغربية والشرقية باتجاه السفوح الجردية الوعرة للسلسلتين، هذا ما خلص إليه البحث الأول. لكن هذه الحركة لم تكن نهاية المطاف بالنسبة إلى أولئك السكان، فهم لم يستقروا بصورة نهائية في هذه الجرد، التي لا توحى بالأمان الاقتصادي والاجتماعي، ولا هم غادروها بصورة نهائية.

لقد نزح السكان، وبشكل خاص العشائر منهم، من المناطق الجردية، التي ذكرت في مكان آخر من هذا البحث باتجاه المناطق القريبة من المدن، أو إلى البلدات والقرى، الواقعة على الطريق الدولي، الذي يربط بين مدينة بعلبك ومدينة حمص السورية، أو إلى البلدات التي باتت في مرحلة التحول المديني، أو حتى إلى المدن نفسها، ومن النازحين من أنشأوا بلدات وقرى جديدة أضيفت إلى خريطة البلدات والقرى في بعلبك الهرمل، وأعطت أسماء لتلك البلدات والقرى.

وفي السياق نفسه، لا بد من تصنيف تلك الحركات المجالية للسكان، حسب أسبابها ودوافعها، وهي كما يلي: اقتصادية - ديموغرافية، سياسية، اجتماعية، وأمنية.

أ - النازحون للأسباب الاقتصادية - الديموغرافية:

إن المجال الجردى، الواقع في ظل المطر، يتسم بقلّة التساقط، وشحه بالمياه عموماً، إضافة إلى انخفاض درجات الحرارة لفترات طويلة من السنة، فضلاً عن بنيته الجبلية الوعرة، والشديدة الانحدار بمعظمها، وهو ما تم تناوله في بداية هذه الدراسة. هذه العوامل مجتمعة تنعكس فقراً في الإنتاج الزراعي والحيواني، لا سيما اقتصار فترة الرعي على نهاية فصل الربيع وبعض فصل الصيف.

ترافق هذا الواقع مع تدفقات بشرية جديدة من وراء الجبال^(١)، أي من السفوح الغربية للسلسلة الغربية، وبالتالي التسبب بالضغط الديموغرافي على الموارد الطبيعية والاقتصادية. كما أن معدل النمو الطبيعي للسكان في المناطق الجردية، الذي فاق ٣٠ بالألف، إستناداً إلى المعدل الوطني في سبعينات القرن المنصرم^(٢)، قد أحدث

(١) التدفقات البشرية المعنية، هي حركة النزوح الحديث التي تم تناولها في سياق النزوح الذي حدث بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

(٢) اتخذ معدل النمو الطبيعي في لبنان خلال حقبة السبعينات كحد أدنى تقريبي للنمو السكاني في جرد منطقة بعلبك

مزيداً من الضغط على تلك الموارد، المحدودة أصلاً، والتي تعتمد على الرعي والزراعة البدائيين، كما على الصناعات البسيطة، كتحضير المون وصناعة الفحم لبيعه في الأسواق القريبة.

المساكن بالقرب من تلك الأسواق المستجدة، فنشأت بلدات جديدة.

ب - النازحون للأسباب السياسية - الاجتماعية:

لقد أحدث العهد الشهابي^(١) تحولاً جذرياً في حياة العشائر، المستقرة في جرد الهرمل، إذ عملت سياسة هذا العهد على استمالة العشائر وتشجيعهم على الانخراط في الحياة المدنية، وقد أدى ذلك إلى نزوح معظم زعماء العشائر، ومن ثم عامة العشائر باتجاه القرى والبلدات المجاورة^(٢). كانت الغاية من تلك السياسة استيعاب عشائر الهرمل واحتواء رقعة نفوذها، من خلال إفساح المجال أمام زعماء العشائر للانخراط في مشروع الدولة، وهو ما أدى إلى تشجيع أبناء العشائر على النزوح بأعداد كبيرة إلى المنطقة السهلية.

أمام تلك الأوضاع لم يجد السكان سبيلاً سوى البحث عن أراضٍ بديلة، فكان الخيار الأنسب هو النزوح مجدداً، وهذه المرة طوعياً إلى بيئة السهل الغنية، حيث فتحت أمامهم مجالاً أوسعاً للزراعة، كما للرعي. أما الأهم هو الاقتراب من الطريق الدولي زحلة - بعلبك - حمص الذي يُسهّل تواصلهم مع مركز المحافظة ومن ثم مع العاصمة، خصوصاً بعد تحول معظم الأجيال الناشئة إلى العمل في قطاع الخدمات الحكومية، وذلك من خلال التوجه إلى الوظائف الإدارية والعسكرية والتعليم الرسمي، إضافة إلى سهولة الوصول إلى الجامعات في زحلة، بعلبك وبيروت. وهكذا تعاضمت حركة النزوح إلى مناطق الأمان الاقتصادي، ومن ثم بدأ النازحون بتشكيل نواة قرى جديدة عبر المرافق الخدماتية والتجارية، من خلال بناء

من ناحية ثانية، لا بد من الربط بين العاملين السياسي والاجتماعي، إذ كانت السياسة الشهابية تجاه العشائر تهدف إلى تحسين أوضاعهم الاجتماعية، وذلك من خلال تأمين الخدمات التعليمية والثقافية، إضافة إلى تعريفهم إلى الحياة المدنية، ما

الهرمل، وذلك لافتقار الإحصاءات السكانية عن تلك المنطقة، ولا سيما خلال حقبة السبعينات، التي شهدت ذروة النزوح العشائري باتجاه السهل.

(١) نسبة للواء فؤاد شهاب، رئيس الجمهورية اللبنانية (١٩٥٨ - ١٩٦٤).

(٢) خليل، فؤاد. العشيرة، دولة المجتمع المحلي، «عشائر جرد الهرمل». دار الفكر اللبناني. ط: الأولى. بيروت ١٩٩٠. ص: ١٦٣.

شجع أبناء العشائر على الالتحاق بزعمائهم مقبلين على النزوح وترك الجرد وعيشه القاسي والصعب. كما أن الحراك الاجتماعي الذي حققه أبناء العشائر نتيجة لهذا النزوح قد شجع من بقي في الجرد على التماثل بأقاربه فالتحق بهم إلى المناطق السهلية.

وينطبق نزوح العشائر على ما تم بحثه، حيث نزح آل علوه بأعداد كبيرة من وادي التركمان، ووادي الرطل، في جرد الهرمل باتجاه مدينة الهرمل وأطرافها، ولا سيما حي المرح. كذلك نزوح نسبة كبيرة من آل ناصرالدين من الشربين، في جرد الهرمل، باتجاه الرقية كما إلى قرى وبلدات البويضة، المنصورة، سهلات الماء، والقصر في سهل الهرمل، إضافة إلى نزوح بعض فروع آل ناصر الدين إلى بلدة العين في قضاء بعلبك. وكذلك فقد نزحت نسبة كبيرة من آل دندش من قرى وادي النيرة، وادي بنيت، مراح النعواس، والزويتيني في جرد الهرمل إلى مدينة الهرمل وبلدات العين، النبي عثمان، اللبوة، وزبود في قضاء بعلبك، ويشكلون نسب قليلة من سكان تلك البلدات. وفي السياق ذاته فقد نزح قسم من آل جعفر من قرى البستان، جوار الحشيش، الحميرة، وفيسان في جرد الهرمل إلى بلدة القصر في سهل الهرمل، وكذلك فقد نزح قسم كبير

من آل جعفر من بلدة دار الواسعة في جرد بعلبك إلى حي الشراونة في شمال مدينة بعلبك. بالإضافة إلى ما تقدم فقد نزح قسم كبير من آل زعيتر من بلدات حدث بعلبك، ريحا والكنيسة في قضاء بعلبك، إلى حي الشراونة، حيث يتقاسمون الحي مع آل جعفر، وباتت تسمية الحي - شراونة الزعيترية - وشراونة الجعافرة. وفي السياق نفسه شهد عقد الستينات تراجعاً حاداً في عدد سكان بلدة الكنيسة من ٣٥٠ إلى ٥٠ نسمة خلال خمس سنوات فقط، وقد نزحوا باتجاه الضاحية الشرقية لمدينة بيروت^(١)، حيث سميت المنطقة التي نزحوا إليها فنار الزعيترية، نسبة إلى النازحين من بلدتي الكنيسة وريحا.

يتبين لنا مما تقدم، أثر النزوح الداخلي من المجال الجردى باتجاه المنطقة السهلية، ولا سيما على طرفي الطريق الدولي على البنية الاجتماعية في كل من البلدات الواقعة في ذلك المكان، من خلال تعدد العائلات والعشائر المقيمة، أو التنوع الديني والطائفي، على سبيل المثال لا الحصر مدينة بعلبك، إضافة إلى بلدات دورس، مقنة، اللبوة، والعين. وينطبق هذا الواقع على البلدات التي اتخذت الطابع المدني أيضاً، والتي باتت تستقطب سكان الجرد،

(١) Sanlaville. Loc. Cit. p: 88.

كبلدة الهرمل، إضافة إلى البلدات والقرى السهلية، كالبويضة، سهلات الماء، والقصر في قضاء الهرمل.

في المقابل فإن البلدات والقرى الجردية التي قدمت منها تلك العائلات والعشائر تتميز بتكوينها الأحادي أو الثنائي العائلة أو العشيرة، وهو ما يؤكد فرضية النزوح منها إلى البلدات المتمدنة.

ج - النزوح للأسباب الأمنية:

وهي حالات قليلة ومحدودة قياساً للأسباب التي عرضت سابقاً. إن الأسباب الأمنية من الممكن حصرها بالصراع بين العشائر والعائلات مع بعضها، وقد كانت نهاية تلك الصراعات بنزوح الطرف الأضعف إلى مناطق أخرى لتأمين متطلبات الحياة، التي خسرها بعد مغادرته أرضه. وفي هذا المجال تجدر الإشارة إلى ثلاث حالات متشابهة، الأولى نزوح عائلة البزال من قريتهم الجردية حربتا إلى المنطقة السهلية، تحديداً قرية التوفيقية، وذلك بعد صراعات عائلية، مع آل المولى. وقد تزايدت أعداد آل البزال، بالنمو الطبيعي والنزوح من حربتا، وباتوا يشكلون قرية لوحدهم، وهكذا أبدلوا إسم التوفيقية^(١)، بالبزالية،

وذلك نسبة لعائلة البزال، وهي تقع إلى الجنوب من بلدة اللبوة، وباتت تنعم ببلدية مستقلة. أما الحالة الثانية، هي نزوح عائلة كنعان من بلدة بوداي، الواقعة على السفوح الشرقية للسلسلة الغربية إلى قرية العلاق، والواقعة في سهل بعلبك، وذلك على خلفية الصراعات مع آل شممص. والحالة الثالثة، فهي نزوح آل عبيد من جرد الهرمل باتجاه بلدة قرحا في محافظة عكار^(٢) عام ١٩٥٨م، وذلك نتيجة النزاعات الدموية مع آل ناصر الدين. وبعد فترة قصيرة نزح نصف آل عبيد من قرحا باتجاه بلدة بياقوت، في ضواحي بيروت الشرقية، حيث عادوا وتهجروا منها خلال الحرب الأهلية سنة ١٩٧٥ م متجهين إلى بلدة الأنصار في قضاء بعلبك^(٣)، الواقعة جنوب مدينة بعلبك، بين بلديتي دورس والطيبة، وهي من البلدات الحديثة النشأة، والمستقطبة للسكان من بلدات وقرى عدة في بعلبك الهرمل، وتنعم ببلدية مستقلة منذ العام ٢٠١٦م.

د - البلدات والقرى التي نشأت جراء النزوح من الجرد الغربي باتجاهها - الخريطة (٢):

بالاستناد إلى العوامل المتعددة المشار

(١) لا يزال الإسم الرسمي للبلدة هو التوفيقية.

(٢) ورد في هذه الدراسة قريتين باسم قرحا، الأولى في قضاء بعلبك ويقطنها آل الموسوي، أما الثانية المذكورة في هذه الصفحة، إحدى قرى وادي خالد، تتبع إدارياً لمحافظة عكار.

(٣) من مقابلة مع مشهور عبيد، كبير العشيرة، الذي لا يزال يذكر النزوح الأول من الهرمل، وخلفياته.

الضغط الديموغرافي المتنامي على الأرض في بلدة مقنة. تتبع الجمالية إدارياً وعقارياً لبلدة إيعات، لكن سكانها يطالبون بفصل بلدتهم عن بلدة إيعات عن طريق استحداث بلدية خاصة بهم.

أخيراً، بلدة الحلانية، نسبة لآل الحلاني، تأسست، حسب تقديرات كبار السن من أبنائها في العام ١٩٦٩م، لتشمل آل الحلاني المنتشرين في عدد من قرى وبلدات بعلبك الهرمل، أبرزها نيحا، قصرنبا، وحربتا، ويبدو أنها البلدات التي وصلوا إليها عند قدومهم من السفح الغربي للسلسلة الغربية. وتجدر الإشارة إلى أن بلديتي الأنصار والبزالية السالفتي الذكر هما من البلدات الحديثة النشأة أيضاً.

الخريطة - ٢: خريطة البلدات الحديثة النشأة في بعلبك - الهرمل.



تخلص هذه الدراسة إلى أن الأكثرية الساحقة لسكان القرى والبلدات الواقعة في المجالين الجردي والسفوح الدنيا، غرب محافظة بعلبك الهرمل قد نزحوا من السفوح الغربية للسلسلة الغربية، وتحديداً من أفضية كسروان وجبيل بشكل رئيسي،

إليها آنفاً، بينت الدراسة الميدانية أن البلدات والقرى التالية نشأت وتمددت إما بعيداً عن البلدات القديمة، أو في ضواحيها، ثم انفصلت مع تضخم حجمها السكاني واتساع مساحتها. أبرزت تلك البلدات، الأهمزية، نسبة لآل أمهز، الذين اتخذوا هذه الكنية من بلدة قهمز الجبيلية والتي يرجح أنهم قد أتوا منها إلى نبعا. وتأسست الأهمزية تدريجاً، وعلى مراحل، بدءاً من سنة ١٩٨٠م، بعد نزوح آل أمهز من بلدة نبعا الجردية باتجاه بلدة اللبوة السهلية ليستقروا جنوبها، ومع زيادة أعداد النازحين واتساع مساحتها تحولت إلى بلدة شبه مستقلة عن اللبوة، ولكن تابعة إدارياً لها. وكذلك رسم الحدث، التي نشأت تدريجاً، في نهاية السبعينات، وذلك مع النزوح المتزايد من بلدة شعت، ولا سيما من عشائر وعائلات الحاج حسن، حرب، شمس، العرب، والقطار، وهي تتبع إدارياً لبلدة شعت. إضافة إلى بلدة المقراق، التي وفدت إليها عائلات علام من وادي الرطل في جرد الهرمل، أمهز من نبعا، البزال من حربتا، وشريف من اليمونة. والجمالية الواقعة إلى الشمال من مدينة بعلبك بمحاذاة تل الأبيض، علماً أن الاسم الرسمي للقرية هو وادي الصفا، وقد سميت بالجمالية نسبة لآل جمال الدين الذين أسسوها بعد قدومهم إليها تباعاً من بلدة مقنة، نتيجة

إضافة إلى البترون، الضنية، وعكار على نطاق أضيق.

جبل المكمل غير متوفر في غير أشهر الصيف.

كما توصلت الدراسة إلى معالجة دوافع ونتائج النزوح عبر سلسلة جبال لبنان الغربية من محافظتي الشمال وجبل لبنان إلى النطاق الجردى الغربي من محافظة بعلبك الهرمل، والتي تبين أنها نتيجة للعوامل الدينية، المذهبية، الاقتصادية والسياسية، التي دفعت بتلك الموجات البشرية إلى التدفق باتجاه السفوح الشرقية للسلسلة الغربية في مراحل زمنية مختلفة، وإنشاء القرى والبلدات على تلك السفوح، على الرغم من تصنيفها مناطق طاردة للسكان، نظراً لظروفها المناخية المتطرفة نسبياً، التي جعلتها فقيرة بالمياه، إضافة إلى بنيتها التضاريسية الوعرة، وتربتها الفقيرة في المجال السهلي.

إضافة إلى ما تقدم، توصلت الدراسة إلى تحديد المسالك الجبلية التي اعتمدها الجماعات النازحة للانتقال بين سفحي السلسلة، وهي من الشمال إلى الجنوب، القبيات - بيت جعفر - الهرمل، سير الضنية - جباب الحمر - الهرمل، بشري - الأرز - عيناتا، المنيطرة - اليمونة، وفاريا - الحدث - بعلبك.

كما أظهرت الدراسة أن حركات السكان لم تتوقف عند المجال الجردى، بل إن مسلسل النزوح استمر من الجرد نزولاً نحو السفوح القريبة من السهول، وانتهاءً بالمجال السهلي، وهكذا انتقلت الدراسة لتفسير أسباب النزوح من النطاق الجردى إلى النطاق السهلي من المحافظة، التي اتضح أنها بسبب العوامل الديموغرافية - الاقتصادية، والاجتماعية - السياسية، إضافة إلى العامل الأمني، وهو ما نتج عنه إعادة التوزيع الجغرافي للسكان، من خلال التوسع الأفقي لبعض البلدات السهلية، ونشوء بلدات وقرى جديدة، لم تكن موجودة على الخريطة من قبل، ولا سيما تلك التي ظهرت على الطريق الدولي زحلة - بعلبك - حمص.

من ناحية أخرى فإن لجوء تلك المجموعات البشرية إلى النزوح الجماعي باتجاه بيئة كتلك، هو ما عزز فرضية النزوح القسري من أقضية البترون، جبيل وكسروان. وحتى النزوح الطوعي، تحت وطأة الضغوط الاقتصادية من قضاء بشري، ذي المناخ البارد شتاءً، ومنحدراته الشديدة باتجاه وادي قاديشا، ومن ثم صعوبة الزراعة والرعي. وكذلك فإن الصعود للرعي نحو محيط غابة الأرز في

أخيراً، فإن السفوح الشرقية للسلسلة الغربية، التي كانت موئلاً للعشائر

والعائلات النازحة من السفوح الغربية، خلال حقبة زمنية مضت، قد تحولت تدريجاً، خلال حقبة زمنية لاحقة، إلى منطقة طاردة للسكان، ما أحدث فراغاً سكانياً في العديد من البلدات بسرعة قياسية، ونمواً عمرانياً عشوائياً في البلدات الحديثة النشأة، الواقعة على طريق زحلة - بعلبك - حمص الدولي.

المصادر والمراجع العربية

- ١ - أبو العينين، حسن سيد أحمد. لبنان، دراسة في الجغرافيا الطبيعية. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٨٠.
- ٢ - أبو شقرا، نايل. البنى السكانية في جبل لبنان ١٢٥٠ - ١٨٥٠: تحولات ونتائج. بحث منشور في مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية. العدد ٣، شتاء ٢٠١٣.
- ٣ - بدران، شارل جورج. أطلس العالم. مطابع فالارد (مكان النشر غير محدد). ١٩٧٨
- ٤ - بلاد جبيل، أرضاً وشعباً. الحركة الإنمائية لبلاد جبيل. الطبعة الأولى ١٩٩١.
- ٥ - بن يحيى، صالح. تاريخ بيروت: وهو أخبار السلف من ذرية بحت بن علي، أمير الغرب ببيروت. تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال سليمان الصليبي. دار المشرق. بيروت ١٩٦٩.
- ٦ - جمع، غازي. تاريخ بشري الحديث ١٤١٥ - ١٩٢٠. بشاريا للنشر. بيروت ١٩٩٤.
- ٧ - حمادة، سعدون. تاريخ الشيعة في لبنان، تهجير الشيعة من جبل لبنان. المجلد الثاني. ط: ٢. دار الخيال. بيروت ٢٠١٣. ص: ٣٨٣.
- ٨ - حمادة، سعدون. الثورة الشيعة في لبنان ١٦٨٥ - ١٧١٠. دار النهار. ط: الأولى. بيروت ٢٠١٢.
- ٩ - حيدر أحمد، علي راغب. المسلمون الشيعة في

- كسروان وجبيل، سياسياً تاريخياً إجتماعياً. ط: ١. دار الهادي. بيروت ٢٠٠٧.
- ١٠ - كرم، عصام فريد. تاريخ دير الأحمر، منطقتها وعائلاتها. شركة توش دار. ذوق مكابيل ١٩٨٠.
- ١١ - المعلوف، عيسى اسكندر. تاريخ الأسر الشرقية. دار رياض الريس.
- ١٢ - فاعور، علي. أطلس لبنان. دار المؤسسة الجغرافية. بيروت ٢٠٠٧.
- ١٣ - فاعور، علي. جغرافية التهجير. دراسات ميدانية، وقائع وحلول. الطبعة الأولى. دار المؤسسة الجغرافية للدراسات والطباعة والنشر. بيروت ١٩٩٣.
- ١٤ - خليل، فؤاد. العشيرة، دولة المجتمع المحلي، «عشائر جرد الهرمل». دار الفكر اللبناني. ط: الأولى. بيروت ١٩٩٠.
- ١٥ - خريطة لبنان. إصدار جيوبروجكتس. بيروت، التاريخ غير محدد.

المصادر والمراجع الأجنبية

- 1 - Salame, Michel. Une Tribu Chiite Des Montagnes De Hermel (Liban), Les Nacer Ed Dine (Article). Revue de Geographie de Lyon. Volume 32, Issue 2, 1957.
- 2 - Salibi, Kamal. A House of many Mansions, the History of Lebanon reconsidered. Published by: University of California Press, Berkley and Los Angelos - California. october 1990.
- 3 - Salibi, Kamal. The Modern History of Lebanon. Weidenfeld and Nicolson. London. Third impression. May 1968.
- 4 - Sanlaville, Paul. Les regions Agricoles du Liban. Revue de Geographie de Lyon. 1963. Volume 38.
- 5 - Yordanov, Y. V. (1962). "Aperçu succinct sur l'hydrogéologie du Liban", Dar El Fann, Beirut.

المواقع الإلكترونية:

<http://www.deirelahmar.com/>

الماء كشخصية رئيسة في قصة «عالم الماء» لميخائيل مسعود المقتبسة عن «موباسان» الفرنسية

مهدي شمص

مقدمة

التي نقلت من أصلها الفرنسي أو الإيطالي أو الإنجليزي ومُثلت تارة بالعربية الفصحى وتارةً باللسان الدارج، (الأداب ١٩٧٢، ٦، ٩٦)^(٣). واقتبس تعني: الشاعر أو الناثر ضمن كلامه من كلام غيره^(٤)، ويدل هذا الاقتباس على أن حركة التبادل الثقافي بين الأمم كانت منتشرة بين الشرق والغرب، يضاف إلى ما تقدّم عملية الاقتباس منذ قصص «ألف ليلة وليلة»، «كليلة ودمنة»، وهي مجموعة قصص مقتبسة عن الأدب الهندي وقد نقلها ابن المقفع إلى العربية من اللغة الفهلوية الفارسية والتي يرجح بعض الباحثين أن ابن المقفع قد أضاف إليها بعض الأبواب والأمثال^(٥). انتشر كتاب «كليلة ودمنة» في الشرق والغرب وقد أخذ

إن عملية الاقتباس في الآداب ليست إشكالية جديدة وإنما هي قديمة متجددة بتجدد الآداب وتتابع الأجيال. والاقتباس يعني نقل أثر أجنبي إلى لغة أخرى بعد إدخال تعديلات على النص الأصلي وأحياناً على الأفكار الواردة فيه، فإذا اقتصر الأخذ على الفكرة وشيء من المضمون فهو اقتباس معتدل عادة، أما إذا اشتمل الأخذ معظم ما جاء في الأصل فهو مسخ له^(١) وقد يأتي الاقتباس بمعنى تحديث أثر قديم إما من حيث إعادة عرضه بطريقة مشوّقة، وإما بتبسيط مفرداته وعباراته؛ ليصبح مألوفاً لدى القراء^(٢). إن موجة عارمة من الاقتباس والتحول قد غمرت المسرحيات

(١) جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص ٢٩.

(٢) (م، ن)، ص ٣٠. وقد يأتي الاقتباس بمعنى تضمن الكلام نثراً أو نظماً لشيء من القرآن والحديث.

(٣) (م، ن)، ص ٣٠.

(٤) (م، ن)، ص ٣٠.

(٥) «كليلة ودمنة»، ص ٧.

انتشار العلوم العربية على مختلف أنواعها في الغرب الذي كان يعيش في ظلمات الجهل. إن المسألة انعكست بعد خروج العرب من الأندلس وانهايار الخلافة العباسية وسيطرة العثمانيين على بلاد المسلمين ومقدراتهم، حيث مرّت المنطقة بحالة من التقهقر والتشتت فسميت هذه الفترة بعصر الإنحطاط.

أما فيما بعد فقد بدأت عيون الغربيين تتفتح على بلاد العرب للسيطرة على مقدراتهم، وبذلك يكون قد بدأ ما يسمّى بقضية الشرق.

في أثناء حملته على مصر قام نابليون بإرسال مجموعة من خمسين باحثاً وعالماً وفناناً لتدوين كل ما يشاهدونه في تلك البلاد، فكان لهذه الحملة الأثر الكبير في عملية التبادل الثقافي بين الحضارتين. كما قام العرب أيضاً بترجمة الكثير من الآداب اليونانية واللاتينية كمؤلفات أرسطو^(٢)، والإلياذة، وغيرها من المسرحيات اليونانية. ما يعيننا في عملية التبادل الثقافي هذه هو القصة التي تأخرت بالظهور عن الملحمة والمسرحية في أوروبا التي كان أول نشأتها في القرن الثاني بعد الميلاد، وكانت هذه القصص تتحدث عن المغامرات الغيبية

عنه أيضاً في الآداب الغربية وفيها مثلاً الفرنسية كالكاتب الفرنسي «لافونتين»^(١).

وسنعود إلى مناقشة الاقتباس بشيء من التفصيل من خلال قصة «عالم الماء» للدكتور ميخائيل مسعود، وهي مقتبسة عن «موباسان» الكاتب الفرنسي الذي بدأ حياته الأدبية شاعراً ثم عمل في البحرية ثم في وزارة التعليم^(٢). وسنتناول عنصر الماء، ونبيّن أهميته لدى الكاتب بعد أن نعرّف الماء ونبيّن أهميته لدى الشعوب القديمة ولدى المسلمين والمسيحيين ودخوله في الطقوس الدينية عند العقيدتين.

حركة التبادل الثقافي بين الشرق والغرب

بدأت حركة التبادل الثقافي بين الشرق والغرب منذ عصور قديمة بفعل عوامل عديدة أبرزها: حركة التجارة بين مختلف الشعوب أو بفعل اختلاف الأجناس البشرية التي بدأت مع الرحالة وكان أبرزها في عهد الفتوحات الإسلامية وصولاً إلى الأندلس ثم الاستعمار الفرنسي للعالم العربي، حيث أن الغرب تأثر بالفكر العربي فضلاً عن الفنون والآداب وبعض العادات والتقاليد، فكانت الأندلس محجّة للعلماء والأدباء والفنانين الأوروبيين الذين كانوا يتوافدون من أنحاء العالم، فكان لذلك أبعد الأثر في

(٢) دائرة المعارف الحديثة، ج ٦، ص ٢٦.

(١) محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص ١٩١.

(٣) محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص ٢٣.

التي يعدل فيها الراوي ويقحم فيها أمالي خياله، وإحساسه، ومحضلات مواقفه الحياتية، وهناك أنواع من الحكاية منها:

أ - القصة الغريبة المثيرة للخيال.

ب - الحكاية الواقعية.

ج - الحكاية الماجنة التي تكشف عن العلاقات الحميمة بين الجنسين.

د - الحكاية الأسطورية المعنوية بالجنيات، وهي موجهة عادةً إلى الصغار وإلى الطبقة الشعبية^(٣).

ويتجه الأدب المعاصر في كتابة الحكاية نحو الواقعية المستقاة من الحياة نفسها. والحكاية أيضاً هي حادثة أو حوادث حقيقية متخيلة لا تُلتزم فيها القواعد العلمية للقصة بل يقصها الإنسان كما يعنّ له (الدسوقي، دراسات ص ٨)^(٤).

والخرافة تعني

١ - شعبياً: سرد خيالي شعبي وغفوي ذو معنى رمزي، وقد تعدل مفهوم الخرافة حسب التفسير الذي يعمد إليه الشارح.

وقد تتضمن تقليداً قديماً أو حكاية عن

في قصص من نوع الحب العذري أو عن الفروسية، وفي هذين النوعين برز التأثير العربي بشكل كبير^(١). ولا نغفل الذكر أنّ العرب قد تأثروا أيضاً بشكل كبير بالأدب الأخرى ونقلوا عنها آثارها في الشعر والنثر فأخذوا عن العرب عادات وتقاليد وأسماء لم يعرفوها من قبل.

وباختصار فإن التأثير والتأثير بين الشعوب لم يقتصر على جانب من جوانب الحياة وإنما شمل مجمل القضايا التي يتعرض لها الإنسان بفعل عملية المحاكاة أو توسع مدارك المعرفة المتنقلة والمتجددة في كل يوم.

تعريف القصة

لغة: أحوثة شائعة مروية أو مكتوبة يقصد بها الإمتاع أو الإفادة وقد عرفت بأسماء عدّة في التاريخ العربي منها الحكاية، والخبر، والخرافة^(٢). والحكاية تعني فناً في غاية القدم يرتكز على السرد المباشر المؤدّي إلى الإمتاع والتأثير في نفوس السامعين، يتخذ موضوعاً له الأشياء الخيالية والمغامرات الغريبة، وقد يُعنى بالأمور الممكنة الوقوع أو الأحداث الحقيقية

(١) (م، ن)، ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٢) جوبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص ٢١٢. من مميزات هذا الفن السرد فيه يختلف عنه في الرواية والأقصوصة معاً وإن كان فيه ملامح منهما.

(٤) (م، ن)، ص ٩٧.

(٣) (م، ن)، ص ٩٧.

شخصيات وأحداث وتشير عادة إلى ظاهرة طبيعية أو إلى مرحلة تاريخية أو إلى مضمون فلسفي أو خلقي أو ديني، وهذا ما يميّز الخرافة عن الرمز والمجاز المحدودَي المدلول^(١).

٢ - أدبياً: حكاية قصيرة نثرية أو شعرية تبرز أحداثاً أو شخصيات وهمية تتراءى خلالها أحداث وشخصيات واقعية من حيث أن الذهن يتتبع عند قراءتها أو سماعها المعنى الظاهر والمعنى الباطن في الوقت نفسه وقد يكون أبطالها أناساً أو حيوانات أو حشرات أو نباتات أو معادن^(٢).

أما معنى القصة حديثاً: فقد احتفظت اللفظة بالمدلول القديم، وأنزلها الكتاب ومعرّفوا الأدب أيضاً في مكان الرواية ونظروا إلى الكلمتين على أنهما تدلان على فن واحد بحيث اختلطتا في عبارة واحدة لدى معظمهم حتى أن الواحد منهم يتكلم عن رواية فتبادر كلمة قصة إلى لسانه والعكس صحيح^(٣).

وقصّاص تعني: من حرفته قراءة القصص في المجتمعات أو روايتها^(٤).
والرواية تعني القصة الطويلة أيضاً

فتتساوى في نظرة المؤرخين اللفظتان من حيث المدلول، غير أنه يلاحظ عادة أن لفظة الرواية بمعناها العصري حديثة العهد ولفظة القصة قديمة قدم الآداب العالمية^(٥).

أما الأقصوصة: فهي نوع أدبي يتميّز عن القصة والحكاية أنّ السرد فيها مركّز عامة على حدث فرد، فتدرس أبعاده النفسية، وعلى شخصيات قليلة العدد ليست رموزاً أو كائنات خيالية، فلا تعرض من هذه الشخصيات إلا جانباً نفسياً يهم العامة. وهي تتطلب الإيجاز والانتقال السريع في الموقف وإبراز الملامح المعبرة بوضوح كما وتقضي كتابتها اطلاعاً واسعاً ومهارة خاصة^(٦).

وقد عمل مجموعة من الأدباء على توسيع آفاقها أبرزهم «غي دي موباسيان» في فرنسا، و«غوغل» و«تشيكوف» في روسيا، «ومنغيا» في إنجلترا، «وهنمغواي» في أمريكا الشمالية^(٧). وسنتناول في هذا البحث عنصر الماء في قصة «عالم - الماء» للدكتور ميخائيل مسعود وسنبداً بتعريف الماء: الميم مماله والألف الممدودة: حكاية أصوات الشاعر، قال ذو الرمة:

(٢) (م، ن)، ص ١٠١.

(٤) (م، ن)، ص ٢١٢.

(٦) (م، ن)، ص ٣٠.

(١) جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص ١٠١.

(٣) (م، ن)، ص ٢١٢.

(٥) (م، ن)، ص ١٢٨.

(٧) جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص ٣٠.

لا ينعش الطرف إلا ما تخونه

دلع يناديه، باسم الماء، مبعوم

وماء: حكاية صوت الشاه مبني على الكسر، وحكى الكسائي: باتت الشاء ليلتها ما ما وماه وماه، وهو حكاية صوتها^(١). وتأتي أيضاً بمعنى سائل لا لون له ولا رائحة، مركب من الأوكسجين والهيدروجين، أصله «موة» ج مياه وأمواه^(٢).

الماء عند الشعوب القديمة

عرفنا أن السمة الغالبة في شبه الجزيرة العربي - مهد الأدب العربي - الجذب والجفاف؛ لأن غالب أرضها مناطق صحراوية لا تساعد ساكنيها على حياة هادئة مستقرة وهذا ما دعا البدوي إلى الارتحال في معظم الأحيان من مكان إلى مكان طلباً للكأ والماء^(٣). إن تنقل القبائل من أجل الماء الذي هو مصدر حياتهم لا يعني أن تلك الحركة هي حركة دائمة مستمرة بحيث أن التنقل والترحال كان لها سنة لازمة، ولو أردنا تثبيت منازل القبائل على خريطة جزيرة العرب - استناداً إلى روايات أهل الأخبار عنها - لوجدنا أن

منازل تلك القبائل لم تتبدل إلا لضرورات قاهرة تُكره القبيلة على ترك ديارها والارتحال عنها إلى منازل جديدة كأن ينحبس المطر زمناً طويلاً فييبس الزرع ويهلك الضرع^(٤).

وكان الإنسان البدائي يخاف من غضب الآلهة الذي قد يؤدي إلى الجذب والجفاف، فتوسلوا إلى الآلهة وقدموا لها القرابين لاستئصال المطر^(٥).

الماء عند المسيحيين

الماء عند المسيحيين من الرموز المقدسة التي تدعو للدخول في ملكوت السموات «ليس أحد يقدر أن يدخل ملكوت السموات ما لم يولد من ماء وروح»^(٦)، من هنا كانت فكرة المعمودية بالماء التي تمثل عودة الإنسان إلى رحم أمه ليولد من جديد كما تعمّد المسيح من نهر الأردن^(٧).

وفي الإنجيل ما يشير إلى قدسية الماء في حياة المؤمنين المسيحيين، قال المسيح: «... أنا أعطي العطشان من ينبوع ماء الحياة مجاناً»^(٨)، وقال للمرأة السامرية: «كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً وأما من

(١) ابن منظور، لسان العرب.

(٢) حسين الحاج حسن، أدب العرب في الجاهلية، ص ٢٠.

(٣) حسين الحاج حسن، حضارة العرب في عصر الجاهلية، ص ٦٥.

(٤) (م، ن)، ص ٦٦.

(٥) رشيد مبارك، بيئات عربية وشرقية، يوحنا، ٥: ١، ص ١٥٦-١٥٧.

(٦) (م، ن)، ص ١٥٢.

(٧) (م، ن)، ص ١٥٢.

يشرب من الماء الذي أعطيه أنا له فلن يعطش أبداً، فإن الماء الذي أعطيه له ينقلب فيه نبعاً يتفجر حياة أبدية»^(١).

كما أن الماء يمثل عند المسيحيين مية الموت والانبعاث، حيث أن الماء رمز كوني يبدأ بالذات، وينتهي بالمجتمع، ومن هنا نجد أن الماء قد دخل في كثير من الطقوس المسيحية، كما أنه يعتبر من العناصر التي من خلالها قام المسيح ببعض المعجزات كالمشي على الماء: إذ «في الهزيع الرابع من الليل مضى إليهم يسوع ماشياً على البحر»^(٢) فلما أبصره التلاميذ ماشياً على البحر اضطربوا قائلين: إنه خيال، ومن الخيال صرفوا»^(٣).

كذلك فإن الماء يمثل رمزاً من رموز الأمومة، وهذا الرمز يرتبط بألم المسيح العذراء^(٤). وقد أكثر الشعراء والأدباء من الرموز المسيحية للدعوة إلى الإيمان والتعلق بالله كما فعل حاوي، والخال، والسياب الذي عبّر في الكثير من قصائده عن المطر كرمز في عودة الحياة والانبعاث^(٥).

الماء عند المسلمين

للدلالة على الماء عند المسلمين نسلط الضوء على بعض الآيات القرآنية التي

توضح هذه الصورة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلُوكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

ويلتقي المسلمون والمسيحيون على اعتبار الماء عنصراً لعودة الحياة والانبعاث: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَنَصْرَفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقد دخل الماء كعنصر أساسي في معجزات الأنبياء حيث أن الشعوب القديمة كانت تعاني دائماً من قلة الماء: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَعْلَمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾

(٢) إنجيل متى ١٤ : ٢٦ - ٢٧، ص ٦٨.

(٤) (م، ن)، ص ١٥٩.

(١) (م، ن)، رؤيا يوحنا: ٢١ : ٦، ص ١٥٣.

(٣) رشيد مبارك، بيئات عربية وشرقية، ص ١٥٣.

(٥) (م، ن)، ص ١٥٩.

حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نِقَالًا سُقِنَهُ لِمَلِكٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿الأعراف: ٥٧﴾.

كذلك يدخل الماء في الطقوس العبادية ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦].

ومن الطبيعي أن يدخل الماء في منظومة الثواب والعقاب، فالماء يكون عذاباً للكافرين ورحمة للمؤمنين: ﴿مَنْ وَرَاهُ جَهَنَّمَ وَسَفَى مِنْ مَاءٍ صَكِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣]، ويكون ثواباً كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١]. وهكذا نجد أن الماء قد دخل الطقوس الدينية عند المسلمين والمسيحيين وبذلك يخرج الماء عن كونه مادة إلى وسيلة أو إلى فكرة دينية أو إنسانية.

الماء في كربلاء

كربلاء مأساة إنسانية حصلت في سنة ٦١ هجرية الموافق ٦٨١ ميلادي، وهي

منطقة في العراق قتل فيها سبط رسول الله (ص)، حيث أعد يزيد بن معاوية جيشاً من عشرات الألوف لإلزام الحسين بمبايعته فرفض الحسين مبايعته، وفي أثناء سفر الحسين إلى الكوفة حيث دعاه الناس للمجيء ومحاربة يزيد، فخذلوه وحاربوه، فقتل مع سبعين من أصحابه وأهل بيته على رمضاء كربلاء عطاشى بعد أن منعهم جيش يزيد من شرب ماء الفرات - وهو نهر عظيم كان بقربهم - وبقي عليه السلام هو ونساؤه وأطفاله حتى الرضيع منهم منى دون ماء، وجميع من معه، عطاشى ثلاثة أيام بلياليها أيام الحر الشديد، حيث قضوا جميعاً^(١)، وسببت النساء من بلد إلى بلد وهن بنات رسول الله (ص) على جمال بغير غطاء ولا وطاء، ناحلات الأجسام مسودات من أثر الضرب حتى على حالهن الأعداء^(٢)، وكان للماء أثر كبير في القدرة على القتال، وكانت أصوات الأطفال والنساء تعلو طلباً للماء فلا يكون جواب الأعداء إلا السهام والنبال وقتل الرضيع والنساء وحرقت خيامهن. ولا يزال الشيعة حتى اليوم يبكون الإمام الحسين عليه السلام الذي قتل مظلوماً عطشاناً في منطقة يكثر فيها الماء مع علمهم أنهم يقتلون سبط نبيهم وأهل بيته، والحقيقة أن العالم يبكي لهذه المصيبة عند

(٢) (م، ن)، ص ٦٦.

(١) مهدي العوادي، الإمام الحسين، ص ٦٣.

سماعها؛ لأنها بحق جريمة بحق الإنسانية وأبسط حقوق الإنسان^(١).

نصل الآن إلى تسليط الضوء على عنصر الماء كشخصية بطلّة في قصة «عالم الماء» لميخائيل مسعود المقتبسة من «موباسان»، ويذهب بعض المنظرين الغربيين إلى أن إشكال السرد يمكن، وانطلاقاً من علاقتها الحميمة بالشخصية، أن تقدم تحت طائفة من الزوايا منها:

١ - أن تقدم الشخصية نفسها.
٢ - أن تقدم الشخصية سواها من الشخصيات الأخرى.

٣ - أن تقدم الشخصية نفسها بنفسها والسارد والشخصيات الأخرى معها.
٤ - أن يقدم الشخصية سارداً آخر^(٢).

وفي قصة «عالم الماء» قد قدم السارد نفسه والشخصيات في آنٍ معاً، وقبل الغوص في الماء في «عالم الماء» لا بدّ من التعريف بالقصة وبصاحب القصة.

التعريف بالقصة

«عالم الماء» مقتبسة من «موباسان» (١٨٥٠-١٨٩٣م) كاتب فرنسي بدأ حياته الأدبية شاعراً عمل في البحرية ثم في وزارة التعليم. تدرب على الكتابة بتوجيه من الأديب

الكبير «فلوبير» مؤلف رواية «مدام بوفاري» الشهيرة، ومن أشهر مؤلفاته: «بيت تاليه» (١٨٨١م)، «مس هارين» (١٨٨٤م)، «قوى كالموت» (١٨٨٩م).

عاش في غرفة بعيداً عن الأضواء وكان يعلم أن الموت سيدهمه وفي قمة عطائه. في رواية «الهورلا» وصف «موباسان» بوعي المشكلات العقلية التي يعانيتها، وابتداءً من العام (١٨٨٩م) تحولت هواجسه إلى جنون فعلي، فأدخل إلى مصحّ للأمراض العقلية عام (١٨٩٢م) حيث توفي عام (١٨٩٣م)^(٣).

التعريف بصاحب القصة

الدكتور ميخائيل مسعود ولد في قرية حقل العزيمة، لبنان الشمالي، في الأول من أيار عام ١٩٤٤م. مارس مهنة التعليم في المدارس الرسمية والخصوصية، أنهى علومه العالية على نفسه فنال الإجازة في الأدب العربي في جامعة بيروت العربية والماجستير في اللغة العربية وأدبها من الجامعة اليسوعية وشهادة دكتوراه دولة فئة أولى من الجامعة اللبنانية الفرع الثاني^(٤).

تحدّث قصة «عالم الماء» في فصلها

(٢) عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص ١٧٦.
(٤) م، ن، جلد الكتاب.

(١) مهدي العوادي، ص ٦٤.
(٣) ميخائيل مسعود، الصراع، ص ١٥.

الأول عن رجل استأجر منزلاً على النهر قرب شاطئ النهر، وهناك تعرّف إلى صياد قديم كل أحاديثه عن الماء؛ فالماء بالنسبة إلى هذا الصياد كل شيء ومن دونه لا شيء على الأرض، وهو عالم بحد ذاته، هو الصراع، والأمل والخوف؛ أي أنه يختصر أو يختزن في داخله كل المعاني الإنسانية، والناس في رأيه لا يعرفون الكثير عن عالم الماء؛ لأنهم يعيشون على اليابسة في تناقضاتهم وصراخهم وشكاواهم، فالنهر يخون البحر، أما البحر فيبقى وفياً ويعيد لليابسة ما حمله النهر إليه. الناس لا يعرفون - كما يقول - الليالي المقمرة ولا وشوشات القصب، الناس لم يسمعوا أغنية الشاعر ولا يعرفون أسرار الماء بل يعتقدون على الطبيعة. وينهي الفصل الأول ببداية قصة سيحكيها في الفصل الثاني.

في الفصل الثاني يتحدث الصياد عن حادث حصل معه منذ عشر سنوات حيث كان عائداً بزورقه في ليلة مقمرة، فيتمدد في زورقه ويشعل غليونه ويرمي المرسى في النهر والضباب من حوله، وفجأة تعالي ضجيج الموج واشتدت الرياح وأخذ الزورق يصطدم بصفتي النهر وهو جالس لا يقوم بأي حركة، وعندما أراد الخروج من هذا المأزق، أراد أن يسحب المرساة فلم يستطع، وأخذ الخوف يدبّ في نفسه

والعرق يتصبب من جبينه والضباب الكثيف يحيط به حتى أنه لا يرى منه شيئاً، ثم أخذ الخوف يشتد به ولكن إرادته كانت أقوى فصرخ بكل قوته بعد أن فكر بأن الماء عالمه، فهل يخاف الإنسان من عالمه؟ ولكن صراخه لم يؤد إلى نتيجة، فتمدد على الزورق وحوله الكوابيس ورفع رأسه فإذا به محاط بالحدريات تسبح وتلعب بالماء ورأى منظرًا جميلاً كان قد سمع عنه من البحارة، وبعد لحظات تأمل وجد الصيادين الذين وصلوا بزوارقهم، فجمعوا قواهم وشدوا الحبل الثقيل، فالحبل قد علق بشيء ثقيل حيث كان هذا الشيء الثقيل جثة امرأة رُميت في النهر منذ زمن.

إذا فالماء إكسير الحياة وعالم خاص بكل تفاصيله، وهو صراع حقيقي بين الأمل والخوف أو بين كل تناقض في الوجود.

الماء يصارع اليابسة، والحركة تصارع السكون، وهذا الصراع الأبدي لا ينتهي ما دام في الحياة حركة وسكون، قوي وضعيف، غني وفقير، متسلط ومتسلط عليه، إنه صراع الطبقات.

الماء يدعو بكل حركته وصخبه إلى النهوض، إلى رفض الذل والخنوع، هو دعوة سياسية ترفض الخنوع في وجه الظالم، هو دعوة اجتماعية تحثّ المظلوم

على الرفض وعلى الحرية والعيش بكرامة: «إنما أنت ضجيج وسكون، وهدير صم آذان الدهور، أنت روح وحراك لا يموت»^(١)، نعم إنه ثورة على الغبن والضعف والخنوع، الماء يدعو للوحدة في وجه المصائب والمصاعب، يبدأ بيد نعيد أمجاد الماضي، نبني الأوطان ونزيل كل الركام «لو عقدنا العزم كي يبقى الوطن عالياً فوق المآسي والمحن»، «قم كما كنا على مرّ الزمن ساعداً يبقى، وعزماً، وانتشاراً»^(٢).

فالصراع بين اليابس والماء قديم متجدد يرتبط بقضايا الناس وأحوالهم، ثم ينتقل في الفصل الثاني الصراع إلى داخل الماء نفسه أي بين النهر والبحر، فالبحر أكثر وفاءً من النهر، النهر يحمل إلى البحر ما قذف إليه من اليابس فيعيد البحر ذلك الشيء إلى اليابسة، والنهر أكثر غدراً من البحر وأكثر خيانة، فالماء نفسه يعيش الصراع بين الغدر والوفاء، إنه عالم الحقيقة.

الماء في «عالم الماء» العنصر الأساسي الذي يحرك القصة أو هو البطل والشخصية الرئيسية التي تدور حولها كل القصة وكل الشخصيات الأخرى، وهو محور الحياة الذي تدور في فلكه قصة العالم بكل تناقضاتها ومرادفاتها. الماء وسيلة ثورة ورفض استفاد منها الكاتب لتوضيح فكرة سياسية، ولتوضيح نظرتة الاجتماعية وثورته على كل ما يحيط به من عالم ظالم وشعوب مضطهدة ومقهورة، الكاتب ينادي الضمائر الحيّة والنفوس الأبيّة للنهوض وتغيير الواقع المظلم إلى مستقبل مشرق.

وفي الحقيقة قد يكون الكاتب قد تأثر بالفكر المسيحي الذي ينتمي إليه، حيث أن الماء يدخل في الطقوس العبادية عند المسيحيين خاصة فكرة العمادة والتي تعني الانبعاث والحياة. فالقصة إذن دعوة للانبعاث والخروج من بين الركام، فهل يحمل الماء هذه المعاني؟ وهل تلقى الفكرة الانبعاث الحقيقي أذناً صاغية؟

(١) ميخائيل مسعود، الصراع، ص ٢١.

(٢) (م، ن)، ص ٢٢.

أدب الأطفال

مايا شاهين

وثيقاً ويتفق مع عالم الطفولة اتفاقاً عميقاً، ويجب أن يراعي خصائص مراحل الطفولة ويتدرج بها إلى الكمال، وذلك عن طريق اشباع احتياجاتهم في إطار المثل والانطباعات السليمة.

وعليه فإن أدب الأطفال في مجموعة الآثار الفنية التي تصور أفكاراً وإحساسات وأخيلة تنفق ومدارك الطفل وتتخذ أشكال القصة والشعر المسرحي والمقالة والأغنية وغيرها.

أدب الأطفال مفهومه، أسلوبه وأهميته

مفهوم أدب الأطفال

يُعرف أدب الأطفال أنه «شكل من أشكال التعبير الأدبي، له قواعده ومناهجه، سواء منها ما يتصل بلغته وتوافقها مع قاموس الطفل، ومع الحصيلة الأسلوبية للسنن التي يؤلف لها، أو ما يتصل بمضونه ومناسبتها لكل مرحلة من مراحل الطفولة، أو ما يتصل بقضايا الذوق وطرائق التكنيك في صوغ القصة، أو في فن الحكاية للقصة

مقدمة

للأدب مكانة وأهميّة خاصة في المجتمعات وذلك لما له من أثر عميق في النفوس، ولا شكّ في أنّ أدب الأطفال جزء حيوي من الأدب العربي ومتى حظي بالمكانة اللائقة به كان سبيلاً لتكوين شخصيّة سليمة خيرة. ويهتمّ أدب الأطفال بالعنصر الأكثر تأثراً وتأثيراً في المجتمع وهو الطفل. فالطفل هو رجل المستقبل ومن المهم إعداده لمواجهة مصاعب الحياة، ومن أن يتمكن من التغلّب عليها؛ ومواجهتها بمنظور يختلف عن أسلافه، كذلك فإنّ الأسلوب البسيط والمشوق الذي يعتمد هذا النوع يتماشى مع ذائقة الأطفال الذين يتصفون بعدم القدرة على تذوق الأدب المخصص للكبار.

ويعد أدب الأطفال تشكياً لغوياً ينتمي لنوع الأدب سواء كان قصة أو شعراً أو مسرحية يقدمه الكاتب تقديماً جيداً في إطار متصل بطبيعة الأدب ووظيفته اتصالاً

حتى الثالثة عشرة تقريباً، أمّا أسلوب هذا الأدب فيكون سهلاً واضحاً خالياً من التعقيد وحشد المشاكل، ولا يتجاوز المفاهيم المفهومة للطفل حسب نموه وقدرة استيعابه»^(٤).

ويُعرفه محمد رضوان أنه «الكلام الجيد الذي يُحدث في نفوس الأطفال متعة فنية سواء كان شعراً أم نثراً وسواء كان تعبيراً شفوياً أم تحريراً ويدخل في هذا المفهوم قصص الأطفال ومسرحياتهم وأناشيدهم»^(٥). وقد اتسع هذا المفهوم عند رشدي طعيمة ليشتمل: «الأعمال الفنية التي تنتقل إلى الأطفال عن طريق وسائل الاتصال المختلفة، وتشمل أفكاراً وأخيلة، تعبر عن أحاسيس ومشاعر تتفق مع مستويات نموهم المختلفة»^(٦).

ويُعرفه فتحي النمر أنه: الكتابات التي كتبت خصيصاً للأطفال في ضوء معايير تناسب مستواهم وخصائص نموهم ومتطلباتهم»^(٧). وقسم رافع يحيى الأدب إلى نوعين رئيسيين:

المسموعة^(١). وهو: «خبرة لغوية في شكل فني، يبدهه الفنان، وبخاصة للأطفال في ما بين الثانية والثانية عشرة أو أكثر قليلاً، يعيشونها ويتفاعلون معها، فيمنحهم المتعة والتسلية، ويدخل على قلوبهم البهجة والمرح، وينمي فيهم الإحساس بالجمال وتذوقه، ويقوي تقديرهم للخير ومحبته، ويطلق العنان لخيالاتهم وطاقتهم الإبداعية، ويبيّن فيهم الإنسان»^(٢).

ويُعرف هادي نعمان الهيتي أدب الأطفال في كتابه «أدب الأطفال، فلسفته، فنونه، وسائطه» بقوله الأطفال إنه: «الآثار الفنية التي تصور أفكاراً وأحاسيس وأخلية تتفق ومدارك الأطفال وتتخذ أشكال القصة والمسرحية والمقالة والأغنية»^(٣).

وكتبت الأدبية الناقدة ليئة غولدبرغ بشيء من التفصيل، مضيئة عناصر ومقومات أخرى، فهي تعرف أدب الأطفال أنه: «ذلك النوع من الأدب - نثراً أو شعراً - الذي يلائم في مضمونه وأسلوبه إدراك الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة

(١) أحمد زلط. أدب الطفولة أصوله ومفاهيمه - رواده، دار الأرقم للطباعة والنشر، ١٩٩٣م، ص ٣٠.

(٢) عبد الرحمن عبد الهاشمي، أدب الأطفال: فلسفته، أنواعه، تدريسه، دار المنهل، ص ٤٥.

(٣) محمود أبو فنة. القصة الواقعية للأطفال في أدب سليم خوري، العراق، دار الهدى للطباعة والنشر، ٢٠٠١م، ص ٢٥.

(٤) رافع يحيى. تأثير ألف ليلة على أدب الأطفال العربي، فلسطين، دار الهدى للطباعة والنشر، ٢٠٠١م، ص ٩.

(٥) محمد رضوان. أدب الأطفال مبادئه ومقوماته الأساسية، القاهرة، دار المعارف، ص ٨.

(٦) رشدي طعيمة. أدب الأطفال في المرحلة الابتدائية، القاهرة، دار الفكر العربي، ط ١، ١٩٩٨م، ص ١٩٩.

(٧) سمير أحمد. قصص وحكايات الأطفال وتطبيقاتها العلمية، عمان، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط ٢، ٢٠٠٩م، ص ٤٦.

أدب الأطفال بمعناه العام: وهو يعني الإنتاج العقلي المدون في كتب موجهة لهؤلاء الأطفال في شتى فروع المعرفة، مثل: كتب الأطفال العلمية المبسطة والمصورة، وكتبهم الإعلامية، ودوائر المعارف الموجهة إلى الأطفال.

أدب الأطفال بمعناه الخاص: وهو يعني الكلام الجيد الذي يُحدث في نفوس هؤلاء الأطفال متعة فنية سواء كان شعراً أم نثراً، وسواء كان شفويًا بالكلام أم تحريريًا بالكتابة، مثل قصص الأطفال ومسرحياتهم وأناشيدهم وأغانيتهم وما إلى ذلك»^(١).

اللغة والأسلوب في أدب الأطفال

يقصد بالأسلوب طريقة المؤلف في التعبير عن أفكاره وتوصيلها إلى القارئ أو السامع من حيث اللغة التي يستخدمها، ويتسع الأسلوب هنا ليشمل اختيار الكلمات وتركيبية الجمل والفقرات، وكذلك شكل التعبير ونبرات الكتابة التي يستخدمها المؤلف في قصته»^(٢).

وهناك معايير وشروط لا بد أن تتوافر

في الأسلوب الأدبي لأطفال هذه المرحلة، نجملها بما يلي، إذ من المفترض:

● أن تكون الكلمات قصيرة في عدد حروفها، ومألوفة لدى الطفل، وأكثرها من معجمه اللغوي.

● أن يستخدم الأسماء أكثر من الأفعال.

● أن تكون الكلمات ذات معنى محدد داخل السياق.

● أن ترمز الكلمات للمحسوسات مع الإقلال من الكلمات التي ترمز للمعاني.

● أن تكون الجملة المستعملة في القصة من النوع البسيط لا المركب.

● أن تشتمل الجملة على فكرة واحدة؛ وعدم التباعد بين ركنيها.

● استخدام الجملة المبينة للمعلوم.

● الاعتماد على الحوار أكثر من السرد^(٣).

ويمكن القول إن أدب الأطفال قد يكون كل عمل أدبي يكتب ابتداءً وخصيصاً للأطفال، وقد يكون كذلك كل عمل أدبي يكتب ثم يقرأه الأطفال فيستسيغونه، ويجدونه مادة أدبية مشوقة ومحبة لهم

(١) يحيى رافع. تأثير ألف ليلة وليلة على أدب الأطفال العربي. فلسطين، دار الهدى للطباعة والنشر، ٢٠٠١م، ص ٢٢.

(٢) حنين فاخوري. سيكولوجيا أدب وتربية الأطفال. عمان، الأردن، دار البازوري للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠١٦م، ص ٤٥.

(٣) حنين فاخوري. سيكولوجيا أدب وتربية الأطفال. عمان، الأردن، دار البازوري للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠١٦م، ص ٤٨.

للممثلين والصور المعبرة. للشيخانيات القصصية أو من خلال قراءاتهم الشعرية أو من خلال رؤيتهم للممثلين والصور المعبرة.

عدا عن أهميته في تعليم الطفل على حسن الإصغاء، وتركيز الانتباه لما تفرض عليه القصة المسموعة من متابعة لأحداثها، لمعرفة النتيجة التي ستصل إليها الأحداث. ويُنمي لغتهم كما أنه يمتعهم ويسليهم ويجدد من نشاطهم ويساعد على اكتشاف الموهوبين منهم. كما يساعد أدب الأطفال على تحسين أداء الأطفال، ويزودهم بقدر كبير من المعلومات التاريخية والجغرافية والدينية والحقائق العلمية، ولا سيّما القصة^(٢).

ولأدب الأطفال وظائف متعددة تبعاً لجهة تأثيره، ولعلّ من أهمّ هذه الوظائف: الوظيفة النفسية التي تظهر من خلال قدرة هذا الأدب على ضبط انفعالات الطفل ومشاعره وتوجيهها من خلال تقديم الصورة الإيجابية والمثالية التي يتأثر بها الطفل، فتجعله يوازن بين عواطفه تجاهها وتفاعله معها وبين سلوكه في حياته.

كما أن تقديم مثل هذه الصورة ودعمها بالشخصيات المتزنة الملتزمة بالفضائل يبعد الطفل ما أمكن عن الأجواء المأساوية

حتى لو لم يقصد مؤلف ذلك العمل توجيهه أصلاً للأطفال. وبالفعل، هناك الكثير من الأعمال الأدبية التي لم تكتب خصيصاً للأطفال، ولكنها أصبحت مع مرور الزمن، بعد تعديلها وملاءمتها، من المواد الأدبية الشائعة والمحبة لدى القراء الصغار، من بين تلك الأعمال نذكر رواية «روبينسن كروزو» للكاتب دانيال ديفو (١٦٦٠-١٧٣١م)، والرواية الساخرة «رحلات جلفر» لجونثان سويفت (١٦٦٧-١٧٤٥م). كذلك يدخل ضمن هذا الإنتاج الأدبي الذي أصبح جزءاً من أدب الأطفال، الأساطير والحكايات الشعبية بعد تعديلها وملاءمتها للأطفال، كحكايات وقصص «ألف ليلة وليلة» و«سيرة عنتره» وغيرهما^(١).

أهمية أدب الأطفال

تنبع أهمية أدب الأطفال من كونه يشكل أداة أساسية في التأثير على الطفل مستفيداً من نضاعة تفكيره واتساع أفقه ورحابة خياله، إلى جانب رهافة حسه ورقة مشاعره. وهو يعد مصدراً هاماً من مصادر ثقافة الطفل لأنه يساهم في تكوين الوعي المعرفي عنده عن طريق القراءات المتتالية لمختلف الأجناس الأدبية. كما أنه يوسع خيال الأطفال ومداركهم من خلال متابعتهم

(١) يحيى رافع. تأثير ألف ليلة وليلة على أدب الأطفال العربي فلسطين، دار الهدى للطباعة والنشر، ٢٠٠١م، ص ٣٨.
(٢) عبد الفتاح أبو معال. أدب الأطفال دراسة وتطبيق، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ١٩٩٨م، ص ٢١-٢٢.

الأطفال من وظائف تربوية مهمة تنطلق مما يتميز به الطفل ولاسيما في مراحل الأولى، من خيال نشط، وقدرة فائقة على التصور غير المنضبط الذي قد ينعكس بشكل من الأشكال على واقعه ويدخل في عالمه الخاص؛ وذلك من خلال تأثره بالمثل الأعلى أو الشخصية القدوة أو الفكرة السامية تبعاً للنوع الأدبي الذي يقرأه، فهو غالباً ما يُقَدَّرُ صِفَةً من الصفات التي يتضمنها النص لتتفاعل هذه الصفة مع سلوكه الشخصي مطورة إياه بصورة إيجابية، وبذلك غالباً ما يتعدل سلوك الطفل وبنائه القيمي وقد يتبدل تماماً...

فنون أدب الأطفال

أولاً: القصة

القصة هي مجموعة من الأحداث التي يرويها الكاتب أو القاص، وتشتمل على حادثة أو مجموعة من الحوادث المتعلقة بشخصيات إنسانية تختلف في طرق معيشتها وتفاعلها مع مواقف الحياة، ويمكن القول إن القصة تُعتبر من أقوى عوامل جذب انتباه الإنسان، فتجذب القارئ وتثير انفعالاته، كما تثير فضوله للمتابعة ومعرفة النهاية^(٢) وهي أحدثه يرويها أحد

المحزنة والمناظر المخيفة التي يفرضها واقعنا المعاش، ولاسيما إذا رافقت هذه الشخصيات مسحة من المرح والحيوية مشيعةً بذلك أجواءً من المتعة والتشويق والفرح، عدا عن كون هذا الأدب يلبي حاجة الطفل النفسية الدائمة إلى إرواء ميله إلى البحث والاكتشاف والمغامرة، ويروي فضوله، ويجيبه عن التساؤلات التي تقلقه، وبذلك يتمكن من إثبات ذاته وتنمية مواهبه وإبداعاته.

أما كتب الأطفال التي تقدم أنشطة عملية وفكرية، تقوم بدور مهم في القيام بعمليات التصنيف، واكتشاف المختلف والمتشابه، والتدرب على دقة الملاحظة، وابتكار الحلول، والخروج من المتاهة، وإكمال الصور والرسوم، وحلّ الأحاجي والألغاز وما إلى ذلك.

وأدب الأطفال في القصص والبرامج التلفزيونية والإذاعية وغيرها، يتيح مواقف تستدعي من الأطفال: دقة الملاحظة والتأمل، والربط والتعليل، والاستنتاج، وحسن إدراك الأمور، تشجعه الرغبة في تفسير المسائل وحلّ المشاكل، كما أنّ للقصص البوليسية دور في تنمية مهارات التفكير السابقة^(١). ولا يخفى أبداً ما لأدب

(١) حسن عبد الله. قصص الأطفال أصولها الفنية وروادها، القاهرة، دار العربي للنشر والتوزيع، ١٩٩٢ م، ص ١١.

(٢) فتحي ذياب سبيتان. أصول وطرائق تدريس اللغة العربية. الأردن، دار الجنادرية للنشر والتوزيع، ٢٠١٠ م، ص ٣٩.

أهداف تدريس القصة

تتعدد الأهداف وراء تدريس القصة فهي: تزود الطالب بالمعلومات والقيم والمبادئ وتعرض المشكلات الاجتماعية وتجدها لها حلاً كما تعمل على تنمية الفكر لجعله خلاقاً مبدعاً. ومن شأن تدريس القصة أن يساعد على بناء شخصية الطفل خاصة في المراحل الأولية، وفي حلّ الصعوبات النطقية، وتمكّنه من فنّ الإلقاء والتعبير، وتثثير الخيال في نفسه كما تساعده على زيادة خبرة الحياة، وتبعث فيه الشّوق في التعلّم كما تعودده حسن الاستماع والفهم^(٥).

أنواع القصص: هناك أنواع عديدة للقصص نذكر بعضاً منها:

١ - القصص الواقعية وهي التي تعبّر عن البيئة التي يعيشها الطفل في سنه المبكر.

الأشخاص، أو أحداثاً مكتوبةً غايتها المتعة والفائدة، كما عُرفت بأسماء عديدة في التاريخ العربي، ومن هذه الأسماء: الحكاية، والخرافة، والخبر؛ حيث تعتبر خبراً منقولاً شفاهاً أو كتابةً^(١)، ويمكن القول اختصاراً إنّ القصة عبارة عن حكاية تدور حول أشخاص وأحداثٍ متحركة، إمّا أن تكون حقيقيّةً وواقعيّةً، وإمّا أن تكون من نسج الخيال^(٢).

وتعد القصة من أقوى عوامل الإستثارة في الطفولة؛ وهي إمّا أن تكون نوعاً من الأدب المسموع يجد فيه الطفل استمتاعه قبل تعلم الكتابة؛ وإمّا أن تكون أدباً مقروءاً ومسموعاً عند تعلمه الكتابة والقراءة^(٣).

وتؤدي لغة القصة دوراً كبيراً في تأجيج العاطفة عند الطفل والانسجام والإلفة بين أفراد القصة؛ فاللغة هي التي تنقل المعاني والصور الجديدة من الحياة والحوادث لا يجدها المرء في بيته أو بيئته فتكون مصدراً من مصادر المعرفة^(٤).

- (١) محمد غالمي، «فن القصة» (٢٠٠٩-١١-١٧)، شبكة الألوكة / literature_language/0/، http://www.alukah.net/literature_language/0/، 8432/، اطلع عليه بتاريخ ٢٦/١٢/٢٠١٧.
- (٢) خليصة بنت معطى الله فارس (٢٠١٤-١٠-١٥)، «القصة وأثرها في بناء شخصية أولادنا» / http://www.alukah.net/literature_language/0/77219/، اطلع عليه بتاريخ ٢٦/١٢/٢٠١٧.
- (٣) عبد الوهاب أحمد. قصص وحكايات الأطفال وتطبيقاتها العملية، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ٢٠٠٩م، ط ٢، ص ٦٨.
- (٤) محمود الساموك. هدى الشمري، مناهج اللغة العربية، وطرق تدريسها، دار وائل للنشر، الاردن، ط ١، ٢٠٠٥م، ص ٢٥٤.
- (٥) محمود الساموك، هدى الشمري. مناهج اللغة العربية، وطرق تدريسها، دار وائل للنشر، الاردن، ط ١، ٢٠٠٥م، ص ٢٥.

٢ - القصص الخيالية وهي التي تلائم سنّ الطفولة المبكرة وتمكن تطلّع الطالب إلى ما وراء البيئته.

٣ - قصص البطولة والمغامرة وهي تناسب نمو الطفل أثناء نموه العقلي لتقوى فيه غريزة المغامرة ولكن يجب التأكد على ما فيه فائدة للطالب في هذا العمر.

٤ - القصص الغرامية والتي يجب التركيز فيها عند المراهقة على العفة وتعريف الطلبة بمخاطر الانزلاق في الأخطاء.

٥ - المثل العليا والمشكلات الاجتماعية المهمة ويمكن استخدامها في القصص التي تثير القضايا العليا كانتصار الحق والفضيلة على الشر^(١).

ثانياً: المسرحية

يعد مسرح الأطفال واحداً من الوسائل التربويّة والتّعليميّة التي تسهم في تنمية الطفل تنمية عقلية واجتماعية ونفسية وعلمية ولغوية وجسمية وهو فن درامي تمثيلي موجه للأطفال يحمل منظومة من القيم التربوية والأخلاقية والتّعليميّة

والنّفسيّة على نحو نابض بالحياة من خلال شخصيات متحركة على المسرح.

والمسرحية لون من ألوان الأدب فيها خصائص الرواية مخصص للأطفال لذلك فهي تمتاز بالحركة وما يقوم به الممثلون من حركات فوق خشبة المسرح ويميل الأطفال إلى هذا اللون الأدبي لأن فيه تعبيراً بالإشارات والحركات والأداء فضلاً عن التعبير اللغوي^(٢).

كما تعتبر المسرحية فن أدبي من الفنون الإنسانية وتعتمد على أسلوب الشعر أو النثر، وتستند إلى الحوار بين الشخصيات، وهي محددة الزمان والمكان، تدور في حدث معين، وتهدف إلى بناء شخصية الطفل. وينظر إليها الأطفال على أنها مصدر للمتعة سواء كانت شعراً أم نثراً أم مزيجاً منهما، لأنها تقتضي الحركة والنشاط وتمثيل شخصيات مختلفة كأداء دور القاضي، أو الطبيب أو الشرطي، وغيرهم^(٣).

ويمكن تقسيم المسرحيات من حيث المضمون والهدف إلى الأقسام الآتية:

١ - المسرحية التثقيفيّة: وتدور حول موضوعات الثقافة العامة التي تزود الأطفال

(١) حسن عبد الله. قصص الأطفال أصولها الفنية وروادها، القاهرة، دار العربي للنشر والتوزيع، ١٩٩٢ م، ص ٦٧.

(٢) علي مذكور. لتدريس فنون اللغة العربية، النظرية والتطبيق، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ط ١، ٢٠٠٩ م، ص ٢٥٩.

(٣) هشام الحسن. طرق تعليم الأطفال القراءة والكتابة، ، الدار العلمية الدولية للنشر والتوزيع، الأردن- عمان، ٢٠٠٣ م، ص ٩٥.

بالمعلومات العامة سواء كانت معلومات تاريخية، أم جغرافية، أم حول بعض المخترعات والعلماء والأدباء وغيرهم.

٢ - **المسرحية الاجتماعية:** ويدور موضوعها حول واحدة من المشكلات الاجتماعية فتبرزها وتعرض لأسبابها وتبصر المناسب بخطورتها، وتضع أسس حل تلك المشكلات.

٣ - **المسرحية التعليمية:** وتدور حول معالجة بعض الدروس التعليمية في فرع من فروع المعرفة المختلفة، مثل اللغة، والتاريخ، والعلوم، وغيرها لتسهيل اكتساب المعلومات والمناهج الدراسية بالنسبة إلى الأطفال، وهناك اتجاهات حديثة في مسرحية المناهج بصفتها وسيلة من وسائل التعليم والتعلم الفعال.

٤ - **المسرحية التهذيبية:** وهي التي تدور حول القيم والفضائل والعادات الحسنة مثل الصدق والشجاعة وتوجيه الأطفال إليها وتحبيبهم فيها، وتنفيرهم من الرذائل والعادات السيئة مثل الكذب والنفاق، والسرقة، وغيرها^(١).

ثالثاً: الأناشيد

تنبع أهمية الأناشيد من كونها قطعاً أدبية جميلة يحبها الأطفال، ويتحمسون لألحانها، وينشدونها في أوقات فراغهم، ولهوهم، ونشاطهم. والأناشيد قطع نثرية يتضمنها المنهج مختارة وقابلة للغناء أي التلحين والقصد منها إثارة الحماس في نفوس الطلبة وتساعدهم في تعميق انتمائهم لوطنهم وأمتهم، وعادة ما تنشأ في المناسبات العامة الدينية والوطنية والاجتماعية^(٢).

وقال سمير أحمد: الأناشيد هي شعر خفيف الأوزان سريع الإيقاع سهل الألفاظ والتراكيب حلو العبارة قصير البناء يستهدف إثارة المشاعر نحو الخير والجمال والمثل العليا^(٣).

وهو أقرب الفنون الأدبية للطفرة البشرية، لما فيه من انفعال وعاطفة، وصور جميلة تثير الإحساس بالفن والجمال، والأطفال بطبيعتهم ميالون للموسيقى، إذ يهتزون لها طرباً ومرحاً لأن «الكلام الموزون ذو النغم الموسيقي يثير فينا انتباهاً عجيباً^(٤)»، ويثير فينا بفضل

(١) عبد الرؤوف الشيخ. أدب الأطفال وبناء الشخصية، منظور تربوي إسلامي، دار القلم للنشر والتوزيع، الامارات العربية المتحدة، دبي ط ١، ١٩٩٤ م، ص ٨٣.

(٢) محمود الساموك، هدى الشمري. مناهج اللغة العربية وطرق تدريسها، ص ٢٤.

(٣) أحمد، سمير، عبد الوهاب. قصص وحكايات الأطفال وتطبيقاتها العملية، ص ٥٠.

(٤) أنيس، إبراهيم: موسيقى الشعر، ط ٥، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨، ص ١٢.

خصائص صياغته إحساسات جمالية من لون فريد»^(١).

وهناك مجموعة من العوامل لاختيار الأناشيد ومنها:

١ - أن تكون فكرتها جميلة وخيالها قريب من مدارك الطلبة حسب أعمارهم
٢ - أن تكون موسيقاها عذبة؛ وألفاظها سهلة.

٣ - أن تخلو من الكلمات الغريبة أو الحوشية.

٤ - أن تثير عاطفة الطالب

٥ - أن تكون ذات هدف يتعلق بالتنمية الروحية أو الوطنية أو القومية

٦ - أن تلائم ميل الطالب ورغباته^(٢).

رابعاً: المحفوظات

المحفوظات هي قطع أدبية موجزة تكون على شكل شعر أو نثر أو قرآن أو حديث يُكلف التلميذ بحفظها أو بحفظ جزء منها بعد دراستها وفهمها، وتتضمن المحفوظات عادة أفكاراً قيمة تصاغ بأسلوب جميل يعبر عن وجدان قائله. وتختلف المحفوظات عن الأناشيد إذ ليس المهم فيها أن تكون

فيها موسيقى أو لحن فالغرض الرئيسي منها هو زيادة الثروة اللغوية وتوسيع أفق التفكير عند الطلبة ليفهم الأساليب الأدبية وأن يكون له ذوق أدبي^(٣).

خصائص أدب الأطفال وأهدافه

الخصائص: يمتاز أدب الأطفال بالخصائص الآتية:

- الإلتزام الخلقى والشرعي بأداب الدين وقيمه ومثله وتصوراته ونظراته الشمولية للكون والحياة والإنسان.

- الاقتصاد الذي يتمثل في تقديم الأفكار بصيغ لا ترهق الطفل ولا تكلفه جهوداً كبيرةً وذلك عن طريق استخدام كلمات وتعابير واضحة لا تحتمل أكثر من معنى واحد؛ وأن تكون التعابير واضحة، والجمل قصيرة، والمفردات واضحة، وأن تكون مختصرة ومركزة بغية الوصول إلى المعنى بأقل عدد ممكن من المفردات؛ ولا بأس بالتكرار غير الممل والتأكيد غير المتكلف^(٤). وأن لا ترهق الطفل بكثرة المصطلحات وكثرة الإطناب.

- أن تكون رموز أدب الطفل مباشرة

(١) الهيثي، هادي، نعمان: أدب الأطفال فلسفته وفنونه ووسائله، القاهرة، الهيئة المصرية العامة، ط١، ١٩٨٦م، ص٢٠٧.

(٢) محمود الساموك، هدى الشمري. مناهج اللغة العربية وطرق تدريسها، ص٢٤٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٤٥.

(٤) عبدالرؤف أبوسعد. الطفل وعالمه الأدبي، دارالمعارف، القاهرة ١٩٩٤م، ص١٠١.

تحتاج إلى مس خفيف في القدرة الذهنية لتتعري هذه الرموز وتتضح أبعادها وضوحاً جلياً.

- تعبيره عن الخبرات الانفعالية لدى الأطفال، مراعيًا لخصائص نموهم بحيث ينمي قدرات الطفل على التفكير والتحليل من خلال تقديمه خبرات جديدة^(١).

- وجود المقومات الفنية الجاذبة للطفل كوجود الحوار البسيط والحدث البسيط والحبكة السهلة في القصة.

- أن يشمل أدب الأطفال على خصائص فكرية تتعلق بشيء من الخيال وأن يبتعد عن التجريد ويلجأ للحس.

- أن يتصف بالوضوح وبساطة العرض وسهولة اللغة.

- استخدام أسلوب المفاجأة وعنصر التشويق والإثارة والتنوع في التعبير بين المبني للمجهول والمحاورة والأسئلة ثم العودة إلى الصيغ البسيطة فإنها تساعد في نجاح وصول المادة إلى الطفل وتدعوه أيضاً لمواصلة القراءة.

- ولعلّ من أبرز خصائص أسلوب أدب

الأطفال الوضوح والتلقائية والقوة والجمال فحيثما وُجدت تلقى القبول لأن الغموض والتكلف والألفاظ الصعبة كلها من دواعي العزوف عن القراءة حتى لو كانت في قوالب فنية جميلة^(٢).

الأهداف

إنّ الأدب الإبداعي الموجه إلى الطفل له طبيعة تميّزه فهو يرمي إلى أهداف عدة وأهمها: التربية الوجدانية، وتنمية الإحساس بالجمال، والتربية الخلقية، وتنمية الثروة اللغوية، والتذوق الأدبي، وبتث القيم في نفوس الأطفال، وتعديل سلوكهم، وتنمية مهاراتهم اللغوية. وبذلك فهو يساهم في بناء شخصية الطفل وتحديد هويته، خاصة إذا أضيفت إلى أدب الأطفال ألوان أخرى كالوصايا والمناظرات والرحلات واليوميات والفكاهات والنوادر والطرائف، ناهيك عن الشعر الملحمي والتمثيلي والمحاورات، وكتب المعلومات والسير والتراجم ودوائر المعارف والمعاجم المصورة^(٣). وقد عرف الدكتور نجيب الكيلاني أدب الأطفال وأهدافه: أنه التعبير الأدبي الجميل المؤثر الصادق في إيحاءاته ودلالاته، والذي

(١) سعد أبو رضا. النص الأدبي للأطفال أهدافه ومصادره وسماته، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٩٣ م، ص ٦٩.

(٢) سميح أبو مغلي. دراسات في أدب الأطفال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩ م، ص ٢٢.

(٣) حسن شحاتة. مستقبل ثقافة الطفل العربي، رصيد الواقع ورؤى الغد. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨، ص ١٧١.

يستلهم قيم الإسلام ومبادئه وعقيدته، ويجعل منها أساساً لبناء كيان الطفل عقلياً ونفسياً ووجدانياً وسلوكياً وبدنياً، ويساهم في تنمية مداركه وإطلاق مواهبه الفطرية وقدراته المختلفة وفق الأصول التربوية الإسلامية، وبذلك ينمو الطفل ويتدرج بصورة صحيحة تؤهله أداء الرسالة المنوطة به في الأرض فيسعد حياته ويسعد به ومعه مجتمعه، على أن يراعي ذلك الأدب وضوح الرؤية وقوة الإقناع والمنطق^(١).

نشأة أدب الطفل وتطوره

نشأة أدب الأطفال

يجد المتأمل في الخط الزمني لنشأة أدب الطفل أن (أورنيل أوفك) قد قسّم تطور أدب الأطفال إلى خمسة أطوار وهي: طور العصور القديمة حيث وجدت النصوص على أوراق البردي. وطور العصور الوسطى التي قام فيها رهبان الأديرة بجمع القصص القديمة التي ضمت قصصاً للأطفال وحافظوا عليها. وطور عصر الطباعة، حيث صدر في سنة ١٥٥٠ م في إنجلترا أول مطبوعة مخصصة للأطفال سميت (Horn Book)، ثم توالى الإصدارات في القرنين

السابع عشر، والثامن عشر. وطور العصر التعليمي الذي يبدأ مع صدور كتاب «إميل» لجان جاك روسو عام ١٧٦٢م، وتتميز هذه الفترة بإصدار مواد علمية وتثقيفية وموسوعات خاصة بالطفل. وأخيراً طور العصر الحديث الذي بدأ في منتصف القرن التاسع عشر، ويعتبر الطور الذهبي الذي انطلق مع صدور كتاب أليس في بلاد العجائب لمؤلفه لويس كارول^(٢).

بدأ أدب الأطفال في العصر الحديث في فرنسا وذلك في القرن السابع عشر وكان الكاتب لا يكتب اسمه خشية الحط من قدراته أمام الناس، إلى أن جاء الشاعر الفرنسي «تشارلز بيرو» وكتب قصصاً للأطفال بعنوان «حكايات أمي الأوزة» وكتب له اسماً مستعاراً. لكنه لاحظ الإقبال الشديد على قصصه فألف مجموعة أخرى بعنوان «أقاصيص وحكايات الماضي» وكتب اسمه واضحاً. وبعد تشارلز بيرو جاءت محاولات كتابية للأطفال من قبل سيدة فرنسية اسمها «لبرتس» ومن قصصها «مخزن الأطفال» وظهرت كتابة أدب الأطفال بشكل جدي في فرنسا في القرن الثامن عشر وذلك بظهور «جان جاك

(١) يحي خاطر. قصة الطفل كامل كيلاني نموذجاً، نشأة المعرفة، الإسكندرية، ٢٠٠١م، ط١، ص ٦٧.

(٢) وفاء الشامية. نشأة أدب الطفل العربي وتطوره. جريدة الوطن. الثلاثاء ٢٦ ديسمبر ٢٠١٧م-٧ ربيع الثاني/ ١٤٣٩هـ. الموقع الإلكتروني <http://alwatan.com/details/173232> إطلع عليه بتاريخ ٢٦/١٢/٢٠١٧.

روسو» وكتابه «أميل» الذي اهتم بدراسة الطفل كإنسان قائم بذاته وشخصيته المستقلة. وبعد ذلك تمت ترجمة قصص ألف ليلة وليلة إلى اللغة الفرنسية، وبعد ذلك صدرت أول صحيفة للأطفال في العالم باسم «صديق الأطفال»^(١).

وكانت تهدف إلى التسلية والترفيه وتنمية خيال الطفل. ومن البلدان التي اشتهرت بأدب الأطفال بعد فرنسا «انكلترا» التي ترجمت عن فرنسا قصصاً كثيرة ومن أشهر المترجمين الإنكليز روبرت سامبر الذي ترجم حكايات وقصصاً لتشارلز بيرو. ثم جاء بعد روبرت «جون نيوبيري» وكان صاحب أول مكتبة أطفال في العالم وطلب من الكتاب والمؤلفين أن يؤلفوا للأطفال أو يبسطوا كتباً من كتب الكبار بما يناسب مراحل نموهم العقلي. ومن هذه القصص قصة «روبينسون كروزو» و«رحلات جليفر» حتى سمي الأدب الحقيقي لأدب الأطفال في انكلترا «جون نيروبي» والقرن العشرون يعتبر العصر الذهبي لأدب الأطفال. وكذلك نجد كتابات الأطفال في ألمانيا والدانمارك والدول الأخرى^(٢).

تطور أدب الأطفال في العالم العربي

ساهمت عناصر عدة في نشأة وتطور أدب الأطفال العربي وهي:

القرآن الكريم والحديث الشريف، والسنة النبوية. والأمثلة في القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة، منها ما نراه في قصص الأنبياء: كآدم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليه السلام... وقصة أصحاب الأخدود، وقصة الفيل، وقصة أصحاب الكهف. وقد تأتي القصص منفتحة على المستقبل البعيد كما في قصة آدم عليه السلام أو كما في قصة ذي القرنين. أما القص في الحديث الشريف فنجدته متمثلاً في:

- في القصة التاريخية كقصة موسى والخضر عليه السلام، وقصة إبراهيم وهاجر وإسماعيل عليه السلام. وثانيها القصة الغيبية، مثل قصة رؤية الله في الآخرة، والصراف، والشفاعة. وثالثها القصة التمثيلية، أما رابعها فهي القصة القصيرة التي تتناول حدثاً من الأحداث فتعرضه في صورة سريعة ذات تعبيرات مركزة، كقصة المرأة التي حبست الهرة. وخامسها القصة الطويلة كقصة الأقرع، والأعمى والأبرص.

- التراث الشعبي، الذي يعتبر زاخراً

(١) محمد الشنتي. في أدب الأطفال أسسه وتطوره وفنونه وقضاياها ونماذج منه، دار النشر الأندلس، لنشر والتوزيع، حائل، السعودية، ط١، ٢٠٠٣ م، ص٣٢.

(٢) علي الحديدي. في أدب الأطفال، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٦، ١٩٩٢ م، ص٤٩ - ٥٠.

بكثير من الأمثلة كحكايات عنتر بن شداد، وعلاء الدين، وأصحاب الكهف... إلخ.

- الترجمة. مثل قصة سندريلاً، والأقزام السبعة، وأليس في بلاد العجائب، وعقلة الإصبع... وغيرها.

- التاريخ العام، ويقصد به الأحداث الهامة في ذاكرة الأمة. مثل: قصص الفتوحات الإسلامية والمعارك والانتصارات.

- البيئة المحيطة. وهنا نستطيع القول إن البيئة العمانية ثرية بالحكايات والقصص، وإن كان أغلبها مرتبطاً بعالم الخوارق والجن. إلا أنني أجزم أن كثيراً منّا قد نشأ على حكايات جده أو جدته له في طفولته^(١).

أما أدب الأطفال العربي فقد تأخر في الظهور على الرغم من ثراء الأدب العربي. ففي القرن السابع عشر وعلى أثر ظهور أدب الأطفال في فرنسا وأوروبا بشكل عام فقد أخذ يظهر أدب الأطفال في البلاد العربية. وظهر خاصة في مصر على يد محمد علي عن طريق الترجمة نتيجة اختلاطهم بالغرب وكان أول من قدم كتاباً مترجماً عن اللغة الإنجليزية في مصر «رفاعة الطهطاوي» وكان مسؤولاً عن

التعليم. ثم أخذ بترجمة قصص وحكايات كثيرة عن الدول الغربية فترجم قصصاً ترعى حكايات الأطفال ثم أدخل قراءات القصص في المناهج المدرسية. وأول كتاب في أدب الأطفال كان لـ «أحمد شوقي» وكتب على أسنة الحيوانات والطيور.

كما ألف أحمد شوقي الأناشيد والأغنيات فكتب أكثر من ثلاثين قصة شعراً، وعشر مقطوعات من الأغاني والأناشيد^(٢). وفي عام ١٩٠٣م ظهر «علي فكري» الذي كتب كتاباً بعنوان مسامرات البنات. ثم كتب «النصح المبين في محفوظات البنين»^(٣).

غير أن هذا النوع من الأدب أخذ دوره الحقيقي ابتداءً من عام ١٩٢٢م، بعد أن أنشأ محمد الهراوي مكتبة سمير للأطفال، وكتب القصص والأغاني والأناشيد كما برزت في حينه بعض المؤسسات التي تهتم بأدب الأطفال، وأصدرت كثيراً من الكتب والمجلات الخاصة بهم، كما ظهر كثير من الكتاب في هذا المجال، وكان في مقدمتهم كامل الكيلاني الذي أثنى مكتبة الأطفال بقصصه وكتابات الأدبية.

كان هدف الكيلاني أن يحبب الأطفال

(١) وفاء الشامسية. نشأة أدب الطفل العربي وتطوره. جريدة الوطن. <http://alwatan.com/details/173232> تاريخ الإطلاع ٢٧/١٢/٢٠١٧ الأربعاء ٢٧ ديس.

(٢) أحمد زلط. أدب الطفولة أصوله مفاهيمه - رواه، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٣م، ص ٦٥.

(٣) مفتاح دياب. مقدمة في ثقافة الأطفال. القاهرة. الدار الدولية للنشر والتوزيع، ١٩٩٥م، ص ٢٤.

«سعد»، وفي أبو ظبي مجلة «ماجد»، وتونس مجلة «عرفان»^(١).

خاتمة البحث

أدب الأطفال من الأدوات المهمة الأساسية في تنشئة الطفولة التي تعد من أهم دعائم مستقبل الأمم وركائزها، ومنها الأمة العربية التي يقوم عليها مستقبل المجتمع العربي، وشخصيته التي ينبغي أن تكون قوية ومؤثرة.

ولا شك أن أدب الأطفال العربي تأثر بأدب الأطفال العالمي، إلا أنه من الضروري تشجيع عملية البحث العلمي الجاد والدراسات الهادفة في ميدان أدب الأطفال لتعيد طريق المستقبل أمام الطفولة العربية وتحولها إلى أمة رائدة مبتكرة ويكون أطفالنا رجالاً قادرين على صنع أشياء جديدة، ولا يقومون فقط بتكرار ما صنعه الأجيال السابقة، فإن أصحاب القدرات الابتكارية والإبداعية يكونون رأس مال قومياً وإنسانياً، يسهم في إثراء التراث البشري، وتقدم الإنسانية وازدهارها.

المصادر والمراجع

- إبراهيم، أنيس، موسيقى الشعر، ط ٥، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨، ص ١٢.
- أبو فنة، محمود. القصة الواقعية للأطفال في أدب سليم خوري، العراق، دار الهدى للطباعة والنشر، ٢٠٠١م.
- أبو رضا، سعد. النص الأدبي للأطفال أهدافه

في القراءة ومن قصصه «السندباد البحري» ثم جاء «حامد القصببي» وكانت كتابته أكثرها مترجمة عن الإنجليزية وفي مصر أيضاً حظي هذا الأدب بالاهتمام الكبير خاصة في السنوات الأخيرة حيث كثرت المسابقات والجوائز للكتاب وظهرت مؤسسات خاصة تُعنى بأدب الأطفال، وفي لبنان تعددت مجلات الأطفال اللبنانية:

«سوبرمان»، «طرزان»، «طارق»، «لولو الصغير»، وفي سوريا نشطت مطبوعات الأطفال من خلال (مؤسسة دار الفتى العربي) ومن خلال الكتاب المشهورين زكريا تامر وكذلك الشاعر سليمان العيسى.

أما في العراق فقد بدأ الاهتمام بالطفل في العراق بتأسيس دور الحضانة والنوادي ومدارس الفنون ومراكز للشباب، وبرامج الإذاعة والتلفزيون، وأنشئت فرق مسرحية للأطفال وأفلام كرتونية وأنشئت دار خاصة سميت بدائرة ثقافة الأطفال، وفي الأردن فقد بدأت كتابة التأليف في أدب الأطفال على يد الأستاذ «راضي عبد الوهاب» الذي كتب قصصاً بعنوان (خالد وفاتنه) ثم كتب الأستاذ «عيسى الناعوري» (نجمة الليالي السعيدة) وكتب أخرى، وعلى مستوى المجلات ظهرت عام ١٩٧٧م مجلة «سامر» ثم مجلة «فارس»، أما الدول العربية الأخرى، وفي الكويت صدرت مجلة

(١) عبد الفتاح أبو معال. أدب الأطفال دراسة وتطبيق. الأردن، عمان، دار الشروق، ١٩٨٨م، ط ٢، ص ٣٣.

- ومصادره وسماته، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٩٣م.
- أبو سعد، عبدالرؤف. الطفل وعالمه الأدبي، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٤م.
- أبو معال، عبدالفتاح. أدب الأطفال دراسة وتطبيق، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ١٩٩٨م.
- أبو مغلي، سمير. دراسات في أدب الأطفال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩م، ص ٢٢ - أحمد، سمير. قصص وحكايات الأطفال وتطبيقاتها العلمية، عمان، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط ٢، ٢٠٠٩م.
- أحمد، عبد الوهاب. قصص وحكايات الأطفال وتطبيقاتها العملية، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ٢٠٠٩م، ط ٢.
- الحديد، علي. في أدب الأطفال، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٦، ١٩٩٢م.
- الحسن، هشام. طرق تعليم الأطفال القراءة والكتابة، الدارالعلمية الدولية للنشر والتوزيع، الأردن - عمان، ٢٠٠٣م.
- خاطر، يحيى. قصة الطفل كامل كيلاني نموذجاً، نشأة المعرفة، الإسكندرية، ٢٠٠١م، ط ١.
- دياب، مفتاح. مقدمة في ثقافة الأطفال. القاهرة. الدار الدولية للنشر والتوزيع، ١٩٩٥م، ص ٢٤.
- رضوان، محمد. أدب الأطفال مبادئه ومقوماته الأساسية، القاهرة، دار المعارف، لات.
- زلط، أحمد. أدب الطفولة أصوله ومفاهيمه - رواده، دار الأرقم للطباعة والنشر، ١٩٩٣م.
- الساموك، محمود. الشمري، هدى. مناهج اللغة العربية، وطرق تدريسها. دار وائل للنشر، الاردن، ط ١، ٢٠٠٥م.
- سبيتان، فتحي ذياب. أصول وطرائق تدريس اللغة العربية، الأردن، دار الجنادرية للنشر والتوزيع، ٢٠١٠م.
- شحاتة، حسن. مستقبل ثقافة الطفل العربي، رصيد الواقع ورؤى الغد. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨م.
- الشنتي، محمد. في أدب الأطفال أسسه وتطوره وفنونه وقضاياها ونماذج منه، دار النشر الأندلس، لنشر والتوزيع، حائل، السعودية، ط ١، ٢٠٠٣م.
- الشيخ، عبدالرؤف. أدب الأطفال وبناء الشخصية،
- منظور تربوي إسلامي، دار القلم للنشر والتوزيع، الامارات العربية المتحدة، دبي ط ١، ١٩٩٤م.
- طعيمة، رشدي. أدب الأطفال في المرحلة الابتدائية، القاهرة، دار الفكر العربي، ط ١، ١٩٩٨م.
- عبد الله، حسن. قصص الأطفال أصولها الفنية وروادها، القاهرة، دار العربي للنشر والتوزيع، ١٩٩٢م.
- عبد الهاشمي، عبد الرحمن. أدب الأطفال. فلسفته، أنواعه، تدريسه، دار المنهل، لات.
- عبد الوهاب، أحمد، سمير، قصص وحكايات الأطفال وتطبيقاتها العملية.
- فاخوري، حنين. سيكولوجيا أدب وتربية الاطفال. عمان، الأردن، دار اليازوري للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠١٦م
- مذكور، علي. لتدريس فنون اللغة العربية، النظرية والتطبيق، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ط ١، ٢٠٠٩م، ص ٢٥٩.
- الهيثي، هادي، نعمان. أدب الأطفال فلسفته وفنونه ووسائله. القاهرة، الهيئة المصرية العامة، ط ١، ١٩٨٦.
- يحيى، رافع. تأثير ألف ليلة على أدب الأطفال العربي، فلسطين، دار الهدى للطباعة والنشر، ٢٠٠١م.

المصادر الإلكترونية:

- بنت معطى الله فارس، خليصة. http://www.alukah.net/literature_language/0/77219/
- (٢٠١٤-١٠-١٥)، [http://www.alukah.net/](http://www.alukah.net/literature_language/0/77219/)
- اطلع عليه بتاريخ ٢٦/١٢/٢٠١٧.
- الشامسية، وفاء. نشأة أدب الطفل العربي وتطوره. جريدة الوطن. الثلاثاء ٢٦ ديسمبر ٢٠١٧م - ٧ ربيع الثاني/ ١٤٣٩هـ. الموقع الإلكتروني <http://alwatan.com/details/173232> تاريخ الإطلاع ٢٦/١٢/٢٠١٧.
- غالمي، محمد. http://www.alukah.net/literature_language/0/8432/ (٢٠٠٩-١١-١٧).
- شبكة الألوكة http://www.alukah.net/literature_language/0/8432/، اطلع عليه بتاريخ ٢٦/١٢/٢٠١٧.

المقامات في الأندلس

إلياس يوسف زغيب

أ - مقدّمة:

ومن المشاكل التي واجهتنا، مشكلة العثور على كتاب «الذخيرة» الذي يحتوي على الكثير من المعلومات الهامة، وعلى بعض نصوص المقامات الأندلسية التي نعمل عليها. لذلك استعضنا عنه بمرجع من تأليف الدكتور عبد العزيز عتيق بعنوان «الأدب العربي في الأندلس» لما فيه من الإفادة، ولكون الدكتور عتيق قد استشهد بكتاب «الذخيرة» واستقى النصوص منه...

لقد كان للنّهضة العربيّة في العصور العبّاسيّة الأثر الكبير على مختلف النّواحي الفكرية والأدبيّة في الأندلس. ولما كانت المقامات التي ألفها بديع الزّمان الهمذاني إحدى نواحي هذه النّورة الأدبيّة، كان لا بدّ من أن يتأثّر بها كتّاب المغرب وينشئوا على منوالها...

لذلك ارتأينا أن نبحت في دخول المقامة إلى الأندلس، مشيرين إلى العوامل التي ساهمت في ذلك (لاسيما الدور الذي أدّاه اليهود)؛ مركزين على أثر المقامات في كتّاب المغرب، وعلى خصائصها من حيث الأسلوب ومن حيث المعنى... على أن ننتهي إلى ذكر أهمّ كتّاب الأندلس مع شواهد من مقاماتهم، وتحليل سريع لها من أجل تبيان أوجه الائتلاف، وأوجه الاختلاف بينها وبين مقامات البديع والحريري في المشرق...

ب - النّثر في الأندلس:

تأثّر أهل الأندلس بالمشركيين في النّثر، كما تأثّروا بهم في الشّعْر، فساروا على خطاهم في أساليب الإنشاء، وألوان التّعبير... وانقسم الكتّاب في الأندلس قسمين: كتّاب الرّسائل وكتّاب الرّمّام. أمّا كاتب الرّسائل، فله حظّ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس. وأمّا كاتب الرّمّام، فهو المسؤول عن شؤون الخراج^(١).

(١) التلمساني المقرّي، نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨، ج ١، ص ١٠٢-١٠٣. و: إحسان عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسي، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٩٦٩، ص ٣٢٥.

إلا أنّ الكتابة الإنشائيّة الفنيّة المستقلّة كانت في بادئ الأمر غير واضحة الصّورة، لأنّ صورة الكتابة الديوانيّة قد غلبت عليها، وكان هذا النّوع من الكتابة يختصّ برجال البلاغة آنذاك. وما لبث النثر الفنّي أن استقلّ في بعض أحواله عن الكتابة الديوانيّة، فاتّخذ له موضوعات من الحياة تشبه موضوعات الشّعور وبخاصّة الوصف، وأصبح يعتمد الخيال كما في رسائل ابن شهيد وبعض رسائل ابن برد الأصغر، وكرسالة المفاخرة بين السيف والقلم. ويبرز كذلك التنوّع في الأساليب بحيث يمكن للقارئ أن يميّز بين ابن دراج، وابن شهيد، وابن حيان، وابن زيدون من خلال خصائصهم الأسلوبية الواضحة^(١).

لذلك فالمرحلة الأولى تميّزت بتفضيل الإيجاز والقصْد في التّعبير وإيثار المعنى، وقد كانت تفضّل الكتابة التي تنتحل طبيعة التّوقيعات. ولنتمثّل على ما سبق ذكره، نورد بعض ما أملاه الرّحمن الأوّل إلى سليمان الأعرابي: «أمّا بعد فدعني من معاريف المعاذير والتعسّف عن جادّة الطريق، لتمدّن يداً إلى الطاعة والاعتصام بحبل الجماعة أو لألقينّ بنانها على رصف المعصية نكالا بما قدمت يداك، وما الله بظلام العبيد»^(٢). أمّا

المرحلة الثّانية فشغلت عهد الدّولة العمريّة وفترة الفتنة. وفيها ظهر أكابر الكتّاب النّاثرين، ومنهم^(٣):

١ - ابن برد الأكبر.

٢ - عبد الملك بن ادريس الجزيري.

٣ - ابن دراج القسطلي.

٤ - ابن شهيد.

٥ - ابن حزم.

٦ - ابن حزم (الأخ).

٧ - الحنّاط.

٨ - ابن حيّان المؤرخ.

٩ - ابن زيدون.

لقد تميّزت هذه المرحلة عن سابقتها بتميّز المؤثرات التي تلقّاها هؤلاء الكتّاب. فالنّماذج المشرقيّة التي كانوا يحتذونها تغيّرت وأصبحت طريقة سهل بن هارون والجاحظ أوّلاً؛ ثمّ طريقة بديع الزّمان ثانياً هما النّمودج الأعلى للكتّاب في الأندلس. أضف إلى ذلك أنّ هذه المرحلة امتازت بالثّورة على التّقصير في الكتابة...

وفي ذلك يقول الدّكتور إحسان عبّاس: «وأكبر ما يميّز الكتابة في هذه المرحلة تمييز أصولها وطرائقها وأساليبها، وهذا راجع إلى قوّة حركة النّقْد... فلم يكن أخذ

(١) إحسان عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٦٩، ص٣٣١.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٣٠.

(٣) المرجع نفسه، ص٣٢٩.

عن دخول المقامات إلى الأندلس بما مفاده أن الأندلسيين سرعان ما عرفوا فنّ المقامات عن طريق من رحل منهم إلى الشّرق في ذلك الوقت طلباً للعلم، فقد درسوا هذا اللون الجديد من الأدب في جملة ما درسوه من العلوم والفنون، ثمّ عادوا إلى بلادهم محدّثين به ناشرين إيّاه بين مواطنيهم.

د - أثر اليهود:

لا بدّ في هذا المجال من الوقوف على الدور الذي أدّاه اليهود - الذين تأثروا بالأدب العربي - في ترجمة الآثار الأدبية والفكرية ونقلها عبر أسفارهم، ومن جملتها المقامات. لذلك يقول ليفي بروفنسال: «إلا أنّه يكون من عدم الإنصاف، أن لا نشير إلى الدور الذي قامت به الجماعات اليهودية في تلك العلاقات في شبه الجزيرة سواء في ما يتعلّق منها بهذا العصر أم بالعصر الذي سبقه. إن ذكر من مثّلهم في ذلك يثبت أنّه غير منفصل عن دراسة، الحضارة الإسبانية - الإسلامية حتى وإن كانت موجزة، هذه الحضارة التي أسهم فيها أهل الذمّة وكانوا من أبطالها أحياناً»^(٥).

طرق المشاركة تقليداً فحسب، بل كان مبنياً على فهم لتنوّع الأساليب النثرية وإدراك لمميّزاتها...»^(١). وبعد هذا العصر ابتليت الكتابة الأندلسية بشدّة الرّخرف حتّى برز التّعبد للمحسنات البيانية والبدعيّة...

انطلاقاً من ذلك، نرى أنّ أنواع الكتابة التي كانت منتشرة في الشّرق، أثّرت في كتاب الأندلس إلى حدّ كبير. ومن الذين اقتفى الأندلسيون أثرهم في الكتابة، بديع الزّمان الهمداني - صاحب المقامات - والحريري، وغيرهم... بعد أن دخلت مقاماتهم الأندلس. وفي هذا المجال نستشهد بقول الدّكتور فيكتور الكك: «وانتقل هذا الفنّ إلى أوروبا أي إلى إسبانيا الإسلامية، وأشهر المزاولين هناك ابن الإشتراكوني (٥٢٨هـ) الذي ترسّم الحريري في محاسنه ومساوئه»^(٢). وكذلك الأمر مع مقامات الهمداني ورسائله التي انتشرت بوجه خاصّ أيام ملوك الطّوائف في الأندلس، حيث قام بعض الأدباء بمعارضتها وتقليدها^(٣).

ج - دخول المقامات الأندلس:

يحدّثنا الدّكتور أحمد مختار العبادي^(٤)

(١) إحسان عباس، م.س، ص ٣٣٠.

(٢) فيكتور الكك، بديعات الزمان، دار المشرق، بيروت، ط٢، ١٩٨٦، ص ١٢٤.

(٣) عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٦، ص ٤٧٩.

(٤) انظر: مقال الدّكتور العبادي بعنوان «مقامة العيد»، بمجلة المعهد المصري، مدريد، ١٩٥٤، ص ١٥٩.

(٥) ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة: ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة، لا ت.، ص ٩٤.

- لقب «ناجد» الخاصّ بالأمرء. وكان المؤلف الذي صبا إلى أن يخلد اسمه في عالم الأدب مقتصرأ على دراسة القصص اليهودي الذي عني في الأندلس - كالقصص العربي- عناية خاصّة بالأبحاث اللغوية»^(٢).

وتجدر الإشارة إلى أنّ فنّ المقامات ظهر في الأندلس على يد يهودا بن شلوم الحريزي، الذي عني بترجمة الحريري في بادئ الأمر إلى العبريّة، ثمّ عارضه بخمسين مقامة سمّاها «سفر محكموني» وقد جعل له راوية وبطلاً^(٣).

د - أثر المقامات في الأندلس:

ثمة اتّفاق بين معظم الباحثين أنّ المقامات أكثر ما أثّرت وانتشرت أيام ملوك الطوائف. ذلك أنّ الأندلس جرت منذ البدء على السنن المشرقيّ من حيث الاحتفال بالرّسائل الرّسميّة المتبادلة بين الأمرء وإفراغها في قوالب فنيّة جيدة. لكن الانحطاط السّياسيّ، الذي انتهت إليه الأندلس آنذاك، أدّى إلى حصاد ثقافيّ عظيم. فملوك الطوائف كانوا كلما ضعف سلطانهم، ازدادوا تنافساً في اجتذاب الشّعراء إلى بلاطاتهم، وشراء مدائحهم

ويعود ذلك إلى أنّ عدداً لا بأس به من اليهود كان يسكن مدن إسبانيا الإسلامية، ومدنها المسيحيّة على حدّ سواء. بالإضافة إلى أنّ أحوالهم الماديّة كانت على قدر من الازدهار، وبخاصة في المدن الإسلامية، وكانوا على شيء كبير من التنظيم وحبّ العلم؛ وظهر منهم «أصحاب التلمود» الذين سلكوا طرق الفقهاء المسلمين، كذلك ظهر منهم الأطباء. وعرف اليهود أيضاً، بإتقانهم للعبريّة والعربيّة والقشتالية في الوقت عينه، ما سمح لهم بالقيام بالتّرجمات بين هذه اللغات. وفي المجال عينه يذكر كارل بروكلمان^(١) أنّ اليهود شاركوا في الحياة الثقافيّة مشاركة فعّالة. لأنهم كانوا منبثّين في البلاد، وقد عملوا في خدمة أمرء النّصارى؛ وما لبثوا أن تسلّموا مناصب عالية، كالاهتمام بشؤون المال والوزارة وغيرها، في دولة الأمويين ما إن آلت مقاليد الحكم إليهم في الأندلس. ويقول كارل بروكلمان أيضاً في هذا المجال: «لقد استطاع أحد اليهود، اسماعيل بن نغزلة أن يبلغ منصب الوزارة في ظلّ الأمير البربري حبّوس الذي استولى على الأمر في غرناطة حوالي سنة ١٠٢٤م... وهكذا خلعت عليه الجالية اليهودية - وكانت كثيرة العدد هناك

(١) انظر: كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت ١٩٦٨، ص ٣١٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٠٨.

(٣) انظر: فيكتور الكك، ص ١٢٤.

الطَّنَانَة لقاء جوائز كبيرة^(١). وفي المجال عينه يقول بطرس البستاني: «ومع سوء الحالة السَّياسِيَّة في عهد ملوك الطوائف فإنَّ الآداب والعلوم نهضت نهوضاً عظيماً لتنافس الأمراء في تعزيزها، وتقريب أصحابها... واشتهر من هؤلاء الملوك جماعة من الشُّعراء، كالمظفر وابنه المتوكل ملكي بطليموس، والمعتمد بن عبَّاد ملك إشبيلية»^(٢).

وإبان هذا التَّطوُّر في الحركة التَّثقافية، انتشرت مقامات البديع ورسائله في الأندلس. وفي أيام المعتضد بن عبَّاد «٤٣٤-٤٦١ هـ» وضع أبو عبدالله محمَّد بن شرف القيرواني مقامات عارض فيها مقامات البديع^(٣). وكذلك ابن شهيد الذي لم يلتزم أسلوباً واحداً، وكان يحاكي عبد الحميد حيناً، ويذكرنا بالجاحظ حيناً آخر، فقد كان شديد الإعجاب بطرفة البديع وكأنما أنشأ رسالته في صفة البرد والنَّار والحطب ورسالته في الحلواء ليحاكي المقامات. وهو مفتون بقدرة البديع على الوصف، كما هي الحال في وصف الدِّينار، فهو يسرف في محاكاة هذا اللُّون كثيراً كقوله في التَّعلب: «أدهى من عمرو، وأفتك

من قاتل حديفة بن بدر، كثير الوقائع في المسلمين، مغري بإراقة دماء المؤدنين، إذا رأى فرصة انتهزها، وإذا طلبته الكماة أعجزها...»^(٤). وقد أثر بديع الزمان أيضاً في نثر أبي المغيرة بن حزم إذ له رسالة يعارض فيها إحدى رسائل الجاحظ. فأبو المغيرة كان يقيّد نفسه بالسَّجع في أكثر رسائله.

ولقد ظهرت مقامات الحريري بالمشرق في أوائل عهد المرابطين في الأندلس، ثم لم تلبث أن انتشرت بالمغرب انتشاراً كبيراً، وعني بها في حياة مؤلِّفها نفسه. فنذكر مثلاً، «ابن الإشتراكوني (٥٣٨ هـ) الذي ترسَّم الحريري في محاسنه ومساوئه»^(٥)، وكذلك الأديب أبو طاهر محمَّد التَّميمي السَّرقسطي. ويذكر د. عبد العزيز عتيق أيضاً أنَّه «وبعد موت الحريري استمرت مقاماته تدرِّس على يد تلاميذه الذين أجازهم بالرواية عنه، منهم ابنه أبو محمَّد، والأدباء: أبو القاسم عيسى بن جهور بقرطبة، وأبو الحجاج القضاعي السَّابق الذكر بالمرية وغيرهم»^(٦).

وتجدر الإشارة إلى أنَّ قلَّة من كتَّاب الأندلس اقتفوا أثر بديع الزمان أو الحريري

(١) كارل بروكلمان، ص ٣٠٨.

(٢) بطرس البستاني، أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، ج ٣، ص ٢٥.

(٣) انظر: عبد العزيز عتيق، ص ٤٨٠.

(٤) إحسان عباس، ص ٣٣٣.

(٥) فيكتور الكك، ص ١٢٤.

(٦) عبد العزيز عتيق، ص ٤٨٠.

في معظم مقاماته. بل إنَّ غالبيتهم قد خرجت بالمقامة إلى صورة أشبه بالرسالة، أو بما نسميه حديثاً بالمقالة، فلم يبق من تقاليد المقامة سوى السجع والكدية والاستجداء والمدح... وقد تعددت الأغراض في بعض المقامات، فلم يعد يجمعها بالمقامة غير الاسم لخلوها من تقاليدها، وكذلك أسلوبها ما كان يرقى إلى أساليب أصحاب المقامات السابقة^(١). وكذلك لم نسمع بين أدباء الأندلس بأديب تفرغ للمقامة وعرف بها، فلا نجد للواحد منهم إلا مقامة أو مقامتين أو بضع مقامات. وذلك بصرف النظر عن السرقسطي الذي عارض مقامات الحريري الخمسين «بكتاب الخمسين مقامة اللزومية».

ولم يؤثر فنّ المقامات في الأدب الأندلسي فحسب، بل أثر أيضاً في الأدب الإسباني العبري وربما المسيحي كذلك، وهناك من العرب والمستشرقين الإسبان من أثبت بدراسته هذا التأثير^(٢).

و - خصائص المقامات:

من خلال ما تقدّم يتبيّن لنا أنّ بعض المقامات كان تقليدياً لما جاء في الشرق، لاسيما مقامات بديع الزّمان والحريري، وبعضها الآخر انحرف بالمقامة إلى صورة

تشبه الرّسالة أو المقالة ولم يبق من المقامة سوى السجع. فمن حيث الأسلوب عُني الأندلسيون كثيراً بالصّناعة، وأغرقت مقاماتهم بالإطناب والسّجع ومختلف أوجه البديع. وكل ذلك على حساب المضمون في كثير من الأحيان كما سنرى لاحقاً. أمّا من حيث الموضوعات فلم يخل بعضها من مجون وكدية؛ إلا أنّ أبرز ما جاء من موضوعات في المقامات كان: النّقد الأدبي، والسّياسة، والمدح، والهجاء، والغزل، والمجون، ووصف المدن أو الرحلات...^(٣) وفي ما يأتي ستوضح لنا كل هذه الأمور من خلال عرض بعض ما جاء في كتاب المقامة في الأندلس، وأهم مقاماتهم...

و - كتاب المقامة في الأندلس:

كما لاحظنا سابقاً، نكاد لا نقع على كاتب تفرغ للمقامة في الأندلس. إلا أنّ الذين تأثروا بهذا الفنّ وصاغوا على منواله كثير. وسنتوقف عند بعض الأسماء كما وردت عند الدكتور عبد العزيز عتيق، وعلى مقتطفات من مقاماتهم لنحلّلها ونتبيّن بعض خصائصها...

ومن هؤلاء الكتاب نذكر الشّاعر والأديب الغرناطي أبو محمّد عبد الله بن ابراهيم الأزدي المتوفّى سنة ٧٥٠ هـ، والمعروف

(٢) مجلة المعهد المصري، ص ١٦٨.

(١) عبد العزيز عتيق، م. س، ص ٤٨٢ وص ٤٩٤.

(٣) م. ن، ص ٤٨٢.

جميعاً، ثم ختم كلامه بقوله: «هذا ما عندي في المتقدمين والمتأخرين، على احتقار المعاصر، واستصغار المجاور، فحاش لله من الاتّصاف بقلّة الإنصاف، للبعيد والقريب، والعدوّ والحبّيب». فقال ابن شرف: «يا أبا الريّان، وقيت مرور الحدثان، فلقد سكبت فهماً، وحشيت علماً». وإلى هنا تنتهي المقامة.

ولكن أبو المطرف عبد الرحمن بن فتوح^(٢)، له مقامة اعتبرها ابن بسام في ذخيرته حديثاً من ابن فتوح عن نفسه ولم يسمّها مقامة، مع أنها لا تخرج عن المقامة في طابعها ورسومها. وقد عالجت، كمقامة ابن شرف السّابقة، موضوع «النّقد الأدبيّ» ولكنّ النّقد فيها يقتصر على شعراء الأندلس وحدهم.

في هذه المقامة يقصّ ابن فتوح حادثة وقعت له، وهو يطوف بالمسجد الجامع بالمريّة ذات ليلة سنة ٤٣٠ هـ. وخلاصة الحادثة أنّه كان أثناء طوافه يردّد بيتاً من الشّعر، فسمعه فتى حسن المنظر، فسلمّ عليه سلاماً ارتاحت له نفسه، فردّ عليه ردّاً من توسّم فيه الفهم، فقال له الفتى: «بحرمة الأدب ألا أعدت عليّ البيت» فأعاده وأنشده سائر الأبيات، فقال: الشّعر إنّم، وأنت إنّمأ أخذته من قول العباس بن الأحنف:

بابن المرابع. وله مقامة ساسانية تدعى «مقامة العيد» كتبها إلى حاكم مالقة الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر يستجديه أضحية لمناسبة العيد. وكذلك نشير إلى السرقسطي الذي عارض مقامات الحريري الخمسين «بكتاب الخمسين مقامة». أما أبو عبدالله محمّد بن شرف القيرواني^(١) فله مقامات عارض بها البديع، ومنها مقامة فيها بعض طول، لكنّها غير مملولة، وموضوعها النّقد الأدبيّ لطائفة من الشّعراء.

وينبئنا ابن شرف في مستهل مقامته هذه أن ضمّه وشخصاً يدعى «أبا الريّان» مجلس ذكر فيه الشّعراء ومنازلهم في الجاهليّة والإسلام والعصر العباسي، ومنهم بعض شعراء الأندلس. فقال أبو الريّان: عدد الشعراء أكثر من الإحصاء، وأشعارهم أبعد من مشقّة الاستقصاء. فقال له ابن شرف: لا أعنتك بأكثر من المشهورين، ثم سمي له ستّين شاعراً من شعراء الجاهليّة والإسلام والعصر العباسي ومنهم بعض شعراء الأندلس. فقال أبو الريّان: لقد سميت المشاهير، وأبقيت الكثير. فقال ابن شرف: بلى. ولكن ما عندك في من ذكرت؟ عندئذ مضى أبو الريّان يبدي رأيه في من ذكر له من الشّعراء حتى استوفاهم

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٨٥.

(١) عبد العزيز عتيق، ص ٤٨٣.

وأحسن أيام الهوى يومك الذي
تروّع بالهجران فيه وبالعتب
إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضى

فأين حلاوات الرسائل والكتب؟
ثم سأله عن السبب الموجب لترديده
البيت، فأخبره أنّ ذلك كان لفراق حبيب
مولع بخلافه، فدعا الفتى بقوله: «قلّب الله
عليك قلبه، وجنّبك عتبه» ثم ولى عنه «وقد
غرس في كبده ثمرة ودّه». وإلى هنا يحكي
ابن فتوح قائلاً: «فبتّ الليلة مستأنساً
بخياله، جذلان بوصاله، حتى رأيت غرّة
الفجر...، فلم ألبث أن سمعته ينشد ويطلب
منزلي، فقرع الباب وأذنت له فدخل، فرحبت
به، وقمت إليه، وأقبلت عليه، فقال لي: يا ابن
الكرم! إنّ هذا يوم قد بكى ماء غيمه، ونبض
عرق برقه، وخفق قلب رعده، واغرورقت
مقلة أفقه، ونحن لا نجد الخمر، ففيم نقطع
تأويبه؟ فقلت: الرّأي إلى سيّدي أبقاه الله،
فقال لي: كيف نذكرك لرجال مصر،
ووقوفك على شعراء عصرك؟ قلت: خير
نذكر. فقال: من أعذبهم لفظاً، وأرجحهم
وزناً؟ قلت: الرّقيق حاشية الظرف، الأنيق
ديباجة اللطف، أبو حفص بن برد... قال:
فمن أكلفهم بالبديع، وأشغفهم بالتقسيم
والتتبيع؟ قلت: «الراتع في روضة الحسب،
المستطيل بمرجة الأدب، أبو بكر يحيى بن
إبراهيم الطّنبلي، فأنشُد:

وخطب قسّاً في عكاظ محاوراً
على البعد سبحان فأفحمه قسّ

ولأبي حفص عمر بن الشهيد مقامة في
وصف رحلة قام بها وبعض إخوانه في
رفقة الفقيه بن الحديد^(١). وقد صدر بن
الشّهيد مقامته بنبذة عن صنعة الكتابة بين
فيها قيمتها وفائدتها الخاصّة والعامّة،
ويقول في ذلك: «إنّ صنعة الكتابة محنة من
المحن، ومهنة من المهن، والسّعيد من
خدمت دولة إقباله، والشفي من كانت رأس
ماله، والعاقل من إذا أخرجها من مثالبه، لم
يدخلها في مناقبه، لا سيما وقد تناولها يد
كثير من السّوق...»، ثم يدخل في وصف
الرحلة فيخبرنا أنها كانت في أيام الربيع،
وتبدأ الرحلة في الفجر، وفي المرحلة
الأولى منها طالعهم وهم على الجياد «منزل
بدويّ، ذي هيئة وزيّ، فمالوا إليه، فهشّ
وبشّ، وكنس منزله ورشّ، وصيرّ عياله إلى
ناحية، وجمع أطفاله في زاوية». ثم يصف
المنزل على بساطة ما فيه وصفاً يُشعر بأنّه
قصر، ويدرك البدوي ما في هذا الوصف
من السّخرية فيقول:

يا أخي نحن على أنّا نتاج بدويّ

سادة ناس لنا في هذه الدنيا دويّ

عندنا إن جاء ضيف شبع جمّ وريّ

(١) عبد العزيز عتيق، ص ٤٨٦.

وسرير حشوه ريش الفراريج وطّي

وكرامات كثيرات وهيئات وزّي

ثمّ قام من مكانه ودعا بصبيانه، وأغراهم بديك له هرم ليذبحه في طاعة الكرم. وأدرك الديك ما يبيّت له من الشّرّ، فوقف خطيباً يذكر أهل البيت بأفضاله عليهم... ثمّ غشي عليه، فرقت له أنفس القوم، وأقبلوا على صاحب المنزل باللّوم، ولكنّه أصرّ على أن يذبحه، وأن تضرم تحته النيران، ويشبع من لحمه الضيفان...

وفي فصل آخر من المقامة يطرق آذانهم صوت ناقوس في دير قسّيس، ويقتربون من قرية آنة. ويبدو أنّ أحدهم كان قد سبق له زيارتها، فأخذ يطنب في وصف جمال نسائها... وعلى الطريق واجهتهم كنيسة قديمة عارية الأطلال، فأثارت خيال ابن الشهيد، وهيّجت له ذكراً، فنظم قصيدة في وصف حالها.

ثم استأنفوا السّير مسرعين، حتى أتوا إلى مروج تسرح السائمة فيها كالعذارى بين كلاً نضير، وماء نمير، وهناك شرب ابن الشهيد الكثير من اللبن، وفي ذلك يقول: «وما زلت أروى بالرائب والميس، حتى كاد كياني ينقلب إلى كيان التّيس!» وعندما رحلوا ذكروا الطراد والصّيد فانطلقوا إليه

مستعدين بباز وكلاب... ثم وردوا ماء، وهناك شربوا وطعموا، وقروا سباع الفلاة مما فضل عنهم، ونقش ابن الشهيد على مرمرة بيضاء، قصيدة وصف فيها بعض ما كان من أمرهم في ذلك اليوم. ولما غادروا الماء، الذي نزلوا عليه واستأنفوا مسيرهم تلقّاهم شابّ وسيم على ظهر جواد، وعبراته تنسكب على نجاد سيفه، وأخبرهم بأنّه منقلب من السجن، وأبق من الحصن... أخيراً إذا كانت هذه المقامة عن رسوم المقامة المعروفة، فإنّ قيمتها تكمن في ما تضمّنته من تصوير شائق جميل لبعض مغامراتهم في هذه الرحلة أو النّزهة.

كذلك لأبي محمّد بن مالك القرطبي^(١) مقامة لم تصل إلينا كاملة، ويبدو أنه أطل فيها وأطنب، وهي تعرب عن حفظ كثير. وقد خاطب بها المعتصم بن صمادح، صاحب المرية المتوفّى سنة ٤٨٤ هـ. ويفهم من فصول المقامة أنّه كتبها عقب عودة المعتصم بن صمادح ظافراً من معركة التحم فيها مع أعدائه. وقد افتتحها ابن مالك بمدح المعتصم وإعلان البشرى والتهنئة لدولته بما رزقه الله من «فتح تفتّحت له أزاهير النّجاح»، ثمّ انتقل من ذلك إلى وصف يوم من أيّام المعركة، ووصف الخيل، ثم يشير إلى استسلام العدو. ولا

(١) انظر: عبد العزيز عتيق، ص ٤٩١.. ٤٩٣.

واحدة^(١)، وهي مقامة طويلة مسجوعة تبلغ خمس عشرة صفحة^(٢). لقد بنى ابن الخطيب مقامته على حوار بين بطلين هما: الخليفة هارون الرشيد، وحكيم فارسيّ الأصل عربيّ اللسان، ولعلّه اصطنع هذا الأسلوب تشويقاً لقراءتها للإفادة ممّا اشتملت عليه من قيم سياسيّة. وهذه القيم ليست في الواقع إلا خلاصة آرائه وتجاربه الشخصيّة في سياسة الحكم الذي يتمنى له النّجاح والدوام. ونورد في ما يلي جزءاً من مقدّمة هذه المقامة حيث يقول ابن الخطيب: «سهر الرّشيد ليلة، وقد مال في هجر النّبذ ميله، وجهد ندماؤه في جلب راحتته، وإمام النّوم بساحته، فشخّت عهادهم، ولم يغن اجتهادهم، فقال: اذهبوا إلى طرق سماها ورسمها، وأمّهات قسمها، فمن عثرت عليه من طارق ليل، أو غثاء سيل، أو ساحب ذيل، فبلغوه، والأمنة سوغوه، واستدعوه، ولا تدعوه. فطاروا عجالي، وتفرّقوا ركبانياً ورجالا، فلم يكن إلا ارتداد طرف أو فواق حرف، وأتوا بالغنيمة التي اكتسحوها،... يتوسّطهم الأشعث الأغبّر، واللّجّ الذي لا يعبر، شيخ طويل القامة، ظاهر الاستقامة،... فلمّا مثل سلم، وما نبس بعدها ولا تكلم».

يفوته أن يحذّر الأعداء من الاغترار بخلق ممدوحه وكرمه الفيّاض «فهو جذب وربيع معرق، وليل ونهار مشرق، فيه الصّاب والعسل، وفيه السّهل والجبل، له خاطر على خواطر الحوادث مرسل، وطرف بأطراف البلاد موكل. فإني بعناد من تميد الأرض إذا وجم، ويرقّ نسيم الهواء إذا ابتسم؟». فإذا بلغ من كلّ ذلك غايته، التفت إلى نفسه، فجردّ منها شخصاً وراح يقنعه بأنّه كان على صواب في إثارة المعتصم واختصاصه في مدحه: «... لم أكن ممّن غرّه السّراب، حين أعوزه الشّراب...».

وفي ختام المقامة، يبدي ابن مالك اعتذاره لعدم خروجه في جيش المعتصم والمشاركة في المعركة، وفي ذلك يقول: «ويا لهفي ألا تكون معونتي له إلا باللسان دون السنّان، أطاعن أمامه دراكاً، وأزاحم قدّامه الأقران لكاكاً! ولولا أفرخ كزغب القطا، يدبّون في نائله عندي دبيب الكرى، فيستشفون علّالتي، ويستنزفون بلالتي، لامتطيت من جدواه اليعبوب، وتقلدت من نداه الصّارم الرّسوب...».

ونختم بالوزير لسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ هـ، وله مقامة في «السياسة» يقول: إنه أملاها في ليلة

(١) لسان الدّين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبدالله عنان، القاهرة، ط ٢، ١٩٥٦، ص ٧٥.

(٢) انظر: عبد العزيز عتيق، ص ٤٩٥.

العلماء من ملكك مواقع المشاعل المتألفة، وعلى قدر تعاهدا تبذل من الضياء، وتجلو بنورها صور الأشياء...». وحدّثه عن عمارة البلدان، وخير الملوك، والجور والعدل... وقد ختم ابن الخطيب مقامته بخاتمة طريفة. ومن خلال ذلك، تظهر مقدرة ابن الخطيب الفائقة في تطويع الأدب للسياسة والسياسة للأدب.

ز - خاتمة:

من خلال هذا العرض، يظهر لنا «إلى أي مدى أثرت دائرة المشرق والكلاسيكية العربية، في جميع العصور، على الاهتمامات الجدّية لاسبانيا العربية. حتى لكأنّ هذه الدائرة، في الوقت الذي لم تكن فيه طاغية وإنّما كانت تفسح في المجال لظهور بوادر أكثر أصالة في الفكر الاسباني، تبدو على أنها كانت متينة الأثر في غالبية الطرائق الأدبية التي ساهمت أكثر من غيرها في شهرة الثقافة العربية في إسبانيا»^(١).

وتجدر الإشارة إلى أنّ من اعتنوا، في الأندلس، بالمقامات ظلوا مقصرين عن المشرقيين تقصير المقلد عن المبدع. فقد شغلوا بتقليد أسلافهم، وعنيوا عناية كبيرة بالصنعة وفي ذلك يقول بطرس البستاني: «ويؤخذ عليهم أنّهم اعتمدوا الصنعة في

... فتعاخذ جذل الرشيد وتوفر، وأغشى وجهه قطعة من الصّبح إذا أسفر، وقال: ما رأيت كالليلة أجمع لأمل شارد، وأنعم بمؤانسة وارد! يا هذا إنني سائلك، ولم تخب بعد وسائلك. فأخبرني ما عندك في هذا الأمر الذي بُلينا بحمل أعبائه، ومنينا بمراوضة إباطه. فقال: هذا الأمر قلادة ثقيلة، ومن خطة العجز مستقيمة، ومفتقرة لسعة الذرع، وربط السياسة المدنية بالتسرّع... فقال الملك: أجملت ففصل، وبريت فنصل، وكلت فأوصل، وانثر الحبّ لمن يحوصل، واقسم السياسة فنوناً، واجعل لكلّ لقب قانوناً، وابدأ بالرعية، وشروطها المرعية». بهذه المقدمة مهّد الكاتب للدخول بموضوع المقامة السياسي. ونلاحظ أنّ أسلوبه فيها يميّز بالسهولة والسلاسة، وقد اعتمد فيه على التزام نوعين من البديع هما: السجع والجناس الناقص.

وبعد ذلك انتقل ابن الخطيب إلى شرح السياسة التي ينبغي اتّباعها في تربية الأبناء وتنشئتهم، ومع الخدم والحرم اللائي «هنّ مغارس الولد، ورياحين الخلد». وقد أفاض بعد ذلك في آداب الخليفة والصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها والتي ينأى عنها. فأوصاه بالعدل، وبصيانة المال، وحبّ إليه العلماء بقوله: «واعلم بأنّ مواقع

(١) ليفي برونسفال، ص ٥٨.

إنشاء مجاميعهم»^(١)، ولم يتفرغ أيّ منهم لهذا الفن... فخرجوا به إلى ما يشبه الرسالة أو المقالة في مفهومنا الحديث، في حين أنّها كانت ستمهد لقيام القصّة القصيرة أو الأقصوصة في الأدب العربيّ.

المصادر والمراجع

- ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبدالله عنان، القاهرة، ط٢، ١٩٥٦.
- بروفنسال، ليفي: حضارة العرب في الأندلس، ترجمة: ذوقان فرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لا ت.
- بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، تموز ١٩٦٨.
- البستاني، بطرس: أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، دار نظير عبود، ١٩٩٧.
- العبادي، أحمد مختار: «مقالة العيد»، مجلة المعهد المصري، مدريد، ١٩٥٤.
- عباس، إحسان: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٦٩.
- زيدان، جرجي: تاريخ آداب اللغة العربية، ثلاثة أجزاء، دار الهلال، ١٩٥٧.
- عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦.
- الكك، فيكتور: بديعات الزمان، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦.
- المقري، التلمساني: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨.

(١) بطرس البستاني، ص ٢٠٤.

عبد الغني العُرَيْسي (١٨٩١-١٩١٦) - تنبيه مبكر من الخطر الصهيوني

د. حسام محي الدين^(١)

مقدمة

لعل صفة الشهيد التي استحقتها عبد الغني العريسي بجدارة في ٦ أيار ١٩١٦، تدفع المؤرخ إلى الوقوف على تاريخ هذا الشاب الذي اتصف بعروبيته العنيدة في مواجهة حركة التتريك التي غزت «الوداعة العثمانية» في تعاطيها مع تنوع الملل، المتناثرة في سلطنتها المترامية الأطراف.

إن رباطة الجأش والجبين المرتفع والصوت الصادح الذي واجهه به جمال بشا تؤكد ما امتلكه هذا الشاب من فكر ورؤية وعناد في المطالبة بحق وفي تأكيد هوية عربية واعية.

«بلغوا جمال باشا أن الملتقى قريب، وأن أبناء الرجال الذين يقتلون اليوم سيقطعون في المستقبل بسيوفهم أعناق أبناء الأتراك، إن الدول لا تبني على غير

الجماجم وإن جماجمنا ستكون أساساً لاستقلال بلادنا».

إن كان العريسي استشهد بصوت عالٍ، فقد ترك أيضاً وصيته بصوت عالٍ، فطلت تؤرق سبات الأتراك حتى أخرجتهم من بلاد العرب.

ما يلفت في عبد الغني العريسي، هذه الغزارة الفكرية، المنطلقة من أرومة عربية، والمواجهة لكل أشكال الاستبداد، والداعية إلى التيقظ في مواجهة الغرب، والوقوف في مواجهة التتريك، والتنبيه في مواجهة الصهيونية. لقد أفرد في حركته الفتية، وهو في العقد الثالث من عمره فقط، لكل قضية من قضايا العرب زاوية تأمل وتفكير وتوعية، واستل من عناده المتميز سيف الموقف دون موارد ليُدفع حياته دون خوف ثمناً له.

(١) استاذ مساعد في قسم التاريخ الجامعة اللبنانية.

العثمانية»^(٢)، مطالباً فيها بمشاركة العرب العادلة في الحكم العثماني. واستمر عبد الغني العريسي في نشاطه السياسي وغدّاه بالعمل الصحفي، حي أنشأ جريدة المفيد تلتها أربع جرائد أخرى عطّلها العثمانيون جميعها.

عبد الغني العريسي، فتى العرب العنيد، «مفكر الحركة العربية وكاتبها ونابغتها»^(٣) كما قال عنه صديقه عوني عبد الهادي، مخضرم الحركة العربية، في بضع كلمات قد توفيه حقه.

أولاً: شهداء ٦ أيار ١٩١٦، قراءات مختلفة لسياق تاريخي

مما يلفت النظر في موضوع شهداء فجر ٢١ آب ١٩١٥ وفجر السادس من أيار ١٩١٦^(٤)، هو الجدل التاريخي القائم حول

منذ وعيه القومي والعربي، شارك العريسي في عدة لقاءات ولجان ومؤتمرات، صبّت في تعزيز مطالب العرب تحت مظلة السلطنة العثمانية، ثم اتجهت نحو الانفصال عنها بعد تطور حركة التتريك، وإضرارها بالمصالح العربية في ظل الاتحاد والترقي. فعام ١٩١٣، وبموازاة هيئة رسمية باركها والي بيروت والصدر الأعظم لرفع لائحة اصلاحية إلى مجلس المبعوثان، شارك بهيئة غير رسمية في ١٤ كانون الثاني، طالبت بمجموعة إصلاحات مفصلية لولاية بيروت^(١). وبعد تعطيل الجمعية الاصلاحية من قبل الاتحاد والترقي، ساهم كمؤسس للمؤتمر العربي الأول عام ١٩١٣، وسعى مع رفاقه للمطالبة باللامركزية؛ وفي ٢٠ حزيران ألقى العريسي في الجلسة الثانية كلمة تحت عنوان «حقوق العرب في المملكة

(١) حسان حلاق، تاريخ لبنان المعاصر، ١٩١٣-١٩٥٢، دار النهضة العربية، ٢٠١٠، ص ١٦.

(٢) حسان حلاق، مرجع سابق، ص ٣٤-٣٥.

(٣) عبد الغني العريسي، مختارات المفيد، قدم لها ناجي علوش، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٨١، ص ١٠.

(٤) القافلة الأولى للشهداء الذين أعدموا في ١٥ آب ١٩١٥: عبد الكريم الخليل، من الشياخ قرب بيروت؛ حمد المحمصاني، من بيروت؛ محمود المحمصاني، من بيروت؛ عبد القادر الخرسا، أصله من دمشق ومقيم في بيروت؛ نور الدين القاضي، من بيروت؛ سليم أحمد عبد الهادي، من قرية عرّابة قرب جنين بفلسطين؛ محمود نجا العجم، من بيروت؛ الشيخ محمد مسلم عابدين، مأمور أوقاف اللاذقية من دمشق؛ نايف تلولو، من دمشق؛ صالح حيدر، من بعلبك؛ علي الأرمنازي، من حماه.

القافلة الثانية من الشهداء الذين أعدموا في السادس من أيار سنة ١٩١٦: شفيق بك مؤيد العظم، من دمشق؛ الشيخ عبد الحميد الزهراوي، من حمص؛ الأمير عمر الجزائري (حفيد الأمير عبد القادر الجزائري) من دمشق؛ شكري بك العسلي، من دمشق؛ عبد الوهاب الإنكليزي، من دمشق؛ رفيق رزق سلّوم، من حمص؛ رشدي الشمعة، من دمشق؛ وفي نفس التاريخ أعدم في بيروت في ساحة البرج المحكومون التالية أسماؤهم: باترو باولي، من التابعة اليونانية، مقيم في بيروت؛ جرجي الحداد، من جبل لبنان؛ سعيد فاضل عقل، من الدامور بلبنان؛ عمر حمد، من بيروت؛ عبد الغني العريسي، من بيروت؛ الشيخ أحمد طبارة، إمام جامع النوفرة في بيروت؛ محمد الشنطي اليافي، من =

موقفهم وهويتهم وانتمائهم. وطرح السؤال الاشكالي: هل هؤلاء شهداء أم عملاء؟ ويبدو أن بعض المؤرخين تركوا لمخيلتهم العنان فبالغوا وأسرفوا في توصيفهم وزرعوا الشك في اليقين حول موقفهم من حركة التتريك، بل تجرأ البعض على طعنهم بالماسونية، في وقت كان معظمهم واعياً للحركة الصهيونية، منبهاً منها، ومنهم عبد الغني العريسي، الذي ضمن جريدته «المفيد»، مقالات وصفحات تنبهه من الخطر الصهيوني، ومساعي هذه الحركة لابتلاع فلسطين من خلال المستوطنات والهجرة المكثفة التي حدثت في أواخر العهد

العثماني، وبمباركة جماعة الاتحاد والترقي. وبدل تسليط الضوء التاريخي على علاقة الاتحاد والترقي بيهود الدونمة ومسايرتهم للمشاريع الصهيونية، نجد من كتبة التاريخ، وتحت باب الجهل أو التعمية، أو نتيجة تكرار عبارات قُرئت دون تدقيق أو تمحيص، من سعى لينقل عباءة العمالة واتباع الماسونية ومن ثم الصهيونية إلى هؤلاء الشهداء، متجاوزاً المعطيات، ومغيباً التاريخ. ولمجرد أن صوتاً ارتفع في وجه حركة التتريك مطالباً بالقومية العربية وحقوقها، قد خلط هؤلاء في خضم تمسهم للسلطنة العثمانية بين فترة

- = يافا بفلسطين؛ توفيق البساط، من صيدا؛ سيف الدين الخطيب، من دمشق؛ علي بن عمر النشاشيبي، من القدس؛ محمود جلال البخاري، من دمشق؛ سليم الجزائري، من دمشق؛ أمين لطفي الحافظ، من دمشق؛
- إلى جانب القوافل التي أهدمت بشكل جماعي، هناك أفراد حكم عليهم الديوان العُرفي بتهم مختلفة وتم إعدامهم في مدن مختلفة، وفي تواريخ متفرقة وهم:
 - الخوري يوسف الحايك، من سن الفيل قرب بيروت، أُعدم في دمشق يوم ٢٢ آذار سنة ١٩١٥، والذي كان أول شهيد يسقط في الحرب العالمية الأولى.
 - نخلة باشا المطران، من أهالي بعلبك اغتاله حارسه الشركسي أحمد بك الرزّي قرب أورهه بالأناضول في ١٧ تشرين الأول ١٩١٥ وألقيت جثته في بركة ماء قرب المكان الذي اغتيل فيه.
 - الشقيقان فيليب وفريد الخازن من جونية بلبنان أُعدما ببيروت يوم الثاني من أيار سنة ١٩١٦.
 - عبد الله الظاهر، من عكار، أُعدم ببيروت يوم الأول من آذار سنة ١٩١٦.
 - يوسف الهاني، من بيروت، أُعدم ببيروت في نيسان سنة ١٩١٦.
 - محمد الملح، شيخ عشيرة الحسنة، أُعدم بدمشق في أوائل سنة ١٩١٧.
 - فجر المحمود، من عشيرة الموالي، أُعدم بدمشق أوائل سنة ١٩١٧.
 - شاهر بن رحيل العلي، من عشيرة التركي، أُعدم بدمشق على أثر إعلان الثورة العربية.
 - الشيخ أحمد عارف، مفتي غزة، وولده، من مدينة غزة أُعدما في القدس الشريف سنة ١٩١٧.
 - الشقيقان أنطوان وتوفيق زريق، من طرابلس، أُعدما بدمشق سنة ١٩١٦.
 - يوسف سعيد بيضون، من بيروت، أُعدم في عاليه بلبنان يوم العاشر من شهر آذار/مارس سنة ١٩١٦.
 - راهب فرنسي، كان عند مطران الروم الكاثوليك بطرابلس، أُعدم في دمشق.

انقضت، وفترة عليها حركة التتريك طغت، بين الموضوعية التاريخية، والاتهام المجحف دون نقد وتمحيص.

يذكر جميل عبد الله المصري توصيفاً حول حالة العرب في تلك الفترة بالصيغة التالية: «كُون العرب حزب اللامركزية، وتعني ان تأخذ الولايات غير التركية استقلالاً ذاتياً، وتبقى خاضعة خارجياً لاستانبول. كما كونوا جمعيات سرية، مثل الجمعية القحطانية برئاسة عبد الكريم الخليل، والضابط عزيز علي المصري، والجمعية العربية الفتاة، التي تشكلت في باريس عام ١٣٢٩هـ، على منهج تركيا الفتاة، ومن قبل طلاب يدرسون هناك تشبعوا بالأفكار الغربية، وخاصة مبادئ العصبية القومية، واستعمل بعضهم المصطلحات الماسونية...»^(١).

وينقل علي محمد الصلابي بعد عقد من الزمن، وبالصيغة نفسها، تهمة تأثر الحركة

العربية ضد التتريك بالحركة الماسونية^(٢)، ويبدو واضحاً للقارئ، خلط الكاتبين بين الأفكار الغربية والقومية والماسونية في جملة من الاتهامات التي تطال الحركة العربية في مواجهة حركة التتريك الضالعة بتلقي الدعم من الجمعيات الصهيونية، والمتورطة ببيع «الأراضي المدورة»^(٣) في فلسطين.

ومن الناحية التركية، يذكر يلماز في كتابه^(٤)، تحت عنوان «قضية ديوان حرب (مجلس عرفي عسكري) عاليه ١٩١٦»، عن خيانة دولة، يتحدث عن علاقة المتآمرين بسُلطان زاده حقي (١٨٦٠-١٩٥٥)، مؤسس جمعية التشبث الشخصي واللامركزية، والعميل وفق رأيه للمخابرات المركزية البريطانية^(٥). ومن ناحية ثانية يؤكد يلماز من خلال مذكرات رئيس الأركان علي فؤاد بك (أردن باشا) في عهد جمال باشا، ضغط هذا الأخير على محكمة عاليه لإصدار هذه الأحكام القاسية، لاسيما

(١) جميل عبد الله المصري، حاضر العالم الإسلامي: وقضايا المعاصرة، جزآن، الجامعة الإسلامية، المدينة، ١٩٨٦، الجزء الأول، ص ١٠٨.

(٢) علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، الأمل للتجهيزات الفنية، ٢٠٠١، ص ٤٦٥.

(٣) (المدورة أي المرجعة إلى خزينة الدولة بعد مصادرة خزينة السلطان الخاصة، وهي أراضي السلطان عبد الحميد المصادرة في فترة الاتحاد والترقي).

(٤) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مجلدين، منشورات مؤسسة فيصل، استانبول، ١٩٩٠، المجلد الثاني: استقى بعض معلوماته من كتاب «علية ديوان حرب عرفيسنده تدقيق أولونان مسألة سياسية حقهده إيضاحات، دوردونجي أوردوي همايون طرفندن نشر ايدلمشدر، در سعادات ١٣٣٢».

(٥) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع مذکور، المجلد الثاني، ص ٢٤٩: هرب إلى القاهرة ونجا.

أن الصدر الأعظم سعيد حليم باشا تمنى على جمال باشا أن لا يصدر أحكام إعدام بحق المتهمين على الرغم من ثبات خيانتهم؛ واعتبر أن قرار جمال باشا المشترك مع أنور وطلعت باشا ألحق الضرر بالدولة العثمانية، وكان للعرب نصيبهم من هذا الضرر؛ واعتبرها من الأفعال القبيحة التي يتحمل مسؤوليتها جمال باشا كشخص وليست الدولة التركية^(١).

وإذا كان المؤرخ التركي يعتبر إعدام جمال باشا لشريحة من النخب العربية من الأفعال القبيحة والأخطاء التاريخية، من المستغرب أن نقرأ كتابات تضع قائمة من هؤلاء الشهداء تحت تصنيف العلاقة مع الماسونية ومن ثم الصهيونية، وفي ذلك تشويه للحدث التاريخي، ولتلك الشخصيات التي حملة عبء المواجهة مع الحركة الصهيونية قبل وعد بلفور بسنين، وقبل سقوط فلسطين تحت براثن الصهيونية عام ١٩٤٨.

ثانياً: عبد الغني العريسي، فتي الصحافة العنيد

ولد عبد الغني العريسي، الكاتب

والصحفي والسياسي، عام ١٨٩١ كما أجمعت العديد من المصادر، غير أن هذا التاريخ كان ليمر مرور الكرام لولا هذا الكم الكبير من الانتاج الصحفي، وهذه المواجهة الكبيرة التي أثرها على نفسه. لقد أوردت جريدة الرأي عام ٢٠١٦، جردة استغراب على هذه الفترة الزمنية الزاخرة؛ إذ لا يعقل أن يتعلم في باريس ويصدر أكثر من صحيفة، ويكون له نشاط سياسي واسع، ويستشهد عن عمر لا يتجاوز ٢٥ عاماً^(٢).

وبسبب نشاطه السياسي، وخلال الحملة التي شنّها جمال باشا لإطفاء أصوات المعارضة في الشارع العربي، وبحثاً عن كم الأفواه، قضى العريسي مع ثلة من الشهداء في بيروت في ٦ أيار ١٩١٦، قبل إعلان الثورة العربية بما يقارب الشهر.

وقد يمر بعض المؤرخين مرور الكرام على إنشائه صحيفة المفيد، وعلى إغلاقها ثم قيام العريسي بافتتاح صحف أخرى بتسميات مغايرة^(٣)، والتي لم تكن في الواقع الا تستكمل مسيرته الأولى في المفيد؛ ولكن الحقيقة أن الصحفي الشاب

(١) يلماز أوزتونا، المرجع نفسه، المجلد الثاني، ص ٢٥١ - ٢٥٢.

(٢) الرأي، عدد ١٧ حزيران ٢٠١٦: ولد وتعلم في بيروت. واشترك مع فؤاد حنتس بإصدار جريدة المفيد اليومية، في العام ١٩١٣. وذهب إلى باريس فدخل مدرسة الصحافة، ودرس علم السياسة الدولية، واشترك في المؤتمر العربي الأول عام ١٩١٣. وعاد إلى بيروت بعد وفاة فؤاد حنتس، فاشترك مع عارف الشهابي في متابعة اصدار الجريدة، ونقلها إلى دمشق في بدء الحرب العالمية الأولى.

(٣) النهار، العدد ٢٣٦٨٠، ٢٧/٤/٢٠٠٩: د. جوزيف الياس، مئة سنة على صدور جريدة المفيد: بدأ عبد الغني =

بهذه الهمة الصحفية، سبب إزعاجاً منقطع النظير للعثمانيين. وقد يُفهم حجم العريسي ومدى إخافته للعثمانيين، من مقولة نابليون الأول: «إنني أوجس خوفاً من ثلاث جرائد أكثر مما أوجس من مائة ألف جندي»^(١).

لقد ضمن هذه الصحف أفكاره التي انقسمت بين المطالبة بالحقوق العربية، ومواجهة الاستعمار ومطامع الغرب، والتنبيه من الخطر الصهيوني منذ عام ١٩١١، أي قبل وعد بلفور بخمسة أعوام. واستمرت معركة الكرّ والفرّ بين افتتاح وإغلاق حتى قضى عبد الغني العريسي شهيد غزارته وأفكاره المناهضة للترتيك والصهيونية.

في البداية، فصّرَح أن جريدته «سياسيّة تنشر من الأخبار ما يفيد الناس، ولاسيّما ما له «مسييس بالأمة العثمانية»... ويقول: «كان الناس يشايعون الأمير، ويبايعون الكبير، ولا يراعون حرمة الوجدان ولا كرامة الضمير، فانقضى ذلك العهد (يعني العهد الحميدي) وتنزلت ألّهة الحكّام عن عروشها، وأصبح القوم بنعمة الله إخواناً، لا استثنائاً بالأمر ولا استبداناً بالرأي. فحيّاً لله الأّمة إذ غدت تدير شؤونها بيدها وتعمل على صلاحها من نفسها، وحيّاً لله الحكّام إذ رجع إلى نصابه، بعدما اختلسه الظلمة الجورة والخونة المكرّة الذين أرادوا بنا كيداً فجعلناهم الأسفين...»^(٢).

ويقول عنه مؤرّخ الصحافة العربيّة فيليب طرازي إنّه «يتوخى الحقائق في كتاباته ولو كلفته الخسائر الجمة... وهو من

ويبدو توجهه الصحفي واضحاً من خلال الصفحة الأولى للعدد الأول، حيث حدد مساره التحرري ضمن الأمة العثمانية

= العريسي بصحيفة «المفيد» اليومية في ٩ شباط ١٩٠٩، حتى أغلقها العثمانيون في أواخر أيار ١٩١٢. فأصدر صحيفة «صدى المفيد»، في ٣٠ أيار ١٩١٢، والتي استمرت لأعداد قليلة قبل أن تعاود «المفيد» إصداراتها قبل إغلاقها في أيلول من نفس العام بعد ١٠٨٢ عدداً. وصدرت بعد أيام قليلة صحيفة باسم «السان العرب» وحمل العدد الأول منها رقم ١-١٠٨٣ في إشارة إلى استكمال مسيرة «المفيد»، وافتتحها العريسي بمقال شغل الصفحة الأولى كاملة تحت عنوان «باسم العرب نجحاً وباسم العرب نموت»، وتم إغلاقها في أواخر أيلول ١٩١٢. وفي ٢٨ أيلول ظهرت صحيفة جديدة تحت اسم «الفتى العربي» واستكمالاً لمسيرة «المفيد» أيضاً حمل عددها الأول رقم (١-١٠٨٦)، وظلت تصدر لعدة أشهر قبل أن يعاد افتتاح «المفيد» والتي أعاد الأتراك إغلاقها في أواخر كانون أول من عام ١٩١٣. واستمر العريسي بعناده وأصدر في ١٥ كانون أول من عام ١٩١٣ صحيفة تحت اسم «فتى العرب» وأيضاً حمل إصدارها الأول رقم ١-١٤٣٥، واستمرت «فتى العرب» بالصدور حتى أواخر أيلول من عام ١٩١٤، وآخر عدد موثق هو ٢٢٩-١٦٦٣ الصادر يوم ٢٥ أيلول ١٩١٤. ثم عادت «المفيد» للصدور في أواخر أيلول من عام ١٩١٤، وكان آخر عدد موثق من «المفيد» يحمل رقم ١٧٠٩ صادر في ١٥ تشرين الثاني ١٩١٤.

(١) فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، بيروت، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٩١٣، الجزء الأول، ص ٤٢.

(٢) النّهار: العدد ٢٣٦٨٠، ٢٧/٤/٢٠٠٩: جوزيف الياس، مئة عام على صدور جريدة المفيد.

الذاهبين مذهب العقلاء بوجوب إسقاط الخونة من بين الحكام العثمانيين»^(١). ولعل هذه الوجهة في كتاباته كانت سبباً رئيسياً في كراهية الطبقة الحاكمة العثمانية له، لاسيما في فترة بلغ فيها الفساد ذروته.

وكان واضحاً من كتاباته تمييزه بين القومية العربية ضمن الأمة العثمانية، وبين الرابطة العثمانية. ففي «لسان العرب» في العدد الأول في ٢٣ أيلول ١٩١٢، كتب مهاجماً الاتحاديين، في افتتاحية صارخة حملت عنوان «باسم العرب نحيا وباسم العرب نموت». كلاماً خطيراً، ومما جاء في تلك المقالة: «نحن عرب عثمانيون مهما حاول غلاة الاتحاديين نقض هذه الجنسية، لأننا خُلِقنا عرباً بالرغم من أنفسنا. فلو كان في الإمكان أن ينحطّ الرجل فينسلخ عن ماهية أمته لعذرنا القائلين بفكرة الذوبان، لكنْ أبت النفس الكريمة أن تكون دنسة ساقطة... نعم، إننا عرب عثمانيون بالرغم من أنفسنا، لأنّ الجنسية ودبعة قد انتقلت إلينا دون أن نشاطر آباءنا هذا الرأي فيها...»^(٢).

«وافتح العريسي العدد الأوّل من «فتى العرب» بمقالة افتتاحية حملت عنوان «فتى

العرب: واجبه العامّ»، وشغلت أربعة أعمدة من الصفحة الأولى. ولهذه المقالة أهميّة كبرى، لأنّ العريسي حدّد فيها مذهبه في فهم «الجنسيّة العربيّة» (عنى بها العروبة أو الانتماء القومي)، فعرض أولاً لرأي الألمان في الرابطة القوميّة، وعرض ثانياً لرأي الفرنسيين فيها. ثمّ جمع، في تحديده «الجنسيّة العربيّة» هذه، بين العقيدتين الألمانيّة والفرنسيّة، أي أخذ «وحدة اللغة والنسب» من الألمان و«النزعة» (العاطفة أو الشعور بالانتماء) من الفرنسيين. فالعربيّ، في رأيه، هو «من وصلته رابطة من نسب، ووحدة من لغة، وكان تواقّاً للعرب نزعاً إليهم، يغار عليهم غيرة البطل النبيل. فإذا استجمع هذا حقّت عليه كلمة الواجبات الوطنيّة لتأييد الحقوق العربيّة...»^(٣).

إلى جانب هذا النشاط الصحفي، كان العريسي ناشطاً سياسياً، حيث كان من أوائل المنتسبين إلى جمعية العربية الفتاة في عام ١٩١٢ في باريس، وساهم في تأسيس نادي الحرية والائتلاف في بيروت في ٤ أيلول ١٩١٢، كما ساهم في تأسيس جمعية بيروت الإصلاحية في كانون الثاني ١٩١٢^(٤). وبعد حل جمعية بيروت

(١) فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، مرجع مذكور، الجزء الرابع، ص ١٥-١٦.

(٢) جريدة لسان العرب، العدد ٢٣ أيلول ١٩١٢.

(٣) النهار: العدد ٢٣٦٨٠، ٢٧/٤/٢٠٠٩: جوزيف الياس، مئة عام على صدور جريدة المفيد.

(٤) حسان حلاق، تاريخ لبنان المعاصر ١٩١٣-١٩٥٢، مرجع مذكور، ص ١٦.

الإصلاحية في ٨ نيسان ١٩١٣، انضم حزب اللامركزية الإدارية الذي أُعدم بتهمة الانضمام إليه، وساهم في انعقاد المؤتمر العربي الأول في حزيران عام ١٩١٣، وكان الخطيب في الجلسة الثانية مفتتحاً «بحقوق العرب في المملكة العثمانية» ومطالباً بحقوق العرب في التمثيل السياسي ضمن السلطنة العثمانية^(١).

ثالثاً: موقف العريسي من الصهيونية

ما يلفت النظر في مواقف عبد الغني العريسي، هو تسليطه الضوء عبر خطابه الصحافي، ليس باتجاه الهجرة الصهيونية نحو فلسطين منذ عام ١٩١١ فقط، بل وكشف بعض ملامح علاقة الاتحاد والترقي بالمحافل الصهيونية والصدقات التي كانت تجمعهم بها. وتأتي الشواهد التاريخية لتؤكد صدقية هذه العلاقة، وما أنتجته في فترة خمولى السلطنة واطمحلالها من فتح مسارات تاريخية استثنائية، نقلت فلسطين من حال إلى حال. إن مبالغة الاتحاد والترقي في الارتقاء في أحضان الجمعيات الصهيونية والدفاع عنها في هياكل الدولة المتهاكلة، يدفع إلى البناء على فرضيتين: إما أن قيادات الاتحاد والترقي كانت ضالعة في المحافل

الماسونية والصهيونية التي استعملتها في الانقضاض على السلطنة وتدميرها من الداخل، وإما كان وجود بعض الممثلين اليهود في الدولة لا سيما في مجلس المبعوثان يفرض وجود خطاب ودي للجمعيات اليهودية الظاهر الصهيونية الباطن، والتي كانت تغزو السلطنة بالقروض والهبات، تحت مسمى مساعدة السلطنة على مواجهة أزماتها.

ومما كتبه العريسي في المفيد كانون الثاني عام ١٩١١ في الصفحة الأولى تحت عنوان اليهود المهاجرون: «...إن شوري الدولة باشر البحث في القانون الذي سن لمنع الأجانب الموسويين الذين يهاجرون من أوطانهم من السكنى في أراضي سوريا وبيروت وفلسطين وقد جاء في هذا القانون شروط وقيود عديدة تمنع هؤلاء اليهود الأجانب من التلاعب في هذه البلاد، وعسى مجلس الأمة أن يوافق على هذا القانون سريعاً، فإن البلاد يكاد ينهار عليها التيار اليهودي الأجنبي»^(٢).

ويبدو أن موضوع الهجرة اليهودية إلى فلسطين في ظل الحكم العثماني أخذ حيزاً من الاهتمام في أوساط النخب لاسيما أن الفترة التي تلت خروج الحكم المصري من بلاد الشام شهدت أولى محاولات التأسيس

(١) حسان حلاق، م.س، ص ٣٤-٣٥.

(٢) جريدة المفيد، عدد ١ كانون الثاني ١٩١١.

المتخذة بحق اليهود الراغبين بالسفر إلى بر الشام وتحديداً أراضي فلسطين، وبأن «السفارة السنوية بواشنطن أبلغت وزارة الخارجية بمذكرتها المؤرخة في ٩ أيلول سنة ١٨٩٨ بأن قرارا اتخذ بمنع اليهود من دخول أراضي فلسطين، وأن المأمورين العثمانيين تلقوا أوامر بمنع المهاجرين اليهود من النزول في البر»^(٣). إذ كان اليهود الراغبين بالهجرة يحتلون بعدة طرق للوصول إلى فلسطين، ومن بين تلك الوسائل، استغلال زيارة الامبراطور الألماني في تلك الفترة وطلب تأشيرات دخول من قبل البعض منهم، وإحراج السلطات العثمانية، التي رفعت التشديد جزئياً، «فبمناسبة مغادرة جلاله الإمبراطور جهات فلسطين وسورية ألغي أمر المنع السابق مع الانتباه إلى عدم شمول الإلغاء الأشخاص المشبوهين، لكن الرسالة لم تتحدث أبداً عن منع دخول اليهود إلى أرض

لفكرة الاستعمار اليهودي على يد اليهودي البريطاني «موشي مونتفيوري»، فقد أنشأ أول مستعمرة يهودية في أرض فلسطين حاصلًا على الضمانات من الدولة العثمانية بالحماية والامتيازات، وارتفع عدد هؤلاء القادمين من ١٥٠٠ يهودي إلى عشرة آلاف. ومع تأسيس نواة الحي اليهودي في القدس، تم استقدام المهاجرين تبعاً على دفعات لاسيما في السنوات بين ١٨٨٢ و١٩٠٣، ثم في الفترة بين ١٩٠٤ ونهاية الحرب العالمية الثانية^(١).

وتتناول بعض الوثائق العثمانية^(٢) في تلك الفترة المتابعة العثمانية الرسمية أيضاً لموضوع الهجرة وتملك الأراضي، على الرغم من العوائق التي وضعت للحد من تلك الهجرة الديمغرافية على أراضي فلسطين. فعام ١٨٩٩، بعثت الممثلة العثمانية في واشنطن إلى رئاسة دائرة الكتابة في القصر الهمايوني، التدابير

- (١) قد تمت على دفتين رئيسيتين الأولى منهما بين سنة ١٨٨٢م وسنة ١٨٨٤م والثانية سنة ١٨٩٠م أو سنة ١٨٩١م، وقد جاء في هذه الهجرة حوالي ٢٥ الف يهودي معظمهم أسر محدودة الإمكانات من رومانيا وروسيا. وتشير المراجع الصهيونية إلى ان هذه الهجرة نظمت ومولت من جمعيات أجراء صهيون وحركة بيلو، ولكن هناك قرائه كثيرة تشير إلى بعض الشخصيات الاستعمارية والأجهزة البريطانية في تنظيم هذه الهجرة وتمويلها، كصندوق تطوير الاستيطان في فلسطين الذي أسسه سنة ١٨٥٢م الكونونيل جورج جاوولر حاكم استراليا السابق والسير لورنس أوليفانت الذي زار روسيا في تلك الفترة ثم حضر إلى فلسطين، واقام في حيفا مدة من الزمن www.paldf.com
- (٢) وثائق نشرت على موقع شبكة فلسطين للحوار: (www.paldf.net): وهي وثائق عثمانية مترجمة إلى العربية تتعلق بفلسطين من الارشيف العثماني؛ ترجمة الاستاذ كمال أوغلو خوجة، كمال خوجة/ مترجم ومتخصص في الوثائق العثمانية - أنقرة، تركيا.
- (٣) وثيقة رقم (Y.E.E 136/110-1) من الممثلة العثمانية في واشنطن، تاريخ: ٢٤ كانون الثاني سنة ١٨٩٩.

فلسطين. ومع ذلك فقد أبلغت القنصليات باستمرار سريان منع دخول اليهود أرض فلسطين على النحو السابق»^(١).

وعلى الرغم، من جميع التشريعات العثمانية في تلك الفترة، والتي سمحت بتملك الأجانب لأراضٍ في السلطنة العثمانية، باستثناء أراضي الحجاز ثم أراضي فلسطين بموجب أوامر سلطانية، كانت الهجرة اليهودية تتحرك بحذر وببطء شديد، وترافق ذلك، مع مشاريع استملاك للأراضي من خلال سماسة عرب أو أجانب، بغية تأمين المستوطنات في مشروع نقل اليهود إلى أرض فلسطين. وتشير بعض المراجع إلى ما يقارب ٢٤٥,٠٠٠ دونم تم الاستيلاء عليها حتى عام ١٩١٤، بطرق متعددة، وراحت إلى بناء المستوطنات وتأسيس المشروع الصهيوني.

وتتناول المفيد عام ١٩١١، في الصفحة الأولى^(٢)، رفض مجلس شورى الدولة لمشروع نجيب الأصفر، على الرغم من موافقة نظارة المالية عليه، وهيئة الشورى؛ ويربط في اسباب رفض هذا المشروع،

«خوف السوريين من دخول الجمعية الصهيونية في مسألة الأصفر واستيلائها على فلسطين غنيمة بادرة. فيقول: ويشهد الله أن خوفهم في مكانه ومن عرف ما يجري في السلطنة وتحت ظل هذه الخلافة من أعمال يهودية ليخاف على كل شبر من أرضنا العثمانية...»^(٣) ويختتم: «هذه حقائق تاريخنا الحاضر وتاريخ اجدادنا الغابر فهل لعقلاء في هذه الأمة أن يعتبروا وشالوم عليهم...»^(٤).

فبعد عزل السلطان عبد الحميد، تعرضت أراضي الجفتلك لهجمة بيع من قبل حكومة الاتحاد والترقي، وسعت هذه الأخيرة في بيع، ممتلكات السلطان المدورة في بيسان - فلسطين إلى رأسمالي كبير من بيروت، يدعى نجيب الأصفر، بحجة التطوير ودعم خزينة الدولة المأزومة. لكن الأهالي استطاعوا، في حملة شعبية دامت قرابة أربعة أعوام (١٩٠٩-١٩١٣)، وبمساندة النواب العرب في البرلمان والأعيان والصحافة المحلية، أن يثنوا الحكومة عن قرارها^(٥).

(١) الوثيقة نفسها.

(٢) جريدة المفيد، عدد ٢٩ كانون الثاني ١٩١١.

(٣) جريدة المفيد، عدد ٢٩ كانون الثاني ١٩١١.

(٤) جريدة المفيد، عدد ٢٩ كانون الثاني ١٩١١.

(٥) سهيلا سليمان الشلبي، مشروع الصهيوني وبدايات الوعي العربي لمخاطره ١٨٩٧-١٩١٧، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١٦، ص ١٦٦.

راجع أيضاً: زهير عبد المجيد الفاهوم، فلسطين، ضحية وجلادون، شمس للنشر والاعلام، الطبعة الثانية، القاهرة، ٢٠١٢، ص ٣٩٠: تأجير أراضي بيسان لنجيب الأصفر لمدة ٩٩ سنة... =

ومن الوثائق العثمانية المتعلقة بهذا الموضوع عام ١٩١٣، عريضة مرفوعة تضمنت اعتراضاً على مشروع الصفر الذي استمر حتى تلك الفترة؛ وورد فيها:

«في الوقت الذي تعتصر الآلام التي تسببت فيها حرب البلقان قلوب العثمانيين، فإن ثروة أهالي فلسطين تضيع ومصائبهم تتزايد، خاصة وأن الصهاينة يواصلون تملك أراضي فلسطين، وتمتد أيديهم إلى ما بقي من الأراضي. وقد علمنا أخيراً بأن الحكومة تسعى إلى تملك الأراضي المدورة إلى شركة أصفر. وإذا تحقق ذلك، فمن المؤكد بأنه سيكون ضربة أليمة تجاهنا وتجاه أولادنا ووعياننا وبلادنا. ولما كان من المسلّم أن الحكومة العادلة تنظر إلى رعاياها المخلصين نظرة الأب الرحيم، وأن شركة أصفر قد تكون سبباً في إخراج الرعايا المخلصين من ولائهم، وسيكون الضرر على الجميع كما سيكون خطراً كبيراً على الوطن العثماني المعروف بالشرف والعدل، لذلك نرفع احتجاجنا الشديد على هذه الشائعة»^(١).

وأتبعها نائب عكا السابق، أسعد شقير، ببرقية ورد فيها: «... جاءني بعد عودتي من بيروت إلى حيفا أكثر من مائة من رؤساء ووجوه الأهالي المخلصين للدولة المقيمين من أكثر من ثلاثين عاماً في قرى الغور وبيسان التي تشكل سلسلة مترابطة بين لوائي عكا ونابلس وقد تأثروا من وضع تلك الأراضي في المزاد طالبين وضع حد لما يتعرضون له من البؤس راجين أن أتوسط لهم في ذلك. وقد استمعت إلى مطالبهم فوجدتها محقة كلياً؛ فأراضي الغور وبيسان تقدر بثمانمائة ألف دونم، بينما يبلغ عدد العربان المقيمين فيها أكثر من ثلاثين ألفاً... كما أن إعطاء هذه الأراضي لآخرين يعني إرجاع هؤلاء الناس إلى حال البداوة... فأرجو منكم العمل على بيع تلك الأراضي للأهالي المذكورين ببديل المثل أو ما يتقرر من بدل مقسطاً، ومنع إجراء أي معاملة بيع لهذه الأراضي بعد ذلك لمدة أربعين عاماً لإزالة احتمال انتقالها لآخرين، وإعطاء الضمانات للرؤساء

= ويجدر الذكر أن عبد الكريم الخليل، وهو من شهداء أيار ١٩١٦، ذكرها في خطاب أمام الصدر الأعظم في ٥ آب ١٩١٣، في مظاهرة تأييد للاتحاد والترقي، بعد وعدها العرب بتحقيق مطالبهم.

(١) الوثيقة (D.H.I.D 73/8-25): كتاب مرفوع إلى المقام الجليل للخلافة العظمى، وإلى مقام الصدارة العظمى، وإلى مقام نظارة الداخلية، بواسطة متصرفية القدس، موقع من محمد يوسف القاسمي نائب القدس السابق، سعيد الحسيني، وأكثر من خمسين توقيعاً من القدس وغزة ويافا: في ٢٢ رجب سنة ١٣٣١ الموافق (٢٧-١٩١٣). ترجمة كمال خوجة: مجموعة منشورة على شبكة فلسطين للحوار.

المذكورين في الحفاظ على حقوقهم المشروعة بواسطة الولاية»^(١).

ويبدو أن هذه حركة الاستملاك في فلسطين اضطلعت بها شركات روتشيلد ونا نرسييس إضافة إلى جهات فرنسية وألمانية إضافة إلى البريطانية، وتحت أعين الجهات الرسمية العثمانية، المتواطئة في فترة الاتحاد والترقي، والتي نظرت هي الأخرى، بعين العطف لاستيطان اليهود في فلسطين. ففي كتاب رفع من مهاجري البوسنة والهرسك، من أسرة محمد علي باشا الإستولجي إلى الجهات العثمانية المختصة، يشرح ما آلت إليه أمور الاستملاك في فلسطين، موصفاً الوضع كالتالي:

«أن البارون روتشيلد ونا نرسييس وغيرهم من أثرياء اليهود في أوروبا يحدوهم الأمل والفكر الفاسد في تأسيس حكومة يهودية في فلسطين مرة أخرى بقوة المال، أسسوا شركات كبيرة في أوروبا برؤوس أموال كبيرة جدا لصرفها في سبيل تحقيق هذا الحلم الفاسد، وفتحوا فروعاً لهذه الشركات في الممالك المحروسة، لتقوم هذه الفروع باستملاك أراض في الأرض المقدسة، وخلال حوالي

خمسة عشر عاما تملكوا قسماً كبيراً من الأراضي في سورية وفلسطين، وهم يواصلون توسيع أملاكهم. حيث يقوم وجوه البلاد والتجار بالبحث في الأرياف عن الأهالي المسلمين والرعايا الصادقين للدولة، فيشترون أراضيهم مستغلين فقرهم وضعف أحوالهم، وبعد ذلك يبيعونها لليهود بأرباح خيالية. كما يقوم المأمورون في الحكومة المحلية بمساعدة اليهود في كافة أمورهم لتحقيق منافعهم الشخصية. وخلال الخمسة عشر عاما الماضية أرسلت أوروبا أعدادا كبيرة من اليهود الأجانب باسم المهاجرين الموسويين، ليستوطنوا في فلسطين. هؤلاء اليهود ليسوا من اليهود الذين نعرفهم، بل تلقوا التعليم في مدارس أوروبا وتشربوا تربيتها وعلومها، إنهم قوم يخشى من تكاثرهم واكتسابهم القوة في بلد من البلدان. ومع أن إيرادات سنوية صدرت بمنع دخول اليهود لفلسطين وإسكانهم، فإن مأموري الحكومة يسيئون استخدام الإرادة السنوية ويلجأون إلى وسائل ودسائس لا تخطر على بال في تأمين شراء واستملاك الأراضي لليهود، حتى أنهم استملكوا مزرعة لكامل باشا بتلك الطريقة. وحاصل القول إن روتشيلد وسائر

(١) الوثيقة (DH-I-D 73/8-36): برقية موجهة عبر إدارة برق الدولة العلية العثمانية، من عكا في ١٧ تموز سنة ١٣٢٩ (١٩١٣) إلى وزارة الداخلية: ترجمة كمال خوجة: مجموعة منشورة على شبكة فلسطين للحوار.

وعرضاً مسافة ساعتين. كما يقوم الألمان بإنشاء مبان ضخمة»^(١).

وكان العريسي يقرأ بوعي في كتب التاريخ، ويأخذ العبر مما فعله اليهود مالياً بدول كانوا مواطنين فيها، ويركز دائماً على المشروع الصهيوني باحتلال فلسطين، حيث لم يكن ذلك خافياً على النخبة المثقفة في تلك الفترة، وبـل ولم يكن خافياً عليهم التأثير الصهيوني الممارس على جماعة الاتحاد والترقي، لاسيما أن هؤلاء تلقوا الدعم في نشأتهم من يهود سالانيك. ويعتبر أن ليس من مبرر والحالة هذه من تسليم كافة الأمور للصهاينة بحجة هذا الدعم هنا وهناك.

هذا الانغماس التركي في المشروع الصهيوني كان في عين الصحفي الشاب عبد الغني، والذي تناول الجمعية الصهيونية في فلسطين في عدد ٥ شباط ١٩١١^(٢) حيث فند مقالاً لسليمان أفندي البستاني^(٣) كتبه هذا الأخير رداً على مقالة رفيق بك العظم، وسلط العريسي الضوء على مقاصد الحركة الصهيونية الحقيقية. وفي رده على

الشركات في أوروبـا تبذل كل شيء لزيادة عدد اليهود الأجانب في فلسطين ودعمهم وتقويتهم. أما مأمورو الحكومة فإنهم ينظرون إلى شركة روتشيلد نظرة سياسية، ويحترمون اليهود ويراعونهم أكثر من الأهالي، يعطونهم الامتيازات، في الوقت الذي يعاملون أهالي البلد من الرعايا الصادقين للدولة معاملة إيذاء وجفاء هذه الشركات تواصل إرسال الليرات بالأحمال، وبفضل هذه الثروة يسخر الأهالي والوجوه لخدمة اليهود. يظن الوجوه والمأمورون بأن الأموال التي ينالونها من اليهود هي مجرد إحسان، لكن اليهود يسجلون كل ما يعطونه ويرسلون ما هو مسجل للمحاسبة العامة للشركة، مع تقرير عن أحوالهم وأوضاعهم. لقد استملك الفرنسيون والألمان القسم الأعظم من جبل الكرمل في قسبة حيفا، وهذا الجبل يعد من النقاط الاستراتيجية المهمة في سواحل البلاد السورية. وقد أقام الفرنسيون حول هذه النقطة جداراً ارتفاعه بطول الآدمي، وصرفوا عليه سبعة آلاف ليرة ويبلغ طولاً

(١) الوثيقة (Y.P.R.KA.Z.J 34/1): برقية إخبارية موجهة إلى الجهات العثمانية. ترجمة كمال خوجة: مجموعة منشورة على شبكة فلسطين للحوار.

(٢) جريدة المفيد، عدد ٥ شباط ١٩١١.

(٣) سليمان أفندي البستاني، أديب ومفكر، ونائب بيروت في مجلس المبعوثان في الدورة التشريعية الأولى (١٩٠٨-١٩١٢) لمجلس المبعوثان في العهد الدستوري العثماني الثاني. واستقال البستاني في ٣١ كانون الثاني/يناير من العام ١٩١١ عقب تعيينه عضواً في مجلس الأعيان.

نفي سليمان أفندي البستاني لنية الحركة الصهيونية بالاستقلال في الدولة العثمانية وإعادة أمجادها القديمة، يذكره بتصريح «ماكس نورداو»^(١) أحد أقطاب الصهيونية حول نيتهم ليس امتلاك بضعة آلاف من الأراضي في فلسطين فقط، ليسكنها المزارعون الاسرائيليون، بل يسعون لإتمام ما قرره التاريخ لهم. وفي هذا الإطار يتهم العريسي هذه الجمعية بامتلاك الأراضي وبطرد الأهالي منها لإسكان مهاجرين موسويين، بل ويشير رداً على عرض فائدة مجاورة المستعمرين للسكان المحليين إلى المضايقات التي عانى منها عرب عشيرتي الدلايكة العنيسي والسهو، وأهالي قرية السجرة والعبادية. ويعتبر العريسي هذه الكولونيات مستقلة عن الدولة العثمانية لأنها لم تسلم أي فرد للخدمة العسكرية العثمانية على الرغم من طرح سليمان أفندي أنهم عثمانيون ويحملون جوازات سفر عثمانية. ويتهم اليهود بكراهية الدولة العثمانية، وبمحببتهم فقط عمالها الذين يخدمون مقاصد الصهيونية، كرشيد بك والي بيروت السابق، وقومندان الجندرية في أيامه عزيز باشا. ويتهمه بمزاحمة

السكان المحليين اقتصادياً واستيلائهم على موارد الرزق، خاتماً بأن «لو كان اليهود يحبون العثمانية كما يقولون، لرضوا بالتوطن في أي بلاد تجيز لهم الحكومة التوطن فيها ولامتزجوا»^(٢).

ويبدو أن هذه النظرة كان بعيدة المدى، لاسيما حول مسألة أراضي بيسان، والمؤامرة التي كانت تحيط بهم لإخراجهم من الأرض السلطانية التي شغلوها منذ القدم، والتي شارك في تفاصيلها جماعة الاتحاد والترقي. ففي عريضة مرفوعة من تلك النواحي في تموز ١٩١٣ إلى وزارة الداخلية العثمانية، ورد فيها: «من المعروف أن أحكام قانون الأراضي المتعلقة تنص على أن الأراضي الأميرية الخاضعة للطابو لا تستحق الطابو إلا إذا كانت متروكة أو معطلة، وتعرض على أصحابها فإذا استنكفوا تباع لمن يطلبها بالمزاد. لكن أراضينا في بيسان التي استولى عليها السلطان السابق تغلباً، وكنا نقوم بزراعتها منذ مئات السنين، وندفع الضرائب المترتبة عليها، حيث يبلغ عدد الذين يتعيشون من هذه الأراضي حوالي خمسين ألفاً معرضين الآن للمحو والانقراض. وبالرغم من رجائنا

(١) ماكس نورداو (سيمون ماكسيميليان سودفلد؛ ٢٩ تموز ١٨٤٩ - ٢٣ كانون الأول ١٩٢٣) كان زعيم صهيوني، وفيزيائي، كاتب، وناقد اجتماعي. كان مشارك في تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية عام ١٨٩٧ إلى جانب تيودور هرتزل، ورئيس أو نائب الرئيس للعديد من المؤتمرات الصهيونية.

(٢) جريدة المفيد، عدد ٥ شباط ١٩١١.

بالعرائض التي قدمناها ببيعها لنا ببدل المثل، فإن الحكومة تواصل عملية المزايدة على مجموع هذه الأراضي. إن بيع هذه الأراضي التي هي أعلى من حياتنا للمنظمات الأجنبية يعني التضحية بنا أيضا، ونحن مصممون على أن نموت ولا نسمح بذلك. وحتى لو أمكن تحصيل المبالغ المتوقعة بطردنا وإخراجنا من أرضنا، فإنها لن تعادل بأي حال المبالغ التي ستصرف على الطرد والإخراج. وفي هذه الحالة ستتخلى الدولة عن رعاياها المطيعين وعن المال في وقت واحد. لذلك فإنه في حال الإصرار على بيعها، نرجو بيعها لزراعتها وأهاليها القدماء ببدل المثل على أن تستوفى على أقساط»^(١).

من جهة ثانية، وحول القروض اليهودية المقدمة للدولة العثمانية، نقل العريسي في المفيد مجريات الجلسة التشريعية التي تمت في ١٦ شباط ١٩١١، ومما ورد فيها نقاش حاد حول قروض متعلقة بالمسألة الصهيونية، مما يؤشر لمتابعته الجادة في الموضوع الصهيوني، وإنشاء حكومة يهودية مستقلة على أرض فلسطين قبل وعد بلفور بسنوات، ومما يعرضه عن الجلسة

التشريعية ما قاله اسماعيل حقي بك مبعوث كوملجنه: «... ثم انتقل إلى القروض التي عقدها جاويد بك، وبالأخص القرض الأخير، وتدرج منها إلى المسألة الصهيونية، ورمى الحكومة بالأخذ بناصر هذه الجمعية اليهودية الساعية في تأليف حكومة يهودية مستقلة في القطر الفلسطيني (الأرض الموعودة)، وقال إن لهذه الجمعية على علاقة كبيرة بالقرض الأخير...»^(٢).

ويكمل في عرض محاولة اليهود العمل لدى النافذين في المناصب السامية لإسكان اليهود في فلسطين، وتعرض لمقاطعة مبعوث ازمير وهو يهودي، كما واجهه طلعت باشا بالدفاع عن اليهود؛ مما أغضب جاويد بك ناظر المالية فخرج من الجلسة. وفند علاقة الجمعية وأفرادها وأبرزهم «أرنست كاسل» (اقتصادي يهودي بريطاني) وغيرهم من الماليين الفرنسيين والألمان والنمساويين بالمسألة الصهيونية. وما يثير الاهتمام في هذا العرض التفصيلي الذي نقلته المفيد، هو تسليط الضوء على انغماس قيادات الاتحاد والترقي في الدفاع عن اليهود واعتبار مساعدتهم للدولة العثمانية نزيهة، وبعيدة عن مؤامرة

(١) الوثيقة (DH-I-D 73/8-43): برقية مرسله عبر إدارة برق الدولة العلية العثمانية، من حيفا في ١٩ تموز ١٣٢٩ (١٩١٣)؛ إلى وزارة الداخلية الجليلة: ترجمة كمال خوجة: مجموعة منشورة على شبكة فلسطين للحوار: وقع على هذه العريضة: مجموعة من عشائر المنطقة والمخاتير والأئمة.

(٢) جريدة المفيد، عدد ١٦ آذار ١٩١١: ملحق رقم ٤.

الحكومة المستقلة في فلسطين وتوطين اليهود. إذ ها هو الصدر الأعظم كما أوردت المفيد، يقاطع اسماعيل حقي، ويعتبره مؤلف لقصة فكاهية، وينتقل إلى الدفاع عن «أرنست كاسل»، معتبراً «إن السير كاسل كان في مصر، ولم يسع بتمليك اليهود فيها، متخذاً قوله هذا دليلاً على كون السير أرنست بعيداً عن فكرة اليهود السياسية، كأن اليهود لا يفرقون بين مصر وفلسطين أرض الميعاد»^(١) بل أخذ في مدح أرنست وما قدمه للدولة العثمانية، وهو الصديق للملك البريطاني، مستشهداً بما قدمه لمصر، واعتبر أن وصف الحركة الصهيونية مجرد تخيلات وهمية طائشة...^(٢).

ولعله بهذا العرض التفصيلي أراد لفت النظر إلى ما يحدث في الأروقة العثمانية في ظل حكم الاتحاد والترقي، من علاقات مشبوهة مع الحركة الصهيونية، وصلت إلى حد الدفاع عنها في مجلس المبعوثان. وليس أدل على هذا الدفاع من الفصول الطوال التي كانت تنشرها جريدة «الجون

ترك»^(٣) دفاعاً عن الصهيونية؛ وبتهمها عبد الغني بإنكار محاولة الصهيونية استعمار البلاد العثمانية، وتأسيس دولة فيها تكون إسرائيلية، بل ويؤكد أن هذه الجريدة مؤسسة بأموال إسرائيلية^(٤).

لقد كان العريسي واعياً لمخاطر الحركة الصهيونية وما تطمح إليه، في ظل شراء النفوس لدى جماعة الاتحاد والترقي، وفي ظل تغلغل أفكارها في الأروقة التركية حيث انتمى العديد من قياداتها إلى الحافل الماسونية. ويبدو أن عدة من المراجع تشير إلى أن علاقة المحامي اليهودي الماسوني «عمانويل قررة صو» بطلعت باشا^(٥)، وهو من أدخله وجاويد باشا في الماسونية^(٦). من هنا يمكن فهم استماتة طلعت باشا في الدفاع عن الصهيونية والباسها لباس الوداعة والعمل لمصلحة الدولة التركية على أكثر من منبر.

وفي عدد ١٩ آذار ١٩١١، يعود العريسي للحديث عن الحركة الصهيونية في مجلس المبعوثان، وينقل خطاب

(١) نجيب نصار، الصهيونية، ملخص تاريخاً وغايتها، دار هندواوي، ١٩١٤، ص ٤٩.

(٢) جريدة المفيد، ١٦ آذار ١٩١١.

(٣) كان رئيس تحريرها سامي هوخبرغ (S. Hochburg) وزار هذا الأخير القاهرة في أواخر نيسان ١٩١٣، ووضع تقريراً حول تعامل العرب مع القضية الصهيونية؛ راجع سهيلا سليمان الشليبي، مشروع الصهيوني وبدايات الوعي العربي لمخاطره ١٨٩٧-١٩١٧، مرجع سابق، ص ٦٠.

(٤) جريدة المفيد، ١٨ آذار ١٩١١.

(٥) أحمد نوري النعيمي، يهود الدونمة، دراسة اجتماعية سياسية، دار زهران للنشر، ٢٠١٤، ص ٢١٢.

(٦) زهير عبد المجيد الفاهوم، فلسطين، ضحية وجلادون، مرجع مذكور، ص ٢٨٢.

فيفند نشأة الصهيونية وعلاقتها بجبل صهيون المبني عليه بيت المقدس، والشروع بتحقيق مشروعهم الذي أطلقه هرتزل. فيقول: «أقبل اليهود الأجانب وأي إقبال على اقتناء الأراضي والأماكن والعقارات، في الأرض الموعودة، رغم المنع الذي وضعته الدولة في الدور السابق، تارة بوسائل الترغيب، بكثرة ما يدفعونه من الثمن عن أرض أو عقار لا يساوي عشر ما يدفعونه فيه، وبالترهيب مرة، وبالوعد والوعيد طوراً حتى أصبح اليوم جبل القدس، ملكاً لليهود، ليس فيه شبر لمسلم أو مسيحي عثماني، وقس على ذلك في حيفا ويافا وضواحيهما وبقية بلاد فلسطين الآخذة بقطع المراحل...»^(٢).

وفي عدد ٢١ آذار ١٩١١، تلفت المفيد النظر ونقلًا عن جريدة اللواء إلى الهجرة الأرثوذكسية نحو فلسطين، والتي ترعاها روسيا، وتيسرها الحكومة لدرجة أنها تسمح بوضع كل ٥٠ زائر على جواز سفر واحد؛ وتشير المفيد باستغراب تعليقاً على المقال، أن روسيا «تحمي اليهود المضطهدين الذين يهاجرون من روسيا نحو فلسطين، وهؤلاء يأتون في كل سنة عائلات وأفواجاً، وعددهم لا يزال يزداد حتى أن الجمعية اليهودية تبني لهم الأحياء

اسماعيل حقي الشهير حول القرص والعلاقة مع الجمعية الصهيونية، وألمح أن الصدر الأعظم أراد الحط من خطورة الجمعية الصهيونية، وذر الرماد في عيون العثمانيين وتطمينهم، غير أن العريسي بالمرصاد لهكذا مقولات تشوه الحقائق. إذ يؤكد «انه إذا استمرت مساعي الصهيونيين السرية والجهرية ولم تقف الحكومة أمام هذا التيار الجارف، لم يمض مدة من الزمن إلا وتصبح فلسطين إسرائيلية، ويتم ما يريده اليهود الأجانب، وتحقق أمني الصهيونيين»^(١). يدق العريسي جرس الانذار مبكراً قبل وعد بلفور بسنوات، ويشير إلى إمكانية تمدد هذا الخطر إلى سورية وولاية بيروت، في مواجهة غير متكافئة في تلك الفترة بين سلوكيين وعقليتين وإمكانيتين مختلفتين، لتصبح شعوب هذه المناطق من مروييات التاريخ. «ويستبعد أن يجهل الصدر الأعظم ما للصهيونيين من المكانة العظيمة، ومن المحال أن كون غير واقف على ما يصرفه أعضاء الجمعية المذكورة من النشاط تمهيداً لسبل الاستيلاء على بيت المقدس في المستقبل»^(٢). ويحذر من مغبة الوقوع في الاحتلال السلمي، وبذل الغالي والرخيص في سبيل وضع اليد على جميع المرافق الاقتصادية، والاستيلاء على البلاد. ويعود

(٢) جريدة المفيد، عدد ١٩ آذار ١٩١١.

(١) جريدة المفيد، ١٩ آذار ١٩١١.

(٣) المفيد، عدد ١٩ آذار ١٩١١.

خارج بلدة يافا إيواء لهم، وإنه لمن العجب أن تحمي روسيا اليهود في بلاد الدولة، ولا تحميم في بلادها؛ ولكن ليس في السياسة شيء عجيب...»^(١).

وفي عدد ٢٨ آذار ١٩١١، تفتح المفيد بمقال لسليمان التاجي الفاروقي يحمل عنوان: «أطماع اليهود السياسية». ومما ورد فيه: «وليس تغلغل اليهود في بلادنا خطراً على حياتنا الاقتصادية، بل ثمة أخطار وويلات ترتعد لها فرائص الوطني المخلص... كان اليهود يحنون إلى فلسطين وسوريا حنين النازح إلى وطنه، ويهفون إليها شوقاً... ظل اليهود من بعد، يخالسون فلسطين النظر... صرّح أحد زعمائهم في مؤتمر همبرغ الماضي، بأن اليهود لا يقبلون أن يكونوا عثمانيين، وأنهم إذا دخلوا البلاد العثمانية بآمالهم وأمانهم، فهم يسعون إلى تحقيق أمني تاريخية... لم يزلوا تلك الأمة التي عرفت بأطماعها تلك الأمة التي لم تكن عظام الدهر البالغة وعبره الواعظة لتقلع من نفوسهم أمني استرجاع مجد إسرائيل... فليعتبر العثمانيون بهذه القضية ففيها آية للمتوسمين، وليفطن ألو الأمر، إلى مغبة امتلاك اليهود هذه الأراضي المقدسة وليحذروا عاقبة هذا الخطر الوبيل...»^(٢).

وتنشر المفيد في ١٩ حزيران ١٩١١، مقالاً لحقي بك العظم عن الصهيونية في الدولة العثمانية نقلاً عن ما تناقلته الصحف التركية، يقول فيه: «وقد هلل الصهيونيون للدستور وصفقوا سروراً بإعلانه في المملكة العثمانية، ظناً منهم أنها فرصة مناسبة توصلهم إلى أمنيهم، وهي تأسيس حكومة يهودية في فلسطين. ولكن ظهر أخيراً أن الحكومة العثمانية الجديدة، أيضاً ستقف بالتدريج دون تحقيق أمني الصهيونيين رغم مساعي الدكتور ناظم بك (من كبار رجال جمعية الاتحاد والترقي ومن معتمديها - مرخص - وهو من أهالي سلانيك)، ورغبة رؤساء تركيا الفتاة - رجال الجمعية - في إسكان كثير من مهاجري اليهود الروسيين والرومانيين في المملكة العثمانية؛ وقد كان تأسيس جريدتي أورور - الشفق - وجون ترك - الفتى التركي - بعد خلع عبد الحميد بقصد ترويح أمني الجمعية الصهيونية أو بمقاصد أخرى تقرب من ذلك... وقد كان الدكتور «نوسينغ» حضر منذ بضعة شهور موفداً من قبل جمعية الاستعمار الاسرائيلية في برلين بمهمة المداولة مع رؤساء تركيا الفتاة - وفي الأصل جون ترك -

(١) المفيد، عدد ٢١ آذار ١٩١١، مقال: في فلسطين، نشرت جريدة اللواء...
(٢) المفيد، عدد ٢٨ آذار ١٩١١، مقال: أطماع اليهود السياسية، سليمان التاجي.

والحصول على إذن بإسكان اليهود في الأناضول والعراق وفلسطين، من غير شرط... بينما نرى من جهة أن الصدر الأعظم وطلعت باشا الذي كان وزيراً للدخالية، يكذبان مساعي الصهيونيين وينزلانها منزلة الخيالات والأوهام... وإذا أمعنا النظر في هذه المسألة، فإننا لا نرى فيها سوى أطماعاً اسرائيلية طبيعية، وهي نقل الملايين من الاسرائيليين الذين يتننون تحت أثقال أنواع الظلم والاضطهاد السياسي والاجتماعي في روسيا إلى بلاد تربطهم بها روابط التاريخ القوية وما مضى من المجد الاسرائيلي... ولذلك كله لا نستغرب ما يخامر أفئدة العثمانيين المعتدلين والمحافظين من الشك والريبة من مساعي الصهيونيين...»^(١)

وخلال عامي ١٩١٣-١٩١٤، استضافت جريدة فتى العرب التي صدرت بديلةً للمفيد، مقالاً لمحمد علي الطاهر بعنوان «الصهيونيون في فلسطين»، وكان ذلك جزءاً من حملة كانت تقوم بها عدة جرائد في التنبيه من الخطر الصهيوني ومن بينها جريدة الكرمل لنجيب نصار، وجريدة فلسطين ليوستيف العيسى، والحقيقة لحسن الناطور وكمال عباس^(٢). «وذكر فيه أن يهود (حارة تل أبيب) يستعملون نقوداً نحاسية نقش عليها خاتم سليمان وأن لهم طوابع بريدية عليها صورة هرتزل زعيم الحركة الصهيونية، وأن يهود (حارة تل أبيب) يعملون استعراضات عسكرية، ثم حذر الناس من اليهود الذين يقومون بإنشاء حكومة يهودية داخل الحكومة العثمانية»^(٣).

ومما أشارت إليه «المفيد» عام ١٩١٢ في مقال تحت عنوان «الصهيونيون في حيفا»: «إلى مقام الولاية الجليلة نرفع هذه الصرخات الأليمة... ما كان سكوتنا عن المسألة الصهيونية، إلا بعد أن رأينا كلامنا يذهب أدراج الرياح، يوم كان للاتحاديين صولة على الأمة، وتساهل مع الصهيونيين... أما اليوم، وقد تبدلت الحال،

(١) المفيد، عدد ١٩ حزيران ١٩١١: حقي بك العظم، الصهيونية في المملكة العثمانية.

(٢) محمد علي الطاهر، خمسون عاماً في القضايا العربية، دار الريحاني، ١٩٧٨، ص ٢٨٨: حديث أجراه معه رئيس تحرير جريدة «بيروت المساء» في العدد ٣٧٠٠، ٨ كانون الثاني ١٩٦٢؛ شيخ صحافة فلسطين يتحدث لبيروت المساء.

(٣) محمد علي الطاهر، خمسون عاماً في القضايا العربية، مرجع سابق، ص ٧٦: مقالة لخيرية قاسمية، شؤون فلسطينية.

خاتمة

بإصدار جريدة فلسطين، في دمشق حتى نهاية الحرب العالمية الأولى؛ وكانت هذه الجريدة متخصصة بمتابعة الحركة الصهيونية باتجاه فلسطين وتفنيدها. ويمكن ربط هذا الاغتيال للكلمة أيضاً مع ملاحقة نجيب نصار من قبل جمال باشا، وهو شيخ الصحافة الفلسطينية، والذي أصدر صحيفة الكرمل المتخصصة أيضاً بمواجهة الصهيونية.

يبدو ان عبد الغني العريسي في تلك الفترة العصيبة من تاريخ المشرق، مساحة وعي تم إطفائها من قبل جمال باشا، ويبدو أن التاريخ يشير إلى أن هذا التغييب كغيره، طال شخصيات كان يمكن لها أن تواجه بوعي الخطر الصهيوني في فلسطين، وأن تساهم في فترات لاحقة في الحفاظ على هوية فلسطين العربية في مواجهة المؤامرات الصهيونية التي استغلت التحولات العثمانية في السلطة لصالحها، فعززت الهجرة واستمكنت الأراضي، وألبست مشاريعها وداعةً كاذبة، لم يكن ليكشف حقيقتها سوى رجال القلم والكلمة الحرة.

الملاحق

اقتباسات من جريدة المفيد ١٩١١:

يبقى السؤال بعد الاطلاع على ما ورد في جريدة المفيد لعام ١٩١١، هل كان إعدام وغيره من الرفاق الذين شاركوا في مواجهة حركة التتريك، لمجرد أنهم عارضوا الدولة العثمانية في فترة اختارت فيها الخوض في الحرب العالمية الأولى؟ وهل استهدف جمال باشا من خلال هذا الإعدام، القضاء على بذور التحرر، ومحاولة شدّ أواصر الدولة من الداخل في مواجهة أطماع الخارج؟

يبدو أن تصفية هذه المجموعة من النخب، كان لغايات متعددة، منها اغتيال للكلمة وللرأي الآخر، وتفريغ الساحة العربية من النخب الواعية والمثقفة، وبالتالي إضعاف البنية السياسية بإعدام مجموعة من الأعيان، والتي كان يمكن أن تكون مدخل استقلال فيما لو انهارت الدولة العثمانية. وبهذه السياسة القمعية، وهذه الاحكام العرفية، كأن جماعة الاتحاد والترقي أرادوا ترهيب المجتمعات العربية وضبط ايقاعها بحالة الحرب.

من جهة ثانية، لا يمكن الا التفكير في هذا الاختيار لتلك الشخصيات واغتيالها، وربطه بمحاولة إطفاء أصوات تحدثت عن الخطر الصهيوني؛ وليس أدل على ذلك، من اعتقال يوسف حنا العيسى، المساهم

<p>المفيد 1911-3-16</p> <p>الصدر الأعظم - نعم أحسن منها - ثم أخذ حتى بأشياء يدع أرست كاسل وما اداء من الخدمات الاقتصادية للدولة الثمانية ينتصه اليك الثاني الوطني واستكرطن اسماويل بك عليه خصوصاً وإن الرجل صدقتم الله الاكابر ووصف الحركة الصهيونية بالتضليلات الوحشية الطائشة التي لا اهمية لها ونسب اليهود للقائدين بها وقال انهم بضعة اشخاص يزيدون ان يلعبوا دوراً على مسرح الطيش بقصد مؤتمرات هنا وهناك مما يستوجب استهزاء اليهود الثمانيين يوم ونفى علاقة</p>	<p>المفيد 1911-3-16</p> <p>انا اسماويل بك فانه اعترضه كلامه وقال انه يريد علاقات بين القروس والجمعية الصهيونية المشار ذكرها واستدل على ذلك بتلاقات التيرارنت كاسل (اقتصادته اسراويلي الكليزس) وغيره من المايين الفرنسيين الالمانيين والنساورين واخبرهم من بني اسراويل وشرح قصد هذه الجمعية معاً ترمي اليه من الداهيات السياسية في فلسطين وتلا على المجلس بعض مقررته مؤتمرها في برلين عن اراضي فلسطين واستشارها ولما وصل الى هنا قاطعه الصدر الاعظم قائلًا - ان ما يقصه اسماويل بك علينا يوثلف قصة تكلمية لا يمكن تأنيف مثلها حتى في دور الساطان السابق</p>	<p>المفيد 1911-1-1</p> <p>اليهود المهاجرون</p> <p>نشرت صباح خبراً عن اليهود المهاجرين مقاده ان شوري الدولة باشر في البحث بالقانون الذي من لمنع الاجانب الموسويين الذين يهاجرون اوطانهم من السكنى في اراضي سورية و بيروت وفلسطين وقد جاء في هذا القانون شروط وقبوض عديدة نتمتع هؤلاء اليهود الاجانب من التلاصق في هذه البلاد وعسى مجاس الامة ان يوافق على هذا قانون سر يسا فان البلاد تكاد ينهار على التيار اليهودي الاجنبي</p>
<p>المفيد 1911-2-5</p> <p>الجمعية الصهيونية</p> <p>المصريين بعد استقلالهم وان اسر</p>	<p>المفيد 1911-2-5</p> <p>المفيد 1911-2-5</p>	<p>المفيد 1911-3-18</p> <p>من الاستعمار الصهيوني</p> <p>تكتب جريدته الجوف ترك التصول الطرالق دفاعاً عن الاستعمار الصهيوني وتماثل افكار مقاصد هؤلاء الجماعات من استعمار البلاد الثمانية وتأسيس دولة فيها تكون اسرائيلية والتدسس نلعه عن ان هذه الجريدته مؤسسة بأموال اسرائيلية فانها صرف السبب بطل السبب</p>

<p>المفيد 1911-3-16</p> <p>الصدر الأعظم - نعم أحسن منها - ثم أخذ حتى بأشياء يدع أرست كاسل وما اداء من الخدمات الاقتصادية للدولة الثمانية ينتصه اليك الثاني الوطني واستكرطن اسماويل بك عليه خصوصاً وإن الرجل صدقتم الله الاكابر ووصف الحركة الصهيونية بالتضليلات الوحشية الطائشة التي لا اهمية لها ونسب اليهود للقائدين بها وقال انهم بضعة اشخاص يزيدون ان يلعبوا دوراً على مسرح الطيش بقصد مؤتمرات هنا وهناك مما يستوجب استهزاء اليهود الثمانيين يوم ونفى علاقة</p>	<p>المفيد 1911-3-16</p> <p>انا اسماويل بك فانه اعترضه كلامه وقال انه يريد علاقات بين القروس والجمعية الصهيونية المشار ذكرها واستدل على ذلك بتلاقات التيرارنت كاسل (اقتصادته اسراويلي الكليزس) وغيره من المايين الفرنسيين الالمانيين والنساورين واخبرهم من بني اسراويل وشرح قصد هذه الجمعية معاً ترمي اليه من الداهيات السياسية في فلسطين وتلا على المجلس بعض مقررته مؤتمرها في برلين عن اراضي فلسطين واستشارها ولما وصل الى هنا قاطعه الصدر الاعظم قائلًا - ان ما يقصه اسماويل بك علينا يوثلف قصة تكلمية لا يمكن تأنيف مثلها حتى في دور الساطان السابق</p>	<p>المفيد 1911-1-1</p> <p>اليهود المهاجرون</p> <p>نشرت صباح خبراً عن اليهود المهاجرين مقاده ان شوري الدولة باشر في البحث بالقانون الذي من لمنع الاجانب الموسويين الذين يهاجرون اوطانهم من السكنى في اراضي سورية و بيروت وفلسطين وقد جاء في هذا القانون شروط وقبوض عديدة نتمتع هؤلاء اليهود الاجانب من التلاصق في هذه البلاد وعسى مجاس الامة ان يوافق على هذا قانون سر يسا فان البلاد تكاد ينهار على التيار اليهودي الاجنبي</p>
<p>المفيد 1911-2-5</p> <p>الجمعية الصهيونية</p> <p>المصريين بعد استقلالهم وان اسر</p>	<p>المفيد 1911-2-5</p> <p>المفيد 1911-2-5</p>	<p>المفيد 1911-3-18</p> <p>من الاستعمار الصهيوني</p> <p>تكتب جريدته الجوف ترك التصول الطرالق دفاعاً عن الاستعمار الصهيوني وتماثل افكار مقاصد هؤلاء الجماعات من استعمار البلاد الثمانية وتأسيس دولة فيها تكون اسرائيلية والتدسس نلعه عن ان هذه الجريدته مؤسسة بأموال اسرائيلية فانها صرف السبب بطل السبب</p>

أثر سياسات الخصخصة على إدارة المؤسسات العامة في لبنان تجربة خصخصة الهاتف الخليوي

حوراء علي سببتي
(ج ١)

أمّا المبحث الخامس والأخير فقدّم التجربة اللبنانية في خصخصة الهاتف الخليوي النقال، من خلال التعريف في البنية التحتية وخصائصها، والطريقة التي تمّ اختيارها في عملية تنفيذ هذا المرفق، والمزايا المحقّقة من خلال إنجازه والمشاكل التي اعترضته، والحلول المقترحة لها.

وعرض البحث بعض المقترحات لنجاح هذه السياسات، وقدّم بعض التوصيات الضرورية للعمل على الموازنة بين القطاعين العام والخاص.

Research Abstract:

This research aims to provide general background information on the privatization process, the new concept for the management of public utilities, and its economic activities. It highlights its manifestations in Lebanon, through experimental study in the privatization of the mobile phone facility, and it has been divided into introduction and five chapters:

الملخص: يهدف هذا البحث إلى تقديم خلفية عامة حول عمليات الخصخصة، المفهوم الجديد لإدارة المرافق العامة للدولة، وأنشطتها الاقتصادية، ويسلط الضوء على مظاهرها في لبنان، من خلال تجربته الميدانية في خصخصة مرفق الهاتف الخليوي النقال، ولقد تمّ تقسيمه إلى إطار عام (المقدمة وتفرعاتها) وخمسة مباحث:

يتناول المبحث الأول منها المفهوم العام للخصخصة، بينما تحدّث المبحث الثاني عن الطرق المعتمدة في تنفيذ برامج الخصخصة، وأوضح المبحث الثالث الآثار الناجمة عنها، من خلال تحديد مؤشّراتها، إن كان على المستوى الكلي، أو على المستوى الجزئي، وشرح طرق قياسها، من الناحية النظرية البحتة، أو حتّى من الناحية العملية الميدانية وتناول المبحث الرابع مظاهر الخصخصة في الاقتصاد اللبناني،

أصبح القطاع العام يمثّل عبئاً كبيراً على الاقتصادات المتعدّدة بسبب تدني مستوى الكفاءة وتدهور النوعيّة وتفاقم الخسائر الماليّة التي أثقلت كاهل الموازنة العامّة للعديد من البلدان وأدّت إلى تراكم الديون. وقد تزامن ذلك مع تفاقم الأزمة الاقتصاديّة في النظام الرأسمالي العالمي والذي أدّى إلى تباطؤ النمو الاقتصادي وتراجع الطلب على المواد الأولية وتدهور معدلات التبادل التجاري في البلدان النامية. وانعكست السياسات الماليّة وإرتفاع أسعار الفائدة في البلدان الرأسماليّة المتقدّمة بزيادة أعباء القروض لدى البلدان النامية التي أثقلت كاهلها، وعندها شرع صندوق النقد والبنك الدوليين بفرض شروط جديدة لإقراض البلدان المذكورة والتي إشتملت على ما عُرف ببرنامج التثبيت الاقتصادي وبرامج التصحيح الهيكلي. فالأول استهدف تصحيح الخلل في موازين المدفوعات وفي الموازنات العامّة بينما استهدف الثاني تعديل الهيكل الاقتصادي من خلال تحرير التجارة الخارجية وسعر الصرف الأجنبي وتبني برامج الخصخصة. ولهذا اعتُبرت برامج الخصخصة جزءاً من عمليّة التصحيح الاقتصادي التي فرضتها المؤسسات التمويلية الدولية من جهة وأمّلتها الظروف الاقتصاديّة الصعبة في البلدان النامية من جهة أخرى. هذا ما يبدو

The first chapter deals with the general concept of privatization, while the second chapter talks about the methods adopted in the implementation of privatization programs, and in the third chapter, explains the outcomes and its effects, at both the macro and micro levels, in addition to explaining the measurable ways theoretically and practically. Chapter four describes the aspects of privatization in the Lebanese economy. While Chapter V presents the Lebanese experience in the privatization of the mobile phone facility, through the definition of infrastructure and its characteristics, and how they selected process of implementation of this facility, and the benefits resulted from this accomplishment as well as the problems encountered and its proposed solutions.

This research presented some recommendations to ensure the success of these policies, and provided some necessary work to balance between the public and the private sector.

الإطار العام للدراسة

المقدمة وتفرعاتها

المقدمة:

ازداد تدخل البلدان المتعدّدة وخاصّة البلدان النامية منها في النشاط الاقتصاديّ منذ نهاية الحرب العالميّة الثانية وبشكل خاصّ خلال الستينيّات وبداية السبعينيّات، حيثُ اعتُبر القطاع العام حجر الزاوية في عمليّة التنمية. إلاّ أنّه منذ نهاية السبعينيّات

للمشكلات التي تعاني منها المؤسسات العامة في لبنان؟

أهمية وأهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تقديم خلفية عامة حول عمليات الخصخصة، المفهوم الجديد لإدارة المرافق العامة للدولة، وأنشطتها الاقتصادية، ويسلط الضوء على مظاهرها في لبنان، من خلال تجربته الميدانية في خصخصة مرفق الهاتف الخليوي النقال. ويهدف البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف:

- إعطاء تصور لماهية الخصخصة واستراتيجياتها.
- التعرف على أهم الطرق المعتمدة في تنفيذ برامج الخصخصة.
- معرفة الآثار الناجمة عن الخصخصة من خلال بعض المؤشرات وقياسها.
- فتح مجال أمام دراسات أكثر تقدماً وعمقاً.

فرضيات البحث:

هي حلول أو تفسيرات مؤقتة يضعها الباحث بناءً على قراراته وخبراته في الموضوع لحل مشكلة البحث ونكتب جميع فرضيات البحث بطريقة يجعلها وثيقة الصلة بمشكلة البحث. وهناك نوعين من الفرضيات المستخدمة وفقاً لمنهجية البحث العلمي:

واضحاً في السياسات المالية في لبنان حيث تم تخصيص الهاتف وبعض المؤسسات العامة في لبنان حيث تسعى الحكومة اللبنانية إلى إجراء عمليات الخصخصة على بعض المؤسسات العامة، مثل الريجي (التبغ) الهاتف والكهرباء، لمعالجة جوانب من الوضع الاقتصادي، منها المساعدة في السيطرة على الدين العام البالغة نسبته أكثر من ١٦٥ في المئة من الناتج المحلي الإجمالي الذي يضع ضغوطاً متنامية على العملة المحلية ويزيد المخاوف من تعرض البلاد لاضطرابات مالية.

وتعد الخصخصة أحد الإصلاحات الأساسية، ولاسيما أن لبنان يتطلع إلى نتائج إيجابية ومنتجة وفاعلة من مؤتمر الدول المانحة «باريس - ٢ وباريس - ٣».

إشكالية البحث:

تبرز معالم إشكالية هذا البحث من خلال الأسئلة التالية:

- ١ - هل تساهم الخصخصة في تحسين إدارة المؤسسات العامة في لبنان؟
- ٢ - هل تؤدي الخصخصة إلى تحسين أداء الخدمات في لبنان؟
- ٣ - هل أثبتت برامج الخصخصة نجاحها في تحقيق أهدافها؟
- ٤ - هل تمثل برامج الخصخصة حلاً؟

– الفرضية الصفريّة «h0»:

وتتعلّق بمجتمعٍ معيّنٍ أو مجتمعين أو أكثر، ولكن تصاعُ بطريقةٍ تنفي وجود فرقٍ أو علاقةٍ إحصائيةٍ بين متغيّرين أو أكثر. فهذه الفرضية تعني العلاقة السلبية بين المتغيرات.

– الفرضية البديلة «h1»:

وتعني وجود علاقةٍ إحصائيةٍ سواءً أكانت هذه العلاقة عكسيةً أم طرديةً بين المتغيرات الملاحظة، وتسمّى بالفرضية المباشرة، وتعني الفرضية البديلة وجود علاقةٍ إيجابيةٍ بين المتغيّرين قيد الدراسة.

لمعالجة الإشكالية المطروحة نقترح الفرضيات التالية:

● الفرض الأوّل H1: يوجد علاقة ذات دلالةٍ إحصائيةٍ معنويةٍ بين الخصخصة وإدارة المؤسسات العامة في لبنان.

الفرض الصفريّ الأوّل H0: لا يوجد علاقة ذات دلالةٍ إحصائيةٍ معنويةٍ بين الخصخصة وإدارة المؤسسات العامة في لبنان.

● الفرض الثاني H1: يوجد علاقة ذات دلالةٍ إحصائيةٍ معنويةٍ بين الخصخصة وتحسين أداء خدمات الشركات في لبنان.

الفرض الصفريّ الثاني H0: لا يوجد علاقة ذات دلالةٍ إحصائيةٍ معنويةٍ بين الخصخصة وتحسين أداء خدمات الشركات في لبنان.

● الفرض الثالث H1: يوجد علاقة ذات دلالةٍ إحصائيةٍ معنويةٍ بين برامج الخصخصة وحلّ المشكلات التي تعاني منها المؤسسات العامة في لبنان.

● الفرض الصفري الثالث H0: لا يوجد علاقة ذات دلالةٍ إحصائيةٍ معنويةٍ بين برامج الخصخصة وحلّ المشكلات التي تعاني منها المؤسسات العامة في لبنان.

منهجية البحث:

لتحقيق أهداف البحث وللإجابة عن الأسئلة المطروحة ستتمّ معالجة الموضوع محلّ الدراسة بالاعتماد على المنهج الوصفيّ من خلال التطرّق إلى الأمور النظرية المتعلقة بالخصخصة من خلال المراجع والكتب والأبحاث والدراسات ذات الصلة، وهذا بهدف الإلمام بجميع جوانب البحث، في حين تمّ استخدام منهج القياس عند إجراء دراسةٍ تتناول تحديد المؤشرات وقياسها.

حدود البحث:

تتمثل حدود البحث بالحديث عن الخصخصة وأشكالها وأهدافها وبرامجها في لبنان، والتركيز على خصخصة الهاتف الخليوي وقياس فعاليتها من خلال مؤشرات اقتصادية عديدة.

التجارب والدراسات السابقة:

تعدّ بريطانيا وتشيلي ومصر والأردن

من الدول التي خاضت تجارب ناجحة في الخصخصة. أما ماليزيا وروسيا وتشيكيا فُسجِّل من بين الدول التي خاضت تجارب فاشلة في الخصخصة^(١).

أولاً: الدراسات باللغة العربية

دراسة (قنوع، ٢٠٠٥): يناقش هذا البحث عدداً من القضايا المتصلة بموضوع الخصخصة الاقتصادية بشكل عام من خلال استعراض مفهوم الخصخصة، ومناقشة أنواع الخصخصة، وأشكالها، وأساليبها المتعددة، ودراسة تجارب بعض الدول التي اتبعت الخصخصة في الدول النامية، والدول المتقدمة، وتحليل أداء بعض المنشآت التي تمّت خصخصتها بالإضافة إلى مناقشة إيجابيات وسلبيات الخصخصة، وإمكانية الحد منها ووضع معايير وآلية تتضمّن نجاح عملية الخصخصة، ثمّ يخلص هذا البحث إلى وضع استنتاجات وتصوّرات عن الخصخصة لعلّ من الممكن الاستفادة منها في بعض الدول النامية.

دراسة (العوشن أحمد، ٢٠١٠): قدّمت هذه الدراسة صورة واضحة عن الخصخصة في دولة الكويت والقواعد المنظمة لها والقوانين التي تحكمها وتمّ

تناول الخصخصة كمبدأ عام من حيث تعريف الخصخصة والأهداف التي تعمل الدول على تحقيقها من خلال الخصخصة، ونطاقها، وتجاربها في بلدان العالم ما بين نجاح وفشل. بالإضافة إلى الحديث عن تجربة الخصخصة في دولة الكويت وما صاحبها من صدور القانون ٣٧/٢٠١٠ وبعض الانتقادات لهذا القانون وتمّ الحديث عن إجراءات خصخصة المشروعات العامة في دولة الكويت.

دراسة (عبد الهادي أحمد، ٢٠١١): استهدفت هذه الدراسة الإطار النظري للخصخصة، مفهوميها، وأساليبها، وأهدافها، وأسبابها، ومفوماتها، ومشكلاتها، وآثارها. بالإضافة إلى تجربة السعودية في الخصخصة كدراسة تطبيقية. استعرض الباحث فيها أسباب الخصخصة في المملكة العربية السعودية، وعمليات التحضير لها، واستراتيجياتها، وأسس إعداد هذه الاستراتيجيات، وأهدافها، والترتيبات الإدارية، والتنفيذية لهذه الاستراتيجيات، وأساليب الخصخصة في المملكة والمبادئ الأساسية التي يتم مراعاتها في تنفيذ عملية الخصخصة، والخطوات الأساسية لعملية الخصخصة لمشروع، أو مؤسسة عامة،

(١) عادل عامر، التجارب الدولية في الخصخصة، نقلاً عن الموقع الإلكتروني www.almesryoon.com، تاريخ دخول الموقع ١٣/١١/٢٠١٧.

والقضايا الأساسية التي تتم معالجتها خلال عمليات التخصيص.

ثمّ ينتهي البحث بدراسة أثر الخصخصة على الاقتصاد السعودي من خلال تأثير الخصخصة على المتغيرات الاقتصادية التي يمكن قياسها، وتمّ اختبار مدى جوهرية تأثير الخصخصة على المتغيرات الاقتصادية.

دراسة (مسعود عبد السلام، ٢٠١٢):
تهدف هذه الدراسة إلى معرفة تجارب الخصخصة وأثارها في رفع الكفاءة الاقتصادية في الدول العربية على المستويين الكلي والجزئي وأوضحت الدراسة أيضاً إيرادات الدول العربية من تجاربها في الخصخصة ومدى تأثيرها على الاقتصاد الوطني.

ثانياً: الدراسات باللغة الأجنبية:

دراسة (إسلام رافيكول، ٢٠٠٦):
تحت عنوان الخصخصة كإصلاح إداري: دراسة حالة من بنغلادش من جامعة فلوريدا أتلانتك - أميركا، وتهدف هذه الدراسة إلى استطلاع آراء وتصوّرات الموظّفين العموميين في بنغلادش حول أثر الخصخصة على التطور والتنمية وتقديم الخدمة والأداء والتطور الإداري.

دراسة (سميث كلوريا، ٢٠١١): تحت عنوان أثر الخصخصة على إدارة الكادر الوظيفي الحكومي من جامعة أوبرون -

الولايات المتحدة وتهدف هذه الدراسة إلى معرفة دور الخصخصة وأثرها في القطاع الوظيفي الحكومي، والتركيز على بعض القضايا الإدارية كالأجور، والخدمات الناتجة عن الخصخصة.

محتويات البحث:

لتحقق الدراسة أهدافها تمّ تقسيم البحث إلى:

- الإطار العام للدراسة المقدمة وتفرعاتها.

- المبحث الأول: المفهوم العام لسياسات الخصخصة.

- المبحث الثاني: الأساليب والطرق المعتمدة في الخصخصة.

- المبحث الثالث: الآثار الاقتصادية والاجتماعية للخصخصة.

- المبحث الرابع: مظاهر الخصخصة في الاقتصاد اللبناني.

- المبحث الخامس: دراسة ميدانية عن خصخصة الهاتف الخليوي في لبنان.

المبحث الأول: المفهوم العام لسياسات الخصخصة

تستحوذ عبارة الخصخصة، أو التخصيص، أو الخصخصة على اهتمام معظم دول العالم سواءً أكانت متقدّمة أو نامية، رأسمالية أو اشتراكية، في الوقت

الحاضر، وهي جميعها مسميات لمصطلح اقتصادي باللغة الإنكليزية لكلمة «Privatization». ويرجع اختلاف مفاهيم الخصخصة، وتعريفها إلى تعدد مجالات تنفيذ هذه الاستراتيجية وإلى تعدد أساليبها، فيتسع التعريف، أو يضيق بقدر شموله لهذه الأساليب، وتلك المجالات.

المطلب الأول: تعريف الخصخصة

لا يوجد مفهوم دولي متفق عليه لكلمة الخصخصة «Privatization» حيث يتفاوت مفهوم هذه الكلمة من مكان إلى آخر، ومن دولة إلى أخرى^(١). هو مصطلح اقتصادي حديث أفرزته التطورات الاقتصادية فالبعض يعدّ نقل إدارة نشاط اقتصادي ما من القطاع العام إلى القطاع الخاص جزءاً من الخصخصة، والبعض يرى أن يرافق ذلك نقل جزء من ملكية الأصول التابعة للنشاط إلى القطاع الخاص، والبعض يشترط نقل أكثر من ٥٠٪ من الملكية، والبعض يشترط أن يتزامن مع نقل الملكية فتح باب المنافسة وتفعيل قوى السوق، والبعض لا يعدّ مجرد بيع أسهم الشركات الحكومية عملية خصخصة، وهكذا...

ونظراً لأهمية تعريف هذه الكلمة قبل الخوض في تفاصيل البحث، فتعرّف عملية الخصخصة في هذا البحث من منظورٍ واسع يشمل كافة مضامينه^(٢).

فالخصخصة هي نقل ملكية و/أو إدارة نشاط اقتصادي ما إما جزئياً أو كلياً من القطاع العام إلى القطاع الخاص. فالمفهوم الشامل للموضوع هو تقليص دور الدولة في الاقتصاد^(٣)، ويمكن تحقيق ذلك عبر:

- ١ - تحرير النشاط الاقتصادي «Deregulation» من المعوقات القانونية والبيروقراطية.
 - ٢ - السماح بقيام نشاطات اقتصادية منافسة للنشاطات الاقتصادية للدولة.
 - ٣ - قيام القطاع الخاص بتقديم بعض الخدمات التي يقوم بها القطاع العام حالياً.
 - ٤ - بيع مؤسسات القطاع العام جزئياً أو كلياً للقطاع الخاص.
 - ٥ - التحوّل إلى القطاع الخاص، بالتعاقد، أو ببيع المؤسسات الخاضعة للرقابة الحكومية أو المملوكة لها.
- والبعض الآخر وسّع في تعريفها، وعدّ

(١) Yoshiro, Takano التعرف إلى المعاني العديدة التي تعنيها كلمة الخصخصة، ص ٨٤.

(٢) أسامة خميس، ما معنى الخصخصة، نقلاً عن الموقع الإلكتروني www.mawdoo3.com، تاريخ دخول الموقع ٢٠ | ٢٠١٧.

(٣) القاضي أنطوان الناشف، الخصخصة، بيروت، منشورات الحلبي الحقوقية، ٢٠٠٠، ص ١٠٢.

فقد تمَّ بيع أكثر من ٢٥ شركة بريطانية عامّة إلى القطاع الخاصّ خلال فترة حكومة (مارغريت تاتشر)، وقد بلغت حصيلة بيع المنشآت الحكوميّة منذ سنة ١٩٧٩، حوالي ٤٠ بليون جنيه استرليني وارتفعت أسعار الأسهم في هذه الشركات بنسبة فاقت ٦٠٪^(١) بما في ذلك (Aerospace, jaguar.) كما شملت عمليّة الخصخصة بيع شركات ومؤسّسات عملاقة في الاقتصاد البريطانيّ مثل (National BUS) وغيرها...

وأخذت البلاد الأوروبيّة الأخرى تلتبس مزايا وإيجابيات الخصخصة، وعلى رأسها فرنسا ومنذ تولّي الرئيس ميتران الحكم، فقد تمَّ بيع شركة Saint-Gobain المتخصصة بالصناعات الزجاجيّة، بمبلغ ١,٩ بليون دولار أميركيّ، ووضعت الحكومة خطة لبيع ٦٥ شركة حكوميّة قيمتها التقديرية ٤٥ بليون دولار، وانتهت هذه العمليّة بالفعل في سنة ١٩٩١^(٢). أمّا في بقية الأقطار الأوروبيّة فإنّ الحكومات تتبارى اليوم في مجال الخصخصة، وإنّ نجاح التجربة الأوروبيّة كان دافعاً وراء الخصخصة في أميركا اللاتينيّة، والهند، وكندا، وحتّى الصين الشعبيّة.

الخصخصة هي تحويل الأصول وأعمال الخدمة العامّة من القطاع العامّ إلى القطاع الخاصّ تاركاً المجال إمّا عن طريق نقل الملكيّة، أو عن طريق نقل الإدارة، أو حتّى باعتماد الاثنين معاً، فالمعيار هنا هو الاعتماد على القطاع الخاصّ أكثر من القطاع العامّ عن طريق تحويل هذه الأصول والأعمال ذات الخدمة العامّة من القطاع العامّ إلى القطاع الخاصّ.

ومن المنظار الاقتصاديّ، فإنّ التخصيصيّة جزءٌ من فلسفةٍ شاملة لإدارة الاقتصاد، وعنصرٌ من عناصر الإصلاح الاقتصاديّ، وبالتالي هو تراجعٌ عن النظرة لمفهوم الدولة، الذي ساد في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حول دور الدولة، المتدخّل في مختلف ميادين النشاط الاقتصاديّ والصناعيّ والخدماتيّ، تأميناً للتضامن الاجتماعيّ، ولعدالة أكبر في توزيع الثروة الوطنيّة.

وقد تزايدت الحملة نحو برامج الخصخصة في كلّ من الولايات المتحدة وبريطانيا، ودول أوروبا الغربيّة والشرقيّة، والدول النّامية، ودول شرق آسيا، وأصبحت بريطانيا القائدة لعمليّة الخصخصة في الأقطار الصناعيّة المتقدّمة،

(١) القاضي أنطوان الناشف، الخصخصة، بيروت، منشورات الحلبي الحقوقية، ٢٠٠٠، ص ٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧١.

وهكذا غدت الخصخصة مصطلحاً دولياً، ولم يقتصر دورها في الدول الغربية الصناعية وحسب، بل اقتبست هذه الفكرة في العديد من بلاد الدول النامية، ودول العالم الثالث، وكذلك دول العالم الاشتراكي، وقد ساهم في ذلك انهيار الأتحار السوفياتي الذي أدى إلى حركة واسعة للخصخصة في الجمهوريات التي انبثقت عنه لاحقاً.

أصبح مفهوم الخصخصة في الشرق الأوسط، والبلاد العربية واسع الانتشار وخصوصاً بعد التجربة المصرية التي أدت إلى بيع ٢٠٢ شركة حكومية إلى القطاع الخاص يُتوقع أن تضيف إلى خزينة الدولة مبلغ ٤،٤ بليون دولار.

وبعدها تأصلت جذور الخصخصة في كثير من بلدان منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا والخليج العربي، بما في ذلك مصر والأردن والكويت والمغرب وسلطنة عمان وتونس ولبنان. وهكذا أصبحت الخصخصة توجّهاً مقبولاً لدى أغلبية دول العالم، وتعمقت القناعة لدى الجميع، بأن القطاع الخاص يستطيع إنتاج، وتسويق السلع، والخدمات، بنوعيات أفضل، وبأسعار أرخص، وبكفاءة أعلى من القطاع العام.

المطلب الثاني: أسباب وأهداف الخصخصة

اتّجه العديد من دول العالم نحو خصخصة^(١) أنشطتها الاقتصادية كوسيلة لتقليص الإنفاق العامّ للحدّ من هذه المشكلة المتفاقمة، وبمعايينة هذه الدول، يتبيّن وجود دافعين أساسيين للخصخصة:

الدافع الأول: يعود إلى التضخّم المستمر للقطاع العامّ وصعوبة مواكبة مصروفاته المتنامية والمستمرة.

والدافع الثاني: يرجع إلى بروز قناعة دولية بأن إدارة الأنشطة الاقتصادية تتطلب مهارات تجارية ومالية وإدارية وفنية عالية، وهي صفات يفتقر إليها القطاع العامّ، فمن المعروف أنّ القطاع الخاصّ أينما وُجد يسعى دائماً إلى تعظيم الربحية وتخفيض التكلفة، بينما يسعى القطاع العامّ إلى تحقيق أهداف سياسية واجتماعية واقتصادية عدّة في الوقت ذاته، والصعوبة تكمن في أنّ هذه الأهداف غير منسّقة في كثير من الأحيان، بل قد تتضارب فيما بينها.

وانطلاقاً من هذا الواقع تتفاوت أهداف الخصخصة وأهميتها النسبية من دولة إلى أخرى بحسب ظروفها المحلية من جانب، وما تسعى إلى تحقيقه من جانب آخر، في

(١) Moore & John حول دوافع الخصخصة.

الدول النامية فإن أهداف سياسة الخصخصة تختلف إلى حد كبير عن نظيراتها في الدول المتقدمة، إذ إن الهدف الأساس من تطبيق برامج الخصخصة في الدول النامية هو محاولة علاج الأزمة الاقتصادية من خلال برامج التثبيت الاقتصادي⁽¹⁾. ورغم تفاوت الظروف المحليّة بين دولةٍ وأخرى، إلا أنّ الأهداف العامّة للخصخصة يمكن إيجازها بالنقاط التالية:

● رفع وتحسين الكفاءة الإنتاجية للأنشطة الاقتصادية من خلال الاعتماد على آليات السوق والمنافسة.

● تخفيض الأعباء المالية للدولة التي تسببها شركات القطاع العامّ الخاسرة، وبالتالي تتمكّن الدولة من توفير موارد مالية لتمويل أنشطة أخرى.

● توسيع حجم القطاع الخاصّ والاعتماد عليه أكثر في عملية النموّ والتنمية.

● تطوير الأسواق المالية المحليّة (البورصة، البنوك، شركات التأمين).

● توسيع قاعدة الملكية (باستخدام أكبر قاعدة شعبية للعملية).

● زيادة الاستثمارات الخاصّة (المحليّة والأجنبيّة) عن طريق توسعة نطاق مشاركة المستثمر المحليّ والأجنبيّ في الأنشطة الاقتصادية. بالإضافة إلى الأهداف العامّة للخصخصة يمكن تحقيق بعض الأهداف الأخرى الخاصّة لكلّ بلد حسب الظروف والاحتياجات الضروريّة اللازمة له وهي:

● رفع مستوى الخدمات وتطوير خدمات المشتركين أو العملاء.

● توفير فرص عمل حقيقية على المدى المتوسط والطويل للعمالة الوطنيّة.

● إعادة توزيع ثروات البلاد على شرائح أوسع في المجتمع.

● تقليص دور الدولة في النشاط الاقتصاديّ.

وبالتالي فإنّ أهميّة النسبية لهذه الأهداف العامّة والخاصّة تتغير من دولةٍ إلى أخرى بحسب ظروفها المحليّة، فبشكلٍ عامّ تُؤلي الدول النامية أهميّة أكبر نسبياً لتقليص المصروفات العامّة للحدّ من العجز الماليّ للموازنة والديون الخارجيّة، بينما تُؤلي الدول المتقدّمة أهميّة أكبر نسبياً لزيادة الكفاءة الاقتصادية، ورفع مستوى الخدمات، وتطوير خدمات المشتركين.

(1) منهل العقيدّي، محمّد عبد الكريم، الخصخصة: المفهوم والأهداف والمبررات الاقتصادية، جريدة التجارة، العدد ١١، أيار ٢٠٠٥.

وأخيراً يمكن عدّ الخصخصة عاملاً مهماً، وحافزاً لتدفّق الاستثمارات الأجنبية، وعودة الاستثمارات الموجودة في الخارج.

المطلب الثالث: شروط نجاح الخصخصة

بما أنّ الخصخصة فلسفة اقتصادية حديثة ذات استراتيجية، لتحويل عدد كبير من القطاعات الاقتصادية من القطاع العام إلى القطاع الخاص^(١).

ينبغي على الحكومات القيام ببعض الخطوات الممكن أن توفر الشروط الرئيسة لنجاح عملية الخصخصة التالية:

١ - الالتزام السياسي بعملية الخصخصة، وتعزيز دور القطاع الخاص في الاقتصاد.

٢ - التوصل إلى إقناع جميع الأطراف المعنية (إدارة الشركات، العمال، الموظّفين في الحكومة، النقابات العمالية، المستهلكين، المستثمرين) بجدوى وأهمية الخصخصة، من خلال اعتماد وسائل تضمن حقوق الأطراف كافة.

٣ - تطوير مناخ المنافسة في الاقتصاد، عن طريق خلق البيئة الاقتصادية المناسبة للتحويل، الذي يفرض زيادة

تعظيم درجة المنافسة وكسر الاحتكارات، وإعادة النظر في النظم الضريبية وحقوق الملكية وغيرها.

٤ - وضع إطار قانوني للخصخصة يتميز بالمرونة والشفافية (إعداد قانون خاص).

٥ - وضع آلية فعّالة لإدارة عملية الخصخصة ذات صلاحيات واضحة، وموارد تقنية ومالية مناسبة يرأسها جهاز على مستوى عالٍ من الكفاءة، والنزاهة، والموضوعية كالمجلس الأعلى للخصخصة الذي نصّ على إنشائه قانون الخصخصة في لبنان^(٢).

٦ - تطوير النظام القانوني في البلاد، بشكل تكون فيه القوانين كافة واضحة جداً لحماية حقوق الدولة، والمستثمر، والمستهلك، التي تمنع الاحتكار، وتحارب الفساد، وتزيد المنافسة التجارية.

٧ - تشجيع إنشاء أسواق ومؤسسات مالية ملائمة ومتطورة لمواكبة عملية الإصلاح، باعتبار أنّ السوق المالية المتطورة تشكّل الإطار، والجهاز المناسب لتسهيل هذه العملية وإعطاء القطاع الخاص الموارد اللازمة لاكتساب المرافق العامة.

(١) ريمي محمود، ماهية الخصخصة، نقلاً عن الموقع الإلكتروني www.dailyfx.com، تاريخ دخول الموقع ٢٠ | ١١ | ٢٠١٧.

(٢) قانون رقم ٢٢٨، تنظيم عمليات الخصخصة، الجريدة الرسمية، ٣١/٥/٢٠٠٠.

٨ - إنشاء شبكة أمان اجتماعي لأنّ عملية الخصخصة في أوّل مراحلها قد تؤدي إلى صرف العديد من العمّال، لذلك، فإنّ أيّ محاولة جادّة للإصلاح الاقتصادي لا بدّ أن تنظر في موضوع العمّالة الوطنيّة بشكلٍ جذريّ وتجد لها حلاً عمليّة مقبولة من الناحية السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، إمّا عن طريق التدريب والتأهيل وإعادتها إلى العمل، أو عن طريق دفع التعويضات الضروريّة، والملائمة لضمان عيشها بكرامةٍ وشرف.

وبالتالي إنّ تطبيق هذه الشروط قد يكفل نجاح عملية الخصخصة، ويساعد الحكومة على القيام بالإصلاحات الاقتصاديّة الضروريّة التي تكفل إنعاش البلاد من حالة الركود والفساد، إلى حالة النموّ والازدهار.

المطلب الرابع: استراتيجيّة الخصخصة

الاستراتيجيّة تعني التخطيط البعيد الأمد لخلق ونجاح هدفٍ ما، وإذا وضعت استراتيجيّة للخصخصة بطريقة جيّدة فإنّها ستعطي مصداقيّةً وتوجيهاً ناجحاً وجيداً^(١).

ومن أهمّ خطوات استراتيجيّة الخصخصة ما يلي:

١ - تحديد النطاق الواسع للخصخصة،

وفي هذه المرحلة يجب تحديد ما هي القطاعات التي يمكن البدء في خصخصتها، هل القطاعات الصناعيّة، أو الخدميّة، أو التجاريّة، أو جميع القطاعات في آنٍ واحد.

٢ - الإعلان بكلّ وضوح عن الأهداف السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة المرجوّة مثل زيادة الكفاءة الإنتاجيّة، زيادة القدرة على المنافسة، محاولة لخفض عجز الموازنة بغية تقليص حجم الدين العامّ وعجز ميزان المدفوعات.

٣ - وضع معايير واضحة لاختيار الشركات، والمرافق التي سيتمّ خصخصتها ومعايير تقييمها، ووضع إرشادات تتعلّق بالاستثمار الأجنبيّ، ووضع شروط تتعلّق بمرحلة ما بعد الخصخصة، واعتماد المعايير الملائمة لتقييمها من خلال دراسة الجدوى الاقتصاديّة والاجتماعيّة لها.

٤ - اختيار طرق الخصخصة وتسلسلها حيثُ تتناسب مع أهداف السياسة واحتياجات الشركات التي سيتمّ خصخصتها، لاختيار الطريقة المناسبة للخصخصة لأيّ مشروع أو مرفقٍ عامّ يتطلب البحث عن الأهداف المراد تحقيقها من هذه العمليّة في إطار استراتيجيّة التنمية المعتمّدة في السوق والممكن أن تكون على الترتيب:

(١) محمّد غادر، سياسات الخصخصة وتجربة لبنان في خصخصة الهاتف الخليويّ، ٣٠/١٢/٢٠١٢

● تحقيق الكفاءة الاقتصادية.

● توسيع قاعدة الملكية.

● الحصول على أفضل سعرٍ ممكن

وفي ضوء هذه الأهداف يتم اختيار الأسلوب، والطريقة المناسبة لضمان اختيار أفضل الطرق الممكنة والمناسبة.

٥ - خلق الثقة في الخصخصة، وذلك من خلال البدء بعمليات ذات احتمال كبير للنجاح بمعنى إعطاء أولويات للمرافق التي يمكن أن تحقق نجاحاً باهراً.

٦ - ضمان الشفافية لعملية الخصخصة، لأن توفر الشفافية أي الوضوح في مراحل الخصخصة كافة يؤدي إلى إجماع وطني على القيام بها.

٧ - القيام بحملة توعية حول أهمية الخصخصة لاقتصاد البلاد، حيث تساهم في دعم العملية من جانب كل الأطراف المعنية.

تحدث هذا المبحث عن مفهوم الخصخصة وأهدافها، والشروط الواجب توافرها لنجاح العملية، بالإضافة إلى الاستراتيجية التي يمكن رسمها لتنفيذها بأفضل الطرق وأنجحها، وبين أن هذه العناصر المكتملة مع بعضها البعض تشكل

الخلفية العامة لعمليات الخصخصة، وتسلط الضوء على البرامج التي يمكن اعتمادها لنجاح هذه العمليات.

المبحث الثاني: الأساليب والطرق المعتمدة في الخصخصة

إن الأدبيات الاقتصادية بالنسبة إلى الأساليب تميز بين أسلوبين للخصخصة أولهما «التخصيصية التلقائية» التي تنصرف إلى تشجيع القطاع الخاص، وزيادة وزنه في الاقتصاد القومي دون المساس بالقطاع العام، وثانيهما «التخصيصية الهيكلية» التي تنصرف إلى تقليص حجم القطاع العام من خلال نقل ملكية المشروعات العامة، أو إدارتها إلى القطاع الخاص، فكلهما يسعى إلى تغيير في بنيان الاقتصاد القومي، الأمر الذي يتطلب زمناً كافياً لإحداثه وإلا أنهارت البنية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية^(١).

أمّا بالنسبة إلى الطرق التي يطبق من خلالها برنامج الخصخصة فهناك العديد منها حيث يجب اختيار أفضلها، ويمكن تقسيم الطرق المعتمدة في تنفيذ برنامج سياسات الخصخصة إلى ثلاث طرق رئيسية هي:

(١) ملامح الخصخصة واساليبها، نقلاً عن الموقع الإلكتروني www.maaal.com، منشور في نيسان ٢٠١٦، تاريخ دخول الموقع ٢١/١/٢٠١٧.

المطلب الأول: طرق معتمدة في خصخصة البنية التحتية

تتميز مشاريع البنية التحتية عن غيرها من المشاريع باعتبار إنها كانت مملوكة بالكامل للقطاع العام حتى السنوات القليلة الماضية، ولأسباب عديدة حاول القطاع العام في الفترة الأخيرة، مشاركة القطاع الخاص في تمويل وإدارة هذه المشاريع، ومن هذه الأسباب:

- التمويل الهائل المطلوب لإعادة تجديد هذه المشاريع، أو لإقامة مشاريع جديدة.
- الوضع السيئ لموازن الدول (عجز الموازنة مثلاً، وعدم المقدرة على توفير المال اللازم).

- الضغط لتطوير المشاريع القائمة أو الجديدة للبنية التحتية ليس فقط للاستجابة للطلب المتزايد، ولكن لمواكبة التطورات التكنولوجية من أجل تقديم خدمات تنافسية، وبالتالي فإن الخيارات أمام القطاع العام لمشاركة القطاع الخاص في هذه المشاريع يمكن عدّها كالتالي:

المقصد الأول: عقود الامتياز

وهنا تتعاقد الدولة مع القطاع الخاص لتنمية أحد المرافق العامة (مثلاً الموانئ، والطرق السريعة) وفق شروط تحدّد المواصفات العامة للمشروع، ومن أشهر هذه العقود حالياً طريقة BOT بناء -

تشغيل - تحويل. وتعتمد هذه الطريقة على المفاهيم القانونية للامتيازات، وكذلك على عدم اللجوء المالي الوافر، أو اللجوء المالي المحدود، وإنّ أهم الأطراف المعنية في مشاريع BOT هي الدولة، راعي المشروع، المستثمرون، المقاولون، الموردون، الزبائن وقد اعتمد لبنان هذه الطريقة في عملية تنفيذ الهاتف الخليوي، كما يوجد خيار آخر للامتيازات يسمّى التخصيصية المطلقة BOO، وفيه يُنشئ الملتزم المشروع بموارده الخاصة ويديره ويستثمره لأجل غير محدد، مثلاً معالجة المياه المستعملة في المكسيك.

المقصد الثاني: عقود التأجير

وفيه تتعاقد الدولة مع القطاع الخاص لإيجار جزء من أو كل أصول وممتلكات نشاط اقتصادي ما، وذلك مقابل إيجار سنوي متفق عليه بين الطرفين، وعادة ما تكون تكاليف الصيانة والتوسع على حساب القطاع الخاص، وتقوم شركات القطاع الخاص بتشغيل هذه الأصول واستخدامها لتقديم خدمة، أو إنتاج سلعة ما وتسويقها للمستهلك، وقد اعتمد على تنظيم مثل هذه العقود في لبنان على استثمار مرفق جعبيتا السياحي.

المقصد الثالث: عقود الإدارة

وفيه تمنح الدولة إحدى شركات القطاع الخاص عقداً لإدارة نشاط اقتصادي ما

وفق شروطٍ ومبالغٍ متَّفِقٍ عليها بين الطرفين.

المطلب الثاني: الطرق التي لا تُنهي ملكية الدولة

إنَّ الطرقَ التي لا تُنهي ملكية الدولة يمكن حصرها في أربع طرقٍ رئيسة هي:

المقصد الأول: إصلاح شركات القطاع العامّ أو المرافق العامّة (Public Enterprise Reforms).

إنَّ عملية إصلاح شركات القطاع العامّ تمرُّ في مرحلتين أساسيتين هما:

أولاً: إعادة الهيكلة (Restructuring):

تهدف إعادة هيكلة شركات القطاع العامّ إلى رفع كفاءتها وجعلها أكثرَ جاذبيةً للمستثمرين قبل أن تتمَّ خصخصتها، أي إنَّها تهدفُ إلى رفع مستوى هذه الشركات وقيمتها، وإعادة الهيكلة يوجد ثلاثة مجالات:

● **إعادة الهيكلة التنظيمية:** وفيها يتمُّ إعادة تنظيم الشركة إلى وحداتٍ صغيرة، وعادةً ما يتمُّ تحويلها إلى شركةٍ مساهمة.

● **إعادة الهيكلة المالية:** وتعني أساساً معالجة مشكلة الديون القائمة عن طريق تسويتها، أو إعادة هيكلة استحقاقاتها.

● **إعادة هيكلة أنشطة الشركة:** وتعني

التقيّد في استثماراتِها عن طريق القيام باستثماراتٍ جديدة لتحسين الطاقة الإنتاجية والتكنولوجيا المستخدمة فيها.

ثانياً: التجيير والتحويل إلى شركة مساهمة (Commercialization & Corporatization):

والمقصود بعبارة التجيير هو القيام بتطبيق مبادئ وأهداف تجارية في إدارة عمليات الشركة، أمّا تحويلها إلى شركة مساهمة فإنَّه يعني بالإضافة إلى تطبيق مبادئ وأهداف تجارية في إدارة عمليات الشركة، يتمُّ الفصل بين الملكية وإدارتها، فتصبحُ الشركةُ مستقلةً قانونياً واقتصادياً على أن تتمثّل ملكية الدولة فيها من خلال مجلس إدارة تقوم بتعيين أعضائه^(١).

المقصد الثاني: خصخصة الإدارة

(Privatization of Management)

ولخصخصة الإدارة يوجد ثلاث طرقٍ هي:

أولاً: **عقد الإدارة (Contract Management):**

عقدُ الإدارة هو اتفاقٌ بين مرفقٍ عامّ وشركةٍ خاصّةٍ لإدارة هذا المرفق من قِبَل هذه الشركة، ويؤدّي هذا التعاقد فقط إلى تحويل حقوق الإدارة إلى الشركة الخاصّة

(١) محمّد غادر، مصدر سابق.

لإدارتها وفقاً لمفاهيم إدارة القطاع الخاص، لكنَّ حقوق الملكية تبقى ملكاً للقطاع العام، مقابل أن تحصل الشركة الخاصة على رسومٍ مقابل إدارتها لهذه الشركة دون المساس بالأرباح إذا تحققت.

ثانياً: التأجير (Lease):

التأجير هو عبارة عن عقدٍ يمنحه مالكُ الأصول (القطاع العام) إلى شركةٍ خاصةٍ باستخدام هذه الأصول والاحتفاظ بالأرباح المحققة لفترةٍ محدّدةٍ مقابل بدلٍ يُدفع للمالك يُسمّى الإيجار.

ثالثاً: الامتياز (Concession):

في هذه الحالة تحوّل الدولة حقوق التشغيل والتنمية إلى شركة القطاع الخاص، ويكون صاحب الامتياز أي شركة القطاع الخاص مسؤولاً عن النفقات الرأسمالية والاستثمارات وعادةً تحدّد مدّة الامتياز في وقتٍ محدّدٍ مثلاً بين ٢٠ أو ٣٠ سنة.

المقصد الثالث: التعاقد (Contracting out):

تتعاقد مؤسسة حكومية أو مرفقٌ عام، في هذه الحالة، مع شركةٍ خاصّةٍ للقيام ببعض الخدمات بدلاً عنها، مقابل الحصول على أجرٍ نظير القيام بالخدمات المطلوب القيام بها، ويحتفظ المرفق العام بملكيّة الأصول.

المقصد الرابع: المشروعات المشتركة (Joint Ventures):

في هذه الحالة يمتلك القطاع العام جزءاً من المرفق العام، ويمتلك القطاع الخاص الجزء الباقي، وعادة ما يكون الشريك الخاص مستثمراً أجنبياً حيث يوفر نسبة من رأس المال والتكنولوجيا الحديثة لتشغيل المشروع موضوع المرفق العام^(١).

المطلب الثالث: الطرق التي تُنهي ملكيّة الدولة

أمّا الطرق التي تُنهي ملكية الدولة يمكن حصرها في ست طرقٍ هي:

المقصد الأول: البيع المباشر للمستثمرين (Direct sale to investors):

وتتمُّ هذه العملية عن طريق بيع المرفق العام من خلال مزايديّة، أو من خلال مشتري تختاره الدولة، وتسمح المزايديّة بمقارنة العروض مع بعضها البعض واختيار أفضلها الذي يقدّم أعلى الأسعار، وتتميّز هذه الطريقة بالشفافيّة، ولكن عيبها الرئيس بُطء العملية، إضافةً إلى تكاليفها الإداريّة المرتفعة.

أمّا طريقة البيع لمشتري تختاره الدولة يكون الهدف منها الحصول على مستثمرٍ باستطاعته إدخال تكنولوجيا حديثة في

(١) محمّد غادر، المصدر نفسه.

المقصد الخامس: نظام الكوبونات
(Voucher Privatization):

استُخدمت هذه الطريقة في دول أوروبا الشرقية والوسطى في إطار تحويلها إلى اقتصاد السوق، وتُعتمد على توزيع كوبونات مجانية، أو مقابل مبلغ معين على المواطنين، ويمكن لهم استبدال هذه الكوبونات بأسهم في الشركة التي تتم خصصتها، أو بيعها بالسوق.

المقصد السادس: التصفية (Liquidation):

ويتم تصفية المرفق العام عن طريق بيع أصوله بدلاً من بيعه كمشروع مستمر، وعادة ما تُتبع هذه الطريقة عندما يتبين أن مجموع الإيرادات المتوقعة من بيع أصول المشروع أكبر بكثير فيما لو تم بيعه كمشروع متكامل.

يُستنتج مما سبق، أن الطرق الرئيسية للخصخصة هي ثلاث طرق: طرق تعتمد في خصخصة البنية التحتية، وطرق لا تُنهي ملكية الدولة، وأخيراً طرق تُنهي ملكية الدولة، وأن اعتماد أفضل طريقة، يتوقف على برنامج الخصخصة المراد تحقيقه، والأهداف المعلنة للعملية، وبالتالي لا يمكن عد أي طريقة أفضل من غيرها، لكن المهم أن نوافق بين الأهداف المراد تحقيقها من برنامج الخصخصة، والطريقة الواجب

عملية الإنتاج وله منفذ على الأسواق الخارجية، وهو ما يعرف بالمستثمر الاستراتيجي.

المقصد الثاني: بيع الأسهم للجمهور في الأسواق المالية (Public share offerings On Stock Market):

تُعرض أسهم الشركة في هذه الحالة في البورصة وبسعر ثابت، وقد تتميز هذه العملية بالشفافية، وتوسيع قاعدة الملكية، وفي أغلب الأحيان تُستخدم لبيع الشركات الكبيرة^(١).

المقصد الثالث: المزاد العلني (Public Auctions):

تُستخدم هذه العملية عند بيع الشركات المتوسطة والصغيرة الحجم التي لا تحتاج إلى تكنولوجيا معينة ومتطورة، وتتميز بالشفافية، وتضمن للحكومة الحصول على أعلى إيرادات ممكنة.

المقصد الرابع: البيع للعاملين والإدارة (Employee Management Byu-Auts):

تُعد هذه العملية خصخصة داخلية تؤدي إلى تملك الشركة إلى الإدارة والعاملين فيها، بهدف تشجيعهم على تخفيض النفقات ورفع الإنتاجية وتُعد وسيلة فعالة لتوسيع قاعدة الملكية.

(١) دلال بسما، الخصخصة: أطرها القانونية وآثارها الاقتصادية، مجلة الدفاع الوطني، العدد ٣٦٠، نيسان ٢٠١٠.

اختيارها لتنفيذ العملية بنجاح ودون أيّ عوائق، أو فشل⁽¹⁾.

المبحث الثالث: الآثار الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الناجمة عن تنفيذ عمليات الخصخصة:

تناول المبحث السابق الطرق المعتمدة في تنفيذ برامج الخصخصة، حيث بين بأن لكل طريقة مزاياها وعيوبها، ويتوقف اختيار أنسب طريقة على مجموعة من العناصر من أهمها: أهداف الخصخصة، حجم ومجال نشاط الشركة، وضعها المالي، مدى تطور الإطار القانوني والأسواق المالية، وخصائص المشتريين والمستثمرين ولكن هذا الفصل سوف يبين الآثار والنتائج الناجمة عن تنفيذ عمليات الخصخصة، من خلال تحديد مؤشرات الآثار وقياسها، وتحليل هذه الآثار على مختلف المستويات.

المطلب الأول: مؤشرات الآثار:

إن من أهم مؤشرات الآثار الاقتصادية والاجتماعية للخصخصة تظهر على المستوى الكلي وعلى مستوى الشركة، أو المرفق العام المخصص، أي المستوى الجزئي، وفيما يلي تحليل مختصر لهذه المؤشرات:

المقصد الأول: المؤشرات على المستوى الكلي:

تشمل الآثار على المستوى الكلي المتغيرات الكمية الآتية:

- زيادة حجم القطاع الخاص في الاقتصاد مقابل تقليص القطاع العام.
- انخفاض العجز في الموازنة.
- تطور أسواق رأس المال المحلية.
- تغير في معدل البطالة.
- تحسن الميزان التجاري.

وفيما يلي شرح مختصر لمؤشرات الآثار المذكورة أعلاه:

أولاً: زيادة حجم القطاع الخاص في الاقتصاد مقابل تقليص القطاع العام:

بصفة عامة تؤدي عملية التحويل هذه إلى نقل عائد وأرباح المرافق العامة المحولة إلى طبقة رجال الأعمال والمستثمرين في القطاع الخاص وتحسن أوضاعهم وبالعكس، فإذا كانت هذه المرافق تحقق خسائر، فإن القطاع الخاص الممثل بالمستثمرين ورجال الأعمال سوف يتحملها، وبالتالي يكون القطاع العام قد تخلّص من خسائر هذه المرافق، وهذا سوف يساعد على إعادة توزيع الدخل القومي بين القطاعين العام والخاص.

(1) المصدر نقلاً عن ترجمة للدكتور رياض دمال، United Nation conference on trade and development, comparative experiences with privatization: Policy insights and lessons learned, 1995.

ثانياً: انخفاض العجز في الميزانية العامة للدولة:

عندما تتخلى الدولة عن بعض المرافق العامة إلى القطاع الخاص، هناك انطباع بأن عملية التخلي هذه تؤدي إلى تحسين أوضاع الميزانية العامة للدولة، وذلك عن طريق زيادة الموارد المالية المتاحة لديها، ما يمكنها من زيادة الإنفاق الاستثماري من ناحية أخرى، إلا أن هذا الأثر ليس صحيحاً على الإطلاق، ولتحديد الأثر النهائي على ميزانية الدولة، يتطلب الأمر تقدير جميع الآثار المالية لعدد من المتغيرات المهمة^(١).
والممكن أن تؤثر على موازنة الدولة بطريقة مباشرة، أو حتى بطريقة غير مباشرة، وتتلخص هذه المتغيرات في أثر خصخصة مرفق معين على إيرادات الدولة ومصروفاتها، وذلك عن طريق زيادة هذه الإيرادات، أو تخفيض تلك المصروفات، لأن الدولة بعد تحويل هذا المرفق إلى القطاع الخاص، فإذا كانت عملية التحويل ناتجة عن بيع هذا المرفق، فسوف تحصل على قيمة بيعها في الأمد القصير وستدخل في إيرادات موازنة الدولة خلال فترة البيع، وفي الوقت نفسه فإن الدولة بعد نقل الملكية إلى الغير لن تتدخل وتحمل أي نفقات يتحملها هذا المرفق بسبب خصصته،

وبالتالي تكون الحكومة قد وفرت النفقات الممكن دفعها فيما لو كان هذا المرفق ما زال لها.

أما على الأمد البعيد، فإن عملية الخصخصة قد تؤدي إلى زيادة حصيل الضرائب التجارية والصناعية، نتيجة زيادة نشاط الشركة التجاري وتوسعه الإنتاجي عقب عملية التخصيص، وإن كانت النتائج العملية المتاحة من خلال تجارب الدول النامية تقلل من قيمة زيادة الضرائب، نتيجة للخصخصة، وخصوصاً إن كثيراً من الحالات بينت حصول زيادة في عمليات التهرب الضريبي.

أما في حالة التحويل بطريقة أخرى لا تنهي الملكية، باستخدام طرق عقد الإدارة، أو التأجير، أو غير ذلك من الطرق المتاحة، فإن العقلية السائدة تعد أن ميزة القطاع الخاص تتميز بمستوى أعلى من الكفاءة عن القطاع العام، وإن هذه الميزة تؤدي إلى تحسين الإنتاجية، وبالتالي سوف تحسن الإيرادات من خلال تعظيم الأرباح إلى أكبر قدر ممكن، وفي الوقت ذاته تقليص النفقات إلى أقل حد ممكن، ومن هنا بعد هيكلة هذه المرافق وإدارتها بعقلية القطاع الخاص، سوف تساعد على تقليص نفقات الموازنة، وتحسين إيراداتها نتيجة للتفكير الجديد.

(١) القاضي محمد الحاج، معهد الدروس القضائية - قسم القانون المالي.

ثالثاً: تطوّر أسواق رأس المال المحلية:

إنّها سوف تساهم في زيادة الوعي الادّخاريّ لدى أفراد المجتمع، وتجميع المدّخرات الصغيرة، واستقطاب المدّخرات الموجودة في الخارج، وهذا الواقع سوف يساعد على تشجيع الاستثمار، ويخلق جواً مناسباً لتدفّق رؤوس الأموال المحليّة والأجنبيّة التي تؤدّي إلى تحسين المناخ الاستثماري من جديد، ويجعلها أكثر قبولاً وجاذبيّة للتعامّل فيها، وبالتالي فقد تؤدّي إلى اتّساع الأسواق الماليّة^(١).

رابعاً: تغيير في معدّل البطالة:

ممّا لا شكّ فيه أنّ زيادة الكفاءة للمشروع سوف تؤدّي إلى تخفيض تكلفة العمالة، سواءً عن طريق تقليل عدد العاملين، أو تخفيض إجماليّ قيمة الأجور، وذلك خلال الفترة الأولى للعمليّة، وبالتالي إلى زيادة في معدّل البطالة، ولكن على المدى الطويل سوف يتمّ إعادة تنظيم لهذه العمالة الفائضة وتدريبها للحصول على عمالة فنّيّة عالية وماهرة، ومن ثمّ إعادة توظيفها في المشاريع الجديدة الممكن تأسيسها من جرّاء تحسّن الأداء والنموّ الاقتصاديّ فيما بعد، والذي سيساهم في إعادة تخفيض

معدل البطالة من جديد، وهكذا تكون العمالة غير مؤثّرة نتيجةً للتخصيص.

خامساً: تحسّن الميزان التجاريّ:

إنّ للخصخصة تأثيراً إيجابياً على التجارة الخارجيّة وعلى ميزان المدفوعات من حيث تنشيط الصادرات، فالأرجح أن يكون هذا التأثير غير مباشر، لأنّه سوف يظهر من خلال التحسين في كفاية وحدات الإنتاج المتأثّية بدورها من التحسين المفترض في استخدام الموارد الاقتصاديّة ومن ثمّ تطوير التجارة المحليّة والخارجيّة^(٢).

المقصد الثاني: المؤشّرات على المستوى الجزئيّ أي على مستوى الشركة:

إنّ الآثار على المستوى الجزئيّ هي الآثار التي تحدث داخل الشركة، أو المؤسّسة الاقتصاديّة، أو المرفق العامّ ذاته وتطال مثلاً:

- الإنتاجيّة.

- التكاليف.

- الربحيّة.

- الأسعار الحقيقيّة.

وفيما يلي شرح مختصر يوضّح هذه الآثار على المستوى الجزئيّ على الشكل التالي:

(١) القاضي أنطوان الناشف، مصدر سابق، ص ١٦٤.

(٢) زاهر الخطيب، الخصخصة وأثرها في التنمية وإعادة البناء في لبنان، مجلّة العرب والعولمة، أيلول ٢٠٠٥.

أولاً: الانتاجية:

قد تستمرُّ الوحدةُ الإنتاجيةُ في استخدام تقنيات إنتاجية قديمة، طالما أنَّ عوامل العرض والطلب لا تعمل بحريَّة كافية ما يجعل الأرباح في ظلَّ التقنيات غير الملائمة أكبرَ من مثيلاتها في ظلَّ التقنيات الحديثة والملائمة، لذلك يُشترطُ مع عملية التحويل إلى القطاع الخاص استخدام التقنيات الحديثة الملائمة للإنتاج بهدف رفع الكفاءة الإنتاجية ودلت التجارب على أنَّ القطاع الخاص مؤهَّل أكثر من القطاع العام في استخدام هذه التقنيات الحديثة التي سوف تساهم في تحسُّن الإنتاجية.

ثانياً: التكاليف:

قد تكون تكلفة إنتاج السلعة، أو الخدمة مرتفعةً ومبالغاً فيها بعد الخصخصة حتَّى في ظلَّ تحقيق الأرباح، وقد يرجع ذلك إلى استمرار وجود مراكز احتكارية، أو شبه احتكارية للوحدة الاقتصادية بعد خصصتها، ولذلك يجب إلغاء الاحتكار، وخلق جوٍّ من المنافسة ليقوم القطاع الخاص بدوره المؤدِّي إلى تخفيض التكاليف إلى أقلِّ حدٍّ ممكنٍ عن طريق الاستغلال الأمثل للموارد، وهو مؤهَّل للقيام بذلك أكثر من القطاع العام بسبب

خبرته، وبسبب عوامل السوق الأخرى التي ستخلق المنافسة.

ثالثاً: الربحية:

وهي قيمة الربح الذي يسعى إليه دائماً القطاع الخاص من خلال تعظيمه إلى أكبر قدرٍ ممكن، وإنَّ هذه الأرباح غالباً ما تزيد عما كانت عليه قبل الخصخصة، أو قد تحوُّل المرفق العام من الخسائر إلى الأرباح، وفي الواقع إنَّ توفر الربح مرتبطٌ بطريقة الإنتاج، وتكاليفها، وأسعار البيع المراد تحقيقه، وهو ما تؤثر فيه عوامل السوق من خلال العرض والطلب.

رابعاً: أسعار البيع أو السعر الحقيقي:

قد تكون أسعار بيع السلعة، أو الخدمة مرتفعةً ومبالغاً فيها أيضاً في ظلَّ الوضع الاحتكاري أو شبه الاحتكاري للوحدة الاقتصادية، وبالتالي يجب إلغاء هذا الوضع لخلق جوٍّ من المنافسة التي يتمتَّع به القطاع الخاص، للوصول إلى الأسعار الحقيقية للسلعة أو الخدمة.

المطلب الثاني: قياس الآثار^(١):

أيُّ محاولة لقياس آثار الخصخصة تواجه مشكلةً منهجيةً، وهي كيف يمكن تحديد نسبة التغيير التي تنتج عن الخصخصة، وتلك التي تنتج عن عناصر

(١) رياض دهاش، محاضرة ألقيت في المعهد العربي للتخطيط، الكويت.

خارجية، كما أنّ هناك مشاكل متعلّقة بتوافر البيانات وتقنيّة القياس.

المقصد الأول: طرق القياس^(١):

لقياس أثر الخصخصة يمكن الاعتماد على ثلاثة مقاييس يمكن استخدامها:

أولاً: ما كان متوقّع أن يحدث في فترة ما بعد الخصخصة:

بالطبع إنّ قياس ما كان متوقّع أن يحدث في فترة ما بعد الخصخصة، محدّدة من خلال الأهداف التي رُسمت للعملية قبل فترة التخصيص، فإذا تحقّق فعلاً الهدف المتوقّع من برنامج العملية بعد التنفيذ تكون العملية قد حققت أهدافها، وتحقيق هذه الأهداف البرهان الأكيد على قياس الأثر المرغوب، وإذا لم يتحقّق الهدف المراد تحقيقه فإنّها نتيجة طبيعية تؤكّد أنّ عملية القياس قد حدثت بالفعل وأكّدت نتيجته فشل العملية.

ثانياً: ما حدث في فترة سابقة:

إنّ الذي حدث في الفترة السابقة لعملية تنفيذ البرنامج هو وضع المرفق العام قبل هيكلته ومن ثمّ خصصته، وهي واقعة تاريخية مدوّنة وموجودة فعلاً، فإذا كان وضع هذا المرفق يعاني من خلل ما قبل تنفيذ العملية، وقد زال هذا الخلل بعد اعتماد

برنامج التخصيص، فهذا القياس تحدّد من الأثر الذي أدّى إلى تحسّن ونموّ هذا المرفق والعكس هو الصحيح.

ثالثاً: ما كان يمكن أن يحدث إذا لم تتمّ الخصخصة:

لقد أثبتت التجارب في الدول المعتمدة على سياسات الخصخصة أنّه لا يمكن قياس ما كان يمكن أن يحدث إذا لم تتمّ الخصخصة، وإنّ ذلك قد يكون صعباً للغاية إذا لم نجزم أنّه مستحيل، والسبب بسيط وهو أنّه لا يوجد بيانات تعلم بماذا يمكن أن يحدث إذا لم تُنفذ العملية.

والخلاصة تكمن في مشاكل البيانات وإمكانية توفّرها، فإذا لم تتوفّر البيانات حول شركات القطاع العام قبل خصصتها فإنّه من الصعب قياس وتقييم التغييرات بعد التحويل، وفي بعض الحالات تكون البيانات متوفّرة، لكن لن تستطيع الاعتماد عليها، والسبب هو استخدام آليات محاسبة مختلفة بين القطاع العام والخاص قد يجعل من الصعب مقارنة هذه البيانات نظراً للاختلاف في تنظيم المحتويات المتوفّرة فيها.

المطلب الثالث: آثار الخصخصة من الناحية العملية:

نتيجة للتجارب المستفاد من الدول

(١) رياض دهال، محاضرة ألقيت في المعهد العربي للتخطيط، الكويت.

التي استُخدمت هذه السياسات في تطوير وتنمية اقتصادها، والتي ساهمت في تحديد الآثار التالية:

المقصد الأول: على الربحية:

تُبَيِّن معظم الدراسات حول الخصخصة في الدول ذات الدخل المتوسط والمرتفع أنَّ ربحية الشركات ارتفعت بعد أن تحوَّلت ملكيتها إلى القطاع الخاص، ولكن يجب الإشارة إلى بعض العناصر الأخرى الممكنة أن تكون قد ساهمت بارتفاع الربحية أيضاً ومن بينها إلغاء ديون الشركات وهيكله السوق الذي تمارس فيه هذه الشركات نشاطها^(١).

المقصد الثاني: على الكفاءة:

لا تدلُّ مقارنة شركات القطاع العام مع شركات القطاع الخاص بشكل واضح أيهما أفضل، إلا أنَّ هذه الأخيرة تتميز تاريخياً بمستوى أعلى من الكفاءة، وقد أدت مقارنة أداء شركات القطاع العام قبل وبعد خصصتها، إلى تحسُّن الإنتاجية في معظم الحالات.

المقصد الثالث: على الاستخدام والعمالة:

بصفة عامة لم تؤثر الخصخصة سلباً

على العمَّال، وهذا يرجع إلى سببين رئيسيين هما:

● في كثير من الدول عادةً ما تكون نسبة الاستخدام في شركات القطاع العام بالمقارنة مع الاستخدام في القطاع الخاص ومع الاستخدام إجمالاً منخفضة نسبياً.

● على المستوى الدولي، لم يرتفع الاستخدام في شركات القطاع العام في العقدين الأخيرين بالسرعة نفسها التي ارتفع بها في السبعينيات، وفي بعض الحالات، حصل نقص في العمالة نتيجةً لعمليات إعادة هيكلة الشركات التي سبقت خصصتها.

المقصد الرابع: على موازنة الدولة:

بالرغم من إجمالي الإيرادات من بيع أصول القطاع العام كان مرتفعاً في كثير من الحالات، إلا أنَّ إلغاء ديون الشركات والمصاريف المتكبَّدة لإعادة هيكلة هذه الشركات قد أثَّرت على صافي هذه الإيرادات بصفة عامة إلا أنَّ بعض الدراسات تشير إلى أنه قد لا يكون للخصخصة أي تأثير إيجابي على ميزانية الدولة، بمعنى آخر قد تؤدي الخصخصة فقط إلى استبدال تدفقات نقدية مستقبلية

(١) مسعود عبد السلام رحومة، تجارب الخصخصة وآثارها في رفع الكفاءة الاقتصادية، مجلة العلوم الإنسانية، العدد ١٦، ٢٠٠٧.

بايراداتٍ حاليّة، أي تكون محايدةً حاليّاً في المدى الطويل.

المقصد الخامس: على أسواق الأوراق الماليّة:

كان للخصخصة تأثيرٌ إيجابيّ على تطوُّر أسواقِ الأوراق الماليّة في العديد من الدولِ النامية التي استخدمت طريقةً ببيع أسهم شركات القطاع العامّ في هذه الأسواق، وهذا ما أثبتت في أغلب الدراسات التي تناولت الموضوع.

الخلاصة التي تناولها هذا الفصل حول مسألة الآثارِ الاقتصاديّة المتوقّعة للخصخصة على أداء وحدات الإنتاج في القطاع العامّ في بلدان المنطقة المعنيّة لا تختلف عمّا خرجت به معظم الدراسات النظرية والميدانية التي تمّ ذكرها، وهي إن دلّت على شيءٍ فإنّها تدلُّ على أنّه من غير

الممكن من الناحية النظرية، أو حتّى الميدانية أن يكون نوع الملكية هو العنصرُ المحدّد والوحيد لكفاية وحدات الإنتاج، وإن كان أداء هذه الوحدات في القطاع العامّ من خلال التجربة أحياناً ضعيفاً، لكنّ هناك أسباب وعوامل أخرى تتعلّق بطبيعة السوق، ونوعية الإدارة، والظروف المحيطة بالاقتصاد ككلّ. وعليه، لم يحدث تحسّناً واضحاً في الأداء الاقتصاديّ لوحدات الإنتاج المتعثّرة من مجرد تحويل ملكيتها إلى القطاع الخاصّ، ما دام لم يُصاحب هذا التحويل جملةً من الإجراءات الأخرى أهمّها إعادة هيكلة وحدات الإنتاج المعنيّة على جميع المستويات الفنيّة والماليّة والإدارية ومدّها بالعناصر الإداريّة الكافية والكفوءة وخصوصاً وضعها في بيئة تنافسيّة فعليّة، خالية من التشوّهات التي تميّز عادةً أسواق البلدان النامية.

للبحث صلة

السياسة الضريبية لحكومات الاستقلال الأولى

جان خليل طعمه

يسأوي أجر ثلاثة إلى ٤ أشهر عمل تقريباً، وهي نسبة عالية جداً.

وغالباً ما انتقد النواب في المجلس النيابي عشوائية سياسة الحكومات الاستقلالية المتعاقبة، مع رياض الصلح وعبد الحميد كرامي وسامي الصلح وسعدي المنلا لأنها منسوخة عن بعضها لجهة إعداد الموازنات، وكيفية جباية المال العام وصرفه.

وإذا كانت الضريبة تعني في نظر الكلاسيكيين، كأدم سميث^(٣): الحصة التي تطلبها الدولة من الأمة لأجل النفقات التي تقتضيها الخدمة العامة. فقد اعتبر مدير عام وزارة المالية أندره تويني أن «الضريبة هي ما تفرضه الدولة على الناس لأجل سد

لقد أجمع علماء الاقتصاد والخبراء اللبنانيون^(١) على اعتبار أن السياسة الضريبية في لبنان، في مطلع العهد الاستقلالي لم تكن عادلة من ناحيتين:

– الأولى أن الجزء الأكبر من الضرائب كانت ضرائب غير مباشرة، استهلاكية بمعظمها تصيب الفقير والغني على حد سواء، وبالنسبة نفسها، وهذه جباية غير عادلة.

– الثانية هي فداحة تكليف الشعب اللبناني عموماً^(٢)، والمكلف اللبناني، العامل أو الموظف الراشد المنتج، الذي يدفع الضريبة، لا الزوجة ولا الأولاد القاصرون، بحيث يتراوح معدل الضرائب المنوي جبايتها، نسبة إلى أعداد المكلفين، ما

(١) ومنهم جبرائيل منسى، وجوزف نجار، ود. البرت بدر، ود. الياس سابا، ومن النواب، حبيب أبي شهلا، وعبد الله اليافي، ويوسف كرم، وخاصة سامي الصلح وكاظم الخليل وهنري فرعون و خليل ابو جودة.

(٢) جبرائيل منسى: «التصميم الانشائي للأقتصاد اللبناني وأصلاح الدولة»، بمعونة جوزف نجار، بيروت، ١٩٤٨، ص ١٥٥.

(٣) عالم اقتصاد بريطاني (١٧٢٣ - ١٧٩٠) يعتبر بحق أب علم الاقتصاد الليبرالي، له كتاب في طبيعة ثروات الأمم وأسبابها ١٧٧٨.

الحكومة تحدّد بصورة مقطوعة مجموع المبلغ الواجب جبايته بصورة مقطوعة سنوياً على القرى، ثم يُوزّع في كل قرية المبلغ المطلوب على المكلفين على أسس حدّدها القانون، وكانت تؤدي إلى «ظلم فادح».

وفي عام ١٩٣٩م ألغيت الضريبة الموحدة على الأراضي، واستُحدثت في العام التالي ١٩٤٠م، ضريبة جديدة على الأراضي بموجب مرسوم اشتراعي رقمه LE/٣٧^(٢)، تاريخ ٣٠ آذار ١٩٤٠م اعتمد فيها أسساً كانت صعبة التطبيق، لجهة فرز وجهة استخدام الأرض: ففي الملحق رقم ٣ لهذه الضريبة، تمّ تقسيم منطقة بيروت إلى ٣ مناطق (Zones)، بين المصيطبة ورأس بيروت حتى المزرعة والرميل والباشورة والمدور الصيفي وصولاً إلى المرفأ.

وإن نص الضريبة قسّم الأراضي الزراعية خارج بيروت إلى خمس فئات أساسية، لجهة وجهة زراعتها سواء بالخضار، أو الأشجار المثمرة، أو الحمضيات، أو الكرمة، وكل منها إلى فئات عدة، بحسب حجم إنتاجها، فوصل عدد فئات الأرض إلى أكثر من ٢٠^(٣)، في حين

حاجاتها المبرمة ووفاء ديونها»^(١). وقد اشترط آدم سميث للضريبة الفضلى أربعة قواعد وهي: العدل، أن تكون صريحة وواضحة أي غير كيفية، ورفيقة أي مناسبة للمكّلف. فالى أي مدى استجاب نظام الضرائب في لبنان في مطلع العهد الاستقلالي لهذه المتطلبات؟

١- فشل تطبيق ضريبة الأراضي الموحدة عام ١٩٣٣م

مع بداية عهد الانتداب الفرنسي، أبقت الدائرة المالية في المفوضية على ضريبة «ويركو الأراضي» العثمانية قائمة، واستوفيت على أساس القيمة البيعية للأراضي غير المبنية، وظلت مطبقة حتى العام ١٩٣٢م. وفي سنة ١٩٣٣م استُعيض عن ويركو الأراضي، وعن رسم العشور الذي كان يُستوفى في أراضي الولاية، وعن مال الميري الذي كان يُستوفى عن أراضي جبل لبنان، بـضريبة جديدة وموحدة على الأراضي اللبنانية كلها. ولكن بدل أن تكون هذه الضريبة «عصرية» وعادلة، فاذا هي «ضريبة توزيع»، وهي ضريبة كانت سائدة في أوروبا ثم تمّ التخلي عنها لأنها غير عادلة. وضريبة التوزيع هذه معناها أن

(١) محاضرات الندوة اللبنانية، أندره تويني: «الموازنة ونظام الضرائب في لبنان»، السنة الرابعة، ٢٥ نوار ١٩٥٠، ص ٦٨.

(٢) الجريدة الرسمية، ١٩٤٠، عدد ٣٧٦٩، ص ٤٠٢٠.

(٣) Commerce du Levant, n 997, le 23 Juillet 1940, p: 3.

المالك إلى دفعها سواء أجنى من أرضه أم لم يجن.

- لا يصيب التكليف إلا أصحاب الأراضي الذين يجنون أرباحاً من أراضيهم، وبمقدار الربح الصافي بعد تنزيل مصاريف الزراعة من فلاحه وثمان بذار وأسمدة وقطف الموسم.

- يُستثنى من الضريبة أنواع من الأرض بغرض تشجيع مالكيها على تنميتها، ومنها أملاك البلديات والمشاعات والغابات، وملحقات المعاهد والمستشفيات ودور العبادة والمدافن... وتلك التي لا تصلح للإنتاج كالأرض الصخرية.

- هدفت الضريبة إلى تشجيع تحسين استثمار الأرض الصالحة للزراعة، كأن يحولها صاحبها إلى أرض مروية إذا لم تكن تروى، أو إلى أرض مغروسة فتُغذى الصالحة للزراعة والتي أهملها أصحابها، وذلك لدفعهم على زراعتها.

- أتاح مشروع القانون للمالكين الاعتراض على الضريبة المفروضة عليهم إذا قدرُوا أنها فاحشة، أو إذا أصابت كارثة طبيعية الموسم فحالت دون جني المحصول.

- قسم مشروع القانون الأراضي إلى

تم إعفاء الغابات والأحراج منها، إضافة إلى جرود الجبال، والمشاعات، والأراضي البعلية التي يقل إنتاج هكتارها عن ٣ كنتالات قمح. على أن عيب هذه الضريبة الكبير، كان كيفية تقسيم الجباية على الأقسية وعلى القرى في كل قضاء، لأن الزراعة في لبنان، بكل بساطة، هي غير منتظمة^(١).

لذلك بعد صعوبة التنفيذ، وبسبب ظروف الحرب، عادت الدولة عام ١٩٤٢م إلى الضريبة السابقة، أي ضريبة الأراضي الموحدة، بعد أن زادت حجم جبايتها.

وفي أول آب ١٩٤٤م، أحالت حكومة رياض الصلح مشروع ضريبة أراضي جديدة إلى المجلس النيابي، بموجب المرسوم ١٦٥٧، لكنه نام في أدراج المجلس، ولم يُطرح على بساط البحث والنقاش مجدداً إلا في صيف العام ١٩٤٩م. وتبين أنه يحمل تقسيماً جديداً للأراضي بين كونها زراعية أم معدة للبناء، وقد حمل بعض ملامح الضريبة العصرية، لجهة الأمور الآتية^(٢):

- هناك مساواة ضريبة بين سائر أنواع الأرض بحسب تقدير إنتاجها، على خلاف الضريبة المقننة السابقة، التي كان يضطر

(١) Ibidem, n 998, le 26 Juillet 1940, p: 3.

(٢) محاضر المجلس النيابي، جلسة ٢٣ آب ١٩٤٩، تقرير اللجنة المالية (اميل لحدود)، ص ٦٢٤ - ٦٤٤.

ولم تقرّ هذه الضريبة إلا في العام ١٩٥١م، وتأخر تطبيقها إلى العام ١٩٥٥م، ولجأت الحكومة عام ١٩٥٩م إلى تعليقها لمدة خمس سنوات تشجيعاً منها للزراعة^(٢). وكانت وزارة المالية تأمل أن تردّ هذه الضريبة عام ١٩٤٩م بين ٣ و٦ ملايين ليرة على خزينة الدولة.

٢ - فشل تنفيذ الضريبة الاستثنائية على أرباح الحرب

يشير الرئيس سامي الصلح في مذكراته إلى أنه عقب ترؤسه أول حكومة كُلف بها في ٢٧ تموز ١٩٤٢م، زارته شخصية غير لبنانية للتهنئة، وتبين أن زائره يدعي محمود عزمي، الذي كان مديراً لمصلحة الضرائب في وزارة الاقتصاد المصرية. وقد تدارس الصلح معه مشاريع ضريبية عدة كان يخطط لها، وعزم على جعل التجار اللبنانيين يدفعون ضريبة على أرباح الحرب الاستثنائية^(٣)، نُشرت بالمرسوم الاشتراعي ٢٤٥ / NI تاريخ ١١ تشرين الثاني ١٩٤٢م، وذلك أسوة ببقية الدول المجاورة والأوروبية والولايات المتحدة. وتسبب طرحه للموضوع ردة فعل عنيفة من التجار، فردّوا عليه أن هذه الضريبة

صنفتين: أراضٍ صالحة للزراعة وأخرى صالحة للبناء، وقسم كل منهما إلى فئات: مروية، بعل، مروية تزرع خضاراً، أو مغروسة أشجاراً، أو بعلية أو مراعي... أما معدّل الضريبة فكان ١٠٪ على الربح الصافي، بعد تنزيل تكاليف الزرع، و ٢٠٪ على الأراضى الصالحة للزراعة والمهملة، لحثّهم على استعمالها، كما قررت نسبة ٣٪ من معدل القيمة المبيعية للأراضي المعدة للبناء، بعد تخمين أثمانها.

ويبدو واضحاً أن هذه الضريبة هي ضريبة مباشرة، اعتبرت اللجنة المالية النيابية «عادلة»^(١)، ولكن كثرت أصوات النواب المعارضين لها، لجهة ارتفاع معدلها وطالب العديد منهم بتخفيضها إلى ٦ أو ٥٪، مقارنة بضريبة الأملاك المبنية وهي بنسبة ١٢٪، كما كثرت الاحتجاجات حول كيفية جبايتها إذا أصابت كارثة طبيعية الموسم الزراعي، ناهيك عن صعوبة تخمين قيمة الموسم وتقدير الربح الصافي للمزارع، لا سيما إذا كان مديناً لمرابٍ أو لمصرف... وفي حال كان صاحب الأرض قد أجر أرضه من ضامن، أو أعطاه شراكة «لمرابع» فمن الذي سيدفع الضريبة، فكان الجواب المالك.

(١) عرض هذا المشروع للمناقشة في جلسة ٢٣ آب ١٩٤٩، واستمرت مناقشته عامين حتى أقرّ معدلاً.

(٢) HIMADEH, Raja: «the fiscal system of Lebanon», American University of Beirut, 1961, p:

(٣) «مذكرات سامي الصلح»، ١٨٩٠ - ١٩٦٠ منشورات مكتبة الفكر العربي، بيروت، ١٩٦٠، ص ٦٥.

تصبح ضريبتين مع الضريبة على الدخل أو التمتع، وأنه من غير المعقول أن يكون لقانون الضريبة الاستثنائية هذه مفعول رجعي منذ بداية الحرب، أي لثلاث سنوات مضت. والواقع أنه كان يستحيل على الصعيد العملي معرفة أرباح التجار زمن الحرب، لأن مسك دفاترهم لم يكن مضبوطاً، كما أنه لم يكن يتوفر لدى الإدارة اللبنانية جهاز قادر على ضبطها وجبايتها.

والواقع أن علاقة الحكومة بالتجار راحت تلتهب، لا سيما بعدما أشاع الصلح أن نسب هذه الضريبة كما تُجبي في أنكلترا وأميركا، تصل إلى ٨٠٪ من أرباح التجار، وفي مصر والعراق تبلغ الخمسين بالمئة. ولكن الرئيس سامي الصلح كان عازماً على فرضها، ففتح تحقيقاً مالياً لمعرفة حجم الأرباح، واستند إلى قيود مصلحة النقد ومراقبة القاطع والجمارك والمصارف، فتبين له أن نحو ٢٠ تاجراً ارتفعت أرباحهم خلال سنة ونصف إلى نحو ١٠٠ مليون ليرة^(١)، وفكر بفرض ضريبة نسبتها ٥٠٪ سنوياً على هذه الأرباح، أي أن تجني الخزينة نحو ٥٠ مليون ل.ل. في السنة المالية ١٩٤٢-١٩٤٣ م.

وما أفشل هذا القرار الجريء هو أن السلطات الفرنسية والبريطانية ساندته في

البدء لتحصيل قسم من الأرباح، ولم يلبث الوضع أن تبدل، لأن «الأغنياء في لبنان هم الذين يسيرون السياسة»، فعمل التجار على كسب عطف البريطانيين، فقدموا للجيش البريطاني هدية من ٧ طائرات من نوع سييتفاير، كذلك عندما وصل إلى بيروت نبأ إغراق الأسطول الفرنسي في مرفأ طولون في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٤٢ م، حضر التجار أنفسهم القداس الذي أقيم لراحة نفس البحارة الموتى في كنيسة الآباء الكبوشيين، وذهب بعضهم إلى حد ذرف دموع «التماسيح» حزناً، وقدموا للبحرية الفرنسية مساعدة من نحو ١٠٠ ألف ليرة^(٢)، فتغير مسؤولو المندوبية الفرنسية تجاه موضوع الضريبة، ونصح المسيو لودوك Le Duc، المستشار المالي في المندوبية العامة الفرنسية، بتسوية العملية ببضعة ملايين مع التجار، ووضع حدّاً لها.

وقد حدّد المرسوم NI/٢٤٥، المدة الزمنية لتحصيل هذه الضريبة، بين أول كانون الثاني ١٩٤٠ م وحتى آخر يوم من السنة التي تلي سنة الحرب، أي حتى آخر العام ١٩٤٦ م، على أن تُطبق على من تعاطى مهنة التجارة والشركات، وتُحصّل على مجمل الأرباح التي يجنيها سنوياً كل مكلف منهم. كذلك، بعد الشفاعات

(١) «مذكرات سامي الصلح»، م.س، ص ٦٦.

(٢) المرجع نفسه.

والوساطات والمداخلات التي نسفت هذه الضريبة، حُدِّدَت نسب استيفائها كالاتي^(١):
- تُستوفى بنسبة ١٥٪ على ربح من ٢٠ ألف ل.

- تُستوفى بنسبة ٢٠٪ على ربح بين ٢٠ و ٤٠ ألف ل.

- تُستوفى بنسبة ٢٥٪ على ربح بين ٤٠ و ٧٥ ألف ل.

- تُستوفى بنسبة ٣٣,٣٣٪ كما يزيد عن ٧٥ ألف ليرة من الرباح سنوياً.

وقد أعيد طرح القضية على بساط البحث في العامين التاليين، ثم توصل التجار، بعد أخذ ورد مع الحكومة، وبعد عرض مشروع قانون الضريبة على المجلس النيابي، إلى عقد إتفاق مع الحكومة في ١ آب ١٩٤٤ م^(٢)، جاء في مادته الأولى أن يشمل قانون هذه الضريبة محافظتي بيروت وجبل لبنان فقط. واستثنى بقية المحافظات، وهذا مخالف لأحكام المادة ٨١ من الدستور اللبناني التي تفرض شمول الضريبة الأراضي اللبنانية كافة.

ونصت المادة الخامسة من هذا الاتفاق،

على أن تكلف الحكومة لجنة من كبار التجار^(٣)، تقوم بتقدير أرباح صغار التجار بدل أن تقوم هي بهذه المهمة. لذلك عادت الحكومة إلى تعديل مضمون ونسب هذا المرسوم، فأصدرت مرسومين آخرين لتعديلها هما المرسوم ٢٢٨٩ تاريخ ٢١/١١/١٩٤٤ م، لتعديل المرسوم ١٥٥٠/١١/١٩٤٢ م الصادر بتاريخ ١٥/١١/١٩٤٢ م المتعلق بكيفية تحصيل الضريبة فوق العادة على أرباح الحرب، ثم اتبعته بالمرسوم ٣٠٢١، بتاريخ ٦/٤/١٩٤٥ م لتعديل المرسوم ١٥٥٠ المشار إليه.

وحين تسلم سامي الصلح رئاسة الحكومة مجدداً بين آب ١٩٤٥ م وأيار ١٩٤٦ م، تمّت العودة في المجلس النيابي إلى مناقشة سير تحصيل هذه الضريبة. إذ درج التجار على التذرع إما بالإفلاس، أو بعدم مسكهم لدفاتر حسابية، وتبين في كانون الأول ١٩٤٥ م، أن وزارة المالية كانت تأمل تحصيل نحو ٤٠ مليون ليرة^(٤)، ولكن تجار بيروت دفعوا جزءاً مما فُرض عليهم، وماطلوا في تسديد بقية المبلغ (١ مليون ل

(١) الجريدة الرسمية، العدد ٤٠٤٢، ١١ تشرين الثاني، ١٩٤٢، ص. ١٠٤٩٧ - ١٠٥٠٤.

(٢) «مذكرات سامي الصلح بك الصلح»، مرجع سابق، ص. ٩٩ - ١٠٠.

(٣) من هؤلاء: فكتور فرنيني، خليل وانطوان صحنأوي، جوزف تمرز، ألفرد نصر رئيس جمعية تجار بيروت عمر الدعواق رئيس غرفة تجارة بيروت، الحج محمود بيضون، يوسف زبليط. . . النهار عدد ٢٠٧١، تاريخ ٦ تشرين الثاني ١٩٤٠، ص ٢، وعدد ٢٢٣٤، تاريخ ٢٥ حزيران ١٩٤١، ص ٢.

(٤) محاضر المجلس النيابي، جلسة ١٩ كانون الأول ١٩٤٥، ص ١٦٤، من مداخلة النائبين كمال جنبلاط وجورج عقل.

فقط). كما كانت الحكومة تقوم بتسويات جانبية مع الشركات، وفي كانون الثاني ١٩٤٦م، لم يزد ما دخل الخزينة منها عن ٨,٥ مليون ل، وكانت وزارة المالية تتابع تحصيل ١,٥ مليون ل. أخرى^(١).

٣- إقرار ضريبة الدخل في لبنان في ٤ كانون الأول ١٩٤٤م

بدأ العهد الاستقلالي منذ العام ١٩٤٤م بدراسة مشروع ضريبة على الدخل بدأ البحث بها لأول مرة في جلسة لمجلس الوزراء في ٩ كانون الأول ١٩٤٢م، لتحل محل ضريبة التمتع العثمانية الأصل، والمطبّقة في أرض الولاية منذ العام ١٩١٥م، وكانت تُستوفى على أساس المظاهر الخارجية للثروة، لا على أساس الأرباح الحقيقية. وقد نشرت الحكومة الاستقلالية الثانية قانون ضريبة الدخل من دون أن يحمل رقماً بتاريخ ٤ كانون الأول ١٩٤٤م، وهي ضريبة مباشرة، تشكل أساس ضرائب الإيرادات إلى جانب ضريبة الأراضي، وضريبة الأملاك المبنية المعروفة بالمسقفات: واشتمل قانون ضريبة الدخل على ٩١ مادة، طالت معظم وجوه النسب التصاعديّة للأنشطة الاقتصادية كافة.

وقد ورد في المادة الأولى منه أن كل شخص حقيقي أم معنوي شرعي يخضع لهذه الضريبة على أساس الأرباح التي حققها في لبنان. وتناولت الضريبة ثلاث شرائح بحسب الإنتاجية:

- إيرادات الرساميل المنقولة، أي إستغلال رأس المال من دون أن يُبذل في سبيله كدّ أو جهد جسدي.

- إيرادات وأرباح الأنشطة الاقتصادية، من زراعية وصناعية وتجارية، وهي إستغلال يشترك فيه رأس المال بالجهد البشري.

- إيراد كسب العمل، أي الرواتب والأجور والعلاوات ومعاشات التقاعد، وهو إستغلال ينفرد فيه الجهد والكّد وحدهما.

وقد ترتب على هذا التقسيم، أن معدل الضريبة اختلف باختلاف الشريحة، فقد شرح مقرر اللجنة المالية إميل لحود في المجلس النيابي قبل إصدار القانون^(٢)، أن نسب الضريبة على أصحاب الرواتب المحدودة تتراوح بين ٣ و٨٪، وعلى أرباب المهن غير التجارية بين ٣ و١٢٪، وعلى أرباب المهن التجارية بين ٤ و١٥٪، وعلى الرساميل المنقولة نسبة مقطوعة من ٧٪. بينما فصّلت المادة ٢٨، المعدّلة بموجب

(١) المرجع السابق، جلسة ٢٨ كانون الثاني ١٩٤٦، ص ٣٤٣، من مداخلة النائب كمال جنبلاط.

(٢) محاضر المجلس النيابي، المرجع نفسه، جلسة ١٦ تشرين الثاني ١٩٤٤، ص ٢١ - ٢٤.

ملحق العدد ٢٣ من الجريدة الرسمية الصادرة بتاريخ ٦ حزيران ١٩٤٥م، ضمن نشر قانون الموازنة للعام نفسه، ميزت نسب الضريبة بحسب المهنة إذا كانت تجارية وصناعية، أم مهناً غير تجارية، فتراوحت نسب المهنة الأولى بين ٥ و ٣٠٪ ونسب الثانية بين ٥ و ٢٥٪، وُعدلت هذه النسب بموجب قانون ٢٢ كانون الثاني ١٩٥١م، فرفعت سقف النسب إلى ٤٢٪ و ٣٧٪ بالتالي.

أما نسب الضريبة على الأجور والرواتب، فقد حددتها المادة ٣٥ المعدلة بتاريخ ٦ حزيران ١٩٤٥م، وتراوحت بين ٢٪ عن الواردات الصافية للدخل الذي لا يتجاوز ٤٨٠٠ ل سنوياً، و ٣٪ لما يزيد عن ٤٨٠٠ ولا يتجاوز ٨٤٠٠ ليرة، و ٤٪ عما يتجاوز ٨٤٠٠ ليرة، و ٥٪ على الرواتب بين ١٢ و ٢٤ ألف ل، و ٦٪ على الرواتب دون الـ ٣٦ ألف ل، و ٨٪ حتى ٤٨ ألف ل و ١٠٪ على المداخل التي تزيد عن ٤٨ ألف ل.

وكان من الطبيعي أن تواجه وزارة المالية تحدياً كبيراً، لجهة فرز مستويات أصحاب المداخل، وإعداد جداول إحصائية بهم، وسرعان ما تبين لوزارة المالية، أن بعض التجار وأرباب المهنة، لا يتقيدون

بنصوص المواد ٢٠ و ٤٦ و ٧٢ من قانون الضريبة^(١)، والقاضية بضرورة مسك دفاتر حسابات تفصيلية لعمليات مؤسستهم، لجهة قيد المقبوض والمصروف ضمن دفتر اليومية، دفتر صور الرسائل، دفتر الجرد والموازنة مرة بالسنة، كما تبين لمراقبي ضريبة الدخل إحداث حشو على مضامين هذه الدفاتر، إلى جانب حك بعضها، في عملية تزوير للقيود.

والواضح أن لبنان جاء متأخراً عن جيرانه في تطبيق هذه الضريبة بدءاً من العام ١٩٤٥م، لأن العراق ومصر وسوريا وفلسطين قد سبقته في هذا المضمار. وقد اشتكى الرئيس سامي الصلح في جلسة مجلس النواب المنعقدة بتاريخ ١٦ تشرين الثاني ١٩٤٤م، من أن ليس لوزارة المالية الأجهزة المتخصصة في العلم المالي، للقيام بإحصاءات دقيقة، وحسابات أرباح المؤسسات والمهنة والرساميل. وكشف أن في لبنان ١,٠٤٧,٧٤٥ مليون نسمة بين لبنانيين وأجانب، يُخرَج من هذا العدد تسعة أعشار السكان كغير منتجين. ولذلك فالضريبة ستشمل ١٨٩٩٠ تاجراً و ٢٥٦٨٩ مزارعاً و ٢١٩٤٩ ملاكاً و ٩٢٧٥ مستخدماً، و ٢٥٠٤٥ موظفاً، و ١٣٣٠ طبيباً و ٥٦٧ محامياً، و ٥٠٣ مهندسين، أي ما

(١) بلاغ من وزارة المالية، نشر في العدد ٢٨، تاريخ ١١ تموز ١٩٤٥، من الجريدة الرسمية، ص ٥١٨.

مجموعه ١١٣,٣٤٨ مُكَلَّفًا^(١). كان عليهم تقديم إيرادات موازنة العام نفسه المحققة ومقدارها ٣٧,٨٨٣ مليون ل، منها تقريباً ٢٢ مليون ليرة ضرائب غير مباشرة^(٢)، بحيث يصيب المكلف اللبناني نحو ٣٣٤ ل. كضرائب سنوية.

وقد درج النواب اللبنانيون في العهد الاستقلالي الأول على دفع الحكومات باتجاه زيادة استثمار موارد لبنان الزراعية، بهدف رفع صادراته منها، مع تشجيع الإنتاج الصناعي، بهدف تحقيق نمو محسوس، على أنهم اعتبروا أن هذه الضريبة هي إصلاح مالي بحد ذاتها، يضع البلاد على المسيرة الضريبية الصحيحة. وقد تطورت إيرادات ضريبة الدخل والمكلفين بأدائها وفق الجدول الآتي^(٣):

جدول رقم ١- تطور إيراد ضريبة الدخل ١٩٤٦ - ١٩٤٩ ل.ل.

سنة التكلفة	عدد المكلفين	مقدار الضريبة
١٩٤٦	٦٠,٠٠٠	٤,٧٠٠,٠٠٠
١٩٤٧	٧٠,٠٠٠	٧,٢٧٣,٠٠٠
١٩٤٨	٧٩,٠٠٠	١٠,٢٨٩,٠٠٠
١٩٤٩	٨٢,٠٠٠	١٢,١٩٦,٠٠٠

على أن الضريبة طبقت عام ١٩٤٥ م جزئياً على أصحاب الرواتب والأجور

والمؤسسات التي يمسك أصحابها دفاتر القيد أي نحو نصف المكلفين فقط.

٤- مساوئ السلوك المالي للحكومات الإستقلالية الأولى

أ - سياسة الدولة - التاجر:

لقد لجأت الحكومة اللبنانية في مطلع العهد الاستقلالي عبر وزارة التموين، إلى تدبير جديد من نوعه في الأنظمة الاقتصادية، هو اقتطاع نسبة مئوية من البضائع المستوردة، تدفع ثمنها للتجار بسعر الكلفة، على أن تكون نسبة الاقتطاع ٤٠٪ من البضاعة، بموجب القرار ٧٧٢، تاريخ ٢٩ ك ٢١٩٤٤ م. الذي يسمح لوزير التموين بوضع اليد على هذه النسبة من المواد الغذائية وكل البضائع الموجودة في الجمارك، وحددت نسبة أرباح التجار بـ ١٠ و ٢٠ و ٣٥٪ حسب منشأ البضائع، إذا وردت من الدول العربية القريبة أو من انكلترا والولايات المتحدة. وقد دفع تقييد الإستيراد هذا بالتجار إلى التذمر، على أنهم باعوا ما تبقى لهم من الكميات بأسعار مرتفعة، لكي يتمكنوا من تسديد الرسوم الجمركية المفروضة عليهم، والتي بلغت

(١) محضر المجلس النيابي، جلسة ١٦ تشرين الثاني ١٩٤٤، صص ٣٤ - ٣٧.

(٢) المرجع نفسه، جلسة ١٠ كانون الثاني ١٩٤٦، صص ٢٧٤ - ٢٧٥، قطع حساب موازنة العام ١٩٤٤.

(٣) محاضرات الندوة اللبنانية: السنة الرابعة، ٢٥ نوار ١٩٥٠، محاضرة أندره تويني: «الموازنة ونظام الضرائب في لبنان»، ص ٩٤.

نحو ٦٠٪ من ثمن البضاعة في العامين ١٩٤٤ و ١٩٤٥م، منها ٣٠٪ رسوم جمركية و ٣٠٪ أخرى لوزارة المالية، فإذا أضيف إليها نسبة ٤٠٪ أرباحاً، يصبح ثمن البضاعة مضاعفاً^(١).

وتفاقت المشكلة حين قامت الدولة، وبشكل دائم، برفع أسعار المواد التي تتاجر بها كسباً للربح، ما تسبب بمستوى أسعار ملتهب دائماً في الأسواق، لا سيما أسعار السلع المستوردة. ولم تقصّر المنتجات المحلية عن اللحاق بأسعار المستوردة، فارتفعت بالتالي أسعارها ولا سيما الخضار والفاكهة واللحوم والحليب واللبن والسمن...

كذلك عمدت الدولة إلى رفع الرسوم على المواد الاستهلاكية، فشهدت البلاد بين آذار وحزيران ١٩٤٤ م طفرة رسوم جديدة، فرفعت الرسوم على الأغنام بنسبة ٥٠ - ٦٠٪ في حين كانت تكافح ارتفاع أسعار اللحوم، ما رفع سعر أوقية اللحم إلى ١٢٠ غرشاً في شباط^(٢)، كما رفعت الرسوم على المسكرات، ثم على الترابية من ليرتين إلى ١٠ ليرات على الطن، ابتداء من

١٥ آذار ١٩٤٤م، ما رفع سعر الترابية بنسبة ٩,٣٥٪^(٣)، ثم زيدت الرسوم على رسائل البريد، وعلى المعاملات القضائية والمعاملات العقارية ورخص حمل سلاح الصيد وأجهزة الراديو، ثم رسوم الكبريت والقداحات... في حين أن الدولة لم تحزم أمرها بمسألة ضريبة أرباح الحرب الاستثنائية، وبلغت ضرائبها غير المباشرة ما نسبته ٨٣٪^(٤) خلال العام ١٩٤٤م، ونسجت على هذا المنوال حتى الخمسينات. وهذه الضرائب تطال الطبقات الفقيرة، أو الموسرة والفقيرة على حد سواء، لأنها تصيب المواطن بحسب استهلاكه لا بحسب إيراده وثروته. ولئن أقرت الحكومة ضريبة الدخل بقانون ٤ ك، سنة ١٩٤٤م فإن تطبيقها تأخر للعام ١٩٤٥م فأصاب شريحة من المواطنين، ولم تُجَبَ بشكل عام إلا منذ العام ١٩٤٦م.

لقد تاجرت الدولة بشتى أنواع البضائع، وبعد أن دُمجت وزارتا التموين والتجارة والصناعة بوزارة واحدة، هي وزارة الإقتصاد الوطني والتموين في مطلع أيار ١٩٤٤م، لم تتغير سياسة الدولة

(١) محاضر المجلس النيابي، جلسة ٥ ك ١٩٤٥، سؤال للنائب جورج عقل.

(٢) النهار عدد ٢٨٤٢، الخميس ١٧ شباط ١٩٤٤.

(٣) النهار عدد ٢٨٨٩، الثلاثاء ٢٦ نيسان ١٩٤٤، ارتفع سعر الطن من ٨٥,٥ ل. إلى ٩٣,٥ ل. تسليم شكا، أي بدون

أجرة النقل ولا ربح المفرق، مما يرفع سعره إلى مستوى ١١٠ ل. وأكثر.

(٤) جريدة النهار، عدد ٢٨٧١، الثلاثاء ٢٩ آذار ١٩٤٤، من كلمة النائب يوسف سالم في المجلس النيابي.

بضائعها، ثم قررت في أيار نقلها من الجمرک إلى مخازن تجار اتفقت معهم على بيع البضائع لحسابها، مقابل عمولة ٧٪^(٤).

ووصل الأمر بالحكومة إلى حدّ المتاجرة باللحوم ففي مبادرة منها لتخفيض سعر اللحوم في مطلع آذار ١٩٤٥م، قررت وزارة التموين أن تستورد بنفسها الماشية المعدة للذبح، على أن تسعر الأوقية بـ ٧٥ غ، ثم ما لبثت أن سعرتها بـ ١٠٠ و ١١٠ غ، على الرغم من أن نقابة القصابين عرضت على الوزارة أن تباع الأوقية بـ ١٠٠ غ^(٥).

إن أصدق تعبير لهذا النهج الاقتصادي هو انتقاد وزير المالية حميد فرنجية لسياسة الحكومة، أو وزارة التموين، حين وصفها بأنها كانت تتصرف على طريقة التاجر «غير البصير»، لأنها لم تضبط حساباتها بموجب موازنة، وبدل تنزيل ١٥٪ من سعر القمح منذ ت ٢ ١٩٤٤م، مزجت القمح بحبوب أرخص، واستخرجت الميرة من القمح المطحون طحين الزيرو الذي باعته للمستشفيات والفنادق ومصانع الحلويات بأسعار مرتفعة ما خفّف من

الاقتصادية، فقد تاجرت وزارة التموين بالتمور من العراق، والحديد والصابون ودواليب الكاوتشوك التي وضعت تحت التوزيع المراقب لندرته وارتفاع أسعارها، وحتى الشاي صار يوزع إعاشة^(١)، ثم وسّعت الوزارة نشاطها إلى «الجبن» في شهر ت ١، فقررت مصادرة ٧٥٪ من كميات الجبن المودعة في مستودعات شركة التبريد، وجعلته في عداد المواد الخاضعة للتوزيع المراقب^(٢)، ثم ما لبثت أن سعّرت في العام ١٩٤٥م الآلات والمعدات الزراعية المستوردة كالمحاريث والحصادات وآلات توزيع السماد، وسيارات الشحن ماركة فورد وانتروناشيونال، وما لبث أن تبين أن تسعير الأخيرة كان مرتفعاً، فقد حددت وزارة التموين سعر الشاحنة بـ ٨ آلاف ل.، على الرغم من أنها كلفت ٥,٣٣ آلاف ل. فقط وذلك لتغطية خسارتها^(٣). وحين بدأت الدولة، عبر وزارة التموين، بمصادرة ٤٠٪ من البضائع الواردة، منذ شباط ١٩٤٤م، راحت تكدّس هذه البضائع في عنابر الجمرک. وبين آذار ونيسان ١٩٤٤م لم تكن وزارة التموين قد قررت كيفية بيع

(١) جريدة النهار عدد ٣٠٣٤، الخميس ١١ ك ١٩٤٥. (٢) جريدة النهار عدد ٢٩٨٧، الأحد ١٣ ت ١٩٤٤.

(٣) النهار العددان: ٣١٦٨ سبت وأحد ٢٨ و ٢٩ تموز ١٩٤٥، و ٣١٧٢، سبت وأحد ٤ و ٥ آب ١٩٤٥.

(٤) النهار أعداد: ٢٨٦٣ بتاريخ ١٧ آذار ١٩٤٤، و ٢٨٦٧ (٢٣ آذار) و ٢٨٧٤ (١ نيسان) و ٢٨٨٥ (٢٠ منه) و ٢٩٠٥ (١٩ آذار ١٩٤٤).

(٥) النهار عدد ٣٠٧١، سبت وأحد ٣ و ٤ آذار ١٩٤٥.

خسائرها، وبدل أن تخفض الوزارة سعر السكر، أبقتة مرتفعاً إذ لا مبرر للتخفيض، فلا يعقل أن يُباع السكر بأرخص من أسعار الدقيق!، «كما لا يُعقل أن يُباع في لبنان بأرخص مما يُباع في دمشق...»^(١) وكانت مصلحة الميرة ووزارة التموين قد حققتا ربحاً مقداره ١,٢ مليون ليرة من طحين الزيرو^(٢)، حين قررنا إعطاء معامل صنع الحلويات دقيقاً زيرو بنسبة ٩٠٪ وبسعر لا يزيد عن ٦٠ غ. ولهذا السبب بيع كيلو السكر في ت ٢ ١٩٤٤ م ب ٢٥٠ غ، بعدما كان يُباع ب ١٨٠ غ^(٣).

أما عن مسألة إرتفاع الأسعار وازدياد كلفة المعيشة، فقد انتقد النائب عبدالله اليافي عام ١٩٤٦ م تصرف الحكومة غير المقبول متهماً إياها أنها قصّرت تقصيراً كبيراً في معالجة الغلاء عام ١٩٤٥ م، «أن نصّبت نفسها تاجراً تبيع وتشترى لا كي تنزل الأسعار وتحّد من موجات الغلاء، بل لكي تربح، وتربح كثيراً لسد العجز في بعض نواحي الموازنة، وهذا سبب من أسباب الغلاء الرئيسية، فلقد تاجرت الحكومة بالقمح والأرز والسكر والثياب العتيقة والورق، فأصبحت تساهم بالغلاء مساهمة

فعالة، واهتمت بالأرباح أكثر من اهتمامها بالمستهلكين، فكيف تريدون مع هذا ألا تكون اليد العاملة غالية؟ إن سبب غلاء أجور اليد العاملة هو غلاء المواد الغذائية وفي طليعتها القمح. وقد أضاعت الحكومة فرصة سنحت لها لتنزيل الأسعار عندما انتهت الحرب في أواخر آب ١٩٤٥ م، فكان من واجبها بعد النزول المحسوس للأسعار حقبة من الزمن، أن تنقل الموقف لاستمرار الهبوط بإحداثها الصدمة السيكولوجية في تنزيلها أسعار القمح والسكر والأرز، وفي تخفيض بعض الرسوم، فلو فعلت ذلك لكان أدى عملها إلى تخفيض الأسعار، أو على الأقل استقرارها في المستوى المعقول. لكنها تركت الفرصة تمرّ، فعادت الأسعار إلى الارتفاع ارتفاعاً جنونياً...»^(٤).

وفي أواخر العام ١٩٤٤ م ومنتصف العام ١٩٤٥ م، تدخلت الدولة في شأن صناعة الغزل والنسيج لتأمين كسوة الفقير، وقد حققت تأمين الكساء للفقراء بأسعار معقولة، ولكنها سمحت بالمقابل للمعامل بجني ثروات طائلة:

لقد عرفت أسعار الأقمشة المستوردة هبوطاً وصعوداً تبعاً للظروف العالمية: ففي

(١) محاضر المجلس النيابي، جلسة ٦ ك ١٩٤٤، من كلام وزير المالية حميد فرنجية صص ٩٨ - ١٠٠.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) جريدة النهار عدد ٢٩٧٧، الأربعاء ٢٨ أيلول ١٩٤٤.

(٤) محاضر المجلس النيابي، جلسة ٣ ك ١٩٤٦، كلمة النائب عبدالله اليافي ص ١٥٣.

نيسان ١٩٤٤م هبطت الأسعار على أثر إشاعات عن قرب انتهاء الحرب بين اليابان وروسيا، فهبط ثوب الخام من ٧٤ل. إلى ٦٠ل^(١). أي بتراجع مقداره ١٩٪، كما هبطت ربطة الغزل من ٦٩ ليرة إلى ٤٧ل، بانخفاض مقداره ٣٢٪، وما لبثت الأسعار أن عادت إلى مستواها الأول بعد بطلان صحة هذه الإشاعات. ثم ما لبثت الحكومة أن قامت بمصادرة الغزول الصوفية الواردة من انكلترا لحساب أحد التجار، على أن تقوم وزارة التموين بتوزيعها على معامل النسيج، لتبيعها ببطاقات على أساس التقنين^(٢).

وما لبثت الأقمشة أن عرفت ارتفاعاً مهماً في الأسعار بعد عملية المصادرة، ففي أيلول ١٩٤٤م، ارتفع ثوب الخام من ٤٥ل. إلى ٦١ل. ثم إلى ٦٩ل.، ثم ما لبث أن قفز في الأسبوع الأول من ت١ إلى ١٠٠ل.، وفي ت٢ تضاعفت الأسعار، فقفزت ربطة الغزل من ٨٠ل. إلى ١٦٠ل.، وثوب الحرير من ٨٥ل إلى ١٦٨ل.، وثوب الخام من ٨٠ل. إلى ١١٠ل^(٣).، وتبين أنه ليس المهم مصادرة الغزول، بل نسج الأقمشة للفقراء. وإثر قرار الدولة بتأمين الكساء للفقراء،

خلال اجتماع للحكومة في القصر الرئاسي في أول ت٢ ١٩٤٤م، ودرس مسألة تسليم المعامل لمصلحة الإعاشة أنسجة وأقمشة بأسعار معقولة، تبين أن بعض هذه المعامل أخلت بعودها لوزارة التموين، بعد أن سلّمت هذه نحو ٤٠٠ طن من الغزول القطنية للمعامل. وبالمقابل استملت وزارة التموين ١٢٠٠ بالة غزل من معمل عريضة و ٨٠٠ بالة من معمل عسيلي، وتبين أن وزارة التموين قد باعت المعامل الربطة بسعر ١٧ل.، فصنعت هذه منها ٤٠ متراً من النسيج باعوها بسعر ١٢٠ل. وبنتيجة البحث تبين، أن المعامل لم تسلم الوزارة سوى ١٠٥ أطنان فقط^(٤)، وهذه إحدى فضائح سلوك حكومات العهد الاستقلالي.

فوقع خلاف بين وزارة التموين والمعامل اللبنانية، وبهذه الطريقة أثرى بعض تجار الأقمشة وأصحاب المعامل إثراء فاحشاً، تحت نظر الحكومة وسمعها. ومما أثار حنق المواطنين أنهم اشتروا متر الخام ب ٤ ليرات، ومتر الدولس بسعر ٨ ليرات، وهذه الأسعار هي عشرة أضعاف كلفتها على حد قول النائب سعدي المنلا^(٥).

(١) جريدة النهار، عدد ٢٨٨٨، الإثنين ٢٥ نيسان ١٩٤٤. (٢) النهار عدد ٢٩٥٤، الثلاثاء ٩ آب ١٩٤٤.

(٣) النهار عدد ٢٠٠٣ الأربعاء ٨ ت٢ ١٩٤٤.

(٤) محاضر المجلس النيابي، جلسة ١٠ آذار ١٩٤٥، سؤال أمين السعد للحكومة، وهذا مثال على فساد الإدارة، وسيطرة المحسوبيات السياسية على المقدرات الاقتصادية للبلاد ص ١٧٨.

(٥) محاضر المجلس النيابي، جلسة ٢٠ لك٢ ١٩٤٥، وقد أشار المنلا إلى أن الكوتا قد حُصرت بفئة معينة محكرة «الكل يحكي عنها دون تسميتها» ص ١٤٢.

مجموع التكاليف العام إلى نحو ٥٠٠ ليرة في السنة^(٢)، أي ما يوازي أجرة ١٠٠ يوم عمل في السنة. كما انتقد طريقة الجباية والإنفاق أكثر من مرة، وبشكل خاص في العام ١٩٤٧م، فشرح للمجلس النيابي أن موازنة العام ١٩٤٧م، التي بلغت نحو ٥٨ مليون ل.، أنفق منها ٣٦ مليون ل. كرواتب موظفين، و٢٢ مليون ل. نفقات إدارية، بحيث ارتفعت حصة الرواتب والأجور من نسبة ٢٢٪ عام ١٩٤٥م، إلى ٥٣٪ عام ١٩٤٦م، وحصة النفقات الإدارية ارتفعت من ٢٢٪ أيضاً إلى نسبة ٤١٪ في العام ١٩٤٦م، فأين أنفقت الدولة على المشاريع الإنشائية؟

في العام ١٩٤٥م، صدر قانون في شهر تموز^(٣) بفتح اعتمادات إضافية في الصندوق المستقل للأشغال الإنشائية المُحدث بموجب القانون الصادر بتاريخ ٥ نيسان ١٩٤٤م، بقيمة ٩٥٠ ألف ل. لتنفيذ مشاريع ري وتجفيف، موزعة كالاتي: لمحافظة الجنوب ٦٥٠ ألف ل. لري سهل صور وصيدا، للبقاع ٢٠٠ ألف ل. منها ١٠٠ ألف لمشروع اليمونة و ١٠٠ ألف أخرى لتجفيف البقاع الغربي، ولحق جبل

لذلك حين تعذر الوصول إلى تفاهم بين أصحاب المعامل ووزارة التموين، لجأت الوزارة إلى مصادرة المعامل مع الآلات ورؤساء السورس في ٩ آذار ١٩٤٥م، وأرسلت نفراً من الدرك لاحتلال هذه المعامل ثم أخرجتهم منها، فما لبث أصحاب المعامل أن قبلوا بشروط الحكومة، بأنّ سلّموها كمية ٥٠ ألف يرد بسعر ١٨٥ غرشاً لليرد الواحد، بينما باعت وزارة التموين هذه الأقمشة الشعبية منذ ٦ نيسان ١٩٤٥م بسعر ٢٨٥ غرشاً لليرد، وبموجب قسيمة إعاشة^(١).

ب - فداحة تكليف المواطن اللبناني:

لقد تميّز النائبان سامي الصلح وكمال جنبلاط بملاحقتهما أغلب فضائح حكومات الاستقلال الأولى، فالرئيس سامي الصلح ركّز على فداحة تكليف المكلف اللبناني أكثر من مرة، وانتقده مراراً. وبشكل خاص خلال دراسة مشروع موازنة العام ١٩٤٧م، وأشار إلى أنه مع إيرادات ضريبية تصل إلى ٦٠ مليون ليرة، فإنه يلحق كل مكلف لبناني ٢٤٠ ل. في السنة، يُضاف إليها ١٧٥ ل. رسوماً بلدية، و ٨٠ ل. حصته من رسوم الجمارك، بحيث يصل

(١) جريدة النهار - عدد ٣٠٨٤، الخميس ٢٢ آذار ١٩٤٥.

(٢) شغل الصلح منصب رئاسة الحكومة بين آب ١٩٤٥ و أيار ١٩٤٦ في العهد الاستقلالي الأول، بينما شغل كمال جنبلاط منصب وزير الاقتصاد بين ١٤ ك ١٩٤٦ و ٧ حزيران ١٩٤٧.

(٣) الجريدة الرسمية العدد ٢٨، ١١ تموز ١٩٤٥، ص ٥٠٢.

الرسوم البلدية التي يدفعها المواطنون نصل إلى موازنة تتراوح بين ١٠٠ و ١٢٠ مليون ليرة سنوياً. «لذا نحن نعيش ونرتجل، وإلا لو علمنا ما هي مواردنا لما قبلنا أن تصبح الموازنة ١٠٠ مليون ليرة، ونحن عالمون أن هذه الحالة تذهب بنا إلى الإفلاس، بينما يجب أن نتبع المثل القائل «على قدّ بساطك مدّ رجلك»^(٢).

كذلك في ايلول ١٩٤٧م، فتح اعتماد آخر للصندوق المستقل للأشغال الإنشائية بقيمة ٢,٥ مليون ل^(٣). وذلك لتنفيذ مشاريعي ريّ في الجنوب، وألحق بموازنة العام ١٩٤٨ م فُتح اعتماد من خارج الموازنة بقيمة ١٠ ملايين ل. للمشروع الإنشائي^(٤)، أضيف إليه ديون الدولة المستحقة للبنك السوري ولبنك التسليف الزراعي وقيمتها ٣٠ مليون ل.، فقُفرت الموازنة حسابياً من ٦٧ مليوناً إلى نحو ١١٠ ملايين ليرة، وتساءل النائب حبيب ابي شهلا عن انعدام السياسة المالية والاقتصادية للحكومات، وكيف تتفق إيرادات مالية بهذا الحجم مع مليون لبناني، بينهم نحو ١٠٠ ألف مكلف؟

لبنان مبلغ ١٠٠ ألف ليرة لجرّ وتوزيع مياه نبع العسل. ولكن بعد مرور ثلاثة أعوام، وقف بعض النواب منتقداً سلوك الحكومة، فتساءل النائب نصّار غلمية عن مشاريع الري والتجفيف في البلاد لتنشيط الزراعة، بينما انتقد النائب رفعت قزوعون عمل وزارة الأشغال العامة التي وعدت بتجفيف ٢٠ ألف دونم من الأراضي الصالحة للزراعة في البقاع الغربي، ولكن حتى تاريخه لم يتحقق شيء، على الرغم من أنه رُصدت الأموال لهذه الأعمال، فبقيت وعودها حبراً على ورق^(١).

إن هذا القانون هو مثال على فتح الاعتمادات المالية من خارج الموازنة، ما يزيد العبء الضريبي على المواطن، وقد درج النائب حبيب أبي شهلا على انتقاد الحكومة في سلوكها المالي، بفتح الاعتمادات من خارج الموازنة، وهي كلها من الإيرادات الضريبية التي سيدفعها المكلفون، ففي موازنة العام ١٩٤٦م، أشار إلى أن الموازنة هي بحدود ٦٠ مليون ليرة، يلحقها اعتماد من ١٨ مليون ليرة للمشروع الإنشائي، فإذا أضيف إلى هذه الموازنة

(١) محاضر المجلس النيابي، جلسة ١ آذار ١٩٤٨، ص ٥٨٢.

(٢) محاضر المجلس النيابي، جلسة ١٨ ك ١٩٤٥ ص ١٤٩ من انتقاد عبدالله اليافي للتوازن الموهوم للموازنة ومخالفة قانون الموازنة.

(٣) محاضر المجلس النيابي، جلسة ٣٠ أيلول ١٩٤٧، ص ٩٦.

(٤) محاضر المجلس النيابي، جلسة ١٥ آذار ١٩٤٨، ص. ص ٦٩٨ - ٦٩٩.

وزاد الطين بلة عدم فعالية الإنفاق الحكومي، فضريبة «غرش الفقير» أقرها الوزير ألفرد نقاش في العام ١٩٤٢م^(١)، وهي تقضي بزيادة غرش واحد على ثمن كل كيلو حبوب من الإعاشة، تُجمع في صندوق خاص لإغاثة الفقراء، وتبين أن هذه الضريبة جمعت في ٣ سنوات نحو ٣ ملايين ل. وراح النواب يطالبون الحكومة بشرح كيفية توزيع هذه الأموال، التي لم ينل أي فقير حصة منها^(٢).

كذلك خلال العام ١٩٤٨م، وإثر الحوادث في فلسطين، طلب الرئيس بشارة الخوري في ٢٢ نيسان إقرار مشروع قانون بإحداث ضريبة خاصة بفلسطين، فوافق رياض الصلح على طلبه، وأقر المجلس النيابي هذه الضريبة بإضافة نسبة ٥٪ على ضريبة الدخل المتوجبة على أرباب المهن، مع ٥ ليرات رسماً عن كل طن ترابطة مباع، وزيادة رسم من غرشين عن كل كيلو من مواد الإعاشة، من حبوب وطحين وسكر وأرز. وطابع بريدي من ٥ غروش على المراسلات البريدية، بدءاً من أول أيار ١٩٤٨م^(٣).

أما النائب كمال جنبلاط فقد ركّز على مفاسد إدارة الحكومة، لا سيما بعد أن

شارك في الحكم كوزير إقتصاد في النصف الأول من العام ١٩٤٧م، فكشف فضائح تهريب الترابطة إلى سوريا، والمشروع الإنشائي هو عبارة عن ٣ مشاريع إنمائية اقتصرت على شق وتعبيد الطرقات، وتجميل مداخل والمدن الرئيسية في لبنان، نفذ منها البعض تدريجياً. وكيفية مساومة التجار للحكومة لتأدية ممّا عليهم من الضريبة الاستثنائية على أرباح الحرب، وكيفية نيل القروض من بنك التسليف الزراعي التي نالها المحظوظون وبعض النواب بعشرات ومئات آلاف الليرات، مقابل رهن أراضٍ بخسة لا تساوي عشر المبلغ، ففتحت الحكومة بأمرها تحقيقاً قضائياً، ولكن؟

كما كشف فضيحة الزيوت التي أشترتها الحكومة عام ١٩٤٣م، بحسب تقرير شركة «رسل» بمبلغ ١,٤ مليون ل. وأودعتها في مستودعات بعض المعامل في بيروت، وأصحابها باتوا معروفين: جبر، قماطي وبوليكرينوس، فتصرّف هؤلاء بالزيوت ولم يدفعوا شيئاً من ثمنها للدولة، وبقيت وزارة الإقتصاد على خلاف معهم حتى العام ١٩٤٦م، إلى أن أصبح هو وزيراً للإقتصاد، فضغط عليهم ومنع عنهم النقد النادر حتى أجبرهم على قبول تحكيم لجنة خبراء في

(١) المرجع السابق، جلسات ٨ تموز و ١٠ آب و ١٧ آب ١٩٤٦، ص. ٧٤٣ و ٧٧٠ - ٧٧١ و ٧٨٠.

(٢) محاضر المجلس النيابي، جلسة ٣٠ تموز ١٩٤٤، في سؤال النائب أمين السعد إلى الحكومة، ص ٦٩.

(٣) المرجع نفسه، جلسة ٢٨ نيسان ١٩٤٨، صص ٨٠٨ - ٨٠٩.

الموضوع، فحكم هؤلاء على التجار بإرجاع المبلغ ١,٤ مليون ل. للدولة، ولكن في صيف ١٩٤٧م أجريت تسوية بين الحكومة وهؤلاء، دفعوا بموجبها ٤٠٠ ألف ليرة، وطارت المليون الباقية^(١).

هذا غيض من فيض، إذ لا يكفي المواطن ترجيح قيمة نقده بعد الاستقلال، وازدياد الأعباء الضريبية عليه، حتى ضجّت أوساط العهد الاستقلالي بمفاسد الإدارة، لجهة المحسوبيات وحشر الموظفين وعقد التسويات مع متجاوزي القانون، واعتماد نظام موازنة حسابية يتساوى فيها الإيرادات والإنفاق، لكن الإنفاق اقتصر على الرواتب والأجور والمصاريف الإدارية، وجُمّد الفائض من الموازنة من دون إنفاقه في سبيل تنمية مقدرات الاقتصاد اللبناني.

ج - الموازنة اللبنانية: أداة حسابية ناقصة:

لقد دأب كبار خبراء الشؤون النقدية والمالية العامة اللبنانية، مثل سعيد حماده، جوزف نجار، اندره تويني، جوزف أوغورليان وجوزف شادر، في الأربعينات من القرن العشرين، على لفت نظر المسؤولين اللبنانيين إلى ضرورة وضع

سياسة مالية وضرائبية للبنان، عبر الموازنة، التي اعتبرت «بيت من زجاج تُرى من خلاله نشاطات السلطة الحاكمة»^(٢)، لكن الموازنة اللبنانية ظلت طيلة الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين تتسم بالطابع المالي الحسابي، من دون أن يكون لها أهداف اجتماعية أو اقتصادية طويلة الأمد، على الرغم من أن وظائف الدولة نمت باضطراد متزايد، ما جعل الحاجة ماسة إلى زيادة الواردات، من دون أن تلاحظ الموازنة إنفاقاً مجدياً لتنمية إقتصادية فعالة.

وقد عانت الموازنة اللبنانية من نواقص عدة هي:

● تشتت الموازنة في مستندات وموازنات مستقلة عدة، خلافاً لمبدأ وحدة الموازنة، فإذا نظرنا إلى الموازنة الأولى لعام ما بعد انتهاء الحرب، أي العام ١٩٤٦م، أظهر مقرر اللجنة المالية النيابية^(٣)، أنه يوجد إلى جانب الموازنة «العامة»، موازنات متعددة لا تخضع عملياً لمراقبة ومحاسبة المجلس النيابي، منها: موازنة المصالح المشتركة بين سوريا ولبنان موازنة وزارة التموين والإعاشة، موازنة مجلس الميرة، موازنة مديرية

(١) محاضر المجلس النيابي، جلسة ٣ شباط ١٩٤٩، ص ٩٤.

(٢) حطّار شبلي، محاضرة بعنوان «الموازنة أداة توجيه»، محاضرات الندوة اللبنانية، السنة ١٧، سنة ١٩٦٣، ص ٢٠، وهو رئيس مصلحة الموازنة ومراقبة النفقات عام ١٩٦٢.

(٣) هو النائب فيليب تقلا، انظر محاضر المجلس النيابي، جلسة ١١ ك١ ١٩٤٥، ص ١١١.

على فصولها، بحيث تُصرف الموازنة على الرواتب والأجور ونفقات السفر، والاحتفالات، والاستقبالات والمؤتمرات... ولا يبقى منها إلا النزر اليسير لتنفيذ أشغال إنمائية منتجة، هذا إذا نُفِّذت، لأنَّ العادة جرت بعدم صرف هذه المبالغ وتجميدها في حساب فائض جانبي، على الشكل الآتي^(٤):

جدول رقم ٢ - تطور أبواب الموازنة اللبنانية بين ١٩٤٤ و ١٩٤٩ بملايين ل.ل.

السنة	الإيرادات	النفقات	الوفر
١٩٤٤	٣٧,٧٤١	٢٧,٦٦٧	١٠,٠٧٤
١٩٤٥	٥٥,٢٣٢	٣٥,٩٢١	١٩,٣١١
١٩٤٦	٧٣,٩١٦	٥١,٩٩٤	٢١,٩٢٢
١٩٤٧	٨٥,٩٨٨	٦٠,٧٢٢	٢٥,٢٦٦
١٩٤٨	٧٨,٧٥٥	٧٠,٠٦٨	٨,٦٨٧
١٩٤٩	٨٧,٣٦٧	٨٣,٤٠٢	٣,٩٦٥

وبهذا الشكل تكوّن لدى الخزينة اللبنانية «وفر» في الإنفاق، مقداره ٨٩,٢٢٥ مليون ليرة ل. في ٦ سنوات فقط. في حين لم يكن بالإمكان معرفة ما تم إنفاقه على المشاريع الإنمائية في هذه المرحلة، التي حُجزت لها اعتمادات وصلت إلى أكثر من ٣٠ مليون ل. لتجميل مداخل المدن الكبرى، وشق الطرق وتزفيتتها...

اليانصيب الوطني، موازنة الصندوق المستقل للمشاريع الإنشائية، موازنة المخازن التعاونية... وتعدّد حسابات الدولة هذا يُغرق الأوضاع المالية في الاضطراب والفوضى، وقد طلب النائب فيليب تقلا، وهو مقرر اللجنة، إلغاء المخازن وغالبية هذه الدوائر لأنها أصبحت «ملجأ لطلاب الوظائف الراغبين في التعيش على حساب الدولة، ولأن التوظيف فيها سهل، فلا شروط لدخولها ولا رقابة جديّة على حساباتها، ولا نظام عمل لها...

● سوء التحضير للحسابات، وسوء تقدير الواردات والنفقات معاً^(١)، إذ تبيّن بعد مراجعة محاضر المجلس النيابي، أن غالبية الموازنات لم يُحسن تحديدها، فبين الموازنة المقرّرة والموازنة المحقّقة لدى قطع حسابها بون شاسع. وهذا مثال على ذلك: فموازنة العام ١٩٤٥ م، قُدّرت وارداتها بـ ٤٦ مليون ليرة^(٢)، بينما ارتفعت الإيرادات المجببة إلى ٥٩ مليون ل. بعد قطع حسابها في ك ١٩٤٧ م أي بزيادة ٢٨,٢٪^(٣).

● طغيان النفقات الإدارية غير المنتجة

(١) خطار شبلي: «الموازنة أداة توجيه»، محاضرات الندوة اللبنانية، ١٩٦٣، ص ٣٢.

(٢) محاضر المجلس النيابي، جلسة ١٣ ك ١٩٤٥، ص ١٣١ - ١٣٢.

(٣) المرجع نفسه، جلسة ١٤ ك ١٩٤٧، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٤) وزارة المالية اللبنانية: قطع حساب موازنات ١٩٤٤ - ١٩٦٠. أنظر:

Elias "The Foreign exchange systems of Lebanon and Syria, 1961", p. 210, tab.6.

لبنان خلال سنوات الحرب، في تدني القدرة الشرائية للنقد المحلي، بمقدار ما كانت تنتفخ الكتلة النقدية المتداولة، وقد أظهر رئيس الحكومة سامي الصلح أمام المجلس النيابي، أن غالبية إيرادات الخزينة، أي الضرائب غير المباشرة، تدفعها «في الغالب الطبقة الفقيرة، إذ يتساوى فيها الموسر والمعون»، وكانت الحكومة بحاجة مستمرة إلى رصد اعتمادات إضافية لتلبية الإنفاق بسبب التضخم، كما كانت تُمسك عن صرف ما يُرصد للمشاريع العامة، وأظهر في تقريره أن التضخم في الموازنات مرده إلى زيادة إصدار العملة المتداولة، إلى حد اعتبر أن القوة الشرائية لليرة عام ١٩٤٥ م أصبحت تعادل فرنكاً، لا ٢٠ فرنكاً، و«لنكون منصفين يجب أن نقول ان موازنة العام ١٩٤٥ م هي ٤٣ مليون فرنك، لا ٤٣ مليون ليرة»^(٣). وأدرج جدولاً جمع فيه بين حجم الموازنة وحجم الإصدار النقدي المتداول، «يمكن توسيعه سناً إلى مراجع أخرى، كالآتي:

جدول رقم ٣ - ارتباط انتفاخ الموازنة بانتفاخ الكتلة النقدية المتداولة في لبنان بين ١٩٣٩ و ١٩٤٩ / بملايين ل.ل.^(٤)

وإذا عدنا بالتفصيل إلى موازنة العام ١٩٤٦ م، لوجدنا أن إيرادات الخزينة قد تشكّلت بنسبة ١٤,١ مليون ل. من ضرائب مباشرة، أو ما نسبته ٢٤٪، أهمها ضريبتى الدخل والأراضي، ومن ٤١,٥ مليون ليرة من ضرائب غير مباشرة أو نسبته ٧١,٥٪، شكّلت منها ضريبتا المحروقات والتبغ والتتباك نحو ٣٣ مليون ليرة^(١).

وقد تدنت حصة الضرائب المباشرة في موازنة العام التالي ١٩٤٧ م، لتشكل نسبة ١٥٪ فقط من إيرادات الخزينة، أو ما مجموعه ٩ ملايين ليرة من موازنة بلغت ٦٠ مليوناً.

أما لجهة باب الانفاق، فبالنظر لموازنة العام ١٩٤٦ م، فقد صُرف من نفقاتها مبلغ ٤٣,٤٢٨ مليون ليرة رواتب وأجور ونفقات إدارية، أو ما نسبته ٧٤,٣٪ من إجمالي الموازنة، وخصص مبلغ ١٤,٩٦٧ مليون ل. للنفقات المنتجة كالأشغال العامة (١١,٣٢٤ مليون ل.) والتربية الوطنية (١ مليون ل.) والصحة (١,٩٦٧ مليون ل.)^(٢).

● **انتفاخ الموازنات مرتبط بتدني قيمة النقد اللبناني - السوري:**
لقد ساهم التضخم المالي الذي عرفه

(١) محاضر المجلس النيابي، جلسة ١٥ ك ١٩٤٧، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٢) جبرائيل منسى: «التصميم الإنشائي...» مرجع سابق، ص ١٥٣.

(٣) محاضر المجلس النيابي، جلسة ٣٠ نيسان ١٩٤٥ ص ٢٥٥.

(٤) أرقام الموازنات والكتلة النقدية مستخرجة من تقرير الرئيس سامي الصلح، وكذلك الاستاذ عبد الرحمن الطيارة في =

السنة	الكتلة المتداولة	نسبة الزيادة	الودائع	مجموع الكتلة النقدية	حجم الموازنة	نسبة الزيادة
١٩٣٩ / ٢٥ آب ١٩٣٩ / ٣١ ك	٢٢,٤٠٠ ٢٨,٩٩٣	أساس ١٠٠ ١٢٩,٤٣	٢٧,٤٦٥	٥٦,٤٥٨	٦,٣٦٩	أساس ١٠٠
١٩٤٠ / ٣١ ك	٥٢,٧١٢	٢٣٥,٢٥	٤٠,٤١١	٩٣,١٢٣	٦,٥١٠	١٠٢,٢١
١٩٤١	٦٠,٣١٤	٢٦٩,٢٥	٣٠,٩٨٥	٩١,٢٩٩	٦,٦٣٥	١٠٤,١٧
١٩٤٢	٩٧,٢٨٠	٤٣٤,٢٨	٨٧,٠٢٤	١٨٤,٣٠٤	١٢,٥٠٥	١٩٦,٣٤
١٩٤٣	١١٤,٢٩٩	٥١٠,٢٦	١٦٦,٤٢٩	٢٨٠,٧٢٨	٢١,٤٢٠	٣٣٦,٣١
١٩٤٤	١٤٦,٢١٠	٦٥٢,٧٢	١٧٩,٦٣١	٣٢٥,٨٤١	٣٤,٠٢٣	٥٤٣,٢١
١٩٤٥	١٧٢,٠٠٠	٧٦٧,٨٥	٢٢٦,٠٠٠	٣٣٩,٨٠٠	٤٣,٧٦٥	٦٨٧,١٥
١٩٤٦	١٥٠,٥٠٠	٦٧١,٨٧	٢٠٩,٠٠٠	٣٥٩,٥٠٠	٦٠,٠٤٦	٩٤٢,٧٨
١٩٤٧	١٦٤,٠٠٠	٧٣٢,١٤	٢٠٥,٠٠٠	٣٦٩,٠٠٠	٥٨,٩٠٠	٩٢٤,٧٩
١٩٤٨	١٨٨,٠٠٠	٨٣٩,٢٨	١٩٤,٠٠٠	٣٨٢,٠٠٠	٦٧,٠٠٠	١٠٥١,٩٧
١٩٤٩	١٧١,٠٠٠	٧٦٢,٣٩	١٧٦,٠٠٠	٣٤٧,٠٠٠	٧٥,٠٠٠	١١٧٧,٥٧

الخاص ظلت الدولة مضطرة إلى الاعتماد بشكل أساسي على الضرائب غير المباشرة، ما كان يحدّ من قدرة الطلب في السوق اللبناني.

وبنتيجة البحث نجد أن لبنان قد عاش السنوات الأولى لما بعد الاستقلال، في ظلّ سياسة الارتجال، فلم يكن لديه سياسة اقتصادية أو تربوية أو اجتماعية^(١). وأصدق ما قيل في هذه الموازنات الحسابية المنسوخة عن بعضها، ما ذكره رئيس الحكومة سامي الصلح في المجلس النيابي: «إن موازنة ترتكز على الضرائب غير المباشرة في ثلثي إيراداتها، هي موازنة متقلقلة، مترجرجة، ولا تقيم عدلاً اجتماعياً»^(٢).

وبالنظر إلى هذا الجدول، نلمس أن النظام الضريبي في لبنان كان يجب أن يتيح تمويل مشاريع الاقتصاد والإنماء عبر موازنات الدولة، لكنه امتنع عن ذلك، وجمّد الفائض في رصيد مستقل، بينما الإيداع القصير الأمد، أي الودائع، وهو يعتبر أساس توظيف الأموال، وبالتالي أساس النمو، فإنه تضاعف نحو ٨ مرات في ٦ سنوات حين بلغ ذروته عام ١٩٤٥م. لكن هذه الأموال ظلّت مودعة ولم تُستثمر إلا في استيراد كماليات وسيارات، وحتى عطور وفراشي أسنان، كما مرّ معنا، لذلك قصّر النقد عن لعب وظيفته كموّل للمشاريع. وأمام قلة الاستثمار في القطاع

= «حقول الاقتصاد وتفاعلها»، «محاضرات الندوة اللبنانية»، ١٩٦٢ ص ٤٧. والوزير جوزف نجار في «المسألة النقدية في لبنان»، محاضرات الندوة اللبنانية ١٩٥٠ ص ١١٤.

(١) خظار شبلي: «الموازنة أداة توجيه»، محاضرات الندوة اللبنانية، ١٩٦٣، ص ٣٦.

(٢) محاضر المجلس النيابي: جلسة ٣٠ نيسان ١٩٤٥ ص ٢٥١.

لذلك لم تنجح الجهود الأولى للسلطة اللبنانية في تحقيق الإصلاحات المنشودة على الصعد كافة نتيجة لتفشي حالة الفساد داخل الدولة ومن يحيط بها من كبار الموظفين، حيث كانت فئة كبيرة من التجار ورجال الأعمال تحقق أرباحاً كبيرة نتيجة الفساد الذي أدت هذه الفئة دوراً كبيراً فيه، من خلال دعم بعض رجالات السلطة وتغطيتهم مالياً، خصوصاً أثناء فترة الانتخابات العامة، فكانت طبقة السياسيين التجار - تتحكم بمقدرات البلاد سياسياً واقتصادياً، ولم تعرف حالة الإصلاح إلا في عهد رئيس الجمهورية السابق فؤاد شهاب والتي لم تعمر طويلاً.

العلاقات الاجتماعية بين العالم الواقعي والعالم الافتراضي

جومانا أسعد عباس

كثيراً بناء المساحات المادية الحقيقية (Physical spaces) وهو ما يوحى على الفور ويُمكن أيضاً من تكوين مناخ للتفاعل وقد ارتبط بناء المساحات على شبكة الإنترنت بمجموعة من السلوكيات يمكن النظر إليها على أنها قامت بتحرير التعبير من الأغلال التي كانت تكبله. وذلك عن طريق المجهولية (Anonymity) التي يمكن من خلالها عدم الإفصاح عن الهوية الحقيقية للفرد، أو محاكاة الحياة الحقيقية في البيئة الافتراضية.

وهكذا فإن البحوث الأولى قامت بدراسة تأثير المعالم البنائية للمساحات الافتراضية على تقديم الذات والتعبير عنها. ومؤخراً ركزت البحوث على العناصر التصحيحية والبنائية للشبكات الاجتماعية على الإنترنت، التي يتم توظيفها لدعم مشاركة الاتصال، ودعم العلاقات الاجتماعية لهذا الجيل عن طريق الإنترنت وتعزيز الاتصال الفعّال.

المقدمة

أحدثت ثورة التكنولوجيا في منتصف عقد التسعينيات من القرن الماضي، نقلة نوعية وثورة حقيقية في عالم الاتصال، حيث انتشرت شبكة الإنترنت، وربطت أجزاء العالم بفضائها الواسع، ومهدت الطريق للمجتمعات كافة للتقارب والتعارف وتبادل الآراء والأفكار والرغبات. واستفاد كل متصفح لهذه الشبكة من الوسائط المتعددة المتاحة فيها، وأصبحت أفضل وسيلة لتحقيق التواصل بين الأفراد والجماعات، ثم ظهرت المواقع الإلكترونية والمدونات الشخصية وشبكات المحادثات، التي غيرت مضمون وسائل الإعلام الحديث وشكلت نوعاً من التواصل بين أصحابها ومستخدميها من جهة وبين المستخدمين أنفسهم من جهة ثانية.

إن بناء المساحات الافتراضية (Architecture of virtual spaces) يشبه

الإشكالية: ممّا هو واضح اليوم، ومن خلال مشاهدات بسيطة لما يدور من حولنا، وسماع بعض مما يطفو على سطح الحياة الخاصة للأفراد يمكن الافتراض أن الانغماس في استخدام الوسائل الأحدث هو الأكثر تأثيراً في تفكيك العلاقات الاجتماعية الواقعية وخاصة في حياة الشباب فقد سيطرت التكنولوجيا على حياتنا بصورة كلية وبدلت علاقاتنا بأنفسنا وبالعالم من حولنا، وحولت أقرب الناس إلينا إلى كائنات افتراضية فلم يعد من الغريب أن تجد أسرة تجلس في حجرة واحدة وكل منهم يحمل هاتفه المحمول ويبعث من خلاله برسائل سريعة إلى الآخر.

من هنا فإن إشكالية البحث تتمحور حول تحديد مدى تأثير شبكة الإنترنت على العلاقات الاجتماعية، وتحديد الإشباع المتحققة اتصالياً لدى الأفراد في العالم الافتراضي.

الفرضيات:

- على الرغم من أن المجتمع الافتراضي شكّل بوابة جديدة للعلاقات الاجتماعية الجماهيرية، إلا أنه في الوقت عينه يزيد من شعور الفرد بالوحدة والعزلة.

- إن التعود على العلاقات الاجتماعية

في العالم الافتراضي يؤثّر سلباً على العلاقات الواقعية لا سيما الصداقة والعلاقات الأسرية والزوجية والعاطفية.

- التواصل عبر العالم الافتراضي أسهل منه في العالم الواقعي لما يتيح من حذف وتعديل وتنقيح للكلمات قبل الإرسال ومثال ذلك غير ممكن في العالم الواقعي.

- إن العلاقات الاجتماعية في العالم الافتراضي ليست في تناقض مع علاقاتنا الواقعية أو بديلاً عنها، بل هي مكملّة لها.

دراسات سابقة:

دراسة الساري (٢٠٠٩)^(١): بعنوان **ثقافة الإنترنت، دراسة في التواصل الاجتماعي.**

هدفت الدراسة إلى التعرف على التأثيرات النفسية والاجتماعية التي يتركها تواصل الشباب مع بعضهم من خلال الإنترنت وذلك بالتطبيق على عينة مكونة من ٤٧٢ شاباً وشابة يستخدمون الإنترنت في حياتهم اليومية بمدينة الدوحة في قطر.

وقد توصلت الدراسة إلى أن الإنترنت كوسيلة اتصال تنفرد بمزايا وخصائص اتصالية يندر أن تجدها في الوسائل الأخرى، حيث أحدثت تغييراً ملموساً في طبيعة التواصل الأسري والعائلي، ظهر في

(١) الساري حلمي خضر، ثقافة الإنترنت، دراسة في التواصل الاجتماعي، منشورات وزارة الثقافة، عمان الأردن، ط١، ٢٠٠٩.

تراجع عدد الزيارات التي ألفوا القيام بها لأقاربهم قبل تعودهم على استخدام الإنترنت من جهة ثانية.

وعلى الرغم من التأثيرات الإيجابية التي تركها الإنترنت على الشباب إلا أنها في الوقت نفسه تركت بعض التأثيرات السلبية التي تمثلت في بداية ظهور أعراض الإدمان لديهم على الإنترنت وتسببت في إيجاد بعض الصدمات العاطفية لبعض مستخدميهم من العزّاب والمتزوجين. كما انعكست سلباً على علاقاتهم الأسرية والزوجية وساهمت في بروز بعض مظاهر الاغتراب النفسي والاجتماعي لدى بعضهم، تجسد في تمنيمهم العيش خارج مجتمعاتهم.

دراسة حسن أشرف جلال (٢٠٠٩)^(١): «أثر شبكات العلاقات الاجتماعية التفاعلية بالإنترنت ورسائل الفضائيات على العلاقات الاجتماعية والاتصالية للأسرة المصرية القطرية».

هدفت الدراسة إلى رصد وتوصيف أثر الوسائل الاتصالية الحديثة (الإنترنت بكافة استخداماتها والفضائيات والمدونات) على

طبيعة وحجم العلاقات والتفاعلات الاجتماعية والاتصالية داخل الأسرة المصرية والقطرية، وذلك بالتطبيق على عينة عشوائية متعددة المراحل حجمها (٦٠٠) مفردة موزعة ما بين صغار السن والوالدين في قطر ومصر، في محاولة للوصول إلى رؤية محدّدة نحو ترشيد استخدام التقنيات الحديثة وتفعيل دور المسؤولية الأسرية والمجتمعية في هذا السياق.

وقد توصلت الدراسة إلى أن هناك ارتباطاً سلبياً بين معدل استخدام مواقع التواصل الاجتماعي ومستوى التفاعل الاجتماعي بين الأفراد، كما أن هناك علاقة ارتباطية ثابتة بين معدل الاستخدام واتجاه المبحوثين نحو تكوين علاقات اجتماعية ثابتة ومستقرة وليست عابرة. وأنه كلما شعر الأفراد بالخصوصية باستخدام جهاز الكمبيوتر زاد انعزالهم عن الواقع وانخفاض مستوى تفاعلهم الاجتماعي، بعكس أقرانهم الذين يستخدمون الكمبيوتر في مكان لا يتمتع بالخصوصية ويستطيع المحيطون بالفرد الوصول إليه أو على الأقل مشاهدته. كما توصلت الدراسة

(١) حسن أشرف جلال، «أثر شبكات العلاقات الاجتماعية التفاعلية بالإنترنت ورسائل الفضائيات على العلاقات الاجتماعية والاتصالية للأسرة المصرية القطرية»، دراسة تشخيصية مقارنة على الشباب والآباء في ضوء مدخل الإعلام البديل. مقدمة إلى أعمال مؤتمر كلية الإعلام في القاهرة بعنوان: الأسرة والإعلام وتحديات العصر، والذي عقد في الفترة ما بين ١٥ إلى ١٧ شباط عام ٢٠٠٩.

إلى أن الفاييس بوك والماي سبايس احتلت مواقع الصدارة كشبكات اجتماعية مفضلة لأفراد العينة الذين يعتبرون أن أصدقاءهم عبر الإنترنت يعدّون المرجع الأول في حالة حدوث مشكلة لهم.

المنهجية:

تتأثر منهجية البحث بطريقة المسألة المبحوثة التي تحدّد المنهج المتبع والأدوات المستخدمة في تنفيذه. وقد تمّ الاعتماد على المنهج الوثائقي وذلك للتعمّق في موضوع العلاقات الاجتماعية بين العالم الافتراضي والعالم الواقعي، حيث تمّ الاطلاع على ما تيسر من مقالات وندوات وتقارير حول مؤتمرات تناولت الموضوع.

أولاً: الإطار المفاهيمي:

١ - العلاقات الاجتماعية:

إن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، بالتالي فإن وجود جماعة بشرية يعني بالضرورة وجود علاقات بينه وبين الآخرين، سواء كان في المدرسة أو العمل أو في المجتمع المحلي بصرف النظر إن كانت هذه الجماعة صغيرة أم كبيرة.

يحتل موضوع العلاقات الاجتماعية مكانة هامة في علم الاجتماع العام، بل إن

معظم المؤلفين والعلماء يرون أن العلاقات الاجتماعية هي أساس علم الاجتماع وقد عرّفت العلاقات الاجتماعية أنها أهم ضرورات الحياة، ولا يمكن تصور أية هيئة أو مؤسسة تسير في طريقها بنجاح ما لم تسعى جاهدة في تنظيم علاقاتها الاجتماعية^(١). ومن الملاحظ أن العلاقات التي تنشأ بين الأفراد تكون:

- علاقات اجتماعية وقتية: وهذه العلاقات لها وقت معين بحيث تبدأ وتنتهي مع الحدث الذي يحقق هذه العلاقة مثل التحية العابرة في الطريق أو العلاقة بين البائع والمشتري^(٢).

- علاقة اجتماعية طويلة الأجل: وهي نموذج التفاعل المتبادل الذي يستمر لفترة معينة من الزمن ويؤدي إلى ظهور مجموعة توقعات ثابتة، وتعتبر علاقة الدور المتبادل بين الزوجة والزوج أمثلة لمثل هذه العلاقات.

- علاقة اجتماعية محدودة: نموذج للتفاعل الاجتماعي بين شخصين، أو أكثر، ويمثل هذا النموذج البسيط وحدة من وحدات التحليل السوسولوجي، كما أنه ينطوي على الاتصال الهادف والمعرفة المسبقة بسلوك الشخص الآخر^(٣).

(١) إبراهيم مذكور، معجم المصطلحات الاجتماعية، ١٩٧٥، ص ٤٠٣.

(٢) فاروق العادلي، علم الاجتماع العام، دار زهران، الطبعة الثانية، ١٩٩٤، ص ٢٦٣-٢٦٤.

(٣) محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٢، ص ٤٣٧.

٢ - التفاعل الاجتماعي:

اعتبر غي روشيه الرابطة بين شخصين رابطة علائقية تفاعلية و«أنها العلاقة أو أكثر تحديداً هي التفاعل الذي ينتج عن علاقتهما»^(١)، فالتفاعل عملية بنائية ومتواصلة، إن بنية معرفة الآخر تمتد وتستمر في بنية الفعل معه، ويرى روشيه أن الفعل مع الآخر ليس ثمرة من ثمرات المصادفة، أكثر من معرفة الآخر، فالتفاعل إذاً يقوم على معرفة الآخر والتواصل الفعلي معه، ويخضع بدوره لأنماط من التنظيم والبنائية.

ويتخذ التفاعل الاجتماعي صوراً وأساليب متعددة، فقد يحدث هذا التفاعل بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بين عدد محدود من الأفراد أو عدد كبير، ويكون عن طريق الإشارة أو اللسان أو الإيماء، كما يتخذ أنماطاً مختلفة تتمثل في التعاون والتكيف والمنافسة والصراع والقهر.

٣ - خصائص التفاعل الاجتماعي:

- يعدّ التفاعل الاجتماعي وسيلة اتصال وتفاهم بين أفراد المجموعة، فمن غير

المعقول أن يتبادل أفراد المجموعة الأفكار من دون أن يحدث تفاعل اجتماعي بينهم. - إن لكل فعل رد فعل أو استجابة قد تكون سلبية أو ايجابية مما يؤدي إلى حدوث التفاعل الاجتماعي بين الأفراد.

٤ - العالم الافتراضي:

يُعدّ مصطلح المجتمع الافتراضي من المفاهيم الجديدة التي برزت خلال ثورة الاتصالات الحديثة، وقد تعددت ترجمات هذا المصطلح نظراً لطبيعة المفهوم الجديد. فالمصطلحات الجديدة أكثر إثارة للجدل منها إلى الاتفاق لاسيما أن أصل المصطلح غربي، وليس أدل من ذلك سوى الاختلافات التي ظهرت في ترجمة هذا المصطلح فقد ترجمه أحمد زيد إلى «الجماعات الفضائية»^(٢) أما شاكِر عبد الحميد فقد ترجمه إلى «مصطلح افتراضي»^(٣)، في حين ترجم المصطلح إلى «الجماعات المتخيلة»^(٤) مع محمد محي الدين. وهو مصطلح استخدمه لأول مرة جبسون في روايته «الرومانسيون الجدد» التي نشرت في أميركا عام ١٩٨٤م، حيث ينشئ الناس

(١) غي روشيه، مقدمة في علم الاجتماع، الفعل الاجتماعي، تعريب مصطفى دندشلي، مكتبة الفقيه، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٣٤.

(٢) أحمد زيد، الحدائث وتفكيك الثقافة الوطنية، عالم الفكر، مجلد ٣٢، ابلول ٢٠٠٢، ص ٦١.

(٣) شاكِر عبد الحميد، عصر الثورة الايجابية والسلبيات، عالم المعرفة، العدد ٢١١، يناير ٢٠٠٢، ص ٨٢.

(٤) محمد محي الدين، المشكلات النظرية والمنهجية للبحث السوسيوأنثروغرافي في المجتمعات المتخيلة، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد ٣٢، العدد ٤، ٢٠٠٤، ص ١٨.

عالمًا وهو ليس مكانًا واقعيًا، كما أنه ليس فضاءً حقيقيًا بل هو مكان خيالي أو وهمي، ينشأ من خلال النقر على لوحة مفاتيح الحاسب.

ويعرّف فريدريك مايور ذلك الفضاء الإلكتروني أو المعلوماتي أنه بيئة إنسانية وتكنولوجية جديدة للتغيير والحصول على المعلومات والتبادل. وهو يتكون أساساً من الأشخاص الذين ينتمون لكل الأقطار والثقافات واللغات والأعمار والمهن المرتبطة ببعضها عن طريق البنية التحتية الاتصالية التي تسمح بتبادل المعلومات ونقلها بطريقة رقمية^(١).

لقد نجح الفضاء الرمزي الذي شكله الإنترنت في الجمع بين أفراد ينتمون إلى هويات مختلفة^(٢) ويعدّ هاورد رينجولد من الذين ساهموا في توجيه نظرة العالم نحو دراسة المجتمعات الافتراضية وقد جاء ذلك في كتابه الجماعات الافتراضية والذي يؤكد فيه أن هذه الجماعات عبارة عن تجمعات اجتماعية تشكلت في أماكن متفرقة في أنحاء العالم، يتقاربون ويتواصلون في ما بينهم عبر شاشات الكومبيوتر والبريد

الإلكتروني ويتبادلون المعارف في ما بينهم ويكونون الصداقات. يجمع هؤلاء الأفراد اهتمام مشترك ويحدث بينهم ما يحدث في عالم الواقع من تفاعلات ولكن ليس عن قرب وتتمّ هذه التفاعلات عن طريق آلية اتصالية هي الإنترنت الذي بدوره ساهم في حركات التشكل الافتراضية^(٣).

إن ما يميّز هذه التجمعات الافتراضية هي أنها متاحة للأفراد الذين يريدون المشاركة في أحد أنماطها، فالمدينة الافتراضية لا تنام. هناك دائماً أفراد مشتركون في التفاعلات الافتراضية^(٤). فلقد أصبح الإنترنت بشكل عام جزءاً من حياة الناس، والجماعات الافتراضية بأنماطها المختلفة باتت تشكل أهمية للعديد من المهتمين بالإنترنت على وجه خاص. فما هي وسائل ومواقع التواصل والتفاعل الافتراضي؟

٥ - المواقع التفاعلية:

أدّى التحول الحاصل في طريقة تصميم الصفحات الإلكترونية إلى إنشاء صفحات جديدة ومواقع اختصت بتوفير الخدمات «التعبير عن الذات» لمتصفح شبكة

(١) محمد جمال الفار، المعجم الاعلامي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ٢٠١٠، ص ٨٩.

(٢) Bishop, Ann Petron, Community of the new century, journal of Adolescent and adult literacy, vol- 34, issue 5 feb 2000, p472.

(٣) <http://com.user/hr,Haward Rhingold, Virtual community,1993.>

(٤) Jenkison, Michael, Alberta report, welcome to the virtual world, Western report, Vol 17, issue 4, Oct98, p8.

الإنترنت. يتميز كل من هذه المواقع ببعض الخصائص التي تعطيه طابعاً مستقلاً عن غيره. ومن أهم هذه المواقع:

أ - فايس بوك:

عبارة عن شبكة اجتماعية يمكن الدخول إليها مجاناً، وتديره شبكة فايس بوك محدودة المسؤولية كملكية خاصة لها، فالمستخدمون بإمكانهم الإنضمام إلى الشبكات التي تنظمها المدينة أو جهة العمل والمدرسة أو الإقليم وذلك من أجل الاتصال بالآخرين والتفاعل معهم، تأسس عام ٢٠٠٤م.

لم يكن موقع فايس بوك الأول لناحية المواقع المخصصة للصفحات الشخصية والتعارف على الآخرين. فقد سبقه بذلك مواقع عدة (اختفى معظمها اليوم)، ومن أهمها موقع ماي سبايس. إلا أن فايس بوك تميّز في طريقة التعاطي مع المستخدمين، والخدمات التي أتاحتها لهم لناحية البحث عن أصدقائهم، والتعرف على أخبارهم. فقد أسس الموقع مارك زوبرغ عام ٢٠٠٤م^(١)، وحصره في حينه بطلاب جامعة هارفرد الأميركية. تدريجياً بعد أن ذاعت شهرته

بين طلاب الجامعة، فانتقلت إمكانية استخدامه تدريجياً إلى طلاب جامعات أميركية أخرى، ومن ثم إلى طلاب كل الجامعات والمعاهد الجامعية، وبعدها إلى جامعات أميركية أخرى، ومن ثم، إلى جامعات أوروبا. هذه الميزة (أي حصر الاستخدام بطلاب الجامعات) هي التي أعطت للموقع سحره الخاص. ذلك أنه انتشر بين الفئة الأكثر تقبلاً للتكنولوجيا. وما إن رفعت إدارة الموقع حصرية الاستخدام وأتاحته للجميع (على أن يكون المستخدم قد تجاوز الـ ١٣ من العمر)، حتى تفجّر عدد المستخدمين بشكل فاق توقعات مؤسسي الموقع.

ب - تويتر:

ظهر هذا الموقع في أوائل عام ٢٠٠٦ م وبدأ بالانتشار كخدمة جديدة لتواصل الاجتماعي على الساحة عام ٢٠٠٧م لتقديم التدوينات الصغيرة^(٢). حيث يسمح للمغردين بإرسال رسائل نصية قصيرة لا تتعدى ١٤٠ حرفاً، ويجوز للمرء أن يسميها نصاً موجزاً مكثفاً لتفاصيل كثيرة^(٣). وأخذ تويتر اسمه من مصطلح (تويت) وتعني التغريد واتخذ العصفور رمزاً له.

(١) زينب الدهيمي، موقع التواصل الاجتماعي الفايسبوك، مجلة العلوم الانسانية، جامعة محمد خضير، العدد ٢٦، حزيران ٢٠١٢، ص ٧-٨-٩.

(٢) -مرسي مشري، شبكات التواصل الاجتماعية الرقمية، نظرة في الوظائف، مجلة المستقبل العربي، العدد ٣٩٥، ص ١٥٧.

(٣) Diaz-Ortiz Claire, Twitter for change the world, one tweet at time, Jossey-Bass, Ieditio, USA, 2011, P23.

ت - اليوتوب:

سجلاتهم اليومية الجديدة قد وصلت إلى ٢٧ مليار رسالة.

ثانياً: جدلية العلاقات الواقعية والافتراضية:

«الفضاء الافتراضي» هو هذا المصطلح الأكثر شيوعاً واستخداماً في وصف الفضاء توفره شبكات التواصل الاجتماعي، وبهذا المعنى فهو يحمل شحنة مضمرة وحكماً مسبقاً أن هذا الفضاء هو مجرد افتراض أو وهم، وهذا ليس صحيحاً.

صحيح أن هناك بعداً افتراضياً في هذا العالم التواصلي لكنه من جانب آخر أصبح واقعاً موضوعاً حقيقياً يؤدي دوراً مؤثراً ومباشراً في إعادة بناء الوعي والعلاقات والسلوك... بل وأصبح قوة للفعل والمبادرة في مختلف المجالات وله تأثير مباشر، سلباً وإيجاباً، في بناء «المخيلة السوسولوجية» وفق تعبير عالم الاجتماع البريطاني أنتوني غدنز.

إن ثورة الاتصال والتواصل والفضاء الذي تتيحه شبكات التواصل الاجتماعي ليس مجرد مسألة تقنية، إنه ثورة في الوعي وعالم الوعي والسلوك والعلاقات، لهذا فهو ظاهرة جديّة وعميقة تحتاج لنقاش

تأسس هذا الموقع بواسطة ثلاثة موظفين في شركة Pay Pal وهم Jawed Karim, Chene Hurley، حيث فكروا في بداية عام ٢٠٠٥ م في إنشاء موقع لمشاركة الفيديوهات وذلك عندما كانوا في حفلة عشاء، وقاموا بتصوير بعض الفيديوهات، لكنهم واجهوا مشكلة في نشرها، ومن هنا جاءت فكرة الموقع، وفي عام ٢٠٠٥ م تمّ إطلاق النسخة التجريبية وبعد ستة أشهر تمّ إطلاق النسخة الرسمية^(١).

ث - الواتساب:

هو تطبيق تراسل فوري، محتكر، ومتعدد المنصّات للهواتف الذكية، ويمكن بالإضافة إلى إرسال الرسائل الأساسية للمستخدمين إرسال الصور، والرسائل الصوتية والفيديو، وقد أضيفت إليه مؤخراً خدمة الاتصال المباشر بالصوت وبالصور والصورة. تأسس واتساب عام ٢٠٠٩ م من قبل الأميركي بريان أكتون والأوكراني جان كومن وكلاهما من الموظفين السابقين في موقع ياهو. وفي الثالث عشر من شهر تموز ٢٠١٣ م، أعلنت شركة واتساب ومقرّها سانتا كلارا، كاليفورنيا، أن

(١) مبارك زودة، دور الاعلام الاجتماعي في صناعة الرأي العام (الثورة التونسية أنموذجاً)، رسالة ماجستير في علوم الاعلام والاتصال، قسم العلوم الإنمائية، شعبة علوم الإعلام والاتصال، جامعة الحاج لخضر، ٢٠١١، ص ١٤٥.

علمي وجدي لإدراك أبعادها وتأثيراتها، ما يستدعي من المتخصصين في علم الاجتماع وعلم النفس إيلاءها الجهد اللازم لدراسة دورها ووظيفتها وأثارها وإخضاعها للبحث السوسولوجي العلمي ارتباطاً بخصوصية كل مجتمع. وذلك من أجل مراكمة الوعي في كيفية التعامل معها بأعلى قدرة من الفاعلية والايجابية.

في غمرة الانفعال والتفاعل والانفتاح اللامحدود تكسرت قيود وقيم ونواظم، كما توفرت مساحات وفضاء لا محدود لتواصل الأفراد والجماعات واتخذت العديد من أشكال العلاقات الاجتماعية صيغة جديدة ومختلفة، منها:

● **الصدقة:** في غمرة الصداقات التي تتشكل على صفحات التواصل الاجتماعي (يكفي إرسال طلب صداقة واستجابة)، أصبح هذا المفهوم وتعبيراته الواقعية التي انبنت بالتجربة والممارسة والمعاشية في سياقات الحياة اليومية في البيت والحارة والقريبة والمدينة... لتصبح مجرد أفكار ومشاعر وكلمات يتم تبادلها على صفحات التواصل بين أفراد في الغالب العام، لا يعرفون سياقات بعضهم الاجتماعية أو الفكرية أو الثقافية، فقط يجري اعتماد علاقة الصداقة المفترضة بالاستناد السريع إلى

ما يقدمه الإنسان عن نفسه وبالطريقة التي يريد.

علاقات الصداقة الواقعية والطبيعية التي تتكون في سياق التماس والتفاعل المباشر يتم استبدالها بوهم الصداقة من خلال الاكتفاء بإرسال إعجاب أو طلب صداقة، ليقول الفرد إن له صديقاً من دون أن يعرف حتى سمات وحقيقة ومواقف وخلفيات هذا «الصديق»، والأهم أنه لم يختبر تلك الصداقة في الواقع، هذه العملية ليست إزاحة شكلية بل هي إزاحة في الوعي العام، إزاحة في العلاقات باتجاه السطحية، ذلك أن هذا النمط من الصداقة يفتقد للعمق والملموس والتجربة، ما يؤسس لحالة من الصدمة والانتكاس إن جاز التعبير عندما تتعرض هذه الصداقة المفترضة للاختبار⁽¹⁾.

● **العلاقات العاطفية:** الوضع لا يختلف بخصوص ما ينتج أويتشكل من علاقات عاطفية على شبكات التواصل، فغالبية هذا النمط من العواطف التي يجري بناؤها والتعبير عنها على صفحات التواصل الاجتماعي هي أيضاً عواطف افتراضية لم تمر في اختبارات واقعية حقيقية. إنها تتشكل بناءً على تصورات وعلى مخيال ليس له علاقة بحقيقة كل فرد كما هي:

(1) المرجع السابق.

وعيه، ثقافته، سلوكه، سماته الشخصية، غير ذلك من تفاصيل مهمة. فشبكات التواصل الاجتماعي تتيح للفرد أن يقدم نفسه بتلك الصورة المثالية التي يريدها، ما يشكل توقعات ورهانات ووهم عاطفي يقود في الغالب إلى صدمة عاطفية حين تنكشف الحقائق والتفاصيل، وخاصة حين تنتقل العلاقة من الافتراضي إلى الواقع^(١).

● **العلاقات الزوجية:** أثبتت العديد من الدراسات أن سوء استخدام مواقع التواصل الاجتماعي يزيد من نسبة الخلافات الزوجية، مؤكدة تطور تلك الخلافات إلى انفصال الزوجين والطلاق. حيث رصدت الولايات المتحدة أن موقع التواصل الاجتماعي فايس بوك وراء (٦٦٪ من حالات الطلاق)^(٢).

● **العلاقات الأسرية:** إن تلك المواقع أثرت سلباً على العلاقات الأسرية، وساهمت في اتساع الفجوة بين أفراد الأسرة والتفكك الأسري بحيث أصبحت العلاقة ببعضها إدماناً ما يشكل خطورة على الأسرة العربية وعلاقات التقارب والدفع الذي تتميز بها المجتمعات العربية، كونها تتجه نحو تفتت الجمهور وتقليص العلاقات الحقيقية لصالح الافتراضية.

من جهة أخرى تشير بعض الدراسات

إلى الأدوار الإيجابية التي تؤديها وسائل الإعلام التفاعلية على العلاقات الاجتماعية، وذلك من خلال ما تتيحه هذه الوسائل من إمكانية التواصل مع الأقارب والأصدقاء والطلاب وخاصة بين الذين تفصل بينهم مساحات شاسعة، فالتواصل افتراضياً مع هؤلاء أفضل من قطع التواصل بهم نهائياً كما تظهر أهميتها بما تتيحه أيضاً في مجال تحصيل المعلومات والمعارف وتبادلها وتناقلها.

انطلاقاً مما تقدم تشمل شبكات التواصل الإلكترونية موضوعاً تصطدم فيه أطروحتان مختلفتان، الأطروحة الأولى ترى في هذه المواقع فرصة للبشر لتبادل الاتصال والمعرفة والقضاء على عوائق الزمان والمكان فتزيد في تقارب الناس وترفع من درجة تفاعلهم وتنشئ علاقات اجتماعية جديدة كما أنها تختزل قدرًا هائلاً من الإجراءات في التعاملات والمبادلات التجارية والاقتصادية، فيما تنظر الأطروحة الثانية لهذه الشبكات نظرة كارثية إذ ترى أنها تشكل مصدر الخطر الحقيقي على العلاقات الاجتماعية، وتؤدي إلى ميلاد مجتمع يحمل عوامل القطيعة مع التقاليد الثقافية كما تؤدي إلى العزلة وتفكك نسيج الحياة الاجتماعية ويرى هؤلاء إن وسائل

(٢) www.annabaa.com.

(١) المرجع نفسه.

التواصل الاجتماعي قد اقتحمت الحياة العائلية بحيث قللت من فرص التعامل والتواصل داخل الأسرة^(١).

ثالثاً: الإشباع المتحققة عبر التواصل الافتراضي:

الإشباع هو إرضاء أو بلوغ هدف معين وتدّل الكلمة على الحال التي يتمّ فيها ذلك، ويعني الإشباع في نظرية التحليل النفسي خفض التنبيه والتخلص من التوتر، فالتراكم والتنبيه يولد الإحساس بالألم ويدفع بالجهاز العصبي إلى العمل لكي يحدث مرة أخرى حالة إشباع يدرك فيها خفض للتنبيه كأنه لذة^(٢).

قسّم لورانس وينر الإشباع إلى نوعين:

١ - إشباع المحتوى: وتمثل الإشباع التي تتحقق من التعرض لمضمون الوسائل الإعلامية، فهي ترتبط بالرسالة أكثر من الوسيلة وتنقسم إلى نوعين هما الإشباع التوجيهية وتمثل في إشباع الحاجة إلى زيادة المعلومات والمعارف وتسمية المهارات الشخصية وتأكيد الذات واكتشاف الواقع وهذا ينطبق

على مواقع التواصل الاجتماعي من حيث أنها تشبع رغبات مستخدميها من خلال إبداء آرائهم أو حرياتهم التي يشعرون أنهم غير قادرين على إيصالها والاستفادة من تجارب الآخرين وعمل علاقات مع من هم أصحاب خبرة، والنوع الثاني الإشباع الاجتماعي وتمثل في إشباع الحاجة إلى التواصل مع الآخرين والتحدث معهم من خلال الربط بين المعلومات التي يحصل عليها الفرد من وسائل الإتصال وشبكة علاقاته الاجتماعية.

٢ - إشباع عملية الاتصال: وتحدث نتيجة لعملية الاتصال واختيار الفرد لوسيلة معينة من دون سواها، فهي تتعلق بالوسيلة أكثر منها بالمضمون، وتنقسم إلى نوعين هما: الإشباع شبه التوجيهية وهي إشباع مكملة للإشباع التوجيهية وتعلق بإشباع الحاجة إلى الراحة والاسترخاء والمتعة والدفاع عن الذات والإشباع شبه الاجتماعية وهي إشباع مكملة للإشباع الاجتماعية وتعلق بإشباع الحاجة إلى التخلص من العزلة والإحساس بالضيق والملل وعدم الشعور بالوحدة^(٣).

(١) ماجد بوشبلي، ثقافة الإنترنت وأثرها على الشباب، الشارقة، دائرة الثقافة والمعلومات، جامعة الشارقة، ٢٠٠٦، ص ١٣٤.

(٢) محمد منير حجاب، المعجم الاعلامي، دار الفجر، مصر، ٢٠٠٤، ص ٤٧-٤٨.

(٣) محمود المشمشي، دوافع تعرض المشاهد المصري للقنوات الفضائية، جامعة المينا، ٢٠٠٢، ص ٣٢.

واختيار الصور والوجوه الأفضل لتقدمها
للآخرين على عكس التواصل البشري الذي
يجبرك على الظهور بشخصيتك الحقيقية
غير المنمقة أمام الناس.

السبب الآخر الذي يجعل وسائل
التواصل الإلكتروني مفضلة لدى معظم
الناس هو أن هذا التواصل لا يتطلب منهم
الالتزام والاهتمام والقرب نفسه الذي
تتطلبه الصداقات الحقيقية، ومن السهل أن
تتواصل مع أصدقائك الافتراضيين وقتما
تريد عن طريق الضغط على علامات
الإعجاب وكتابة تعليقات على منشوراتهم،
ولكنك لست مضطراً للسؤال عنهم في كل
يوم والخروج معهم أو تقديم أية خدمة لهم
أو مساندتهم مثلما تفعل مع أصدقائك
الحقيقيين^(٢).

علاقاتك بأصدقائك الافتراضيين آمنة
ولطيفة لأنها سطحية، فأنت لا تعرف عنهم
إلا ما ينشرونه على صفحاتهم وهم بالمثل
لا يعرفون عنك إلا ما تكتبه لهم وهناك
حاجز كبير يفصل بينكم يتمثل في شاشة
الهاتف أو الحاسب، لذا فإن هذه العلاقات
عندما تنتهي لا تسبب لطرفيها الوجد
والفقد الذي يسببه إنهاء العلاقات الحقيقية.

لا شك أن الحاجة إلى التخلص من
العزلة والإحساس بالضيق والملل وعدم
الشعور بالوحدة تشكل أهم الإشباعات
المستهدفة من قبل مستخدمي وسائل
التواصل الاجتماعي الحديثة والتفاعلية.
ولكن لماذا يميل الناس إلى العالم
الافتراضي لتحقيق هذه الإشباعات بدلاً من
العالم الواقعي؟ وما هو واقع هذه
الإشباعات فعلياً؟

قدمت عالمة الاجتماع الأميركية شيريل
تيركل إجابة عن هذا السؤال في دراسة
قدمتها حول التأثيرات النفسية الاجتماعية
للتكنولوجيا على الحياة وعلاقات البشر
ببعضهم، وقامت بإجراء مقابلات مع
مجموعة متنوعة من مستخدمي
التكنولوجيا، وتحدثت عن نتائج دراستها
في محاضرة أذيعت على الموقع الثقافي
الشهير تيد توك^(١).

فقد اكتشفت أن الناس يفضلون
التواصل الإلكتروني على التواصل المباشر
لأنه أسهل وأسرع، ولأنه يتيح للمستخدم
التحكم في الطريقة التي يقدم بها نفسه
للآخرين، فوسائل التواصل الإلكتروني
تتيح لك الحذف وتعديل وتنقيح كلماتك

(١) شيريل تيركل، حكاياتي: لماذا نفضل العالم الافتراضي على العالم الواقعي؟ - Hekaty.blogspot.com.blog-
post_24

(٢) المرجع نفسه.

هل هذا يعني أن الصداقات الافتراضية استطاعت أن تقضي على شعور الإنسان بالوحدة، واستطاعت أن تقدم له الرفقة والصحبة من دون أن تجعله يخاطر بمشاعره أو يضيع وقته مع الناس؟

تؤكد تيركل أن العكس هو الصحيح، فمن خلال المحادثات التي أجرتها مع مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي، اكتشفت أنهم يشعرون بالوحدة ويتمنون لو كان بإمكانهم إجراء محادثات حقيقية مع زملائهم، ولكنهم في الوقت نفسه يعترفون أنهم صاروا مدمنين على هواتفهم الذكية وصاروا يستعملونها كوسيلة لتجنب مخاطرة التواصل مع الناس. ومعظمهم يشعر بالوحدة على الرغم من الكم الهائل من الأصدقاء الذين يمتلكونهم على مواقع التواصل الاجتماعي، وهم للأسف غير قادرين على إقامة علاقة حقيقية مع أحد لأنهم حولوا جميع الناس إلى كائنات افتراضية.

الخلاصة

اتضح مما تقدم أن تأثير شبكة الإنترنت على حياة الفرد سواء في علاقاته الاجتماعية أم في الإشباع المتحققة لديه ليس هامشياً. حيث أثبتت أنه وعلى الرغم مما يوفره العالم الافتراضي من مساحات شاسعة لبناء الصداقات والعلاقات

الجماهيرية فإنه يعزّز الشعور بالوحدة، وما يفسّر هذا الإقبال الكبير على هذه الوسائل على الرغم من ذلك هو إتاحتها للفرد إمكانية المحو والتعديل في كلماته قبل نشرها، فضلاً عن تمكنه من الظهور بالصورة التي يفضلها والتي لا يمكنه توفيرها في العالم الحقيقي.

كما أكدت معظم الدراسات التأثير السلبي للتواصل الافتراضي على العلاقات الواقعية لاسيما الصداقة والعلاقات الأسرية والزوجية والعاطفية. فمفهوم الصداقة تحول من علاقة مباشرة بين شخصين أو أكثر يتفاعلون معاً ويتساندون إلى علاقة سطحية تفتقد للعمق والملموس والتجربة. كما تضعفت العلاقات الزوجية بفعل وسائل التواصل التي ساهمت في زيادة نسبة الطلاق.

ولكن وعلى الرغم من كل تلك السلبيات لا بد من ذكر بعض الإيجابيات لهذه الوسائل والتي تتمثل في توفير إمكانية التواصل مع الأقارب والأصدقاء، وخاصة البعيدين منهم. فضلاً عن دورها كوسائل للحصول المعرفي والعلمي.

المصادر والمراجع

- ١ - أشرف جلال، حسن، «أثر شبكات العلاقات الاجتماعية التفاعلية بالإنترنت ورسائل الفضائيات على العلاقات الاجتماعية والاتصالية للأسرة المصرية القطرية»، دراسة تشخيصية مقارنة على الشباب والآباء في ضوء مدخل الإعلام البديل. مقدمة إلى أعمال مؤتمر كلية الإعلام في القاهرة بعنوان: الأسرة والإعلام وتحديات العصر، والذي عقد في الفترة ما بين ١٥ إلى ١٧ شباط عام ٢٠٠٩.
- ٢ - بوشبلي، ماجد، ثقافة الإنترنت وأثرها على الشباب، الشارقة، دائرة الثقافة والمعلومات، جامعة الشارقة، ٢٠٠٦.
- ٣ - العادلي، فاروق، علم الاجتماع العام، دار زهران، الطبعة الثانية، ١٩٩٤.
- ٤ - حلمي خضر، الساري، ثقافة الإنترنت، دراسة في التواصل الاجتماعي، منشورات وزارة الثقافة، عمان الأردن، ط ١، ٢٠٠٩.
- ٥ - الدهيمي، زينب، موقع التواصل الاجتماعي الفايسبوك، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خضير، العدد ٢٦، حزيران ٢٠١٢.
- ٦ - روشيه، غي، مقدمة في علم الاجتماع، الفعل الاجتماعي، تعريب مصطفى دندشلي، مكتبة الفقيه، بيروت، ٢٠٠٢.
- ٧ - زودة، مبارك، دور الاعلام الاجتماعي في صناعة الرأي العام (الثورة التونسية أنموذجاً)، رسالة ماجستير في علوم الاعلام والاتصال، قسم العلوم الإنمائية، شعبة علوم الإعلام والاتصال، جامعة الحاج لخضر، ٢٠١١.
- ٨ - زيد، أحمد، الحداثة وتفكيك الثقافة الوطنية، عالم الفكر، مجلد ٣٢، ابلول ٢٠٠٢.
- ٩ - عبد الحميد، شاكر، عصر الثورة الإيجابيات والسلبيات، عالم المعرفة، العدد ٢١١، يناير ٢٠٠٢.
- ١٠ - غيث، محمد عاطف، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٢.
- ١١ - الفار، محمد جمال، المعجم الاعلامي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ط ١، ٢٠١٠.
- ١٢ - محي الدين، محمد، المشكلات النظرية والمنهجية للبحث السوسيوانثوغرافي في المجتمعات المتخيلة، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد ٣٢، العدد ٤، ٢٠٠٤.
- ١٣ - مذكور، ابراهيم، معجم المصطلحات الاجتماعية، ١٩٧٥.
- ١٤ - مشري، مرسى، شبكات التواصل الاجتماعية الرقمية، نظرة في الوظائف، مجلة المستقبل العربي، العدد ٣٩٥.
- ١٥ - المشمشي، محمود، دوافع تعرض المشاهد المصري للقنوات الفضائية، جامعة المينا، ٢٠٠٢.
- ١٦ - منير حجاب، محمد، المعجم الاعلامي، دار الفجر، مصر، ٢٠٠٤.

المراجع الاجنبية:

- 1 - Bishop, Ann Petron, Community of the new century, journal of Adolescent and adult literacy, vol-34, issue 5 feb 2000, p472.
- 2 - Diaz-Ortiz Claire, Twitter for change the world, one tweet at time, Jossey-Bass, 1 editio, USA, 2011, P23.
- 3 - Jenkison, Michael, Alberta report, welcome to the virtual world, Western report, Vol 17, issue 4, Oct98, p8.

المواقع الالكترونية:

- شيريل تيركل، حكاياتي: لماذا نفضل العالم الافتراضي على العالم الواقعي؟
Hekaty. blogspot.com. blog-post_24
http://com.user/hr, Haward Rhingold, Virtual community, 1993
www.annabaa.com

مشغرة قلب البقاع الغربي النابض بين الواقع والمرتجى

منى محمد يونس

وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، الذي يسمح بتفسير الظواهر وإظهار المشاكل ومحاولة إيجاد الحلول لها من أجل العمل على تغييرها لتطوير هذه البلدة نحو الأفضل.

لكن لا بد من الإشارة إلى أن المشجع على هذه الدراسة هم أبناء البلدة وبلديتها فلهم كل الشكر والتقدير على اهتمامهم بتطويرها وتنميتها. قبل أن نبدأ بهذه الدراسة ترددت أسئلة كثيرة في ذهني وهي:

- كيف كانت مشغرة قديماً؟
- كيف أصبحت في أيامنا هذه؟
- لماذا تعاني من مشاكل خدمتية كثيرة؟
- ما الحلول المنطقية والصحيحة لتجاوز هذه المشاكل؟؟
- كانت هذه الأسئلة ضرورية في بداية هذا البحث العلمي الذي يعتبر العمل الحقلّي من أهم خطواته فبوساطته يتم التعارف

مقدمة

تعتبر دراسة التنمية الريفية مهمة جداً، خاصة إذا ما تناولت موضوعاً محبوباً عند الباحث ذلك أنه من الأفضل له أن يختار موضوعاً ينسجم وقناعاته الشخصية ويلبي حاجة مجاله الجغرافي المباشر، لأنه في هذه الحالة يكون اندفاعه كبيراً لقناعته بدوره في إيجاد الحلول الملائمة للمشاكل التي يعاني منها المجتمع الريفي الذي يعي فيه.

من هنا كان الاختيار لبلدة «مشغرة»، نظراً لما تمثله هذه البلدة من أهمية في حياتي، فقد كانت هذه الدراسة عربون محبة لها وامتنان لأرضها الطيبة وإن كانت هذه الدراسة ليست مجالاً للتحدث عن العواطف، ولكن هذا هو دافعنا الأساسي للقيام بهذا البحث. وقد لاحظت أن جميع قرانا وبلداتنا اللبنانية بحاجة لمثلها إذ إنها تسمح لنا بالاطلاع عن كثب على بعض الظواهر وإبراز المشاكل التي تعاني منها،

I - مقومات بلدة مشغرة الطبيعية البشرية والاقتصادية:

تبرز أهمية موقع مشغرة عندما نستعرض تاريخ نشوء هذه البلدة، وكل محاولة في هذا الصدد لا بد وأن تصطدم بعقبات وصعوبات كثيرة، حتى أن كل دراسة لهذا التاريخ لا يمكن أن تقوم على أسس صحيحة ما لم تركز إلى وثائق أو آثار تاريخية أو مخلفات بشرية، والظاهرة الهامة في «مشغرة» هو ضريح النبي «نون»، وإذا صح ذلك، فإن تاريخ البلدة قديم جداً، أضف إلى ذلك أن أشجار السنديان التي تحيط بالضريح من دون باقي المناطق مزروعة حتماً من قبل الإنسان، وما يلفت الأنظار هو ضخامة جذوع الأشجار، وعلى هذا تكون مشغرة بلدة قديمة جداً أقامتها بعض القبائل في طريقها عبر الممر الطبيعي لمنطقة الصّعد. وكان سكان مشغرة يقومون بزيارات دينية إلى ضريح النبي «نون» الذي اعتبروه مزاراً ولا يزال حتى اليوم حيث جدد السكان الحاليون بناء الضريح وأحاطوه بجدران مسقوفة بالقرميد.

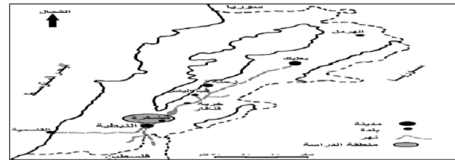
وليس غريباً على هذه المنطقة أن تكون مسكونة منذ القدم ما دامت تقع على طرف الممر الطبيعي الذي يخترق الكتلتين

والتألف بين الباحث وموضوع بحثه، والعمل الميداني لا بد له من تقنيات تكون غير اعتماد الباحث على الكتب والمراجع، نظراً لواقعيته التي تتناول صميم النشاط الريفي ومن هذه التقنيات كانت:

المقابلة: وهي مفيدة جداً من أجل تحصيل معلومات عن تاريخ «مشغرة» والتحويلات التي حدثت فيها. فهي كأكثر قرانا ليس فيها معلومات مدونة وإحصاءات يعود إليها الباحث لمعرفة نشأتها وتطورها. وكذلك كان للأسئلة دور مهم فهناك معلومات لا يستطيع الباحث أن يحصل عليها عن طريق المشاهدة والملاحظة وإنما عن طريق طرح بعض الأسئلة التي تساعد في الحصول على المعلومات.

بعد القيام بكل هذه الخطوات قمّت بترتيب المعلومات وتنسيقها عبر اتباع الطرق العلمية السليمة على أمل أن تجيب هذه الدراسة على الإشكالية المطروحة.

خريطة رقم ١: موقع مشغرة على خريطة لبنان.



المصدر: مديرية التوجيه في الجيش اللبناني - من تنفيذ الباحثة.

الجبليّتين، ويصل إلى الشاطئ والجنوب^(١).

ويمكن أن نستنتج أن هذه البلدة بحكم موقعها على طريق المواصلات الطبيعي، كانت ممراً للعديد من المتنقلين والقبائل المترحلة والجيوش الغازية، شأنها شأن المدن والقرى المنفتحة والتي لا يحميها أي حاجز، وكانت مشغرة منذ القديم موئلاً للشعوب الكنعانية التي جاءت عن طريق الجنوب والهجمات الغازية، الآشورية، الكلدانية، الرومانية، الفارسية والبيزنطية وأخيراً الفتح العربي الإسلامي الذي فتح الباب واسعاً أمام تقدم القبائل العربية التي توغلت في بلاد الشام المنبسطة واخترقت الممرات الطبيعية بين الجبال، وكان ذلك عقب وقعة اليرموك حيث تدفقت قبائل «بني مخزوم» و«بني تغلب» وهذه الأخيرة استقرت في نواحي مشغرة منذ عهد «المماليك»^(٢).

وإلى عهد قريب، كانت جماعات من جنوب سوريا تحمل عبر ممر الحاصباني - الليطاني تجارتها مجتازة «مشغرة»، ويذكر الكثير من السكان قوافل أهل حوران وإبلهم المحملة بالقمح والتي كانت تصل مشغرة وتضع أوزارها، وتجعل من هذه القرية

سوقاً لبيع القمح، حتى أن أهالي مشغرة يذكرون حتى اليوم كلمة حوران عند هطول الأمطار متمنين لو تهطل كلها في أرض حوران وهذا يعطينا الدليل على شدة الارتباط الوثيق بين حوران ومشغرة. أضف إلى ذلك أنّ عائلات كبيرة في مشغرة اليوم، يعود أصلها إلى حوران، ولم تأت مشغرة إلا بدافع المتاجرة، كما نجد بين السكان بعض العائلات التي تنتمي إلى مناطق مختلفة في البقاع وخاصة زحلة وبعبك ولبنان الشمالي من طرابلس ولبنان الجنوبي من عنقون وجبل عامل.

إن اسم مشغرة كان في الماضي «شغرة» وليس «مشغرة» كما يوجد أيضاً في جنوب لبنان قرية صغيرة تسمى «شغرة» ويؤيد ذلك ما يرويه الطاعنون في السنن، أن القادمين من الجنوب والذين استقروا هنا رفضوا أن يسموها شغرة بمثل اسم شغرة في الجنوب فقالوا إنها مش شغرة (أي ليست شغرة) ومع الزمن أصبح اسمها «مشغرة»!

أ - موضع وموقع بلدة مشغرة

تتموضع مشغرة عند حضيض السفح الشرقي لجبل نيجا في أهدود ينحصر بين كتلتين جبليّتين نيجا من الغرب وجبل

(١) الخشن، الشيخ حسين، (٢٠٠٣)، مشغرة في التاريخ، منشورات القماطي، بيروت، لبنان، ص ٢٣.

(٢) طرابلسي، فواز، (٢٠٠٤)، يا قمر مشغرة: المحسوبة، الاقتصاد والتوازن الطائفي، رياض نجيب الريس، بيروت، لبنان، ص ٣٢.

عريض مري من الشرق^(١)، وتحتضن هذه البلدة بشكل متطاوّل من الشمال إلى الجنوب حسب اتجاه الصدع الذي يخترق المنطقة، كما أنها تتدرج عرضانياً من حضيض تومات نوحا إلى نهر الشتاء الذي يجري في أخفض نقاط المنطقة شرقي البلدة.

أما من حيث موقعها، فإنّ طريق المواصلات العام القادم من شتورة والمار بـمشغرة إلى جزين، يقسم البلدة إلى قسمين، كما أن هذا الطريق يساير تماماً خط الصدع، لذلك نجد قسماً من مشغرة فوق الصدع ويسمى «مشغرة الفوقا» وقسماً تحت الصدع ويسمى «مشغرة التحتا».

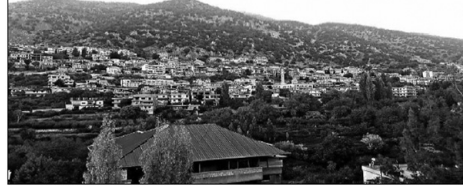
والقادم إلى مشغرة من الشمال عن طريق صغبين، يلاحظ إلى الغرب جبلاً عالية يبلغ ارتفاعها أكثر من ١٦٠٠ م ويبقى هذا الخط من الجبال ملازماً للطريق العام حتى مشغرة ويتجاوزها باتجاه الجنوب وهذه الجبال هي نوحا، أما في الشرق حيث يمتد النظر في أرجاء البقاع الفسيح فإن المسافر يطل من علو على نهر الليطاني الذي يتلوى راسماً أكواعاً متقاربة، وابتداءً من قرية صغبين، تظهر إلى الغرب من الليطاني كتل جبلية مجزأة تتوالى من

الشمال إلى الجنوب مسايرة لخط الجبال الغربية (نوحا) وتحجب عن الأنظار مجرى نهر الليطاني وتحده الطريق العام من الشرق، وعند قرية عيتيت يبدو الليطاني ثانية ببهيرته الاصطناعية التي تجمعت مياهها وراء سد القرعون الذي بدأ العمل به عام ١٩٦٠ م ولم ينته بعد^(٢)، وترى البحيرة من خلال انخفاض انهدامي يفصل جبل عريض الرّاس إلى الشمال عن جبل عريض سعد إلى الجنوب (سد القرعون من تجهيزات مشروع الليطاني الذي يؤثر بشكل فعّال على الحياة الاقتصادية والبشرية للمنطقة)، وما إن نصل مشغرة حتى نرى هذه البلدة، وقد أصبحت في أهدود ينحصر بين كتلتين جبليتين نوحا في الغرب وجبل عريض مري في الشرق، ويخترق نهر الشتاء أخفض نقاط هذا الأهدود كما أن الصدع يتلاشى في جنوب مشغرة ويفسح المجال لنوحا كي يتصل بعريض بحيرة وتصبح مشغرة مغلقة من الجنوب وكأنها من حفرة انهدامية.

وتتكون تضاريس هذه البلدة من مناطق جبلية في الشرق والغرب وسهول داخلية تمتد حسب امتداد القرية وسهول خارجية تقع خلف عريض مري

(١) قاسم، عباس، (١٩٦٤)، دراسة اقليمية عن بلدة مشغرة، جامعة دمشق، سوريا، ص ١٦.
(٢) مشغرة التاريخ الحلم، (٢٠٠٧)، مؤسسة الصادق للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، ص ١٠٢.

صورة رقم (١): امتداد بلدة مشغرة



المصدر: صفحة جارة القمر مشغرة (٢٠١٧)

www.facebook.com/

صورة رقم (٢): جبل سعد وبحيرة القرعون عند حدود مشغرة الشرقية



المصدر: صفحة جارة القمر مشغرة

www.facebook.com/(٢٠١٧)

ب - المناخ والمياه في بلدة مشغرة

- مناخ مشغرة المعتدل صيفاً

والبارد شتاءً:

إن مشغرة على الرغم من وقوعها في البقاع فإنها لا تخضع مطلقاً لمناخ المنطقة الداخلية هذا المناخ الرومي^(١)، إنها ذات الصفات القارية، ولكن بفضل وجودها على

ارتفاع يزيد على ١٠٠٠م، اكتسبت صفات خاصة من شأنها أن تعدّل من قارية المناخ المذكور وفروقه الحرارية، لذلك يكون الصيف معتدلاً بالنسبة إلى المناطق البقاعية المنخفضة بينما الشتاء أكثر برداً منها وتنخفض الحرارة دون الخمس درجات مع هطول أمطار غزيرة (وسطي التهاطل السنوي ٧٠ سم) مع احتمال تساقط الثلوج. ويعتبر شتاء مشغرة فصلاً هادئاً يختبئ الناس في بيوتهم ويستهلكون ما خبأوه من مؤونة الشتاء، والفرصة سانحة لهطول الثلوج مرات عدة في الشتاء وهذه صفة جبلية تغلب على مشغرة التي تقع على ارتفاع يقدر بمعدل وسطي يصل إلى ١٠٠٠م^(٢).

أما من جهة الطقس المحلي فيختلف بين مشغرة الفوقا ومشغرة التحتا، حيث تمتاز الأخيرة بوفرة مياهها وكثرة رطوبتها الناتجة عن تبخر جداول الأنهار المتشعبة، وتبقى مشغرة الفوقا على الرغم من جفافها النسبي أكثر اعتدالاً لارتفاعها على سفوح نيجا.

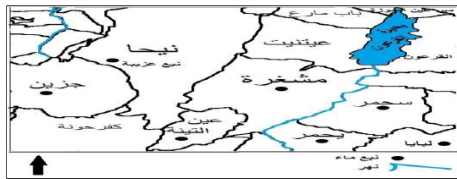
- غنى مشغرة بالمياه:

تشتهر البلدة بوفرة مياهها التي تخرج من عيون عدة تتفجر من سفوح نيجا

(١) قاسم، عباس، (١٩٦٤)، دراسة إقليمية عن بلدة مشغرة، جامعة دمشق، سوريا، ص ٩٨.
(٢) مشغرة التاريخ الحلم، (٢٠٠٧)، مؤسسة الصادق للدراسات والأنماء، بيروت، لبنان، ص ٢٥.

الشرب كما هو حال شاويتا في مشغرة الفوقا، ونبع التنور وعين أبو زيد وهذه العين تخرج مياهها من وسط مغارة صغيرة أفرغتها مياه العين في صخور السينومانيان وتعتبر منطقة أبو زيد متنزه مشغرة الأول وتقع شرقي الطريق العام ولا تبعد عنه أكثر من عشرة أمتار، حيث إن مياه هذه العين تتسرب ضمن فراغات السينومانيان، وتمر تحت سطح الطريق مباشرة وتنتهي مياه هذه العين في نهر الشتاء بعد أن تخرج المياه من المتنزه بقناة ضيقة ذات مياه غزيرة تتدفق بسرعة وسط البلدة وهنا يستفيد السكان منها في الري وخاصة في إدارة الطواحين المائية المتدرجة والمرتفعة حسب اتجاه المياه وهي في طريقها إلى نهر الشتاء، مثال طاحونة الساحة والشالوف والباشا^(٢).

خريطة رقم (٢): غنى بلدة مشغرة بالمياه.



المصدر: LocaLIBAN2017 / من تنفيذ الباحثة

وتومات جزين وخاصة نهر الشتاء الذي تتألف مياهه من ينابيع صغيرة عدة عند السفوح الدنيا لنيحا جنوب مشغرة (الخريطة رقم ٢)، يتجه هذا النهر نحو الشمال مخترقاً مشغرة في أخفض نقاط المنطقة، وتنتهي إلى هذا النهر معظم الينابيع والعيون التي تظهر في سفوح نيحا وأهم هذه الينابيع هو نبع عين الحجل الذي يلتقي بنهر الشتاء قرب منطقة الصهريج بعد أن يتلقى مياه عيني الفوار والعروس.

ويتصف نهر الشتاء بوفرة مياهه شتاءً كما يدل عليه اسمه وشحه صيفاً ولا يستفاد من هذا النهر كما يتوقع لأنه يجري في منخفض المنطقة، وفي شمال مشغرة عندما ينعطف النهر باتجاه الشمال الشرقي أقام السكان حاجزاً في سرير النهر لرفع مياهه وأخذت معظم هذه المياه بقناة تساير السفوح الدنيا الشمالية لعريض مري، ووصلت إلى سهل مشغرة حيث يتم توزيعها ويبقى نهر الشتاء كساقية صغيرة قليلة المياه في نهر الليطاني بعد أن يجتاز منخفضاً في الكتلة الشرقية (عريض مري) ليصل إلى سهل مشغرة في طريقه إلى الليطاني^(١). ونجد في مشغرة بعض الينابيع التي يستثمرها السكان لمياه

(١) الثروة المائية في لبنان، (١٩٩٧)، منشورات جمعية اصدقاء إبراهيم عبد العال، بيروت، لبنان.

(٢) شعشوع، غسان، (٢٠٠٣)، تاريخ مشغرة السياسي والعسكري والثقافي حتى العام ٢٠٠٠م، رسالة دبلوم دراسات عليا في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بيروت، لبنان، ص ٢١٨.

بعدها تم تناول المقومات الطبيعية لبلدة مشغرة لا بد من التطرق إلى الدراسة البشرية لهذه البلدة.

ج - السكان في بلدة مشغرة

يبلغ عدد سكان بلدة مشغرة حوالي ١٦ الف نسمة^(١) حسب التقديرات المستقاة من إحصاءات النفوس ومما لا شك فيه أن هذا الرقم لا يمكن الركون اليه تماماً، علماً أن الجمهورية اللبنانية لم تجر إحصاء منذ عهد الإنتداب حتى أن الأرقام الواردة في تلك الإحصاءات كانت تشمل الكثير من المغالطات. والرقم الذي أوردناه لعدد السكان في هذه البلدة تؤيده بعض الحقائق المستمدة من جداول الانتخابات حيث بلغ عدد الناخبين المسجلين رسمياً في جداول الشطب الانتخابية في عام ٢٠٠٤ م ما يزيد على ٦٥٠٠ ناخب علماً أن السن المحدد للناخب هو ٢٢ عاماً وبذلك يمثل الأحداث والأطفال القاعدة الواسعة في هرم الأعمار.

تشابه مشغرة مع غيرها من القرى اللبنانية بظاهرة خطيرة وهي كثرة المغتربين إلى الأمريكتين وإلى غرب أفريقيا والقسم الأكبر من المغتربين هو من فئة الشباب العامل.

بدأت موجة الاغتراب منذ بداية القرن الحالي، ومعظمهم لم يعودوا ولكنهم على

اتصال دائم مع ذويهم يرسلون لهم الأموال لتيسير معيشتهم في ظل الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي تعيشها المنطقة. هذا وقد خفّت موجة الهجرة حالياً وتحولت إلى هجرة داخلية نحو العاصمة بيروت وليست مشغرة وحدها التي تدفع بأبنائها للعاصمة بل جميع قرى ومدن لبنان، حتى أننا نجد في بيروت نصف سكان لبنان وأكثر والنصف الثاني يتوزع على جميع الأراضي اللبنانية، ونجد بعض القرى في البقاع الغربي (مشغرة) وفي جنوب لبنان تكاد تكون مقفرة في الأيام العادية ولا تعود إليها الحياة إلا وقت المناسبات في الأعياد والمآتم وأيام الانتخابات.

هذه الظاهرة أخذت بالازدياد في ظل سياسة النظام الاقتصادي الحر الذي تتبعه الدولة ولذلك يجد الشاب الباب مفتوحاً أمامه ليدخل ميدان التجارة أو الوظيفة الحكومية بدل العيش في قريته مزارعاً أو عاملاً لا يكفي قوت يومه.

وتمثل مشغرة صورة مصغرة عن لبنان من حيث تعايش المسيحيين والمسلمين كطائفتين متقاربتين، يتشاركان المناسبات الاجتماعية السعيدة والحزينة لا سيما بعد دحر العدو الصهيوني وتحرير أرض الجنوب والبقاع الغربي، ويعملون على

(١) الجمهورية اللبنانية، وزارة السياحة (١٩٩٨)، دليل البقاع، بيروت، لبنان، ص ٢٤٣.

وخاصة من جزيين - مشغرة. وتقوم الحكومة حالياً بإصلاح هذه الطريق وتوسيعه وتعييده.

صورة رقم (٣): ساحة التحرير في بلدة مشغرة



المصدر: حسين العمار www.facebook.com (2017)

صورة رقم (٤): الأراضي الزراعية في وهدة مشغرة



المصدر: حسين العمار www.facebook.com (٢٠١٦)

١ - النشاط الزراعي

تتأثر الزراعة هنا بالتضاريس بشكل خاص ثم بالمناخ. وتتخذ مشغرة موقعها ضمن أهدود يقترب شكله من الوهدة، وتتعلق البلدة على الطرف الغربي لهذه الوهدة، وتندرج مستويات أبنيتها من ارتفاع ١١٥٠ م وتنخفض حتى ٨٥٠ م عن مستوى نهر الشتاء، وتنعصر البلدة بين

إعادة الحياة إلى بلدتهم على الرغم من كل الظروف الاقتصادية الصعبة التي يعرفها لبنان عامةً ومنطقة البقاع الجنوبي الغربي خاصةً، وهذا ما سوف تتم الإشارة إليه بعد الاطلاع على النشاطات الاقتصادية للبلدة.

د - النشاطات الاقتصادية في بلدة مشغرة:

تقع مشغرة على طريق المواصلات الرئيسي الذي كانت الشعوب القديمة تجتازه من الشمال إلى الجنوب أو من الجنوب من حوران وفلسطين، لذلك لم تكن هذه البلدة في عزلة عن العالم، حتى أن المواصلات قديماً كانت مزدهرة في منطقة البقاع أكثر من اليوم، ولا نجد حالياً غير طريق واحد فرعي يأتي من شتورة - قب الياس - خربة قنافار - الخريزات - صغبين - عيتيت - مشغرة.

وهنا يتوقف طريق السيارات على الرغم من أن الطريق إلى جزيين معبدة أو شبه معبدة لكنها غير سالكة إلا لمن يقصدها، وتعتبر مشغرة حالياً آخر قرية يصل إليها طريق شتورة - قب الياس.

وتسلك السيارات من بيروت إلى مشغرة طريق الشام عبر ظهر البيدر إلى شتورة ثم تسلك الطريق المتفرع المذكور، مع العلم إن طريق بيروت - صيدا الساحلي - جزيين - مشغرة هو أقرب، لكنه يُعد الموقع أصعب بسبب إهمال هذا الطريق

الوضع كثيراً، فإنتاج مشغرة من التفاح تراجع ويبلغ حوالي ثلاثمئة ألف قفص، سعة الواحد منها عشرين كلغ، ولكن هذا التفاح لا يحقق أرباحاً بالنسبة للمزارعين، فلا يجد أسواقاً لبيعه ولا من يدفع ثمن كلفته فقط، إذ إن قفص التفاح يباع بثلاثين ألف ليرة لبنانية وهي كما قلنا لا تغطي تكلفة إنتاجه وتعرض المزارع للخسارة الدائمة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المستهلك فالذي يحقق الربح هو التاجر الذي يتحكم بالمزارع والمستهلك على حد سواء.

قديمًا كان كل واحد من أبناء مشغرة يملك بستاناً أو حديقة قرب منزله أو في السهل، لكن اليوم تعاني مشغرة من زحف العمران فوق أراضيها الزراعية بسبب ضعف هذا القطاع والخسارة التي يتكبدها المزارعين. تراجعت الزراعة كثيراً في مشغرة والخوف الكبير من أن يتركها كل المشاغرة في المستقبل، إذ إن عدد المزارعين فيها بات اليوم قليلاً جداً، ومعظمهم لا يعتمد اعتماداً كلياً على الزراعة في معيشتهم، بل يقومون بأعمال أخرى أو تأتيهم الأموال من المهجر. وقبل الانتقال إلى قطاع الصناعة في البلدة، لا بد من التوقف عند أنواع المزروعات في مشغرة.

نيحا غرباً وعريض مري شرقاً. ويميل قعر هذه الحفرة من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي حسب اتجاه نهر الشتاء الذي يخرج من الحفرة بواسطة خانق، قاطعاً عريض مري الذي يبقى في جنوبه وجبل سعد في شماله ويتابع النهر سيره إلى الليطاني ولو كانت الوهدة واسعة وعلى اتصال مباشر بسهل مشغرة، لانقلبت المنطقة إلى غوطة خضراء تسقى بالمياه الهابطة من نيحا مباشرة. أما أهم المناطق الزراعية في هذه الوهدة البقاعية هي:

١ - أ - المناطق الزراعية في مشغرة

إنّ وفرة المياه في مشغرة ساعدت على استثمار الأراضي الزراعية بكاملها، فمعدل الأمطار السنوي يبلغ حوالي ١١٤٠ ملم (حسب إحصاءات مرصد كسارة عام ٢٠٠٧ م) والينابيع كثيرة: نبع التنور وعين نبع أبو زيد، إضافة إلى نهر الشتاء.

- نشاط مشغرة الزراعي حالياً:

بينما كانت مشغرة قديماً تشتهر بزراعة أشجار التوت لصناعة الحرير الطبيعي فإنّها اليوم تشتهر بزراعة الأشجار المثمرة وخاصة التفاح. وكانت الدولة قديماً تتدخل لتسويق الإنتاج المشغراني وتشجع المشاغرة على الزراعة^(١). لكن اليوم تغير

(١) طرابلسي، فواز، (٢٠٠٤)، يا قمر مشغرة: المحسوبة، الاقتصاد والتوازن الطائفي، رياض نجيب الريس، بيروت، لبنان، ص ٢١٦.

١ - ب - أنواع المزروعات في مشغرة:

لقد تم الإشارة سابقاً إلى أن مشغرة تشتهر بالتفاح والإجاص، ولكن الكمية المنتجة منها سنوياً غير محددة بشكل صحيح، إذ تم الاعتماد في وضع الجدول على المعلومات التي تم الحصول عليها من المقابلات الشخصية من مزارعين، تجار، وأصحاب برادات لتبريد وتوضيب الفاكهة، إذ لا يوجد إحصاءات يمكن الاعتماد عليها، بل جميعها أرقام تقريبية ٣٠٠ ألف قفص سعة الواحد ٢٠ كلغ، ولكن هذا التفاح لا يحقق أرباحاً بالنسبة إلى المزارعين، إذ لا يجد أسواقاً لبيعه

جدول احصائي رقم (١): أنواع المزروعات وكمية إنتاجها السنوية في بلدة مشغرة سنة ٢٠١٦

أنواع المزروعات	الكمية المنتجة سنوياً
التفاح	٤٥٠ الف قفص
الإجاص	١٢٠ الف قفص
الخوخ	١٦٠ قفص
الدراق	١١٠ قفص
السفرجل	٥٠ الف قفص
اللوزيات	٢٠ الف قفص

كذلك يوجد في مشغرة مساحات من الأرض تُزرع قمحاً وحبوباً... وغيرها ولكن لم يعط أي مزارع رقم تقريبي للإنتاج، بل كانت الإشارة فقط إلى أنها لا تكفي للاستهلاك المحلي، وكذلك الأمر بالنسبة

إلى الزيتون والخضار، إذ تستورد الكميات الباقية من الخارج.

٢ - القطاع الصناعي:

إن موقع مشغرة وتضاريسها وضيق السهول فيها دفعت البلدة لتنوع مواردها واللجوء إلى النشاطات الصناعية والتجارية لتسد كفايتها. ولدى مقارنة هذه البلدة بغيرها من القرى والبلدات المحيطة بها يتبين لنا أنها تمتاز بطابعها الصناعي إلى جانب النشاط الزراعي. وأبرز الصناعات في مشغرة هي صناعة الجلود، وقد كان في مشغرة حوالي أربعين مصنع جلد، وحوالي خمسة عشر براد لتخزين وتوضيب التفاح ولكن تقلصت هذه النسبة؛ إذ لم يبق سوى مصنع واحد للجلود يعود «لعائلة كرم» و٨ برادات، يؤدي بعضهم الدور التجاري أكثر من الدور الصناعي، وسيتم الاطلاع على هذه الصناعات في ما يلي:

٢ - أ - صناعة التبريد والتوضيب:

يوجد في مشغرة برادات لتوضيب وتخزين الفاكهة ومن الفواكه التي تخزن فيها (التفاح، الإجاص، العنب والسفرجل... وغيره) ومن أجل حفظها يُضاف إليها مواداً كيميائية وهي الشب الزرقاء، الملح، الكلس العربي والـ Karatee وتستهمل المياه أيضاً بشكل كبير، وهذه البرادات تحتاج إلى الدعم وإلى عقد اتفاقيات تجارية لتصدير بضاعتها.

٢ - ب - صناعة الجلود:

كانت صناعة الجلود في بدايتها منذ الأربعمينات والخمسينات صناعة صغيرة، وقد تطورت كثيراً بعد ذلك وخاصة في الستينات، إذ أُدخلت إليها الآلات والوسائل الفنية المستعملة في أوروبا والمواد الكيماوية، كالزرنينخ والاكسترا وحامض الكبريت والكستنا والأصبغة والأمونيك والفورمول... غيرها. وبذلك تحسنت هذه الصناعة وأصبحت تضاهي أرقى صناعات العالم من حيث الجودة. أما الجلد الذي ينتج في مشغرة فهو «النعل» و«الفرعة» وقد كان عدد العاملين في هذه المهنة حوالي ألف عامل وكانت هذه الصناعات تعطيتهم مردوداً مالياً كبيراً. ولكن هذا الوضع تغير في زمننا الحاضر، فمشغرة التي بلغت شأناً بعيداً في صناعة الجلود فقدت الكثير من أهميتها، واقتصر الأمر على مصنع واحد يعاني من مشاكل كثيرة منها:

- قلة الأيدي العاملة

- ظروف العمل غير المؤاتية لجيل الشباب

- الظروف الاقتصادية التي تشكو العجز وحاجة هذه الصناعة لعقد اتفاقيات تجارية؛ وبذلك يمكن القول إن هذه الصناعة تحتاج إلى دعم مادي وتجاري إذا ما أريد لها الاستمرار. ويقدر المعدل الشهري لسنة ١٩٩٧م في إنتاج «الفرعة» لمصنع عائلة كرم بتسعين ألف قدم.

٢ - ج - صناعة الغراء:

إن صناعة الجلود كانت السبب للقيام بصناعات أخرى، إذ يلحق بها صناعة «الغراء» الذي يُستخرج من معالجة فضلات الجلود أي (النفائيات التي تسقط من الجلد بعد المعالجة الكيماوية) وتعالج هذه الفضلات بتجفيفها بأشعة الشمس ثم بغليها حتى الذوبان وبعدها تسكب على صفائح وتعرض للشمس، واليوم يوجد في مشغرة مغرّاتان تعودان لعائلة «مزاحم وحمود».

٢ - د - الصناعات الأخرى في

مشغرة:

نجد في مشغرة أيضاً معمل لصناعة الألبان والألبان ومؤسسات عدة صغيرة للحداة الإفرنجية ومصانع صغيرة للخشب ولصناعة المفروشات المنزلية؛ وهي تستعمل أيضاً أي (النفائيات المتبقية) في صناعة الغراء والأوراق، وذلك من قص الجلود والتخفيف سماكتها.

بعد التحدث عن صناعات مشغرة وأثارها الإيجابية في تنشيط الحياة الاقتصادية لا بد من التطرق في ما بعد للمشاكل التي تعاني منها كما القطاع الزراعي.

٣ - التجارة والخدمات في بلدة

مشغرة:

تصدّر مشغرة التفاح، الإجاص، الخوخ

كان أبناء مشغرة، ولا يزالون من المثقفين المتميزين في ثقافتهم، فهم يبدعون في هذه الثقافة ويفيدون غيرهم بها، فمنهم المثقفون الواعون والمدركون لما حولهم، وهؤلاء كان لهم دور أساسي في كل المجالات الاجتماعية، وهكذا كانوا يظهرون دائماً حامليين لواء الثقافة والعلم. وعلى صعيد الثقافة أيضاً يمكن أن نجزم أن وجود مؤسسات سياسية داخل مشغرة كان دليلاً على انفتاح أبنائها الثقافي واطلاعهم على مبادئ الأحزاب، إذ إن مشغرة منذ القدم كان فيها تعددية حزبية، على الرغم من أنها لم تكن كبيرة، وهذا دليل آخر على مدى ثقافة أبناء البلدة.

٣ - ب - المجال التعليمي:

انطلاقاً مما ذكرناه في المجال الثقافي، فإننا نشير إلى أن أبناء مشغرة كانوا دائماً يحب بعضهم مساعدة بعض؛ لذا كان لهذه الأخلاق تأثير على صعيد العلم، فعندما تعلم أول جيل في مشغرة، قام بالتعليم في القرى المجاورة، خاصة في القرى الصغيرة منها، مثل سحمر حيث كان أبناء مشغرة يديرون مدارسها، ولا ننسى حين نتحدث عن المستوى التعليمي أن نشير إلى عدد مدارس مشغرة الذي بلغ أربع مدارس رسمية، وثانوية ومهنية رسمية.

ولكن مع ذلك كله، فإن مشغرة لا تزال تعاني على صعيد الثقافة والتعليم، إذ إنه لا

وبعض أنواع الخضار، الألبان، الأجبان وبعض الصناعات الغذائية المنزلية، وتستورد جميع المواد الغذائية والمصنوعات على مختلف أنواعها. ولا تستطيع البلدة أن تصل إلى درجة الاكتفاء الذاتي، لذا يوجد الكثير من المحال التجارية لتلبية متطلبات المشاغرة ويقدر عددها بحوالي أربعين محلاً في كل أحياء مشغرة، ولكن هذا العدد يعني تضخماً للقطاع التجاري على الرغم من أن بعضها يقدم خدمات ولكن بسيطة جداً للقرى المجاورة. ولكن مشغرة التي كانت سوقاً لهذه القرى في الماضي، فقدت شأنها بعض الشيء بعد انتقال التجارة والخدمات إلى القرى والبلدات المجاورة كافة؛ لا سيما الصغيرة منها.

بعدما تناولنا قطاع التجارة لا بد من التطرق إلى الخدمات المتوفرة حالياً في بلدة مشغرة ويمكن البدء بالقطاع التعليمي الثقافي.

٣ - أ - الوضع الثقافي:

مشغرة التي واكبت التطور والتقدم وكانت رائدة في صناعة الجلود ومزدهرة في التجارة والزراعة والتي وصل أبنائها إلى أميركا وكندا وإيطاليا وألمانيا والبرازيل... والدول العربية المجاورة، عرف أبنائها قبل غيرهم من أبناء البقاع الغربي التعليم والثقافة.

كذلك هي حال طرق مشغرة الداخلية ضيقة ومزدحمة وتظهر التعديات من أصحاب المحلات التجارية والمساكن على أطرافها بشكل واضح.

٢ - إهمال المنطقة: بعد أن تناولنا الواقع الاقتصادي في مشغرة نستنتج أن هذه البلدة اللبنانية مهمة من قبل الدولة كما الكثير من القرى والبلدات بسبب بعدها عن العاصمة بيروت من جهة، وبسبب غياب الخطط التنموية والدراسات المطلوبة من قبل وزارة التخطيط والأشغال من جهة أخرى.

٣ - عدم وجود مهندسين زراعيين يشرفون على العمل الزراعي:

نلاحظ في مشغرة أن المزارع الذي يملك خبرة يساعد المزارع المبتدئ. ويعتمد المزارعون على تجاربهم الشخصية ولا يستشيرون أخصائيين لمعالجة المشاكل والأمراض الزراعية (كالدبق الذي يعاني منه الإحاص)، لذلك قامت في جنوب البلدة في السفوح والمنخفضات وعلى مساحات كبيرة كروم العنب والتين البعلية.

٤ - تلوث المياه التي يروي بها الأهالي أراضيهم الزراعية في سهل مشغرة:

كما ذكرنا سابقاً، إن مشغرة تشتهر بكثرة مياهها، لكن سوء استغلال هذه المياه

يوجد مكتبة عامة في مشغرة من أجل الاطلاع والمطالعة، وكذلك أقفلت السينما منذ الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٨٢م واليوم يعاني أبناء البلدة من عدم توفر مساكن لهم في العاصمة لكي يكملوا دراستهم الجامعية. والجامعة اللبنانية الفرع الرابع في زحلة يقتصر على الفروع الأدبية إضافة إلى وجود فروع في الحقوق والعلوم السياسية والرياضيات والعلوم الاجتماعية، ولكن لا تزال المنطقة ككل المناطق اللبنانية تعاني من عدم وجود كلية طب وهندسة تتبع للجامعة الوطنية.... بعدما تناولنا مقومات مشغرة بشقيها الطبيعي والبشري الاقتصادي، لا بد من الانتقال إلى الحيز العملي لتحديد مشاكل هذه البقعة من أرض لبنان واقتراح حلول مناسبة لمعالجتها.

I - المشاكل التي تعاني منها مشغرة حالياً: من أبرز المشاكل التي تعاني منها بلدة مشغرة هي:

١ - طرق المواصلات: الطريق الممتد من زحلة إلى مشغرة بفرعيه الشرقي والغربي هو طريق ضيق كثير التعرجات، يحدث عليه الكثير من الحوادث بسبب كثرة الحفر المنتشرة فيه، وعدم وجود إنارة عليه، وهو مُعرَّض أيضاً للإقفال في حال سقوط الصخور من الجبال المجاورة له في أيام الشتاء.

الأراضي الزراعية في وسط البلدة وفي سهل مشجرة، هي أقنية بدائية من الأترنيت ومعظمها قد هدم نتيجة الإهمال والتخريب، والذي لا يزال، فهو يؤثر سلباً على صحة الإنسان لأنه مصنوع من مادة الأترنيت، وقد نُشرت مقالات عدة حول أضرار هذه المادة على صحة الإنسان منها في جريدة الديار العدد الصادر في ١٢ آذار ١٩٩٨م صفحة ١٨ بتحقيق لسوزان برباري.

٥ - تلوث التربة: تذهب مياه نهر الليطاني الملوثة بالمواد الكيماوية لتروي الأراضي وبالتالي فإنها ستتفاعل مع ذرات التراب وستضرها؛ وعلى المدى الطويل ستفقد خصوبتها.

٦ - إهمال القطاع الزراعي وتقهره:

تراجع النشاط الزراعي في مشجرة كثيراً، وذلك بسبب عدد من العوامل منها، عدم قدرة الإنتاج المحلي على منافسة أسعار المنتجات الزراعية المستوردة التي كانت تصل إلى أسواق لبنان عن طريق المصنع، إضافةً إلى غياب دور التعاونيات الزراعية ووزارة الزراعة، كذلك انتشار بعض الأمراض الزراعية مثل دبق الغجاص الذي يسبب علاجه تكاليف إضافية يتكبدها المزارع... وغيرها من المشاكل التي أدت

يشكل خطراً على البيئة، فالملاحظ أن أقنية الري هي أقنية بدائية مهدمة إضافةً إلى أن معظم المياه التي تروي سهل مشجرة هي من نهر الليطاني الذي يعاني من التلوث حالياً، ما يدل على أن المنتجات الزراعية المروية كلها من نهر الليطاني تسبب الأمراض الخطيرة، إذ إن الباحثين في علم البيئة الزراعية، يتفقون أنه على أصحاب الزراعات المروية التنبه دائماً لنوع المياه المستعملة للري، لأن هذا الأمر يؤثر جذرياً على الأساليب المتبعة في الرّي وفي تصريف المياه، ويقرر إلى حد بعيد أنواع المواسم التي يمكن زراعتها بنجاح. فالمياه الطبيعية، السطحية أو الجوفية، المستعملة في الرّي تحتوي على كميات من المواد المحلولة تعرف كيميائياً بالأملح، وتقدر بحوالي خمسة غرامات في كل ليتر منها^(١).

فكيف إذا كانت هذه المياه ملوثة وتُرمى فيها النفايات عندئذٍ مما لا شك فيه، أنها ليست فقط ستسبب التملح للتربة، بل ستسبب أمراضاً، وذلك نتيجة ريّ المزروعات من المياه الآسنة ومن ثم تناولها من قبل الإنسان.

٥ - قنوات الري البدائية:

إن أقنية الري التي توصل المياه إلى

(١) الهبر، ريكاردوس، (١٩٩٩)، طبيعة لبنان بيئة الإنسان، موارد في طريق الزوال، اليونيسف، المطبعة العربية، بيروت، لبنان ص ١٠٤.

إلى تفهقر هذا القطاع ودفعت بالمزارعين للتوجه نحو القطاع الثالثي (أي قطاع التجارة والخدمات) وبيع أراضيهم أو استثمارها في العمران.

٧ - التمدد العمراني على حساب الأراضي الزراعية:

تعد مشكلة الزحف العمراني على حساب الأراضي الزراعية من المشاكل التي تعاني منها مشغرة كما كل بلدات لبنان ومدنه، وخاصة تلك التي تمتاز بزيادات سكانية سريعة، ويعرف التوسع العمراني على أنه الزيادة المستمرة في أعداد السكان سواء كان ذلك في سكن منتظم أو غير منتظم، وهذا ما يؤدي إلى زيادة الطلب على الأراضي الزراعية ومن ثم إيجاد خلل في التوازن البيئي. فضلاً عن الزيادة السكانية التي عرفتها مشغرة هناك عوامل أخرى تساعد على التوسع العمراني، أبرزها استحداث الأحياء السكنية الجديدة كما حي النجبي نون والأحياء السكنية في سهل مشغرة بالقرب من الأراضي الزراعية فضلاً عن العامل المادي الذي من خلاله يتم إغراء أصحاب الأرض الزراعية الواقعة قرب مدرسة راهبات القلبين الأقدسين واستغلالها لأغراض غير زراعية، كما أن للعوامل الاجتماعية أيضاً دور بارز من خلال رغبة بعض السكان في الانتقال إلى ضواحي البلدة بعد أن ضاق وسطها عليهم،

إذ يقتطعون مساحات معينة من الأراضي الزراعية ويحولونها إلى أرض سكنية ترفيهية فقط من دون الاستفادة منها في الزراعة، وهذا ما يحصل فعلياً اليوم في مشغرة.

II - الخطة المقترحة لمعالجة هذه المشاكل

بعدما تناولنا المشاكل التي تعاني منها هذه البقعة من أرض لبنان، لا بد من اقتراح حلول واقعية يمكن تطبيقها وهي الآتية:

١ - إنشاء أو توسع واسع في سهل مشغرة يربط حي مهنية مشغرة وأطراف الصهريج مباشرةً بسهل مشغرة عبر التحويلات إلى البيادر من دون المرور في سوق البلدة، للتخفيف من كثافة السير الذي يعرفه وسط مشغرة.

٢ - تحويل الشاحنات التي تنقل مواد البناء وإلزامها الانتقال عبر هذه الشوارع ومنعها المرور في وسط البلدة لما تسببه من ازدحام سير وحوادث.

٣ - تحديد مراكز العمران وخاصة الرئيسية منها بصورة دقيقة وحازمة مع عدم تمديدها مهما كانت الظروف حتى يتم وقف الزحف العمراني على حساب الأراضي الزراعية في سهل مشغرة، مع سن قوانين تمنع بصورة قاطعة إقامة الأبنية فوق الأراضي الزراعية وتركيزها في نطاق الأراضي البور التي لا تصلح للاستغلال الزراعي.

٤ - إنشاء مكاتب تابعة لوزارة الزراعة والتجارة تهتم بتصريف المنتجات الزراعية بأسعار مقبولة، ويكون ذلك بالتنسيق مع البلدية، كذلك ضرورة مد المزارعين بالمعلومات اللازمة لمعالجة الأمراض التي تعاني منها مزروعاتهم.

٥ - إعادة تأهيل قنوات الريّ البدائية على أساس علمي صحيح وتعميقها إذا اقتدت الحاجة، أو استعمال طرق ريّ جديدة «الريّ بالتنقيط»... أو غيرها وكلها طرق باهظة التكاليف وتحتاج لدراسات وافية، لا سيما على منحدرات بلدة مشغرة.

٦ - توعية المزارعين لحل مشكلة تملح التربة، وتنبيههم إلى مضار الإسراف في استخدام الريّ عن طريق الإرشاد الزراعي أو وسائل الإعلام المختلفة.

٧ - إنشاء محطات تكرير للمياه الملوثة (أو استخدام الفيلتر Filter) واستعمال المراوح داخل البرادات لتوضيب الفاكهة للتخفيف من الروائح والمواد الكيماوية المستعملة للتبريد.

٨ - إزالة المخالفات البنائية من على جوانب الطرقات سواء في السوق أو داخل الحارات وفرض الزامية البناء وفق تراخيص بناء مسبقة، تكون البلدية وحدها مسؤولة عنها، من دون مراعاة خواطر بعض السكان لأن أمر تنظيم البلدة مطلوب من الجميع من دون استثناءات.

٩ - إعادة تأهيل الطرقات الداخلية في أحياء مشغرة كافة؛ وتأمين مواقف سيارات على أطراف الأحياء سواء في مشغرة الفوقا أو في وسط السوق التجاري، أو في ساحة الضيعة، إذ تتوفر أراض بور وأراض مهملة في الأحياء المذكورة تصلح لهذه الغاية.

١٠ - تشجير مداخل البلدة الشمالية والجنوبية والاهتمام بالغرسات كما يجب وعدم السماح لقطعان الماعز برعيها والدخول إليها.

خاتمة

إن حتمية التطور الذي تخضع له مشغرة كغيرها من المناطق اللبنانية، هي حتمية تحدد طريقة سيرها، لذلك كانت نواحي التطور ذات صلة بحاجات المنطقة أولاً وتحسين البلدة ثانياً.

فمن الناحية الأولى: سيتم افتتاح مستشفى مشغرة الحكومي على طريق مشغرة الجنوبية في منطقة الفوار، ويُنتظر أن يستقطب عدداً كبيراً من الموظفين بعد بدء العمل به منذ فترة قصيرة، كما سيستقطب مرضى من منطقة البقاع الجنوبي الغربي كلها، وهذا عامل فعال في تقدم البلدة وتوسعها وخطوة كبيرة نحو اتصال مشغرة وجزين عن طريق قرية عين التينة، وبذلك يصبح طريق المواصلات المار في البقاع صلة وثيقة مع الشاطئ قادماً من شتورة - مشغرة - جزين -

صيدا أو مشغرة - ميدون - كفرحونة - النبطية، وهذا من شأنه ضبط المواصلات والتجارة في منطقة البقاع الجنوبي الغربي كلها، وبذلك تستعيد مشغرة دورها الاقتصادي وتستفيد من ممر طبيعي كان سبباً في وجود هذه البلدة. أضف إلى ذلك أهمية مشروع الليطاني وإن لم يؤد فائدة كبرى من حيث الرّي لكنه زاد في حيوية المنطقة وأدخل تيار السياحة والاصطياف إليها بعد أن كانت مهملة خاصة في الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين.

من الناحية الثانية: بما يختص بتحسين البلدة بشكل مباشر، فهذا يعود إلى نشاط أهلها ودأبهم على تطويرها ويتجلى ذلك بالنواحي العمرانية، وبإعادة العمل إلى بلديتها التي غابت عنها لمدة ثلاثين سنة ولم تعد الا في ٩ / أيار ٢٠٠٤م، لذا يتم التساؤل في النهاية: هل ستعود هذه البلدة إلى الازدهار الذي عرفته في أواخر الستينات وأوائل السبعينات أم سيستمر الإهمال إلى ما لا نهاية؟ وهل سيكون المجلس البلدي فعالاً في تحسين هذه البلدة؟

في الختام أتمنى أن تؤخذ اقتراحات هذا البحث على محمل الجد وأن تستفيد منها بلدية مشغرة وسكانها بأقصى ما يمكن. متمنيةً مزيداً من التطور والتنمية لبلدتي الحبيبة.

فهرس الخرائط:

خريطة رقم ١: موقع مشغرة على خريطة لبنان.

خريطة رقم ٢: غنى بلدة مشغرة بالمياه.

فهرس الجداول:

جدول رقم ١: أهم منتجات مشغرة الزراعية وكمية الإنتاج السنوية في سنة ٢٠١٦م.

فهرس الصور:

صورة رقم ١: بلدة مشغرة سنة ٢٠١٧م

صورة رقم ٢: جبل سعد وبحيرة القرعون عند حدود مشغرة الشرقية سنة ٢٠١٧م

صورة رقم ٣: ساحة التحرير في بلدة مشغرة وتدفق مياهها سنة ٢٠١٧ م.

صورة رقم ٤: الاراضي الزراعية في وهدة مشغرة سنة ٢٠١٦ م.

فهرس المصادر والمراجع

المراجع المكتوبة باللغة العربية من كتب منشورة ومقالات:

- ١ - الخشن، الشيخ حسين، (٢٠٠٣م)، مشغرة في التاريخ، منشورات القماطي، بيروت، لبنان.
- ٢ - الهبر، ريكاردوس، (١٩٩٩ م)، طبيعة لبنان بيئة الإنسان، موارد في طريق الزوال، اليونيسف، المطبعة العربية، بيروت، لبنان.
- ٣ - شعشوع، غسان، (٢٠٠٣)، تاريخ مشغرة السياسي والعسكري والثقافي حتى العام ٢٠٠٠م، رسالة دبلوم دراسات عليا في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بيروت، لبنان.
- ٤ - قاسم، عباس، (١٩٦٤)، دراسة اقليمية عن بلدة مشغرة، جامعة دمشق، سوريا.
- ٥ - طرابلسي، فواز، (٢٠٠٤)، يا قمر مشغرة: المحسوبة، الاقتصاد والتوازن الطائفي، رياض نجيب الريس، بيروت، لبنان.
- ٦ - مشغرة التاريخ الحلم، (٢٠٠٧)، مؤسسة الصادق للدراسات والأنماء، بيروت، لبنان.

المنشورات:

- ١ - الجمهورية اللبنانية، منشورات المصلحة الوطنية لنهر الليطاني (١٩٩٣م)، المخطط التوجيهي لاستثمار حوض الليطاني، بيروت، لبنان.
- ٢ - الثروة المائية في لبنان، (١٩٩٧م)، منشورات جمعية اصداق ابراهيم عبد العال، بيروت، لبنان.
- ٣ - الجمهورية اللبنانية، وزارة السياحة (١٩٩٨م)، دليل البقاع، بيروت، لبنان.

المصادر والمراجع باللغة الاجنبية:

- 1 - Etat de l'environnement et ses tendances au Liban (2010), UNDP.

المواقع الالكترونية:

- 1 - www.facebook.com / جارة القمر مشغرة
- 2 - LocaLIBAN2017

المصادر:

مقابلات مع السادة:

- جوزيف كرم «مسؤول سابق في مصنع عائلة كرم لدباغة الجلود».
- حيدر أحمد «مسؤول براد لتوضيب الفاكهة».
- مقابلة مع نائب رئيس بلدية مشغرة «المهندس عبد الله هدلا».

الصَّلَكة في شعر محمّد زينو شومان

خلود عبد النّبي ياسين

غربة قاسية، أميراً في الشّعْر وأميراً في الصَّلَكة^(٢).

والسؤال الذي يُطرح: لماذا كان محمّد زينو شومان الشّاعر الكبير المتألّق، في عداد الشّعراء الصّعاليك، وأبرزهم في عصرنا الحاضر؟^(٣).

– للإجابة عن هذا السؤال، سنقوم بتعريف ظاهرة الصَّلَكة عموماً، وسندرس مقاطع شعريّة تنتمي إليها، في شعر محمّد زينو شومان، وبالتحديد في دواوين (مراوغات الفتى الهامشي، هوة الأسماء وأغمضت عشقي لأرى)، للكشف عن صعلكته، وذلك من خلال تحليل الموضوعات التي كرّرها في دواوينه الأنفة الذّكر.

● أولاً: تعريف الصَّلَكة:

لفظ (ص، ع، ل، ك) جذر رباعي على

محمّد زينو شومان، شاعر من الشّعراء الصّعاليك في عصرنا الحالي، وقد صنّفه الدّكتور حسن جعفر نور الدّين في موسوعة الشّعراء الصّعاليك، الجزء الثّاني، أنّه عروة العصر الحديث، حيث اعتبره زين الصّعاليك الجدد الذين يحملون على مناكبهم أثقال الحياة، بعد أن ورث الفقر المجبول بالعقّة^(١) والصّبر وقوّة التحمّل، والرّزانة والتمرد في آن معاً. فمن ديوانه الأوّل وحتى الأخير نلمس الوحدة الوجدانيّة والتّمازج الشّعوري مع الأرض والطّبيعة.

تتصدّر الصَّلَكة قصائده، فهي نابغة من وجعه وألمه، وتذكّره وحاجته. وكما عقّ المجتمع الجاهلي عروة وسواه من الشّعراء الصّعاليك الجاهليين، عقّ المجتمع الحالي محمّد زينو شومان، وقلب له ظهر المجن، وطعنه دون أن يطعنه هو، حتّى عاش في

(١) حسن جعفر نور الدّين، موسوعة الشّعراء الصّعاليك، الصَّلَكة والشّعرا الصّعلوكي في الميزان، دار رشاد برس، بيروت، ٢٠٠٧، ج ٢، ص ٤٨٦.

(٢) م. ن. ص ٤٨٦.

(٣) م. ن. ص ٤٨٧.

وزن فَعْلَل. فالصَّلوك هو «الفقير الذي لا مال له. زاد الأزهري: ولا اعتماد»^(١)، وفي هذا التعريف نجد ابن الرومي ميّلاً إلى الاختزال في ضبط الحد اللغوي للمفهوم لاعتماده منزعاً معيارياً واضحاً؛ فربط الحد اللغوي ببعده المادي أساساً.

«والصَّلوك» هو «الفاك»، أي الجريء والشجاع. والواقع أنّ هذا المعنى مفيد في صياغة بعض «قيم وأفكار الصّعاليك، وذلك في التأكيد أنّها فكرانيّة الجرأة والشّجعان»^(٢).

«فالصَّلوك عالي الهمّة شجاع، وحركته تتميز بأنّها مستقلّة»^(٣). والصَّلعة في المفهوم اللغوي هي «الفقر الذي يجرد الإنسان من ماله، ويظهره ضامراً هزياً بين أولئك الذين أتخمهم المال وسمّهم»^(٤).

وفي الاصطلاح: الصَّلوك هو فردٌ يمارس الغزو والإغارة والسلب بمفرده، أو مع جماعة من أجل سدّ جوعه واستمرار حياته، ولذلك يمكن القول: إنّ «مادّة صعلك تدور في دائرتين: إحداهما الدائرة اللغويّة التي تدلّ على معنى الفقر، وما يتّصل به

من حرمان في الحياة. وضيق في أسباب العيش. والأخرى نستطيع أن نطلق عليها الدائرة الاجتماعيّة، وفيها نرى المادّة تتطور لتدلّ على صفات خاصّة تتّصل بالوضع الاجتماعي للفرد في مجتمعه، وبالأسلوب الذي يسلكه في الحياة ليتغيّر هذا الوضع»^(٥).

ونخلص ممّا سبق إلى أمر مفاده: إنّ هذه الظاهرة على صلة لصيقة ومتينة بالفقر والعوز، وتجرّدت من دلالتها اللغويّة الجاهليّة الخالصة. وأضحى لمصطلح الصَّلعة دلالات اصطلاحية منها ما أورده صاحب المقال في دائرة المعارف الإسلاميّة إذ يقول معرفاً الصَّلوك بكونه:

«اسماً مشتقاً من الجذر (س، ل، ك) ويعني السّفَر أو اتّباع الطّريق»^(٦).

● ثانياً: ملامح الصَّلعة في دواوين (مراوغات الفتى الهامشي، هوة الأسماء وأغمضت عشقي لأرى):

نقع في هذه الدواوين على العديد من القصائد أو المقاطع الشعريّة التي تحتوي على ملامح الصَّلعة وتجلياتها، حيث عبّر

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٠، دار صادر، بيروت، ص ٤٥٦.

(٢) أحمد الرفاعي، شكل آخر للصَّلعة، دار كراس، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠، ص ١٤٩ و ١٥٠.

(٣) م. ن، ص ١٥٠.

(٤) مريم حمزة، الأدب بين الشرق والغرب، دار المواسم، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٩٢ و ٩٣.

(٥) كريم الوائلي، الشعر الجاهلي قضايا وظواهره الفنيّة، دار العلميّة، القاهرة، ص ١٦٢-١٦٣.

(٦) كمال أبو ديب، الرّؤى المقنّعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، الهيئة المصريّة العامّة، ط ١، ١٩٨٦.

عنها شومان من خلال طرحه موضوعات وقضايا متعدّدة تتقاطع.

والموضوعات التي طرحها الصّعاليك منذ الجاهليّة. ومن هذه الموضوعات التي شكّلت رؤيته الخاصّة، نذكر:

أ - القلق:

القلق تعبير لفظي له دلالته المعبّرة عنه. فالقلق هو عدم الاستقرار في مكان واحد^(١). ويمكن أن يكون القلق أيضاً عدم الاستقرار على حال واحدة، حيث يأخذ بعداً معنوياً^(٢).

يترافق القلق مع التشرد وعدم الطمأنينة، فتحدّث شومان عن الطمأنينة الشاردة:

«حضرة الأرض:

ها نحن بين يديك كسرب اليتامى

فكم شرك قد نصبناه للغيم

أو لقطيع الأمل!

كم خرجنا لنوقع بالحلم خلسة!

أدركينا قبيل التّنائى

لا نزال كما نحن تعوزنا

قوّة ما

لاصطياد طمأنينة شاردة»^(٣).

يبتدئ محمّد زينو شومان نصّه الشعري بحرف نداء محذوف (حضرة الأرض)، والتّقدير: (يا حضرة الأرض)، والجدير بالذّكر أنّ هذه المفردة أي الأرض، قد استخدمها العرب كثيراً في قصائدهم بمعنى المكان أو الديار.

فالأرض مصدر اهتمام ودراسة ليس فقط عند الشّاعر، «ففي العصر الحديث اتّخذت الأرض بعداً وطنياً وقومياً، وكانت بالنّسبة إلى الأدباء والشّعراء هي القضيّة، ففي العام (١٩٤٨م)، حصل تقسيم فلسطين، ورفض العرب هذا الواقع، فكانت الحرب التي فشل فيها العرب في إعادة الأرض إلى أصحابها، وتمكّنت مجموعة من العصابات، من إقامة كيان على أرض فلسطين العربيّة. هذا الحدث ترك بصمات سلبية عند الشّعراء والقصاصين فتصدّوا له»^(٤).

من هنا، ندرك أهميّة الأرض بالنّسبة لشومان المنتمي إلى طبقة الشّعراء المحبّين لها، والمدافعين عنها، خاصّة أنّه شاعر

(١) راجع مادة «قلق» في: ابن منظور، لسان العرب، المرتضى الزبيدي، تاج العروس، أحمد رضا، متن اللغة.

(٢) جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤)، فيلسوف إنكليزي، عارض نظرية الحقّ الإلهي، نقلاً عن منير البعلبكي، المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢٧، ٢٠٠٣، ص ٥٥.

(٣) محمّد زينو شومان، هوّة الأسماء، ص ٥.

(٤) علي حجازي، القصة القصيرة في لبنان، دار المؤلّف، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٥، ص ٥٣٦.

جنوبي، عايش الأرض، وعاش في كنفها في
قريته زفتا.

تبدو حالة القلق مسيطرة على شومان
من خلال التشبيه الذي استخدمه (بأننا
كسرب اليتامى) بين يدي تلك الأرض، وهنا
جاء بعبارتين لافتتين هما: (الغيم وقطيع
الأمّل)، هذا الرّجل تمّنّى أن ينصب شركاً
للغيم، والمعروف أنّ الغيم غير طويل
المكث، وكذلك قطيع الأمّل من دلائل انقطاع
الأمّل لديه. فشومان معلق بين الغيم والأمّل،
والاثنتان مُتمنّيان بالنسبة إليه. فهو معلق،
يرغب باصطياد أمّل مارّ، حاله كحال أبناء
وطنه المتربّصين لاختطاف فسحة أمّل أو
غيمة عابرة.

ومطلع القصيدة فيه إيحاء بالبنية
الدلالية العامة للنصّ، حيث خاطب شومان
الأرض بعبارة تفخيم (حضرة الأرض)،
وهذا دليل على إيمانه المطلق بقوّتها
وصلابتها، فهي بالنسبة إلى الشّاعر ربّما
تشبه الأمّ بقوّتها وخوفها على أبنائها
واحتضانها لهم. ويستعين الشّاعر على
الواقع بلغة متكّنة على جمال الصّورة في
إبداع خلق فسحة الأمّل، مكرراً التعجّب
بـ (كم) المتشاركة مع نون الجماعة
(نصّبناه، خرجنا)، «في إشارة إلى أنّ النصّ
يصوغ تجربة الجنوبي ممثلاً بالشّاعر»⁽¹⁾.

كم، وكم! فلو استطاع الشّاعر إحضار

كلّ أدوات التّمنّي لوظّفها في نصّه المعبّر
هذا، والذي يختصر وضعاً أو أوضاعاً
نفسية مرهقة عايشها أبناء الجنوب
المضحي، والذي ينتمي إليه.

وإذا ما أمعنا النّظر جيّداً بين السّطور
التي كتبها لوجدنا عدداً كبيراً من التّساؤلات
الهامة المختبئة خلف كلماته، منها:

– نحن يتامى؟ لمّ؟

– أين أبأؤنا الذين هم عبر الزّمن
ملاحقين من أيّام العثمانيين، مروراً بعهد
المماليك، وصولاً إلى نكبة فلسطين، إلخ...؟

– لمّ صرنا نتعلّق بغيمة أو ن نصب
شركاً للغيم؟

– لمّ صرنا نوقع بالحلم خلصة؟

أمّا الصرخة المدوية التي يطلقها
(أدركينا قبيل التّنائي): بمعنى أغيثينا قبل
أن يسلخونا عنك؟ إلى أين؟ إلى أين نحن
ذاهبون؟

كلّ هذه التّساؤلات التي تخفي خيبة
الأمّل الممزوجة بالحلم يُطلقها الشّاعر
للأرض، طالباً منها أن تأخذ بيده، وببدي كلّ
جنوبي، وأن تعطيهم القوّة التي تنقصهم
للإنتفاضة والثّورة على الظّلم والفساد بغية
الحصول على الطّمأنينة الدائمة، بعدما
عانوه من شعور بعدم الرّاحة والأمان، في
إشارة إلى الواقع الذي يعيشه مجتمعه
الحالم بغد أجمل.

(1) علي زيتون، النصّ الشعري المقاوم في لبنان، اتحاد الكتاب اللبنانيين، بيروت، ط 1، 2001 ص 171.

ما عاناه من وجع وقلق وقهر وظلم، أنتجها المجتمع والبيئة المحيطة، لذا؛ عبّر الشاعر عن جراحه النازفة والممتلئة لكل الطبقة التي ينتمي إليها، تلك الطبقة المسحوقة، عبّر عنها وعن مجتمعه الكادح شعراً.

ويستمرّ شومان في مسيرته القلقة، فضيق ذات يده يجعل القلق يسكن صدره حتّى يملأه نقمة:

«أخفق أحياناً في تسويغ حماقاتي
فأبيت على ضيقٍ
أو غُصّة

لكنّ القلق المؤوود بصدري
لو عبثت بجناحيه الرّيح
لتشظّى ريشاً
ودخاناً

في كلّ سماء
النّقمة قد تتخفّى إلاّ عن أترابي
من طائفة الشّطار»^(٣).

يُعلن محمّد زينو شومان في هذا النّص الشعري انتماءه إلى طائفة الشّطار^(٤)، في مواضع كثيرة فيقول:

«فالشّاطر في سلك المرتزقة»^(٥).

على ضوء ما تقدّم من حديث شومان عن الطّمأنينة المفقودة والمؤدّية إلى القلق، يبرز جلياً كذلك حبّ الشاعر للأرض وتمسّكه بها، وإيمانه المطلق بأنّ بذور الثّورة تأتي منها، هذا يعكس تناسب رؤيته مع رؤيا الصّعاليك أمثاله الذين يؤمنون بأنّ الأرض هي المدماك الأساسي للصّعلة.

إنّ جعبة الشّاعر مليئة بالقلق، وتشاطره الأرض قلقه هذا في ظلّ سيطرة الأوضاع الاجتماعيّة والمعيشيّة الصّعبة وفي ظلّ سيطرة الفساد.

ففي موضع آخر، يقول:

«فمن سيزيح ضباب الحرق؟
لأجتث من تحت هذي الأظافر»^(١)
شوك القلق»^(٢).

من الملاحظ أنّ القلق تملك بشومان حتّى استقرّ تحت أظفاره. فشوك القلق مؤلم، والألم يتحوّل عنده إلى همّ يكابده ويسكنه؛ لكنّه يسعى بقوة الإرادة لاجتثاث (لأجتث) القلق المسيطر على محيطه. وبالتالي عليه، ويعمل على كبح جماح همّه واقتلاع قلقه.

لقد توصل شومان إلى الصّعلة بعد كلّ

(١) وردت في لسان العرب الأظفار، والخطأ الشائع استخدام كلمة الأظافر.

(٢) محمّد زينو شومان، مراوغات الفتى الهامشي، ص ١٤. (٣) م. ن، ص ٣٩.

(٤) إنّ الشّاطر من تباعد عن الإستواء، أو نزع عن أهله تركهم مرغماً أو مخالفاً، وأعيامهم خبيثاً، راجع ابن منظور، لسان العرب، مادة شطر - ٤٠٦/٩ - ٤٠٨.

(٥) محمّد زينو شومان، مراوغات الفتى الهامشي، ص ١٣٣.

حدّد شومان نوع قلقه بأنّه قلق مؤوود في صدره، وفي ظلّ سيطرة هذا القلق عليه حدّر من العبث (لو عبثت بجناحيه الرّيح)، مجسداً القلق، فاستعار له جناحين، معلناً أنّ للرّيح تأثيراً كبيراً على التخلّص منه. فالرّيح بالنّسبة لشومان هي الثّورة المختزنة للنّقمة الموجودة في صدره، والتي لا يستطيع البوح بها دفعة واحدة، لا تتخفّى عن أترابه، عن رفاق درب الكفاح الذين حدّدهم بعبارة (إلاّ عن أترابي من طائفة الشّطار)، فكلّ النّاس تتخفّى نقمة الشّاعر عنهم إلاّ أترابه وباستخدامه لأداة الحصر (إلاّ) حصر شومان انتماءه إلى تلك الفئة من الصّعاليك الفقراء الذين تركوا مجتمعاتهم مكرهين، بعد أن ضجروا من الظلم والاستبداد، فثاروا على القوانين، ورسموا طريقاً خاصاً ساروا عليها، غير تلك التي يسلكها غيرهم، وقد اشتهروا بهذه الطّريق، فأربكوا السّلطات الحاكمة.

سلك الصّعاليك ثورة على النّظام القبلي، واعتبروه سلطة مانعة قامعة. وكان لذلك صدى وأثر كبير في أشعارهم. فالقصيدة الصّعلوكيّة «نصّ الأنا؛ لكنّها أنا قلقة تبحث لا من أجل أنويّتها بل من أجل تغيير العالم، من أجل تدمير آثار التركيبة الطبقيّة

للقبيلة»^(١). وشومان يتشاطر القلق مع رفاقه الصّعاليك، فيتطرّق إلى ذكر القلق بطريقة مباشرة لا لبس فيها.

«ما زلت أنفضّ وجهي

على شرفات القلق»^(٢)

يذكر محمّد زينو شومان في نصّه هذا كلمة (القلق)، ويبدو أنّه يعيش من خلال نصّه موضوعاً قديماً قدّم الإحساس الإنساني، «إنّها الغربية، هذه الحالة الإنسانية المروّعة والرّائعة في آن»^(٣).

والشّاعر الغريب اجتماعياً، لا يزال يبحث عن أناه التّائهة وسط زحمة الغربية. هذه الغربية أنتجت في نفس الشّاعر شعوراً بالقلق. وهذا الشعور طبيعي جداً، لدى إنسان يعيش هذه الحالة. فهي نفسها التي يعيشها رفاقه الصّعاليك الكارهون للمجتمع الخارجي الفاسد، لذا؛ يفضّل شومان العودة إلى ذاته هارباً من كلّ المفاصد الخارجيّة المحيطة به وبواقعه، باحثاً عن نفسه القلقة، التّائهة والتي لا يراها إلاّ عبر (شرفات القلق). يُشكّل القلق جوهر النص في محاولة البحث عن الذات، فهذا القلق مؤشّر مهم لنشأة الصّعلكة عند شومان، حيث يبدو جلياً كيف يلملم أشلاء نفسه التّائهة،

(١) كمال أبو ديب، الرّوى المقتّعة، نحو منهج بنيوي في دراسة الشّعر الجاهلي، ص ٥٨٢.

(٢) محمّد زينو شومان، أغمضت عشقي لأرى، ص ٥.

(٣) وجيه فانوس، البلاد، العدد ٢٨٧، السّبت ٨ حزيران ١٩٩٦.

وحطامها ليحييها من العدم، العدم الذي يزرع القلق وبالتالي يدمر الخلق والإبداع.

الملاحظ في هذا النص هو سيطرة القلق على نفس الشاعر، حتى صادف منه موطن فكر. فالقلق والضيق وعدم الاستقرار سمات متلازمة ومشوار الصلابة.

وهذا الجو المثخن بالقلق، جعل من شومان يرتدي رداء الصعاليك ويروم الغناء، فيسائل نفسه:

«وفي كل عرق مرارة إشبيلية

لماذا أغنني؟

لماذا أغنني؟

ردائي يجسد هم الصعاليك، والرمل ليس شبيه أحد

أغني لكم ما بوسعي أغني

أغني»^(١)

الواضح أن شعر محمد زينو شومان يمثل مصدراً رئيساً للتعرف إلى مجريات الأحداث التي عايشها، أو سمع عنها. فإشبيلية هي «عاصمة إقليم الأندلس في إسبانيا. أطلق عليها العرب اسم «إشبيلية» ويسمّيها الإسبان الآن «سيفيا» واسمها العالمي هو «سيفيل»^(٢).

يرمز شومان بمرارة إشبيلية إلى مرارة فلسطين، لذا؛ يروم شومان الغناء، فحسارة إشبيلية مريرة للعرب كما هي مريرة لشخص الشاعر، لذا يُكرّر شومان الاستفهام الاستنكاري مستجدياً أي جواب. والشاعر الذي يعيش في الجنوب اللبناني، ويتأثر بما يجري فيه من أحداث حزين لحاله ولا يستطيع الغناء.

عصف، ورياح هوجاء حازة، وجرح نازف في الجنوب، وتهجير وخراب، ولبنان يُولول، يُولول، ويصيح في وادي الصدى، والعالم من حوله غافل كأنه بألف خير^(٣).

يعلن شومان في هذا المقطع عدم رغبته بالغناء، ومع ذلك يُغني:

«وما زلت بالرغم عني

أغني

أغني

لآخر طفل هنا يتهجى دمي تحت جنح القمر»^(٤)

يقرّر شومان الغناء مكرراً (أغني) مرتين. وهذا التكرار، هو بمثابة تحدّ للظروف والصعوبات؛ والمقصود بالتكرار

(١) محمد زينو شومان، أغمضت عشقي لأرى، ص ٧.

(٢) إشبيلية... عاصمة الأندلس ومركزها الثقافي، الشرق الأوسط، العدد ١٢٦٣٥، الثلاثاء ٣ شعبان ١٤٣٤هـ، ٢ يوليو ٢٠١٣م.

(٣) ولیم الخازن، محمد زينو شومان، من الجنوب إلى «طقوس الرغبة»، الأنوار، ٢٧ تشرين الأول ١٩٩٥م.

(٤) محمد زينو شومان، أغمضت عشقي لأرى، ص ٨.

ب - الفقر:

لعلّ كلمة «الفقر» تعدّ من أهمّ أسباب بواعث الصّعلة لدى محمّد زينو شومان. فالفقراء يمثّلون الشريحة الكبرى في وطننا، بحيث أنّ الفقر مأساة عامّة. والفقر مأساة اجتماعيّة، تبتلى بها فئة من المجتمع، مورست عليها عملية سطو منظّمة قسريّة، أو بالتّضليل، على نتاج عملها، من قبل فئات أخرى، تسعد على حسابها، بينما تبقى هي في الدرك الأسفل من الحرمان^(١)، وربّما أنّ الفقر يمثّل «رأس الأدواء الاجتماعيّة ومنه تنبع العلل، وعنه تصدر جميع الأمراض»^(٢). فالاعتداءات الإسرائيليّة المتكرّرة على جنوب لبنان أدت نار الحاجة والعوز، وألقت بثقلها على كاهل المواطنين، يضاف إلى ذلك إهمال الدّولة، وعدم قيامها برفدهم بوسائل الصّمود، وتحسين مقومات العيش.

عانى أبناء الجنوب اللّبناني الحرمان الذي أرخى بظلاله عليهم، فالفقر رأس المشاكل الاجتماعيّة، وهو مؤدّ إلى القلق والخوف والمعاناة.

والشّاعر ينتمي إلى تلك الفئة الفقيرة والمضطّهدة التي تحمل على كاهلها كلّ

هنا إظهار المعاناة والإحساس بالوجع، لذلك سيغنّي لآخر قطرة دم لكلّ طفل يحلم بغد أفضل. ربّما وضّحت هذه الأبيات رؤيا الشّاعر الوجوديّة بالتمرد والعصيان، وذلك من خلال تصوّرات خاصّة تُعيد للمألوف دهشته في أسئلة مفتوحة على احتمالات متعدّدة. لذا؛ يرتدي شومان رداء الصّعاليك. فرداء شومان هو أحزانه، وأحزانه هي أحزان الصّعاليك، وأحزانهم واحدة، ومن خلال ملاحقته للتّاريخ، نتعرّف إلى منابع صعلكته: فشومان ابن البيئّة الفلاحيّة، ولصيق الصّعلة. فصوت الأرض صوته، ورداء الفقراء المعدمين رداؤه، وهموم الفقراء دخلت مسام جسده، متغلغلة إلى أعماقه، فظهرت آثارها جليّة في كتاباته التي من خلالها نلحظ أنّه يرتدي رداء الصّعاليك وهمهم، فقضاياهم واحدة، كذلك أحزانهم وأشجانهم، يتشاركون بها، فهي ثابتة منذ القدم. ولغة الشّاعر تُجسد هموم الإنسان العربي، ممثلاً بالجنوبي، فهو من احتضنت بيئته قضيّة العصر الكبرى، حتّى لكأنّ الجنوب بقيّة روح المعذبين في الأرض، تختلج في جسدهم أو رثتهم الوحيدة التي يتنفّسون بها.

(١) علي حجازي، شاعر من جبل عامل الشيخ علي مهدي شمس الدّين، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات مجد، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص١٦٨.

(٢) مصطفى قيصر، الشّعر العاملي الحديث في جنوب لبنان، دار الأندلس، ط١، ١٩٨١، ص٤٠٦.

أشكال الظلم والاضطهاد المبرمج. فالشاعر يعكس ما آلت إليه أحوال أولئك الفقراء في ظل وجود فئة تسعى إلى تحصيل قوتها من دمائهم وعرقهم وكدهم. فهو يعرف الداء، لذا؛ اختار دواء الصعلكة وقرّر أن يستشرف واقعاً جديداً من خلال ثورة الكلمة.

لقد أدرك الشاعر، أنّ الفقر هو وليد الظلم والقهر، وأنّ الاستسلام له، فقر آخر. ولذلك يبث قوله كحركة توقد نار الثورة على أمل التغيير، فيشارك الناس همومهم، حاله كحال شعراء الجنوب الذين حملوا قضايا شعبهم وهمومهم، وسعوا إلى إظهار شتى أنواع الألم والمآسي المحيطة بهم، والتي كان أشدها قسوة: الفقر والجوع، حيث كانا سبباً قوياً للتمرد والعصيان في وجه المستكبرين، وذلك أنّ الفقر سبب أساس لمعظم المشكلات الاجتماعية الضاغطة، بل هو المعوق الرئيس لتقدم البشرية، وهو ملازمٌ للتأخر، وباعث على الثورات^(١). فنجد الشاعر يعكس في شعره مظاهر الألم والوجع الجنوبي بصدق تامّ، فإنّ «الصدق يصبح مقوماً أساسياً من مقومات العمل الفني. والمقصود بالصدق هنا أن يكون الشاعر صادقاً مع نفسه فيما

عبّر عنه»^(٢)، وهكذا هو شومان، عبّر عن فقره ووضع بدون أيّ حرج، في أغلب دواوينه.

ولعلّه من الطبيعي أن تتولد نزعة التمرد في داخله، كعلامة رفض للواقع الاجتماعي والماديّ الصّعب، وللظروف المادية التي عاش في كنفها، بحيث لمس لمس اليد معنى الفروق الاجتماعية الهائلة بين فئات المجتمع، وهي فروقات واسعة جداً، بحيث تبدو الهوة بين الطبقات المعدّمة والطبقات الموسرة عميقة جداً. وهذا الإحساس العميق بالتفاوت الطبقي كفيل وحده بأن يُفجّر في نفوس أبناء الطبقات الفقيرة مشاعر الغضب والنّقمة، لأنّ ذلك التفاوت ليس له من مسوغات أخلاقية أو إنسانية سوى أنّه دليل على قسوة النظام الرأسمالي المفروض على الشعوب الفقيرة بقوة الرأسمال والسلطة.

هذا الواقع دفع شومان أن يفتح (هلالين) بين الهلالين، ليدخل عالمه الخاص، عالم الصّعاليك، الذي يُمثّل بالنسبة إليه الواقع الذي يسعى إليه، ويعيش من أجله.

«لا ملجأ لي

أفتح في هذا النص (هلالين)

(١) علي حجازي، القصة القصيرة في لبنان، ص ٥٤٩.

(٢) عزّ الدين اسماعيل، الشّعر في إطار العصر الثوري، دار القلم، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٧٤، ص ٢٣.

وأدخل سردابي...»^(١).

عميقة، تمتلّت في فئة من المضطّهدين الذين أنكروا على مجتمعهم القبلي ما فيه من جور وظلم وحرمان، فشكّلوا فئة ثائرة، ونموذجاً رائعاً للأبادة في كلّ بقعة من بقاع العالم، يجمع بينهم الفقر والتشرّد والتمرد على النّظام الجائر، محاولين بشتّى الطّرق تحقيق صورة من العدالة الاجتماعيّة، والتّوازن الاقتصادي في المجتمع.

لقد تناول شومان في دواوينه عدداً من الموضوعات منها: الفقر، الجوع، القلق، التشرّد، الضحيّة (هابيل)، الضياع، التمرد، الحرية...

ويبدو أنّ الشاعر قد تعرّشت فيه دوالي القلق، فتشابهت أمامه الطريق وأفلت منه اللّجام. فنجدّه يستنجد بالشّعر، ويلوذ بالحضارات، فيستلّ منها رموزاً تعبّر عن فقره وتشرّده وجوعه.

وتتطابق المواضيع التي طرحها شومان مع قضايا الصّعاليك قديماً، فأسباب صعلكتهم واحدة، ونقطتها المركزيّة الفقر الذي يعتبر عاملاً أساسياً للصعلكة في كلّ زمان ومكان.

لذا؛ تتصدّر الصّعلكة قصائده النّابعة من وجعه وألمه، وتذكّره وحاجته»^(٢).

وإن كانت مظاهر الصّعلكة تختلف من

هكذا يلخّص شومان بهذه الأفكار دواعي صعلكته، المتأصّلة في حزنه. فالحزن رفيقه الدائم، والألم حبيبه. وهذا الحزن المتأصّل في نفسه يدخل لبّ قصيدته، ويدلّنا (بين هلالين) على صعلكته البارزة، فيدخل شومان نصّه مطمئناً ليلتحق بقافلة الصّعاليك من رفاقه، حيث لا ملجأ له بسبب فقره إلا نصّه، ولدخوله السرداب أهميّة خاصّة، فالسرداب بما فيه من عتمة ورطوبة وعفونة يمثّل ملجأً آمناً للشّاعر، ولأمثاله الذين لا يجدون ملجأً سواه. وهنا، تكمن المرارة القاسية. وفي سرداب هذا النّص الشعري ترتفع حدّة المعاناة عنده، ويبدو ذلك جلياً من خلال لهجة خطابه، فيبدو حائراً، لا يعلم من أين تأتيه الشّدائد والمصاعب وتنتابه الأوجاع والآلام، حيث تهجره الشّمس ويقتله حزن في عصر قبيح سلبه الملجأ والمأمن. فالمعاناة والأوجاع والتّنكيلات والملاحقات، في ظلّ سيطرة الجوع والفقر أمور ساهمت في التحاقه بركب الصّعاليك.

خاتمة:

بدأت الصّعلكة في العصر الجاهلي، وهي ظاهرة رائعة لها دلالات إنسانيّة

(١) محمّد زينو شومان، هوّة الأسماء، ص ١٢٣.

(٢) حسن جعفر نور الدّين، موسوعة الشّعراء الصّعاليك، الجزء الثاني، ص ٤٨٧.

عصر إلى عصر، فإنّ النّزعة إلى التشرّد
والثّورة في وجه الفساد والظّلم، هي ما
يجمع الصّعاليك في كلّ العصور.

أولاً: المصادر الأساسيّة

- ١ - شومان، محمّد زينو: أغمضت عشقي لأرى، بيروت، منشورات اتحاد الكتاب اللبنانيين، ١٩٩٥.
- ٢ - شومان، محمّد زينو: مراوغات الفتى الهامشي، بيروت، دار رشاد برس، ٢٠٠٢.
- ٣ - شومان، محمّد زينو: هوة الأسماء، بيروت، مكتبة الفقيه، ٢٠٠٥.
- ٣ - حجازي، علي، القصّة القصيرة في لبنان، دار المؤلّف، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٥.
- ٤ - _____، شاعر من جبل عامل الشيخ علي مهدي شمس الدّين، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات مجد، بيروت، ط ١، ١٩٨٣.
- ٥ - حمزة، مريم، الأدب بين الشرق والغرب، دار المواسم، بيروت، ٢٠٠٤.
- ٦ - زيتون، علي، النّصّ الشعري المقاوم في لبنان، اتحاد الكتاب اللبنانيين، بيروت، ط ١، ٢٠٠١.
- ٧ - قيصر، مصطفى، الشعر العالمي الحديث في جنوب لبنان، دار الأندلس، ط ١، ١٩٨١.

رابعاً: الدوريات، المجلّات والجرائد

- ١ - الخازن، وليم، محمّد زينو شومان، من الجنوب إلى «طقوس الرّغبة»، الأنوار، ٢٧ تشرين الأوّل ١٩٩٥.
- ٢ - إشيلية... عاصمة الأندلس ومركزها الثّقافي، الشرق الأوسط، العدد ١٢٦٣٥، ٢ يوليو ٢٠١٣.
- فانوس، وجيه، أغمضت عشقي لأرى، كسر حدّ الذات في لغة الوجود، البلاد، العدد ٢٨٧، ٨ حزيران ١٩٩٦.

خامساً: المعاجم والموسوعات

- ١ - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٩٨.
- ٢ - البعلبكي، منير، المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٣٧، ٢٠٠٣.

ثانياً: المصادر العربيّة

- ١ - الرّفاعي، أحمد، شكل آخر للصّعلكة، إصدارات كراس، بيروت، برج حمّود، ط ١، ٢٠٠٠.
- ٢ - نورالدين، حسن جعفر، موسوعة الشعراء الصّعاليك، الصّعلكة والشّعرا الصّعلوكي في الميزان، دار رشاد برس، بيروت، ٢٠٠٧، ج ٢.
- ٣ - الوائلي، كريم، الشعر الجاهلي قضاياه وظواهره الفنّيّة، الدّار العالميّة، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧.

ثالثاً: المراجع العربيّة

- ١ - أبو ديب، كمال، الرّؤى المقتنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، الهيئة المصريّة العامّة، ط ١، ١٩٨٦.
- ٢ - إسماعيل، عز الدّين، الشعر في إطار العصر الثّوري، دار القلم، بيروت، ط ١، ١٩٧٤.

تأثير المناخ على الأعمال الحربية

جهاد الأحمر

وعلم المناخ كأحدى العلوم التطبيقية هو جزء لا يتجزأ من الجغرافية الحية، هو مدار بحث مستمر من قبل القيمين على دراسة العلوم الأخرى، خصوصاً تلك المرتبطة بالتكنولوجية التصنيعية للأسلحة الحربية وكيفية التعامل معها في ظل الأحوال المناخية المختلفة.

هذا وتعتبر السمات الطبيعية للأرض من حيث الموقع الفلكي والمورفولوجيا والمناخ مجتمعة، من العوامل المهمة جداً والمتبادلة التأثير في سير الأعمال الحربية في أي مكان وزمان، يضاف إليها، حجم الدولة من خلال مساحتها وشكلها وحدودها وعمقها الجغرافي، إذ إنها من الاسباب الكامنة التي تساهم في تحقيق النصر أو عدمه، وتكون قوتها من خلال القدرة على الدفاع وصد الهجوم أو الإعداد أو من خلال القيام باجتياح دول أخرى أصغر منها أو أقل كفاءة عسكرية.

وعلى سبيل المثال أدت الأحوال المناخية التي كانت سائدة إبان غزو

المقدمة

مما لا شك فيه، أن هناك تأثيراً مباشراً للمناخ على الأعمال الحربية بشكل عام، لذلك يهتم المخططون للحرب بكافة دول العالم بدراسة العوامل المناخية بشكل دقيق، خصوصاً في المعاهد القتالية، نظراً لأهميتها على صعيد سير الأعمال الحربية المحتملة الخسارة أو الربح، ونظراً لتأثيرها المباشر على حركة الآليات والجيوش ونقل العتاد والذخائر، وأيضاً على إطلاق منصات الصواريخ والتحليق بالطيران الحربي لضرب مواقع العدو، لذلك تسعى الدول العظمى بشكل مستمر لتحديث أنظمة المراقبة والاستشعار عن بعد Remote sensing وتحسس الأهداف، وإيجاد الوسائل الحديثة والمتطورة لتسجيل كافة البيانات المناخية ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم، ويجرون الاختبارات التي تحاكي الظروف المناخية الصعبة في أية معركة مقبلة أو محتملة.

على العكس من ذلك فقد جعلها دولاً متناحرة تتقاذفها القوى العظمى في سبيل تحقيق أطماعها النفطية والإبقاء على مصالحها الذاتية.

وللقيام بأية عملية عسكرية صغيرة كانت أم كبيرة، يجب دراسة أحوال الطقس والمناخ معاً، فالطقس عبارة عن حركة مناخية لفترة قصيرة تنطلق من بضع ساعات إلى عدة أيام وأسابيع، بينما المناخ هو حالة طقس متراكمة تعتمد على دراسة خصائص الطقس ولكن لفترة طويلة تنطلق من شهور طويلة لتصل إلى دورة مناخية تزيد على ٣٠ سنة، وفي كلتا الحالتين يجب على المخطط للغزو الأخذ بعين الاعتبار هذين المؤثرين، ودراسة الأحوال الجوية بغض النظر عن المدة، وذلك باتباع نظام التتبع الرصدي الحديث عبر الأقمار الصناعية.

وكانت الولايات المتحدة الأميركية رائدة في هذا المجال، وكانت قد أخرجت من هجومها على الجيش العراقي المتمركز في الكويت إلى منتصف شهر شباط من العام ١٩٩١، وهي خلال حربها، التي عرفت آنذاك بحرب الخليج الثانية، خاضت غمرات الغزو، يحفزها في ذلك، انخفاض درجة الحرارة خلال شهر شباط، بحيث كان الطقس أكثر ملائمة لحركة آلة الحرب والطلعات الجوية وراحة الجنود، ورغم ذلك

الأراضي الروسية من قبل إلمانيا في الحرب العالمية الثانية، إلى خسارة هذه الأخيرة الحرب، بسبب تراكم الثلوج وانخفاض درجة الحرارة وتجمد الآليات وعدم قدرتها على التقدم، ما أدى إلى انكسار جيش أدولف هتلر على أبواب مدينة ستالينغراد وخسارة المانيا للحرب واستسلامها فيما بعد.

من جهة أخرى تؤدي الظروف المناخية دوراً سلبياً على الدولة نفسها، فقد أدت ظروف المناخ في المناطق الشمالية الباردة جداً من الاتحاد السوفياتي إلى فرض نوع من انصراف الدولة عن الاهتمام بتلك المناطق، ما دفع إلى نزعة الاستقلال لديها بسبب عدم تأمين المستلزمات الاقتصادية من قبل الدولة المركزية وبالتالي كانت النتيجة تفكك الاتحاد السوفياتي.

كما يلاحظ تأثير المناخ على المنطقة العربية برمتها، فبسبب وقوع معظم دول هذه المنطقة على العروض شبه المدارية الحارة، فقد جعل ذلك من غالبية أراضيها عبارة عن صحراء قاحلة (شبه الجزيرة العربية، الصحراء الأفريقية الكبرى، صحراء النوبة، الحماة الأردني وبادية الشام وغيرها)، ما أعاق عملية تنميتها اقتصادياً، وأيضاً أعاق تأليف قوة اقتصادية وعسكرية موحدة لهذه البلدان التي تضمها، بحيث تستطيع من خلالها مجابهة أي عدوان، بل

السطح على سير العمليات العسكرية، وخاصة على عمل الآليات وانتقالها، وأيضاً على طريقة استخدام الأسلحة وإطلاقها نحو أهدافها.

وقد تملّي الظروف المناخية على كثير من الجيوش إعداد الخطط المسبقة لأي غزو، فيسعى المخططون للحرب إلى تأمين كافة المستلزمات التي يستطيع فيها الجيش المهاجم من التمركز والصمود في وجه العوامل المناخية المختلفة، وظروف الطقس المتغير، لذلك فإنهم يظهرّون في فصل الشتاء أهمية لبناء مواقع تحمي الجنود من تأثيرات المتساقطات والصقيع، وأيضاً بناء تحصينات قوية بوجه ما يمكن أن يترتب عن الظروف المناخية الطارئة من سيول وفيضانات أو رياح قالعة.

وعلى هذا الأساس ستلقي هذه المقالة وميضاً من الضوء، عن تأثير المناخ على العمليات الحربية، وحتمية ضرورة الاعتماد على البيانات المناخية الطقسية اليومية والشهرية، ومعرفة المناخ العام لأي منطقة قبل الشروع بالحرب أو الإيذان ببدء الغزو، أو شن أي حرب خاطفة لتنفيذ اية عملية سريعة، والهدف من ذلك تحقيق النصر بكافة مندرجاته، فهناك آثار مناخية مباشرة لعناصر المناخ الأنوية على العمليات العسكرية، وأخرى غير مباشرة تشمل تلك الآثار البعيدة المدى.

فقد كانت تنفذ معظم مهمات الطائرات الحربية خلال الفترات الصباحية والمسائية، تجنباً لدرجات الحرارة المرتفعة والمحتملة، التي توقعت أن تسود أجواء الخليج بين الساعة العاشرة صباحاً والرابعة عصراً، وهكذا يظهر الاهتمام في المناخ والطقس في آن واحد.

وفي ماضٍ ليس ببعيد، فقد خطت إسرائيل لغزو لبنان أكثر من مرة، وفي العام ٢٠٠٦ دخلت بحرب عدوانية جديدة، معتمدة فيها على توقيت زمني مناخي - طقس، فقد اختارت توقيتها للحرب خلال فصل الصيف، وأطلقت على عملياتها العسكرية اسم الصيف الحار، فانطلقت بعدوانها الغاشم على الأراضي اللبنانية، في ١٢ تموز حيث السماء صافية، والطقس حار، ما يسهل عملياتها وطلعاتها الجوية التي استهدفت المواطنين الأبرياء والمقاومين الشجعان، وحتى تكون الأهداف واضحة أمام طائراتها، ولأجراء المزيد من مراقبة تنقلات أي شيء متحرك على أرض المعركة، ولكن بالرغم من كل ذلك فقد باءت عملياتها بالفشل لأسباب لوجستية حتمتها طبيعة الأرض والاستماتة في الدفاع عنها. ولوحظ بعد انتهاء الحرب مباشرة، تساقط للأمطار الغزيرة، وكان ذلك ظهر يوم ١٤ / ٨ / ٢٠٠٦ لمدة تزيد على ثلاث ساعات متواصلة.

ويؤثر كل من الطقس والمناخ وأشكال

أولاً: العناصر المناخية المؤثرة في سير العمليات الحربية أو العسكرية:

١ - الإشعاع الشمسي

يؤثر طول النهار على عدد الساعات التي تمكن من الرؤية دون مساعدة الوسائل الاصطناعية في الإضاءة والإنارة، فقد تمكنت التكنولوجيا الحربية من الوصول إلى اختراع وسائل إضاءة متنوعة، ساعدت الجيوش على الحد من سلبيات الليل والظلام على الرؤية، غير أنه يجب الاعتراف بأن الإضاءة الطبيعية الناجمة عن الإشعاع الشمسي، والذي يعتبر أحد نتاج قوة التفاعلات والانفجارات النووية في باطن الشمس، بفعل اشتقاق ذرات الهليوم من ذرات الإيدروجين^(١)، هو الأفضل لخوض أي معركة على الإطلاق.

وبالرغم من توصل تكنولوجيا الحرب إلى اختراع أنظمة الأشعة فوق الحمراء الرادارية النشطة (التي تطلق الأشعة وتعود لتستقبلها) والسلبية (التي تستقبل الأشعة فقط)، والتي تساعد الجيوش على تحديد أهدافها في ظلمة الليل الحالك، وتعمل تكنولوجيا الأقمار الاصطناعية التي تلتقط صورها اعتماداً على الأشعة الحرارية التي تصدرها الأجسام طيلة ساعات الليل

والنهار، وهي بذلك تحد نوعاً ما، من هيمنة عتمة الليل على العمليات العسكرية.

ومن الأجهزة المستخدمة في التغلب على الظلام الليلي، أجهزة تضخيم الصور والرادارات الحقلية، ورغم سلبيات الظلام، إلا أنه لا يمكن إنكار وجود بعض الإيجابيات التي يمنحها الليل للقوات المتقاتلة، فتساعد عتمة الليل على تسهيل حركة القوات والتراجع والانسحاب، وغالباً ما يكون الليل إلى جانب القوات المهاجمة، حيث يمكنها من الحركة في حلقة الليل، دون أن تراقبها عيون الأعداء، والليل يولد الذعر والخوف في صفوف القوات المدافعة نظراً لقلّة المعلومات المتوفرة لديها عن حجم وعدد القوات المهاجمة وتحركاتها الميدانية، وبسبب ضعف المراقبة والترصد خلاله.

ولزاوية سقوط أشعة الشمس أثر كبير على قدرات الجنود ومدى الرؤية النهارية، لذلك تتجنب قادة الجيوش تنفيذ هجوماتها في الأوقات التي تكون فيها الأشعة الشمسية مائلة نحو عيون الجنود مباشرة، ومن هنا تبدو أهمية تحديد ساعة بدء الهجوم.

ويؤثر سطوع الشمس على كفاءة التصوير الجوي، فيؤدي ضعف انعكاس

(١) حسن أبو العينين، كوكب الأرض، الطبعة السادسة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١، ص ٢.

تخبطهم بالصقيع، وتراجع تنفيذ مهماتهم بمعدل أربعة أضعاف عما كانت عليه قبل حلول الجليد، حيث كان الجيش الألماني بموقع الهجوم مع انخفاض درجة الحرارة إلى ما دون - ٣٠م°، بينما كان الجيش الروسي في موقع الدفاع ومهيأً تماماً لمثل هذه الظروف المناخية الصعبة، فاستطاع من الصمود وبالتالي تكبيد المهاجمين الغزاة الخسارة المؤكدة.

وكذلك فإن لدرجة الحرارة تأثيراً كبيراً على الإنسان العادي، من خلال أن جسم الإنسان تتولد فيه الحرارة عند قيامه بأوجه النشاط المختلفة، فيسعى جسمه مع ارتفاع درجة الحرارة إلى تنظيم حرارته بطرحه العرق، وهو يتأثر بالظروف الحرارية المتباينة، فعندما ترتفع درجة الحرارة بشكل فجائي أو تنخفض بشدة، فهذا من شأنه أن يسبب الخلل في التوازن الحراري لديه، وأيضاً في مزاجه العام ونشاطه وقدرته على العمل، إضافة إلى رفع نسبة تعرضه للأمراض الناتجة عن التغير الفجائي في الظروف الطقسية^(١).

كذلك الامر بالنسبة للجندي، فيتسبب له تراجع في همته، وانخفاض في قدرة معداته، فمع انخفاض درجة الحرارة -

ضوء الأجسام بسبب ضعفه إلى التقليل من كفاءة الصور الجوية، ويزداد ظهور ظلال الأجسام كلما تقدم الوقت بعد الزوال (عندما تكون أشعة الشمس عامودية) وبالطبع فإن أفضل الأوقات للحصول على صور جوية واضحة ومفهومة، هو عند الظهيرة، حيث يزول ظلال الأجسام، وترتفع الشمس في السماء وتقترب أشعتها للسقوط بزوايا قائمة.

٢ - درجة الحرارة

تؤثر درجة الحرارة سواءً كانت المرتفعة أم المنخفضة في التخطيط والتنفيذ للعمليات الحربية المزمعة، من خلال تأثيرها على قدرة الجنود وعطاءاتهم، وأيضاً من خلال تأثيرها على الأسلحة والآليات المعدة للنقل والقتال، وعلى كافة الأعتدة والمعدات والأجهزة الأخرى.

فمع الانخفاض بدرجة الحرارة، ستضعف همة الجندي عن القتال وتتضاءل فاعليته، وقد حصل مثل هذا الأمر إبان الحرب العالمية الثانية في العام ١٩٤١، حيث انهار الجيش الألماني بفعل غزوه لروسيا، ووقوع كامل الجيش الغازي المهاجم فريسة سهلة بيد الثلوج، وبالتالي أصيب الجنود الغازين بإحباط شديد بسبب

(١) حسن أحمد أبو العينين، أصول الجغرافيا المناخية، الطبعة الثالثة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥، ص ٥٠.

٤٢ م°، حينها تنخفض القدرة الحربية لدى المجموع العسكري بمقدار النصف، وتنعدم قدرة الجنود، ما يحد من نشاطهم وحركتهم، بمقدار النصف أيضاً، فيتكاسلون عن القيام بتنفيذ المهام العسكرية الهجومية وغير الهجومية الموكلة إليهم.

وتؤثر درجة الحرارة المنخفضة، بوجه خاص على عمل بطاريات راديو اللاسلكي والبوصلة، وتتوقف بطاريات بعض الآلات عن العمل مع الانخفاض بدرجة الحرارة، وبالتالي يصعب إعادة شحنها بالسرعة المناسبة أثناء وقوع المعركة.

كما تتعطل الآليات في حالة الجو القارس، ويصبح الزيت المستخدم في المركبات القتالية ثقيلًا ولزجًا، ما يعيق دوران المحركات، وفي كثير من الأحيان وخلال البرد الشديد، تصبح المعادن التي تتكون منها الآليات إضافة إلى الأجهزة الأخرى هشة، وضعيفة وقابلة للكسر مع أقل صدمه يمكن أن تتعرض لها.

ويسمح الهواء الصافي المنتشر في المناطق الجبلية المرتفعة برفع درجة الحرارة خلال فترة النهار، وإلى التبريد وإحداث الصقيع خلال الليل، علماً أن كمية الحرارة التي يمتصها الغلاف الغازي في المناطق المرتفعة هي أكثر من تلك التي يمتصها في المناطق المنخفضة، ويعود

السبب إلى نقاء الجو على الجبال، وقلة سماكته، وينعكس هذا الأمر على آليات الجنود المنتشرة في العراء، فتتجمد أجهزتها في النهار ثم تعود فتتكمش خلال الليل، ما يسبب أضراراً فادحة، وهذا يتطلب جهداً إضافياً لجهة تغطيتها بشوادر سمكية، أو العمل على تشغيلها لفترة طويلة خلال فترة وقوع الصقيع الإشعاعي، تجنباً لتعطّلها.

وفي الأحوال الحارة والطبيعية، فإن أكثر الأوقات شدة على الجنود هو الوقت الذي تكون فيه أشعة الشمس عامودية على سطح الأرض، وتكون الشمس عندها في كبد السماء، فتزداد درجة الحرارة معها، ما يتسبب بآثار جسدية ونفسية لديهم وإصابتهم بالخمول، وهذا ما يحد من قدراتهم الهجومية أو الدفاعية، ويجعلهم متلكئين عن تنفيذ المهام والواجبات والأوامر الموكلين بتنفيذها.

ومع ارتفاع درجة الحرارة، تزداد لدى الجنود حالات التعرق المصاحبة لتحركاتهم الميدانية، يحفزها ارتفاع الرطوبة النسبية بسبب ارتفاع درجة الحرارة، فيصاب الجندي حينها بالإحباط النفسي.

كما يساهم هبوب الرياح الباردة في تفاقم الأحوال المناخية وزيادتها سوءاً، مما يعيق تحرك الجنود وآلياتهم ويقعدهم عن القيام بآية مهمات قتالية.

٣ - الرياح

الرياح كونها عبارة عن حركة أفقية للهواء، بحيث تكون هذه الحركة من مكان لآخر بسبب إختلاف بالضغط الجوي، إذ ينجذب الهواء البارد ليندك كالإسفين تحت الهواء الدافىء ويعمل على رفعه، وهذ الإختلافات مردها إلى تسخين سطح الأرض، مما ينجم عنه تحرك الهواء^(١).

وتساهم الرياح بشكل مباشر في سير الأعمال الحربية، وهي تختلف عن التيارات الهوائية العامودية، التي أما تكون صاعدة أو هابطة، فالرياح إما أن تكون محلية ومتغيرة الاتجاه، وإما أن تكون دائمة وشبه ثابتة، وتختلف قوة الرياح عن سرعتها، فتعادل القوة التي تولدها الرياح أربعة أضعاف سرعتها، بمعنى أنه كلما تضاعفت سرعة الرياح فإن قوة دفعها تصبح أربعة أضعاف، فإذا تضاعفت سرعة الرياح من ٢٠ كلم/ساعة إلى ٨٠ كلم/ساعة، فإن قوة دفعها تصبح أربعة أضعاف ما كانت عليه. وتزيد قوة العواصف المصاحبة للرياح بمعدل ٥٠٪ عن سرعة الرياح، وكلما زادت سرعة الرياح كلما زاد خطرهما، فإذا وصلت سرعتها إلى ١٦٠ كلم/ساعة، فإنه يتوجب

التوقف عن السير^(٢) وإيقاف الهجوم. وقد لا يرى الجندي الرياح، ولكنه لا بد أن يشعر بوجودها واتجاه حركاتها، وذلك من خلال ملاحظته لاتجاه السحب السفلية، أو تحرك ألسنة النيران وأعمدة الدخان، أو حركة أغصان الأشجار وأمواج البحر، ومن ثم يعي المخاطر المترتبة عنها.

ويمكن للرياح القوية أن تحمل الرمال والغبار والمواد الدخانية العالقة من جراء القصف إلى اماكن انتشار الجنود، وبالتالي فعليهم تجنبها بكافة الوسائل، هذا وتزداد سرعة الرياح إذا أجبرت على السير في ممرات محددة ومضائق جبلية ويتأثر مسار الرياح بالطبيعة الطبوغرافية للمنطقة التي تهب عليها، فغالباً ما تكون أقوى الرياح وأسرعها على قمم الجبال.

وبطبيعة الحال فإن لكل من الرياح والتيارات الهوائية أثراً هاماً على العمليات العسكرية، وعلى حركة الأليات والمعدات والجنود، فقد تبدأ الرياح من حالة السكون المتمثلة بارتفاع الدخان إلى الأعلى (الدرجة صفر) وتنتهي بحالة الإعصار المدمر (الدرجة الحرجة ١٢)، بحسب مقياس بيوفورت^(٣).

(١) علي موسى، الوجيز في المناخ التطبيقي، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٣، ص ٢٦.

(٢) عبد العزيز طريح شرف، الجغرافيا المناخية والنباتية، الجزء الأول، الأسكندرية، ١٩٦١، ص ٨٣.

(٣) وضع فرنسيس بيوفورت عام ١٨٠٥ مقياساً نسبياً يقيس بواسطته سرعة الرياح، راجع بهذا الصدد/ حسن سيد/ أحمد أبو العنينين، أصول الجغرافيا المناخية، مرجع سابق، ص ١٦٧.

جزر الفوكلاند حين واجهت عمليات الإنزال البرمائي، رياحاً عاتية تزيد سرعتها عن ١٥٠ كلم/ساعة، وقد وجدت القوات البريطانية نفسها عاجزة عن القيام بعملياتها العسكرية ولكنها تابعتها بإصرار بالرغم من الظروف السيئة، فكانت المخاطرة كبيرة جداً، ومما زاد في الخسارة هجمات سلاح الجو الأرجنتيني على السفن الحربية.

كما تؤثر الرياح الرملية على سرعة وحركة وتقدم الآليات الكبيرة والدبابات في ميدان المعركة، إذ تعيق الرياح المحملة بالرمال والأتربة سرعة هذه الآليات، كما أنها تؤثر على كفاءة عمل الأسلحة والمعدات، وخير مثال على ذلك ما واجهته الطائرات الأميركية في العام ١٩٧٩، إبان سقوط نظام الشاه البهلوي في إيران، حيث أستُقدم سربٌ من الطائرات الحربية الأميركية للقضاء على قادة الثورة الإيرانية في مؤامرة مدبرة، ولكن شاءت الأقدار أن هبت رياح قوية جداً، وعصفت بتلك الطائرات، ما أدى إلى تصادمها فيما بينها، وبالتالي فشل العملية العسكرية.

وقد واجهت أيضاً الطائرات المروحية الأميركية (الهليكوبتر) والأسلحة المتنوعة العائدة للجيش الأميركي في الصحراء العربية خلال حرب الخليج عام ١٩٩١، المزيد من المتاعب الناجمة عن طغيان الرمال بواسطة الرياح، وهذا ما دفعهم إلى

وفي المعارك الحربية في الأراضي الصحراوية، تعمل الرياح على إثارة العواصف الرملية، وتؤدي إلى آثار سلبية لناحية إعاقة الرؤية وحركة الجنود المهاجمين، أما في المناطق الباردة وبسبب سرعة الرياح تتوقف البوصلة المغناطيسية عن العمل، ما يجعل الجندي في حالة ضياع في معرفة الشمال المغناطيسي، فيتأخر الهجوم.

كما أن كثافة الغيوم والعواصف الرعدية ستؤثران على موجات الرادار، وعلى قراءة البيانات القادمة عبر الأقمار الصناعية، كما أنها تشوش على أجهزة الراديو والإشارة وعلى اللاسلكي، وتعمل الرياح العاتية على تغيير مسار القذائف الصاروخية والهاوتزية وتحرفها عن أهدافها، فتسقط في غير الأماكن المحددة لها، وتؤثر على دقة إصابتها لأهدافها فترشد العدو إلى الاختباء في أمان بعيدة عن مواقعه، وبالتالي تتسبب بالعمل على إعادة الرصد وتحديد أهداف جديدة، ما يستغرق وقتاً وجهداً كبيرين.

كما أن الصورايخ الموجهة تتأثر هي الأخرى بالعواصف المغناطيسية التي تثيرها البروق وتتسبب بزحزحة مؤقتة للشمال المغناطيسي، وأيضاً تتأثر بسرعة الرياح وحركتها، وقد أوقفت الظروف المناخية السيئة الهجوم الإنجليزي على

العمل باستمرار على صيانة الأسلحة والطائرات التي كانت بحوزتهم بشكل متكرر وسريع وخلال فترات قصيرة.

وللرياح القوية آثار كبيرة على عمليات البناء والتشييد للمعسكرات العسكرية الخاصة بإيواء جنود المعارك في الأماكن التي يسيطرون عليها، فيستحيل مع وجودها استخدام الأربطة الخاصة أو الواح الزينكو، كما تزداد أخطار القيام بعمليات التشييد بالحديد وفقد المواد المتناثرة^(١).

وتقتلع الرياح العاتية أو الهوجاء والتي تزيد سرعتها عن ٨٠ كلم/ساعة، الأشجار، وتقلب السيارات وتحطمها، كما أنها تستطيع أن تدمر الطائرات وأن تعيق عمل المطارات، وأكثر ما تتأثر بالرياح القوية هي عملية الهبوط بالمظلات، ويبدو هذا الأمر صعباً للغاية عند سرعة رياح ٥٢ كلم / ساعة. وبالنسبة إلى الرماية بالأسلحة الميدانية الخفيفة والمتوسطة، فتتأثر هي الأخرى بسرعة وقوة الرياح، وعليه يتقلص المتسع الميداني للرمي، وأيضاً تقل المساحات التي يمكن أن تغطيها تلك الاسلحة، مع انخفاض المسافات المعتادة لوصول الطلقات بفعل الرياح، وبالتالي تنخفض كفاءة الرماية مع ازدياد سرعة الريح.

أما بالنسبة للأسلحة النووية والكيميائية، فتعمل الرياح على توسيع قطر الدائرة التي تغطيها النيران الناجمة عن الانفجارات التي تحدثها تلك الأسلحة، وكلما زادت سرعة الرياح، تزداد معها فعالية النيران وآثارها المدمرة، وتنتشر معها الغازات الملوثة للهواء كيميائياً، ويظهر الأثر السلبي للرياح على كفاءة الأسلحة الكيماوية والبيولوجية، بحيث تشتت الرياح المواد الكيماوية والبيولوجية في المكان التي ضربت فيه، وتعمل على التقليل من فاعليتها، وتجعلها ترتد عكسياً، لذلك فإن الجو الساكن الخالي من الرياح، يعتبر الأمثل لاستخدام الأسلحة غير التقليدية.

وتظهر عادة حالة السكون الجوي في الصباح الباكر، حيث تنعدم حركة الهواء العامودية، والتيارات الهوائية الصاعدة، وغالباً ما ينشأ في مثل ذلك الوقت ما يعرف بالانقلاب الحراري، الذي يعني ركوداً في درجة الحرارة نتيجة إنعدام حركة الهواء، وتختفي حالة الانقلاب الحراري تدريجياً مع بزوغ أشعة الشمس، وتسخينها سطح الأرض والهواء الملاصق له، وبالتالي تزداد حركة الهواء العامودية التصاعدية. وتزداد أخطار استخدام الأسلحة الكيماوية والبيولوجية في فترات

(١) Smith. k., "Principles applied climatology", McGraw-Hill, London, 1975, p 177.

الصباح الباكر، حيث تقل أو تكاد تنعدم التيارات الهوائية الصاعدة أو الهابطة.

كما تعمل الرياح على نقل الأوبئة والبكتيريا الناقلة للأمراض من مكان لآخر، ومن معسكر لآخر، لذلك من أهم نتائج الحروب الفورية انتقال الأمراض، وانتشارها، بسبب انشغال الدول بالحروب، وإهمالها للنواحي الصحية والنظافة الشخصية والعامية، أضف إلى ذلك ما يمكن أن يترتب من أمراض تنقل عبر الأثير من جراء التأخر بدفن قتلى الحرب.

٤ - استقرار الهواء

إن استقرار الهواء هو ميله إلى الارتفاع إلى الأعلى بسبب ارتفاع درجة حرارته، مع ارتفاع درجة الحرارة، فيسخن الهواء الملامس لسطح الأرض، ويتمدد، ويقل وزنه فيرتفع إلى الأعلى، وبالتالي يقل ضغطه، وارتفاع الهواء يعني عدم وجود حالة اضطراب فيه، وهو دليل على استقرارية الهواء، ويؤثر هذا الاستقرار على النواحي الحربية من خلال توفير الظروف الإيجابية والمناسبة لجهة استخدام الأسلحة الكيماوية والبيولوجية، حيث للرياح الشديدة دور مهم في هذا المجال، إذ يمكنها العمل على توزيع تلك المواد التي يسود فيها استقرار الهواء.

ويعود الجو المستقر والخالي من العواصف والأترية والغبار، بالآثار

الإيجابية على حالة الجنود وعلى آلياتهم وأجهزتهم، وأيضاً على كفاءة التقاط الصور الجوية والرصدية، ويساعد استقرار الهواء على زيادة كفاءة الاتصالات اللاسلكية، كما يحفز رجال المظلات لارتياح الأجواء التي تسود فيها حالة من الهواء المستقر، والهبوط بإمان إلى البر، ذلك إن الرياح العاتية تعمل على إعاقة عمل المظليين وهبوطهم وقد ترميهم في أماكن غير التي ينوون الإنزال فيها، حيث تستقبلهم نيران القوى المدافعة بسهولة ويسر وتقضي عليهم، أو يتم أسرهم.

٥ - الغيوم والضباب

الغيوم هي عبارة عن بخار ماء متكاثف وعالق في الهواء، وتعد المصدر اللازم لعمليات التكاثف التي تحدث في الهواء العلوي، وتتألف السحب عادةً من بلايين القطرات المائية شبه المجهرية، إضافة إلى البلورات الجليدية العالقة في الهواء بفعل التيارات الهوائية الصاعدة والهابطة، وما يمنع تلك القطرات من السقوط على الأرض. هو خفة وزنها، ودفع التيارات الصاعدة لها. وتتكون الغيوم في الغالب بسبب ارتفاع الهواء إلى الأعلى نتيجة تسخين سطح الأرض، وأثناء ارتفاع الهواء المحمل ببخار الماء فإن درجة حرارته ستتنخفض، ومن ثم سيتكاثف ما به من بخار ماء، وتتكون نتيجةً لذلك الغيوم بأشكالها المتنوعة، علماً

انها قد تتكون أيضاً في حال التقاء الهواء الساخن مع الهواء البارد في المنخفضات الجوية، أو بسبب اصطدام الهواء المحمل ببخار الماء بالسفوح الجبلية، مما يسمح بارتفاعه إلى الأعالي، وانخفاض درجة حرارته، وبالتالي تكثف ما به من بخار ماء، ويمكن تشبيهه مكونات السحب بمجموعاتها المختلفة بمكونات الضباب الكثيف.

والضباب عبارة عن قطرات دقيقة من الماء، ناتجة عن تكاثف بخار الماء بالقرب من سطح الأرض، ولهذا فإن الضباب هو غيوم ملاسمة لسطح الأرض، وبما أن حجم قطرات الماء دقيق جداً، فإنها لا تسقط على سطح الأرض بفعل الجاذبية، بسبب وزنها الضئيل، ولكن من العوامل التي تساعد على حدوث الضباب هو وجود ذرات من الغبار والأتربة المتناثرة في الهواء، والتي تعمل عمل النويات التي يتكاثف حولها الماء، وتختلف صور كثافة الضباب تبعاً لكمية بخار الماء المتكاثف فيه، ويختفي الضباب الخفيف كلياً بمجرد بزوغ أشعة الشمس، فتتحول ما به من قطرات متكاثفة إلى بخار ماء مرة أخرى ويتبدد في الهواء.

ومن شروط حدوث الضباب أيضاً هو ارتفاع الرطوبة النسبية للهواء لتزيد عن ٩٠٪، وأن يبرد الهواء حتى يصل إلى درجة الإشباع، ودرجة الإشباع أو نقطة الندى هي درجة الحرارة التي لا يستطيع بعدها

الهواء قادراً على حمل المزيد من بخار الماء، ويمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من الضباب تبعاً لمكان تكونه:

أ - **ضباب اليابس:** وهو الضباب الذي يتكون فوق الأسطح اليابسة، نتيجة عدد من الظروف منها:

- برودة الهواء الملامس لسطح الأرض بسبب تبريده الناجم عن الإشعاع الأرضي أثناء الليل.

- مرور هواء دافئ فوق سطح الأرض الذي تغطيه الثلوج، أو فوق الأسطح الباردة.

ب - **ضباب الوديان:** ويتكون في قيعان الأودية عند الصباح الباكر، نتيجة هبوط الهواء البارد من أعلى السفوح الجبلية إلى قاع الوادي وهو ما يعرف بضباب الأودية.

ت - **ضباب البحر:** يتكون ضباب البحر بسبب التقاء تيار مائي دافئ مع تيار بارد، وقد ينتقل الضباب إلى اليابس، وهو إما يزداد كثافة، إذا كان سطح اليابس بارداً، وإما أن يتلاشى ويتصاعد إلى الأعلى بحال كان السطح ساخناً.

ويتكون الضباب البحري على سبيل المثال عند التقاء مياه تيار خليج المكسيك الدافئ المتجه شمالاً في المحيط الأطلسي، مع تيار اللبرادور المتجه نحو الجنوب، وتشهد سواحل أوروبا الغربية مثل ذلك

أو أمطار وثلوج، بالإضافة إلى طبيعة الأسطح الجغرافية المورفولوجية، ولون الأجسام التي تتم مراقبتها وحجمها ودرجة انعكاسها، وقدرة الرصد.

وتستخدم المطارات المدنية والحربية على حد سواء، أجهزة إلكترونية لقياس مدى الرؤية، وذلك نظراً لأهميتها القصوى بالنسبة للطلعات الجوية، بالإضافة إلى أن الضباب يضعف الرؤية فإنه أيضاً يعيق حركة الجنود ومركباتهم الآلية، وبالتالي فإن عمليات التقدم والحركة وتزويد الجبهات تواجه مصاعب جمة وتتطلب فترة أطول.

وقد يعمل الضباب على إرباك الجيوش وزيادة حجم الحوادث والأخطاء، إذا صاحب الضباب تساقط للأمطار والثلوج، فإن ذلك يتطلب إعداداً إضافياً لمواجهة، وتكمن هنا أهمية استخدام البوصلة في الظروف الجوية الضبابية لعدم تمكن القوات الغازية من تحديد النقاط الجودية، أو من وضع علائم على الطرق والممرات والمعابر، التي تسلكها جيوشها المتقدمة.

وتقاس الرؤية العامودية عن طريق إطلاق منطاد مملوء بغاز النيتروجين في الجو ومراقبة اختفائه، بحيث تكون له سرعة محددة يمكن من خلالها معرفة مدى الرؤية العامودية، وهذه الأخيرة مهمة جداً في حال التصوير الجوي وعمل الأقمار

الضباب، بسبب التقاء مياه تيار الخليج الدافئ مع مياه بحر الشمال الباردة، وأيضاً عند التقاء مياه الأطلسي مع مياه بحر المتوسط الدافئة نسبياً، عند مضيق جبل طارق، وكذلك الحال في غرب الأمريكيتين.

هذا وتعمل الغيوم والضباب على حجب الرؤية وتقليل مداها، فيعمل بخار الماء المتكاثف على حجب القوات المتقاتلة في ساحات المعارك، وللضباب أثر مزدوج على الأعمال الحربية، فهو من جهة يوفر بيئة مناسبة للحركة بعيداً عيون القوات المعادية ومناظيرها، لما يوفره من تعقيم يحجب الرؤية المباشرة، ويعمل من جهة أخرى، على تأخير أي هجوم معادي ومباغت على تجمعات الجنود المحاربين بسبب قصر مدى الرؤية.

وتكمن أهمية الضباب في ما يعرف بمدى الرؤية الذي يصف شفافية الهواء بالنسبة لرؤية الإنسان، ويعبر عنها بالمسافات أي الأمتار والكيلومترات، ويقل مدى الرؤية بسبب وجود الضباب والمطر والثلج أو الغبار، والتي تعمل جميعها على امتصاص الإشعاع الشمسي وتشتيته، قبل أن يصل إلى الشيء المرئي وينعكس على أعين الإنسان.

والرؤية إما أن تكون أفقية، وإما عامودية باتجاه السماء، وتعتمد في مداها على وجود أو عدم وجود ملوثات أو ضباب

الاصطناعية المخصصة للتجسس، حيث تحجب الغيوم والضباب سطح الأرض عن كاميرات المراقبة والتصوير وأجهزة التقاط الإشعاع الأرضي.

ويعمل الضباب على امتصاص الإشعاع الحراري المنطلق من الآليات، والذي يمكن أن تسجله أجهزة التصوير الجوي والفضائي العاملة بواسطة تسجيل الإشعاعات الحرارية للمعدات والآليات العسكرية المنتشرة على سطح الأرض.

ويقوم الضباب المشبع بقطرات الماء بامتصاص الموجات الحرارية والموجات تحت الحمراء، والإشعاع المرئي الصادر عن سطح الأرض، وهذا هو عمل البيت الزجاجي في الغلاف الغازي، حيث يسمح بخار الماء وثاني أكسيد الكربون للإشعاع الشمسي قصير الموجات باختراق الغلاف الجوي باتجاه الأرض، ويمنع الإشعاع الأرضي والإشعاع الصادر عن الأجسام الموجودة على سطح الأرض، طویل الموجات من الخروج إلى الفضاء الخارجي، غير أن الضباب لا يستطيع امتصاص الموجات الرادارية ولا يؤثر عليها

ويقلل الضباب والغيوم من مدى الرؤية بالنسبة للطائرات، ويحد من عملها وهبوطها وإقلاعها، كما أنها تعمل على التقليل من أثر الضوء النووي وأثاره المدمرة، وتعمل

الغيوم والضباب على زيادة فعالية الأسلحة الكيماوية، نظراً للتفاعلات التي تحدث بين بخار الماء الموجود فيها مع تلك المواد، فتزيد من فترة بقائها في الجو، وتزيد أيضاً من فعاليتها.

وقد تضطر بعض الجيوش إلى إجراءات خاصة لإزالة الضباب من مناطق العمليات العسكرية التي تجري مناوراتها فيها، وأيضاً من أجواء المطارات الحربية، أو أثناء إجراء العروض العسكرية، وقد عمدت الصين لهذه الغاية في أيلول من العام ٢٠٠٩ إلى إلقاء مواد خاصة على الأرض وفي السماء لقتل الضباب وإبعاد الغيوم، التي كانت ستسبب بالتقليل من أهمية العرض العسكري الأهم والأضخم في العالم.

ويتم تبديد الغيوم التي قد تعرقل إقلاع وهبوط الطائرات، عن طريق إلقاء الثلج الجاف، أو بلورات أيوديد الفضة في هواء المنطقة المراد إزالة الضباب عنها، وتعمل بلورات الجليد وأيوديد الفضة على تكاثف قطرات الماء الموجودة في الضباب ونموها، وبالتالي تساقطها على شكل أمطار أو برد، ما يسمح على إحداث ثغرات في الكتل الضبابية، ويتم إلقاء تلك المواد ضمن نطاقات معينة، وأحياناً يتم اللجوء إلى إطلاق الهواء الساخن في أجواء المطارات الحربية، لتبديد الضباب في الهواء البارد،

غير أن الطريقة الأخيرة غير ذات جدوى بالنسبة لضباب الهواء الدافئ^(١).

٦ - الرطوبة

إن الرطوبة كلمة عامة ترمز إلى كمية بخار الماء في الهواء^(٢)، وتُعتمد الرطوبة النسبية في التحليل الجغرافي، وهي عبارة عن النسبة المئوية بين مقدار بخار الماء الموجود في وحدة معينة من الهواء، وبين مقدار ما يمكن أن يتحملة هذا الحجم ليصل إلى درجة التشبع في ظروف ثابتة، إذن فهي نسبة ما يحمله الهواء من بخار ماء بالفعل إلى ما يستطيع حمله.

وتتناسب قدرة الهواء على حمل بخار الماء طردياً مع ارتفاع درجة حرارته، فيزداد معهما الضيق بالتنفس، والشعور بالخمول، لذلك تتجنب بعض القطعات العسكرية خوض معاركها، في ظل ظروف الرطوبة النسبية المرتفعة، كتدبير يمنع إصابة الجنود بالتراخي والجبن.

وتؤثر الرطوبة المرتفعة على الآليات وعلى العتاد الحربي والذخائر، خصوصاً إذا كان الجيش يمكث في منطقة ماء، ولمدة طويلة على سبيل المراقبة، فتصاب عندها معداته الحربية بأمراض المعدن كالصدأ

والاهتراء، كما يحتمل أن تصاب القذائف الصاروخية بالتلف وتصبح غير ذات جدوى.

لذلك فهناك حاجة ماسة إلى صيانة الذخائر والآليات بشكل دوري، والعمل على تنظيفها وتقديم كل ما تحتاجه من عمليات التزييت والتشحيم واستبدال بعض قطعها، أو تعريضها لعمليات التجفيف المستمرة، ولا يخفى ما يترتب على هذه الأعمال من هدر للوقت ومخاطر جمة يمكن أن تتعرض لها الفرق الموكولة بأعمال الصيانة.

ولطول الليل الشتوي أثر سلبي على عمل الطائرات، فيحد من ساعات عملها وحركتها وفعاليتها أيضاً، ويرفع رطوبة الجو إلى حدها الأقصى، وحين ترتفع الرطوبة إلى ما فوق ٨٥٪ في الطقس البارد الذي تقل فيه درجة الحرارة عن -١٥ م°، فإن تفاعل الغازات الخارجة من عوادم الطائرات المروحية على سبيل المثال، مع ما تحمله معها من هواء وماء، سيؤدي إلى خلق سحب من الدخان تحجب الرؤية عن باقي الطائرات وتعيق تنقلاتها. وبالنسبة إلى الجنود أنفسهم فإن ارتفاع معدل الرطوبة النسبية المصاحب للارتفاع بدرجة الحرارة، سيؤثر سلباً على راحتهم الجسدية

(١) www.wekapidia.com

(٢) هوارد كرتشفيلد، علم المناخ العام، ترجمة وتقديم عبد القادر المحيشي، منشورات جامعة الجبل الغربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، الزنتان، ليبيا، ص ٤٥.

هو الحد الذي تبدأ معه كمية التساقط بالانخفاض، إلا أن هذا المعدل يتناقص كلما اتجهنا شمالاً أو جنوباً باتجاه القطبين، وتزداد كمية الأمطار الساقطة، إذا غطت الجبال الغابات الكثيفة، كما تزداد كمية الأمطار الساقطة على السفوح المواجهة للمطر، وتقل أو تكاد تنعدم على السفوح الواقعة في ظل المطر.

ومن الآثار المباشرة لسقوط الأمطار هو حجب الرؤية، والحد من سرعة الحركة بالنسبة للآليات والجنود، كما تحول الأمطار الغزيرة دون عمل أجهزة المراقبة والرصد على الأرض أو في الجو، وتعمل الأمطار أيضاً على رفع معدلات رطوبة التربة، وهي بذلك تعيق حركة الجنود وآلياتهم، نتيجة تكون المستنقعات والوحول، لذلك تزداد الحاجة الجند إلى معدات وتجهيزات خاصة، لا سيما الملابس المقاومة للأمطار.

إن الأغراض الرئيسية للملابس في ما يتعلق بالمناخ تكمن في الوقاية من تغيرات وتطرفات درجة الحرارة ومن أشعة الشمس الحادة والوقاية من التساقط، وعندما تبطل الملابس من التساقط، تفقد الكثير من قدرتها العازلة، والجوارب المبتلة في الطقس البارد هي إحدى علامات خطر التجمد المحتمل⁽¹⁾، ولا شك أن للملابس

والنفسية في آن معاً، لأنه كلما ارتفعت معدلات الرطوبة النسبية في الهواء، زاد معها الضيق النفسي والألم الجسدي، ويتوج الألم النفسي بالشعور بالكآبة المتعمقة خصوصاً مع حلول الثلوج.

علماء أن هناك تأثيراً إيجابياً لمعدلات الرطوبة المرتفعة على كفاءة الاتصالات اللاسلكية، فارتفاع نسبة بخار الماء في الهواء يسمح بتحسين جودة الصوت عبر انتقاله على الموجات المعتمدة، ما يسهم بوضوحه النسبي، وذلك لما يتمتع به بخار الماء من خصائص لجهة نقل الأمواج الصوتية بطريقة سلسلة.

٧ - الأمطار والثلوج

تشتمل المتساقطات أو التساقط على الامطار والثلوج والبرد وأيضاً الندى، ويختلف التساقط عن التكاثف في أن الأول يسقط على سطح الأرض، في حين أنه ليس بالضرورة أن يصل كل تكاثف إلى سطح الأرض، وعليه فهناك تكاثف سطحي يشتمل على الندى، الصقيع والضباب، وتكاثف علوي، ويشتمل على السحب، الأمطار، الثلج، والبرد.

وارتفاع معدلات التساقط بالارتفاع لتصل إلى نقطة معينة تبدأ بعدها بالأخذ بالتناقص التدريجي، ويمكن اعتبار ١٨٠٠ م

(1) هوارد كرتشفيلد، علم المناخ العام، مرجع سابق، ص ٣٨٧-٣٨٨.

أنواعها، يمكن أن تقف عاجزة أمام الكم الهائل والمتراكم من الثلوج، وقد ينزلق بعضها، وفي حال انزلاقها سيصعب جداً إعادة الحال إلى ما كانت عليه، وربما ستقطع الطريق أمام غيرها من الآليات، خاصة إذا كانت المنطقة المقصودة وعرة وجبلية، وهذا ما يسهل الأمر على الأعداء للوصول إلى أهدافهم، وبالتالي تعرض المهاجمين لأعمال عدائية أكبر.

وتستطيع الدبابات التنقل فوق سطح تغطية الثلوج إذا كان مضغوطاً بشكل كاف، ويمكنها المرور على سماكة تتخطى أحياناً ٨٠ سنتيم من الثلوج في المساحات المستوية، إلا أن هناك صعوبة جديّة تجابهها بحال صودف مسيرها ضمن أماكن تشوبها المنحدرات المترافقة مع الثلوج.

ويشير الاختصاصيون العسكريون إلى عجز معظم الدبابات عن اجتياز المنحدرات التي تزيد زاوية ميلها عن ٥٢٪، ويستفاد من تحسس نوع الثلوج الهابطة من احتمالية السير بالآليات الثقيلة أو عدمه، فكلما كان الثلج ناعماً كان أضمن للمسير من الثلج القاسي أو المتجمد، إلا أن الثلج الناعم قد يتسبب بمشاكل تتعلق بالرؤية، لذلك يصاب الكثيرون من سائقي الآليات وناقلات الجند والدبابات بنوع من العمى المؤقت الناتج عن انعكاس الأشعة الشمسية على الثلوج بسبب البياض الوهمي للثلج،

الخاصة الأخرى التي يتوجب على الجندي ارتداؤها في ظروف الطقس البارد، آثار سلبية على قدراته الميدانية وتنقله في أرض المعركة، فالملابس الثقيلة المصنوعة من النايلون الواقية من المطر، أو تلك الصوفية والتي تتشرب المياه بسرعة، في كلتا الحالتين ستتسبب بإضعاف الحركة والحد من القدرة على العمل العسكري أو المناورة لأفراد القوى المقاتلة، وفي حالة تشربها للمياه لحد الامتلاء فهناك خطر التجمد، أو أقله الإصابة بالنزلات البردية.

كما أن الظروف الناجمة عن تساقط الثلوج، وتشكل البرد، تحد أيضاً من قدرات الجنود والآليات البرية والطائرات الجوية معاً، وبنتيجة تساقط الثلوج التي هو مظهر من مظاهر التكاثر الناتج عن تبخر المياه في طبقات الجو العليا، فإن محاولة الطائرات المروحية الإقتراب من سطح الأرض المغطى بالثلوج، فإن أي محاولة هبوط، ستصبح صعبة للغاية، إذ ستثير عاصفة من الغبار الثلجي المتصاعد من الأرض بفعل مروحياتها، فتسوء عندها الرؤية عند قائد الطائرة، ويحجب عن ناظريه سطح الأرض، ما يمكن أن يتسبب بإصطدامه به أو بأي شيء آخر يصادفه.

كما تجد الآليات العسكرية المختلفة، صعوبة كبيرة في الحركة والتنقل، في حالة تساقط الثلوج، وحتى الدبابات بكافة

وبالتالي تنعدم قدرتهم على المتابعة بسبب ضعف الرؤية لديهم.

سيصبح صعباً للغاية، ما سيجبر الجنود على البقاء في مخيماتهم.

أما بحالة الثلج القاسي والمتجمد فإن نسبة الماء ترتفع فيه، بالرغم من إعادة تجمدها لعدة مرات، فإن عمليات المسير عليه ستكون صعبة للغاية، وتشكل سبباً رئيسياً لانزلاق الأليات وعطبها، إضافة إلى ذلك فإن الصقيع الذي هو شكل من أشكال التكاثر السطحي الجليدي، ويتكون عند درجة حرارة تنخفض إلا ما دون الصفر المئوي، سيكون سبباً مهماً في تقاعس سير الأليات، إذ غالباً ما يلصق بعجلات العربات وغيرها، وأيضاً يؤثر بكفاءة الأجهزة والمعدات^(١).

علماً أنه إبان فترة ذوبان الثلوج في أواخر فصل الشتاء وبداية فصل الربيع، فإن حركة الأليات العسكرية والجنود ستزداد صعوبة، حيث تختلط مياه الثلوج الذائبة مع التربة مكونة للأوحال والطين المختلط بالماء ما يتسبب بانزلاقات كبيرة تعيق حركة التنقل السريع، وفي كثير من مناطق العالم تظهر مثل هذه الظروف في شهري آذار ونيسان من كل عام، وعلى سبيل المثال فقد أضر الألمان هجومهم على اليونان في شتاء عام ١٩٤١ لأن أسطح المطارات في بلغاريا كانت ذائبة ومليئة بالطين المائع، الذي يعيق عمليات إقلاع وهبوط الطائرات.

والصقيع عبارة عن بلورات صغيرة من الثلج شبيهة بالندى من حيث أوقات ومواقع تكونها، ويعزى ذلك إلى انخفاض درجة حرارة الهواء الملامس لسطح الأرض إلى ما دون الصفر المئوي، وغالباً ما يكون هذا الانخفاض بالحرارة فجائياً فيتسبب بتجمد الغازات الجوية الملامسة لسطح الأجسام المعدنية القريبة من سطح الأرض تجمداً مباشراً، وهو ما يعرف بعملية التسام Sublimation^(٢). ويسبب تجمد الأليات الثقيلة، فإن أي تقدم عسكري بواسطتها

ومن ناحية تثبيت حظائر المدفعية، فإن تساقط الثلوج سيصعب بناء تلك المواقع، ففي المناطق التي يتساقط فيها الثلج الناعم اللين، سينقصها إمكانية الدعم الكافي لتثبيت المدفع، فتتحطم أرضيته وتتكسر مع أول إطلاق للقذائف المدفعية الثقيلة، أو الهاورتنزية.

كما أن الثلوج المتراكمة تساهم في إعاقة حفر مواقع ثابتة للمدافع، لصعوبة

(١) www.almoquatel.com

(٢) محمود حامد محمد، المتيورولوجية، القاهرة، ١٩٤٦، ص ٢٢٧.

حفرها في الأراضي المتجمدة، إلا أن هناك أنواعاً من المدافع مصنوعة خصيصاً لتتوالف مع البيئات الباردة والثلجية، على سبيل المثال سلاح المورتر، إذ لا يتطلب هذا النوع، أي مواقع ثابتة تحت الأرض، بل يبقى ظاهراً فوق سطحها.

إلا أنه قد تنعدم فعالية الألغام الأرضية الخاصة بالأفراد والآليات على السواء، والتي تعتمد على الضغط الثقلي، فإذا ما تغطت بطبقة كثيفة من الثلوج الجليدية القاسية، فتصبح عندها مسألة تفجيرها عملاً صعباً وبعيد الاحتمال، وينتفي خطرهما على العدو.

ويلزم الأعمال الحربية في أحيان كثيرة، بناء أسوار ترابية أو حفر خنادق، وتحتاج هذه التحصينات في المناطق التي تتراكم فيها الثلوج إلى أكثر من أربعة أضعاف الوقت اللازم لبنائها في المناطق العادية أو الجافة، وذلك أن عمليات الحفر أو البناء في التربة المتجمدة وما يترتب عليها من انهيارات ثلجية، تجعل من وضع هذه التحصينات العسكرية أمراً عسيراً جداً. كما أن ذوبان الثلوج يجعل عملية الانتقال داخل هذه التحصينات والخنادق، أمراً في غاية الخطورة، نظراً لزيادة الانهيارات الثلجية الناجمة عن الانفجارات والقصف والتدمير خلال المعارك.

وقد يتعرض الجنود المهاجمين في المناطق الجبلية التي تغطيها الثلوج إلى أخطار كبيرة، تتمثل بالانزلاقات والانهيارات الثلجية، والتي بالإضافة إلى أثارها السلبية على أرواح الجند، فإنها تساهم في قطع الطرقات، وإعاقة عمليات الإسعاف والإغاثة والتزود بالمؤن والوقود والعتاد الحربي. إلا أن هناك فوائد حربية للثلوج في أرض المعركة، تتلخص في امتصاصها لارتجاجات الانفجارات والقذائف والقنابل، والتقليل من خطر شظاياها المنتشرة من جراء ذلك.

بيد أن للثلج أثراً إيجابياً إضافياً على القوات المهاجمة، يتعلق بفعالية عمل سلاح الجو، وسهولة اكتشافه وتمييزه للأهداف والمواقع والآليات والجنود المنتشرة على أرض المعركة المغطاة بالثلوج، حيث تدور رحى المعارك، ما يسهل أمر القضاء عليها دون عناء.

ثانياً: الأثر غير المباشر للمناخ على سير العمليات الحربية:

للمناخ أثر غير مباشر على طبيعة ونوع التضاريس المنتشرة في أي مكان، أو أية بقعة جغرافية محددة، لذلك تؤدي التضاريس دوراً مهماً في الإضفاء على المناخ شكله النهائي مهما صغر شأنها^(١)،

(١) أوستن ملر، علم المناخ، ١٩٧٢، تعريب محمد متولي - إبراهيم زرقانة، المطبعة النموذجية، القاهرة، ص ٧٣.

ومن خلالها يتحدد فيما إذا كانت طبيعة المنطقة رطبة أم جافة، حارة أو معتدلة أو باردة، وهذا بالطبع له أثر كبير على وجود وفعالية عمليات التجوية والتعرية، التي بدورها تساهم في تشكيل سطح الأرض، والتفكير بتغيير خطة سير العمليات الحربية.

وسواء كانت عمليات التجوية أو التعرية فيزيائية أو كيميائية، فإنها ترتبط بالعوامل المناخية، لذلك فإن ارتفاع أو انخفاض درجة الحرارة سيعمل على تفتت وتحطم الصخور ميكانيكياً، من خلال تفاعل الماء مع المواد المعدنية المختلفة المتواجدة في الصخور وبالتالي سيتم تحليلها وتحويلها إلى مفتتات، تماماً كما تفعل الأنهار والمياه الجارية أثناء الحفر الباطني، مكونة للأشكال الكارستية، ومن خلال النحت الخارجي مكونة للأودية الجبلية والبحيرات... إلخ، وتساهم الأشكال السطحية والطبوغرافية والمورفولوجية بدور هام في عمليات التنقل للجيش والتصدي.

كما وأن للمناخ دوراً كبيراً في توزيع وحجم وكثافة سكان أي إقليم من الأقاليم الجغرافية على وجه المعمورة، تماماً كما له تأثير على توزيع وكثافة الغطاء النباتي المنتشر جغرافياً، ومن خلال دراسة المناخ نتمكن من تحديد الكميات الهائلة من المياه، وأنواع المتساقطات، وتحديد معدل الرطوبة

الجوية ومعدل رطوبة التربة، وهو ما يفيد في دراسة الإنزلاقات وبالتالي طرق التحركات التي ستسلكها جموع المهاجمين في أي معركة محتملة وفي سير العمليات الحربية، بسبب تأثيرها غير المباشر على حركة الجنود وآلياتهم، ووتجمعاتهم وأعمال العسكرة والنفير العام، وحفر الخنادق وإقامة التحصينات الدفاعية، وعلى سبيل المثال لا يمكن إنشاء معسكرات تدريب عسكرية في الأماكن التي ترتفع مناسب خطر الإنزلاقات الأرضية فيها بسبب توحل التربة، وأيضاً يجب إبعاد معسكرات الجند عن المناطق التي تشهد وجود لنسافات ثلجية كثيفة، مخافة إنزلاقها والتسبب بإضرار وخسائر في هذه المعسكرات.

وللمناخ اثر غير مباشر عل نجاح أو فشل العمليات العسكرية المختلفة، من خلال تأثيره على الوضع والقوة الاقتصادية للدولة، من هنا فإن تعدد الأقاليم المناخية للدولة الواحدة، له آثار إيجابية في قوتها ومنعتها، وفي تحقيق التوازن في اقتصادها ودعم مجهودها الحربي، وقدرتها على مواجهة الأخطار المحدقة.

وعلى سبيل المثال فإن دولة كتشيلي ذات الامتداد الجغرافي المتطاوول على خطوط العرض، تتعدد فيها الأقاليم

عملياتهم العسكرية في المكان والزمان المناسبين، وقبل الشروع بأي عمل عدائي أو هجومي أو دفاعي.

لذلك يكتسب المناخ أهمية كبيرة، خصوصاً لسلاح الإشارة في الجيوش المتقدمة، من أجل رصد العناصر الجوية وتسجيل الأهداف المزمع قصفها بادئ ذي بدء في ما يعرف ببنك الأهداف، خدمة للقوات البرية المهاجمة، وتسهيلاً لخوض غمار الاجتياحات البرية الضرورية لتمكين وتثبيت هذه القوات في الأماكن التي تحتلها، ولعل فشل نابوليون بونابرت خلال غزوه للأراضي الروسية دليل مهم على تأثير المناخ على الحروب منذ القدم، إذ كانت الظروف المناخية الباردة وتعرض جنوده للبرد القارس والثلوج آنذاك، سبباً مهماً لشل تحركاتهم وإقعادهم عن التقدم.

وتساهم الظروف المناخية في نجاح الهجمات العسكرية تماماً كما تساهم بإفشال بعضها، وهذا ما شهده العالم خلال الحرب العالمية الثانية، حينها اجتاحت القوات الألمانية الأراضي البولندية خلال فترة جفاف وانقطاع للأمطار، فأحسنوا بغزوهم استخدام وحداتهم الميكانيكية، فاجتازت البوارج الألمانية مضيق دوفر الحصين خلال يوم ملبد بالغيوم، فلم يستطع سلاح الجو البريطاني إيقاف الهجوم الألماني الشرس.

المناخية، فيسود فيها المناخ الصحراوي في الشمال، إلى جانب مناخ السواحل الغربية الممطر في الوسط، ومناخ بحر المتوسط في الجنوب، علماً أن الكثير من الدول الصحراوية تفتقر إلى القوة الاقتصادية الفاعلة نظراً لظروفها الجغرافية والمناخية، وتشيلي كونها دوله شبه صحراوية إلا أنها تستطيع الصمود والمواجهة، نظراً لتعدد أقاليمها الجغرافية المناخية.

في حين تتمتع دول أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، بثروات تفوق حاجة سكانها، يضاف إلى ذلك الظروف المناخية التي تتمتع بها، مما جعلها في مصاف الدول ذات القوى العسكرية الاستعمارية، وسمح لها السيطرة على الدول الضعيفة فباتت هذه الأخيرة على تبعية اقتصادية دائمة بها.

الخاتمة

يتبين لنا من هذه المقالة البسيطة، كيف يؤدي المناخ دوراً إستراتيجياً ومؤثراً في العمليات الحربية، ما جعل المخططين العسكريين يعون بدقة المسألة المناخية، ومدى تأثيرها على نظم وتسيير وتنفيذ خططهم العسكرية المزمعة، وذلك من خلال معرفة ودراسة دقيقة للأحوال المناخية والطقس العامة في البلاد، من أجل تحديد

الدول المتقدمة، مثل بريطانيا، ألمانيا وفرنسا، هيئات خاصة بالجيش من وظيفتها إعداد خرائط طقسية بشكل دائم، وأن تُلزم وحدات الجيش المختلفة دراسة الأحوال المناخية للمناطق المراد تنفيذ عمليات عسكرية فيها أو السيطرة عليها.

المصادر والمراجع

- ١ - أوستن ملر، علم المناخ، ١٩٧٢، تعريب محمد متولي - إبراهيم زرقانة، المطبعة النموذجية، القاهرة.
- ٢ - حسن أحمد أبو العينين، أصول الجغرافيا المناخية، الطبعة الثالثة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥.
- ٣ - حسن أبو العينين، كوكب الأرض، الطبعة السادسة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١.
- ٤ - عبد العزيز طريح شرف، الجغرافيا المناخية والنباتية، الجزء الأول، الإسكندرية، ١٩٦١.
- ٥ - محمود حامد محمد، المتيورولوجية، القاهرة، ١٩٤٦.
- ٦ - هوارد كرتشفيلد، علم المناخ العام، ترجمة عبد القادر مصطفى المحيشي، منشورات الجبل الغربي، الزنتان، ليبيا.
- 7 - Smith. k., "Principles applied climatology", McGraw-Hill, London, 1975.

المواقع الإلكترونية:

www.almoquatel.com
www.wekapedia.com

إلا أن الأخطاء العسكرية تكررت لدى الألمان أنفسهم، كما تم ذكره بالمقدمة، بإغفالهم دور وتأثير المناخ في الأعمال العسكرية الهجومية وتحقيق النصر أو الفشل، فكانت الخسارة الكبيرة التي منيت بها القوات الألمانية الغازية للأراضي الروسية خلال فصل الثلوج وبالتالي انكسار الجيش الألماني أثناء غزوه لروسيا نفسها.

قد يكون من الصعب القيام بأي هجوم عسكري جوي أثناء حدوث العواصف والأعاصير، أو عند حدوث الضباب الكثيف وسوء حالة الرؤية، ولكنه ليس مستحيلاً، في حين يختار رجال الصاعقة مثل هذه الظروف المناخية الصعبة، للعمل خلف خطوط العدو وتهيئة الظروف المناسبة للانقضاض على الأهداف في ساعة الصفر، وقبل هبوط رجال المظلات في المناطق المختارة لهم، أو عند تقدم الآليات العسكرية والدبابات المعادية.

من هنا ينبغي على القائد العسكري أن يكون على معرفة تامة بالظروف المناخية والطقسية، التي بإمكانها عرقلة أو إتمام أي عملية عسكرية مخطط لها، وإصابتها بالفشل أو النجاح.

ولم يكن غريباً أن تكون أعمال الأرصاد الجوية تابعة لإشراف جيش الولايات المتحدة الأمريكية، وأن يكون لجيوش بعض

تداعيات النزوح السوري إلى لبنان (نموذج بلدة البازورية الجنوبية)

لينا حجازي

أزمة أو توتر أو إهتزاز أمني أو خلل في الاستقرار السياسي. وكان لها الأثر السلبي على مختلف نواحي الحياة في لبنان، وشاءت الطبيعة الجغرافية التي تحكم لبنان وسوريا أن يتأثر لبنان بشكل مباشر بما يجري في سوريا التي تلف لبنان بزوار من الحدود شرقاً وشمالاً.

فالأزمة السورية التي بدأت أحداثها في منتصف آذار ٢٠١١ م، والتي تحولت من احتجاجات في بعض القرى والمدن إلى تصادم مسلح، شهد أفضع أساليب القتل والاجرام، وتوسعت حدود هذه الأزمة لتتطال مختلف الأراضي السورية وامتدت إلى البلدان المجاورة من خلال انتشار اللاجئين السوريين في لبنان والأردن والعراق وتركيا وغيرها من بلدان أفريقيا وأوروبا.....

وجراء هذه الحرب تدفقت أعداد كبيرة

المقدمة

حركة النزوح السوري إلى لبنان ليست حركة جديدة لشعب عربي ترك أرضه قسراً، إذ شهدت الحدود اللبنانية الجنوبية في أربعينيات القرن الماضي حركة قسرية للشعب الفلسطيني إلى الأراضي اللبنانية، عام ١٩٤٨ م إبان ما يعرف بنكبة فلسطين، وطالما أن المنطقة العربية هي محور أزمات عالمية وحلقة صراع للدول الكبرى، فإن النتائج المأساوية ستطال شعوب هذه المنطقة، حيث الخسائر البشرية والاقتصادية والاجتماعية والآثار النفسية التي تلي كل أزمة أمنية تأخذ طابع الصراع المسلح والقتال الدموي في منطقة ما.

فالحرب الدائرة في سوريا إضافة إلى آثارها الكارثية على الداخل السوري، فإن شرارتها امتدت إلى لبنان الذي لم ينعم منذ زمن طويل بأن تكون أراضيه خالية من أي



جدول رقم ١: تطور عدد اللاجئين السوريين المسجلين في بيانات المفوضية العليا للاجئين^(٣)

السنة	عدد اللاجئين إلى لبنان	عدد اللاجئين إلى البازورية
٢٠١٢	١٢٩,١٠٦	٢٣٠٠
٢٠١٣	٨٠٥,٨٣٥	٥٥٠٠
٢٠١٤	١,١٥٨,٩٩٥	٩٣٤٠
٢٠١٥	١,١٨٤,٣٢٣	٦٠٠٠

يبدو واضحاً من خلال أرقام الجدول رقم (١) تزايد أعداد اللاجئين إلى لبنان عموماً وإلى بلدة البازورية بين عامين ٢٠١٢ و ٢٠١٤ م حيث زادت أعداد اللاجئين السوريين إلى لبنان من ١٢٩,١٠٦ إلى ١,١٨٤,٣٢٣، كما زادت أعدادهم في بلدة البازورية من ٢٣٠٠ إلى

من اللاجئين عبر المعابر الحدودية إلى الدول المجاورة في لبنان والأردن وتركيا والعراق....^(١) وتقدر حصة لبنان من اللاجئين بأكثر من مليوني لاجئ حسب احصاءات المفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة، ويتوزعون على مختلف الأراضي اللبنانية، وقدّر عدد النازحين السوريين الموزعين على مناطق الجنوب أكثر من ٢٥٠ ألف نازح، حسب المفوضية العليا للأمم المتحدة، وبات هؤلاء يشكلون ضغطاً على استهلاك المياه والكهرباء وفي الصرف الصحي وهذا يشكل ثقلًا تنوء تحته البلديات في جنوبي لبنان كافة.

وحسب مصادر المفوضية العليا فإن النازحين موزعون في الجنوب كما يلي: ١٦٠ ألفاً في صيدا ومنطقتها، و ٣٠ ألفاً في صور ومنطقتها، و ٢٣ ألفاً في النبطية ومنطقتها.

خريطة رقم (١): توزيع اللاجئين السوريين على الأراضي اللبنانية ٢٠١٣^(٢)

(١) علي فاعور، الانفجار السكاني، المؤسسة الجغرافية، الطبعة الاولى ٢٠١٥، ص: ١٦.

(٢) بيانات المفوضية العليا لشؤون اللاجئين السوريين ٢٠١٣.

(٣) المفوضية العليا لشؤون اللاجئين السوريين

٩٣٤٠ شخصاً عام ٢٠١٤ م، وانخفضت أعدادهم في بلدة البازورية إلى ٦٠٠٠ عام ٢٠١٥ م، ويعود سبب ذلك إلى فتح باب الهجرة إلى الدول الأوروبية والأميركية، فهاجر عدد كبير منهم، حيث يتوقون إلى ظروف حياة أفضل.

يشكل اللاجئون السوريون فئة فتية، إذ إنّ ٥٤٪ منهم تحت سن العشرين و١٨٪ منهم ولدوا بعد الأزمة السورية، و٤٦٪ من النازحين السوريين متزوجين، وهنا تبرز مشكلة اجتماعية خطيرة تتمثل في الزواج المبكر وتعدد الزوجات، حيث يوجد ٢٩٪ منهم يتزوجون في سن مبكرة، ولهذا أثره المباشر على ارتفاع معدل النمو الطبيعي للسكان اللاجئين وعلى البلدات المضيفة.

أما من الناحية التعليمية للسوريين، فإنّ ثلثهم دون المستوى الابتدائي في التحصيل العلمي، فيما ٥٪ أنّهم تعلمهم الثانوي، وهناك ثلثا اللاجئين تركوا المدرسة لأسباب هم أفصحوا عنها كعدم الرغبة في التعلم، والحاجة إلى العمل والزواج، بالإضافة إلى الصعوبات التعليمية المتعلقة بالمنهج اللبناني مقارنة مع المنهج السوري.

وحول الأوضاع الاجتماعية تبين حسب البحث الميداني الذي أجراه فريق عمل تابع

للأستاذ ساري حنفي وهو أستاذ في علم الاجتماع في الجامعة الأميركية في بيروت أنّ ٨٠٪ من السوريين يعملون في مجالات حرفية أو دون إدارية ويتقاضون بدل عمل غير ثابت متوسطه ١٤٥\$ في الشهر.

ومن خلال مقابلة مع مسؤول العلاقات في المفوضية العليا للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين في لبنان ريان قطيش كشف عن معطيات إحصائية مفادها أنّ أوضاع السوريين الاجتماعية تزداد صعوبة، حيث ارتفعت نسبة من هم دون خط الفقر، والفقر المدقع من ٤٩ و ٢٩٪ على التوالي في العام ٢٠١٤ م، إلى ٧١ و ٥٣٪ على التوالي حالياً.

وتبيّن من هذه المعطيات أنّ ٤٥٪ من السوريين يعملون لعشرة أيام في الشهر، فيما يتراوح معدل الأجور للاجئين السوريين بين ١١٥\$ للإناث و ٢١٥\$ للذكور شهرياً^(١).

وفي هذا السياق، سنحاول في هذا البحث إلقاء الضوء على ظاهرة النمو السكاني والتوزيعات الجغرافية للسكان، وخصائصهم، وأزمة انتشار اللاجئين من البلدات المضيفة، وأعدادهم داخل بلدة البازورية ومدى تأثيرها على الأوضاع الديمغرافية والاجتماعية والاقتصادية.

(١) المفوضية العليا لشؤون اللاجئين السوريين إلى لبنان.

١ - الأوضاع الديمغرافية للسكان اللاجئين السوريين

بلغ عدد سكان بلدة البازورية ٩١٤٦ نسمة عام ٢٠١٦م بحسب أرقام وزارة الداخلية، بينما بلغ عدد السكان اللاجئين السوريين ٣١٠٠ لاجئ، يتوزعون على ٦٢٠ أسرة سورية لاجئة، بمعدل وسطي ٥ أفراد لكل عائلة، ويشكلون ٣٣,٨٪ من السكان المقيمين اللبنانيين والسوريين، أي أكثر من ثلث السكان المقيمين في البلدة، وهؤلاء نسبتهم ٢,٨٪ من اللاجئين السوريين إلى الجنوب اللبناني من أصل ١٦,٩٪، ومعظمهم أتى من المناطق السورية التالية: دير الزور - الرقة - ريف حلب - حماه - حمص ودمشق^(١).

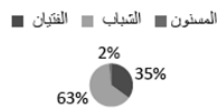
يتوزعون على مساحة لا تتعدى ٩,٧ كلم^٢، وهذا له الأثر الواضح على رفع الكثافة السكانية الإجمالية في البلدة، فهي ارتفعت من ٨٢٤ ن/كلم^٢ عام ٢٠٠٩م إلى ١٢٦٢ ن/كلم^٢ عام ٢٠١٦م بعد قدوم اللاجئين، وهي كثافة مرتفعة أدت إلى تفاقم المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في البلدة. ومن أسباب استقطاب البلدة للأعداد الكبيرة من النازحين وجود مؤسسات اجتماعية تعنى بشؤونهم كمؤسسة عامل التي تقدم لهم الخدمات الصحية وإلى

وجود أراض زراعية تجاور البلدة أمنت لهؤلاء اللاجئين فرص عمل، بالإضافة إلى حسن المعاملة التي يلاقونها في البلدة وخاصة الجهات الرسمية فيها كالبلدية التي تتابع شؤونهم بالتعاون مع الجمعيات الأممية.

أما على مستوى الفئات العمرية للاجئين، فنجد أن الأطفال يشكلون نسبة ٣٥٪ من الأسر اللاجئة، وكبار السن ١,٥٪ فقط، أما الفئة الشابة فتشكل ٦٣,٥٪، في حين يشكل الأطفال من عمر (٠ إلى ١٤ سنة) للسكان الأصليين في بلدة البازورية ٢٦,٣٪ من مجموع السكان المقيمين وكبار السن ٦٥ سنة يشكلون ٩,٨٪ من مجموع المقيمين في البلدة^(٢)، ومن حيث التركيب العمري للسكان اللاجئين يتميز بفتوته، في حين أن التركيب العمري للسكان اللبنانيين بشكل عام هو تركيب يدخل ضمن فئة الراشدين.

الرسم رقم (١): توزع الفئات العمرية للسكان اللاجئين السوريين إلى البازورية

Chart Title



(١) المفوضية العليا لشؤون اللاجئين السوريين التابعة للأمم المتحدة.

(٢) تقديرات بلدية البازورية لعام ٢٠١٦.

الصورة رقم (١): نموذج من مساكن اللاجئين السوريين



ويعود ارتفاع هذا المعدل للخصوبة إلى الزواج المبكر للفتاة والشباب، وإلى تعدد الزوجات وانخفاض المستوى الثقافي للاجئين وطبيعة العمل الزراعي التي تتطلب كثافة في اليد العاملة.

ومن الخصائص المميزة لمجتمع اللاجئين هو التفاوت بين نسبة الرجال والنساء، حيث ترتفع نسبة النساء إلى نحو ٥٥٪ كمتوسط عام بين اللاجئين^(٢)، بحيث تتحمل المرأة عبء إعالة الأسرة في زمن اللجوء وغالبا ما تكون الأسرة ضعيفة فقدت معيلها، وهنا يرتفع معدل إعالة الصغار وتتكفل المرأة وحدها بحماية الأسرة في زمن الحروب والتهجير.

أما بالنسبة إلى معدل الوفيات للأسر اللاجئة فبلغ ٢,٥٪ حالة وفاة لكل ١٠٠٠ من السكان اللاجئين، وهي نسبة تتفوق بقليل عن معدله في البازورية البالغ ٢ حالة وفاة لكل ألف من السكان، ويشير انخفاض هذا المعدل للأسر اللاجئة إلى فتوة السكان، وإلى توفر الخدمات الطبية والصحية المقدمة للسكان اللاجئين من قبل المنظمات العالمية.

ولهذا أثره على النمو الطبيعي للسكان اللاجئين الذي بلغت نسبته ٢٩,٥ بالألف،

يطرح التركيب العمري للسكان اللاجئين مشكلة تأمين الخدمات الاجتماعية للأطفال، خاصة وأن نسبة كبيرة منهم تعاني من سوء التغذية والفقر وصعوبة الحصول على أبسط المتطلبات الحياتية اليومية.

أما بالنسبة إلى معدل المواليد الخام للسكان اللاجئين إلى البلدة يبلغ ٣٢ ولادة لكل ألف من السكان، إن ارتفاع هذا المعدل يشير إلى ارتفاع معدل الخصوبة الذي بلغ ١٣ ولادة لكل الف من السكان في لبنان بحسب بيانات الأمم المتحدة، أما في بلدة البازورية فبلغ ٦,٧ ولادة لكل ألف من السكان عام ٢٠١٦ م^(١). وهذا يؤكد أن معدل الخصوبة للاجئين السوريين يفوق بكثير معدل الخصوبة في لبنان بشكل عام، فهو خمسة أضعاف معدله بالنسبة إلى سكان البازورية الأصليين.

(١) بيانات وزارة الداخلية ٢٠١٦.

(٢) علي فاعور - الانفجار السكاني - مرجع سابق - ص: ٢٧١.

وهي نسبة مرتفعة مقارنة مع النمو الطبيعي للسكان في لبنان (٩,١ بالألف) حسب بيانات الأمم المتحدة ٢٠١٦^(١).

ويعود هذا الارتفاع بالدرجة الأولى إلى ارتفاع معدل الولادات بين السكان السوريين اللاجئين، ويرجع سببه إلى المساعدات الطبية المقدمة للمرأة الحامل، وانخفاض المستوى الثقافي للأسر النازحة وخاصة أن معظم هذه الأسر أتت من الأرياف السورية.

٢ - الخصائص الاجتماعية للسكان اللاجئين السوريين إلى بلدة البازورية

إن أزمة اللاجئين أرخت بثقلها على جميع القطاعات الاقتصادية والتعليمية والصحية في لبنان:

ففي القطاع التربوي:

تشير إحصاءات وزارة التربية للعام ٢٠١٦ - ٢٠١٧م في بلدة البازورية إلى وجود ٢٦٠ تلميذاً في الدوام المسائي في المدرسة المتوسطة، ويدرس فيها حوالي ٢٠ مدرساً، وقدمت المفوضية العليا لشؤون اللاجئين دعماً للطلاب وتضمن التسجيل والكتب والقرطاسية وأحياناً النقل المجاني، وعلى الرغم من توفر الدعم الأممي لمتابعة التحصيل العلمي، إلا أن

معظم اللاجئين لا يكملون دراستهم، بل يفضلون العمل لإعالة أهاليهم في أعمار مبكرة، وهذا واضح من خلال وجود أكثر من ٥٠ طفلاً بين عمر ١٠ و١٤ سنة يعملون في المقاهي وبعض المحلات التجارية والخدمية.

كما تُعنى المفوضية العليا لشؤون اللاجئين السوريين المتسربين من المدارس وغيرها بإقامة دورات تأهيلية لهم تشمل الخياطة - تسريح الشعر - تنسيق حفلات - تنسيق زهور - طبخ للإناث، ودورات كمبيوتر ولغات والحفر على الخشب وغيرها من الدورات التأهيلية بهدف تنمية قدراتهم ومساعدتهم على الاندماج في المجتمع المستقبل لهم.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن اكتساب اللاجئين لهذه المهارات أعلاه، ساهم بحصولهم على فرص عمل خفيفة تتناسب مع مصاريفهم، ولكنها في الوقت ذاته أثرت سلباً على أصحاب بعض الحرف والمهن لسكان البلدة الأصليين، خاصة وأنهم يعملون بأجور متدنية مقارنة مع الأجر الذي يتقاضاه العمال المحليين من أبناء البلدة. وهذا شكل سبباً لتزايد نسب البطالة بين أبنائها، فقلما نجد مؤسسة أو ورشة بناء أو بستاناً أو معملاً يخلو من العمال السوريين.

(١) بيانات وزارة الداخلية اللبنانية - ٢٠١٦م.

ميسورة حيث توجد ١٥ عائلة من أصل ٦٢٠ أسرة تعيش على حسابها الخاص، وتتميز حياتها بالرفاهية والترف، وهؤلاء قدموا من مدن سورية وليس من الأرياف.

على ضوء هذا الواقع وبعد مضي نحو ٦ سنوات على الأزمة السورية ونتيجة تدفقات النازحين الضخمة إلى لبنان تفاقمت الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، حيث بات عدد اللاجئين يفوق قدرة الدولة على استيعابهم وتوفير متطلباتهم الحياتية، وهذا يعود لضعف البنية التحتية ونقص الخدمات العامة، وعدم كفاية المرافق الصحية والتعليمية، على الرغم من المساعدات المقدمة من الأمم المتحدة.

إن هذا الواقع الناتج عن الأعداد الكبير من النازحين وما يترتب عليه من تأمين الخدمات كان له الأثر السلبي الكبير على السكان الأصليين في بلدة البازورية، فمثلاً تراجع مستوى النظافة لعجز البلدية وغيرها من البلديات عن تأمين جمع النفايات ونظافة الطرق. حيث بات مطلوباً زيادة عمال النظافة في البلدية لجمع النفايات في أماكن سكن اللاجئين، وهذا بطبيعة الحال يرتب أعباء إضافية على البلدية، فبينما كان يستغرق جمع النفايات من شوارع البلدة يوماً واحداً، أصبحت هذه المهمة تحتاج إلى

في القطاع الطبي: من المؤسسات التي

كانت تقدم خدمات صحية لأكثر من ٤٠٠ حالة شهرياً من أبناء بلدة البازورية هي مؤسسة عامل، وقد انخفضت هذه الخدمات بعد مجيء اللاجئين السوريين فأصبح يستفيد من هذه الخدمات بين ١٠٠ و ٢٠٠ حالة من أبناء البلدة، فتحوّلت هذه الخدمات لصالح اللاجئين، علماً أن النازحين السوريين تقدم لهم خدمات صحية مهمة، حيث يستفيدون بنسبة ٧٥٪ من فاتورة الاستشفاء في المستشفى الإيطالي في مدينة (صور)، كما يقوم الصليب الأحمر بكشف صحي دوري على اللاجئين مقدماً بعض الأدوية للأمراض المستعصية^(١).

على الصعيد السكاني:

فقد تحوّلت البلدات اللبنانية إلى مراكز لإقامة اللاجئين السوريين، فقد تغلغوا في أرجاء البلدة وأقاموا في بيوت تم ترميمها أو إكمال تنفيذها من قبل المجلس النروجي (N.R.C)، وبعضهم يعيش في مساكن متدنية المستوى كالمخازن ومرآب سيارات ومبانٍ غير مكتملة، هذا بالإضافة إلى سبع خيم أنشأتها الأمم المتحدة إلى جانب المساعدات المقدمة لكل أسرة من فرش وبطانيات وجهاز مطبخ كامل، وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك عائلات سورية

(١) بيانات بلدية البازورية - ٢٠١٦.

يوم إضافي، والدليل على ذلك ما نراه من تكديس للنفايات في مكبات عشوائية على جواني الطرقات الفرعية.

ومن المرافق التي طالها التأثير السلبي لارتفاع أعداد اللاجئين في بلدة البازورية تتمثل بالضغط على مرافق المياه والكهرباء حيث باتت هذه المرافق لا تستوعب متطلبات الأعداد الكبيرة للاجئين، ما حرم أبناء البلدة الأصليين من الاستفادة المعتادة من هذين المرفقين الحيويين، حيث تستهلك العائلات اللاجئة حوالي ثلث كمية المياه التي تستفيد منها البلدة، حتى أن بعض الأحياء حرمت من هذه المادة الحيوية بعدما تحولت حصة هذه الأحياء من المياه إلى مناطق اللاجئين السوريين، وهذا ما دفع المجلس البلدي إلى حفر بئر ارتوازية أخرى لتلبية الاحتياجات المتزايدة نتيجة مجيء اللاجئين السوريين وتزايد أعدادهم، وهذا وتجدر الإشارة إلى أن استفادة اللاجئين من المياه لا يرتب عليهم أعباء مالية ما يعني حرمان الدولة من رسوم مالية تساعد في تلبية احتياجات المواطنين.

وبالإضافة إلى الضغط على شبكة المياه في البلدة، فإن شبكة الكهرباء أيضاً وقدرتها على توفير تغذية كهربائية أخذت بالانخفاض وما نراه من انقطاع مستمر للتيار الكهربائي، ما هو إلا نتيجة ارتفاع لأعداد المستفيدين من اللاجئين السوريين

من التيار الكهربائي، ومن دون أن يتحملوا أية رسوم مالية. وهذا بحد ذاته أثر على سير العمل في المؤسسات الصناعية الصغيرة في البلدة، وعلى محطات ضخ المياه.

٣ - الواقع الاقتصادي في البازورية في ظل اللاجئين

تعاني الأسر النازحة من وضع اقتصادي سيئ، فاتجه النازح السوري ليؤمن لقمة عيشه للعمل في ورش مختلفة، فيجمع في مصدر رزقه ما بين المساعدات ومدخول العمل، في حين أن هذه الفرصة غير متاحة أمام معظم اللبنانيين الفقراء، ما سيؤدي إلى تهميش الشعب المضيف، وأدى في الوقت نفسه إلى خسارة عدد كبير من الشباب عملهم، فبعدما كانت البطالة شبه منعدمة عند فئة الشباب، ارتفعت بعد الأزمة إلى أكثر من ٢٥٠ شخص بين ذكور وإناث، حيث حلت العمالة السورية التي ترضى بأجور متدنية محل اليد العاملة اللبنانية من أبناء البلدة ما أدى إلى تراجع الأجور في البلدة بشكل خاص وفي لبنان بشكل عام، الأمر الذي حدا ببعض اللبنانيين إلى قبول أجور متدنية خوفاً من الوقوع في متاهة البطالة في ظل الأوضاع الاقتصادية الصعبة، وجعل أبناء البلدة من الشباب ينظرون إلى اللاجئين كفئة عاملة تنافسهم على لقمة عيشهم، هذا وقد فضل عدد كبير

داخل سوريا. وقد كان للحرب في سوريا أثرها الواسع على لبنان، مع تداعيات على مستوى أمن البلاد واقتصادها ومجتمعها. لقد فتح لبنان شعباً ومؤسسات، أبوابه بسخاء لأكثر من مليون لاجئ سوري مع تلبية احتياجاتهم.

ولكن بعد سنوات من اللجوء، تشهد أوضاع اللاجئين في لبنان تدهوراً سريعاً. فقد نضبت مدخراتهم وباتوا أسرى حلقة مفرغة من الفقر المدقع، وبالكاد قادرين على تلبية متطلبات حياتهم اليومية. ويجب الإشارة إلى أن المساعدات المقدمة لهم غير كافية إزاء الاحتياجات المتزايدة، وفي ظل هذا الواقع الأليم تحاول المفوضية العليا للاجئين في الأمم المتحدة، حث المجتمع الدولي على المشاركة في تحمل أعباء إغاثة النازحين الفقراء، واتبعت سياسة تشجيع دمج اللاجئين في المجتمعات المحلية، وسمحت لهم بالإقامة في أي مكان يختارونه على الأراضي اللبنانية، وتقاسمت معهم الكثير من خدمات المياه والكهرباء والطبابة، حتى النظافة التي تتولاها البلديات في العديد من البلدات، لكن مع تزايد الأعداد تفاقمت أزمة السوريين ولا حل في الأفق، وقد أصبح لبنان في مواجهة أزمات إنسانية وأمنية واقتصادية لا سابق لها، تتخطى

منهم نتيجة مزاحمة اليد العاملة السورية إلى ترك البلدة والهجرة إلى الخارج، وخاصة من كانوا يعملون في قطاع البناء ومشتملاته⁽¹⁾، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الأموال التي يتقاضونها لا تدخل ضمن الدورة الاقتصادية في لبنان، لأن جزءاً كبيراً منها يتم تحويله مباشرة من لبنان إلى ذويهم في سوريا.

ومن الأمثلة على منافسة اليد العاملة السورية لليد العاملة اللبنانية مشاركة كل أفراد الأسرة السورية في موسم قطف الزيتون بأجور متدنية، علماً إن موسم قطف الزيتون كان يعمل به عدد كبير من أبناء البلدة ذكوراً وإناثاً

اقتراحات لحل مشكلة اللاجئين السوريين

تحولت أزمة اللاجئين السوريين خلال ست سنوات إلى كارثة على شعب عانى من القتل والتشريد وتدمير حضارته التاريخية والعمرانية التي تعود إلى آلاف السنين، ونهب الموارد الطبيعية والاقتصادية.

ويدخل الصراع الدائر في سوريا عامه السابع وقد تسبب في أزمة غير مسبوقة وتشريد ٤,٨ ملايين لاجئ يتوزعون في مختلف أنحاء المنطقة، فضلاً عن التأثير بشكل مباشر على ١٣,٥ مليون شخص

(١) من خلال مقابلة اجريت مع مسؤول ملف اللاجئين السوريين في بلدية البازورية ٢٠١٧.

إمكانات الدولة اللبنانية، حيث بات من الضروري اتخاذ قرارات حاسمة وصعبة لمواجهة الأزمة، وذلك باعتماد خطط أكثر فعالية، لتوفير التمويل المطلوب، وتأمين الدعم اللازم للبلديات.

أمام هذا الواقع لم تتخذ الحكومة أية قرارات حاسمة بشأن أزمة اللاجئين منذ السنوات الثلاث الأولى للأزمة، وكانت المفوضية العليا المرجع الأساسي للنازحين السوريين حتى ٢٠١٤م، ونتيجة للتداعيات الأمنية والاجتماعية أعدت الحكومة خطة لمواجهة الأزمة، وهي «الورقة السياسية لمعالجة أزمة النزوح السوري»، وأبرز النقاط التي وردت فيها: حصر النزوح بالحالات الإنسانية للمهجرين في حياتهم، ثم توسيع صلاحيات الشرطة البلدية لحفظ الأمن، ودعوة المجتمع الدولي والمنظمات الدولية وغير الحكومية وهيئات المجتمع المدني إلى تقاسم الأعباء المترتبة جراء هذا النزوح^(١). من هنا يجب على الحكومة اتخاذ خطط جادة وفعالة لمعالجة الأزمة كإنشاء مجلس لإدارة النزوح السوري وذلك لمعرفة أعدادهم وتوزيعهم، وإعداد ملف إحصائي كامل لكل أسرة، وتصنيفهم بحسب أوضاعهم.

بالإضافة إلى تنظيم دخول السوريين إلى لبنان، وإيصال المساعدات الكافية لهم، وحمايتهم من الاستغلال. واليوم وبعد مضي ست سنوات على الأزمة السورية لا بد من إيجاد حلول للأزمة تعيد فيها اللاجئين إلى بلادهم فور سماح الظروف بذلك. وسيؤدي السلام في سوريا إلى انطلاق برامج مساعدات واسعة النطاق تنفذها المفوضية ومنظمات الإغاثة الأخرى، من أجل مساعدتهم على العودة إلى سوريا وتسهيل اندماجهم في وطنهم، وذلك لسنوات عدة بعد عودتهم.

وفي ظل هذا الوضع المريع قدم لبنان إلى مؤتمر بروكسيل ٥ نيسان ٢٠١٧م خطة شاملة متعلقة برؤيته للتعامل مع أزمة اللاجئين السوريين الموجودين على أراضيهم، وتعتمد تلك الخطة بشكل أساسي على دفع المجتمع الدولي لمساعدة لبنان على الاستثمار بالبنى التحتية لديه، وهو ما قد يخلق أيضاً فرص عمل، ويعالج مشكلات أساسية كالبطالة^(٢).

وعلى الرغم من أن لبنان لا يملك دراسات وأرقاماً واضحة عن كلفة الأزمة السورية، فإن مسؤوليه يؤكدون أن الأزمة تقترب من نقطة الانهيار. فهل هناك من يعي

(١) علي فاعور - الانفجار السكاني - مرجع سابق - ص: ٣٩٢.

(٢) WWW.BBC.Arabic.com 2017.

خطورة هذه الأزمة؟ وهل يترك المسؤولون
خلافاتهم السياسية جانباً ويتفرغون لهذه
المشكلة التي ترمي بثقلها على مختلف
نواحي الحياة في لبنان؟

المراجع والمصادر

- ١ - المفوضية العليا لشؤون اللاجئين السوريين التابعة
للأمم المتحدة.
- ٢ - د. علي فاعور - الانفجار السكاني - المؤسسة
الجغرافية - الطبعة الاولى - ٢٠١٥.
- ٣ - بيانات بلدية البازورية ٢٠١٦.
- ٤ - بيانات وزارة الداخلية اللبنانية - ٢٠١٦.
- ٥ - مقابلة اجريت مع مسؤول ملف اللاجئين السوريين
في بلدية البازورية ٢٠١٧.
- ٦ - مقابلات مع مسؤولين عن الملف السوري في
البازورية.

6 - www.BBC.Arabic.com

قَوْلٌ عَلَى قَوْلٍ/بِلاغة على بلاغة

زيتٌ على زيتون

أ. محمد السيد

يكون فيه إلى جانب الجمال التّعبير والبيان المعجب فيض الرّواية وسبق البديهة.

وإنّ المقام هنا يقتضي أنّ التّعليق يكون موجزاً خاطفاً لكنّه فخم رائع فهو نصّ كامل في الجمال والرّونق والبهاء وملك النّفس مع أنّه إشارة أو من دون الإشارة.

وهذا شيءٌ من عبقرية هذه اللّغة وسبق هذا البيان العربيّ وكفاية أدبائه حكماً وعلماء. من ذلك ما روي أنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه سأل رجلاً عن أمر من الأمور فقال له: «أكان كذا وكذا؟» فقال الرّجل:

«لا عافاك الله يا أمير المؤمنين».. فقال عمر بن الخطّاب: «قد علّمتم فلم تتعلّموا، هلاً قلت: لا وعافاك الله؟».

فهذا الرّجل قال (لا) ولم يفصل بينها وبين الكلمة بعدها بفواصل فتقرأ العبارة (أو تُسمع) لا عافاك الله.. فيكون المتكلّم يريد الدّعاء للخليفة فينقلب التّعبير دعاءً عليه فلم يَغْفِل عمر بن الخطّاب (وهو من هو)

في مطاوي أدبنا العربي الخصب وبين حنايا وطوايا أوراق كتبه يوجد فنٌّ خفيٌّ ظاهرٌ يُلحظ ويُفهم ويُشمُّ أريجُه ويُشتهى نَضِيبُهُ. وهو ما نسمّيه «بلاغةً على بلاغة» وهو أن يسمع أديبٌ قولاً لأديبٍ أو شعراً لشاعرٍ بليغاً أسراً فيعلّق عليه بقولٍ آخرٍ بليغٍ أسرٍ، وقد يكون أكثر بلاغة وأسراً، ويكون ذلك مباشرة لدى سماعه ليكون في الوقت نفسه ولتكون منه لذةٌ أدبيةٌ تدلُّ على سرعة بديهة وفتنةٍ وردٍّ أو تعليق على ما قيل.

فيكون النّصُّ في نصٍّ أو القول في قولٍ أخذاً بمجامع الفهم والإدراك لدى الجميع، هذا إن كان الوقت واحداً، أمّا إن كان هناك بين ذَيْن النّصّين تراخٍ عن قربٍ أو بعدٍ في الزّمن أو المكان فهو أيضاً من بليغ الكلام لكن لا يُعتبر ردّاً مباشراً فهما نصّان في عصرين تعبّر عنهما (عن النّصّين) قطعتان أدبيّتان متحصّلتان. هذا الفنُّ الجديد الممتع

فصَحَّحَ له قوله بأن يكون حكيماً في خطابه ولا يُفهم منه عكس ما يبغى ويروم.

وتعتبر هذه من دقة الملاحظة، ويعتبر كلام عمر من مَكِينِ البلاغة فيدلُّ ويشير إلى تصويب التَّعبير الذي لولاه لاختلَّ المعنى.

ويمرُّ الزَّمَنُ حتَّى يأتي عصر الصَّاحب بن عباد عصر المتنبِّي وابن العميد. وهو القرن الرَّابِعُ الهجريُّ فيعلم الصَّاحب بهذه البلاغة العُمريَّة وبروعة هذه الواو التي وضعها فمنعت الالتباس والفهم الخاطيء لها والتِّي وضعها في مكانٍ دقيق، فيقول معلقاً: «هذه الواو أجمل من واوات الأصداغ على خدود الملاح». كلام الصَّاحب بن عباد هنا في ذاته يُعتبرُ نصّاً أدبياً على خطفه وقصره الرَّائع الجميل. فمن أين جاء بهذا المعنى لهذه الكلمات التي رصفها لتعبّر عن ممدوحين: الأوَّل هو ما يقصده، والثَّاني هو ما كانت في الأصل له فكانت بلاغة على بلاغة، حيث كانت الجواري حينئذٍ يترنَّين لسادتهنَّ ولأنفسهنَّ في محافلهنَّ حيث يُضفرنَّ شعورهنَّ بحيث تنزل منهنَّ خصلات معقوفة مُدبَّبة بشكل واوات عجيبة في الأصداغ والخدود. فيقول الصَّاحب بن عباد رحمه الله: إنَّ واو عمر تلك (في إحكامها) وتمكن محلَّها واستغناء واضعها

بها عن كلام وحُسْنِ رونقها لأجمل من واوات النِّساء الفاتنات الجميلات اللواتي تزيَّنَّ بحُصلِ شعورهنَّ في أصداعهنَّ وخدودهنَّ.

فهذه بلاغة على بلاغة بل هي لوحة فنيَّة تعبيرية من نصِّين في عصرين متباعدين وهي أطرف وأظرف للوحة هذه وأمتع تحريكاً عاطفياً. فكان النَّصُّ الأوَّل لعمر بن الخطَّاب: بليغاً جميلاً محكماً لا لبس فيه.

والنَّصُّ الثَّاني للصَّاحب الوزير: مثيراً فنيّاً أسراً عاطفياً^(١).

هذا وأمثاله كثير فيه طربٌ للأذن وراحة لنبض القلب حيث يبتُّ الأدب في البلاغة ليصير أدباً عالياً وتعبيراً أسراً تراً يدلُّ على أنَّه نزر من جَمٍّ وقطعة فنيَّة من لوحة من لوحات البلاغة.

سأل المأمونُ يحيى بنَ المبارك عن شيء فقال له: «لا وجعلني الله فداءك يا أمير المؤمنين». فقال له:

«الله درُّك، ما وُضعت واوٌ قطُّ وضِعاً أحسن منها في هذا الموضع»، ووصله وحملَه وأكرمه إكراماً لبلاغته.

هذه هي الالتفاتة في البلاغة والفهم الدَّقيق للكلمات أن توضع بمواضعها وأمكنتها.

(١) الجاحظ - البيان والتبيين - ٢٦٢/١

قام عُودِي» كناية عن موته، ومُثَلِّ الجاهليين
الَّتِي يَتَغَنَّى بِهَا هُنَا طَرْفَةَ هِي:
- شرب الخمر.
- إنجاد الضيف والجار.
- التمتع بجمال المرأة.

فيعرض طرفة ذلك الشاب الشاعر
العريق الذي لم يرضَ بالمذلة فقتل بكلماته،
يَعْرِضُ بِأَسْلُوبٍ رَائِعٍ فَيَقُولُ: إِنَّ الَّذِي مَسَّكَ
به بالحياة ثلاثة أمور: الأولى شرب الخمر
الحمراء المزبدة على الماء وإنجادي على
حصان ضامر كالذئب، والضيف النازل
ببيتي إذا دهمه خطرٌ ما.. وتمتعي في يومٍ
شاتٍ بحسنةٍ ناعمةٍ تحت خباءٍ دافئٍ ذي
أعمدة.. ورغم عرضه للمُثَلِّ الجاهلية لم
يخجل بالتعبير عنها بجعلها مع النجدة ومع
إكرام الضيف وتعريض نفسه للخطر في
سبيل ذلك.

فجعل النجدة والموت في سبيل الجار
لذَّةً بين لذَّتَيْنِ: الخمر والنساء.. وهي لذَّةٌ
معنويةٌ بين لذَّتَيْنِ حسيَّتين.. فيألهن من
قوم.. وعجبٌ منهم، حتَّى في الانحدار
يرتفعون.. حتَّى في الهبوط يسمون.. هذه
بلاغة التعبير.

يسمع عمر بن عبد العزيز رحمه الله

وقد روى ابن عبد ربّه في عقده الفريد
أنَّ عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان في
سفر فسمع من قافلة صوت رجلٍ يتغنى
بأبيات طرفة بن العبد الشَّاعر الجاهلي^(١):

وَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الْفَتَى
وَجَدَّكَ لَمْ أَحْفَلْ مَتَى قَامَ عُودِي
فَمِنْهُنَّ سَبَقِي الْعَاذِلَاتِ بِشَرْبَةِ
كُمَيْتِ مَتَى مَا تُغَلِّ بِالْمَاءِ تُزِيدِ
وَكَرِّي إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُجَنَّبًا
كَسِيدِ الْغَضَا نَبَّهْتَهُ الْمُتَوَرِّدِ
وَتَفْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ وَالدَّجْنُ مُعْجَبٌ
بِبَهْكَتِهِ تَحْتَ الْخَبَاءِ الْمُعَمَّدِ^(٢)

هذه الأبيات من معلقة طرفة الشهيرة
وهو من شعراء المعلقات أو المذهبات
وتعتبر من أنفسِ المعلقات التي تستحق
فعالاً أن تكتب بماء الذهب لما تحوي من
حكم وإبداع وبلاغة.

هذه الأبيات الأربعة ذهب في أجيال
العرب مذهباً بعيداً في الروعة والجلال
والإصابة حتَّى أن النُّقَادَ قالوا: «إِنَّ هُنَا
تفصيلاً وتبييناً لمُثَلِّ الجاهليين بأبهى لفظ
وأكمل أسلوب مع ما فيها من بلاغة المبنى
إلى جانب نصاعة المعنى. وقوله فيها: «إذا

(١) طرفة بن العبد: هو أشعر الشعراء بعد امرئ القيس وهو من بني بكر بن وائل، قُتل وهو ابن ست وعشرين سنة كان ذكياً
حديد الذهن وكان يهجو عمرو بن هند فأرسله إلى عامله في البحرين وزوده بكتاب يأمر بقتله هو وخاله المتلمس،
فهرب خاله وقُتل طرفة هناك فكان قتيلاً لسانه.

(٢) الشَّنْقِطِيّ - شرح المعلقات العشر ص ٢٨.

ولا سيّما البائيّة المذهّبة فيها جمال خاصّ
يقول ببعضها:

طَرِبْتُ وما شَوْقاً إلى البِيضِ أَطْرَبُ
ولا لَعِباً مِنِّي والشَّيْبُ يَلْعَبُ
إلى النَّفْرِ البِيضِ الذِّينَ بِحُبِّهِمْ
إلى الله فِيمَا نَابَنِي أَتَقَرَّبُ
ولَكنْ إلى أهلِ الفَضَائِلِ والنَّهْيِ
وَخَيْرِ بَنِي حَوْاءَ والخَيْرِ يُطَلَّبُ
بني هَاشِمٍ رَهْطِ النَّبِيِّ فَإِنِّي
بِهِمْ وَلَهُمْ أَرْضِي مِزاراً وَأَغْضَبُ^(٣)

كان الفرزدق معروفاً أنّه أمير الشعّر
حينئذ وسيّده الضّخم مع جرير والأخطل
وكان الكُميت مطفأةً سرجه عنهم. وحين
قيل للفرزدق أنّ الكُميت قد برع وأحسن في
هاشميّاته (قصائد مدح آل بيت رسول
الله ﷺ) قال مباشرة: / وجد أجراً وجصاً
فبني / مع أنّه كان يُعتَبَر المناسف للفرزدق
أو أنّه سيشاركه مجده، لكن الفرزدق كان
وقافاً عند قدر النَّاس يعطي كلاً حقّه فكيف
بمن يمدح آل البيت. مع أنّهما لا يتدخلان
بالسياسة إلاّ حبّ النبيّ وآله وصحبه
جميعاً.. فلا غرابة أبداً. أليس الكُميت يمدح
في هاشميّاته بني هاشم وهم رهط
النبيّ ﷺ فسيبرع حتماً ويتفوّق قطعاً، لأنّه
وجد مادة النّبوغ وليس بُردَ المجد. مثله

أبيات طرفة بن العبد البليغة هذه فيقول
فوراً في ارتجال بليغ: وأنا لولا ثلاث لم
أحفل متى قام عُوّدي: لولا أن أنفر في
السريّة وأقسم بالسويّة وأعدل بالقضيّة^(١).

فيالها من بلاغة على بلاغة يتدراكها
مباشرة بفهمه وبلاغته - وبتعبير موسيقيّ
رثان له وقع خاص لدى السّامع يثير
حفيظته ليفهمها.

لم يهاجم عمر بن عبد العزيز طرفة ولا
من ينشد أبياته ولم يتمعّر وجهه ولم يدلّهم
خطبه ويزمجر غضباً ولم يردّ باستشاشة
بل ردّ بكلّ نفسٍ كريمة وحلم زاك، قابل
بهديّ ضلالاً، وبحكمة غناء، وبإسلام
جاهليّة. ياله من فنّ وذوقٍ في الردّ على
البلاغة ببلاغة.

جاء في البيان والتبيين للجاحظ أنّه قيل
للفرزدق يوماً: «لقد أحسن الكُميت في
مدائحه ملك الهاشميّات. فقال مادحاً: «وجد
أجراً وجصاً فبني»^(٢).

النّص الأوّل هنا: ملحوظ غير موجود..
وهو قصائد الكُميت الهاشميّة وهي من
روائع الشعّر العربيّ فيستحضر عارفها
جمالاً وينشر جوّها وينغمر فيه فيحسن
البلاغة الصّافية وإنّها (أي الهاشميّات) كلّها

(٢) الجاحظ - البيان والتبيين - ج٣ - ص١٨٣.

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج٢ - ص١١١.

(٣) الكُميت بن زيد الأسلمي - جمع شعره داوود سلوم - ص١١١.

كمثل أي إنسان يريد بناء بيت وكانت تعجزه مادة البناء فلماً وجدها (وهي الأجرّ والجصّ) فما يمنعه من أن يبني البناء الحسن سيماً وعنده التربة الصالحة..

فما كان من الفرزدق إلا الإقرار بأوليّة الكميت إذا هو مدح آل البيت وإعلانه أنّه ينصفه ولا ينتقصه ولا يجحده بل عبّر بتعابير بلاغية مختصرة معناها جليل^(١).
أورد العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله أنّه كان يدرك هذا الفنّ وهو يروي هذه القطعة من الباب ذاته: «سئل المتنبي عن قول امرئ القيس:

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلذَّةِ
وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خُلْخَالِ
وَلَمْ أَسْبِ الزَّقِّ الرُّوِّيَّ وَلَمْ أَقُلْ
لِخَيْلِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ
وَلَمْ أَشْهَدْ الْخَيْلَ الْمُغِيرَةَ بِالضُّحَى
عَلَى هَيْكَلِ عِبْلِ الْجُزَارَةِ جَوَالِ
فقيل له إنّهُ عيبٌ عليه مقابلة ركوب الجواد للكرّ أحسن من مقابلته لتبطن

الكاعب فقال: بل الذي أتى به أحسن فإنّه قابل ركوب الحرب والطلب وكذلك قابل بين السبّاءين: سبّاء الرّقّ وسبّاء الرّقّ^(٢). فكان دفاع المتنبي عن الشّاعر امرئ القيس ولو كان شاعر مجون وخلاعة فهو لم يدافع عن مجونه إنّما عن بلاغته. فقد كان هناك التباسٌ من قبل السائل للمتنبي فعلق المتنبي ردّاً عليه مزيلاً للشبهة بتعبير جميل دقيق وكأنّه شعر غير منظوم جاء شرحاً من المتنبي لبيتين أو ثلاثة عن امرئ القيس. والمتنبي وصفه الكثيرون ويعجبني وصف أحدهم له إذ يقول: «شغلت به الألسن وسهرت في أشعاره الأعين وكثر النّاسخ لشعره والأخذ لقوله والغائص في بحره والمفتّش في قعره عن جمانه ودرره.. وكانت وما زالت له شيعة تعلقو في مدحه وعليه خوارج تتعايا في جرحه»^(٣).

كثيرة هي الأقوال البلاغية في المعلقات والأشعار ولأنّها كادت أن تساويها في دقّتها وبلاغتها وتعلقو عليها فقد أعطيتها تعبيري: بلاغة على بلاغة.. وأقوال البلغاء

(١) الكميت: شاعر أمويّ مقدم - عالم بلغات العرب خبير بأيامها . . ولد في الكوفة أيام مقتل الحسين، وفيها تلقى علومه في الفقه والحديث واللغة والإنساب ولما برع في قول الشعر صار يطلب عليه الأعطيات فامتدحه الكثيرون وذمّه البعض وكانت أعطيات الأمويين له كثيرة رغم ولائه لآل البيت وكان شديد الفخر ببني هاشم لذلك اشتهر بأنّه (ملك الهاشميات).

(٢) ابن قيم - روضة المحبين - ص ٢٣٤.

(٣) د. عباس، إحسان - تاريخ الأدب الأندلسي - تحت عنوان أعلام الكلام - ج ٣ - ص ٩٦.

+ د. جبري، شفيق - المتنبي - ص ٧.

والفصحاء في المعلقات العشر بلاغية لدرجة أنها تعتبر نصوصاً بحد ذاتها إلا أنها نثر في شعر أو على شعر. مع وجود بعض الشعراء امتدحوا شعراء كثيرين لبلاغتهم وفصاحتهم.. خذ مثلاً المعري حين كان يتحدث عن الشعراء السابقين له أو المعاصرين كان يذكرهم بأسمائهم فيقول: قال امرؤ القيس، وقال البحتري، وقال أبو تمام... أما حين يتحدث عن المتنبي فكان يقول: قال الشاعر، دون ذكر لاسمه ولا كنيته. وأبو العلاء المعري كان ناقداً لكل الشعراء الذين قبله إلا المتنبي فكان يجله كثيراً ولم يوجه له نقداً قط بل وأكثر من هذا أنه قال في كتاب أسماه / معجز أحمد / : «إعتبر المتنبي أنني الأعمى الذي قصده في:

العباسي كان يستثقل المتنبي ويلاحق سقطاته ويتهمه بالسرقعة الشعرية مع أن المتنبي كان يظهر له الود والاحترام والإكرام في أكثر من لقاء. يروي عنه أحد أصحابه: «بعد وفاة اخته (أخت ابن العميد) فوجده واجماً فظننته واجداً حزينا لأجلها، فقلت: لا يحزن الله الوزير فما الخبر؟ قال: إنه ليغيظني أمر هذا المتنبي واجتهادي في أن أحمد ذكره وقد ورد علي نيف وستون كتاباً في التعزية ما منها إلا صذر بقوله:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر
فزعت فيه بأمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملاً
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل إلى إخماده؟ فقلت له: القدر لا يُغالب والرجل ذو حظ في إشاعة الخبر والذكر واشتهار الاسم فالأولى ألا تشغل بالك بهذا الأمر». ويقال إن ابن العميد نفسه قال فيه: قاتله الله لقد ملأ الدنيا وشغل الناس.

ولنسمع قوله في نفسه إذ يروي:
أنا تراب الندى وراب القوافي
وسمام العدى وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها الل
له غريب كصالح في ثمود^(١)

أنا الذي نظرت الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم»
ولا ضير إن سمعنا المتنبي يصف نفسه كبراً:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدًا

وقد كان الكاتب الشهير ابن العميد الذي لقب بالجاحظ الثاني ووزير عضد الدولة

(١) د. عباس، إحسان - تاريخ الأدب الأندلسي - تحت عنوان أعلام الكلام - ج ٣ - ص ٩٦.

+ د. جبري، شفيق - المتنبي - ص ٧.

ولابدّ لنا من التّعريج على صاحب
البلاغة والفصاحة الذي قال عن نفسه:
«بُعِثْتُ بجوامع الكَلِمِ»^(١) وكان كلامه في
أعلى درجات الفصاحة والبلاغة بل إنَّ
الكثير من فصحاء العرب وبلغائهم حين
كان يتحدث النَّبِيُّ بشيء أو أمر أمامهم
يستغربون فصاحته وبلاغته حيث كان
مَنْطِقُهُ خرزاتٍ نَظْمٌ يتحدَّرْنَ كأنَّ منطقه عقد
لؤلؤ منظومة حَبَّاتُهُ رصعاً بديعاً يدهش
الفصحاء والبلغاء.

قال عليّ بن أبي طالب كَرَّمَ اللهُ وجهه:
«ما سمعت كلمة عربية من العرب إلا وقد
سمعتها من رسول الله ﷺ وسمعتة يقول:
/مات حتف أنفه/»^(٢) وما سمعتها من
عربي قط».

فلو وقفنا عند بعض أقواله لهزّت وجدان
بلاغتنا وأيّ فصاحة، إسمع بعض أقواله:
«خير المال مهرةٌ مأمورة أو سَكَّةٌ
مأبورة»^(٣) هذا القول فيه توازن دقيق جداً
والتوازن أحد أبواب الفصاحة وأحد أسباب
جمال البلاغة ومثلها قوله ﷺ: «من بطأ به
عمله لم يُسرِعْ به نَسْبُهُ».

نعم كانت بلاغة وفصاحة رسول الله
كأنّها مصنوعة صنعاً مع أنّها لم تصنع ولم
يتكلّف بها وهي على السّهولة بعيدة
ممنوعة. حيث تجيء بالمجاز الغريب فترى
من غرابته أنّه مجاز في حقيقة. ولو أردت
الاسترسال في هذا الحاضر لما وسع
الوقت ولا المكان الذي أكتب فيه وعليه وبه.

قال الجاحظ في كلامه ﷺ: «هو الكلام
الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجلّ
عن الصنعة ونزه عن التكلّف.. استعمل
المبسوط في موضع البسيط والمقصود
في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشيّ
ورغب عن الهجين السوقيّ، لم تسقط له
كلمة ولا زلت له قدم ولا بارت له حجة،
ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب بل يبذُّ
الخُطْبَ الطّوال بالكلام القصير، ولا يلتمس
إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم فلا
يلمز ولا يهمز ولا يبطن ولا يعجل».

ولقد كانت العرب قبله قوماً يقادون من
ألسننتهم وكانت لهم المقامات المشهورة في
البيان والفصاحة. وحين ابْتُعِثَ رسول الله
تعلّم الفصاحة والبيان في قريش ثمّ في

(١) الحديث متفق عليه من رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٢) حتف أنفه: أي على فراشه وأراد أن روحه تخرج من أنفه وكانوا يتخيلون أن الروح تخرج من الأنف فإذا جرح
جراحات خرجت من جراحه إلا أن رسول الله كان له قصد مع هذا القصد أن الأنفة التي كانت حين كان حياً صارت
ذليّة أمام الموت وانكسرت كبرياؤه فلم يعد يرفع أنفه في القوم بل كبّ أمام الموت والعبارة فيها مجاز بليغ وكانوا
يقولون: جُعلَ غضبه على طرف أنفه .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده عن سويد بن هبيرة .

البادية فصار كأنه يكشف أوضاع اللُّغة وأسرارها ويعرف رفيعها من وضيعها فيأخذ الرِّفيع ويهمل الوضيع والرَّذيل فتعلّم العرب منه الفصاحة والبيان فكانوا في حضرته ينتظرون كلماته لأنّها ستكون لهم أدباً وحكماً وعلماً ودرراً يمشون عليها. وكان القوم خُلصاً لا يستجيبون إلاّ لأفصحهم لساناً وأبينهم بياناً.

نعود قليلاً إلى قول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه له قد سمعه يخاطب وقد بني نهد^(١): يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره، فقال ﷺ: «أدبني ربّي فأحسن تأديبي» فكان جوابه لعلّي أنّ الأدب المقصود هو فصاحة اللسان والبيان واللُّغة والفهم وليس التّأديب فحسب. فليس مورد الكلام يخصّ باب الأدب الأخلاقي إنّما اللُّغويّ والبلاغيّ.. مع أنّها تحتل غيرها من الأدب والأخلاق.

يجدر بنا التّنبيه لأمر مهم: عَنُونْتُ مقالتي هذه ب: بلاغة على بلاغة ونعرف أنّ حرف الجرّ (على) غالب مقصوده الاستعلاء أو العلو فأقول: يمكن أن يكون هنا المقصود بأيّ كلام عدا القرآن والبلاغة النّبويّة لذلك حبّاً لو قلت فيهما: بلاغة في بلاغة.

ويجدر أيضاً أن أقف قليلاً عند بلاغة

القرآن لا لأتحدّث عنها عن فصاحة البيان فيه فكم كتب الكاتبون وكم أبان أهل البيان والفصاحة وأجد نفسي صغيراً أمام كلماتهم لكن أنقل بعض أقوال بعد الحديث عنه: كان العرب يهذّبون لسانهم وفصيحه ومنطقه مع تباعد ديارهم عن بعضها بل وكانت بينهم الخلافات والاختلافات والتّعادي بين القبائل والعشائر إلاّ أنّ اللُّغة تجمعهم فكانوا يتبارون ليصلوا إلى مراد الذرّة وعلو المرتبة في الفصاحة والبيان ذلك كانت لهم المؤتمرات والأسواق في اللُّغة (خطابة وشعراً) ويفاخرون فيها.. فجاء القرآن الكريم أفصح كلام وأبلغه أسلوباً ومعنى ليجد السبيل إلى امتلاك الوحدة العربيّة التي كانت معقودة باللسان يومئذ وهو متى امتلكها استطاع أن يصرفها وأن يحدث فيها بل وكانت رأس الأمر وقوام تدبيره بصبغتها العقليّة ومعناها النّفسي.

فالقرآن الكريم كتاب الله تعالى أشرف ما صرفت إليه الهمم وأعظم ما جال فيه فكر ومدّ به قلم لأنّه منبع كلّ علم وحكمة ومربّع كلّ هدى ورحمة. فقد أودع الله سبحانه ألفاظ هذا الكتاب من ضروب الفصاحة وأجناس البلاغة وأنواع الجزالة وفنون البيان وغوامض اللسان وحسن

(١) حيث كانت الوفود تأتيه لتتعرف على مراده أو لتتقرب منه أو لتعلن إسلامها ومنهم وفد بني نهد، ومنهم وفد حمير وحضرموت الذين كانت لهم لهجة عربية لكنها غريبة عن قريش وحين كلموه بلهجتهم رد عليهم بلهجتهم فُبّهت الصحابة جميعهم.

التَّرْكيب والتَّرتيب وعجيب السَّرْد وغريب الأسلوب وعذوبة المساغ وحُسن البلاغ ما أذهل العقلاء وأخرس ألسنة الفضلاء وفاق بلاغة البلغاء وأخذ منه الفصحاء.

يقول طه حسين في مجموعته الكاملة: إنَّ ما في القرآن مبهر وفريد لم يعرف مثله ولم يقدر عليه العرب وهم أهل البلاغة والفصاحة حيث لم يكن القرآن شعراً كالذي عرفوه في المعلّقات وغيرها، ولم يكن نثراً كالذي سمعوه في الخطابات والرّسائل والسَّجع والطِّباق وقد أدّى معانيه على مذهب مقصور عليه في أسلوب خاص به لم يسبق إليه ولم يلحق فيه». ويقول أبو سليمان الخطّابي في كتابه / بيان إعجاز القرآن /: «إنّما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظٌ حامل ومعنى قائم ورباطٌ له ناظم».

ويقول الدكتور علي زيتون في كتابه / الإعجاز القرآني /: «الإعجاز القرآني هو التّعبير الإسلامي عن المعجزة التي وجد كلُّ نبيّ نفسه مضطراً لاجتراحها لكي يصدّقه الناس ويقبلوا بأنّ ما يأتيهم هو من عند الله، فالقرآن هو المعجزة الأدبيّة التي واجه بها محمد ﷺ العرب وهم قومه».

كثيرون هم الذين تكلموا وأجادوا وأشادوا بالقرآن ومعجزاته وفصاحته حتّى أنّ الغربيّين كتبوا فيه بدهشة ووقوف أمام بيانه وفصاحته وبلاغته وإعجازاته.

يقول الدكتور وولف ولنغستون في كتابه: / تاريخ اللُّغات السّامية /: «إنّ القرآن نزل بلهجة قريش دون غيرها من القبائل لأنّها الأفضل والأفصح». نعم كثيرة هي الأقوال في القرآن وفصاحته ولغته، بل إنّ الذين حاربوه بداية في أوليّات نزوله قالوا فيه الكثير ووصفوه وصفاً حقيقياً رغم أنّهم يحاربونه ويحاربون من ينزل عليه.

فهذا هو الوليد بن المغيرة يقول فيه قولاً يعلم به قومه أنّه له كاره: «ماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم أعلم مني بالشّعر ولا الرّجز ولا القصيد ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا فإنّ لقوله لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة وإنّه ليحطم ما تحته وإنّه ليعلو وما يُعلّى».

وقد تحدّث القرآن عن نفسه فقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر: ٢٧-٢٨]، كلام بليغ في كلام بليغ:

لم يكن العرب وحدهم هم الذين يتكلّمون في بلاغتهم فلا نريد أن نبخس غير العرب فكثيرون من اعتبروا اللُّغة العربيّة هي فقط هي أهل البلاغة والبيان.. وهذا إجحاف وأنانية وكفر باللُّغات الثّانية وأدبائها وبلغائها وكتّابها.. مع اعترافهم هم أنّ البلاغة وُجدت في العرب لكن بودّي أن أقف قليلاً عند أديب كبير وشاعر بليغ هو /

- كثيرون هم أدباء الغرب المشهورون فلم ننس غوته وماسيه ودوستوفسكي وشكسبير.

- ولكن القَدَحَ المعلَّى في هذا الباب وفي كلِّ بابٍ أدبيٍّ هو للعرب فإنَّ لغتهم لغة البيان والبدئية والصُّنعة، وهم أعرف بفنون البلاغة وأوكارها وأوتارها يُطَيِّرون منها النور ليشعَّ على من حامَ تحته ويقابلون جمالاً بجمال ليزهو بأبهة الحال وقت الرِّحال، فكأنَّهم يضعون ذات الحسن والجمال في أنفس الجواهر واللآلئ ويرصُّونها بالذهب والألماس.

المصادر والمراجع

- ١ - العقد الفريد - ابن عبد ربَّه الأندلسي .
- ٢ - شرح المعلقات العشر - أحمد بن الأمين الشنقيطي .
- ٣ - روضة المحبِّين ونزهة المشتاقين - ابن قيم الجوزية .
- ٤ - تاريخ الأدب الأندلسي - د. إحسان عبَّاس .
- ٥ - تاريخ آداب العرب - مصطفى صادق الرافعي .
- ٦ - المستطرف في كلِّ فنٍّ مستطرف - الأبهسي .
- ٧ - البيان والتبيين - الجاحظ .
- ٨ - أخبار الطُّراف والمتماجنين - ابن الجوزي .
- ٩ - المتنبِّي - شفيق جبري .
- ١٠ - الوزراء والكتَّاب - محمد بن عبدوس الجهشباري .
- ١١ - الكميت بن زيد الأسدي - جمع ديوانه داوود سلوم .
- ١٢ - الإعجاز القرآني - د. علي مهدي زيتون .

فكتور هوغو/ ^(١) الذي يعتبر من أبرز أدباء فرنسا في الحقبة الرومانسية حيث ترجمت أعماله إلى كثير من اللغات. أَلَفَ الكثير من الدَّواوين الرَّائعة منها: ديوان تأملات Les contemplations وديوان أسطورة العصور La Legende des siècles وكانت رواية البؤساء Les Miserables واقتبست روايته هذه /البؤساء/ إلى أعمال تمثيلية وسينمائية.. كان أحياناً يسكر وتتمله رنات الموسيقى والألوان. يقول فيه /أناطول فرانس/ ^(٢) الرَّوائي النَّاقد الكاتب الفرنسي الذي عاصره وأخذ منه وكتب الرِّوايات والقصص التي أشهرها الرِّبقة الحمراء والقصائد الذهبية وأسطورته المشهورة: /القديسة تاييس/ وأخذ جائزة نوبل للأدب العالمي ١٩٢١م قال عن شاعرهم فيكتور هوغو:

«عاش فيكتور هوغو ثملاً تسكره الألوان وبعدها أسكر العالم بذلك».

هذا النَّصُّ أو هذه العبارة فيها جزءان: الجزء الأوَّل يصف أدبه وفنَّه وبلاغة تعبيره أنَّه يُسكر بها ويعبر عنها بالألوان وأنَّها تُسكره، وبكلماته نشر الأدب الفرنسي وكان ذلك على حدِّ تعبيره مُسكراً لمن يقرأه منتشياً بمعانيها وجمالها وعذوبتها.

(١) فكتور هوغو ولد عام ١٨٠٢ في فرنسا وحوَّل منزله فيما بعد إلى متحف

(٢) أناطول فرانس: أديب فرنسي ساخر ولد ١٨٤٤م وتحدَّث عن معلِّمه هوغو في كتاب أسماه /صديقي/ .

التصحّر

ليلى حسين عليق

في مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية (قمة الأرض ١٩٩٢) وطالبت بانتهاج أسلوب متكامل لمعالجة التصحر والنهوض بالتنمية المستدامة على مستوى المجتمعات المحلية. وفي عام ١٩٩٤ استطاع المجتمع الدولي صياغة اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة التصحر (UNCCD) والتي دخلت حيّز التنفيذ في عام ١٩٩٦، وقد بلغ عدد الدول الأعضاء التي انضمت إلى هذه الاتفاقية حتى هذا العام ١٩٣ دولة، من بينها لبنان الذي وقّع على الاتفاقية في أيلول من العام ١٩٩٥ وأقرّها المجلس النيابي من العام نفسه.

ما هو التصحر:

عرّفت اتفاقية الأمم المتحدة UNCCD التصحر بما يلي:

التصحّر هو تدهور الأراضي في المناطق القاحلة وشبه القاحلة والجافة نسبياً، تسببه عوامل متعددة تشمل التقلبات المناخية والنشاطات البشرية.

يشكّل التصحر المشكلة الأبرز التي يتعرّض لها النظام البيئي للكرة الأرضية، إذ إنّ ثلث أراضي الكوكب معرضة للتصحّر، وبخاصّة الدول الواقعة تحت ظروف مناخية جافة أو شبه جافة أو حتى شبه رطبة.

على الرغم من أنّ ظاهرة التصحر ليست جديدة إلاّ أنها تفاقمت في السنوات الأخيرة فأصبحت تهدّد حياة عدد كبير من البشر بالجوع والتشرّد. وقد حاول الباحثون التنبيه إلى خطر هذه الظاهرة منذ زمن طويل، لكن أحداً لم يسمعهم، وما لفت أنظار العالم إلى خطورة الوضع كارثة إقليم منطقة الساحل في غرب أفريقيا حيث أهلك الجفاف الذي حلّ بها في الفترة بين ١٩٦٨ و١٩٧٣ حوالي ٢٥٠ ألف نسمة وحوالي ٥،٣ مليون حيوان. بعد هذه الحادثة بعدة سنوات عقدت الأمم المتحدة مؤتمراً للتصحّر في نيروبي عام ١٩٧٧ اعتمدت فيه أوّل خطة من أجل مكافحة التصحر. إلاّ أنّ المشكلة تفاقمت فاجتمعت دول العالم

حسب برنامج العمل الوطني لمكافحة التصحر في لبنان، التصحر هو:

ظرف من عمل الإنسان، يؤدي إلى تدهور الأرض في المناطق القاحلة وشبه القاحلة والجافة نسبياً (حيث تتراوح الأمطار / والتبخر النتحى المحتمل أو ما يعرف بالأجنبية بمصطلح $P \setminus ETP$ ما بين ٥٠،٠ و ٦٥،٠) ويسبب تدنياً مستمراً للإنتاج الاقتصادي المتعلق بالنباتات والحيوانات المفيدة والمرتبطة باستعمال الأرض أو بنظام الإنتاج.

والتهدير هو:

خفض إمكانات الموارد من خلال عملية أو مجموعة عمليات تعثر في الأرض. وتشمل هذه العمليات التآكل بواسطة المياه والرياح والترسيب بواسطة هذه العوامل والانخفاض طويل الأجل في كمية أو تنوع الغطاء النباتي الطبيعي والتملح وزيادة نسبة بعض العناصر غير المرغوب فيها. إذاً فالتهدير هو تغيير بيئي يصيب التربة نتيجة تغير الظروف المناخية والبيئية والاستغلال غير المرشد للموارد الطبيعية من قبل الإنسان. كما يمكن أن يُعرّف بأنه الزحف الصحراوي أي طغيان الجفاف على الأراضي الزراعية أو القابلة للزراعة، وتحويلها إلى أراضٍ قاحلة.

تجدر الإشارة إلى أنّ التصحر يختلف

عن الصحراء، فالصحاري هي مناطق شديدة الجفاف يعود تشكّلها إلى عوامل كونية وليس للإنسان أي تأثير في تشكّلها. أما المناطق المتصحرة فهي التي لم تكن صحاري سابقاً، بل كانت عبارة عن أراضٍ منتجة وذات غطاء نباتي تتناسب كثافته مع درجة جفافها، وهي مناطق خاضعة لمناخ غير صحراوي.

أسباب التصحر

أولاً: العوامل الطبيعية

- ١ - ارتفاع درجات الحرارة والاحتباس الحراري.
- ٢ - ندرة المياه كمّاً ونوعاً.
- ٣ - التباين في كمية الأمطار المتساقطة سنوياً.
- ٤ - العواصف والأمطار الغزيرة التي تؤدي إلى تعرية التربة خاصة في المنحدرات المستخدمة لزراعة المحاصيل الزراعية.
- ٥ - زحف الرمال وتغطيتها للنباتات مما يؤدي إلى يباسها والقضاء عليها مما يؤثر سلباً على خصوبة الأرض.
- ٦ - الرياح القوية والسيول التي تؤدي إلى انجراف التربة.

ثانياً: العوامل البشرية

- ١ - النمو السكاني: تؤدي الزيادة السكانية والتطور الاقتصادي الاجتماعي

الأرض الزراعية، ويشمل إقامة الأبنية السكنية، المنشآت الصناعية، البنى التحتية... ٧ - اعتماد أساليب الري غير السليمة قد تؤدي إلى زيادة ملوحة التربة وتحويلها بالتالي إلى تربة غير منتجة بفعل تدهور قدرتها البيولوجية.

٨ - تلوث المياه السطحية والجوفية والتربة نتيجة استعمال المخصبات الزراعية (السماذ العضوي والكيميائي) والتي تحتوي على معادن ثقيلة قد تترسب في التربة وترشح إلى المياه الجوفية (النترات والبوتاسيوم).

عواقب التصحر

ينتج عن التصحر مجموعة من الآثار البيئية والاقتصادية والاجتماعية التي تؤثر بشكل مباشر وغير مباشر على الإنسان وتغير في نمط حياته ومستوى معيشته، من هذه الآثار:

أولاً: الآثار البيئية للتصحر

- ١ - انخفاض مرونة الأرض نتيجة لتقلبات المناخ الطبيعية.
- ٢ - تدهور إنتاجية التربة وانخفاض إنتاج الأغذية.
- ٣ - تدهور الغطاء النباتي.
- ٤ - ازدياد الفيضانات.
- ٥ - نقص المياه الجوفية والسطحية

إلى زيادة الاستهلاك، مما يؤدي إلى زيادة الطلب على المنتجات الزراعية، وهو ما دفع الإنسان إلى استغلال الموارد الطبيعية بشكل غير مرشد، إضافةً إلى ذلك فقد بدأ نشاط الإنسان يمتد إلى مناطق هامشية ذات نظام بيئي غير مستقر.

٢ - غياب القانون والتنظيم والتخطيط السليم في استعمالات الأراضي.

٣ - سوء استخدام الأراضي كاعتماد الطرق التقليدية في الزراعة، والحراثة العميقة الخاطئة إضافةً إلى إهمال زراعة مصدات الرياح. كما أنّ زراعة المحاصيل ذاتها وعدم اعتماد الدورة الزراعية تؤدي إلى إضعاف خصوبة التربة، وتجدر الإشارة إلى أنّ استعمال المبيدات الزراعية بطريقة عشوائية وتطهير الأرض بواسطة الغازات السامة يعمل على قتل الكائنات الحية الدقيقة المفيدة للتربة.

٤ - الرعي الجائر والحروب وقطع أشجار الغابات مما يؤدي إلى تدهور الغطاء النباتي.

٥ - الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية غير الرشيدة للإنسان ومنها القطف العشوائي للنباتات البرية والقضاء على التنوع الحيوي.

٦ - التمدن أو الزحف العمراني الذي يؤدي إلى خسارة مساحات كبيرة من

لارتفاع نسبة التبخر، وإفساد نوعية المياه وزيادة ملوحة التربة.

٦ - اختفاء الغابات الطبيعية.

٧ - خسارة التنوع البيولوجي.

٨ - انجراف التربة، وهو من أخطر العوامل التي تهدد الحياة النباتية والحيوانية، وما يزيد من خطورة الموضوع أنّ عمليات تكوّن التربة بطيئة جداً، فقد يستغرق تكوّن طبقة من التربة بسماكة ١٨ سم ما بين ١٤٠٠ - ٧٠٠٠ سنة، وتقدر كمية الأراضي الزراعية التي تدهورت في العالم خلال المائة سنة الأخيرة بفعل الانجراف بأكثر من ٢٣٪ من الأراضي الزراعية. والانجراف نوعان، انجراف ريحي وانجراف مائي.

الآثار الاجتماعية

يؤدي التصحر إلى تسارع هجرة سكان الريف إلى المدن طلباً للرزق ورغبة في حياة أفضل بعد أن انخفض إنتاج أراضيهم وتحول جزء منها إلى صحراء أو شبه صحراء، وينتج عن هذه الهجرة ضغط متسارع على المدن وعلى مواردها بشكل أكبر مما تتحمله. وغالباً ما تتم الهجرة إلى الأحياء الفقيرة على أطراف المدن الكبرى، فتتكون المجتمعات البائسة والمعرضة للأمراض والكوارث الطبيعية والمؤهلة للانخراط في الجرائم والنزاعات المحلية.

وقد زاد التدفق من المناطق الريفية من تفاقم المشاكل الموجودة في المدن في كثير من البلدان النامية، كما أعاق الجهود المبذولة لإعادة تأهيل وتنمية المناطق الريفية نتيجة لنقص الأيدي العاملة والإهمال المتزايد للأرض. إضافة إلى ذلك فقد ينتج عن التصحر صراعات للاستحواذ على المياه والثروات الطبيعية والتي تتناقص تدريجياً.

الآثار الاقتصادية

يؤدي التصحر إلى إنخفاض في حجم الموارد الزراعية وخسارة في الأراضي القابلة للزراعة وتقلصها، وهذا لا يؤثر على حياة الفرد الاقتصادية فقط وإنما على الاقتصاد القومي، نظراً للضرر الذي يصيب أحد الموارد الطبيعية الأساسية في البلد وهو الأرض. إن تدهور الغابات والمحميات الطبيعية وانحسارها في أماكن محدودة له أيضاً أثر كبير على الدخل القومي نظراً لفقدان العائدات المادية من منتجات الغابات والمراعي الطبيعية، كما تؤثر على القطاع السياحي إذ تقل أماكن الترفيه والاستجمام. من جهة أخرى فإن الحد من انتشار التصحر ومكافحة آثاره يتطلب مجموعة من الإجراءات والمعالجات ضمن خطط ومشاريع تحتاج إلى ميزانيات ضخمة لتنفيذها.

التصحّر في لبنان

«لبنان الأخضر» تسمية أطلقت على بلد صغير لا تزيد مساحته الجغرافية عن ١٠٤٥٢ كلم^٢. استحوذ لبنان على هذه التسمية بفضل الغطاء الحرجي الذي طالما غطى أراضيه وأفاد منظومته البيئية بنواح عدة سواء من خلال الحفاظ على التنوع البيولوجي والنظم البيئية الطبيعية، حماية التربة من الانجراف، التحسين من قدرة الأرض على استيعاب مياه الأمطار، تثبيت العناصر الغذائية في التربة، تنقية الهواء، إضافة إلى القيمة الترفيهية والسياحة البيئية. ولكن ومع مرور الزمن تحول لبنان إلى مناطق باطون مسلح ومرامل ومقالع والسبب قد يعود إلى انعدام الرؤية المبنية على أساس الاستدامة.

الأسباب الرئيسية للتصحّر في لبنان

الطبوغرافيا:

يتميّز لبنان بانحداراته الشديدة التي تجعل الأرض شديدة التعرّض للانجراف بسبب سوء استخدام الأراضي. يؤدي قطع الغابات والأساليب الزراعية غير المستدامة على المنحدرات إلى تدهور الأراضي بشكل سريع خصوصاً على المنحدرات الشرقية لجبال لبنان والمنحدرات الغربية لسلسلة الجبال الشرقية حيث أزال الانجراف التربة بكاملها في أماكن عديدة حتى كشفت الصخور الأصليّة.

المناخ:

تكمّن العوائق المناخية باختلاف الواسع في معدّل التساقط السنوي لكل منطقة، والتفاوت الموسمي للمتساقطات، ممّا يحدّ من توفّر المياه خلال فصل الصيف حيث يصل التبخر النتحى إلى ٢٠٠ ملم شهرياً، ما يؤدي إلى شحّ في المياه وعطش النبات ويسبب حرائق في الغابات ويُعرّض التربة للتعرية. كما أنّ تساقط الأمطار الغزيرة في المناطق ذات الغطاء النباتي الفقير يمكن أن يؤدي إلى فيضانات مؤقتة.

التربة

تعتبر تربة لبنان ضعيفة شديدة التعرّض للتصحّر خاصّة على الجبال والتلال المرتفعة التي تكوّن حوالي ٧٠٪ من البلاد.

النشاطات البشرية:

- * التعدّيات الزراعيّة والزراعة في التربة الفقيرة.
- * الرعي الجائر.
- * قطع الغابات.
- * ممارسات زراعية غير مستدامة.
- * استعمال وسائل ريّ تقليدية.
- * التمدّن.
- * التلوّث.

المناطق المعرضة للتصحّر في لبنان

جاء في المادة الأولى من اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة التصحر أنّ المناطق المعرضة تتضمّن المناطق القاحلة وشبه القاحلة الجافة، حيث يتراوح معدّل تساقط الأمطار السنوي نسبةً لمعدّل التبخر النتحوي المحتمل بين ٥٠،٠ و ٦٠،٠٪.

نتيجة لذلك فإنّ ٦٠٪ من مساحة لبنان تقع ضمن دائرة الخطر.

بعض المناطق التي قد تكون معرضة لخطر التصحر

الشمال: عكار، الكورة وزغرتا.

البقاع: الهرمل - بعلبك، وجزئياً البقاع الغربي وراشيا.

الجنوب: جزئياً صيدا، صور، النبطية، بنت جبيل ومرجعيون.

نتائج التصحر على صعيد لبنان

* تآكل التربة

تساهم جذور الأشجار في منع انزلاق التربة وتآكلها وتحافظ على استقرارها، ويعتبر تآكل التربة وانزلاقها مشكلة بيئية وزراعية خطيرة.

* شح المياه

تحافظ الغابات على المياه الجوفية فالأشجار تساعد التربة على امتصاص مياه الأمطار وتقوم جذورها بفلترتها أو تصفية

المياه الجوفية من بعض المواد الضارة قبل أن تصل إلى الينابيع.

* زيادة الاحتباس الحراري

بحسب الفاو فإن ظاهرة إزالة الغابات في العالم تسفر عن إطلاق ملياري طن من غاز ثاني أكسيد الكربون الذي يتسبب في زيادة الاحتباس الحراري. وكل هكتار من الأشجار يمكن أن يمتص حوالي ٥ طن من ثاني أكسيد الكربون.

* التغير المناخي

تساعد الغابات على تلطيف المناخ عبر التأثير على سرعة الرياح وتقلل من حدوث الإعصارات والفيضانات وتمتص بعضاً من أشعة الشمس وتعديل حرارة الهواء.

* زيادة معدلات التلوث في الهواء

إن الأشجار الضخمة تستطيع أن تخفف من التلوث بنسبة ٧٠٪ أكثر من الأشجار الصغيرة، وبالتالي فإن حرق وتدمير هذه الغابات المعمرة يقلل من فعالية الأشجار بامتصاص ثاني أكسيد الكربون. إن هكتار من الغابات يمكن أن ينتج أوكسجين يكفي لـ ٤٠ شخص ويمتص إنبعاثات ثاني أكسيد الكربون الذي ارتفعت معدلاته كثيراً في السنوات الأخيرة.

القضاء على التنوع البيولوجي

تتسبب حرائق الغابات بقتل أنواع من النباتات والأشجار وحتى بعض الحيوانات

معدلات هطول الأمطار والحرارة في مختلف جهاتها. فإنه ينبغي أن تعالج كل حالة أو منطقة على حدى بالاستناد إلى معلومات دقيقة وكاملة بقدر الإمكان.

ثانياً – المشاركة الأهلية

من غير الممكن أن يتحقق النجاح لمنع التصحر وحسن استخدام الموارد والأراضي من دون مشاركة الأفراد والمؤسسات وينبغي وضع برنامج لزيادة الوعي العام بما يحدث من تدهور تدريجي في حالة التربة. كما ينبغي إشراك المجتمع المحلي بجميع فئاتهم في المناقشات المتعلقة بالمشكلات وبأفكار المشاريع وإعداد وتنفيذ المشاريع. وهنا يجب عدم إغفال الخبرات الطويلة التي يتمتع بها المجتمع المحلي في مجال الزراعة والتغلب على الظروف الطبيعية الصعبة في منطقتهم.

ثالثاً – تدابير مكافحة التصحر

إن التدابير الميدانية لمكافحة التصحر وإعادة إنعاش المنطقة يجب أن تشمل الأمور التالية:

١ – إعادة الغطاء النباتي في المنطقة

إلى ما كان عليه:

– حفظ وتحسين وتطوير المراعي والغابات العامة والخاصة.

– إقامة المزيد من المشاتل لانتاج أنواع محلية وأنواع جديدة مناسبة من أشجار

التي لم تستطع الهرب وهي تدمر البيئة أو الموطن لهذه الأنواع مما يؤدي إلى صعوبة في التجدد والنمو. كما تؤثر حرائق الغابات على الاقتصاد لما تتضمنه من كلفة إعادة التشجير، وإخماد الحرائق، وتأثيرها على الزراعة ونوعية الحياة والسياحة البيئية خاصة في لبنان.

* التأثير السلبي على الغلاف الجوي

وطبقة الأوزون

تنقي الأشجار الغبار وتساعد على سحب بعض الملوثات السامة من الجو، مثل الغازات المنتجة للضباب الدخاني، مثل غازات الأوزون، أكسيد الكربون، أكسيد النيتروجين، الأمونيا وثاني أكسيد الكبريت.

كيفية مكافحة التصحر

العناصر الأساسية لمكافحة التصحر

إن العناصر الأساسية لخطة مكافحة التصحر:

أولاً – تقويم التصحر وتحسين إدارة الأراضي

إذ لا بد من عملية مستمرة لتقويم ورصد التصحر. كما إن ضرورة تحسين إدارة الأراضي المهتدة بالتصحر تتطلب سلسلة من التدابير الاجتماعية والاقتصادية والمؤسسية والقانونية والفنية. وبما أن المناطق اللبنانية تختلف في تنوع ظروفها من حيث طبيعة الأرض والفروقات في

الغطاء النباتي الطبيعي في المناطق الهامشية التي يقل المعدل السنوي لهطول الأمطار فيها عن ٢٠٠ ملم.

- استصلاح الأراضي المناسبة للإنتاج الزراعي.

- تطبيق نظام الدورة الزراعية واستخدام الأسمدة العضوية.

٣ - تدابير حفظ المياه:

- تنفيذ مشاريع الري المناسبة على كافة الأنهار والينابيع الدائمة والموسمية في مختلف المناطق.

- إقامة سدود وخزانات صغيرة في مناطق مناسبة لتخزين المياه من أجل المساعدة على إعادة ملء الطبقات الجوفية واستخدام مياه إضافية للري عند الحاجة.

- استخدام أساليب جمع مياه الأمطار من أجل توفير مياه إضافية لزراعة المحاصيل في المناطق البعلية.

- استخدام طرق ري موفرة للمياه مثل الري بالتنقيط والري بالرشاشات.

- عدم الإسراف بالري الذي يؤدي لتشبع التربة بالمياه وتملحها.

- الحد من حفر الآبار والسيطرة على استخدام المياه الجوفية.

ثالثاً - البرنامج الاقتصادي الاجتماعي

- إن عملية مكافحة التصحر يجب أن

الغابات وشجيرات المراعي والنباتات الدائمة الأخرى.

- تشجير الأراضي الشديدة الانحدار والأراضي الهامشية وكذلك الأراضي الأخرى غير المنتجة.

- إعادة الغطاء من نباتات العلف القيمة إلى ما كانت عليه وزيادة كثافة الغطاء النباتي في المروج والمراعي عن طريق البذر والغرس المباشرين.

- تطبيق نظام محسن أو نظام حديث للرعي بحيث يمكن، طبقاً لهذا النظام اتباع نظام تناوبي للرعي.

- سن تشريعات مناسبة لحماية أراضي الرعي أو الموارد الحرجية.

٢ - تدابير حفظ التربة:

- الزراعة على المنحدرات لمنع انجراف التربة على الأراضي الشديدة الانحدار من خلال تقليل سرعة وحجم جريان المياه.

- إقامة سدود حاجزة عمودية على اتجاه تدفق المجاري المائية والقنوات الشديدة الانحدار وعلى مسافات مناسبة لمنع تكون الأخاديد.

- حظر الاستمرار في قطع واقتلاع الأشجار والشجيرات في الغابات والمراعي المستنزفة وذلك لمنع انجراف التربة بفعل المياه والرياح.

- منع الرعي الجائر والزراعة وإزالة

خامساً - العمل والتعاون على المستوى الدولي

- إن بعض جوانب كارثة التصحر لا تتم معالجتها على مستوى الجهود الوطنية والفردية فقط وإنما تحتاج إلى برامج تعاون إقليمي ودولي ومن الأمثلة على ذلك استخدام الأقمار الاصطناعية لرصد عملية التصحر والعوامل المناخية وكذلك بعض التدابير الوقائية مثل إقامة الأحزمة الخضراء التي تعبر أكثر من بلد واحد، وأيضاً مجال التدريب وتبادل المعلومات ومن المناسب جداً الاستفادة من بعض التجارب العالمية هذه المجالات.

تكون جزءاً من برنامج وطني اقتصادي واجتماعي يهتم بالتنمية الريفية الشاملة والمتكاملة. بحيث يتم الاهتمام بالجوانب المعيشية والصحية والتعليمية للسكان. كما يجب أن يتم التركيز على إحداث تغييرات في رؤية أهالي المنطقة لكيفية إدارة اقتصادياتهم واستغلالهم للموارد الطبيعية المتاحة لهم.

رابعاً - تعزيز القوى البشرية

- إن التدريب والبحوث حول حسن استخدام الأراضي ومكافحة ظواهر التصحر هما من الأمور الأساسية في أي خطة جدية ومستمرة لمكافحة التصحر والتنمية الزراعية. ويحتاج تخطيط وصياغة وتنفيذ المشاريع في هذه الخطة إلى مئات من الفنيين والمهنيين. ويمثل القيام بإعداد وتدريب وتأهيل هذه الأعداد عملاً ضخماً لا بد من البدء به فوراً.

الزجاج الملون

محمد إقبال حرب

الجسم الغريب الذي يؤذي الجفن... هناك
وقفت زوجته مشدوّهة، إذ رأت زوجها
السليم المعافى يخرج «عينه» ويضعها على
الطاولة... محجر العين بدا ظلمة عميقة من
حزن... تلمع في باطنها نتوءات مخيفة...
تسمرت مشاعرها مع استغراب واستهجان
لا يوصفان إلى أن استدركت الامر، عندما
قال لها: فقدت عيني منذ كان عمري عشر
سنوات نتيجة خطأ طبي. واستعلمت هذه
العين الزجاجية للتجميل.

لم تكثرث الزوجة كثيرا لشرحه، كانت
صدمتها كبيرة أن تتشوّه صورة زوجها
دون أية مقدمات... انتفضت منها امرأة
غاضبة قائلة: لماذا لم تخبرني بأنك أعور...
لماذا غششتني؟

أثارت كلمة أعور ذكرياته الأليمة...
فجرت أحاسيسه، نبض قلبه بسرعة، أخذ
يتذكّر زملاءه في المدرسة وهم ينادونه
بكل فجاجة ولؤم: أعور... أعور.

سكن قليلا بينما تمرّ أمامه صورة
الطفل الذي تنهشه نظرات الرأفة حيناً

لم تعد زوجته إلى المنزل مذ أن غادرته
بالأمس مع حقائبها التي رافقتها دموع
ساخطة متمردة حين أحست بالغش
والخداع كما تقول، بعدما اكتشفت سرّ
زوجها. هو لم يكذب عليها لكنه لم يفش
سراً حمله منذ سنوات طويلة. بل منذ
وصوله إلى هذه المدينة قبل عشرين
عاما. هي لم تفهم ولن تستطيع اعتبار ما
جرى على أنه سوء تقدير.

كيف له أن يفشي مثل هذا السر الذي
نغص عليه طفولته وهدم ثقته بنفسه بل
دمر فيه كينونة كبريائه. لقد اضطرت عائلته
أن تأتي إلى هذه المدينة تحت وطأة
الضغوط الاجتماعية التي زرعت في ثناياه
الكآبة... نعم لن تفهم ولن يشرح، لن يفجر
بركاناً عمل جاهداً لإطفاء لهيبه.

بدأت الحكاية يوم أمس عندما تطايرت
شرارة من سيكارة على عينه اليسرى.
ويبدو أن قطعة من التبغ تطايرت معها
ودخلت تحت الجفن مما استدعاه بطريقة لا
شعورية أن ينزع عينه الزجاجية لازالة

الزجاجي قد وضع ستاراً من الجمال على ما لا يحبه البشر... أنت لا تفهمين معنى الاستهزاء بمشوه لا يملك من أمره شيئاً...

قالت الزوجة: نعم لا أستطيع أن أفهم... أشعر بأنني خُدت، وإذا ما خدعتني مرة فقد تخدعني أخرى.

لا، لا أنت كاذبة... لم تعجبك حقيقتي، لم أعد وسيماً... ها أنا قد أصبحت رمزاً للبشاعة والكراهية.. لا لن أضع العين الزجاجية مرة أخرى... سأتخلّى عن الفنّ الزجاجي سأرميها بعيداً، فليحبّني من أرادني لشخصي أو فليرحل إلى الجحيم.

خرجت بعدها زوجته ولم تعد... وهو لم يسأل عنها بعدما شعر بقوة إرادة لم يحظّ بها قط.

مرت الأيام وأصحابه يتساقطون الواحد تلو الآخر... يبست شجرة المودة في عالمه وجاء خريف حياته قبل خريف عمره فقرر أن يتوقف عن رؤية العالم الكاذب الذي يحب المظاهر. لم يدرك بل لم يعترف أبداً بأنّه كاذب مخادع، إذ يتساءل لماذا عليه أن يشرح للناس موضوع فقدان عينه وهم لا يتكلمون عن أمراضهم العقلية وعاهاتهم المتوارية في أجساد واهنة.

قرّر أن يتخلّص من عينه السليمة التي تجبره على رؤية من لا يستحقون النظر إليهم، وأيقن أنّ عدد الذين يستحقون نظرتة

والاشمئزاز حيناً آخر. هو يستعيد أصواتاً قاتلة بتعابير مؤذية لاحقته سنوات طفولته.. كان دائماً ما يشار إليه «بالولد الاعور». نعم لقد نسي الناس اسمه واصبحت عاهته لقباً قاتلاً. تمالك نفسه إزاء ذكرياته خوفاً من أن تحطّمه ثانية ويعود إلى انعزاليته ووحده، وعاد من ماضيه إلى زوجته التي أخرجته ذات يوم من وحدته دون أن تدري وقال:

أنا لم أغشك... لم أنتبه بل لم أعتقد بأنّه علي إخبارك... شخصيتي لن تتغير إن كان لي عين أو اثنتان... بل كنت أخاف منك أن تحطميني كما فعل كل البشر... وها أنت تفعلين.

ردت الزوجة: بل من حقي أن أعرف منذ البداية بأنك معاق.

انتفض زوجها صارخاً بحدة متسائلاً: معاق!!! لا لا لن أسمح لك بتحطيمي... أنا بشر... أنا أحبك لكن لا تقتليني بلا سبب. أنا لم أغشك وها أنت تجرحيني.

ماذا! لا تعتقد بأنك غششتني... أنت كاذب ومخادع ومن حقي طلب الطلاق.

أنت لا تعرفين بل لا تفهمين كم عانيت طفلاً ومراهقاً حتى وجدت من صنع لي هذه الزجاجية الملونة التي أنقذتني من مستشفى الأمراض العقلية. هذا الفنّ الزجاجي كتم أصواتاً مؤذية، كما أرسل في أعماقي أحياناً علمتني معنى الحياة. هذا الفنّ

قد رحلوا إلى ديار الحق. لا يريد أن يرى
بعد اليوم من كره صورته بعين واحدة
وناداه «أعور». أمسك زجاجة أسيد ورمها
باتجاه عينه السليمة بكل سعادة وفرح،
كانت حارقة مؤلمة لكنها ستنقذه من شرور
بني آدم كما تمنى. انهار بعدها من فرط
الألم ونقل إلى المستشفى. أصابته صدمة
جديدة عندما علم بأن عينه لم تصب بأذى،
إذ أن ردة فعل جفنيه قد حمته. فكل ما
أصابه احتراق بسيط للجفن العلوي.

لا يزال في المستشفى حيث اقتنع
بالإبقاء على عينه السليمة لكنه يصبر على
مواجهة العالم بعين واحدة تاركاً الأخرى
منكمشة مشوهة لا تزينها زجاجة ملونة
أخفت ذات يوم قسوة البشر وكراهيتهم
تحت ظلال ألوانها. يوم باتت ذكراه كئيبة.

رحيق الحضارة

ما زال يتسلق وتيرة الجهل حتى تعب
من الصعود على أغصان الترددي الحضاري.
أرقت حارة المعرفة يوم سطعت مؤرقة
بيات عقله الأزلي فبات يكره العلم والمعرفة
حتى أصبح سفيهاً مهذاراً. كانت حرارة
الشمس ساطعة ولهيب المعرفة يكتنز
الأرض يوم نظر من عل إلى البعيد. رأى
شيخاً على قارب معرفة يُجده في بحر من
العلم، حتى استقر عند جزيرة أشجارها
ملاحم، وثمارها معلقات، تنتظر شاعراً
ملهماً يأتي من عمق الزمان.

أرّقه ما رأى وخاف أن يسطع نجم
العلماء. لحق به على شراع جهله كي يكسر
شوكته ويقلل من عزيمته. وحيث إنّه ما
تعود الإبحار في بحار العلم والمعرفة أخذه
دوار الحروف في غيبوبة. وما أن صحا
حتى شعر بصداع أرّقه، وجوع داهمه...
تحركت خلايا جهله والتهبت مشاعره
الحيوانية حتى ارتفعت وتيرة جوعه إلى
جهل معتق في خوابي التخلف. مدّ يده إلى
السماء قابضاً على شهب شيطانية... رمى
شجرة القوائد بنار الجهل ليتلقف ثمرة
علم دسمة سقطت من علياء، التقمها ثمرة

تسدّ جوعه لكنّها لم تكن كما يحتسب. لم يكن يدرك الفرق بين غذاء الروح والجسد فالتقمها فمه ماضغاً إياها بلعاب حمقه فزادته همّاً على جوع. لم يستطع بلع رحيق الحضارة أو أن يستسيغ منها عبارة، بل لم يستطعم منها حلاوة المعرفة فغدت على جهله علقماً.

حاول أن يسعف ذاته برشفة ماء فلم يجد غير بحار الشعر تحيط به، حيث كان العالم الشاعر ينهلها بحراً بحراً، فضربه بعضاً حمقه، ليسد رافد معرفته فأرداه صريعاً. شرب كوب معرفة تفاعل مع جهله، فتسمّم وأخذته حمى المعرفة إلى حيث يكره، فتقيأ خليط كفره فوق قصيدة كانت طاهرة في كيان شاعر مغدور. قتله أحمق معصوم عن المعرفة. جاهل في عزة مزيفة وقف قائلاً: أنا من قتل العلم وورثه، أنا من غبّ نبع المعرفة غبّاً حتى تقيأه، أنا من تسمم لأجلكم وجاءكم بالحكمة أسيرة عصاه. أنا الحاكم بأمر الله فطأطئوا رؤوسكم لغزارة... جهلي.

ومنذ ذلك الحين أصبح الجهل وساماً يحتفي به كل زعيم يتولى مقادير الحكم لسبب لا يعرفه، في بلد لا يحبه مع شعب لا ينتمي إليه.

وهكذا أصبح الجهل راية والجحود غاية في ظل سلطان جهله فخره وحمقه عدله.

هجرة أبناء بلاد الشام إلى الولايات المتحدة الأميركية من النصف الثاني للقرن التاسع عشر لمطلع القرن العشرين

د. خالد ممدوح الكردي^(١)

مقدمة

السياسي كان عامل ضغط أسهم في دفع الكثيرين لترك بلادهم. وفي بلاد الشام خاصة. حيث تحدّثت بعض المصادر أنّ بلاد الشام تعرضت زمن الدولة العثمانية لعدد من القيود والإجراءات التي أدت إلى كبت الحريات وتفشي حكم الاستبداد. بينما يرى آخرون أنه يشهد بعدالة الدولة العثمانية مع رعاياها وخاصة اليهود والمسيحيين، ولولا ذلك لما هاجر اليهود من أوروبا واستقروا في كنف الدولة العثمانية.

ومما لا شك فيه أن العامل الأساس الذي دفع بالمسيحيين للهجرة، مختلف عن المسلمين، حيث لم يكن بين البيئة الإسلامية والمسيحية أي رباط حقيقي أو دائم، وبالتالي فإن المجتمع المسيحي برغم كونه جزءاً من المجتمع الإسلامي إلا أنه لا

بداية، وقبل الحديث عن المهاجرين العرب إلى الولايات المتحدة الأمريكية، يجب أن نطرح سؤالاً ونبحث عن إجابته، وهو ما الذي اقتلع عشرات الآلاف في الدول العربية من أرضهم ونقلهم سبعة آلاف ميل فوق البحار، رغم المصاعب والأخطار وانتشارهم في الولايات المتحدة التي تمتد على مساحة ٩,٣٧٣ مليون كم^٢؟

فكما نعلم أنّ أسباب الهجرة غالباً تنتج عن الحروب والكوارث الطبيعية أو نتيجة تدهور الأوضاع الاقتصادية، إضافة إلى عوامل دينية وطائفية. وهذه العوامل مجتمعة تؤدي إلى شعور الأفراد والجماعات بعدم الأمان والاستقرار مما يدفع بهم إلى ترك أوطانهم.

تشير بعض المصادر إلى أنّ العامل

(١) أستاذ مساعد في التاريخ الحديث والمعاصر في الجامعة اللبنانية.

يستطيع أن يقوي شعور الولاء للدولة العثمانية.

كانت الهجرة في الدولة العثمانية، محظورة، فتم التشديد على قيود السفر وذلك عن طريق تسيير دوريات من الشرطة على المرافئ، حيث كانت الدولة العثمانية حريصة على منع الهجرة، لأنها بحاجة إلى أبنائها لظروفها الصعبة التي تمرّ بها حيث طمعت الدول الاستعمارية بها وسعت إلى تمزيقها. لكنّها بالمقابل كانت تغضّ الطرف عن هجرة المسيحيين والدليل على ذلك وصول أعداد هائلة من المهاجرين المسيحيين إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وقد اجتذبت الولايات المتحدة اهتمام المهاجرين من أماكن مختلفة من العالم، وكان الدافع إلى ذلك بالنسبة إليهم دوافع اقتصادية وسياسية ودينية.

وقد شهد القرن التاسع عشر تحولات مهمة على الصعيد العالمي من أهمها ظهور القوميات وضعف الدولة العثمانية وسوء أحوال البلاد الواقعة تحت سيطرتها مما دفع عدد من مواطنيها إلى الهجرة. حيث بدأت الهجرة الجماعية من سوريا إلى العالم الجديد، بوصول أول عائلة أرثوذكسية من دمشق من «آل عربيلي» في عام (١٨٧٨م)،

وتبعت هذه العائلة جماعات أخرى من جهات مختلفة، أكثرها من لبنان ذوي أصول مسيحية.

وبسبب هذا التزايد في الأعداد وضعت السلطات الأمريكية مجموعة من القوانين لتنظيم هذه الهجرة بحسب ما يتناسب مع مصالحهم الوطنية، وتطورت هذه القوانين مع مرور الوقت وبحسب الأعداد الوافدة إليها.

إجراءات وقوانين الهجرة الأمريكية وتطورها

من الضروري التطرق إلى قوانين الهجرة الأمريكية^(١) عند الحديث عن الهجرة العربية وغيرها من الهجرات لما لها من تأثير على حركة الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

وأهم هذه القوانين:

١ - قانون ١٧٩٧م:

أول قانون للحدّ من الهجرة، حيث دعا أحد أعضاء الكونجرس (١٧٩٧م) - لم يذكر اسمه - أنه ينبغي إيقاف الهجرة بعد أن نضجت البلاد واكتملت لها أسباب العمران، وهذه حجة ما برحت تُردد بين حين وآخر من خلال التاريخ الأمريكي^(٢).

(١) لمزيد من المعلومات عن قوانين الهجرة ينظر: United States Department of Justice, United States Immigration Laws, General Information Pamphlet, Washington D.C., U.S. Government Printing Office, 1972.

(٢) كينيدي، جون: أمة من المهاجرين، ص ٧٥.

٢ - قانون ١٧٩٨:

أصدر الكونجرس الفيدرالي في عام (١٧٩٨م) «قانون الأجانب» الذي أعطى الحكومة سلطة إبعاد الأجانب الخطرين على أمن الولايات المتحدة، واستمرت مشاعر العداوة والبغضاء نحو الأجانب، كما استمرت المشاعر الوطنية الضيقة الأفق، أو ما يسمى سياسة الحفاظ على نقاء أمريكا - أي تفضيل المهاجرين القدامى على الجدد - وكان من أثر زيادة نسبة الهجرة في العشرينيات والثلاثينات من القرن التاسع عشر أن انطلقت موجات جديدة من العداوة نحو الأيرلنديين الكاثوليك وغيرهم^(١).

٣ - قانون ١٨٨٢م:

أصدر الكونجرس عام (١٨٨٢م) أول قانون من قوانين حظر الهجرة من الشرق، وكان يستهدف العناصر الصفراء من الصين واليابان بالدرجة الأولى الذين كانوا يزاخمون العمال المحليين^(٢). وفي السنة نفسها وبسبب زيادة عدد المهاجرين

اضطرت الحكومة الفيدرالية إلى إصدار أول تشريع لاستبعاد طوائف معينة من غير المرغوب فيهم مثل الجذماء والمذنبين والمعتوهين، والأشخاص الذين يحتمل أن يصبحوا عبئاً على الدولة^(٣).

٤ - قانون ١٨٩١م:

فرض الكونجرس الأمريكي قيوداً على الهجرة فيما يتعلق بالشروط الصحية، كما أضاف نصاً يستبعد أنصار تعدد الزوجات^(٤). ويبدو أن هذا النص موجّه للمهاجرين المسلمين من الدولة العثمانية؛ لأن المهاجر كان يُسأل من قبل مكتب الهجرة ما إذا كان متزوجاً من أكثر من واحدة أو يؤيد تعدد الزوجات^(٥).

٥ - قانون ١٨٩٧م:

تم إدخال شرط امتحان للمهاجرين في القراءة والكتابة وقام الأمريكي غروفر كليفند^(*) (Cleveland Grover) بتعطيل هذا القانون (١٨٩٧م) وعارضه الرئيس تافلت هاوارد^(**) (Howard Tafflet)

(١) كنيدي، جون: أمة من المهاجرين، ص ٧٦.

(٢) م. ن، ص ٧٧. نيفنز، آلان: موجز تاريخ الولايات المتحدة، ص ٢٧١.

(٣) كنيدي، جون: أمة من المهاجرين، ص ٧٩.

(٤) كنيدي، جون: أمة من المهاجرين، ص ٧٩.

(٥) Shoman: Indomintable, p. 35.

(*) غروفر كليفند (١٨٣٧-١٩٠٨م): سياسي أمريكي، زعيم الحزب الديمقراطي، تولى رئاسة الولايات المتحدة مرتين،

الأولى (١٨٨٥-١٨٨٩م) والثانية (١٨٩٣-١٨٧٩م). البعلبكي: موسوعة، م ٢، ص ٩٧٨.

(**) تافت هاوارد (١٨٥٧-١٩٣٠م): سياسي أمريكي، من زعماء الحزب الجمهوري، الرئيس السابع والعشرون

للولايات المتحدة الأمريكية (١٩٠٩-١٩١٣م). البعلبكي: موسوعة، م ١، ص ٢٩٠-٢٩١.

(١٩١٣م) وويلسن عامي (١٩١٥م) و(١٩١٧م) استناداً إلى أن القراءة والكتابة هما اختبار لمكتسبات التعليم لا لقدرة الإنسان وإمكانياته كمواطن، وفي عام (١٩١٧م) تغلب الكونجرس على اعتراض الرئيس ويلسن، وأصبح امتحان القراءة والكتابة قانوناً^(١). وقد عرفت تلك الشروط باسم قيود الأمية، وكانت تلك القيود تغلق أبواب الهجرة أمام المهاجرين الأميين.

٦ - قانون ١٩٢١م:

بعد نشوب الحرب العالمية الأولى، زاد الشعور المعادي لموضوع الهجرة فأصدر الكونجرس في عام (١٩٢١م) قانوناً لتحديد الهجرة، عرف بنظام الحصص (Quota system law)، وهذا النظام حدد نسبة ٣٪ للهجرات الجديدة التي تنتمي إلى كل جنسية من الجنسيات المقيمة في الولايات المتحدة حتى عام (١٩١٠م)، ومن الواضح أن الإدارة الأمريكية كانت تتجه إلى تقييد الهجرات القادمة من جنوب وشرق أوروبا مقابل زيادة الهجرات القادمة من

المنطقة العربيّة أو منطقة الشرق الأدنى بصفة عامة^(٢).

٧ - قانون ١٩٢٤م:

وهو معدل عن القانون السابق فتصبح الحصة ٢٪ من كل جنسية من الجنسيات المقيمة في الولايات المتحدة في عام (١٨٨٠م)^(٣). وكانت الدوافع التي أدت إلى إصدار تلك القوانين هو ما تردّد عن التوافق المزعوم للأجناس الأنجلوسكسون^(*) (Anglo Saxons)، إضافة إلى الخوف من المذاهب الأجنبية والانقلابات التي بدأت تنتشر في شرق أوروبا، والاعتقاد بأنّ بعض أبناء أُمم معينة أقل من غيرها مراعاة للنظام والقانون^(٤).

وقد اشار آرثرمان في كتابه «بناء أمريكا» إلى الخلفية التاريخية لإصدار قانون (١٩٢٤م)، فقد بدأت تظهر في العقد الأخير من القرن التاسع عشر مطالب للكونجرس بإغلاق الأبواب أمام الهجرة، وقادها الأمريكيون الأكاديميون والمصلحون وقد نشر هؤلاء آراءهم خلال

(١) كنيدي، جون: أمة من المهاجرين، ص ٧٧. نيفنز، آلان: موجز تاريخ الولايات المتحدة، ص ٢٧١.

(٢) كنيدي، جون: أمة من المهاجرين، ص ٨٢.

(٣) كنيدي، جون: أمة من المهاجرين، ص ٨٢.

(*) الأنجلوسكسون: اسم يطلق على القبائل الجرمانية (الأنجلز والسكسون والجوت) التي استقرت في إنجلترا في القرنين الخامس والسادس للميلاد ويطلق المؤرخون في إنجلترا هذا الاسم على الشعب الإنجليزي. البعلبكي:

موسوعة المورد، م ١، ص ١٣٦.

(٤) قاسم، جمال: العرب في أمريكا، ص ٦٥.

ثلاثة عقود عن طريق الكتب والمنشورات والمجلات والصحف، وناقشوا قضيتهم من خلال تفوق العرق الأنجلوسكسوني^(١).

وقام الباحثون بفرز الجماعات العرقية فرزاً هرمياً واضعين الأنجلوسكسون وأبناء عمومتهم الجرمانيين^(*) (Germans) على القمة، أما باقي الجماعات من مختلف بقاع العالم في الأسفل، وبني هذا الترتيب بناء على الفهم العلمي في ذلك الوقت بأن الصفات الأخلاقية والعقلية والجسدية، تورث من جيل إلى جيل، ولهذا جادل الأنجلوسكسونيون بأن بعض الأمم تقدمت بينما بقيت الأخرى متخلفة، وأصبح الرجل المهزوم من الجنس المهزوم^(٢). وأن المشاكل الاجتماعية لم تكن موجودة قبلاً عندما كانت أمريكا تستقطب مستوطنين من الأنجلوسكسون^(٣). وكذلك النتيجة أن الدولة لا تستطيع الهروب من الانحطاط إلا بواسطة قوانين قبول مبنية على الاختيار العرقي^(٤).

وبعد اقتناع الكونجرس بهذا الجانب أصدر قانون (١٩٢٤م) إذ قلل الهجرة وصنّف القادمين الجدد حسب موطنهم الأصلي، وأوقف تدفق الآسيويين، والقادمين من أوروبا الشرقية، والجنوبية، وحدد نسبة أكبر للمهاجرين من أوروبا الغربية والشمالية الغربية^(٥).

وعلّق جون كنيدي على هذا القانون قائلاً: «أنه يتناقض تناقضاً كاملاً مع التقاليد والمبادئ الأمريكية التي لا ترجع مؤهلات أي مهاجر إلى البلد الذي ولد فيه كما انه يخل بالروح التي عبّر عنها إعلان الاستقلال، إذ نصّ على أن الناس جميعاً قد خلقوا سواسية^(٦). أما أليكساناف فقد علّقت قائلة: «أن هذا القانون حدّد ببساطة أكثر المجموعات المفضلة لقبولهم كمواطنين، ألا وهم الأنجلوسكسون^(٧)».

(١) مان، آرث: بناء أمريكا، تحرير لوثر لوددك، ترجمة إيمان أنور ملحس، تدقيق رنا فوزي نجم، (عمان، مركز الكتب الأردني)، ١٩٨٧م، ص ٧٣.

(*) الجرمان: اسم القبائل التي سكنت جرمانيا شمال شرق أوروبا منذ ما قبل الميلاد، والتي يعتقد بأنها هاجرت من غرب آسيا ومع ظهور النصرانية في أوروبا، أخذت هذه القبائل تنقسم إلى فصائل قومية: الألمان، الإسكندياليكسانافيون، القوطيون الأنجلوسكسون وغيرها، وكان مجمل هؤلاء برابرة قضاوا على الإمبراطورية الرومانية. الكيالي: موسوعة السياسة، ج ٢، ص ٥١.

(٢) مان، آرث، بناء أمريكا، ص ٧٣.

(٣) م. ن، ص ٧٣.

(٤) م. ن، ص ٧٣.

(٥) كنيدي، جون: أمة من المهاجرين، ص ٧٤.

(٦) أليكساناف: المغتربون، تجربة الهجرة، ص ١٢.

من هم المهاجرون؟

تسمى الولايات المتحدة «أمة المهاجرين» وذلك لسببين: الأول أن هذه الأمة تأسست وبنيت وتطورت على أيدي أجيال متعاقبة من المهاجرين. والثاني أنها تعد الدولة الأولى من حيث استقبال أكبر عدد من المهاجرين^(١).

وصدق الشاعر الأمريكي «والت وتيمان» عندما أنشد قائلاً:

هذه الولايات هي أعظم قصيدة.

فهنا لا ترى مجرد أمة واحدة.

بل هنا تأتلف أمة من أمم^(٢).

إنّ مصدر سكان الولايات المتحدة حركة هجرة منتظمة، مستمرة، منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى الربع الأول من القرن العشرين. وبحسب إحصاء أجري عام (١٩٧٠م)، بيّن أن عدد السكان في الولايات المتحدة يبلغ ٣,٩٢٩,٠٠٠ نسمة، أقل من نصفهم بقليل من الإنجليز، وأن نسبة

الأفارقة منهم ٢٠٪، والباقي من جنسيات مختلفة أسكتلنديين وإيرلنديين وألمان وسويسريين وفرنسيين وألبان وهولنديين وأصول أخرى^(٣).

والواضح أن معظم المهاجرين وفدوا من شمال وغرب ووسط أوروبا، وابتداءً من أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، تدفق إلى الولايات المتحدة عناصر من جنوب أوروبا وشرقها بالإضافة إلى جنسيات أخرى من قارات مختلفة^(٤).

ولقد أعطى بيار جورج إحصائية تقريبية^(٥) عن عدد المهاجرين الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة منذ عام (١٨٢٠م) وحتى عام (١٩٣٠م)، وهي على النحو التالي:

(١) كريفكير، ميشال: الحياة والمؤسسات الأمريكية، تحرير: ستيفنسون دوغلاس، (عمان، المركز الأردني، ١٩٨٩م)، ص ٢٣-٢٤.

(٢) كنيدي، جون: أمة من المهاجرين، ص ١٦.

(٣) مان، آرثر: بناء أمريكا، ص ٧٢.

(٤) زغل، علي شتيوي: نظرة على الجالية العربية ومؤسساتها في الولايات المتحدة، مجلة المستقبل العربي، (الكويت، ع ٤٥، ١٩٨٢م)، ص ٢٣.

(٥) جغرافية الولايات المتحدة، ترجمة سمير أرسلان، (جونه، المنشورات العربية، ١٩٨١م)، ص ٥٨. نقلًا عن دائرة الهجرة والتجنيس، مكتب الإحصاء (مديرة التجارة) الولايات المتحدة، واشنطن.

المهاجرين كانوا من (السوريين) بلاد الشام، وخصوصاً من اللبنانيين، حيث بلغت نسبتهم ٩٠٪.

المحور الثاني: أن الغالبية العظمى من المهاجرين كانوا من الديانة المسيحية، حيث بلغت نسبتهم ٩٥٪ والباقي من المسلمين.

فقد ذكر البروفيسور ميلر (Prof. Miller) عام (١٩٠٣م) في دراسة حول السوريين في نيويورك، أن عددهم يقدر بـ ٢,٤٨٢ سوري، جاءوا من الأقاليم التالية^(٣):

الإقليم	النسبة المئوية
١ - شمال سوريا	١٤
٢ - بيروت وضواحيها	٢١
٣ - شمال لبنان	١٧,٧
٤ - جنوب لبنان	٥,٢
٥ - مدن وقرى سهل البقاع	٢٥,١
٦ - دمشق وضواحيها	٩,٤
٧ - ساحل الشام وجواره	٥,٢
٨ - إقليم جبل الشيخ	١,٢
٩ - فلسطين	١,٢

بلغ عدد المهجرين العرب إلى الولايات المتحدة ٢٠٠,٠٠٠ حتى عام (١٩٢٤م) منهم ١٩٥,٠٠٠ من أصحاب الديانة المسيحية، أما الخمسة آلاف الآخرين فكانوا من المسلمين فقد مثلت الموارد حوالى

١٥١٨٢٤	١٨٣٠-١٨٢٠
٥٩٩١٢٥	١٨٤٠-١٨٣١
١,٧١٣٢٥١	١٨٥٠-١٨٤١
٢,٥٩٨٢١٤	١٨٦٠-١٨٥١
٢,٣١٤٨٢٤	١٨٧٠-١٨٦١
٢,٨١٢١٩١	١٨٨٠-١٨٧١
٥,٢٤٦٦١٣	١٨٩٠-١٨٨١
٣,٦٨٧٥٦٤	١٩٠٠-١٨٩١
٨,٧٩٥٣٨٦	١٩١٠-١٩٠١
٥,٧٣٥٨١١	١٩٢٠-١٩١١
٤,١٠٧٢٠٩	١٩٣٠-١٩٢١

الجالية العربية والإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية

تعتبر الجالية العربية والإسلامية في الولايات المتحدة من الجاليات الحديثة التي هاجرت واستقرت في أمريكا الشمالية بالمقارنة بالجاليات الأوروبية التي كوّنت نواة المجتمع الأمريكي الحديث، حيث بدأت في الوصول إلى الولايات المتحدة منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر^(١).

والسؤال هنا، من أي البلاد العربية جاء هؤلاء المهاجرون العرب حتى عام (١٩٢٤م)؟

إن معظم المصادر^(٢) التي تناولت الهجرة العربية أكدت على محورين:

المحور الأول: أن الغالبية العظمى من

(١) زغل: نظرة على الجالية العربية، مجلة المستقبل العربي، (الكويت، ع٤٥، ١٩٨٢م)، ص٢٣.

(٢) اليكساناف: المغتربون، تجربة الهجرة، ص١٢.

Barbara, Aswad: Arabic speaking communities in America, p. 2.

Miller: A comprehensive, p. 19. (٣)

مصر، ومن المدن التجارية في بلاد الشام^(٣).

والسبب في عزوف المسلمين عن الهجرة في تلك المرحلة أنّ الإسلام كان ما يزال قوياً في نفوسهم، وأنّ الإيمان الذي كان يعمر قلوبهم حال دون تسرب الأفكار الغربية إليها^(٤).

هجرة المسلمين

أمّا من ناحية هجرة المسلمين فقد تأخرت هجرتهم نسبياً عن هجرة المسيحيين العرب من بلاد الشام، حيث بدأت بأعداد قليلة والحقيقة أن بعض المسلمين العرب وخاصة من فلسطين ولبنان قد استقروا في الولايات المتحدة الأمريكية في مرحلة مبكرة إلا أن الهجرات الأولى التي كان لها أثر واضح في التوزيع الديموغرافي للعرب المسلمين، في الولايات المتحدة الأمريكية ترجع إلى السنوات الأولى من القرن العشرين، حين هاجر بعض المسيحيين للعمل في مصانع فورد في دير بورن وديترويت بولاية ميتشجن^(٥). كما تبعهم بعض المسلمين

، ٩٠,٠٠٠، والأرثوذكس مثلوا ٨٥,٠٠٠، بينما مثل الكاثوليك اليونان عدداً أقل من ١٠,٠٠٠ والبروتستانت ليس أكثر من ٥,٠٠٠^(١).

إنّ ارتفاع نسبة الموارنة والأرثوذكس المهاجرين يعود إلى كثرة أعدادهم في لبنان، فإذا أخذنا نيويورك عام (١٩٠٥م) كمثال، فإننا نجد أنّه تبعاً للدراسة التي قام بها البروفيسور ميلر فإنّ توزيع الديانات المتعددة والفرق والطوائف حسب المصادر السورية يمكن توضيحه بالجدول التالي^(٢):

الإقليم	موارنة	كاثوليك	أرثوذكس «يونان»	بروتستانت
شمال سوريا	٨,٥	٢٤,٣	٥٥,٨	١١,٤
بيروت	٣٣,٦	٢٥	٣٦,٥	٥,٨
شمال لبنان	٧٣	١٤,٦	٥,٧	٦,٧
جنوب لبنان	٣٨,٥	١٩,٢	١١,٥	٣٠,٨
سهل البقاع	١٤,٣	٧١,٤	٨,٨	٥,٥
دمشق	٢,١	٥١,١	٣٨,٣	٨,٥
ساحل الشام وجواره	٥٣,٩	٣٤,٦	٧,٧	٣,٨

وهنا نجد أن هجرة أهل الشام إلى الولايات المتحدة كانت في أغلبها من أصحاب الديانة المسيحية من الطبقات الزراعية والفلاحية في معظمها، ثم تبعها سوريون من المفكرين والشعراء عاشوا في

(٢) Miller: A comprehensive, p. 21.

(١) Hitti: The Syrians, p. 65.

(٣) Ansara: The Immigration, p. 50.

(٤) نمر، كمال كامل: أضواء على أحوال خير أمة أخرجت للناس في الولايات المتحدة الأمريكية، (بيروت، دار

البشائر، ط١، ١٩٨٦م)، ص١٤-١٥.

(٥) سمير، ونيل أبرهام: العرب في أمريكا، ص١٩٢.

من جبل لبنان كما خالطهم أيضاً أعداد غير قليلة من الدروز^(١).

من المسلمين كانوا من جبل لبنان، حيث لم تقتصر الهجرة على النصارى فقط^(٤).

ومن جهة أخرى نجد هناك بضعة آلاف من مسلمي بلاد الشام لحقوا بالمهاجرين المسيحيين من فترة أوائل القرن العشرين حتى نشوب الحرب العالمية الأولى وخصوصاً في أعقاب الانقلاب الدستوري الذي أطاح بالسلطان عبد الحميد الثاني على أيدي الاتحاديين في عام (١٩٠٨م)، كما ارتبطت بالفرار من التجنيد الإجباري الذي تقرر بموجب الدستور الاتحادي في عام (١٩٠٩م)^(٢)، حيث أثر بعض المسلمين الهجرة فراراً من الخدمة العسكرية التي كان يساق إليها الشباب قسراً، ونظراً لتعدد ميادين القتال في الدولة العثمانية فإن أهالي المجندين وذويهم كانوا يعدونهم في عداد الموتى^(٣).

لكن نجد أنه من أبرز العوامل التي دفعت اللبنانيين إلى الهجرة هو حاجة مصانع فورد في ديترويت إلى عدد من العمال، وذلك بسبب الإعلان الذي صدر في ٢ يناير (١٩١٤م) وأوردته الصحافة العربية في كل من مصر والشام عن خمسة دولارات في اليوم، وقد نص الإعلان بأن العمال سيتقاضون هذا الراتب يومياً بصرف النظر عن اللون أو الدين أو الموطن الأصلي، وعلى الرغم من أن أعداداً من المسلمين العرب قد هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية قبل عام (١٩١٤م)، إلا أن صدور هذا الإعلان كان عاملاً أكثر تأثيراً في دفع تيار الهجرة العربية الإسلامية إلى الولايات المتحدة الأمريكية^(٥).

دوافع هجرة العرب المسلمين

ومن خلال دراسة أعدها عبدو الخولي أشار فيها إلى أن هجرة العرب المسلمين لم تختلف في دوافعها الرئيسية عن دوافع هجرة المسيحيين، وذلك بسبب الاضطهاد

كما ساهمت السياسة التعسفية التي طبقتها الولاة الاتحاديون في بلاد الشام ضد المسلمين والمسيحيين على السواء والتي بلغت ذروتها في عهد جمال باشا أثناء ولايته على الشام، ومعظم المهاجرين

(١) Hadad, Yvonne: Arab Muslims and Islamic Institutions in America (Detroit, 1983), p. 65.

(٢) Khalef, Samir: The Background and causes of Lebanese - Syrian Immigration, p. 28.

(٣) Wasfi, Atif: An Islamic Lebanese Community in U.S.A, A study in Cultural Anthorapogy (Beruit Arab University, 1971), p. 5.

(٤) سمير، ونيل أبرهام: العرب في أمريكا، ص ٢٦.

(٥) Wasfi, Atif: An Islamic Lebanese community in U.S.A., p. 6.

نستطيع القول إن المسلمين لم يهاجروا إلى أمريكا بأعداد كبيرة بسبب خشيتهم من عدم تمكنهم من المحافظة على حياتهم وفقاً للشريعة الإسلامية.

وهذا ما تؤكدته الدراسات الميدانية حيث ركزت على مدى تكيف المهاجرين المسلمين بصفة عامة في مجتمع غربي، والواضح أن أهم مشكلة صادفها المهاجرون العرب المسلمون كانت تتمثل إلى حد كبير في العقبات النفسية والدينية والثقافية، المتعلقة بمصيرهم ومصير أبنائهم من بعدهم، فيما يتعلق بتراثهم وعقيدتهم الدينية بصفة خاصة، على عكس المهاجرين العرب النصارى الذين لم يواجهوا تلك العقبات، فعلى الرغم من أنهم كانوا ينتمون إلى طوائف مارونية وأرثوذكسية وكاثوليك، إلا أنهم كانوا على أية حال نصارى يشتركون في المعتقدات الأساسية نفسها مع النصارى الأمريكيين، ومن ثم استطاعوا الاندماج بسهولة في المجتمع الأمريكي على عكس المهاجرين العرب المسلمين الذين صعب عليهم التكيف مع البيئات الاجتماعية التي انتقلوا إليها^(٤).

السياسي والأوضاع المذهبية والضائقة الاقتصادية، مع الأخذ بعين الاعتبار أن هجرة العرب المسلمين قد تأخرت بعض الشيء عن هجرة العرب المسيحيين، فبينما بدأت هجرة النصارى خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لم تتضح هجرة المسلمين العرب إلا في السنوات الأولى من القرن العشرين وبأعداد محدودة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر^(١). كما كان الطموح الاقتصادي وراء هجرة العرب إلى العالم الجديد، ولا يتعلق ذلك بأسباب سياسية أو دينية أو غيرها.

وقد ذكر عاطف وصفي أن هناك أسباباً أخرى أدت إلى تأخر الهجرات الإسلامية العربية، منها الوعي الاقتصادي والسياسي الذي كان أسبق ظهوراً لدى المسيحيين العرب منه لدى المسلمين الذين عزفوا عن الهجرة إلى مجتمعات نصرانية غربية^(٢). والسبب في عزوف المسلمين عن الهجرة في تلك المرحلة أن الإسلام كان ما يزال قوياً في نفوسهم، وأن الإيمان الذي كان يعمر قلوبهم حال دون تسرب الأفكار الغربية إليها، كما سبق وذكرنا^(٣). ولهذا

(١) Abdo El-Kholy: The Arab Moslems in th United States, Religion and Assimilation, (New Haven Coun College & University press, (1966), p. 17.

(٢) Wasfi, Atif: An Islamic Lebanese Community in U.S.A., P. V-VI.

(٣) نمر، كمال كامل: أضواء على أحوال خير أمة أخرجت للناس في الولايات المتحدة الأمريكية، (بيروت، دار البشائر، ط١، ١٩٨٦م)، ص١٤-١٥.

(٤) سمير، ونيل أبراهام: العرب في أمريكا، ص٧٧.

وليس من شك في أن خوف العرب المسلمين من صعوبة المحافظة على تقاليدهم ومعتقداتهم الإسلامية في مجتمع نصراني غربي كان سبباً رئيساً في إعاقة هجرتهم إلى الولايات المتحدة^(١). وهكذا نجد أن العامل الديني لعب دوراً رئيساً، في تأخر الهجرة العربية الإسلامية.

وفي الدراسة الميدانية التي أجراها عبده الخولي عن المسلمين العرب في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث تحدث فيها مع إحدى السيدات المسلمات من أصل عربي تقطن في مدينة ديترويت أخبرته أن والدها كان ينوي مرافقة بعض أصدقائه النصارى في هجرتهم من بلاد الشام إلى الولايات المتحدة في عام (١٨٨٥م)، وأنه فعلاً دخل الباخرة إلا أنه قبل وقت قليل من إقلاعها سأل قبطانها عما إذا كانت توجد مساجد في أمريكا وحين أجابه القبطان بالنفي - إذ لم تكن توجد في الولايات المتحدة الأمريكية مساجد في ذلك الوقت - أسرع بمغادرة السفينة لأنه كان يخشى - على حد قوله - أن يذهب إلى بلاد الكفر^(٢).

وعلى الرغم من هجرته لاحقاً، إلا أن المشاعر الإسلامية الصادقة التي عبرت

عنها الرواية السابقة كان لها أثر كبير في إعاقة الهجرات العربية والإسلامية، ومع ذلك فإن تلك العوائق لم تلبث أن أزيلت تدريجياً تحت ضغط العوامل الاقتصادية والسياسية^(٣). ومن الملاحظ أن الهجرات العربية والإسلامية الأولى وفدت إلى الولايات المتحدة من لبنان، ثم تبعها هجرات أخرى من سوريا وفلسطين وشمال أفريقيا واليمن والعراق وغيرها^(٤).

واقع الهجرة وحجمها

أما فيما يختص بالعرب الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية حتى عام (١٩٢٤م) فلقد قامت عدة محاولات دراسية لإحصاء عدد المهاجرين العرب الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية حتى ذلك التاريخ (١٩٢٤)، وعند محاولة إحصاء عدد المهاجرين العرب واجهت هذه الدراسات مشكلات وعقبات يمكن إجمالها فيما يلي:

١ - عدم توفر إحصائيات دقيقة وصادقة، فالأرقام المذكورة في بعض المصادر منقولة أو أنها تستند إلى تقديرات شخصية، أو مصادر أخرى مثل الصحافة،

(١) القدومي، معين وصفي: الإسلام والمسلمون في أمريكا، (عمان، ١٩٩٤م)، ص ٧.

(٢) Abdo El-Kholy: The Arab Moslems in the United States, p. 17.

(٣) قاسم، جمال: العرب في أمريكا، ص ٢٣٤.

(٤) الشواربي، محمود يوسف: الإسلام في أمريكا، (القاهرة، ١٩٦٠م)، ص ١٧.

لا يمكن الاعتماد عليها لأنها كثيرة الشك والجدل، فلويز هوتون تقول: إن وزارة التجارة والعمل الأمريكية زودتها بإحصائية تقول بأن ١,٤٠٤ سوري قبلوا بين (١٨٩٩-١٩٠٧م)، وتضيف: «بالرغم من أن ١٠٠ ألف هو تقدير المعتاد، فإن ٧٠ ألف هو تقدير أفضل»^(١).

وفي عام (١٩٠٨م) ذكرت مجلة الهلال من خلال وثيقة: «إن في الولايات المتحدة ما بين ١٠٠ ألف إلى ١٥٠ ألف سوري»^(٢).

أما فيليب حتي في عام (١٩١٢م) قد شكك في نتائج مدير الإحصاء الأمريكي عام (١٩١٠م)، لأنه خفض أرقام الأصول الأجانب الناطقين بالسورية والعربية إلى الرقم المضحك ٤٦,٧٢٧ بعد أن أنكر وجود أبناء سوريا في بلاده من قبل^(٣). وفي عام (١٩٢٤م) ذكر فيليب حتي أن عدد السوريين في الولايات المتحدة ٢٠٠ ألف مهاجر مع أبنائهم الذين ولدوا في الولايات المتحدة الأمريكية^(٤)، بينما ذكر (مكرزل

سلم) أن عددهم بلغ حوالي ٢٥٠ ألف^(٥).

٢ - عدم تمييز السلطات الأمريكية بين المهاجرين حسب موطنهم من مناطق الإمبراطورية العثمانية المختلفة، فمدير الهجرة الأمريكية قبل سنة (١٨٩٩م)، لم يعترف بهويتهم كسوريين، بل ذكرهم مع العرب والأرمن واليونان والأتراك تحت لقب «أتراك آسيويين»^(٦). ومنذ عام (١٨٩٩م)، بدأ مكتب خدمات الهجرة الأمريكية بتمييز المهاجرين حسب موطنهم الأصلي^(٧).

٣ - تجاهل السلطات العثمانية، لموضوع هجرة المسيحيين العرب إلى أمريكا، ولم تحرك ساكناً، إذ منعتها على الوراق فقط ثم إن بعض السوريين سافروا إلى مصر ومنها هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية وخاصة من الأدباء والمفكرين أمثال: إيليا أبي ماضي وفيليب حتي^(٨).

٤ - دخول أعداد من المهاجرين الولايات المتحدة بطرق غير مشروعة عبر

١) Houghton, Louies: Syrians in the United States, The survey, vol. 26, July 1, 1911, p. 488.

٢) السوريون في أمريكا: مجلة الهلال، (القاهرة، م١٦، ج٤، نيسان ١٩٠٨م)، ص٤٢٤-٤٢٧.

٣) Hitti: The Syrians, p. 62

٤) Hitti: The Syrians, p. 65.

٥) مكرزل، سلم: الصحف العربية في الولايات المتحدة (نيويورك، أيار، ١٩٢٩م)، ص٣٩.

٦) القندليجي، عامر: العرب في المهجر الأمريكي، (العراق، منشورات وزارة الإعلام، ١٩٧٧م)، ص١٤.

٧) حتي، فيليب: السوريون في الولايات المتحدة، مجلة المقتطف، (القاهرة، م٦٠، ج١، يناير ١٩٢٢م)، ص١٨.

٨) حتي، فيليب: السوريون في الولايات المتحدة، مجلة المقتطف، (القاهرة، م٦٠، ج١، يناير، ١٩٢٢م)، ص١٧.

الحدود الكندية أو المكسيكية^(١)، وقد أشير إلى ذلك في أحداث الهجرة. وعلى الرغم من عدم توفر إحصائيات دقيقة، إلا أن هناك محاولات بذلها البعض للوصول إلى إحصائيات تقريبية، اعتماداً على التقارير السنوية التي كانت تصدرها إدارة الهجرة الأمريكية، إلى جانب تقديرات المهاجرين الأوائل أنفسهم^(٢).

جدول رقم (١):

أعداد المهاجرين العرب من سنة ١٨٢٤م إلى سنة ١٨٩٨م

السنة	أتراك من آسيا	السنة	أتراك من آسيا
١٨٢٤	٢	١٨٨٠	٤
١٨٢٦	٢	١٨٨١	٥
١٨٢٧	١	١٨٨٦	١٥
١٨٢٩	١	١٨٨٧	٢٠٨
١٨٦٩	٢	١٨٨٨	٢٧٢
١٨٧١	٤	١٨٨٩	٥٩٣
١٨٧٣	٣	١٨٩٠	١١٢٦
١٨٧٤	٦	١٨٩١	٢٤٨٨
١٨٧٥	١	١٨٩٥	٢٧٦٧
١٨٧٦	٨	١٨٩٦	٤١٣٩
١٨٧٧	٣	١٨٩٧	٤٧٣٢
١٨٧٨	٣١	١٨٩٨	٤٢٧٥
١٨٧٩	٣١		
		المجموع	٢٠٦٩٥

جدول رقم (٢):
أعداد المهاجرين السوريين من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩٢٤م

السنة	السنة	السوريون	السوريون
١٨٩٩	١٩١٢	٣٧٠٨	٥٥٢٥
١٩٠٠	١٩١٣	٢٩٢٠	٩٢١٠
١٩٠١	١٩١٤	٤٠٦٤	٩٠٢٣
١٩٠٢	١٩١٥	٤٩٨٢	١٧٦٧
١٩٠٣	١٩١٦	٧٣٥٢	٦٧٦
١٩٠٤	١٩١٧	٤٨٢٦	٩٧٦
١٩٠٥	١٩١٨	٤٨٢٢	٢١٠
١٩٠٦	١٩١٩	٥٨٢٤	٢٣١
١٩٠٧	١٩٢٠	٥٨٨٠	٣٠٤٧
١٩٠٨	١٩٢١	٥٥٢٠	٥١٠٥
١٩٠٩	١٩٢٢	٣٦٦٨	١٣٣٤
١٩١٠	١٩٢٣	٦٣١٧	١٢٠٧
١٩١١	١٩٢٤	٥٤٤٤	١٥٩٥
	المجموع		١٠٥,٢٣٤

من الجدول رقم (١) نجد أن الهجرة منذ عام (١٨٢٤م) وحتى عام (١٨٨٦م) كانت قليلة جداً، حيث كان المجموع المسجل ٩٥ شخصاً، ثم ارتفعت الأرقام بصورة مفاجئة إلى ٢٠٨ شخصاً عام (١٨٨٧م).

وبعدها تضاعف هذا الرقم حتى بلغ مجموع المهاجرين ٢٠,٦٩٥ مهاجراً عام (١٨٩٨م) مع العلم أن أعداد المهاجرين بين

(١) اليكساناف: المغتربون، تجربة الهجرة، ص ١٢٢.

(٢) أنظر: الجدولين (١) و(٢) التي نقلت بتصرف عن: القنديلجي، عامر: العرب في المهجر الأمريكي، ص ١٥-١٦، والتي نقلها عن:

International Immigration statistics, (New York National Bureau of Economic Research, 1929), Vol. 1, pA 4-3-431.

العالمية الأولى إلى ٢٨٦٠ مهاجراً، وهو ناتج أيضاً عن تقييد هجرة الأميين^(٤).

أما في الفترة التي تلت الحرب، ازداد عدد المهاجرين بين أعوام (١٩٢٠م) و(١٩٢٤م) إلى حوالي ١٢٢٨٨ مهاجراً سورياً، الأمر الذي يعكس عودة السوريين مع عائلاتهم وأقاربهم، ووصول قادمين جدد في الوقت نفسه وخاصة من الساخطين على إقامة حكومات الانتداب^(٥).

وتقول أليكساناف: «على الرغم من قانون الحصر السنوية (١٩٢٤م) الذي قيد الهجرة والذي سمح بوصول ١٠٠ مهاجر سوري، إلا أن المتوسط السنوي للمهاجرين السوريين كان ٥٠٠ مهاجراً سورياً»^(٦).

هجرة الفلسطينيين

أما الهجرة الفلسطينية فقد كانت ضعيفة وكان معظم المهاجرين الفلسطينيين من القدس وقراها ومدن بيت لحم وبيت جالا ورام الله وبيرزيت والناصرية والجليل^(٧). وتقول أليكساناف: «إن الفلسطينيين بدؤوا بالظهور في سجلات الهجرة من بداية القرن

أعوام (١٨٩٢م) و(١٨٩٤م) غير متوفرة^(١).

ومنذ عام (١٨٩٩م) نشط مدير الهجرة في الولايات المتحدة، وأخذ يدون عدد المهاجرين من السوريين منفردين عن غيرهم من الجنسيات التابعة للدولة العثمانية^(٢).

ومن الجدول رقم (٢) نجد أن عدد المهاجرين السوريين عام (١٨٩٩م) بلغ ٣٧٠٨ مهاجراً، واستمرت الهجرة السورية في الصعود بصورة ثابتة خلال السنوات الأولى من القرن العشرين مسجلة وسطيّاً زيادة تبلغ ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ مهاجر سنوياً، مع بعض الاستثناءات، فالرجال الهاربين من الخدمة العسكرية التركية رفعوا أرقام الهجرة صعوداً بشكل ملفت من ٣٦٦٨ مهاجراً عام (١٩٠٩م) إلى ٦٣١٧ مهاجراً عام (١٩١٠م)^(٣).

ففي عام (١٩١٣م) وصل عدد المهاجرين إلى ٩٢١٠ مهاجراً، ومع بداية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م) وصل عدد المهاجرين إلى ٩٠٢٣ مهاجراً، وخفض عدد المهاجرين السوريين زمن الحرب

(١) القنديلجي، عامر: العرب في المهجر الأمريكي، ص ١٥.

(٢) حتى، فيليب: السوريون في الولايات المتحدة، مجلة المقتطف، (القاهرة، م ٦٠، ج ١، يناير ١٩٢٢م)، ص ١٨.

(٣) القنديلجي: العرب في المهجر الأمريكي، ص ١٦. (٤) Saliba: Emigration, p. 71.

(٥) أليكساناف: المغتربون، تجربة الهجرة، ص ١٢٤. (٦) م. ن، ص ١٢٤.

(٧) عدوي، جمال: الهجرة الفلسطينية إلى أمريكا، ص ٤٦.

هيكلية المهاجرين

أكد فيليب حتي من خلال تجواله في المدن الأمريكية^(٦) ليس من ولاية في الولايات المتحدة ولا مدينة يزيد عدد سكانها على خمسة آلاف نسمة إلا وفيها سوري أو أكثر، والمهم هنا هو كيف عرف هؤلاء السوريون البسطاء بوجود بلدات ومدن أمريكية ما كانوا يستطيعون أن يلفظوا أسماءها إلا بكل مشقة؟ أجاب «إلياس ل» الذي وصل عام (١٨٩٦م) للباحثة أليكساناف قائلاً: «هل تعتقدني أنني نظرت إلى خارطة، وقلت إنني أريد أن أذهب إلى هذا المكان! كلا، فلم يكن في مقدوري أن أتفوه بكلمة إنجليزية واحدة، جئت إلى سالم بشارة في نورث واين... وكان كثيرون قد قدموا إلى هناك أيضاً من راشيا، في الوقت نفسه. كان سالم هنا قبل قدومي بوقت طويل... وكان لديه مخزن لتزويد الباعة المتجولين، كان معي اسم سالم وعنوانه، فأطلعت السيد عربيلي المترجم على ذلك، فوضعنا في القطار، واستقبلنا سالم»^(٧).

العشرين، حيث أوضحت السجلات أن ٢٨٠٠ مهاجراً فلسطينياً قد قبلوا في المدة الممتدة من (١٩٠١-١٩١٩م) وتسارعت هجرتهم بصورة معتدلة زمن الانتداب البريطاني، ففي السنوات الأربع من ١٩٢٠م وحتى ١٩٢٣م وصل ١٤٧١ مهاجراً^(١). وسجل عام (١٩٢٤م) درجة عالية في الهجرة الفلسطينية مع ١٣٠١ مهاجراً جديداً حسب ما ذكرته أليكساناف^(٢).

وهذه الأرقام تناقض مع ما ذكره جمال عدوي بأن أعداد المهاجرين الفلسطينيين في عام (١٩٢٢م) كانت ١٤٣٦ مهاجراً، وفي عام (١٩٢٣م) كانت ١٤٨١، ثم انخفضت إلى ٦٠٤ مهاجر في عام (١٩٢٤م)^(٣). هذا وقد ترتب على إصدار قانون الحصص تحول كثير من السوريين ومنهم الفلسطينيين إلى كندا والبرازيل والأرجنتين وغيرها من دول أمريكا الجنوبية^(٤). أما الهجرة من البلاد العربية الأخرى، فلا توجد إحصائيات دقيقة تتعلق بأعدادهم، وإنما أشارت المصادر إلى هجرة بعض اليمنيين والمصريين من شبه الجزيرة العربية والعراق وغيرها^(٥).

(١) أليكساناف: المغتربون، تجربة الهجرة ص ١٢٤.

(٢) عدوي، جمال: الهجرة الفلسطينية إلى أمريكا، ص ١٢١، والتي نقلها عن:

International Immigration statistics, (New York National Bureau of Economic Research, 1929), Vol. 1, p. 899.

(٥) أليكساناف: المغتربون، تجربة الهجرة، ص ١٢٥.

(٧) أليكساناف: المغتربون، تجربة الهجرة، ص ١٤٦.

(٤) Ansara: The Emigration, p. 38.

(٦) Hitti: The Syrians, p. 67.

وهنا نطرح سؤالاً وهو: كيف وصل أناس مثل سالم إلى بلدات ومدن بعيدة مبعثرة بين نيويورك شرقاً ولوس أنجلوس غرباً، ومينيبوليس شمالاً ونيو أورليانز جنوباً؟

لنجيب عن هذا السؤال لابد من الإشارة إلى طبيعة عمل المهاجرين الذين عملوا كباعة متجولين، وهؤلاء الباعة عملوا تحت إرشاد رجال من أصحاب البصيرة والإقدام، استقروا بوصفهم موزعين للسلع، ومن ثم تنقل الباعة المتجولون وانتشروا في المدن الأمريكية بناء على إرشادات الموزعين، الذين شكلوا مراكز محورية في توزيع السوريين. وبالتأكيد استطاع بعض الباعة المتجولين الذين جمعوا الثروات أن يدخلوا عالم الأعمال كموزعين للباعة المتجولين^(١). هذا ولم يقتصر دور الموزعين على تسهيل وتنظيم الباعة المتجولين، بل قاموا باستقدام الأقارب أو أبناء قريتهم أو مدينتهم للعمل كباعة متجولين^(٢).

وزيادة في التوضيح سنعرض قصة وصول «نيك. ر» إلى أريزونا، كما رواها ابن أخيه: «في عام ١٨٨٧ م كان نيك في

نيويورك وسمع عن نيومكسيكو وكان بائعاً متجولاً، ويحب السفر، وراح يطوف ببضاعته حتى وصل إلى نيومكسيكو، ومن بعد سمع عن أريزونا فمضى بتجارته المتجولة إلى هناك، وكان يبيع متجولاً ذهاباً وإياباً عبر الحدود، وعندئذ أرسل في طلب أخته وأخيه، وهكذا ابتدأت الجالية السورية في أريزونا، وكان معظمهم من أبلح قرب زحلة اللبنانية^(٣).

وبحسب تقارير لجنة المهاجرة - التي عينها الرئيس «تافت» لدراسة توزيع المهاجرين - أن (٥٦٩٠٩) سوريين دخلوا الولايات المتحدة ما بين (١٨٩٩-١٩١٠م) ولدى استجوابهم في جزيرة «رود أيلاند» عن الولاية التي يقصدون التوجه إليها، ذكروا كل واحدة من الثمان والأربعين ولاية أمريكية وزاد بعضهم أنه كان متوجهاً إلى جزر هاواي (Hawaii).

وكان نصيب ولاية نيويورك منهم ١٨٣٧٠ مهاجراً، وهو العدد الأكثر بين كل الولايات، ونصيب ولاية ديلاوير^(*) Delaware، خمسة أشخاص وهو العدد الأقل بين كل الولايات الأمريكية^(٤).

(١) اليكساناف: المغتربون، تجربة الهجرة، ص ١٤٦.

(٢) م. ن، ص ١٤٦.

(٣) م. ن، ص ١٤٧.

(*) ديلاوير: ولاية في الجزء الشرقي من الولايات المتحدة الأمريكية، تقع على خليج ديلاوير، وهي إحدى أقدم الولايات الأمريكية، كان الهولنديون أول من استوطنها عام ١٦٣١م، عاصمتها دوفر. البعلبكي: موسوعة، م ١، ص ٥١٤.

(٤) حتي: السوريون في الولايات المتحدة، مجلة المقتطف، (القاهرة، م ٦٠، ج ١، يناير ١٩٢٢م)، ص ٢٢.

والأرقام السابقة مبنية على إحصاءات جماعة من السوريين المتنورين في كل بلدة مذكورة أعلاه، عرضت عليهم أسئلة خطية عن عدد الجالية المقيمين فيها وحالتها الاقتصادية والأدبية والاجتماعية^(٢).

ونلاحظ من الجدول السابق أن ١٨,٠٠٠ مهاجر سوري استوطن في نيويورك بنسبة ٣٨٪ وذلك باعتباره مركزاً تجارياً ومصرفياً كبيراً استقطب الكثير من المهاجرين من جميع أنحاء العالم ومن ضمنهم المهاجرين العرب.

وعلى الرغم من أن المجتمع الأمريكي عرف بأنه بوتقة انصهار، إلا أن المهاجرين العرب جاهدوا في بداية الأمر للمحافظة على كيانهم ولغتهم وتقاليدهم، فكان في تقدير - جمال قاسم - إلى محاولتهم الدفاع عن أنفسهم إزاء المجتمع الجديد الذي انتقلوا إليه مما جعلهم يتجهون في بداية الأمر إلى التماسك وتكوين مجتمعات أو بيئات خاصة بهم^(٣).

بدأت التجمعات في مدينة بوسطن، إذ كانت تلك المدينة الأمريكية العريقة وجدت بها الكثير من الأحياء ولكن في معظمها كانت أحياء متدنية، ولعل أكثرها تدنياً كان حي الصينيين، وهو الحي الذي اختاره

وإذا نظرنا إلى خريطة الولايات المتحدة الأمريكية نجد أن السوريين يتركزون في شرق الولايات المتحدة وشمالها الشرقي، لأنها مراكز التجارة والصناعة، ويتركزون في جنوبها وجنوبها الشرقي والغربي؛ لأن مناخها مناخ البحر الأبيض المتوسط المعتدل وأما في الوسط فعددهم قليل لأن مناخها قاري بالإضافة إلى انتشار الزراعة الواسعة التي تعتمد على الآلات بدلاً من الأيدي العاملة، أما في الشمال والشمال الغربي فهم قليلون بسبب البرودة الشديدة ووعورة التضاريس.

وقد حصر فيليب حتي المدن الأمريكية التي يكثر فيها عدد المهاجرين من السوريين في المدة (١٨٩٩-١٩١٠م)^(١) فيما يلي:

عدد السوريين	المدينة
١٨٠٠٠	١ - نيويورك New York
٨٠٠٠	٢ - بوسطن Boston
٧٠٠٠	٣ - ديترويت Detroit
٥٠٠٠	٤ - بيتسبرغ Pittsburgh
٤٠٠٠	٥ - سنت لويس Saint Louis
٣٠٠٠	٦ - لورنس Saint Lawrence
٢٠٠٠	٧ - كليفلند Cleveland
١٠٠٠	٨ - فيلادلفيا Philadelphia
١٠٠٠	٩ - ووستر ماس Worcester, Mass
١٠٠٠	١٠ - فال رفر ماس Fall River, Mass
١٠٠٠	١١ - سياتل Seattle
١٠٠٠	١٢ - شيكاغو Chicago
١٠٠٠	١٣ - أكرن أوهايو Akron
١٠٠٠	١٤ - لوس أنجلوس Los Angeles

(٢) م. ن، ص ٢١.

(١) م. ن، ص ٢١.
(٣) قاسم: العرب في أمريكا، ص ١٣١.

السوريون الأوائل مكاناً لتجمعهم، وذلك قبل أن ينتقلوا إلى شارع وشنجتن القديم في حي مانهاتن بمدينة نيويورك^(١).

وفي الأحياء التي أقاموا فيها أو كونوها بأنفسهم احتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم، حتى كان يطلق على شارع وشنجتن القديم بمدينة نيويورك «سوريا الصغيرة» حيث أقاموا هناك تجمعاً كبيراً كثرت فيه محلاتهم ومقاهيهم ومطاعمهم، كما احتفظوا بتقاليدهم وعاداتهم كشرب القهوة التركية وتدخين النارجيلة وصناعة الأطعمة السورية^(٢).

وهنا يمكن السؤال، هل احتشد السوريون في أحياء خاصة بهم في كافة أنحاء الولايات المتحدة؟ إن العالق في أذهان الأمريكيين عموماً وسوريي سوريا، أن المهاجرين السوريين يقيمون في حي واحد من أحياء المدينة التي ينزلونها، حيث يسهل عليهم المحافظة على تقاليدهم ومصطلحاتهم، ويتعذر على الوطنيين التأثير عليهم^(٣).

إلا أن دراسة الأماكن التي يسكنونها أثبتت عكس ذلك، نعم إنه يوجد في غرباء كل بلد ميل غريزي إلى التجمهر في حي

واحد يقطنونه، إنما ذلك لا يصح على سوريي الولايات المتحدة، بقدر ما يصح على غيرهم من الأجانب^(٤).

وذلك يعود لأسباب سيكولوجية وأسباب اقتصادية فالسوري نادراً ما يتأقلم مع رفيقه السوري أو يشترك معه في العمل، لقد عثر فيليب حتي في مدينة زينيا (Xenia) بولاية أوهايو على عائلة سورية أقامت في تلك البلدة عشر سنوات، دون أن تجذب إليها عائلة سورية أخرى، وفي لافايت أنديانا (Lafayette Ind) قابل حتي سورياً أقام في تلك المدينة منذ عام (١٨٩٠م)، وعندما سأله عما إذا كان في البلدة من سوري آخر أجاب بالنفي، وعقب على ذلك بقوله «لا لا، والحمد لله».

كما أن طبيعة العمل الذي يباشره السوري غالباً في الولايات المتحدة - وهو بائع متجول - كان يقربه إلى العائلات الأمريكية حيث يسهل تصريف بضاعته ويبعده عن رفاقه الذين لا هو يعتاش منهم ولا هم يعتاشون منه^(٥).

والمدن الوحيدة التي يجوز أن يقال أن فيها للسوريين أحياء خاصة بهم، إنما هي

(٢) Kayal: Arab Christians, p. 48.

(١) Ansara: The Immigration, p. 63.

(٣) حتي، فيليب: السوريون في الولايات المتحدة، مجلة المقتطف، (القاهرة، م٦٠، ج١، يناير ١٩٩٢م)، ص٢٠-٢١.

(٤) Houghton: Syrians in the United States, The survey, Vol. 26, July 1, 1911, p. 491.

(٥) Hitti: The Syrians, p. 68.

نيويورك وبوسطن، وفيلادلفيا، ولورنس،
وفال رمز بتسبرغ، وسانت لويس غربي
نهر المسيسيبي^(١).

وقد تركز السوريون الأورثوذكس في
ولاية مسيسيبي، وخاصة في المدن التابعة
لها مثل فايسبورغ وجاكسون
وميريديان^(٢)، وكان لهؤلاء السوريين
صلات القربى بالمقيمين في ولايتي
لويزيانا وتكساس، ويعود أصلهم إلى سبع
قرى في ناحية الكورة من جبل لبنان^(٣).
يخبرنا فادي الذي وصل عام (١٩١١م)
إلى فايسبورغ: «لقد جاءوا إلى ولاية
ميسيبي أولاً، لأنهم شقوا طريقهم، وهم
يبيعون متجولين في اتجاه الجنوب من
نيويورك، وكان المناخ أكثر اعتدالاً فأحبوه
وبقوا... ولقد عملوا وباعوا متجولين في
لويزيانا وميسيبي وشرقي تكساس،
وتينيس وكنتوكي وفيرجينيا التي كانت
كثيفة السكان بالزنج، وكان هناك
مزارعون يبيعونهم»^(٤).

وقد وجد تجمع من السوريين الملكيين
- وأغلبهم من زحلة ودمشق - في
شيكاغو^(٥)، ومن شيكاغو ارتحل بعض
الباعة المتجولين من زحلة شمالاً وأنشأوا
تجمعاً في ملاووكي (Milwaukee) كبرى
مدن ولاية ويكونسون Wisconsin، ولم
تكن حدود الولاية حاجزاً لهم، فعبروها
شرقاً إلى ولاية ميشيغان^(٦).

وكتب يوجين بول نصار يقول: «يتواجد
موارنة من بسكنتا في جبل لبنان، ومنطقة
عكار في شمال لبنان في يوتيكا Utica
ومن هنا انتشروا إلى أمستردام
Amsterdam^(٧) وفي حيفا Geneva
وسيراكوز Syracuse وألباني Albany
وكلها تابعة لولاية نيويورك»^(٨).

كما وُجد تجمع من السوريين
الأرثوذكس من قرى عين العرب وراشيا
الوادي في منطقة فورت واين Fort Wayne
من ولاية إنديانا التي هي إحدى القواعد
السورية الأولى في الغرب الأوسط^(٩).

- (١) حتي، فيليب: السوريون في الولايات المتحدة، مجلة المقتطف، (القاهرة، م٦٠، ج١، يناير ١٩٩٢م)، ص ٢١.
- (٢) خرباوي: تاريخ المهاجرة السورية، ص ٨٨٣.
- (٣) اليكساناف: المغتربون، تجربة الهجرة، ص ١٥٦.
- (٤) مقابلة شخصية، أليكساناف مع فادي في فايسبورغ في ولاية ميسيبي (١٩٧٩م)، ينظر: اليكساناف: المغتربون، تجربة الهجرة، ص ١٥٦.
- (٥) Younis: The coming of the Arabic, p. 132.
- (٦) Ibid: p. 133.
- (٧) رسالة من يوجين بول نصار إلى أليكساناف في ٢٣ حزيران ١٩٨٣م. ينظر: اليكساناف: المغتربون، تجربة الهجرة، ص ١٥٦.
- (٨) خرباوي: تاريخ المهاجرة السورية، ص ٨٥٨.
- (٩) اليكساناف: المغتربون، تجربة الهجرة، ص ١٥٩.

أما المسلمون العرب وهم قلة مقارنة بالنصارى العرب فكانوا موزعين على نطاق عريض في أرجاء الولايات المتحدة، ولقد ذكرت لويز هوتون عام (١٩١١م) أن الجالية الإسلامية الأوسع هي في مدينة بروفيانس حيث كان عددهم ١٥٠^(٤). كما وجد تجمع من المسلمين من دمشق سنة (١٩٠٠م) في ولايات عدة منها داكوتا الشمالية والجنوبية ومينيسوتا^(٥).

كذلك وجد تجمع للمسلمين وخاصة الفلسطينيين في مدينة شيكاغو^(٦). وبعد عام (١٩٠٨م) اتجه بعض المهاجرين المسلمين إلى المراكز الصناعية من مدينة توليدو في ولاية أوهايو، وفي عام (١٩١٦م)، انتقل الكثير من العرب على السواء من السوريين والفلسطينيين واليمنيين والعراقيين وغيرهم إلى مدينة ديربورن Dearborn في ولاية ميشيغان للعمل في مصانع فورد للسيارات، ومنذ ذلك التاريخ أصبح التجمع الإسلامي في ديربورن الأوسع في الولايات المتحدة^(٧).

أجرى روفائيل هوايني - أول اسقف أورثوذكسي سوري في أمريكا - تعداداً لملته (١٨٩٨م)، فجاءت نيويورك في قمة اللائحة وعددهم ٥٧٥ أورثوذكسياً، وكان ترتيب فورت واين الثانية وتضم ٤٢٤ أورثوذكسياً، وواشنطن في ولاية ماساشوسيتس الثالثة وتضم ١٥١ أورثوذكسياً^(١).

كذلك استقر بعض السوريين من راشيا اللبنانية في سبرنغ فيلد Springfield في ولاية إلينوا Illinois، وروشستر في ولاية بنسلفانيا ومانشستر Manchester في ولاية نيوهامبشاير وكانتون Canton وتوليدو في ولاية أوهايو Ohio^(٢).

تقول حسبية من راشيا، «كانت سبرنغ فيلد» تشبه سورية الصغيرة، وتقول: «بعد (١٩١١م) كان فيها خمس وعشرون أو ثلاثون أسرة وعدد كبير من العازبين والعازبات ومعظمهم من السوريين الأورثوذكس باستثناء بعض الملكيين، وتوضح قائلة: «كان هنا شغل كثير للجميع لأن مناجم الفحم كانت تعمل»^(٣).

(١) اليكساناف: المغتربون، تجربة الهجرة، ص ١٥٩.

(٢) Younis: The coming of the Arabic, p. 133.

(٣) مقابلة شخصية، اليكساناف مع حسبية في سبرنغ فيلد آب ١٩٨٠، ينظر: اليكساناف: المغتربون، تجربة الهجرة، ص ١٦٩.

(٤) Houghton: "Syrians in the United States". The survey, vol. 26, October 6, p. 965.

(٥) اليكساناف: المغتربون، تجربة الهجرة: المغتربون، - جربة الهجرة، ص ١٧١.

(٦) خرباوي: تاريخ المهاجرة السورية، ص ٨٧٧. (٧) اليكساناف: المغتربون، تجربة الهجرة، ص ١٧٥.

ولقد رأيت ان موضوع بحثي هذا حول الهجرة جدير بالدراسة وتسليط الضوء عليه، لعلنا ندق ناقوس الخطر للعمل للحد من هجرة شباب الوطن، لكي لا نخسر هذه الطاقات لحساب الغرب الذي أدرك ويدرك جيداً كيف يستفيد من هذه الطاقات والقدرات العلمية لتطوير وتقديم بلاده، ونحن نكون قد خسرنا خسارة مزدوجة، الخسارة الأولى هي خسارة أبنائنا والخسارة الثانية هي خسارة التعب والإنفاق على تعليمهم وإعدادهم وإرسالهم على طبق من فضة للغرب ليستفيد منهم ويستغل طاقاتهم.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربيّة:

- ١ - خرباوي، بسيليوس: تاريخ المهاجرة السورية إلى الديار الأمريكية، القسم السابع من كتاب تاريخ الولايات المتحدة منذ اكتشافها إلى الزمن الحاضر، نيويورك، مطبعة الدليل، ١٩١٣م.
- ٢ - مكرزل، سلوم: الصحف العربيّة في الولايات المتحدة، نيويورك، ١٩٢٨م.

ثانياً: المصادر المترجمة:

- ٣ - كيندي، جون: أمة من المهاجرين، تقديم: روبرت كيندي، ترجمة: أحمد حمودة، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، ١٩٦٥م.

أما الدروز وهم أقل من باقي المسلمين، فقد انتشروا منذ عام (١٨٨٥م) في ولايات مختلفة كفرجينيا الغربية والشرقية، وكارولينا الشمالية وكنتاكي Kentucky وتينيس Tennessee^(١). وانتشرت التجمعات الدرزية حتى ولاية تكساس وأوكلاهوما Oklahoma، ولقد شكل بعضهم مواقع في مدن كليفلند Cleveland وأكرن في ولاية أوهايو^(٢).

وتم تأسيس أول رابطة درزية في الولايات المتحدة في مدينة ستيل فبرايل (١٩٠٨م)، وأن هذه الرابطة التي سميت «الباكورة الدرزية» قد وقّع على بنود تأسيسها بالعربيّة ما يزيد على سبعين عضواً، وتعهدت الرابطة بتوحيد الدروز في أمريكا وبمساعدة أعضائها خاصة والسوريين عامة، روحياً ومادياً^(٣). بالإضافة إلى ذلك نشرت المعلومات عن الدروز، وديانتهم، وحضارتهم في الولايات المتحدة وفي الوطن على حد سواء^(٤).

وفي الختام لا بد من الإشارة إلى ان فكرة الهجرة كانت ولا تزال حلم كل شاب مشرقي ضاقت به مساحات الوطن لأسباب سياسيّة واجتماعية واقتصاديّة مختلفة،

(١) اليكساناف: المغتربون، تجربة الهجرة، ص ١٧٤.

(٢) جريدة البيان: رابطة مفتوحة، ديترويت، ٧ شباط ١٩١١م، ص ٧.

(٣) اليكساناف: المغتربون، تجربة الهجرة، ص ١٧٤.

ثالثاً: الموسوعات:

- ٤ - البعلبكي، منير: موسوعة الموارد العربية، مجلدان، بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٩٠م.
٥ - الكيالي، عبد الوهاب: موسوعة السياسة، ٧م، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٦م.

رابعاً: المراجع العربية:

- ٦ - الشواربي، محمود يوسف: الإسلام في أمريكا، القاهرة، ١٩٦٠م.
٧ - القدومي، معين وصفي: الإسلام والمسلمون في أمريكا، عمان، ١٩٩٤م.
٨ - القندليجي، عامر: العرب في المهجر الأمريكي، العراق: منشورات وزارة الإعلام، ١٩٧٧م.
٩ - عدوي، جمال: الهجرة الفلسطينية إلى أمريكا من نهاية القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٤٥م، الناصرة: بيت الصداقة، ط١، ١٩٩٣م.
١٠ - قاسم، زكريا: العرب في أمريكا، القاهرة، معهد الدراسات والبحوث العربية، ١٩٨٨م.
١١ - نمر، كمال كامل: أضواء على أحوال خير أمة أخرجت للناس في الولايات المتحدة الأمريكية، بيروت: دار البشائر، ط١، ١٩٨٦م.

خامساً: المراجع المترجمة:

- ١٢ - ابراهام، سمير ونبيل: العرب في أمريكا، دراسات عن الجاليات العربية الأمريكية، ترجمة: سنية الجلاللي، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، ١٩٨٥م.
١٣ - أليكساناف: المغتربون، تجربة الهجرة الباكراة إلى أمريكا، ترجمة: فؤاد أيوب، دمشق: دار دمشق للطباعة والصحافة والنشر، ط١، ١٩٨٨م.

سادساً: الرسائل العلمية غير المنشورة:

- 14 - Ansara, James: The Immigration and settlement of the Syrians, (Harvard - 2 collage, PhD. Honored thesis, 1931).

سابعاً: الدوريات العربية:

أ - المجالات:

- ١٥ - حتي، فيليب: السوريون في الولايات المتحدة، مجلة المقتطف، القاهرة: م٦٠، ج١، يناير، ١٩٢٢م.
١٦ - زغل، علي شتيوي: نظرة على الجالية العربية ومؤسساتها في الولايات المتحدة، مجلة المستقبل العربي، بيروت: ع٤٥، ١٩٨٢م.
١٧ - جريدة البيان في المهجر، ٧ شباط (فبراير) ١٩١١م.

ثامناً: المصادر الأجنبية:

- 18 - Abdo El-Kholy: The Arab moslems in the united states, Religion and Assimilation, (New Haven coun college & University Press, 1966.
19 - Shoman, Abdal Hameed: The Indomitable Arab, London, Third world centre, 1984.
20 - Barbara, Aswad: Arabic Speaking communities in American cities center from Immigration studies, New York and Association of Arab American university Graduates, New York, 1974.
21 - Hadad, Yvonve: Arab Muslims and Islamic Institutions in America (Detroit, 1983).
22 - Kayal, Philip M: Arab Christians in the united states, Arab in the New world, (Detroit, 1983).
23 - Miller, Wayne Charles and others: Acomprehensive Bibliography for the study of American Minorities, (New York university press, 1976).
24 - Wasfi, Atif: An Islamic Lebanese community in U.S.A., a study in cultural anthoropogy (Beruit Arab university, 1971).
25 - Younnis, Adele:L The coming of the Arabic speaking people to the united states. (Boston university Graduate school modern history, 1961).

تاسعاً: الدوريات الأجنبية:

- 26 - Houghton, Louies: Syrian in the united states, the Survey, vol. 26, 1911.

الفصحى والعامية

زهراء دخيل

أُعْنَى بِتَجَنُّبِ التَّعَجُّلِ وَالتَّشَبُّثِ بِالْأَحْكَامِ
السَّابِقَةِ، وَأَلَّا أُدْخَلَ فِي أَحْكَامِي إِلَّا مَا يَتِمُّمُ
لِعَقْلِي فِي وَضُوحٍ وَتَمَيُّزٍ لَا يَكُونُ لَدَيَّ
مَعَهُمَا أَيُّ مَجَالٍ لَوْضَعَهُ مَوْضِعَ الشُّكِّ». .
ديكارت

«هذا اللسان كلام أهل الجئة، وهو
المُنَزَّه من بين الألسنة من كل نقيصة،
والمُعَلَّى من كل خسيصة، والمهذب من كل
ما يستهجن، أو يستشنع، فبنى مباني باين
بها جميع اللغات؛ من إعراب أوجده الله له،
وتأليف بين حركة وسكون حلاؤه به». .
الفارابي

وسعت كتاب الله لفظاً وغايةً

وما ضقت عن أي به وعظات

حافظ إبراهيم

«عندما يفرض الأجنبي لغته على
الآخرين، فإنه يحبس لغتهم في لغته حبساً
مؤبداً، ويحكم على ماضيهم بالمحو
والنسيان، ويقيد مستقبلهم بالأغلال التي
يصنعها» مصطفى صادق الرافعي
(بتصرف)

«إن اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن
أغراضهم». ابن جنّي

«... العربية لغة رائعة، وهي لغة
الملايين من الناس، ولا نكون نحن أنفسنا
إذا تخلينا، نحن لبناني القرن العشرين، عن
طموحنا إلى أن نعود سادتها كما كنا لمئة
عام خلت، بل يجب أن تبقى معرفتها
وتعليمها على مستوى غاية في الرفة،
طموحاً شرعياً لنا، بحيث يستقيم لنا، إلى
الاحتفاظ بسمعتنا بين أهلها ومكانتنا منهم،
أن نستمر في إمداد العالم العربي بأعظم
أدبائه، وأعظم صحافيينه وأعظم شعرائه». .

ميشال شيجا

«... واذهب إلى ما يريك العقل... العقل
هو الحجة... وما الاستبانة الصحيحة إلا
للعقل إذ كان زماماً على الأعضاء، وعياراً
للحواس». الجاحظ

«من ينقذ عليك كمن يؤلف معك» الشيخ

عبد الله العلايلي

«... لا أتلقى على الإطلاق شيئاً على أنه
حق ما لم أتبين بالبدهة أنه كذلك، أي أن

اللغة العربية هي لسان المجتمع العربي، وأداة فكره وعقله، ووسيلة التعبير عن وجدانه وحسّه وذوقه. وهي المنفذ الأساسي الأول لحياته بكل أسرارها وتفصيلها. ولقد أصبحت اللغة العربية، بما تحمله من إرثٍ فنّيٍّ وأدبيٍّ، تُشكّلُ بُعداً أساسياً مهماً من أبعاد الهوية العربية، بعد أن غيرت الحضارة الحديثة هويتها، وأحاطتها بقوالب جديدة، ما ترتّب عليه، أن أصبحت المحافظة على اللغة مسؤولية، لا بدّ من أن يتصدّى لها أبنائها الغيّر على سلامتها، ولن يتمّ ذلك إلا من خلال ربط حاضرها بماضيها برباط لا تنفصم عراه، وبهذا تتحقّق أهمّ دعامة في ديمومتها، ولكي نتعرّف على هوية أمة، يجب التعرف أولاً على إرثها الأدبي، الذي وعاءه اللغة. ولكي نفهم أدب أسلافنا، لا بدّ لنا من معرفة لغتهم معرفة جيدة، فنعرف كيف كانوا يفكرون، وفيهم يفكرون؟ فضلاً عن أنّ إدراكنا بقواعد اللغة بكافة جوانبها، سيمدّنا بإحساس بالمتعة من خلال استحضارنا للصور والتراكيب والألفاظ التي تضمّنتها أشعارهم وآدابهم، حيث نعيش من خلالها في أجواء جديدة، فننتعرّف على معالمها وأسرارها، وعلى الطريقة التي عاش فيها أهلها.

ويُقصد بالفصحى لغة الكتابة التي تدوّن بها المؤلفات، والصحف، والمجلات، وشؤون القضاء، والتشريع والإدارة، وينظم بها الشعر، ويؤلف بها النثر الفنّي^(١)، واللهجة العاميّة هي تلك الكلمات المستعملة في الحديث اليومي، والمحرفّة عن اللغة الفصحى، خارجة عن الخط العربي القويم، واللسان العربي السليم^(٢).

إنّ شريحة كبيرة من الكتّاب والأدباء والمهتمّين بصناعة الكتابة قد دخلوا هذه اللعبة البهلوانيّة التحديّية للغة العربيّة. وبات همهم كسب جماهير الناس، وما يروّجون من تصفيقٍ وتطليلٍ وتزويرٍ على حساب الفنّ، واللغة، وشرعة الكتابة، والنتاج الأدبي الراقي. وغدا الرّوادّ وعباقره للغة - متخلّفين عن مواكبة العصر ومتطلّباته.

وبما أنّ اللغة أداة حيويّة للتواصل بين البشر، فإنها تتأثّر وتتطوّر بشكل دائم، وتطرأ عليها تغييرات عديدة بهدف تلبية حاجات الأفراد في كل زمان ومكان، وتتوافق مع أغراضه، وحاجاته، ومستجدّات العصر، ولذا، فإنّ لغة العصر الإسلامي تختلف عن لغة العصر الجاهلي، ولغة العصر العباسي تختلف عن لغة العصر الإسلامي، وإن كانت أسس اللغة وقواعدها ثابتة.

(١) مجد الباكير، مشكلات اللغة العربية المعاصرة، ص ٥٥.

(٢) عبد الله الأنصاري، الشعر العربي بين العامية والفصحى، ص ٦٣.

كثيراً عن قواعد العربيّة الفصحى، فضلاً عن ذلك فهي تستخدم حروفاً خاصاً، عبارة عن مزيج من الحرف العربي والحرف اللاتيني «الإنكليزي»، وكذا تختلط فيها الحروف بالأرقام.

فمن الطبيعي أن تتأثر اللغة العربيّة متأثراً كبيراً في عصرنا الحديث، فتواكب الثورة التكنولوجيّة الهائلة في عالم الإنترنت والبرمجيّات الحديثة، ومن أبرز هذه الوسائل: «تويتر، والفيس بوك، والواتساب، وغيرها»، حيث طرأت تغييرات عدّة على اللغة - وبخاصّة العاميّة المحكيّة - وقد شملت مستويات اللغة كافة: نحويّاً، وصرفيّاً، وصوتيّاً، ودلاليّاً.

لذلك، لا بدّ من إعادة ترميم وإصلاح ما فسد وتصدّع في عالم اللغة جماليّاً، وأدبيّاً، ولغويّاً، وفنّيّاً، وتأهيل القيّمين عليه، ولا سيّما المدرّسين، والمعلّمين، والأساتذة، وترويج المطالعة، والتشجيع عليها.

وقد دعا - جماعة من الغيارى على اللغة العربيّة - من أجل تأليف هيئة الحفاظ على اللغة العربيّة والدفاع عنها، وإلزام رجال الحكم والسياسة تعلّمها وإتقانها. وإنّ عقد المؤتمرات والندوات اللغويّة العربيّة، والأمسيات الشعريّة والأدبيّة قد يُعيد الاعتبار إلى اللغة العربيّة ومكوّناتها الجماليّة والأدبيّة والفنّيّة، حتى العليّة. تبدو حجج الداعين إلى العاميّة ما يلي:

وفي عصرنا الحديث، برزت ألفاظ جديدة، وتراكيب ودلالات مستحدثة، غزت ميدان اللغة؛ وبالأخص المستوى العامّي الذي يتمتّع بقدر أكثر من الحرّيّة، ولا يتقيّد بكثير من القواعد الصارمة التي يتسلّح بها المستوى الفصيح. وصار «كل ما هو إفرنجي برنجي» قاعدة تأخذ بها أجيال ما يُسمّى «أجيال الشباب»، أو «أجيال شباب العصر»، حتى صار استخدام اللغة الصحيحة الراقية «دُرَجَة» (Mode) قديمة، وموضوعاً أثريّاً. وصار الخطأ صواباً، عملاً بمقولة: «الخطأ الشائع» وهو صاحب التداول والاستعمال. كما أنّ هناك من يقول: «إنّ اللغة العربيّة الفصحى ليست لغة عصريّة مواكبة منجزات العصر». فيُلاحظ نشأة مستوى لغويّ جديد يناسب وسائل التواصل عبر الإنترنت، واشتهر باسم «اللغة الشبابيّة»؛ وأعني تلك اللغة المستخدمة بين فئات الشباب «من ١٥ إلى ٣٥ عاماً» الذين يتبادلون الأحاديث الحواريّة والنقاشات عبر وسائل التواصل الاجتماعي التي أصبحت ملتقى لهم يتحدثون فيه بحريّة تامّة، كما يتناقشون حول كثير من القضايا العامة ذات الطابع السياسي، أو الثقافي، أو الاجتماعي، أو الديني، وبالطبع فهم في هذه الحوارات يستخدمون لغة خاصة بهم، لها خصائص صوتيّة، وصرفيّة، ونحويّة، ودلاليّة، تختلف

وتغليب العاطفة على العقل كما هو الحال في البلاغة العربية والتعليم الخاطيء للتلاميذ بالناية بالقشور العاطفية وترك اللباب، أو نعلمهم النناية بالإنشاء^(٥).

ومن أدلة المعارضين للعامية :

- العامية لغة فقيرة، تفتقر إلى العديد من المفردات، فضلاً عن أن ألفاظها مبعثرة، وتكاد تنحصر على الكلمات الضرورية اللازمة للكلام الاعتيادي، ولا تستطيع التعبير عن المعاني الدقيقة، ولا تفي العلوم؛ لأنها تحتاج إلى لغة منظمة^(٦).

- من أسباب الدعوة إلى العامية هي عوامل عرقية سياسية قومية بحدود الدولة الواحدة، وهي مناداة بعزل كل جزء من أجزاء الوطن العربي، وكان الأولى المناداة إلى تسهيل أصول اللغة العربية لتصبح في متناول العامة من الناس، ليساعدوا على ربط أبناء هذه الأمة^(٧).

- العامية عمرها قصير عكس الفصحى؛ لأن كل شيء لا يقوم على أصول، ولا يستند إلى نظام وقواعد، لا يمكن له البقاء، ولا يؤدي إلى خدمة الحياة^(٨).

- العامية تعيش بيننا في حياتنا اليومية عيش السلطان، وبها اليسر لأنفسنا، فالفصحى تجشّمتنا كلغة التعلّم، والعامية في متناول أفواهنا لا عسر فيها^(١).

- إنّ العربية الفصحى خرساء، لأننا جعلناها لغة الكهان، جامدة على عكس اللغات الإنجليزية، والألمانية والفرنسية الناطقة في مئة وعشرين علماً وفناً، فهناك انفصال بين اللغة والمجتمع، ونحن ورثنا كلمات قديمة كانت تعبّر عن حاجات المجتمع وقتئذٍ^(٢).

- مثلما قبلنا الكلمات المولدة علينا قبول الكلمات العامية التي نجد في بعضها أبين في الدلالة، وأقوى في التأدية، وأسرع في التأثير^(٣).

- الكلمات العامية هي كلمات وطنية عربية وصقلتها ألسنة عربية، فبين العامية والفصحى ستار موهوم، علينا أن نجلو غشاوته عن العيون، ولنسمّها العامية الفصحى^(٤).

- من أضرار اللغة أنّها تسمّي الإنسان بالكافر والنجس، والتركيز على المترادفات،

(١) مجد الباكير، مشكلات اللغة العربية، ص ٨١ وما بعدها.

(٢) سلامة موسى، البلاغة العصرية واللغة العربية، ص ٤٣.

(٣) مجد الباكير، مشكلات اللغة العربية، ص ١٩٦. (٤) مجد الباكير، مشكلات اللغة العربية، ص ٢٠٦.

(٥) سلامة موسى، البلاغة العصرية واللغة العربية، ص ٥٠ وما بعدها.

(٦) مجد الباكير، مشكلات اللغة العربية المعاصرة، ص ٦٠-٦١.

(٧) عبد الله الأنصاري، الشعر العربي بين العامية والفصحى، ص ١١٩.

(٨) المصدر نفسه، ص ١١٦ وما بعدها.

- العامية بيئتها محدودة، منعزلة، متأقلمة، منطوية على نفسها حتى يدركها الموت فتموت. على عكس اللغة السليمة، التي حفظت الحضارة^(١).

فاللغة العامية لغةً انفعاليةً بسيطة ساذجة عاجزة عن التعبير عن الفكر الراقى والعلوم الراقية والتفكير المنطقي المهدّب... وليس أدلّ على ذلك من أننا في أحاديثنا العادية اليومية إذا كنا نعالج قضية فلسفية، أو علمية، أو أدبية، نرى أنفسنا نستخدم العبارات الفصيحة، من دون قصد، للتعبير عن أفكارنا بمنطق، ورُقّي، ودقّة.

وقد تباينت آراء الباحثين إزاء اللغة الفصحى بين مؤيد ومعارض، ولكلّ حججه، وكانت النتيجة لهذا الصراع أنّ الفصحى قد شربت كأس النصر، وفشلت الدعوة إلى العامية كبديل للفصحى لعدّة أسباب منها:

١ - «إنّ القرآن الكريم حفظ لهذه اللغة حياتها وديمومتها.

٢ - إنّ العرب تمسّكوا بلغتهم لأنّهم يعيشون صراعاً مقارناً بين الماضي المشرق والحاضر المتخلّف عن الركب العالمي المتطوّر، فأرادوا التمسّك باللغة العربية الفصحى لجمع شملهم تحت هويّة واحدة، فهو سبب نفسي حديث قديم، بعد

التشتت، ليحلّ محلّه وحدة اللغة العربيّة للوطن العربي»^(٢).

أمّا الكتابة بالحرف اللاتيني فهذا أمر مستغرب، فلنا من حرفنا العربيّ من الجمال والأناقة والمنطق ما يميّزه ويجعله صالحاً لنا. وإذا كان البعض يحلو له الكتابة العربيّة بالحرف اللاتيني، نترك للردّ عليهم قولاً لمستشرق فرنسيّ هو شارل بلاّ الذي قال: «قد تجاوز بعض الناس الحقّ إلى الباطل، فاقترحوا استبدال الحروف اللاتينية بالأبجدية العربية. ولكنّي أعتقد أنّ مثل هذا المشروع مكتوبٌ عليه الفشل، لأنّ العربيّة غيرُ التركيّة، وأيقننت أنّ الخطّ العربيّ سيدوم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها...» فإذا كان هذا قولاً لغربيّ، فكيف بالعرب الغيارى على لغتهم؟!

ينبغي أن ندعم العربيّة بما يلي:

- الاهتمام بعقد المؤتمرات، أو الندوات الأدبية، فتفتح آفاق الفكر أمام الحضور والمشاركين، وتخصب أذهانهم وقرائحهم، وتهيئهم لعطاءات وإبداعات فكرية جديدة غير محدودة، وذلك بما تتيحه لهم من فرص التلاقي والحوار والمناقشة وتبادل الأفكار والمعارف والخبرات وإثارة التساؤلات حول الموضوعات المختلفة، مما

(١) المصدر نفسه، ص ٦٣.

(٢) تحسين عباس، الشعر العربي بين الفصحى والعامية، مجلة دواة، جامعة الكوفة، كلية الآداب، ص ٤٤.

يدفع الطلاب، أو المقتدرين منهم إلى مزيد من التأمل والبحث والتقصي والتدقيق في تفاصيل المسائل التي تطرح، والسعي لبلورتها وإنضاجها وإخصابها لتكتسب أبعاداً جديدة مبتكرة.

- تسيير النحو في المدارس والجامعات، والعمل على تحديث المناهج كي تواكب العصر، إذاً إعادة النظر في مناهج تعليم اللغة العربية دورياً لتواكب المستجدات في طرائق التدريس وفي المضامين المعرفية.

- توجيه الأساتذة في المدارس والجامعات بالتحدث بلغة فصيحة لما له من تأثير على طلبتهم، والعمل على إعداد المعلمين وفق تدريب مستمر، على قاعدة تمهين التعليم ووفقاً للرؤية الجديدة لوظيفة المعلم القائمة على التحفيز والتنشيط والتنسيق وإدارة العملية التعليمية التي يبقى التلميذ فيها هو المحور، والساعي إلى التعليم الذاتي، والباحث عن المعرفة بدفع من المعلم وإشرافه وتقويمه.

- حاجتنا لأن نحيي مصادر التراث في لغتنا من الاشتقاق والتعريب والنحت وغيرها ما دمنا نستورد التقنية العلمية.

- النهوض باللغة العربية يحتم علينا النظر إلى هذا الأمر بما يتجاوز «لغويته» إلى «حضاريته».

- سنّ قانون سلامة اللغة العربية في كافة الدوائر الرسمية والخاصة، والعمل

على نشر الثقافة العربية ومن ضمنها اللغة العربية، من خلال إنشاء مراكز ثقافية عربية في أماكن التأثير السياسي والاقتصادي والثقافي في العالم.

- العمل على تعزيز المحتوى الرقمي العربي على شبكة الانترنت كمّاً ونوعاً، بهدف تلبية الاحتياجات المعلوماتية للمستخدمين العرب للشبكة العنكبوتية.

- الاهتمام بالبرامج الموجّهة إلى الأطفال والناطقة بالعربية المبسّطة في مجمل البثّ الإعلامي العربي، شرط ألا تستهدف هذه البرامج ردم الهوية بين الفصحى والعاميات بالاعتماد على العربية الأساسية.

إنّ لغتنا العربية كبقية اللغات مثل الكائنات الحية تنمو وتتطور، والعربية كانت مثلاً لمرونتها، وتعبيرها عن الواقع الإنساني، فأثرت وتأثرت في المفردات، ولكن قوة اللغة تُقاس بقوة أهلها والعكس بالعكس.

فلنغدُ حدثيين وتراثيين في آنٍ معاً، سَدَنَةً في هيكل اللغة العربية ومحرابها، أمناء على قواعدها وأصل استخدامها... وليكن شعارنا قول الشاعر الفرنسي «أندريه سينيه»: «فلنكتب أفكاراً جديدة بلغة قديمة». أي كلاسيكية جميلة صارمة صريحة وراقية، أي عربية خالصة. وذلك كله من أجل اللغة العربية ومستقبلها، وإنسانها.

مقالة تاريخية العائلة الجنبلاطية

ناهدة مصلح

التي تعصف ببلبنان وبعض المناطق المجاورة له.

انطلاقاً مما تقدّم، تطرح إشكالية صمود العائلة الجنبلاطية نفسها! فما الذي أعطاهها طابع الاستمرارية في جبل لبنان - مدّة أربعة قرون - رغم كل التغيّرات والنكبات التي ألمّت بها؟ وما هي الجوانب الخفية في قواها الذاتية وفي أساليب عملها وتحالفاتها التي ساعدتها على البقاء والاستمرار؟

أهو الغنى المادّي والحيّزة على ملكيات عقارية واسعة وعدد كبير من الموالين والمؤيدين؟ أم هي مُهادنة آل جنبلاط للدولة العثمانية وسلطات الانتداب من بعدها، ورغبة أولئك بالإبقاء عليهم، كأطراف نزاع ومنافسين لغيرهم من العائلات المقاطعية، ومصدر للمال والرجال عند الحاجة؟ أم هي سياسة النخب الجنبلاطية التي توالى على الحكم، وتُصاف رجالها بالحنكة والشجاعة وبعد النظر، بدليل استمرارهم كمُحرّك أساسي في سياسة البلاد حتى يومنا هذا؟

المقدّمة

أسرة عريقة وقديمة، تمكّنت من ترك بصماتها وأثارها الواضحة في جبل لبنان، وقد لعبت دوراً بارزاً في تسطير أحداثه، فطبعت تاريخه ومحيطه بطابع الأسرة الجنبلاطية وغرضيتها، وهي وضعيّة لم تستطع سائر الأسر الأخرى، حتّى المنتمية إلى السلم المقاطعي الطبقي الأعلى، من تحقيقه أو تسجيل أي تفوّق ملحوظ عليها، فقد احتلّت الأسرة مكانة رفيعة في السياسة، وكان لأبنائها دور فاعل في معظم الأحداث، فلم يغيب ذكرهم يوماً عن مجرى سياسة البلاد وإدارة شؤونها وتصريف أمورها، وقد أنجبت عدداً كبيراً من الساسة والزعماء ورجال الفكر والعلم والثقافة... ومنذ أوائل القرن السابع عشر وحتّى يومنا هذا، لا زال في مخزونها ما يُجدّد حضورها وتقدّمها في كل المفاصل التاريخية التي يمرّ بها لبنان، إن على المستوى السياسي أم الاقتصادي الاجتماعي، وخصوصاً في الأزمات الحادّة

الجدور التاريخيّة للعائلة

لقد ظل نسب العائلة الجنبلاطية، موضع تجاذب بين الباحثين، رغم مرور زمن طويل على ظهورها على المسرح السياسي للمناطق الشماليّة الغربيّة من بلاد الشام، كما اختلف المؤرّخون في نسبها بين مدّع أنه يعود إلى الأكراد الأيوبيّين من آل جنبلاط الذين حكموا «كلس» في تركيا وحلب في شمال سوريا، وآخرين حاولوا إثبات نسبها إلى الأسرة الهاشمية من سلالة عباس بن عبد المطلب بن هاشم، ثمّ إلى آخرين نسبوا جذور الأسرة إلى أحد أمراء العشائر التنوخية، مُستعينين لإثبات نظريّتهم تلك، بالمصاهرة التي تمّت بين علي بن رباح بن جنبلاط والشيخ قبلان التنوخي حيث كانت تلك المصاهرة فاتحة لتأسيس الزعامة الجنبلاطية في بلاد الأشواف^(١).

هذا ولم يساعد مفكّرو الأسرة الجنبلاطية على حسم إشكاليّة نسبهم، حتّى أن أبرز شخصياتهم وهو المفكّر كمال جنبلاط، لم يكن له رأي حاسم في هذا الموضوع، عندما اعتبر أن «جانبولاد» هو الاسم الكردي للعائلة الجنبلاطية، ولم يقل

أن العائلة كرديّة^(٢)، وهكذا ظلّت الفرضيات الثلاث موضع نقاشٍ وتداول.

إن القول بكرديّة العائلة الجنبلاطية لم يأت من فراغ، فأغلب المصادر التاريخيّة تؤكّد الجذور الكرديّة، حيث اعتُبر آل جانبولاد من سلالة الأمراء الأكراد الجلاليين، الذين أثّرت فيهم دعايات الشيعة في إيران والعراق، وكان لصراعهم مع السلطة العثمانية، أثر تدميري عليهم، خصوصاً بعد معركة العمق التي خاضها علي باشا جانبولاد سنة ١٦٠٧ ضد القوات العثمانية، وأسفرت عن هزيمته وتلاشي حكم أسرته، وتفرّق أفرادها في أنحاء مختلفة من بلاد الشام^(٣)... مع ذلك فإن المسلمين بكرديّة الأسرة الجنبلاطية، خرج منهم من يقول إن جذور هذه الأسرة، كانوا حُكماً على الأكراد، لكنهم لم يكونوا أكراداً بل عرباً، وذلك بالاستناد إلى أن عربشاه، أحد جدود آل جنبلاط، كان حاكماً في بلاد الأكراد، وكان يُلقّب بابن عربو، وإن معنى عربشاه هو السيّد العربي، الأمر الذي ينفي مقولة كرديّة هذه العائلة^(٤)، فضلاً عن أن عبارة «آل حمزة آل عباس» التي خطّها

(١) رياض غنّام: سعيد بك جنبلاط ١٨١٣ - ١٨٦١، دار معن بيروت - لبنان، ٢٠١٥، ص ١١.

(٢) كمال جنبلاط: هذه وصيّتي، مؤسسة الوطن العربي للطباعة والنشر، باريس ١٩٧٨، ص ٤٠.

(٣) إحسان النمر: تاريخ جبل نابلس والبلقاء، حوادث عهد الإقطاع، مطبعة ابن زيدون، دمشق ١٩٣٨، ص ٢٢.

(٤) طئوس الشدياق: أخبلر الأعيان في جبل لبنان، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت ١٩٧٠، ص ١٣٧.

جنبلاط بن قاسم على قبة جامع كلس عام ٩٧٥هـ، وتوقيع علي باشا جانبولاد على المعاهدة التي جرت بينه وبين غراندوق توسكانة، وذلها بعبارة «خادم الله، حاكم سوريا، علي بن أحمد بن جانبولاد من سلالة عباس رضي الله عنه» أمرٌ يؤكد أيضاً عروبة هذه الأسرة وانتمائها إلى الهاشميين العباسيين^(١).

قدومهم إلى جبل لبنان

لقد توافق المؤرخون على اعتبار جنبلاط بن سعيد جنبلاط، رأس الأسرة الجنبلاطية، وواضع لبنة زعامتها في بلاد الأشواف، سواء أكان وافداً من شمال سوريا هرباً من العثمانيين بعد هزيمة علي باشا جانبولاد في معركة العمق، أم أنه أحد أمراء العشائر التنوخية... لكنهم اختلفوا حول مسألة تاريخ قدومه إلى هذه البلاد، وقد تضاربت الآراء بين ثلاث تواريخ «١٦٠٧، ١٦١٢ و ١٦٣٠» فمن اعتمد التاريخ الأول، استند إلى خلو المصادر التاريخية من أي ذكر للجنبلاطيين قبل ذلك الوقت، فضلاً عن أنه تاريخ هزيمة علي باشا جانبولاد وتفرق

أتباعه... ومن أكد التاريخ الثاني، فقد استند إلى حادثة وقعت في قلعة شقيف أرنون عام ١٦١٢، أما من اعتمد على التاريخ الأخير فربما يكون قد استند إلى معرفته بانتقال جنبلاط مع ولده رباح إلى مزرعة الشوف عام ١٦٣٠... لكن المرجح هو أن قدومه يقع ما بين سنتي ١٦٠٧ و ١٦١٢، دون أن ننفي استمرار قدوم بعض الجنبلاطيين إلى هذه البلاد حتى سنة ١٦٣٠، كونهم توافدوا إليها على دفعات متعددة^(٢)، مع الإشارة إلى أرجحية قدوم جنبلاط بن سعيد جنبلاط على الأمير فخر الدين في بيروت، قبل معركة العمق بمدة قصيرة، أي قبل ١٦٠٧م، يوم كان فخر الدين على تواصل مع علي باشا جانبولاد وفتح الشام معاً^(٣)، بدليل أنه كان متمهلاً، فجلب معه ابنه وثروته ومن يلوذ به من العائلات كآل سليم ونصرالله وغيرهم^(٤)، وهذا ما لا يستطيعه من يكون هارباً من الموت وعلى عجلة من أمره، أضف إلى ذلك أن الأمير فخر الدين، ما كان ليتجرأ على استقباله لو كان عدواً للعثمانيين، لأنه هو نفسه كان موضع شبهة من قبلهم^(٥).

(١) محمد خليل الباشا: معجم أعلام الدرّوز، الدار التقديمية، المركز الوطني للمعلومات والدراسات، المختارة ١٩٩٠، ج ١، ص ٣١٨٣٢٢.

(٢) المرجع نفسه: معجم أعلام الدرّوز، ج ١، ص ٣٢٢ وأيضاً ج ٢ ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٣) المرجع نفسه: معجم أعلام الدرّوز، ج ١، ص ٣٢٢.

(٤) رياض غنّام: الشيخ علي جنبلاط ١٦٩١ - ١٧٧٨، دار بلال للطباعة والنشر، ٢٠١٧، ص ٢١.

(٥) معجم أعلام الدرّوز، مرجع سابق، ص ٣٢٢.

آل جنبلاط والسياسة

برز حبّ آل جنبلاط للوجاهة وميلهم للسياسة، منذ مجيئهم إلى البلاد، فتعاطوا شؤونها، واضطلعوا بأمورها، فاتّجّعت إليهم الأنظار، كساسة لا يمكن تجاهلهم أو إنكار وجودهم، ساعدهم في ذلك، ما تمتّعوا به من غنى وجاه وكرم وحنكة في الملمّات، فاستقطبوا المؤيدين وجمعوا حولهم الأعوان، وباتوا مكوّناً أساسياً في البلاد، له أثره وتأثيره في الأحداث... ولقد توالى على كرسي الزعامة، العديد من الشخصيات البارزة والمهمّة، فكانوا للتاريخ صنّاعاً، وللبلاد أساساً، وللجبل دعامة... بيد أن المجال هنا، لا يتسع لذكر الجميع، لذا سأقتصر الكلام على من كان لهم دور بارز في الحياة السياسية والاجتماعية، منذ مجيئهم إلى لبنان وحتّى يومنا، وذلك بعد تقسيم المراحل إلى مجموعة عناوين.

الجنبلاطيون في العهد الإقطاعي

جنبلاط بن سعيد بن مصطفى بن حسن بن جنبلاط «مؤسس العائلة»
وصل آل جنبلاط إلى هذه البلاد إبان العهد الإقطاعي، وتحديداً خلال حكم الأمير

فخر الدين المعني الثاني الكبير، وكان الكلام - قد سبق - عن اعتبار جنبلاط جنبلاط مؤسس العائلة في لبنان، وقد قدم من حلب إلى بيروت في أوائل القرن السابع عشر، يرافقه ولده رباح وجماعة من رجاله، فرحب بهم الأمير المعني، صديق علي باشا جانبولاد وحليفه، وقرب إليه الشيخ جنبلاط لشجاعته ومروءته، وما كان بينه وبين علي باشا من صلات، فعينه محافظاً على قلعة شقيف أرنون في سنة ١٦١٢م، وحصل أنّ يزيك بن عبد العفيف العماد، كان يقوم في إحدى المرّات بتنفيذ مهمّة عسكريّة هناك، فوقع خلاف بينه وبين الشيخ جنبلاط، ويبدو أن الأخير قد عنّفه كثيراً وسجنه، وهو حظي لدى الأمير، الذي تدخل لمصلحة يزيك وأمر بسجن جنبلاط^(١)، وعقب تلك الحادثة، انتصر فريق ممن كان في القلعة للشيخ جنبلاط جنبلاط، وعرفوا بالجنبلاطيين، وانتصر آخرون للشيخ يزيك العماد، وعرفوا باليزبكيين^(٢) - وتلك الحادثة، تتعارض مع تحديد طنوس الشدياق لمجيء الجنبلاطيين إلى البلاد عام ١٦٣٠ - لكنها أضعفت الشيخ جنبلاط، وحدّت من دوره السياسي، خصوصاً بعد انتهاجه سياسة مغايرة لسياسة المعنّيين،

(١) أحمد بن محمد الخالدي الصفدي: لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني، منشورات مديرية المعارف العامة والفنون الحديثة، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٣٦، ص ٣٢ و ٣٦.

(٢) كمال جنبلاط: هذه وصيّتي، مرجع سابق، ص ٤٤ - ٤٥.

ووقوفه إلى جانب أحمد حافظ باشا قائد الحملة العثمانية، الذي قدم للاقتصاص من الأمير المعني بسبب نزوعه نحو التوسع وعلاقته مع الغرب خلافاً لإرادة السلطان^(١).

هكذا، أدت علاقة جنبلاط السليبية بالمعنيين إلى انصرافه عن السياسة والشأن العام، وكان قد ابتنى داراً واسعة في مزرعة الشوف سكنها عام ١٦٣٠م. وأقام منزلاً للضيافة أنفق عليه من ماله الخاص، مولياً اهتمامه لاستصلاح الأراضي والإشراف على الأعمال الزراعية، وبعد وفاته عام ١٦٤٠م، تابع ولده الوحيد رباح إدارة الأملاك التي ورثها عن والده، منصرفاً عن الاهتمام بالسياسة، وتوفي عام ١٧٠٠م عن ثلاثة أولاد هم علي وفارس وشرف الدين^(٢).

جنبلاط، علي بن رباح بن جنبلاط بن سعيد (١٦٩٠م - ١٧٧٨م)

وُلد في أواخر القرن السابع عشر في نحو ١٦٩٠م، ونشأ في بيت الوجاهة والثروة، فورث عن جدّه الزعامة والجاه،

وعُرف بالشجاعة والأريحية والكرم، وبفضل وعيه وحسن إدارته، كثرت أرزاقه وتضاعفت ثروته، وزاد عطاؤه للناس، فالتفوا حوله واعترفوا بزعامته وفضله^(٣).

تزوَّج في العام ١٧١١م من بنت الشيخ قبلان القاضي، حاكم الشوف الذي أوصى بثروته إلى ابنته الوحيدة لأنّه توفي بلا عقب، وقد مهّدت هذه المصاهرة للشيخ جنبلاطي، فرصة ذهبية لترسيخ زعامته في منطفة الأشواف، وجاءت وفاة قبلان بعد أقل من سنتين من منحه التزام جزين، لتطلق فرصة الترقّي المالي والعقاري أمام الشيخ علي^(٤)... كما وقعت معركة عيندارة، فتمخّض عنها تبدّلات في ميزان القوى السياسيّة، وبرزت شخصيّة الشيخ علي جنبلاط كزعامة درزيّة جديدة، قادرة على أن تملأ الفراغ الحاصل على الساحة السياسيّة، وتحافظ على الغنى الهائل الموروث على الصعيد الاقتصادي، وتقود طاقات بشريّة محاربة ولا يُستهان بها^(٥)، ليصبح في أواسط القرن الثامن عشر أكبر زعيم شوفي على الإطلاق، نظراً لما هو

(١) رياض غنّام: الشيخ علي جنبلاط، مرجع سابق، ص ١٣٣.

(٢) معجم أعلام الدرّوز، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٤٠ - ٣٤١.

(٣) المرجع نفسه معجم أعلام الدرّوز، ج ١، ص ٣٨٠.

(٤) رياض غنّام: الشيخ علي جنبلاط، مرجع سابق، ص ٣٦.

(٥) مسعود الضاهر: الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ١٦٩٧ - ١٨٦١، معهد الإنماء العربي بيروت ١٩٨١، ص ٨٩.

عليه من غنى في الممتلكات، وقوة في الرجال، وقد عزز مكانته هذه، من خلال توافقه الدائم مع الغرضية النكديّة وزعيمها الشيخ كليب^(١).

كما كان الشيخ علي مقصداً في البلاد لتسوية كل خلاف يقع بين كبار الزعماء، وكان كلامه مسموعاً وحكمه مقبولاً، ولطالما تمكّن من حل النزاعات والحد من الخلافات، واشتهر أيضاً بتقواه وتسامحه الديني وحمايته للنصارى وبأريحيته تجاههم^(٢)، وقد قام بحكم وصايته المعنوية على مسيحيي الجبل، بمدخلات عديدة للتوفيق بين كبار رجال الدين بسبب تناقضاتهم العقائدية أو نزاعاتهم على المناصب الدينية^(٣)... ورغم كل ذلك، فقد كان معتدلاً في مظهره وكسوته، وعُرف ببساطة العيش، وما إن تقدّم به العمر حتّى انخرط في سلك رجال الدين، فكان لا يأكل ولا يلبس إلا من ماله الخاص على عادة مشايخ الدروز^(٤).

قراية نصف عمرها، وواكب حكم خمسة أمراء من أصل سبعة، وهم: حيدر، ملحم، منصور، أحمد ويوسف، ولم تكن علاقته دائمة الوفاق معهم، كما أنها لم تكن دائمة الخصام، وكان يقوّرها على ضوء مصلحته السياسية أو الاقتصادية أو كليهما معاً، فكان في غالب الأحيان، يدعم ترشيح أحد الأمراء في مواجهة الأمير الحاكم، ويمدّه بدعم من المال والرجال، دون أن يتخطّى شرعية الأمراء الشهابيين في الحكم، ولطالما شكّل مع الأعيان المقاطعيين، تحالفاً صلباً واجهوا به مطامع بعض الأمراء الشهابيين، وتماديهم في السطو والسلطة أو النيل من الأعيان حُكّام المقاطعات، فكان الأمراء أكثر حاجة إلى الأعيان، من حاجة أولئك إلى الأمراء^(٥)، ... وهو ما دفع بقنصل فرنسا في بيروت إلى القول في أحد تقاريره: «إن المشايخ الدروز كانوا يحكمون إمارة الجبل باسم الأمير الشهابي»^(٦).

مات في بعذران في ٣٠ تشرين الأول من عام ١٧٧٨، وله من العمر ٨٧ سنة،

هذا ولقد عاصر الشيخ علي الإمارة الشهابية على مدى سبع وستين سنة، أي

(١) رياض غنام: الشيخ علي جنبلاط، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٢) معجم أعلام الدروز، مرجع سابق، ص ٣٨٣ - ٣٨٤.

(٣) رياض غنام: الشيخ علي جنبلاط، مرجع سابق، ص ١٢٨.

(٤) Documents Diplomatiques, T 2, p 152.

(٥) رياض غنام: الشيخ علي جنبلاط، مرجع سابق، ص ١٢١ - ١٢٣.

(٦) Adel, Ismail, Documents Diplomatiques, T 2, p 151.

فكان له ماتم مهيب حافل حضره الأمير يوسف الشهابي شخصياً، وتولّى السلطة الزمنية من بعده ولداه قاسم في بعدان، ونجم في المختارة، وله غيرهما ثلاثة: يونس وفارس وحسين.

جنبلاط، بشير بن قاسم بن علي بن رباح بن جنبلاط (١٧٧٥ - ١٨٢٥م)

وُلد الشيخ بشير ونشأ في كنف والده نشأة فاضلة، وأخذ منه الجرأة والمروءة والكرم والخلق النبيل، وقد بدأ حياته السياسيّة والعسكريّة مبكراً، فشارك بمعارك عديدة وهو لا يزال بعد في سن الخامسة عشر، وبعد وفاة والده عام ١٧٩٣، اتجهت الأنظار إليه كفارس مغوار وصاحب جاهٍ ومال... وقد أجمع المؤرّخون على العلاقة الحميمة والوطيدة التي جمعت بينه وبين الأمير بشير الشهابي، معتمدين على الأحداث التاريخيّة التي شهدها الربع الأول من القرن التاسع عشر، فالأمير بشير وُلّي وعُزل عدّة مرات، وسُجن ولوحق واضطهد من قبل الولاة العثمانيّين عدّة مرات، ووقع في المتاعب والدسائس والمشاكل، وفي هذا كله، وفي أخرج المواقف وأخطرها، كان الشيخ بشير الزعيم الثري، القوي والواسع النفوذ، يقف إلى جانبه، ويسانده ويسدّ خلّته ويشدّ أزره بماله ورجاله، ويُسجن معه إذا

سُجن، ويُشرّد معه إذا سُردّ، وكثيراً ما وضع روحه في كفّه في سبيله، فضلاً عن أن دور آل جنبلاط، هُدّمت ونُهبت وحُرقت عدّة مرات وصودرت أملاكهم وغلّالهم واضطُهد رجالهم ومحازبيهم... بسبب الأمير الشهابي^(١).

كان الأمير بشير حريصاً على العلاقة الوديّة التي تجمعها بحليفه الجنبلاطي، اعترافاً بفضلها، واستقواء بزعامته وماله ورأيه ورجاله، لكنّه ومع الوقت، بدأ يضيق ذرعاً بهذا الواقع، ولا يستطيع الخروج منه، لأنّه بحاجة إلى الشيخ بشير، فهو الدعامة الأولى لبقائه وتثبيت حكمه، وكان هاجس الاستقلال بالسلطة، يقضّ مضجعه، ولطالما استعمل سلاح الفتنة، ليضرب بين العائلات الإقطاعيّة، كالنكديّين والتلاحقة والأرسلانيّين والعماديّين وغيرهم، والشيخ بشير يقدّم له التغطية السياسيّة ويمدّه بالدعم المالي والعسكري كلما اقتضت الحاجة.

بيد أن وقت اتضاح النيّات وانقلاب الأمور، كان لا بد له من الحلول! فالأمير الشهابي يريد الاستقلال بالسلطة والقرار، والشيخ الجنبلاطي يهّمه الإتيان بأمير ضعيف يخضع لمشيئته. وقد اعتُبر صراع عبدالله باشا «والي صيدا» ودرويش باشا

(١) معجم أعلام الدرّوز، مرجع سابق، ص ٣٢٧.

فبعث رسولا إلى محمد علي باشا، يناشده التدخل، فاستصدر الأخير فرماناً من السلطان بقتل الشيخين بشير وأمين العماد، ما اضطر عبدالله باشا لقتلهما قي ١١ حزيران ١٨٢٥م، وكان عمر الشيخ بشير خمسين عاماً، تاركاً خمس بنين هم: نعمان، سعيد، اسماعيل، قاسم وسليم، وقد كان الأخيران برفقة والدهما، فتمّ سجنهما في عكا مدة سنتين، ثم توفيا لاحقاً بداء الطاعون... وبموت الشيخ بشير انتهى تاريخ رجل، كان شجاعاً، سخياً، غيوراً، سديد الرأي، ذا حمية ومروءة، تاركاً وراءه أعمالاً جلييلة، أكسبته لقب عمود السماء^(٢).

جنبلاط، سعيد بن بشير بن قاسم بن علي (١٨١٣ - ١٨٦١م)

ولد سعيد جنبلاط عام ١٨١٣م في بلدة المختارة في ذروة مجد والده بشير، لكن الجبل شهد أحداثاً سياسية جسيمة ووقائع دموية، بعد سنوات قليلة من ولادته، حالت دون تلقّيه علوم عصره، وقد أدّت هزيمة والده عام ١٨٢٥م، إلى نكبة الزعامة الجنبلاطية ووضع اليد على عهداتها ومصادرة ممتلكاتها والاستيلاء على ما كان يكتنزه الشيخ بشير من أموال

«والي دمشق» من أجل التوسّع والسيطرة، بداية التحوّل في العلاقات الودّية التي جمعت بين البشيرين زهاء ربع قرن، وانطلاقة مسيرة كلٍ منهما في الاتجاه المعاكس، علماً أن الأمير أيّد عبدالله باشا، بينما أيّد الشيخ، درويش باشا المدعوم من السلطنة العثمانية، الأمر الذي أدّى إلى عزل الأمير بشير عن إمارة الجبل وتولية الأمير عباس أسعد الشهابي مكانه، لكن وساطة محمد علي باشا، عزيز مصر، لدى السلطان العثماني، أثمرت عفواً عن عبدالله باشا، وعزلاً لدرويش باشا، وعودةً للأمير بشير إلى مركز إمارته في أيار ١٨٢٣م، ليبدأ مرحلة جديدة من الانتقام السياسي^(١)، ورغم استقبال الشيخ بشير للأمير في صيدا وزيارته في بيت الدين أكثر من مرّة، إلا أنه لم يطمئن له وعلم صعوبة إرضائه... وهكذا بدأ كل منهما بجمع المؤيدين حوله، ووقعت مواقع عديدة بين الفريقين، انتهت بهزيمة الشيخ بشير وجماعته ولجوئهم إلى حوران، غير أن والي دمشق كان لهم بالمرصاد، فألقى القبض عليهم، ثمّ سلّمهم لعبدالله باشا، فكاد يعفو عنهم، طمعاً بمال الشيخ، وحفظاً للتوازن بين أحزاب الجبل، لكنّ الأمير الشهابي، فطن لمقاصد الباشا،

(١) رياض غنّام: المقاطعات اللبنانية في ظل حكم الأمير بشير الشهابي الثاني ونظام القائمقاميتين ١٧٨٨ - ١٨٦١، دار بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت - لبنان ١٩٩٨، ص ٨٦.

(٢) معجماً اعلام الدروز، مرجع سابق، ص ٣٣٣ - ٣٣٧.

ومدخرات^(١)، وفي الوقت الذي فرّ فيه الشيخ الجنبلاطي مع ولديه قاسم وسليم إلى حوران وتسليمه لاحقاً إلى والي دمشق، كانت زوجته خولا، قد توارت عن الأنظار مع أولاده نعمان، سعيد واسماعيل في بلدة نبحا الشوفيّة القريبة من المختارة، بعد أن غيرت زيّهم وحجّبتهم^(٢)، ثمّ انتقلت بهم خفية، بعد مدّة، إلى حوران ومنها إلى دمشق حيث أقامت فيها حتّى العام ١٨٢٧.

هذا، ولم يطل الوفاق بين حلفاء الأُمس، فسرعان ما اتضحت مطامع محمد علي باشا ورغبته في الاستيلاء على بلاد الشام، مما أزعج عبدالله باشا، ودفعه إلى إعادة النظر بموقفه من أولاد الشيخ بشير، فأطلق سراح المسجونين، واستدعى نعمان، سعيد واسماعيل إلى عكا، وأكرمهم، وأسكنهم في صغد ضمن ولايته، وقد ظلّوا فيها حتى العام ١٨٣٢ ونالوا قسطاً من العلوم... وبعد محاصرة ابراهيم باشا المصري، قلعة عكا، التقى أبناء البشير بالأمير بشير الشهابي، أمام أسوار عكا، فدعاهم للعودة إلى الجبل^(٣)، متناسياً العداوة مع والدهم ودوره في قتله! لكنّ تجربتهم المريرة معه،

لم تطمئنهم، فسافروا إلى مصر حيث عملوا في السلك العسكري المصري، بعد أن أُنعم عليهم محمد علي باشا بالرتب والرواتب، لكن معاناة أهل الجبل من تعسف ابنه ابراهيم، دفعتهم في الفترة الأخيرة إلى الفرار من خدمته والالتحاق بالثوار وتأييد الأمير بشير الشهابي الثالث، لكنّ الأخير ازدرى بهم عند مقابلتهم له وأسمعهم كلاماً يخفض من مقامهم^(٤)، فعادوا إلى المختارة ورّموا قصرهم وحاولوا استعادة زعامتهم، وكان ذلك في العام ١٨٤٠، أي بعد رحيل المصريين، وقد كان من الصعوبة بمكان التفاهم مع الأمير بشير الثالث بإدارته السيئة ومواقفه المعادية لرجال الإقطاع، والأعيان الدروز بخاصة، وقد انتهى الأمر بمحاصرته في دير القمر بهدف إسقاطه وإنهاء حكمه، فناشد المسيحيين لنصرته، وانقسمت البلاد بالتالي إلى فريقين، أولهما مؤيّد للأمير، وثانيهما معادٍ له، ما تسبّب بوقوع أحداث واعتداءات، في مختلف المناطق استمرت لأكثر من ثمانية أشهر، كان هم سعيد بك، خلالها، العمل على تهدئة الخواطر والحوّل

- (١) حيدر الشهابي: الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان، عُني بضبطه ونشره أسد رستم وفؤاد افرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت ١٩٦٩، ج ٣، ص ٧٧٢.
- (٢) طنّوس الشدياق: أخبار الأعيان في جبل لبنان، مصدر سابق، ج ١، ص ١٤٩.
- (٣) حيدر الشهابي: الغرر الحسان، مصدر سابق، ص ٨٣٩ - ٨٤٥.
- (٤) طنّوس الشدياق: أخبار الأعيان في جبل لبنان، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٧٤.

بالإنكليز^(٢)... هذا ولقد شهد ذلك العهد أحداثاً جسيمة عام ١٨٤٥، رافقها قتل وموت ومأسٍ ودمار وحرق ممتلكات، ولم يكن سعيد جنبلاط خلالها طاهر اليدين، كما أنه لم يكن متورطاً حتى الإدانة، فكل ما أقدم عليه كان لشعوره بأن الحرب تستهدف وجوده وكيانه والنظام السياسي الاقتصادي الذي يقوم عليه مجتمعه، خصوصاً وأن الهجوم المباغت للقوى المسيحية عام ١٨٤٥، وصلت طلائعه على بُعد لا يتعدى الكيلومتر الواحد من بلدته المختارة مركز حكمه^(٣)... وقد انتهى عهد القائمقامية كذلك الأمر بحرب الستين والتي فاقت أهوالها حرب العام ١٨٤٥، وقد تكررت فيها تقريباً الأسباب نفسها التي دفعت سعيد بك وغيره من أعيان الدروز للمشاركة بأحداثها، مع ما رافقها من تطرف في ممارستها وقسوة في خوض غمارها... وقد انتهت الحرب بتدخل الدول الكبرى أيضاً وإقرار نظام المتصرفية ومحكمة المشاركين فيها، ومن بينهم عدد كبير من أعيان الدروز وسعيد بك جنبلاط الذي لم تشفع له أعماله العديدة التي حالت دون الفتك بمئات المسيحيين^(٤)، فحكم عليه

دون الانفجار، لكنه اضطر للتدخل وصد الجزينيين عن الشوف، وأهالي بعبدا والأودية عن الشويفات، ما أدى إلى اتهامه بالمشاركة بفتنة ١٨٤١، واعتقاله بالتالي مع عدد كبير من أعيان الدروز من قبل عمر النمساوي الذي استقدمته الدولة العليا لمعالجة الوضع، فما كان منه إلا أن فجره... وقد أدت مفاوضات الدول الكبرى إلى إقرار نظام القائمقاميتين، وقسمة الجبل إلى شطرين: شمالي على رأسه قائم مقام مسيحي، وجنوبي يترأسه قائم مقام درزي، وقد رشح الإنكليز سعيد بك لتولي هذا المنصب، لكن العثمانيين والفرنسيين رفضوه نظراً لقربه من الإنكليز، وتمّ التوافق على الأمير أحمد أرسلان فالأمير أمين ومن ثمّ الأمير محمد أرسلان، وبذلك يكون منصب القائمقام، قد انحصر بالعائلة الأرسلائية، مع ذلك فقد ظلّ سعيد بك منافساً قوياً ومزاحماً للقائمقام الأرسلائي طوال ذلك العهد^(١)، لما تمتّع به من قدرات شعبية وسياسية وغنى مالي وعقاري، ورغم ميل السلطنة إليه في بعض الأحيان، إلا أنها ظلّت تنفر من توليته المنصب، بسبب مخاوفها وحذرهما من علاقته الوطيدة

(١) كمال الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، بيروت لبنان، الطبعة الرابعة ١٩٧٨، ص ١١١.

(٢) رياض غنّام: سعيد بك جنبلاط ١٨١٣ - ١٨٦١، دار معن بيروت-لبنان ١٩١٥، ص ٩٧.

(٣) رياض غنّام: سعيد بك جنبلاط، المرجع نفسه، ص ٩٠.

(٤) شاهين مكاربوس: حسر اللثام عن نكبات الشام، الطبعة الأولى في مصر عام ١٨٩٥، ص ٢٩٥.

بالإعدام، لكنّ الملف نام في أدراج المحكمة الدولية، وكان لمداخلة السلطات العثمانية، ولاختلاف الآراء بين الدول الأوروبية، الأثر الكبير في تمييع الأحكام الصادرة بحق الدروز، فحُفِّضت عقوبة الإعدام عن سعيد بك وآخرين واستُعيض عنها بالسجن المؤبد... وكان أن تدهورت صحّة البك في السجن، وصدر تقرير عن لجنة أطباء عايته وذكرت أنّه مُصاب بسل رئوي بلغ منه درجة عالية ولا يُرجى له شفاء، فسمح له بالعيش في منزله في بيروت وسط حراسة مُشدّدة، إلى أن توفّي في ١١ أيار ١٨٦١، وسط شكوكٍ عديدة بالمرض الذي أصابه على غفلة^(١)!

الجنبلاطيون في عهد المتصرفيّة

جنبلاط، نسيب بن سعيد بن بشير بن قاسم بن علي (١٨٥٥ - ١٩٢٢)
ولد سنة ١٨٥٥م في المختارة، وبعد وفاة والده عام ١٨٦١م، انتقلت والدته إلى بيروت حيث وضعت مع أخيه الأكبر نجيب بك في المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني، فتلقيا قسطاً وافراً من العلوم وأتقنا اللغتين العربيّة والإنكليزيّة...ولما تخرّجاً، عيّنت الحكومة نجيب مديراً للشوف الحيطي، ونسيب مديراً على ناحية الشوف

السويجاني، فقاما بأعمالهما خير قيام، واكتسبا ثقة الأهالي ومحبتهم، ولما تولّى واصا باشا متصرفيّة جبل لبنان (١٨٨٣ - ١٨٩٢) عيّن نسيب بك، رئيساً لدائرة الجزاء الاستئنافية، فسلك في هذا المنصب مسلك العدالة والاستقامة، فازدادت مكانته رفعة عند الدولة والناس...وفي ٢٥ أيار ١٨٨٤، عُيّن قائمقاماً على قضاء الشوف، وكانت المرة الأولى التي يتولّى فيها أحد الجنبلاطيين منصب قائمقاميّة الشوف، منذ إقراره، وبذلك يكون قد تمكّن بفضل ديبلوماسيته واجتهاده، من أن يُعيد الزعامة إلى آل جنبلاط، بعد أن تزعزعت في السنوات الأولى لنظام المتصرفيّة، فالمتصرفون العثمانيون لم يكونوا راضين عن آل جنبلاط، ولم يتسلّم أي منهم، إذنا سلطانيا من الباب العالي لمنصب القائمقام، طوال ثلاثة وعشرين عاماً، وقد انحصر ذلك المنصب بآل أرسلان الذين تمكّنوا من تعزيز مواقعهم في الشوف، بعد ما تضاءل النفوذ السياسي للمختارة^(٢)، وما انفك بعدها، نسيب بك مع الأمير مصطفى أرسلان يترواحان على هذا المنصب قرابة الثلاثين عاماً، وقد أخذ نجم نسيب بك يلمع ومكانته تسمو فنال أوسمة عديدة، ورتباً

(١) رياض غنّام: سعيد بك جنبلاط، مرجع سابق، ص ٢٣٣ - ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٢) إيغور تيموفيتش: كمال جنبلاط الرجل والأسطورة، ص ٢٠.

العائلة الجنبلاطية خلال عهد الإنتداب

جنبلاط، فؤاد بن نجيب بن سعيد بن
بشير بن قاسم (١٨٨٥ - ١٩٢٢)

وُلد في المختارة ونشأ في منزل
الوجاهة والثروة، لكن والده توفي في العام
١٨٩٢، وهو لا يزال في السابعة من عمره،
فتولّى عمّه نسيب الوصاية عليه وعلى أخيه
علي، ووفّر لهما تعليماً خاصاً في المنزل
حتى التحق بالجامعة الأميركية، لكن فؤاد
بك انقطع عن متابعة دروسه لأسباب
صحية، وعندما بلغ أشده، عُيّن مديراً
للشوفيين مكان أخيه علي الذي استقال لكي
ينصرف إلى أعماله وشؤونه الخاصة،
وكان ذلك في العام ١٩٠٦، وقد تميّز
بالصرامة والشدة وحدة الانفعال، وكرّس
حياته القصيرة لخدمة أبناء قومه، وتمكّن
خلال الحرب العالمية الأولى، وما رافقها
من نكبات، من إنقاذ حياة عائلات كثيرة من
الموت جوعاً، وذلك بمساعدتهم وقطع دابر
الاختلاس أثناء توزيع المواد الغذائية، وقد
كان الفساد المستشري بين موظفي الدولة
إبان الحرب يثير سخطه، وقد عمل بلا
هوادة لمكافحته، فذاع صيته في الشوف
لنزاهته وعدله^(١)... هذا ولقد وقع اختيار

متميزة، وقام بأعمال اقتصادية واجتماعية
كثيرة، كما أعيد انتخابه قائماً للشوف
عام ١٩١١، خلفاً للأمير شكيب أرسلان
الذي ارتحل إلى الأستانة نائباً عن حوران...
وكان نسيب بك يتخذ من ولائه للباب العالي
وسيلة لتعزيز مواقع قومه وإعلاء شأنهم،
إلا أنه كان في سريره، شأن والده سعيد،
يتعاطف مع التاج البريطاني، الأمر الذي
أدى إلى تبدل موقف الدولة العليا منه،
عشية الحرب العالمية الأولى، لاعتباره
شخصاً غير موثوق فيه ولا يُعتمد عليه، ما
دفعه إلى تقديم استقالته عام ١٩١٤، وبعد
مجيء الفرنسيين ثم اختيار فؤاد بك «ابن
أخيه نجيب» لمنصب القائمقامية - رغم
كونه الأكبر سنّاً والأحق بالمنصب - فكان
ذلك سبباً لتباعد العم عن أبناء أخيه، فضلاً
عن أن نسيب بك كان من أنصار الإنكليز،
وممن علّق عليهم الآمال بنيل الاستقلال،
وهو لم يتقبّل توجه سياسة المختارة نحو
فرنسا، لأنه شأن الكثيرين من أبناء جيله،
أدرك تماماً أن انزال الفيلق الفرنسي في
لبنان عام ١٨٦١، وما أعقبه من نتائج، أدى
إلى إضعاف الدروز سياسياً وخصوصاً آل
جنبلاط^(٢).... توفي عام ١٩٢٢ ولم يترك
عقباً^(٣).

(١) إيغور تيموفيق، المرجع نفسه، ص ٢٢ - ٢٣.

(٢) معجم أعلام الدروز، مرجع سابق، ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

(٣) إيغور تيموفيق: كمال جنبلاط الرجل والأسطورة، ص ١٩.

ريثما يبلغ ابنها كمال سن الرشد، وكانت المرة الأولى في تاريخ الدروز التي تتولّى فيها امرأة مركز القرار والسلطة.

جنبلاط، حكمت بن علي بن نجيب بن سعيد بن بشير بن قاسم (١٩٠٥-١٩٤٣)

وُلد في المختارة عام ١٩٠٥، وتلقّى علومه في الجامعة الأميركية وتخرّج عام ١٩٢٥ مجازاً في الأدب الإنكليزي، ثمّ انصرف إلى الحياة الاجتماعية والسياسية، وكان والده قد عُيّن مديراً للشوفين مكان أخيه فؤاد بك جنبلاط، وتقرب من الست نظيرة وتزوَّج من ابنتها ليندا.

انتُخب نائباً عن الشوف عام ١٩٣٤، ومرّة ثانية عام ١٩٣٧، وعُيّن وزيراً للزراعة في كانون الثاني عام ١٩٣٨، وكذلك الأمر في آذار ١٩٣٨، ووزيراً للبريد والبرق عام ١٩٣٩، ثمّ صدر مرسوم بتكليفه تأمين الأعمال في وزارة الزراعة بالوكالة، ووزيراً للدفاع الوطني عام ١٩٤١، وللدفاع والصحة عام ١٩٤٢^(٢)... وقد كان عاقلاً ورصيناً في كل أعماله، لكنّه انتهج في السياسة نهج سيّدة قصر المختارة التي كانت ترشده وتوجّهه. توفي في حزيران ١٩٤٣.

الفرنسيّين عليه لتولّي منصب قائممقاميّة الشوف عام ١٩١٩، لكن انقسام الدروز بين مؤيدين ومعارضين للانتداب الفرنسي، أثار المشاكل في منطقة الشوف، وبلغ التوتّر أشدّه بسبب أحداث جبل الدروز، فتزايد نشاط المقاومة السريّة، وتكرّرت الهجمات على المخافر العسكريّة الفرنسيّة، وزاد الضغط على فؤاد بك لوضع حدٍ لها واتّخاذ أقسى الإجراءات لتهدئة الوضع، فقام في إحدى المرات بملاحقة أحد المناوئين للفرنسيّين، فأصيب برصاصة أصابت منه مقتلاً وكان ذلك في العام ١٩٢٢ في وادي عنبال، تاركاً ولدين هما كمال وليندا، وقد تولّتهما زوجته نظيرة بالرعاية... كما توفي نسيب بك في العام نفسه، فانتقلت الزعامة داخل أسرة جنبلاط إلى ابن أخيه علي «شقيق فؤاد» لكنّ السلطة والإيعازات ما كانت تستهويه، فقدّم استقالته من القائمقاميّة عام ١٩٢٣، فعُيّن فايز بن حسين عماد مكانه، وغادر المختارة^(١)، وظلّت كرسي الزعامة التقليديّة شاغرة لدى آل جنبلاط، لأنّ الورثة الذكور كانوا قاصرين آنذاك، فكان قرار الست نظيرة بخوض الصراع السياسي، سداً للفراغ، وحفاظاً على الزعامة الجنبلاطيّة،

(١) إيغور تيموفييق: كمال جنبلاط الرجل والأسطورة، مرجع سابق، ص ٣٠.

(٢) معجم أعلام الدروز، مرجع سابق، ص ٣٥٠ - ٣٥١.

الجنبلاطيون من الاستقلال وحتى يومنا
هذا

جنبلاط، كمال بن فؤاد بن نجيب بن
سعيد بن بشير بن قاسم (١٩١٧ -
١٩٧٧)

وُلِدَ في المختارة في كانون الأول
١٩١٧ وتلقّى علومه في مدرسة عينطورة،
فأتقن اللغة الفرنسيّة، ثمّ انتقل إلى باريس
عام ١٩٣٨، ودرس في جامعة السوربون،
فأحرز فيها شهادتين، الأولى في علم
الاجتماع والثقافة العامّة، والثانية في علم
النفوس التربوي، ثمّ أنهى درس الحقوق في
الجامعة اليسوعيّة ومارس بعدها المحاماة
سنة واحدة في مكتب الرئيس إميل إدّة عام
١٩٤٢^(١).

يُعتبر كمال جنبلاط في طليعة رجال
العلم والثقافة في المشرق العربي، تميّز
بقوة شخصيته وجرأته وبساطة عيشه
وعمق تفكيره ونظرته الفلسفيّة الخاصة في
الحياة، والتي استمدّها من اطلاعه على
الفلسفة اليونانيّة وثقافات الشرق والغرب.

اهتم بالشؤون الدينيّة وحافظ على
مذهبه الدرزي بعد أن أدرك كنه تعاليمه
وأطلع على رسائل الحكمة وشروحها
الكثيرة، كما تأثر بتعاليم القدّيس منصور

دي بول، مؤسس جمعيّة الآباء العازاريين،
الداعية إلى التقشّف والزهد ورعاية الفقراء
والمساكين والأحداث، وجاء اطلاعه على
كتاب المهاتما غاندي «حياتي» وتعاليمه
الداعية إلى اللاعنّف، ليصقل اتجاهه الفكري
والروحي ويبرز في مسلكه المتميّز طوال
سنتين حياته^(٢).

لم يكن يحب السياسة، مما خيّب أمل
والدته الست نظيرة وأثار أسفها، وهي التي
كانت تنتظر طوال سنتين عمرها، اليوم الذي
يكبر فيه كمال، ويحمل عنها عبء زعامة آل
جنبلاط، بعد أن بذلت قصارى جهدها إثر
وفاة زوجها، لتحافظ على ولاء المخلصين
لهم، وعلى مركز الزعامة التاريخي المنوط
ببيت المختارة، وقد قامت بمهمتها خير
قيام، وبعدها انتقلت الزعامة إلى صهرها
الشاب حكمت بك، الذي سار على خطاها،
لكنه توفي في مقتبل العمر، ولم يعد هناك
من خيار أمام كمال جنبلاط سوى تولّي
رئاسة البيت الجنبلاطي، فشارك في
انتخابات عام ١٩٤٣، وانتخب نائباً عن
الشوف، وبعدها تكرّر انتخابه في كل
الدورات، باستثناء عام ١٩٥٧.

أيّد كمال بك، الكتلة الوطنيّة برئاسة إميل
إدّة في انتخابات عام ١٩٤٣، لكنّه عاد

(١) معجم أعلام الدرّوز، مرجع سابق، ص ٣٩٢.

(٢) إيغور تيموفيتش: كمال جنبلاط الرجل والأسطورة، مرجع سابق، ص ٥٤٥٦.

السلطة وانحيازها التام في عملية الاقتراع^(٢)، وقانون الانتخاب الذي أقر في ١١ نيسان ١٩٥٧^(٣)، والذي قسّم الدوائر إلى ٢٨ دائرة صغرى ليسهل على حكومة ذاك العهد الإمساك بزمام الأمور... هذا ولقد تفاقمت الأوضاع، وساءت الأحوال عام ١٩٥٨، فقاد كمال بك النضال أو ما عُرف بثورة ١٩٥٨ التي امتدّت إلى مختلف المدن والمناطق اللبنانية، ضد مشاريع الأحلاف والتجاوزات في الإدارة والحكم، فتولّى قيادة الجبهة الشعبويّة ضد الفساد والانحراف السياسي في البلاد، كما عارض التجديد للرئيس كميل شمعون، وبعد أشهر من القتال، انتهت الأزمة بتسليم اللواء فؤاد شهاب مقاليد الحكم^(٤)، فأيدته كمال جنبلاط بعد أن توسّم فيه خيراً، من جراء سياسته التي عملت على إقامة توازن بين انتماء لبنان العربي واستقلاله، وانتهاج سياسة داخلية عادلة بين مختلف المناطق، كما أمده بكل المقترحات والمشاريع التي كان يرى ضرورة القيام بها في هذا السبيل، وخاصةً مشاريع الضمان الاجتماعي، والمشروع الأخضر ومجلس الخدمة المدنيّة وغيرها... لكنّ تعرّض السياسة الشهابيّة وعجزها عن

ودعم الشيخ بشارة الخوري بعد انتخابه رئيساً للجمهورية، ومنح الثقة لحكومته التي ترأسها رياض الصلح، مؤيداً منهج الرئيس السياسي «بصيغته العربيّة» على الصعيد الخارجي^(١)، لكنّ عجز الحكومة عن تلبية مطالب الشعب، وتدهور الأوضاع الداخليّة، دفعت بالبك الجنبلاطي إلى الانتقال من صفوف الموالاة إلى صفوف المعارضة، فأسس الحزب التقدمي الإشتراكي عام ١٩٤٩، مع عددٍ كبيرٍ من رجالات الفكر والسياسة في لبنان، كما أسس جريدة الأنباء الناطقة باسم الحزب عام ١٩٥١، وقد استطاع بحنكته السياسيّة ووعيه لأبعاد الصراع الداخلي، أن يكون قائداً للجبهة الاشتراكيّة، التي عملت على إسقاط الشيخ بشارة الخوري... بعد ذلك، دعم وبشدة مجيء الرئيس كميل شمعون الذي وصل إلى سدّة الرئاسة الأولى، لكنّ الأخير عمل على تكرار أخطاء سلفه في الحكم والإدارة وربط البلاد بالغرب، مما باعد بين الرجلين، وأخذ بكمال بك نحو المعارضة، التي تحوّلت إلى قطيعة كاملة بعد انتخابات ١٩٥٧ والتي سقط فيها معظم أقطاب المعارضة بفعل تدخّلات

(١) عباس أبو صالح: التاريخ المعاصر للمؤخدين الدرّوز، مطابع الدار العربيّة للعلوم، بيروت - لبنان ٢٠١٣، ص ١٠٠.

(٢) نجيب البعيني: رجال من بلاددي، ج ١، مرجع سابق، ص ٣٥٣ ٣٥٧.

(٣) الجريدة الرسميّة العدد ١٨ في ٢٥ نيسان ١٩٥٧.

(٤) معجم أعلام الدرّوز، مرجع سابق، ص ٣٩٣.

جنبلاط، وليد بن كمال بن فؤاد بن نجيب بن سعيد بن بشير بن قاسم

وُلد في المختارة، في ٧ آب ١٩٤٩، في كنف عائلةٍ جمعت المجد من طرفيه، فالأب زعيم وطني ووريث عائلة هزّت التاريخ، والأم سليمة آل أرسلان، وابنة أمير البيان والسياسي الشهير شكيب أرسلان، نال شهادتي التاريخ، والبيكالوريوس في العلوم السياسيّة من الجامعة الأميركيّة في بيروت، وأتقن اللغتين الفرنسيّة والإنكليزيّة... استشهد والده في آذار ١٩٧٧، فخلفه في ظروف سياسيّة كثيرة التعقيد وسريعة التحوّلات، وقد كان له من العمر ثمانية وعشرين عاماً، لكنّه أظهر حنكة نادرة ومهارة عالية في القيادة السياسيّة، وانتُخب رئيساً للحزب التقدمي الاشتراكي في نيسان ١٩٧٧... وقد شهدت السنوات الأولى من استلامه القيادة أقسى الأحداث، إذ تخلّلتها حرباً أهليّة، واجتياحاً إسرائيلياً وخلافات وانقسامات واغتيالات، فاضطر - شأنه شأن باقي السياسيين - إلى التخلّص من فقدان حرب الجبل وأسس الإدارة المدنيّة، كما تعرّض لمحاولات اغتيال عديدة، نذكر منها واحدة في كانون الأول ١٩٨٣ بواسطة سيارة مُفخّخة، وأخرى في

استكمال ما بدأت به من إصلاحات في الإدارة، ومعارضة الكثيرين للتجديد للرئيس شهاب، دفع بالبك إلى تأييد شارل الحلو الذي أصبح رئيساً للجمهورية، واستحوذ على كل الدعم والتعاون من كمال جنبلاط... إلى أن برزت القضية الفلسطينيّة، وتباينت الآراء بين الرجلين فتباعداً^(١)... ومع بداية عهد الرئيس سليمان فرنجيّة عام ١٩٧٠، وقف كمال جنبلاط مؤيداً لسياسته، الرامية لإزالة أشكال التخلّص الاعتباطي في حياة المواطنين، والإصلاحات الاجتماعيّة التي تمثّلت ببدء تطبيق الضمان الصحي، لكنّه بالمقابل وقف ليعارض محاولات تصفية مجلس الخدمة والمشروع الأخضر والتفتيش المركزي والفساد والمحسوبيّات وغير ذلك، ودعا إلى المشاركة الحقيقيّة في الحكم، وإقامة التوازن داخله، وقد ساءت من جراء ذلك علاقته بالرئيس فرنجيّة خاصّةً مع أحداث ١٩٧٥، وقد قام بمحاولات عديدة لإصلاح الوضع، لكنّه سقط صريعاً في بلدة دير دوريت برصاص غدرٍ أودى بحياته، وكان ذلك في آذار من العام ١٩٧٧، فخلفه ابنه وليد بك جنبلاط^(٢).

(١) نجيب البعيني: رجال من بلادي، مرجع سابق، ص ٣٥٨ - ٣٥٩.

(٢) نجيب البعيني، المرجع نفسه ص ٣٥٩ - ٣٦٠.

حزيران ١٩٨٧ بواسطة قلم حبر ملغوم... وقد كان من المشاركين في مؤتمر الحوار في جنيف «١٩٨٣» ولوزان «١٩٨٤» لوضع حدٍ للحرب الأهلية، كما واكب اتفاق الطائف.

أما مناصبه السياسية فعديدة، من بينها: وزيراً للأشغال العامة والنقل والسياحة عام ١٩٨٤ في حكومة الاتحاد الوطني برئاسة عمر كرامي، وفي حكومة الوفاق الوطني التي شكّلها سليم الحص عام ١٩٨٩، ووزير دولة في حكومة رشيد الصلح عام ١٩٩٢، كما انتُخب نائباً عن قضاء الشوف عام ١٩٩٢، وترأس جبهة النضال الوطني التي ضمّت ١٢ نائباً في أفضية الشوف وعاليه وبعبداء، ثم عُيّن في العام نفسه وزير دولة لشؤون المهجّرين في الحكومة الأولى للرئيس رفيق الحريري، وقد استمر فيها حتّى العام ١٩٩٨، كما انتُخب نائباً عن الشوف للمرة الثانية عام ١٩٩٦ على رأس جبهة النضال الوطني، والثالثة عام ٢٠٠٠ حيث ترأس اللقاء الديمقراطي الذي ضمّ ١٦ نائباً، وفي المرّة الرابعة فاز بالتزكية... إلا أنه ومنذ انتخاب الرئيس إميل لحود رئيساً للجمهورية، وحتّى يومنا هذا، امتنع شخصياً عن المشاركة في أي حكومة، واستعاض عن ذلك بتكليف ممثلين عن

اللقاء الديمقراطي في الحكومات، لكنّه خاض الانتخابات النيابية عام ٢٠٠٩ و٢٠١٣ وفاز فيهما.

كان من أبرز الداعين إلى تصويب العلاقات السوريّة - اللبنانيّة، واستعادة استقلال لبنان وسيادته وقراره، وكان وما زال من المدافعين عن القضية الفلسطينية... يتصف بالديناميكية ولا يجد حرجاً في الاعتذار أو التراجع عن موقف ما إذا دعت الحاجة لذلك، شارك في الكثير من المؤتمرات المحليّة والعالميّة وله العديد من الندوات والمحاضرات، وهو من مؤيدي قضايا الشباب، ومؤسّسي الجمعيات البيئية، والمؤسّسات الثقافيّة والتربويّة... مؤيّدوه كُثُرٌ وكذلك معارضوه، ولكنّه علامة فارقة في تاريخ السياسة اللبنانيّة^(١).

الخاتمة

احتلّ آل جنبلاط مكانة رفيعة منذ وطأت أقدامهم أرض البلاد في أوائل القرن السابع عشر، ولم تخل الساحة يوماً من رجالاتهم الذين مالوا إلى السياسة وحافظوا على الزعامة واتصفوا بالسخاء والكرم والإغداق بلا حساب على كل من يقصدهم، وقد ساعدتهم في ذلك مالهم الوفير «إذ كانوا

(١) <http://www.psp.org.lb/ar/walid.joumblatt.htm>

التوزيع الطائفي النسبي في وظائف الدولة وتأليف الحكومة ومجلس النواب، وذلك منذ ولادته عام ١٩٢٦، بدعم وتوجيه من قناصل الدول الكبرى آنذاك، وهو أمرٌ يستند إلى عدد السكّان والتحوّلات الديموغرافيّة التي لم تسمح للدروز أو لغيرهم من سائر الطوائف الصغرى من تجاوز المواقع التمثيليّة في المناصب الإداريّة... مع ذلك تتجه الأنظار إليهم عند كل مفصل بعامة، وإلى آل جنبلاط بخاصة، كبيضة قبان.

نختتم الكلام بخلاصة مفادها، أن عوامل عديدة قد تضافرت، لتثبيت صلابة العائلة الجنبلاطية وقدرتها على الصمود، رغم كل التحوّلات السياسيّة التي طرأت على البلاد، ولتظهر تنوعاً في صفات رجالها الذين اختلفوا عن بعضهم، فكان بينهم من تمتّع بالتسامح أو السطوة، وسفك الدماء أو تحاشيه، موالة الأنظمة أو معارضتها... ولكنهم في النهاية مكوّن أساسي في نسيج هذا البلد.

يحكمون الشوف وإقليم الخروب والتفاح ومقاطعة جرّين وجبل الريحان وكانت إقطاعاتهم تضم نحو مئتي قرية يقطنها أكثر من ثلاثين ألف إنسان، وقد ورد في تقرير فرنسي عام ١٨٢١، أن عدد قرى إقليم الريحان والخروب ومقاطعة جرّين، هو سبعون إلى ثمانين قرية، وهي تدر أموالاً بقيمة أربعمائة كيس من الذهب»، ونفوذ عظيم استمدّوه من المناصب التي نالوها، ومن غرضيّة حزبيّة «الجنبلاطيّة» قارعت سائر الغرضيات المناوئة لها، وجمعت حولها أسرا وعصبيّات درزيّة ومسيحيّة أيضاً في بعض الحقبات... وقد تمكّنوا خلال فترة قصيرة من إيجاد موقع مميز لهم على خريطة الجبل السياسيّة وبين الأسر المقاطعيّة الحاكمة كما تمكّنوا من حماية موقعهم السياسي وملكيّاتهم العقاريّة، رغم النكبات التي ألمّت بهم، بخاصة مع القضاء على الشيخ بشير وسلب أمواله وأملاكه، وإلغاء النظام المقاطعي ومعه نظام الالتزام الضرائبي! رغم ذلك، لملمت الأسرة الجنبلاطية جراحها واستعادت أمجادها، واستمرّت في تقديم شخصيّات سياسيّة فاعلة في كل العهود... علماً أن آل جنبلاط ينتمون إلى الطائفة الدرزيّة القليلة العدد نسبياً، والدستور اللبناني كرّس في إحدى مواده،

المصادر والمراجع

- الصليبي، كمال: **تاريخ لبنان الحديث**، دار النهار للنشر، بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٧٨.
- الصفدي، أحمد بن محمد الحالدي: **لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني**، منشورات مديرية المعارف العامة والفنون الحديثة، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٣٦.
- ضاهر، مسعود: **الجزور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ١٦٩٧ - ١٨٦١**، معهد الإنماء والبحوث، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨١.
- غنّام، رياض: **سعيد بك جنبلاط ١٨١٣ - ١٨٦١**، دار معن بيروت - لبنان، ٢٠١٥.
- غنّام، رياض: **الشيخ علي جنبلاط ١٦٩١ - ١٧٧٨**، دار بلال للطباعة والنشر، ٢٠١٧.
- غنّام، رياض: **المقاطعات اللبنانية في ظل حكم الأمير بشير الشهابي الثاني ونظام القائمقاميتين ١٧٨٨ - ١٨٦١**، دار بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ١٩٩٨.
- مكاربوس، شاهين: **حسر اللثام عن نكبات الشام**، الطبعة الأولى بمصر ١٨٩٥.
- النمر، إحسان: **تاريخ جبل نابلس والبلقاء**، حوادث عهد الإقطاع، مطبعة ابن زيدون، دمشق ١٩٣٨.
- الصليبي، كمال: **تاريخ لبنان الحديث**، دار النهار للنشر، بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٧٨.
- الصفدي، أحمد بن محمد الحالدي: **لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني**، منشورات مديرية المعارف العامة والفنون الحديثة، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٣٦.
- ضاهر، مسعود: **الجزور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ١٦٩٧ - ١٨٦١**، معهد الإنماء والبحوث، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨١.
- غنّام، رياض: **سعيد بك جنبلاط ١٨١٣ - ١٨٦١**، دار معن بيروت - لبنان، ٢٠١٥.
- غنّام، رياض: **الشيخ علي جنبلاط ١٦٩١ - ١٧٧٨**، دار بلال للطباعة والنشر، ٢٠١٧.
- غنّام، رياض: **المقاطعات اللبنانية في ظل حكم الأمير بشير الشهابي الثاني ونظام القائمقاميتين ١٧٨٨ - ١٨٦١**، دار بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ١٩٩٨.
- مكاربوس، شاهين: **حسر اللثام عن نكبات الشام**، الطبعة الأولى بمصر ١٨٩٥.
- النمر، إحسان: **تاريخ جبل نابلس والبلقاء**، حوادث عهد الإقطاع، مطبعة ابن زيدون، دمشق ١٩٣٨.
- أبو صالح، عباس: **التاريخ المعاصر للموحدين الدروز**، مطابع الدار العربية للعلوم، ٢٠١٣.
- الباشا، محمد خليل: **معجم أعلام الدروز**، منشورات المركز الوطني للمعلومات والدراسات، الدار التقدمية، المختارة، ١٩٩٠ (جزءان).
- البعيني نجيب: **رجال من بلادي**، مؤسسة دار الريحاني للطباعة والنشر ش م م، ١٩٨٦.
- تيموفيتش، إيغور: **كمال جنبلاط الرحل والأسطورة**، ترجمة خيرى الضامن، دار النهار للنشر بيروت - لبنان، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٠، الطبعة الثامنة عام ٢٠٠٩.
- الجريدة الرسمية، العدد ١٨، ٢٥ نيسان ١٩٥٧.
- جنبلاط، كمال: **هذه وصيّي**، مؤسسة الوطن العربي للطباعة والنشر، باريس.
- الشدياق، طئوس: **أخبار الأعيان في جبل لبنان**، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت، ١٩٧٠.
- الشهابي، حيدر: **الغمر الحسان في أخبار أبناء الزمان**، عُني بضبطه ونشره أسد رستم وفؤاد افرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت ١٩٦٩، ج ٣.

Adeġ Ismail Documents Diplomatiques

<http://www.psp.org.lb/ar/walid.joumblatt.htm>

تحديد الموقع الأمثل لإنشاء مطمر صحي

في منطقة بنت جبيل بتقنية نظم المعلومات الجغرافية GIS

زينب حمادة شعيتو & جوسلين أدجيزيان جيرارد^(١)

الملخص

هذه الظروف الصعبة، كانت بلديات اتحاد بنت جبيل وما زالت تبحث عن المواقع الأنسب لإنشاء مطمر صحي. في سبيل النهوض بهذه المنطقة المهمشة، وتطوير إدارة نفاياتها، أخذنا على عاتقنا هم البلديات في تحديد هذه المواقع، وقد استندنا إلى تقنية نظم المعلومات الجغرافية التي تعتبر أداة فعّالة للتحليل والمحاكاة في الإدارة البيئية. وكانت النتيجة بملاءمة منطقة محدودة جداً لشروط إنشاء مطمر صحي.

المقدمة

لا تزال الإدارة الحالية للنفايات في منطقة بنت جبيل (جنوب لبنان) بدائية: فالنفايات الصلبة لا تفرز من المصدر، تجمع بشكل غير يومي في معظم القرى، ثم تنقل إلى مكبات عشوائية غير خاضعة للرقابة دون أي معالجة. ولكن أسوأ ما في

يواجه لبنان منذ عام ٢٠١٥ أزمة نفايات غير مسبوقة تعود إلى إغلاق مطمر النفايات في منطقة الناعمة وانتهاء العقد مع شركة سوكلين (Chaaban, ٢٠١٦). لم تحل هذه الأزمة حتى اليوم، بسبب عدم وجود إرادة سياسية لوضع وتطبيق خطة فعّالة لإدارة النفايات، تخلّص البلد من الكميات الكبيرة التي ترمى عشوائياً وتحمي البيئة والصحة العامة. تعدّ منطقة بنت جبيل في جنوب لبنان منطقة هامشية، عانت من الاحتلال الإسرائيلي لأعوام عدّة، وأهملت من قبل الدولة، فقد تركت تواجه صعوبات إدارة نفاياتها بنفسها، ما أدّى إلى تفاقم مشكلة النفايات فيها وانتشار المكبات العشوائية في قرراها واللجوء إلى حرق النفايات للتخلّص منها بأقل الكلف الممكنة. في ظلّ

(١) قسم الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية (جامعة القديس يوسف - بيروت).

الأمر هو حرق النفايات المختلطة التي تحوي المواد البلاستيكية والكيميائية والالكترونية وغيرها في المكبات وما يترتب على ذلك من انبعاثات تؤثر بشكل كبير على البيئة والصحة العامة.

تسوّج البلديات طريقتها الآنية في إدارة نفايات المنطقة بالنقص في التمويل، فإن إمكانات صناديقها البلدية عاجزة عن تغطية تكاليف الجمع والمكبات العشوائية، فكيف الحال بتكاليف المعالجة الباهظة، مع غياب الدولة التام وقلة الهبات الخارجية. لذا فهي تبحث عن حل وإن كان غير شامل، عبر إنشاء مطمر صحي يحمي المنطقة من مخاطر المكبات العشوائية الحالية. ويعدّ اختيار موقع المكب في المناطق الحضرية أو الريفية قضية حاسمة بالنسبة إلى عملية التخطيط، بسبب الحاجة إلى تقويم العديد من المعايير للوصول إلى أدنى حد من التكاليف الاقتصادية والبيئية والاجتماعية للمكب (Chang et al، ٢٠٠٨). وقد برزت نظم المعلومات الجغرافية (GIS) كأدوات مثالية لتكنولوجيا المعلومات لمثل هذه الدراسة بسبب قدرتها على التعامل مع أعداد كبيرة من المعلومات المكانية من مصادر متنوعة وتراكبها في طبقة تمثيلية

واحدة (Kao et Lin، ١٩٩٦). فهو «نظام معلومات قادر على قنص المعلومات وتخزينها ومعالجتها وإدارتها وتحليلها وعرضها بشرط أن تكون هذه المعلومات لها مرجعية مكانية»^(١). كما يمكنه التوفيق بين العوامل البيئية والصحة العامة وعلم الأوبئة (Bénié et al.2000).

شكّل الافتقار إلى المعلومات عقبة حقيقية أمام تنفيذنا لهذا النهج. فكان التحدي في خلق المعلومات واستنباطها من الخرائط وتحليلها من أجل تحقيق الهدف على أفضل وجه.

تعريف منطقة الدراسة

منطقة بنت جبيل، الواقعة في جنوب لبنان على الحدود مع فلسطين المحتلة، هي واحدة من أقضية النبطية الأربعة، تشمل ٣٦ قرية، مساحتها ٢٦٠ كيلومتر مربع، يحدها من الشمال والغرب قضاء صور، ومن الشرق قضاء مرجعيون^(٢). يعمل معظم سكانها في الزراعة أو التجارة أو في بعض المؤسسات العامة. وقد عانت من الاحتلال الإسرائيلي منذ ١٩٧٨ وحتى عام التحرير سنة ٢٠٠٠ مما أثر على الأنشطة الاقتصادية والإنتاجية فيها بشكل كبير.

(١) غضية، أحمد رأفت، ٢٠١٠، محاضرات ماجستير، خرائط نظام المعلومات الجغرافية، الفصل الأول، جامعة النجاح الوطنية، نابلس - فلسطين.

(٢) <http://www.localiban.org/rubrique264.html>

تضمّ منطقة الدراسة معملين لفرز النفايات العضويّة وتسبيخها في بنت جبيل وعيترون، يواجه هذان المعملان صعوبات في التمويل تنعكس سلباً على تطوير الأداء والمعدات فيهما، وكذلك في التخلّص من العوادم^(١). لكن وعلى الرغم من وجود المعمل في عيترون، اضطرت البلدية إلى إنشاء مطمر على أراضيها، للتخلص من العوادم. أما بالنسبة إلى معمل بنت جبيل فهو يرسل عوادمه إلى مطمر خارج المنطقة.

إذا فإنّ منطقة دراستنا المهمّشة، تواجه تحديات كثيرة في إدارة نفاياتها، ففي ظلّ الإمكانيات المالية المحدودة وغياب الدولة بشكل شبه كليّ، يبدو أنّ الحلّ الأسرع لأزمة النفايات في المنطقة هو البحث عن موقع لمطمر صحيّ، يخفّف من كمية النفايات المرميّة بشكل عشوائي والتي تحرق في الهواء الطلق. من هنا بدأنا بالتخطيط للتوصل إلى المناطق الأنسب لإنشاء مطمر صحيّ جديد، وقد ارتكزنا على تقنية نظم المعلومات الجغرافيّة للوصول إلى هدفنا.

في حين أن لا دراسات علميّة سابقة قد نفّذت في منطقة بنت جبيل للبحث عن

للحصول على نتائج أكثر دقة وبسبب قلّة المعلومات المتوفرة، اقتصرنا في دراستنا على منطقة اتحاد بلديات بنت جبيل (الشكل ١) التي تضمّ ١٥ قرية: بنت جبيل، عيترون، عيناثا، الطيري، كونين، مارون، الراس، يارون، عيتا الشعب، برعشيت، شقرا، حداثا، بيت ياحون، حانين، صربين ورشاف. يبلغ مجموع سكانها ٣٦ ألف نسمة شتاءً وأكثر من ٦٠ ألف نسمة صيفاً. يرجع هذا التفاوت في عدد السكان إلى النسبة الكبيرة من أهالي هذه المنطقة المغتربين أو الذين يقطنون المدن اللبنانية، التي تقصد المنطقة للاصطياف والتمتّع بمناخها المعتدل نسبة إلى مناخ المدن اللبنانية وبغناها بالمناظر الطبيعيّة الخلّابة.



الشكل ١: موقع منطقة الدراسة ضمن قضاء بنت جبيل

(١) وفقاً للمادة L 541-I من القانون البيئي، العوادم هي النفايات التي سواء كانت ناتجة عن معالجة نفايات أو لا، لا يمكن معالجتها بإعادة تدويرها أو بتقليل طبيعتها الملوثة أو الخطرة، في ظل الظروف التقنية والاقتصادية الحالية.

حوّلنا هذه البيانات إلى قراءات رقمية (Format Digital) باستخدام تقنية المسح النقطي (ProcessDigitizing).

أنشأت طبقات عدة لتطبيق المعايير اللازمة لعملية المفاضلة بين المواقع المناسبة لإنشاء مطمر صحي، في حين أنّ هذه المعايير كثيرة ومعقدة وتختلف من منطقة إلى أخرى، وتحتاج إلى إمكانيات كبيرة وكذلك تعاون جهات وتخصّصات متعدّدة، بالإضافة إلى الإمكانيات الاقتصادية الكبيرة التي تحتاجها، لم يكن بإمكاننا دراسة المعايير كلّها، فاقتررت دراستنا على العوامل التي تمكّننا من إيجاد مصدر بياناتها المكانية حتى لو اضطررنا إليخوض مرحلة صعبة من المسح النقطي، فكانت كالتالي (الشكل ٢):

المواقع المثلى لإنشاء مطمر صحي، إلا أنّ العديد من الدراسات المشابهة قد أجريت، استناداً إلى تقنية نظم المعلومات الجغرافية، في مختلف أنحاء العالم، على سبيل المثال، في الصين (بكين) وتركيا (كورلو) وترابزون) وإيران (همدان وماهشهر) والهند (فاراناسيا) ونيجيريا (داماتورو). اعتمدت تلك الدراسات على تقويم المواقع في نظم المعلومات الجغرافية بحسب معايير عدة، منها البعد عن المناطق السكنية، الأنهار، البحيرات، المطارات، شبكات الطرق، مناطق الغابات والمناطق الحضرية والثقافية. إضافة إليعمق طبقة المياه الجوفية، استخدام الأراضي، نفاذية التربة والصخور، درجة الانحدار واتجاه الريح وغيرها من المعايير.

(Guiqin et al., 2009; Ersoy&Bulut, 2009; Ghobadi et al., 2012; Alavi et al., 2013; Orhã 2013; Ohri et Prabhat 2013).

منهجية الدراسة

بدأ عملنا في نظام المعلومات الجغرافية، ببناء قاعدة البيانات الجغرافية (GeoDatabase) التي ستحتوي الطبقات اللازمة كلها فيما بعد، ثم قمنا بإدخال البيانات المكانية التالية: الخريطة الطبوغرافية للمنطقة (١/٢٠٠٠٠)، خريطة الجيولوجية (١/٥٠٠٠٠)، خريطة استخدامات الأرض وخريطة أنواع التربة.

من البرامج، تشكّلت طبقات جديدة تحدّدت فيها المناطق التي تستوفي شروط التحليل المذكورة في الجدول السابق.

النتائج

أخيراً، وبهدف تحديد المناطق التي تستوفي كل معايير اختيار موقع لمطمر صحي، قمنا بمطابقة الطبقات الأخيرة كلّها بحيث أصبحت جميعها في طبقة واحدة، ثم قمنا بانتقاء فقط المناطق المناسبة التي لم تتعارض مع أي منطقة غير مطابقة لمعيار من معايير الموقع، وهي المناطق الملونة على الخريطة التالية (الشكل ٣).



الشكل ٣: المناطق المناسبة لإنشاء مطمر صحي فس منطقة إتحاد بلديات بنت جبيل

تظهر الخريطة وجود بعض المناطق المناسبة لإنشاء مطمر صحي، وهي في الأغلب شرق المنطقة. بعض القرى لم تحو

المعايير	نوع الظاهرة ^(١)	المعايير
يجب أن يقع المكب على بعد أكثر من ١٠٠٠ متر من المناطق السكنية (Manoiuet al., 2013)	مساحية	المناطق السكنية
يجب أن يقع المكب على طبقة جيولوجية كتيمة (Sadek et al., 2001)	مساحية	الطبقات الجيولوجية
يجب أن يبعد المكب أكثر من ١٠٠ متر عن الغابات (Manoiu et al. 2013)	مساحية	الغابات
يجب أن يقع المكب على تربة ذات نفاذية منخفضة (Sadek et al., 2001)	مساحية	التربة
يجب أن يبعد المكب أكثر من ١٠٠ متر عن حدود الصناعات (sadek et al., 2001)	خطية	حدود الصناعات
يجب أن يبعد المكب أكثر من ٥٠ متر عن المجاري المائية (Sadek et al., 2001)	خطية	الهيديولوجيا
يجب أن يبعد المكب أكثر من ٣٠ متر عن الخطوط الكهربائية الرئيسية (Sadek et al., 2001)	نقطية	الخطوط الكهربائية
يجب أن يقع المكب على إنحدار أقل من ٢٠٪ (UNEP, 1994)	مساحية	الإنحدار

الشكل ٢: معايير إختيار موقع المطمر الصحي

طبقت هذه المعايير باستخدام تقنيتي إنتاج الحرم (Buffer Generation) لتحديد المسافات وتقنية تحديد البيانات الوصفية (Selection Attribute) لانتقاء المناطق بحسب المعايير كنفاذية التربة ام نسبة الانحدار...، فبهذه التقنيات التي تُميز برنامج نظم المعلومات الجغرافية عن غيره

(١) الظاهرة النقطية (Feature Point) تعرف في النموذج الإتجاهي بزوج واحد من الإحداثيات، الظاهرة الخطية (Feature Line) تعرف في النموذج الإتجاهي بزوجين من الإحداثيات، زوج عند بداية الخط وزوج عند نهايته، أما الظاهرة المساحية المضلعة (Feature Polygon) تعرف في نظام المعلومات الإتجاهي بسلسلة من النقاط تبدأ من نقطة محددة وتنتهي إليها (Denègre et Salgè, 2004).

- sité de Sherbrooke, Sherbrooke, Québec, Canada, 59p.
- Chaaban J., (2016): One Year On, Lebanon's Waste Management Policies Still Stink, LCPS newsletter, September 2016.
 - Denège J. et Salgé F., (2004): Les systèmes d'information géographique. Coll. «Que Sais-Je?», numéro 3122. Paris: Presses universitaires de France (Puf), 128 p.
 - Ersoy H. & Bulut F., (2009): Spatial and multi-criteria decision analysis-based methodology for landfill site selection in growing urban regions. Waste Management & Research, Vol.27, 489-500p.
 - Ghobadi M.H.; Babazadeh R. & Bagheri V. (2013): Siting MSW landfills by combining AHP with GIS in Hamedan province, western Iran. Environment Earth Science, Vol. 70, 1823-1840p.
 - Guiqin W.; Li Q.; Guoxue L. & Lijun C. (2009) Landfill site selection using spatial information technologies and AHP: A case study in Beijing, China. Journal of Environmental Management, Vol.90, 2414-2421p.
 - Kao J. & Lin H., (1996): Multi-factor spatial analysis for landfill siting. Environ. Eng. Vol.122 (10) 902-908p.
 - Manoiu V., Fontanine I., Costache R., Remus Pravalie et Mitof L., (2013): Using GIS techniques for assessing waste landfill placement suitability. Case study: Prahova county, Geographia Technica, vol.8(2), 47-56p.
 - Ohri A., (2013): GIS based environmental decision support system for municipal landfill site selection. Management of Environmental Quality: An International Journal, Vol. 24, 583-598p.
 - Orhan A., (2013): Municipal solid waste landfill site selection using geographical information systems: a case study from Corlu, Turkey, Saudi Society for Geosciences 2013.
 - Sadek S, El-Fadel M, El-Hougeiri N (2001). Optimizing Landfill Siting Through GIS Application, Seventeenth International Conference on Solid Waste Technology and Management, Philadelphia, October, 21-24p.
 - UNEP, (1994), landfill for hazardous industrial wastes, a training manual, training report n17, 73-84p.

كما أن مقابلات عديدة مع رؤساء بلديات منطقة دراستنا الخمس عشرة ومع رئيس اتحادها قد أجريت، وشكّلت لنا مصدر معلومات أساسي في بحثنا.

أي من هذه المناطق كحداثا وبنيت جبيل وبعضها الآخر تميز بمناطق واسعة ملائمة كبرعشيت وكونين وعيترون. إذا إن إمكانية إنشاء مطمر صحي متاحة ولكن بالتوافق بين قرى الاتحاد، فنظراً لما سبق ولقلة الإمكانيات الماديّة لبلديات الاتحاد، لن تتمكن كل قرية من إنشاء مطمر خاص بها فإن الحل الأمثل يكون بإنشاء مطمر واحد في المنطقة تُطمر فيه نفايات قراها كلّها.

الخلاصة

في ظل نتائجنا حول المواقع المناسبة لإنشاء مطمر صحي في منطقة دراستنا، نتساءل عن واقع المكبات العشوائية العشرة القائمة على أراضيها، وعن مدى ملاءمتها للمعايير العلمية المعتمدة، وعن حجم الآثار البيئية والصحية التي تنتج عنها. وندعو بلديات المنطقة واتحادها للاستفادة من دراستنا الأولى من نوعها، والأخذ بعين الاعتبار المنطقة الملائمة لإنشاء مطمر صحي وإن كانت محدودة إلى حدّ ما، فإ إنشاء مطمر صحي فيها يغني عن الكثير من المكبات العشوائية ويحمي أهالي المنطقة من آثارها الصحية والبيئية.

المراجع

- Alavi N.; Goudarzi G.; Babaei A. A.; Jaafarzadeh N. & Hosseizadeh M., (2013): Municipal solid waste landfill site selection with geographic information systems and analytical hierarchy process a case study in Mahshahr County, Iran. Waste Management and Research, Vol.31 (1), 98-105p.
- Béné G.B., Müller-Poitevien C. & Ngo H.H., (2000): La géomatique de la santé: tendances actuelles. «Diaporama», Univer-

فسحة ثقافية

قواها من أجل القضية، ولم ترضخ للاحتلال والظلم. وأبرزت الباحثة مدى الارتباط بين المرأة وبين الفكر العالمي الفذ.

أما د. حسن جعفر نور الدين فقد قرأ في رواية «أورويل في الضاحية الجنوبية» للروائي فوزي زبيان طبائع الناس وأوضاعهم النفسية في الضاحية الجنوبية لبيروت، بأسلوب لغوي رائع. والرواية مصدر ثقافي يملأ مجالنت عديدة، فهي تقدم لنا أسماء شوارع بيروت ومناطقها وزعمائها، كما أن الأشخاص فيها متنوعو اللهجات، من العامية إلى الفصحى والمعربة والأجنبية، وتختتم الأستاذة مطالعتها بالإشادة بالمؤلف لرؤيته الشاملة وسعة اطلاعه ما جعل من الرواية علامة فارقة في إصدارات ٢٠١٧.

أما في مطالعة شعر شوقي بزيع كتب داود مهنا: نرى أنّ فرادة شوقي بزيع في النص الشعري تأتي منبثقة عن تجربة فريدة تدفع المتلقي إلى متابعة الرمز من دون أي شعور بالغموض أو البعد عن الواقع. فالشاعر بزيع قد وظف الأسطورة

قرأت في العدد الواحد والعشرين مقالات ذات أهمية من حيث مضامينها، وكيفية معالجتها من قبل الباحثين، لهم كل التقدير ودوام العطاء.

تناولت د. درية فرحات في مقالها: علامات الترقيم وتغييراتها في الترجمة والتعريب، أهمية هذه العلامات والثغرة التي تتعمق نتيجة افتقار الأبحاث والكتابات بغالبيتها للاستخدام السليم لها، مما يزيد من الالتباس والخطأ في فهم النصوص بالشكل الذي يريده المؤلف. وقد أضاءت د. فرحات على أهمية مراعاة التغييرات في علامات الوقف والترقيم والتنقيط في عملية الترجمة والتعريب، مستندة إلى مراجع عدة، عبر أمثلة وجداول من شأنها توضيح طريقة استعمال علامات الوقف وتبيان وظيفتها في اللغتين العربية والانكليزية.

وهناك قراءات في روايات صادرة حديثاً، نذكر منها: أ. فاطمة يوسف تناولت في مجموعات قصص ل د. علي حجازي صورة المرأة العاملة التي جاهدت بكل

لينقل أفكاره. لقد طوّعها واستحضرها بما يتناسب وتجربته الشعرية ليعبر عن رؤاه وأفكاره.

وقد درست د. ليلي محمد سعد: البنية الإيقاعية في ديوان الدردارة للشاعر حسن عبدالله، ورأت أن المكان تتجلى بنيته في الخطاب بأبعاد ثلاثة: بعد تاريخي وبعد نفسي أو تعبيري وبعد واقعي زمني.

كما استنتجت من خلال دراستها للديوان قدرة القصائد على إبراز تلوينات الحالة النفسية والتحويلات التي مرت بها الذات الشاعرة من حال السكون إلى حال الغضب والثورة على التحول الواقعي مما دل على ابتداء الشاعر قوالب فنية وكسر رتابة القوالب المألوفة في الشعر.

مما لفتني في هذه المجلة الغنية بتنوع موضوعاتها وجدتها، مقال د. عبد الرزاق المصباحي «الرواية العربية والفنون السمعية البصرية» لمؤلفه حسن لشكر. وهو يشير إلى أن الرواية الجديدة تحتفي بجماليات التفكك وتواكب غموض الواقع والذات وتتواءم مع تشظي الأبنية الاجتماعية.

وأظهر الباحث المصباحي أن غياب النضج الفني في النصوص الروائية لن يؤدي إلى إنتاج نصوص مفككة، تتراص فيها البنيات والتقنيات، من دون أن تحدث بينها الكيمياء الضرورية والتفاعل الخلاق

الليزان يصدر عنهما العمق الفني والتلقي المنتج.

ومن المقالت الجديرة بالاهتمام كونه يحتمل الكثير من النقاش والآراء والنقد: التاريخ الشفوي، مقارنة في المفاهيم والمنهج ل د. عيدا زين الدين إذ نجد فيه دور التاريخ الشفوي في كتابة تاريخ الناس، كل الناس، وكيف يمكن أن تتحول الروايات الشفوية إلى تاريخ.

ذكرت الباحثة د. عيدا أسماء باحثين عدة تناولوا الموضوع من أجل إيجاد حلول لاعتماد المرويات الشفوية لدى الشعوب، ولعدة أسباب منها هشاشة الهوية القائمة على الذاكرة، فهي تعتبر أن الشهادة الشفوية منتج اجتماعي يحمل نمطا ثقافياً ويكتسي بعداً أكاديمياً، باعتباره حقلاً معرفياً مهماً، لا بد من إدراك قيمته المعرفية والتاريخية متيحاً للباحثين كتابة سيرة التاريخ.

وقد أوضح محمد أحمد حمود في مقال «الروائي وإشكالية العلاقة بين الضمائر المستخدمة في النص المروي» التعريفات المتعددة للراوي تبعا لعدة باحثين أمثال: «باختين» الذي يقول إن الراوي قد يكون في موقع واحد ثابت، في حين يرى هنري جيمس أن الرواية وحدة عضوية متكاملة

وهي صدى لدور الروائي. فالراوي حسب الباحث يتخذ مما جرب من حقائق أساسية لتكون بمثابة الزجاجات الملونة ثم يبدأ بإحداث الصور...

ومن المقالات الممتعة «العمارة والمشاعر» نماذج العمارة الكلاسيكية والقديمة للمهندس محمد قاسم جابر، حيث يقول «إن الإحساس بالعمارة هو الإحساس الكلي الكامن في عقلنا وليس فقط في مشهد واحد من مكان، لذا قيل إن الفن هو مرآة الروح، تعكس ما بداخلها، وهي بالمقابل تظهر ما بداخله من المشاعر... وهناك باحثون تحدثوا عن دور العبادة» في دراسة صلة عقل الانسان بالبيئة المحيطة به، يقول: علينا إنشاء بيئة تعطينا الشعور بالرقى والارتفاع حتى نتمكن من الشعور بقربنا من الله.

وفي الختام مقال «التحولات البنيوية لفن الرسم والتمهيد للحدثة الأوروبية بين فنون الأطفال وفن الطفولة لـ «حسين شرارة»، مقال لافت يتحدث عن الخصائص الفنية المستوحاة من فنون الأطفال التي تؤثر في الأبعاد الفكرية والنظرية للفن الحديث، إذ إن هذه الرسوم تعتبر مؤشراً على النمو الحسي العقلي الاجتماعي للطفل. كما أن هناك أوجه شبه كثيرة بين فن الطفل والفنون البدائية والشعبية، تقول سارة نيوماير «إن الفنان الحديث يشبه الطفل أو الرجل البدائي، في ما يتعلق بالفن فإنه يتحرر من الصور الذهنية المحفوظة... ويحتاج الفنان إلى جهد لرؤية عالمه الباطني رؤية جديدة.

إن مجلة المنافذ الثقافية مجلة غنية بمقالات تفتح لنا مجالات جديدة من أجل تطوير أنفسنا وبالتالي تطوير المجتمع والأمر يحتاج إلى جهد.

- Thomson, G. (n.d.). A Review of Transformational Leadership Models and its Linkage to the scholarship/practice/leadership model. *University of Phoenix*
- Lievens, F., Van Geit, P., & Coetsier, P. (1997). Identification of transformational leadership qualities: An examination of potential biases. *European Journal of Work and Organizational Psychology*
- Limsila, K. & Ogunlana, S. (2008). Linking personal competencies with transformational leadership style evidence from the construction industry in Thailand. *Journal of Construction in Developing Countries*, 13(1), 27 - 50.
- Modassir, A., & Singh, W. (2008). Relationship of emotional intelligence with transformational leadership and organizational citizenship behavior. *International Journal of Leadership Studies*, 4(1), 3-21.
- Leithwood, K., & Jantzi, D. (2005). Review of Transformational School Leadership Research 1996-2005. *Leadership and Policy in Schools*, 4, 177-199.

anti-democratic. However, according to Leithwood and Jantzi (2005), their transformational leadership model does not assume that the principal will be the only source of leadership in the organization and is consistent with the sharing of leadership with teachers and other stakeholders. Another critique is that it lacks conceptual clarity. Given that it covers such a wide range of functions (including creating a vision, motivating, being an agent for change, building trust and acting as a social moderator) it is sometimes difficult to define the parameters of transformational leadership. A third critique is that transformational leadership treats leadership as a personality trait or personal predisposition rather than as a behaviour in which people may be instructed. Transformational leadership sees potential transformational leaders as individuals who have special personal characteristics and skills. If the ability to act as a transformational leader is a trait then training people in this approach is problematic. It is clearly difficult to teach people how to change their personality traits.

A final critique of transformational leadership is that it has the potential to be abused (Burns, 2003). Transformational leadership is concerned with changing people's values and moving them to a new vision. But who is to determine if the new directions are good and more affirming? Who decides that a new vision is a better vision? If the values to which the leader is moving his or her followers are not better, and if the set of human values is not more redeeming, then the leadership must be challenged.

Finally, much more explanation is needed about the workings of transformational leadership and how followers are moved from compliance, to identification, and to internalization of values and beliefs.

Conclusion

Transformational leadership is a vital role for effective leaders. By becoming familiar with the transformational leadership approach and combining the four I's, managers can become effective leaders in the both the business and education worlds. Transformational leadership can be applied to individuals or group situations. Using this approach, the leader and his followers are "transformed" to enhance job performance and help the organization become more productive and successful. Because transformational leadership covers a wide range of aspects within leadership, there are no specific steps for a manager to follow. Becoming an effective transformational leader is a process. This means that conscious effort must be made to adopt a transformational style. Understanding the basics of transformational leadership and the four I's can help a manager apply this approach.

What kind of leader will you be? Do you see yourself as a person with vision, confidence and courage and a willingness to make sacrifices to revitalize your organization and return it to profitability? We trust that you will!

References

- Burns, J. M. (2003). *Transforming Leadership*. New York: Atlantic Monthly Press.
- Bolden, R., Gosling, J., Marturano, A. and Dennison P., (1999) A Review Of Leadership Theory And Competency Frameworks, **Centre for Leadership Studies, University of Exeter**.
 - Singh & Lokotsch (2005), Effects of Transformational leadership on human resource management in primary schools, *South African Journal of Education*, Vol. 25(4) 279-286

dence on its effects on learning, transformational leadership runs the risk of remaining an intuitive conceptualization of leadership, with limited or no impact on educational policy and practice.

Discussion and Implications

Changes in the marketplace and workforce over the two decades have resulted in the need for leaders to change and find new styles of leadership if they were to remain effective. Today, leaders are encouraged to build and share a vision, stimulate and influence their followers and hold high performance expectations. Their responsibility is shifted downward in the flattening organizational hierarchy as they increasingly see themselves as colleagues rather than in superior-subordinate relationships.

In the education sector, leadership has been, and will continue to be, a major focus in the era of school accountability and school reform. Leading effective schools to respond to the increasingly complex demands of society will require the knowledge and technical skills of committed and competent leaders. Furthermore, as the demographics shift, there is considerable debate on how to best prepare the next generation of leaders.

What is the image then of leadership that will take us through this period of organizational change and school reform? What kind of leadership is needed at all levels of the school system to effectively lead us through change and advance us even further than we ever thought possible?

For this, transformational leadership is needed along with corresponding changes in recruitment, training, professional development, and organizational policies.

Much has been researched on transformational leadership but more still needs to be done before we can fully understand and confidently make use of the full range of the Bass transactional / transformational leadership model.

The transformational approach to leadership has undoubtedly several strengths. First, it has been widely researched since its introduction in the 1970s and a series of qualitative and quantitative studies have been conducted to prove its organizational effectiveness.

Second, transformational leadership treats leadership as a mutual process that occurs between followers and leaders, and that takes into consideration both the followers' and the leaders' needs. In this case, leadership is a shared responsibility that emerges from the cooperation between leaders and followers. As a result, followers gain a more prominent position in the leadership process because the attributions of followers are instrumental to the evolving of the transformational process.

Third, transformational leadership places strong emphasis on the needs, values and morals of followers. Burns (2003) suggests that transformational leadership involves attempts by leaders to move individuals to higher standards of moral responsibility. Leaders will thus motivate followers to transcend their own self-interest for the good of the team, organization, or society. By doing so, the authoritarian use of power by a sole leader becomes invalid.

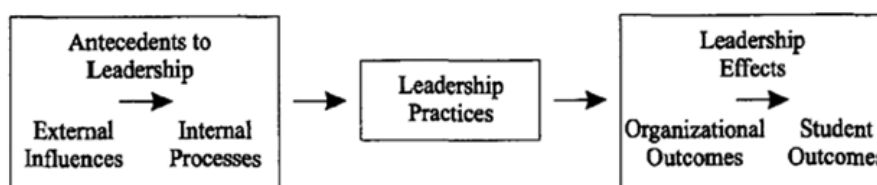
Even though transformational leadership does not appear to suffer from conceptual and definitional issues, it has also received a great deal of criticism. Several aspects of the transformational leadership model have been identified as problematic: According to critics, the model places too much emphasis on the transformational qualities of the leader, thereby reinforcing the notion that the principal is the sole source of leadership at the school which makes it sound somehow elitist or

the human resource management function of large businesses can also utilize these results for the leadership development effort in their organization.

Transformational Leadership and Education

Leithwood&Jantzi have played a very important role in transferring the work of Burns and Bass to the field of educational administration. Leithwood's conceptual model has contributed significantly to our understanding of how leadership affects the school environment. Based on the findings of both quantitative and qualitative research, Leithwood and Jantzi have put forward a model of transformational leadership encompassing the following three main categories of leadership practices: setting directions, developing people and re-designing the organization (Leithwood&Jantzi, 2006).

A Framework for Guiding The Review of Research on Transformational School leadership



In order to measure the leadership effects, Leithwood and Jantzi (2006) set a framework (see figure above) to examine the relationship between transformational leadership behaviours (TLBs) on organizational and student outcomes.

Leithwood and Jantzi (2005) found transformational leadership to have strong positive effects on organizational conditions (school culture, planning, organizational policies & procedures, instructional services). Of all dimensions, vision building and intellectual stimulation were reported to have a significant effect on teacher commitment and extra effort, unlike individualized consideration which was found to have the weakest influence. The effects of transformational leadership on student achievement in school were significant but were weak.

The available research on the effects of transformational leadership suggests that it is more likely to have a direct impact on organizational processes associated with staff practices, motivation and satisfaction, which in turn are linked to the quality of the service offered and the performance of the organization. No significant effect was reported on student achievement.

Based on Leithwood's studies, we can conclude that transformational leadership practices can be helpful in fostering organizational learning; in particular, vision building, individual support, intellectual stimulation, modeling, culture building and holding high performance expectations. Furthermore, evidence about the relationship between transformational leadership and organizational improvement were found more than any other effects.

While the studies are relevant and useful, the meta-analysis clearly points to the need for more studies of the effects of transformational leadership on student outcomes. For, without more evi-

could blur the identification and measurement of transformational leadership qualities (Lievens, Van Geit, & Coetsier, 1997). Do these findings imply that researchers should stop using the MLQ and explore alternative ways of identifying leadership qualities?

There is no definite answer for such a question. Yet what is certain is that the MLQ is a very vital instrument that provides practitioners with a relatively unbiased assessment of transformational leadership, contingent reward, active management-by-exception, and passive leadership. Thus, it can provide a starting point for recommending changes in the leader's strategy on these four dimensions. On the other hand, it is important for both practitioners and researchers to be aware of some of the limitations inherent in the MLQ results especially in what concerns the inter-correlations between the various transformational leadership components. In order to sidestep these shortcomings, it is recommended that relevant leadership qualities are identified through a combination of different methods like leader observation and other personality questionnaires.

Transformational Leadership and Personal Competencies

Another aspect to emerge from the study of transformational leadership is that the personality of the leader is a determinant of their effectiveness and that effective leaders differ from each other through the exercise of a relatively small range of skill or competence areas.

Project managers with high achievement and cognitive competency are likely to generate high work quality, work quantity and problem solving creativity from their subordinates (Limsila & Ogunlana, 2008). Moreover, the subordinates tend to have a higher creativity in problem-solving when working with transformational leaders.

Besides the association between PMCD personal competencies and MLQ leadership behaviours, Shin et al. (2003) found that TL positively relates to the followers' creativity and intrinsic motivation. TL boosts intrinsic motivation and provides intellectual stimulation; the followers are encouraged to challenge the status quo and the old ways of doing things (Modassir & Singh, 2008).

Kark and Shamir (2002) have found TL to be a multifaceted, complex, and dynamic form of influence in which transformational leaders are able to influence their followers by connecting followers' self-concept to the mission of the group, "such that followers behavior for the sake of group becomes self-expressive". (Modassir & Singh, 2008).

Modassir & Singh (2008) examine the relationship of emotional intelligence (EI) with transformational leadership (TL) and organizational citizenship behavior (OCB) of the followers. Since Bass and Avolio (1985) expanded the concept of transformational leadership to place an emphasis on the emotions and feelings of followers, the linkage between emotional intelligence and transformational leadership has been evident. Consequently, the finding that there is a moderately strong relationship between emotional intelligence and effective leadership has major implications for the practice of transformational leadership.

Dionne, Yammarino, Atwater, and Spangler (2004) posited that by means of individualized consideration, a leader addresses issues of competence, meaningfulness and impact with each team member, and encourages continued individual development for the welfare of the group.

By applying these results in practice, leaders can adjust their leadership behaviours to support subordinates in producing high work performance and increasing leadership outcomes, whereas

early 1980's when, based on ideas originally proposed by Burns (1978), Bass (1985) distinguished between transactional leadership (TA) and transformational leadership (TF). (Lievens, Van Geit&Coetsier, 1997). He depicted four key elements of the concept - the 4Is: (a) idealized influence, (b) inspirational motivation, (c) intellectual stimulation, and (d) individualized consideration. Bass and Avolio (1991) later expanded the concept of transformational leadership to include more affective aspects that related to the feelings and emotions of both followers and leaders. They believed that transformational leadership does not replace transactional leadership but adds to it by encouraging followers and colleagues to put in the extra effort. This theory was confirmed in many later studies and reviews.

Measurement of Transformational Leadership and Transactional Leadership: the MLQ

After setting the grounds for the transformational leadership model, Bass and Avolio (1989) set out to identify and measure the leadership qualities. They designed an instrument capable of measuring transformational leadership, thus achieving the important goal of incorporating its study into the area of social and organizational psychology. With this instrument, the Multifactor Leadership Questionnaire (MLQ), Bass and Avolio (1997) found that transformational leadership is made up of five factors: (a) Idealized Influence (attributed), or attributed charisma, which indicates to what extent followers trust and respect the leaders; (b) Idealized Influence (behaviors), which reflects to what extent the leaders perform behaviors that reflect their values, beliefs and their sense of a mission; (c) Inspirational Motivation, which is related to the way in which the leaders transmit and express their vision; (d) Intellectual Stimulation, which indicates to what extent the leaders promote the growth and intellectual independence of their followers; and (e) Individualized Consideration, which has to do with the socio-emotional support to followers, as well as their individual acknowledgement.

The MLQ also measures transactional leadership, which is made up of three factors: (a) Contingent Reward, which indicates to what extent the leader is capable of rewarding work well done; (b) Management by Exception (active) which concerns the leader's behaviors aimed at foreseeing and solving mistakes and failures; and (c) Management by Exception (passive), which refers to leaders who only act when a mistake occurs. Lastly, the questionnaire also measures the existence of a "Non-leadership" factor, called Laissez-faire, which refers to behaviors of leaders who avoid making decisions and allow their subordinates to take action.

Although the MLQ measures a broad range of leadership types yet, critics raised some concerns about the potential biases that might occur in identifying transformational leadership qualities using the MLQ. These biases were later confirmed by several studies cited in Lievens, Van Geit, &Coetsier's study.

In their article, the three mentioned authors provide evidence of two sources of bias in the MLQ: the *halo effect* which implies high inter-correlations between the four transformational scales. Followers would not be able to differentiate between the various transformational leadership behaviours, as they perceive them as belonging to the same leadership domain.

As for the second type of bias, it is related to social desirability where followers tend to perceive the transformational leadership attributes as being more ideal and, thus, as more socially desirable.

These results converge to recent meta-analytic results in the domain of bias investigation that

A Consideration of Transformational Leadership in the Business and Educational Sectors - A Critical Review

Georgia Nicolas Hachem, Lebanese University

Abstract

Over the past decades, the concept of leadership has become increasingly more complex and elaborate. Dominating the literature is the transformational leadership model. This paper explores the conceptual framework of transformational leadership model and its impact on organizational outcomes in the business and education sectors. First, it examines the components of transformational leadership through the work of Mc Gregor Burns, Bass, and Avolio and then it investigates approaches to the conceptualization and measurement of transformational leadership qualities using the MLQ. Finally, the controversy concerning the impact of transformational leadership on organizational outcomes is discussed, and an argument is made through the work of Leithwood & Jantzi that transformational leadership seems to be at least indirectly related to a higher degree of organizational effectiveness in a school setting.

Résumé

Au cours des dernières décennies, le concept de leadership est devenu plus en plus complexe et élaboré. Dominant la littérature est le modèle de leadership transformationnel. Cet article explore le cadre conceptuel du modèle de leadership transformationnel et son impact sur les résultats organisationnels dans les secteurs d'entreprise et de l'éducation. Tout d'abord, il examine les éléments du leadership transformationnel à travers le travail de Mc Gregor Burns, Bass, et Avolio puis il examine les approches à la conceptualisation et la mesure des qualités de leadership transformationnel en utilisant le MLQ. Enfin, la controverse concernant l'impact du leadership transformationnel sur les résultats organisationnels est discutée, et un argument est fait grâce au travail de Leithwood et Jantzi qu'un leadership transformationnel semble être au moins indirectement lié à un degré plus élevé d'efficacité organisationnelle en milieu scolaire.

Introduction

Although the term *transformational leadership* was introduced in the early 1970's, the concept did not attract much attention until James Macgregor Burns published his book "*Leadership*" in 1978. Burns describes the transformational leader as "one who encourages subordinates to put in extra effort and go beyond what subordinates expected before. The subordinates of transformational leaders feel trust, admiration, loyalty and respect towards their leaders and are motivated to perform extra-role behaviours without rewards (Limsila & Ogunlana, 2008). Burns contrasted transformational leadership with transactional leadership, defining transactional leadership as encompassing those transactions that occur when leaders give rewards in exchange for specific behavior by followers.

The concept of transformational leadership has dominated the leadership literature since the

- Torp, L., & Sage, S. (1998). *Problems as possibilities: Problem-based learning for K-12 education*. Alexandria, VA: Association for Supervision and Curriculum Development.
- Tudor, I. (2001). Teacher roles in the learner-centred classroom. *ELT Journal*, 47(1), 22-31.
- Udall, D., & Mednick, A. (1996). *Journeys through our classrooms*. Dubuque, IA: Kendall/Hunt.
- Williams, M., & Burden R. (2007). *Psychology for language teachers*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Zhao, Y. (2009). *Catching up or leading the way*. Alexandria, VA: ASCD.
- Zimmerman, B. (2002). Becoming a self-regulated learner: An overview. *Theory into Practice* 41(2), 64-70.**

- Maslow, P. (1987). *Motivation and psychology*. New York and London: Harper and Low.
- McWilliam, E. (2009). Teaching for creativity: From sage to guide to meddler. *Asia Pacific Journal of Education*, 29(3), 281 - 293.
- Merriam, S. (1998). *Qualitative research and case study: Applications in education*. San Francisco: Jossey-Bass.
- Meyer, D., & Turner, J. (2002). Discovering emotion in classroom motivation. *Research in Educational Psychologist*, 37(2), 107-114.
- Morgan, J., & Rinvoluceri, M. (1983). *Once upon a time*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Ngiel, K. (2004). *Liberating the creative spirit in students*. Singapore: Prentice-Hall.
- Oakley, B., Felder, R., Brent, R., & Eljaji, I. (2004). Students' learning strategies. Journal of Student Centered Learning, 2(1), 9-31.**
- Ong, M., & Murugesan, V. (2007). *Teaching English to young learners: An illustrated guide for EFL teacher development*. Sachse, Texas: Compass Publishing.
- Pink, D. (2005). *A whole new mind: Why right-brainers will rule the future*. New York: Riverhead.
- Pinker, S. (2007). *The language instinct: How the mind creates language*. New York: Harper Perennial Modern Classics.
- Pollard, A. (2010). *Professional and pedagogy: A commentary opportunity. A Commentary by TLRP and GTCE*. London: TLRP [online]. Available: <http://www.tlrp.org/pub/documents/TLRPGTCEProf&Pedagogy.pdf> [11 June, 2012].
- Race, P., & Pickford, R. (2007). Making teaching work 'teaching smarter' in post-secondary education. London: Sage.
- Ramsden, P. (2003). *Learning to teach in higher education*. London: Routledge Falmer
- Reeves, D. (2004). *Accountability for learning: How teachers and school leaders can take charge*. Alexandria, VA: Association for Supervision and Curriculum Development.
- Richards, J. & Lockhart, C. (2004). *Reflective teaching in second language classrooms*. New York: Cambridge University Press.
- Richards, J. (2006). *Communicative language teaching today*. New York: Cambridge University Press.
- Rivkin, S., Hanushek, E., & Kain, J. (2005). Teachers, schools, and academic achievement. *Econometrica*, 73(2), 417-458.
- Sato, K., & Kleinsasser, R. (1999). Communicative language teaching (CLT): Practical understanding. *The Modern Language Journal*, 83(4), 494-517.
- Scrivener, J. (2005). *Learning teaching*. New York: Macmillan
- Sinnema, C., Sewell, A., & Milligan, A. (2011). Evidence-informed collaborative inquiry for improving teaching and learning. *Asia Pacific Journal of Teacher Education*, 39(3), 247-261.
- Teemant, A., Wink, J., & Tyra, S. (2011). Effects of coaching on teacher use of sociocultural instructional practices. *Teaching and Teacher Education*, 27, 683-693.

- Chung, H., & Van Es, E. (2014). Pre-service teachers' use of tools to systematically analyze teaching and learning. *Teachers & Teaching, 20*(2), 113-135.
- Ding, P. (2008). *Teacher enthusiasm in action*. New York: Plenum Press.
- Dornyei, Z. (2001). *Teaching and researching motivation*. New York: Longman.
- Eisner, E. (1999). *The educational imagination*. Basingstoke: Macmillan.
- Ellis, G., & Brewster, J. (2001). *The storytelling handbook for primary teachers*. London: Penguin.
- Faerch, C., & Kasper, G. (2003). Processes and strategies in foreign language learning and communication. *Interlanguage Studies Bulletin 5*. 47-118.
- Gallagher, S., & Stepien, W. (1996). Content acquisition in problem-based learning: Depth versus breadth in American studies. *Journal for the Education of the Gifted, 19*(3), 257-275.**
- Geier, R., Blumenfeld, P., Marx, R., Krajcik, J., Fishman, B., Soloway, E., & Clay-Chambers, J. (2008). Standardized test outcomes for students engaged in inquiry-based science curricula in the context of urban reform. *Journal of Research in Science Teaching, 45*(8), 922-939.**
- Goldstein, K. (1990). *Human nature in the light of psychopathology*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
- Goleman, D. (2006). *Emotional intelligence*. London: Whiskey Creek Documents Design
- Green, R. (2010). *The four dimensions of principal leadership: A framework for leading 21st century schools*. Boston, MA: Allyn & Bacon.
- Grierson, A., & Gallagher, T. (2009). Seeing is believing: Creating a catalyst for teacher change through a demonstration classroom professional development initiative. *Professional Development in Education, 35*, 4, 567-584.
- Hall, K., Cremin, T., Comber, B., & Moll, L. (2013). *International handbook of research on children's literacy, learning, and culture*. Oxford, United Kingdom: Wiley-Blackwell.
- Hardy, I., Roennerman, K., Faru, E., Salo, P., & Forsman, L. (2010). Professional development policy and politics across international contexts: From mutuality to measurability. *Pedagogy Culture and Society, 18*(1), 81-92.
- Hayes Jacobs, H. (2010). *Curriculum 21: Essential education for a changing world*. Alexandria, VA: ASCD.
- Hiep, P. (2007). Communicative language teaching: Unity within diversity. *ELT Journal, 61*(3), 193-201.
- Hockings, C. (2010). *Teaching students: Partnering for real learning*. Thousand Oaks, CA: Corwin Press.
- Hofmeister, A., & Lubke, M. (2009). *Research into practice*. London: Allyn & Bacon.
- Hu, G. (2002). Potential cultural resistance to pedagogical imports: The case of communicative language teaching in China. *Language, Culture and Curriculum, 15*(2), 93-105.
- Knight, J. (2009). *Coaching: Approaches and perspectives*. Thousand Oakes, CA: Corwin Press.
- Legutke, M., & Thomas, H. (2005). *Process and experience in the language classroom*. London: Longman.

'With the help of the exercises I can make easier English constructions for to say s.th. in English.'

'The ability to speak to other people in English avoiding words you don't know by using alternative constructions.' (Andrews, 2006, p.16)

These may seem clichés to anybody with experience in foreign languages. For many of the students they are not. In fact, for some of them they are probably the most important insights they get from the lessons.

Conclusion

The importance of language cannot be underestimated, because it is the vehicle of thought and communication. Moreover, change is the law of nature. Heraclites, the pre Aristotelian Greek philosopher says that "There is nothing permanent except change." Methods are constantly developing in the field of English language teaching also. Finally, the purpose is not to aspire to become native speakers of English since we are already native speakers of our own but to focus on English as a means of communication.

References

Ahmed, Y., Wagner, R., & Lopez, D. (2014). Developmental relations between reading and writing at the word, sentence, and text levels: A latent change score analysis. *Journal of Educational Psychology, 106*, 419-434.

Anderson. N. (2005). *Elementary children's literature*. London: Pearson

Andrews, S. (2006). The evolution of teachers' language awareness. *Language Awareness, 15* (1), 1-19.

Bereiter, C. (2012). Aspects of an educational learning theory. *Review of Educational Research, 60*, 603-624.

Boss, S., Johanson, C., Arnold, S. D., Parker, W. C., Nguyen, D., Mosborg, S., Nolen, S., Valencia, S., Vye, N., & Bransford, J. (2011). The quest for deeper learning and engagement in advanced high school courses. *The Foundation Review, 3*(3), 12-23.

Brandes, D., & Ginnis, P. (1986). *A guide to student-centred learning*. London: Basil Blackwell, Oxford.

Brown, G., & Yule, G. (2001). *Teaching the spoken language*. Cambridge: Cambridge University Press.

Bryant, P., Nunes, T., & Barros, R. (2014). The connection between children's knowledge and use of grapho-phonetic and morphemic units in written text and their learning at school. *British Journal of Educational Psychology, 84*, 211-225.

Cameron, L., & McKay, P. (2010). *Bringing creative teaching into the young learner classroom*. Oxford: Oxford University Press.

Carlile, O., & Jordan, A. (2012). *Approaches to creativity: A guide for teachers*. Maidenhead: Open University Press.

Carter, R., & Nunan, D. (2001). *The Cambridge guide to teaching English to speakers of other languages*. Cambridge: Cambridge University Press.

Chastain, K. (2008). *Developing second language skills*. New York: HBJ, Publishers.

and therefore not relevant enough to life. Language teaching, with its *'stupid teaching of the rules and grammar without any relation to reality'* (Pinker, 2007, p.36), is not exempt from this. For the students, 'depth' means more than a good climate, security and autonomy. It includes a more distant reality which they want to find out about and compare themselves to ultimately master:

'Once I am in Britain I will no longer be able to read off the answer to questions from a book, but I will have to be able to think of something myself and say it.' (Pinker, 2007, p.37)

'Distant' can mean distant in time: future life. It can mean distant in space: life in Britain, America and the English-speaking world. Also, it can mean distant in kind: different people, different ideas, and a different language. Reflecting on their own situation seems equally important:

'The second topic "school" I like because you can compare other types of school systems, also in other countries, and you can look at advantages and disadvantages at your "own" school.' (Pinker, 2007, p.38)

It is outside reality that the students want to test themselves against in order to find out whether what they know would stand up to this test. One student, for example, was not sure whether he would be understood by native speakers:

'To learn something about speaking English in a right way is good and like it, because in the last two years I had developed an own, I don't know in how far right slang and accent. I need to learn how to speak rightly with English speaking guys.' (Pinker, 2007, p.39)

Another student was simply interested in whether she would be able to cope with real newspapers:

'I think it would be nice, if we read an English paper or magazine (it would not have to be The Times) so we could see how good our English actually is. I would be interested, whether I was able to eat my breakfast in Britain and read a normal paper with it or whether the food would get stuck in my throat.' (Pinker, 2007, p.40)

3- Realism and fluency: 'It was good that we spoke the language and not only to make grammar.'

The foreign language is both part of the instant reality of the classroom and the distant reality of the foreign culture. Accordingly, students see it as knowledge that is the ticket to passing an exam or as a skill to be used in real life. Students interested in real life see humanistic exercises as relevant because they are an opportunity to practice fluency. 'Fluency' has become a prominent term in the discussion of language-teaching methodology. It is interesting to see that students have their own very clear notion of what fluency means. It seems as if humanistic exercises are not just an opportunity to practice fluency, but as if they have, in many cases, for the first time given students a notion of what speaking freely and with reasonable fluency in a foreign language actually involves.

Fluency means first and foremost making the best possible use of limited resources. It means being realistic and facing up to the limitations of one's command of the language. There is a whole range of comments pointing in this direction:

'I've learned that it is not worse to make any mistakes when I'm speaking.'

'I've learned how to speak English without having any vocabulary.'

course of the last twelve months, half the group opted for saying 'I enjoyed skiing', which was, as asked for, a true statement, but it did not do much to bring the class to life. Another mechanism that was used for self-protection was seeing the funny and bizarre side of an exercise. For example, in the autobiographic writing task which asked students to picture themselves in five years' time, a number of them chose very unrealistic scenarios. This led to a situation in which the 'investment' and 'depth' of statements differed widely. There were the ones who tried to say something about themselves and there were others who got applause for good punch lines. The effect of this, however, was, by and large, not detrimental, as the bizarre contributions were often well written and enjoyed by the group (Cameron & McKay, 2010).

In conclusion, Legutke and Thomas (2005) certainly have a point when they argue that humanistic techniques may meet with resistance in schools:

We would say that proponents of humanistic approaches... tend to overlook... the possibility of learner resistance to such activities... We should not understand this as resistance to learning, rather, it needs to be seen as fulfilling a justified and necessary protective function against intrusions by the teacher and fellow learners into intimate and private domains. (Legutke and Thomas, 2005, p.59)

Although their criticism does not apply as radically to classes in which humanistic exercises are used, it has to be taken seriously, all the more so since activities 'inviting' self-disclosure still abound in today's resource books. In a school setting, these activities should be used with caution and it should always be borne in mind how basic security needs are. Open-ended activities that call for creativity and self-expression may be perceived as a stimulating challenge by some students, but as threatening by others. If someone does not like acting on stage or playing games, being obliged to do so is far from fulfilling. So, both aspects of openness and risk in lessons should be taken into account. Pollard (2010) speaks of our quest for a world that is safe, calculable and predictable and, at the same time, of our quest for a world that is unique and full of risks. The organization of the classroom has to reflect both.

2- Present and future reality

School, no doubt, is the reality here and now: the people in the classroom, the dog-eared book, the voice from the CD player, the tree in front of the window, in short, the present. One rationale of humanistic exercises is to work on present needs rather than on future ones. On the other hand, students are not yet adults. A fulfilled present may be something desirable to strive for in the classroom, but there is no denying that students' aims also lie in the future. The classroom, therefore, cannot only be a humanistic sanctuary from outside reality. It must also be a preparation for this reality. School-leaving exams are one of the demands outside reality makes. Students, no doubt, are preoccupied with such demands:

'If I get the⁽¹⁾ TOEFL stuff, its all right.'

'I think that we don't do much thing we might need in the TOEFL.'

'I think translation is a big point, but we didn't do that for one time.' (Pinker, 2007, p.35)

On the other hand, exam requirements do not keep students from asking how much use it will all be in life after school. In the evaluations, school regularly comes in for criticism with regard to the practical relevance of what is taught. The content of the syllabus is often seen as too academic

- Tasks that cannot be prepared (Cameron & McKay, 2010, p.173).

Fear of failure is one threat to the students' need for security. Fear of ridicule is another. When learning a language both are tied up with difficulty, whether it is speaking speed, infinitive constructions or an unknown word in a reading passage. Difficulty poses a threat because it impedes performance whether in front of the peer group or in front of a translation paper. Weaker students in particular want to be on the safe side:

'My vocabulary and grammar are not very good (see my semester grade of two credits). And the semester grade is made mostly after writing-exercises, that why would it be good to make this things more often.' (Cameron & McKay, 2010, p.181)

As shown in Maslow's (1987) hierarchy, security is very much at the root of things for this student. Afraid of failing the course, he is more interested in getting a pass than in sharing personal experience with his neighbor. Quite apart from the fact that such sharing may be a substantial threat in itself. The latter point has, of course, been a long-standing criticism against humanism. It is one thing to talk to your counselor, it is quite another to reveal your personal experiences to the person who decides on your English grade or to those with whom you compete for better grades. Legutke and Thomas (2005) rightly draw our attention to the fact that disclosure of personal experience can only make sense if it is voluntary, accordingly, if the context in which it takes place is one of respect for the student's autonomy. Humanistic exercises - like any other activity in a language class - run the risk of being challenged by the constraints of the school situation and thus become an intrusion into students' privacy. Ong and Murugesan (2007) demonstrate how the dangers of being coercive with regard to learners' feelings may be hidden in a little 'must'. Ong and Murugesan (2007) write:

The many personal benefits that can result from using affective exercises are possible only if sharing takes place. This means that students must [sic!] share themselves: their feelings, experiences, interests, memories, daydreams, fantasies. (Ong & Murugesan, 2007, p.34)

Perceived breaches of privacy are not an ongoing theme for courses while working with humanistic exercises. However, they do occur, and, when they do, reactions are emotional and strong. For instance, Cameron and McKay (2010) described that when there was a session about religious faith one student, who was very committed to English as a subject and very keen not to miss classes, refused to attend. With another group conflicts over the assessment of oral performance and speaking about personal topics arose. When one group was asked that, on the whole, was very enthusiastic about humanistic exercises to give a rating of how much they had liked individual exercises, those activities with a personal angle to them ('what is it like to be a first-born?') received low ratings. Disapproval was rarely explicit. It showed itself in outbursts like the following:

'I didn't like the sitting in a circle and this "stupid" (sorry!) questions. That was boring, without a sense.' (Cameron & McKay, 2010, p.186)

The 'stupid' questions had been concerned with personal experience. A more frequent indication that an exercise was trespassing upon private territory which students rather wanted to protect was a cover refusal to get involved. Questions were answered, but contributions were so much on the safe side that the point of the exercise - saying something relevant - was lost. In one exercise ('last year's feelings') that involved telling the group things that had happened to the speaker in the

guage. However, once this authority is removed, speaking English becomes a genuine effort of will.

Free will, of course, has its problems. As one student wrote:

'I'm don't interested in school. So it I don't care what we are making. When I leave school at 1.00h clock I'm happy. The only interests I have are my grades. I don't want to change anything.' (Rivkin, Hanushek, & Kain, 2005, p. 449)

After this radical refusal to get involved in anything except the bare minimum of what the institution required, he went on:

'I know that this is an ignorant attitude but that's my problem.' (Rivkin, Hanushek, & Kain, 2005, p. 449)

What he says amounts to a rather paradoxical statement: 'I know what I do is wrong, but I cannot help it.' The student was not the only one to describe himself in such terms. The more familiar version of students' inability to do what they think is good for them runs like this: '*I am lazy, I need the pressure*', or, in their own words:

'I think we should write more word tests and homework, because there are always lazy pupils like me, who didn't learn anything if it isn't absolutely necessary.'

'I need practice in speaking and more words (too lazy to learn them for myself without any pressure.' (Rivkin, Hanushek, & Kain, 2005, p. 450)

Mario, a student, had taken part in an advanced course the teacher had taught. He was rather critical of humanistic activities. After the exam he told the teacher that the one good thing he had done to him was to have put questions to him personally in class, to have put him on the spot so that he simply had to say something. In other classes he was left alone. It should be added that during the year the climate in the class had developed in such a way that he could probably rely on his contributions, including his mistakes, not meeting with any hostile reaction. Still, apparently, it was the pressure that had done it for him and it was this that he appreciated rather than freedom. 'Pressure' for him meant not being left to himself. In the same way Mario appreciated pressure from the teacher to make him speak. He saw humanistic exercises as a gentle way of being forced to say something:

'At the beginning I didn't like these exercises very much because I wasn't used to such a thing. But today I find it good sometimes to do something extraordinary. Also, if it is sometimes depressed to be forced to think about something in which you are really not interesting in the moment. In a normal lesson you sit only there and do nothing, if you don't want to. But on the other side it's really good to be forced to do s.th.' (Rivkin, Hanushek, & Kain, 2005, p. 451)

THE NEED FOR SECURITY: 'If I had my way we don't do this'

School, lest we forget, can be a threat. It can threaten basic needs for security.

Cameron and McKay (2010) summarize research findings on students' fear of English as a school subject. Student fear may be caused by the following factors in the classroom:

- Evaluations and tests;
- Unfamiliar or ambiguous situation;
- Lessons without a structure;
- Classes taught entirely in the target language;

'You speak about yourself, about your experiences in this exercise and not only about a text that perhaps bores you or doesn't interest you.'

'it is now easier for me to express things I want to say into English.'

[Did you find the exercises useful?] 'In biggest points yes, because you have to think (if you do the exercises seriously) and you can speak English how you want to speak it.' (Rivkin, Hanushek, & Kain, 2005, p. 446)

The students' wish to speak for themselves and to be taken seriously explained why some exercises that included a strong element of playing games were not received too well. Roleplays were often rejected for the same reason. The adolescents simply were not interested in taking someone else's part. They were interested in putting forward their own point of view. The only occasion when acting out a role became more acceptable was when proper acting took place, i.e. when a literary text was acted out and the role of a dramatic persona was taken on. The term 'games' was deliberately avoided, because the teacher and the students were convinced that these were learning activities and therefore had to be taken seriously. Despite this, there were frequently comments like:

'I liked the Kindergarten games we played sometimes.' (Rivkin, Hanushek, & Kain, 2005, p. 447)

The question that had not occurred at the time was whether the students felt taken seriously by the exercises. Many apparently did not. This points to one potential problem with using humanistic methods with students aged 16-19. Game-like activities may be an amusing and perhaps sometimes much needed 'retrogression' for adult learners. At the same time they can be seen as an insult by learners who have just arrived at the other end of adolescence. *'I want real problems about which we can talk'* (Rivkin, Hanushek, & Kain, 2005, p. 447). It was indeed this wish that gradually made the teacher move towards 'straight' discussions at the expense of some humanistic activities, because for students the memorable lessons had been the ones when there had been a 'good discussion'. The evaluation sessions, incidentally, counted as such occasions.

Autonomy not only means being allowed to do something. It also means using the teacher's will power to make it happen. Autonomy is action. Every single student utterance, be it in class or be it on paper, its meaning, its depth, its relevance and, therefore, the chances of a language item being remembered depend on the student's preparedness and willingness to say something. This fact gets easily obscured in an environment where the teacher is there to make sure that something is said and that the target language is spoken. Both the question of what is said and of whether the foreign language is used at all as a means of expression are thrown wide open once the teacher starts relinquishing control. Groupwork and pairwork have always been looked at with a degree of suspicion by some teachers. Once you leave them to it they will not speak the language (Richaids & Lockhart, 2004). This was born out by experience as one student expressed:

'Every exercise you should speak to your neighbor, we mostly speak first Arabic and translate then.' (Rivkin, Hanushek, & Kain, 2005, p. 448)

It is indeed very tempting for students to speak the first language, because everybody understands it. Speaking it requires less effort and there is no alienation from the rest of the group. The teacher's authority may well be needed to bring about the strenuous switch into the foreign lan-

such an opportunity. One student wrote that sitting in a circle had shown her faces she had never seen when they were sitting in rows.

'There was no exercises, in which a boy, I think it was Marc, had to play a sentence. I shall never forget Marc and his pantomime.' (Carter, & Nunan, 2001, p.61)

Humanistic exercises addressed students' social needs. For some students this also included social relations between the class and the teacher. Students frequently told the story of their 'Career in English' as if they had passed through the successive reigns or regimes of different teachers. 'When we had X, we did...'. Whether the subject was fun or not for them had crucially depended on the person who stood in front of the class:

'I always liked English as a language. It was important for me to understand this important language. But I've always had teachers who made boring lessons so that there was no fun in learning English.' (Carter, & Nunan, 2001, p.62)

Students, therefore, wanted a good working relationship with their teacher, and one without confrontation. The relaxed 'humanistic' lessons were often seen as a step towards a 'better atmosphere between teacher and pupils'. For the younger groups, however, the theme of teacher authority - and especially that of defying it - often dominated the classroom. Problems of credibility and consistency arose with one group of 17-year-old students because on the one hand the stage was set for more freedom in the classroom by moving tables and stepping aside for part of the lesson. On the other hand, there were many instances when the teacher felt he had to assert his authority, for example by insisting on absolute silence when he or a student was saying something to the class. Students saw this behavior as contradictory:

'The atmosphere was very relaxed but sometimes the teacher was authoritarian. I want to criticize this because it disturbed the good lessons.' (Carter, & Nunan, 2001, p.62)

One message the teacher got out of statements like this was that humanistic exercises mean different things to different age groups. The dynamics they set in motion differ considerably. Giving up part of authority seemed for one group the natural thing to do. For another one it opened up the whole topic of independence and resistance to adult interference and everything he did was perceived in these terms.

THE NEED FOR AUTONOMY: 'Sometimes you want it and sometimes you don't'

Has an exercise, an activity, or a lesson acknowledged students as independent individuals? Has it given them room to find their own ideas and to express them? Have students been able to make use of their freedom? With the teacher standing aside for a substantial part of the lesson, humanistic exercises give students more autonomy than teacher-centered classes. Many students, therefore, see the exercises as an opportunity to be themselves and to speak for themselves:

'You could create your own thoughts.'

'You speak about yourself, about your experiences and not only about a text that bores you.'

'I also liked making your own texts. I liked to write my own opinion about school (you could make your own opinion).'

'I liked that everybody get his own newspaper article to work on it.'

'theatrical' events involving an element of performance, like 'Hotel receptionist', where a student was offered the chance of winning the group's esteem by taking the stage and showing a new side of himself through his gift for mime. Being appreciated in this way meant investing something first. The exercises gave students various opportunities to invest what was important to them and in doing so led to more depth, i.e. more personal significance, be it through photos they brought, personal objects, their phone number, their birthday or their favorite animal. At their best the exercises probably addressed students' needs (Hiep, 2007). The students taught expressed several needs 'here and now':

- The need for a good climate in the classroom; (Carter & Nunan, 2001)
- The need for autonomy in what they were saying and doing; (Rivkin, Hanushek, & Kain, 2015)
- The need for security; (Cameron & McKay, 2010)

THE NEED FOR A GOOD CLIMATE: 'The teacher made the lessons very boring'.

There are 'soft' subjects and there are 'hard' subjects. The students thought languages belonged to the hard ones. Language lessons are all work and no play. They expressed that as follows:

'I think it is good because two hours normal day English lessons would absolutely bring me to hell.'

'I think it's very good to do these exercises Friday second hour because two hours normal lessons are very hard.'

'Less useful would be normal English lessons, because then I would switch off my brain (too much informations).'

'... because these exercises are different from the stupid hours in the last years, in that I had to do these awful texts.' (Carter & Nunan, 2001, p.57)

For the students, normal language lessons frequently meant a mixture of strain (being forced to concentrate and to speak in front of a group), difficulty (texts were the sole focus of attention and at the same time too difficult) and consequently boredom and inertia.

Humanistic exercises like those suggested went down well with a great number of students for the simple reason that they were perceived as the opposite of normal lessons. They broke up the monotony. They were not about texts, they were easy and they kept the teacher at a distance. This was welcome because it removed the strain of being observed and because it opened up the opportunity of legitimately talking to other members of the class. Many students saw the main benefit of humanistic exercises as a social one, the chance to get to know the other people in the class:

'The... exercises don't change anything, they only help to (get) to know the other people in the class better, when talking about hobbies and such personal things.'

'You have more contact, then (than) only sitting in class...'

'I learned some facts about other people in the class...'

'The most important thing I learnt, I think, was to talk to other people in a better way than before.' (Carter & Nunan, 2001, p.60)

In particular, advanced groups that were made up of students from different classes welcomed

Humanistic exercises are not a radical departure from communicative language teaching. They rather reinforce a trend that can already be found within communicative methodology. Many of them are indeed modeled on the information gap principle. Restricted cooperation is the principle behind 'Hotel receptionist', where it is stipulated that a guest be tongue-tied and can only make himself understood by gestures. A discrepancy in information is created in Morgan and Rinvolucri's (1983, p.48) 'Parallel stories', where one half of the class is told the classic version of Bluebeard while the other half reads a newspaper article giving the same story in a modern guise. However, whereas in exercises from a communicative background factual information is usually given and has to be processed by learners, humanistic exercises go beyond factual information. The impulses they begin from are different and the gaps they use are not so much left for factual information but rather for personal meaning. In this way, the potential personal significance of a structure is explored.

3. Student needs

Humanistic exercises leave gaps to be filled with personal meaning. It is their aim to provide an environment for depth. How successful are they? Do students follow their invitation? It is the aim of this section to look at humanistic exercises and find out in what way they interact with students' personal needs. This, of course, is best found out from the students themselves. Chastain (2008) states the following analysis that bases itself on written comments a teacher asked his students to make about the exercises in order to get some idea of how they had been received. These comments were handed in anonymously. Since they were important reading, he kept them and ended up with about 80 of them from five different courses. This section is a summary. It categorizes the comments according to the particular need expressed in them. Students' personal needs are subdivided into three main groups:

- 1 needs relating to the 'here and now' of the classroom;
- 2 needs relating to a future reality outside the classroom;
- 3 realism and fluency.

1- Needs relating to the 'here and now' of the classroom

Needs analysis has been for a long time at the core of communicative language teaching. What it means is that the course designer tries to discover what kind of situation the learners are likely to have to cope with when they have finished the course (future communicative situations) and to determine from this what kind of language they are likely to need. Elaborate schemes for doing this exist (Sato, & Kleinsasser, 1999; Hiep, 2007). However, for students the needs that arise while they are together with the teacher and with each other are just as significant as a future communicative situation. Communicative language teaching has been criticized for, as Hu (2002) put it, failing to distinguish clearly enough between objective needs dictated by society, the tasks learners are ultimately to be enabled to cope with and subjective needs. Legutke and Thomas (2005) describe 'deferred gratification' and criticize the fact that the reality of language teaching at schools "is still overpowered by and predominantly oriented towards future achievements..." (Legutke and Thomas, 2005, p.7).

The humanistic exercises some teachers used have changed this situation, because they made something happen 'here and now' in the classroom. The most obvious examples of this were quasi

as if a lot of research into structural grading, that is, into how the sequencing of language items can affect learning difficulties, has passed unnoticed (Gallagher & Stepien, 1996, p.261).

Comprehensive studies (Dornyei, 2001; Sinnema et al., 2011) have shown such effects. Introducing a new tense, for instance, can suddenly multiply the learning load for students, because they have to learn to apply the rules of tense formation to a whole host of other forms that have already been introduced and that also have to be put into the new tense. 'Avalanche effects' like this are, in a vital way, connected with difficulty and hence with learners' needs for security. If these effects are ignored, exercises of this type fail students who might have been much better off with something less 'deep' but more manageable (like structural gaps). There is a delicate balance between being challenging and avoiding tasks the mechanics of which are more complicated than what they are supposed to teach.

Secondly, despite their claim to being authentic, communicative exercises may initially seem quite irrelevant (lacking in depth) to students, because they transport them into fictitious situation in the foreign country, often purporting to be 'real' dialogues between young people in the target language (which, of course, they are not). A classroom research (Chung & Van Es, 2014) reported that communicative exercises can quickly become a farce in lessons already fraught with discipline problems. The very fact that such exercises hinge on class participation makes them more vulnerable to disruption than a conventional, teacher-controlled lesson.

Thirdly, it is probably not unfair to say that communicative exercises as suggested in typologies like Hall et al. (2013) do focus heavily on factual information. This emphasis is echoed in the suggestions for teaching and assessing spoken language that come from an applied linguistics background. Brown and Yule (2001) base their suggestions for tasks on information gaps, because these will show if those performing the tasks communicate effectively. These are no doubt effective elicitation procedures. They should, however, be treated with caution when used in teaching. Here, they may well be perceived as stimulating tasks by some students. At the same time, because they impose roles and restrictions on learners, like deliberately taking away information for the purpose of the exercise, they may be perceived as irrelevant by others.

Factual information is, as we have seen, one aspect of meaning. However, there is more to meaning than factual information. This has been seen within the communicative framework itself. Richards (2006, p.45) makes a distinction between 'functional communication activities' and 'social interaction activities'. The first type is mainly about information and the second is about the expression of speech intentions and attitudes. Social interaction activities subdivide into roleplay and the classroom itself as a social context. Richards (2006) comes very close to humanistic principles when he describes how the classroom situation can be used in communicative language teaching and even more so when he discusses psychological factors in the classroom. His conclusion shows that the copyright in being humanistic is not an exclusive one:

The emphasis on communicative interaction provides more opportunities for co-operative relationships to emerge, both among learners between teacher and learners... In short, communicative teaching methods leave the learner scope to contribute his own personality to the learning process. They also provide the teacher with scope to step out of his didactic role in order to be a 'human among humans'. (Richards, 2006, p. 93)

be both factual information and social meaning. This means hidden intentions behind an utterance, and conventions of politeness (Hardy et al., 2010). The gaps in communicative exercises are therefore left for meaning. There is a large variety of them:

- Incomplete dialogues in which one 'part' is left out;
- Cued dialogues, in which speeches have to be made up according to cue words;
- Open-ended dialogues, in which learners may decide between different outcomes;
- Restoration exercises, in which sentences have to be reconstructed by fitting together two halves that have been scrambled;
- Filling in empty speech bubbles in comic stripes;
- Filling in charts with information provided on tape;
- Putting together a story from the information given in a picture strip. (Hardy et al., 2010, p.85).

Typologies for exercises of this kind have long been a useful tool for both teachers and material writers. Information gaps can not only be created in teaching materials. They can also be created through the classroom situation, for example, by handing out different kinds and amounts of information gaps. Defining gaps as information gaps and no longer just as structural ones has helped to shift the focus of language lessons to more meaning-oriented activities in which information is exchanged between participants. This has been a great step forward and one of the foundations on which humanistic exercises rest.

There are, however, a number of problems connected with exercises using information gaps. First, inherent in the attempt to make communicative exercises more interesting than structural ones is the danger that the actual mechanics of the exercises become too complicated. This applies particularly to exercises which try to do too many things at one time, for example, practice a tense form, demonstrate the use of the form together with new vocabulary, and embed all this in interaction. Tasks combining a structural gap with an information gap are widely used in today's materials. Very often their grammatical content - quite complex in its own right - never gets practiced because the mechanics of the exercises, which might involve changes of speaker (i.e. first person to second person), making inferences about meaning, interpreting flow-charts and other graphics are not understood by the students (Torp & Sage, 1998).

A teacher describes his experience stating that:

One communicative exercise in a book I was using with a lower intermediate class was intended to introduce the structure: If you do the cooking, I'll do the dishes. As a next step: If you did..., I would... was to be introduced. The exercise ran into difficulties, because, first of all, it assumed that students would get the verb forms right. This included do-paraphrases as well as the substitution of modals, which means sentences like: If I had to do the dishes, I wouldn't be able to go for a walk. On top of this, in order to make the task interesting, these operations were embedded in a dialogue, which, after a few lines, required students to work from cue words connected by arrows. The task of processing the information contained in these cues turned out to be as difficult for students as putting the verbs into the correct form, which had not been practiced in the first place. It is, incidentally, a frequent complaint that exercises of the information gap type leave teachers with a lot of unraveling to do. It seems

There are many instances of how something that happens in the classroom assumes a quality of depth because it interacts with students' personal needs. A teacher reading out of a student's piece of work is not just a matter of correcting mistakes but one of the esteem in which he would be held by the group. The real telephone numbers make a difference to the students saying them because they are their own numbers. Often, depth simply happens by a stroke of luck. Do teachers have to rely on such strokes of luck? Or could depth be planned?

2- From the communicative approach to humanistic exercises

It was argued in the first section that learning presupposes autonomy. So, of course, does depth. If learners are given freedom they will come up with what is relevant to them. Language learning will gain in depth, that is, it will take on more personal significance and therefore - it is hoped - lead to better acquisition of the language, if learners can make certain decisions themselves. (Hall, Cremin, Comber, & Moll, 2013) give a list of such decisions. They are:

- If learners want to speak at all;
- When they want to speak;
- Who they want to speak to;
- What they say;
- How they fill gaps with personal meaning;(Hall et al., 2013, p.45)

The learner depth is bound up with being able to choose what to say. This choice can be made in a space that is left wide open or one that is narrowly defined. If left wide open, students may not be able to fill it at all. Often, for example, very open questions like 'How did you like this story?' and 'Would you like to comment?' get no answer. This might happen either because members of the group do not know each other well enough or because they know each other too well. On the other hand, if a question leaves too little space 'What does the hero think in this first paragraph?', students might feel constrained and might find the question not worthwhile. It will therefore be of crucial importance to provide the right kind of space and the right amount of space (Boss et al., 2011).

In language exercises, this space has traditionally been narrowly defined. Students are, for instance, required to supply the right form of a word. In various guises such structural gaps have become the daily bread of language teaching. For students they provide a clear structure. For teachers they are almost like a machine that runs itself. By being mechanical such exercises can give security. They can also be boring because there is an obvious danger with structural gap exercises that meaning never comes to play. This may even happen when exercises have been carefully contextualized. Ahmed, Wagner, & Lopez (2014) have shown in an intriguing introspective study with a school learner how this student - successfully! - tackled fill-in exercises by exclusively paying attention to the mechanics of the exercise (i.e. if a certain cue X appears, the form Y has to be taken) and in so doing completely ignored aspects of meaning that had originally been intended by the exercises.

It is communicative language teaching (with situational teaching as a predecessor) that tries to go beyond mechanical practice and make language exercise more meaningful. Meaning is taken to

made sure there was no boredom, either. Why? Because what the student did and what the student said, especially the true statements he encouraged to make, mattered. They mattered more than the repetition of phrases from dialogues students had done in other lessons.

The observations described are summarized by Hockings's (2010) term 'depth'. The term is taken from research into verbal memory. In a study by Bryant, Nunes & Barros (2014), subjects were given lists of words to remember. They were then asked different types of questions, one about each word. Some questions, it was claimed, made them extract more meaning from the word on the list than others. For example, a question like 'Does the word fit in the following sentence?' required the subject to extract more meaning from the word than the question 'Is the word written in capital letters?' Questions of the first type were said to call for a processing at greater 'cognitive depth'. It was found in subsequent recognition and recall tasks that words processed at a deeper level were dramatically better retained in memory. These findings show that the 'deeper' a word is processed, the more meaning it has for someone, the better it is remembered. In the original study the meaning of a word was defined in terms of the information it carried. Pollard (2010) has expanded the scope of what an expression means to include what it means to its speaker, that is, the feelings, memories, personal experience associated with it. The meaning of 'depth' in Hockings's sense goes beyond cognitive depth and includes "the entire personality of the learner" (Hockings, 2010, p.32). It refers to the connection of a language item "with our plans, with our most important memories, and with our needs" (Hockings, 2010, p.36). It includes particularly the affective. Depth is the difference that saying a sentence makes to the speaker.

This is directly related to the episode and the language that would stick in the memory of the student. What usually happens points in the same direction as the evidence as quoted by Hocking (2010) "language items of personal significance, especially if they arouse emotions, stand a better chance of retention in the memory" (p.41).

Personal significance is not only a matter of what language is presented but also one of how it is presented. Depth in its wider sense also refers to the 'here and now' of the classroom. Depth is the personal significance to the learner of what happens there. It refers to what difference participation in a given activity - drill, dialog or club picnic - makes to an individual, relative to his or her entire "range of drives and needs" (Hockings, 2010, p.47). Does the activity make the learner afraid? Does it take care of his/her need for security, esteem or appreciation? The depth of a word, an exercise, pairwork, an exchange with the teacher is the extent to which it matters on the learner in terms of his/her personal needs.

This 'range of drives and needs' which is captured in the notion of depth has been the subject of psychological study of needs. It was described by Maslow (1987) in his well-known hierarchy of needs. His analysis of motivation shows that humans experience needs on several levels. Whenever one level of needs is satisfied, others of a higher order appear. At the base of the hierarchy are 'deficiency needs' starting with physical needs like that for food, shelter, etc, moving 'up' to the need for security, belonging, esteem. Beyond the satisfaction of basic needs there are 'being values' or 'growth needs' which include wholeness, perfection, fulfillment, justice, richness, simplicity, beauty.. At the top of this pyramid of needs there is self-realization: the need and the capacity of a person to live to his/her full potential. Conversely, needs of a higher level are of little relevance if the ones below them in the pyramid have not yet been fulfilled.

Need of Innovation and Depth in the Teaching and Learning Process

By Dr. Janet Ayoub

Part 2

Depth and the Teaching Needs

With freedom and autonomy at the forefront, many authors believe teaching methods as secondary. Race and Pickford (2007) put a quote by one of the teachers at the beginning of their book: "I know I cannot teach anyone anything, I can only provide an environment in which he can learn" (Race & Pickford, 2007, p.17). They go on to make a distinction between 'didactic' and 'participatory' methods, a juxtaposition in which 'didactic' stands for conventional teaching, which is seen as something that should become obsolete. One of our own favorite maxims is "a good teacher soon renders herself obsolete" (Race & Pickford, 2007, p.19). On the other hand, if learners are to exercise their freedom, this freedom has to be such that they can use it. It is here that both teacher and method re-enter the scene. Teacher control and method need not be in conflict with student autonomy. Hockings (2010) points out that teacher can prepare and control their lessons in such a way that student initiative is possible. In fact, he claims that if control is skillfully exercised, this will provide the best opportunities for student initiative. The next part proceeds with the description of the experiences of teachers and students from different references as follows:

Section 1, *depth and needs*, begins from observations. It identifies students' personal needs as crucial factors in the success of a lesson. The term 'depth' (Hockings, 2010) is introduced to describe how language and classroom proceedings interact with these personal needs.

Section 2, *from the communicative approach to humanistic exercises*, examines to what extent the communicative approach to language teaching takes care of student needs and depth. A type of exercise is presented and the term 'humanistic' for this type of exercise is used.

Section 3, which forms the core of this section, analyzes student reactions to 'humanistic exercises' and describes the *students' needs* implied by their comments. A categorization of these needs is attempted.

1- Depth and needs

When attending the intensive spoken course, a teacher whose style, probably without him being aware of it, exemplified some of the attitudes described in the previous section. What did he do? The teacher was obviously a good listener. His interest seemed genuine. What was more, he was au fait with what was happening 'out there' in the classroom. He was aware of the difficulties and seemed to know what was on the minds. He saw when students were getting tired and asked: 'Do you manage to keep one step ahead when others are doing an exercise?' He managed to see the needs at almost every moment of the lesson. Other teachers on the course were less perceptive. In their lessons, unfulfilled needs often turned into fears: fears of not understanding, being laughed at, being corrected, etc. This teacher made sure there was no fear for the student in his class. And he

Cette étude est une étude limitée sur ce genre de tourisme, on espère dans l'avenir faire un travail beaucoup plus développé, surtout sur le tourisme d'affaire au Liban, espérant qu'un grand nombre de villes pourra y profiter.

Bibliographie

- BOSSU Julia. *Le tourisme d'affaires: un outil d'attractivité. Mémoire de première année. Université de Toulouse II -le Mirail, institut supérieur du tourisme, de l'hôtellerie et de l'alimentation. 95p.*
- DEWAILLY Jean-Michel & Emile FLAMENT. *Le Tourisme*. France: SEDES, 2000, ISBN: 2-7181-9071-X. 192p.
- Jean-Luc Michaud. *Tourismeschances pour l'économie, risques pour les Sociétés*. France: presses universitaires de France, sep 1992. 305 p. ISBN: 2130444733
- Maurice Dupuy. *Le Tourisme d'Affaires: Comprendre, organiser et réussir*. Editions TECHNIP, 2005. 120p.
- PLAISAIT M. Bernard. *Le tourisme d'affaire: un atout majeur pour l'économie*. République française, conseil économique et social. 26- 27 juin 2007. 144 p.
- Forum de Beyrouth, all events. Disponible sur: <http://forum.ws/?ecategory=all-events>.
- Infomed: international for events. <http://infomedweb.com/>.
- L'autorité publique du tourisme et du patrimoine. Le tourisme d'affaires. Disponible sur: <https://www.scta.gov.sa/Programs-Activities/Programs/Pages/BusinessTourismProgram.aspx>.
- le site de la foire internationale de tripoli:
- *Tourisme d'affaires, fiche produit, observatoire du tourisme, Maroc*, site: www.observatoiretourisme.ma.

dans la ville, ce qui participe à réduire le côté saisonnier de cette activité, et à créer une continuité durant toute l'année. Le tourisme étant généralement en relation avec la saison de l'été et avec les vacances annuelles, cependant le tourisme d'affaire ou les conférences et congrès ne sont pas des activités saisonnières. Et puisque le chômage est un problème essentiel à Tripoli, le secteur touristique a le plus de potentiel pour absorber ce chômage en offrant des opportunités de travail. Le tourisme en fait se base sur les services offerts par la main d'œuvre, qu'on ne peut remplacer par des machines (comme les services d'hébergement, de restauration, de transport, et les guides touristiques...). Ces emplois requièrent une main d'œuvre de niveau moyen d'éducation, et des deux sexes (hommes et femmes), ce qui répond au problème de chômage à Tripoli. En fait, Tripoli est une ville commerçante par excellence, et contient aussi un grand nombre d'universités et de facultés, terrain fertile pour des expositions, symposium, conférence et échange dans tous les domaines des affaires et de la culture. En plus, Tripoli jouit des atouts convenables pour le tourisme d'affaire (la foire internationale de Tripoli) comme lieu d'exhibition, inexploitée jusqu'à nos jours. Développer le tourisme d'affaires à Tripoli répond aux besoins socio-économiques de la ville et contribue à son développement durable.

Conclusion

En définitive, nous pouvons affirmer que le tourisme d'affaire est une branche du tourisme très en vogue ces jours-ci. Avec la mondialisation, les frontières se sont estompées, les pays se sont ouverts les uns vers les autres. Et avec la facilité du transport et l'évolution de l'informatique, le contact entre les peuples est devenu trop facile, ainsi que la diffusion de l'information. Il suffit de savoir qu'une conférence ou un symposium important ait lieu dans une ville, pour trouver une centaine de personnes intéressés. Leur offrir des bonnes conditions pour la participation, les pousse à y participer et favorise les déplacements d'un pays à un autre. Ce transfert de personnes constitue un enrichissement pour le pays sur le plan économique et culturel.

En exposant notre sujet, nous nous sommes référés sur la situation du tourisme d'affaire dans plusieurs pays, en exemple comme la France et l'Allemagne, et on a pris comme exemple l'Arabie saoudite et le Liban dans le monde arabe.

Nous avons constaté que le tourisme d'affaire en Europe est très prospère d'après les villes étudiées, et en Arabie saoudite, il devient un facteur économique très important.

Au Liban, la ville de Beyrouth jouit de l'importance du tourisme d'affaire, vu son infrastructure et les parcs d'exposition qu'on a aménagés à cette fin, bien qu'elles soient des bâtiments préfabriqués sans aucun attrait architectural, mais simplement un lieu pouvant accueillir un grand nombre de visiteurs. Nous avons évoqués encore le tourisme d'affaires à Tripoli et on a trouvé qu'il est limité encore ou timide par rapport à Beyrouth, bien que Tripoli est la 2ème ville au Liban et malgré la présence d'une foire, qui est bâtie à cette fin, la foire de Tripoli qui peut accueillir un grand nombre de visiteurs, considéré comme un chef d'œuvre architectural de grande importance.

Les questions qui se posent comment pourrait-on améliorer le tourisme d'affaire à Tripoli et dans les autres régions au Liban? Le Liban étant un pays qui occupe une position centrale, carrefour privilégié entre (l'Europe, l'Asie et l'Afrique), ce secteur développé va donner beaucoup de dynamisme à beaucoup de villes libanaises, et aura des retombées économiques très importantes pour tout le Liban.

Après avoir étudié les impacts socio-économiques du tourisme d'affaire sur la région-hôte, développer le tourisme d'affaire à Tripoli devient un enjeu. Mais cela nécessite à déterminer les points essentiels qui aident à son développement, les activités possibles à créer à Tripoli et l'importance de ces activités prévues sur la ville.

*Les points essentiels qui aident à son développement:

- Etablir des compagnies et des institutions spécialisées dans les relations publiques et l'organisation de congrès.
- Coopérer avec les compagnies à Beyrouth pour attirer une partie des congrès vers Tripoli.
- Former une équipe de travail spécialisée dans la Foire Internationale de Tripoli, travaillant pour la stimulation de l'activité de la Foire, avec un calendrier annuel (incluant les congrès, les conférences, les expositions, au niveau libanais et international), avec en moyenne un événement par mois.
- Travailler pour informer les visiteurs et participants aux congrès et aux expositions à propos de la ville de Tripoli à travers des tours organisés dans la ville.
- Présenter des offres très bien étudiées aux compagnies libanaises et mondiales pour inciter leur participation, le but de ces activités étant la stimulation du tourisme d'affaire à Tripoli et l'opportunité d'informer les touristes et les délégations à propos des atouts de la ville de Tripoli, et ainsi offrir à la ville une publicité indirecte.

*Les activités possibles à Tripoli:

- Les congrès médicaux.
- Les congrès d'ingénierie et de construction.
- Les congrès relatifs aux langues, et à la littérature et les sciences humaines, vu la présence d'un grand nombre d'université à Tripoli et son entourage.
- Les congrès relatifs à l'histoire de Tripoli et ses vestiges.
- Les expositions commerciales.
- Les expositions artisanales internationales.
- Les expositions relatives aux arts culinaires.

* Quant à l'importance de ces activités pour la ville de Tripoli:

- 1- L'encouragement du secteur de restauration et les cafés.
- 2- L'encouragement du secteur de l'hôtellerie.
- 3- Une publicité indirecte pour la ville de Tripoli.
- 4- La création d'opportunités de travail dans plusieurs spécialisations:
 - dans le secteur des relations publiques, l'organisation et la gestion.
 - dans le domaine des équipements (équipements de tout genre pour les salles d'exposition).
 - dans le domaine de l'éclairage et l'ingénierie du son.
 - dans le domaine du service de nettoyage.
 - dans le domaine de l'hospitalité et l'accueil, l'accompagnement des délégations.
 - dans le domaine de la publicité et des médias.

Il est important de varier l'offre touristique à Tripoli en créant plusieurs genres de tourisme

mité de la mer, le projet s'inscrivait dans un ovale, caractéristique propre à l'architecte. Une large couverture en courbe devait s'ouvrir et sous laquelle étaient prévus les différents pavillons internationaux, un carré flottant sur un plan d'eau destiné à abriter le pavillon libanais, un théâtre... De temps à autre, des spectacles et des conférences s'y déroulent sous la grande couverture. Malheureusement, le site manque de visiteurs, il faut se contenter d'une vue rapide à partir du parking ou de la route.

En 2004, la CCI de Tripoli a lancé un projet visant à transformer le site en un parc de loisirs (espaces d'exposition de 60 000 m², espaces de loisirs et de jeux de 200 000 m², un espace nautique de 170 000 m², trois hôtels, un centre commercial, des restaurants). Le coût du projet est estimé à 230 millions de \$. Indignées, les associations Patrimoine sans frontière et ASFIT (Association pour la sauvegarde de la Foire internationale de Tripoli) dénoncent la marginalisation de ce site important à Tripoli, le chef d'œuvre de l'architecture brésilien Oscar Niemeyer, cette association milite pour la sauvegarde de cet espace et préconise une remise en valeur du site dans une logique de développement durable. En 2005, un nouveau projet de zone franche pour les produits chinois a été proposé par des industriels locaux en collaboration avec des partenaires chinois⁽¹⁾. Mais malheureusement, ce projet n'a pas pu voir le jour.

Aujourd'hui, le site n'est que partiellement utilisé pour des expositions (salon du livre arabe, salon des produits agro-alimentaires...). Car la construction de la plupart des pavillons n'est toujours pas achevée. Les bâtiments sont délabrés. De nombreux projets ont été étudiés pour exploiter ce vaste espace: parc d'attractions, stade olympique, musée d'art plastique, centre d'information méditerranéenne... Mais les promoteurs ont-ils toujours eu le souci de le préserver?

Cette foire appartient au patrimoine de l'architecture moderne au Liban. Protéger le site ne veut pas forcément dire empêcher son exploitation mais chercher à le développer tout en respectant sa conception.

b)- Les points de force et de faiblesse du tourisme des congrès à Tripoli:

Les points de force:

- La présence des installations nécessaires pour recevoir des délégations (la Foire Internationale de Tripoli, le palais Nawfal, Al Rabita Al Sakafiyah, le Syndicat des Ingénieurs, centre culturel Safadi...).
- La présence d'un grand nombre de restaurants de très haute qualité pour recevoir les délégations.
- L'intérêt des citoyens de la ville dans ce genre de tourisme.

Les points de faiblesse:

- Le manque de compagnies et d'institutions spécialisées dans les relations publiques et l'organisation des congrès à Tripoli.
- Le manque d'un nombre suffisant d'hôtels et par conséquent manque de choix d'hôtels.

c)-Comment développer le tourisme d'affaire à Tripoli?

(1) <http://www.petitfute.com/v50056-tripoli/c1173-visites-points-d-interet/c937-monuments-et-edifices/c924-architecture-contemporaine/511027-le-site-de-la-foire-internationale-de-tripoli.html#UbivO2DQPbWqLSZ.99>

8-L'état des lieux et perspective du tourisme d'affaire à Tripoli:

La deuxième capitale manque de congrès et d'activités internationales malgré la présence d'installations importantes pouvant accueillir ces événements.

En contrepartie, Beyrouth abonde de congrès, de conférences, et d'expositions tout le long de l'année.

La Foire Internationale de Tripoli est une foire complètement équipée pour accueillir des expositions, des congrès et des conférences, au standards mondiaux et non seulement libanais. Et de là la nécessité de stimuler l'accueil de congrès et de conférences à Tripoli. Cependant pour commencer il faut spécifier le genre de congrès et de conférences que peut attirer cette ville.

Si nous considérons la nature des conférences et des congrès qui ont lieu chaque année à Beyrouth, nous trouvons que la plupart sont en relation avec le secteur de la santé, le secteur de l'architecture et de la construction, le secteur des affaires et le secteur bancaire, en plus du tourisme et des relations internationales.

En ce qui concerne Tripoli, nous trouvons que les congrès médicaux et d'ingénierie sont les plus appropriés avec les ressources humaines présentes dans la ville avec surtout la présence des syndicats des pharmaciens et des médecins et des ingénieurs, et par conséquent un grand nombre de médecins et d'ingénieurs. Il y a donc une nécessité de répartir ces congrès sur tout le territoire libanais, par exemple entre Beyrouth et Tripoli et d'autres régions possédant les installations et l'infrastructure nécessaires.

a) La foire internationale de tripoli (un espace fantôme):

Le projet de la Foire internationale de Tripoli, ou Foire internationale Rachid Karamé, date du début des années 60. Pourtant, mises à part quelques manifestations modestes et épisodiques, cette foire n'a jamais fonctionné comme il faut, et n'a jamais eu le rôle auquel elle a été destinée.

Le chantier de ce projet moderne a commencé en 1962 et n'a jamais été terminé. Le début de la guerre civile en 1975 a figé le site dans son état d'inachèvement.

La Foire internationale de Tripoli, chef-d'œuvre d'un des plus grands architectes de son temps, l'architecte brésilien Oscar Niemeyer (le fondateur de Brasilia, entre autres). Le complexe occupe une superficie d'un million de m² et elle est sous la protection du ministère de l'économie et du commerce. La foire se compose de plusieurs parties: le théâtre flottant, qui comprend 1200 sièges; le théâtre romain ou la coupole, environ 5000m² avec les 2/3 du bâtiment sous le niveau du sol et 1/3 en dessus; le planétarium, le lac des miroirs sur une surface d'environ 123m², l'aile libanaise ou le palais de réception de 2000m², une tour très élevée, une tente indienne, le bâtiment de réception ou l'administration, l'hôtel Quality Inn, et une salle d'exposition.

Il faut noter que la salle d'exposition est la seule partie de la foire qui est actuellement utilisée et exploitée, avec des expositions organisées de temps à autre, locales ou internationales. Sa longueur est d'environ 700m et sa largeur d'environ 70m. Sans oublier l'hôtel Quality Inn qui est considéré le seul hôtel de Tripoli, avec un seul autre, Via Mina, dans la ville d'El Mina

Nantie de ces prestigieux signes de modernité, Tripoli devait accéder au rôle de métropole à la pointe des derniers défis économiques et technologiques. Malheureusement, avec l'arrivée de la guerre en 1975, les bâtiments n'ont jamais pu être terminés. Situé dans un cadre superbe à proxi-

Food truckers festival	Forum de beyrouth	Beyrouth	gastronomie
La mode à Beyrouth (fashion week)	Forum de beyrouth	Beyrouth	mode
Art of living	Forum de beyrouth	Beyrouth	mode
Royal wedding fair 2016	Forum de beyrouth	Beyrouth	Mode
Wedding by caractère	Forum de beyrouth	Beyrouth	Mode
Genius map competition	Forum de beyrouth	Beyrouth	scientifique
Salon du chocolat Beirut 2016	Biel	Beyrouth	Gastronomie
The top 10 Lebanese weddings of summer 2016	Biel	Beyrouth	Mode
Photo med 2016	Biel	Beyrouth	Diversité
After images by ziad antar	Biel	Beyrouth	Diversité
Saving the beauty	Biel	Beyrouth	Mode
Dream 2017	Biel	Beyrouth	Diversité

(1)

A peu près 93% des congrès et des conférences sont faites à Beyrouth et 70% de ces activités sont des congrès médicaux.

La majorité de ces congrès sont périodiques et annuels. En plus d'un large nombre d'événements artistiques et de défilés de mode, des forums de décoration et à autres activités culturelles.

Il faut noter aussi un grand nombre de congrès et conférences scientifiques organisés par les universités de Beyrouth: comme l'Université Libanaise, l'Université Américaine de Beyrouth, l'Université Saint-Joseph. Ces activités sont de calibre international accueillant les chercheurs et scientifiques de parts le monde. Et là se pose la question: pourquoi la ville de Tripoli n'accueille-t-elle aucun de ces congrès surtout qu'elle possède les installations et l'infrastructure nécessaires. Dans tous les pays qui organisent des congrès médicaux, ces activités sont réparties sur tout le territoire, par exemple en Egypte: le Caire, l'Alexandrie, l'Hurghada, Charm El-Cheikh, toutes ces villes accueillent annuellement un grand nombre de congrès médicaux et scientifiques.

La ville-hôte doit posséder les installations nécessaires pour le séjour, les expositions, les congrès, ainsi que des zones de divertissement pour les délégations durant leur résidence.

Tripoli manque d'organisation et de relations publiques pour créer des liens avec les compagnies organisant ces événements à Beyrouth pour qu'elle place Tripoli sur la liste des villes-hôtes, ainsi que pour développer des relations avec les organisations internationales.

Tripoli peut accueillir chaque année 4 ou 5 congrès médicaux par exemple. Et cela en présentant des offres attirantes aux compagnies, représentant des offres complètes incluant le séjour, le congrès, et les jours de tourisme et de repos.

(1) www.infomed.com, Lebanon events 2016 + forum.ws, forum de Beyrouth, all events, 2016.

Primary benign, malignant bone and soft tissue tumors v/s metastatic lesions of bone	Bellevue medical center, beyrouth	Beyrouth	Médical
Le 13eme congrès annuel de la société libanaise des pédiatres	L'ordre libanaise des physiciens - Beyrouth	Beyrouth	Médical
Le 3 me congrès libanais européen de la né- ontologie	St georges orthodox hospital - beyrouth	Beyrouth	Médical
Le 49me assemble du moyen orient "MEMA"	American university of Beyrouth	Beyrouth	Médical
Le 25 me congrès & le 18 me symposium libano-français de la réanimation anesthésique et du management des douleurs	Al bustan hotel - Beyrouth	Beyrouth	Médical
Le 6eme jour de l'hépatologie	Lancaster plaza, Beyrouth	Beyrouth	Médical
Le 21 me congrès annuel de la société libanaise de l'otolaryngologie et de la chirurgie de la tête et du coup	Hilton habtoor, Beyrouth	Beyrouth	Médical
Association libanaise de la diagnostique médicale et des maladies auto -immunitaire	Hilton -habtoor, Beyrouth	Beyrouth	Médical
Workshop de «l'hépatite»	Universite libanaise, hadath	Beyrouth	Médical
Le 1 ^{er} congrès de l'hôpital de st Georges sur l'hématologie et l'oncologie	Hilton - metropolitain, beyrouth	Beyrouth	Médical
Le jour de la pharmacie	Hilton habtoor, beyrouth	Beyrouth	Médical
La journée de la société libanaise d'obstétrique et de gynécologie	centre hospitalier universitaire notre dame de secours, Byblos	Beyrouth	Médical
Le premier meeting de l'uro-unco du nord	Ehden country club - ehden	Ehden	Médical
Le 13me meeting annuel de l'association libanaise d'orthopédie	Bristol hotel, beyrouth	Beyrouth	Médical
Le 9 me congrès de la société libanaise de l'urologie	Hilton habtoor, beyrouth	Beyrouth	Médical
Le 24 me congrès pharmaceutique de l'ordre des pharmaciens	Hilton habtoor, beyrouth	Beyrouth	Médical
20 me congrès international de la société libanaise de gynécologie en partenariat avec «le collège national des gynécologues et des obstétriciens français (CNGOF)	Hilton habtoor, beyrouth	Beyrouth	Médical
General updates on primary care medicine 2016	Printania hotel broumana	Broumana	Médical
Le 7 me congress medical du makassed	Phoenicia intercontinental hotel, beyrouth	Beyrouth	Médical
3me journée d 'epsilon	Université saint joseph - beyrouth	Beyrouth	Médical
Le 15 me congrès annuel de la société libanaise de la gastroentérologie	Metropolitain hotel, beyrouth	Beyrouth	Médical
Le 21 me conférence annuelle de l'association libanaise de l'épidémiologie	Gefinor rotana hotel, beyrouth	Beyrouth	Médical

7-L'état des lieux du tourisme d'affaire au Liban:

Le Liban est un pays carrefour entre l'Europe, l'Asie et l'Afrique. C'est une terre d'accueil riche d'une hospitalité légendaire. C'est un pays qui regroupe de richesse qui représente des atouts touristiques.

Mais le genre de tourisme dont nous allons parler est le tourisme d'affaires, qui depuis un certain temps commence à se développer au Liban.

Si nous prenons l'exemple de la capitale Beyrouth, et la période de l'après-guerre, nous pouvons constater que cette capitale qui a enduré de la destruction, s'est redressé à nouveau pendant les années 90. Beyrouth est devenu un chantier où beaucoup d'investisseurs locaux et étrangers ont participé à cette reconstruction.

Pendant cette période le Liban fait appel à des experts étrangers, ingénieur, architecte, médecin et autre. Beaucoup de conférences et de symposiums se tiennent pour cette affaire. En plus, le secteur éducatif vit un grand essor. Un grand nombre d'universités voit le jour, et beaucoup de facultés se développent. Le ministère de l'éducation fait appel à des spécialistes dans les domaines de la culture en tant que conseiller pédagogique, gestionnaire et autres. En l'an 2002, un événement international a lieu à Beyrouth «le sommet culturel de la francophonie» qui accueille des experts linguistiques de tous les pays du monde. À rappeler également les conférences et symposiums qui ont lieu dans les différentes universités au Liban. Le développement du secteur bancaire et de la santé, ont attiré beaucoup d'experts dans ce domaine.

Chaque année Beyrouth organise annuellement un grand nombre de congrès et de conférences internationaux (congrès scientifiques, médicaux, économiques, culturels) au niveau du monde Arabe et du monde.

Voici une liste des plus importants congrès et activités organisés au Liban en 2016:

Tableau 104: les plus importants congrès et activités au Liban en 2016:

<u>Nom de l'activité</u>	<u>Lieu</u>	<u>Region</u>	<u>Domaine</u>
Le 19eme congrès de l'association du collège de la pharmacie au pays arabe	LIU, Bekaa campus	Bekaa	Médical
Le 17eme congrès de la société libanaise des maladies infectieuses et de la microbiologie	Hilton habtoor grand hotel - beyrouth	Beyrouth	Medical
Le 13eme forum de la société libanaise de l'oncologie	Hilton habtoor grand hotel - beyrouth	Beyrouth	Medical
Le 4eme meeting du groupe libanais de la gynécologie et de l'oncologie	Hilton metropolitain - beyrouth	Beyrouth	Médical
Le 13 me congrès de la société libanaise de la pratique générale	L'ordre libanaise des physiciens - beyrouth	Beyrouth	Médical
La 12 me réunion de la chirurgie cardiaque «the euro-asian bridge society»	Phoenicia hotel- beyrouth	Beyrouth	Médical
Middle east forum of hematologic malignancies & le septième congrès d'oncologie francophone (COF)	Hilton habtour, beyrouth	Beyrouth	Médical

Les points de force:

- Un nouveau marché promettant, ouvert vers la croissance et le développement.
- De nombreuses possibilités d'investissement dans ce marché.
- L'abondance des structures et des services de restauration.
- Un secteur privé en croissance intéressé dans le développement touristique.
- Des hôtels de luxe dans des emplacements stratégiques.
- Une large expérience dans l'accueil de grands nombres de touristes.
- Un gouvernement intéressé dans le développement du tourisme d'affaire.

Les opportunités:

- L'Arabie Saoudite est parmi les plus grands pays du Golfe en ce qui concerne le nombre de sa population et sa force économique.
- Le plus haut taux de croissance parmi les pays du Golfe et du Moyen Orient.
- Une infrastructure très solide dans le domaine des communications et du transport, sur le niveau local aussi bien qu'au niveau international.
- Des secteurs économiques très solides tels que l'industrie du pétrole, la désalinisation de l'eau, l'informatique et les communications.
- Caractérisée par le grand nombre d'institutions académiques.

b- Le plan de développement du marché des congrès et les incitations pour les congrès et les exhibitions en Arabie saoudite:

En 2007, le comité général pour le tourisme et le patrimoine historique a préparé une étude pour l'exploitation du tourisme d'affaire et son développement en Arabie Saoudite sous le titre de «Plan de développement du marché des congrès, des conférences, et des exhibitions». L'étude prévoit la participation d'environ 255 milles personnes dans le secteur du tourisme d'affaire dans les cinq années suivantes. Cette étude a aussi abordé les moyens de développement du produit touristique, les forces, les ressources humaines travaillant dans ce secteur, en plus de la stratégie de marketing en indiquant les partenaires et la structure administrative. L'étude esquisse ainsi un plan de travail pour le développement du tourisme d'affaire en Arabie Saoudite, avec les étapes suivantes:

- Le développement de la structure organisationnelle: les procédures de visas, les permis et les procédures de douanes.
- Le développement du produit: rénover et restaurer les structures, la garantie de qualité, l'établissement de nouveaux établissements et services.
- Le développement des ressources humaines: des standards internationaux, des sessions d'entraînement, des sessions de formations.
- Le marketing: l'identité, la publicité, l'attraction d'investissements locaux et internationaux.
- Les recherches et les informations: des statistiques cycliques, l'étude d'impact sur l'économie, la supervision des établissements et des services⁽¹⁾.

(1) Tourisme d'affaire, www.scta.gov.sa, 10/1/1433

5-Le développement du tourisme d'affaires dans le Royaume d'Arabie Saoudite:

L'Arabie Saoudite connaît un développement sans précédent et croissant dans le domaine du tourisme d'affaire. Cela est causé par une croissance économique et urbaine de l'Arabie Saoudite, et la présence des services et de l'infrastructure nécessaires, Le tourisme d'affaires a pris beaucoup d'importance dans le marché du tourisme en Arabie Saoudite, ainsi si on exclut le tourisme qui suit le pèlerinage et «Al Umrah», on trouve que les dépenses des touristes d'affaire représentent environ 21% du total des revenus du tourisme en Arabie Saoudite. Le Royaume organise plus de 100 milles activités d'affaires par an, dans lesquelles participent plus de 3.9 millions de touristes avec des taux de dépenses qui dépasse 4.2 milliard de Riyals. Il existe aussi en Arabie plus de 600 salles d'expositions et de conférences et de réunions. Le tourisme dans le royaume et surtout le tourisme d'affaires connaît un développement important dont les plus importantes étapes sont:

- L'établissement d'un comité général pour le tourisme et le patrimoine historique.
- Une stratégie de développement du tourisme national durable.
- Le développement de l'organisation du comité général pour le tourisme et le patrimoine historique.
- L'établissement de comités de développement touristique et de sous-comités répartis entre les régions.
- Le développement des procédures de visas pour les hommes d'affaires.
- La prise en charge par le comité général pour le tourisme et le patrimoine historique du secteur de restauration et d'hébergement.
- Donner aux conseils des chambres de commerces la responsabilité de l'organisation et de planification des congrès.
- L'adoption d'une stratégie de développement du marché des congrès et conférences et exhibitions.
- L'adoption par le comité général pour le tourisme et le patrimoine historique d'un projet interne visant à développer le tourisme d'affaire dans le royaume avec ses partenaires.
- La création d'une équipe responsable de spécifier les standards requis des établissements, des sociétés et des activités du tourisme d'affaires, composée du Ministère de Commerce et de l'Industrie, le comité général pour le tourisme et le patrimoine historique, le conseil des chambres de commerces, et le secteur privé.
- La création d'un comité permanent pour les exhibitions et les congrès au sein du ministère de commerce et de l'industrie.

a)-Les facteurs de succès du tourisme d'affaire en Arabie Saoudite:

L'Arabie Saoudite possède une bonne infrastructure pour le marché des conférences et des congrès. En plus, le gouvernement aide continuellement et en général le développement touristique. Pour cela, le comité général pour le tourisme et le patrimoine historique a abordé la mise en place d'une stratégie de développement du marché des congrès, avec l'analyse du marché local, et en expliquant les points forts et les points faibles du tourisme d'affaire. Parmi les points forts et les points faibles, les spécificités du marché, les défis et les chances, en relation avec le tourisme d'affaire, nous citons ce qui suit:

4- Des exemples des villes qui émergent dans le tourisme d'affaire en France:

En matière de tourisme d'affaires, chaque échelon territorial a un rôle à jouer. Par leur situation géographique, leur dynamisme économique, leurs attraits naturels et culturels, la qualité de leurs infrastructures et le professionnalisme de leur accueil, les villes peuvent attirer une clientèle d'affaires et, partant, exister par elles-mêmes, y compris dans des régions ayant peu développé ce secteur d'activités.

La plupart des métropoles régionales se sont dotées de palais des congrès et de parcs d'exposition pouvant accueillir des manifestations d'envergure variable: locale, régionale, nationale, voire mondiale pour certaines d'entre elles.

Faute de pouvoir toutes les citer, nous en retiendrons quelques-unes particulièrement significatives pour leurs actions dans le tourisme d'affaires.

En 1965, les maires des villes de congrès se sont associés dans une structure leur permettant d'œuvrer collectivement au développement du tourisme d'affaires: France congrès. Cette association réunit aujourd'hui cinquante villes dont les élus et les professionnels se sont mobilisés pour favoriser le développement de ce secteur. Ses principales missions visent à faire connaître l'offre de ses adhérents, à créer des synergies avec les organisations professionnelles de la filière, à effectuer des études et produire des statistiques.

Ces études permettent la réalisation annuelle d'un guide dont l'édition 2007 a alimenté le rapide panorama des villes des congrès qui suit.

Biarritz, qui s'est forgé une réputation grâce à son site, son climat et son histoire, a acquis une notoriété par ses compétences de ville de congrès. En effet, chacun sait maintenant qu'elle a été capable d'organiser et d'accueillir dans ses trois centres de congrès et ses nombreux hôtels de qualité le sommet européen des chefs d'États qui a rassemblé 5 000 participants puis le 18ème sommet Franco-Africain qui a attiré pas moins de 1 100 journalistes. Cette activité et la balnéothérapie ont permis à la ville de prolonger la saison estivale et de maintenir des emplois.⁽¹⁾

Marseille, port de longue tradition commerçante, organise de nombreux congrès et rencontres professionnelles. La ville dispose d'une abondance de sites d'accueil, dont trois de plus de 5 000 places, et d'un parc hôtelier comprenant sept établissements classés dans la catégorie quatre étoiles. Sa seule foire procurerait 21,3 millions d'euros de retombées économiques (source OJS/FSCF 2005).⁽²⁾

Ce rapide panorama des villes de congrès mérite d'être complété par une ville comme Angoulême qui s'est fait connaître dans le monde entier en organisant le festival de la bande dessinée. Cette destination comme d'ailleurs Cannes, Deauville et Avoriaz pour le cinéma sont des lieux de rencontres qui sont devenus de véritables marchés pour le domaine considéré.

Des villes comme Brest, Nantes, Poitiers, Tours et d'autres auraient mérité, en raison des efforts qu'elles accomplissent, un développement particulier.⁽³⁾

On a aussi bordeaux, Lyon, Montpellier, Toulouse.....

(1) M. Bernard PLAISAIT. *Le tourisme d'affaire: un atout majeur pour l'économie*.p.19

(2) M. Bernard PLAISAIT. *Le tourisme d'affaire: un atout majeur pour l'économie*.p.20.

(3) M. Bernard PLAISAIT. *Le tourisme d'affaire: un atout majeur pour l'économie*.p.21

- Foires (Exhibitions, Events)

Foires de présentation de produits ou services dans un but d'information et/ou de vente, sous forme de *Trade show*, afin de gagner des clients et de forger des relations. Ce segment se caractérise par la plus forte audience (pouvant dépasser 1000 participants). Les dépenses directes et indirectes liés à ce type d'événements sont très fortes en raison du coût des stands. Le volume des foires reste faible comparé à celui des meetings. Cependant, la croissance du segment est portée par le nombre des participants et sa volatilité est compensée par la régularité et la fréquence des salons. Pour le choix de la destination, on note que les destinations traditionnelles sont saturées et que les nouvelles destinations ne peuvent attirer que les nouvelles foires.⁽¹⁾

- Convention:

La convention est une activité composée d'une conférence et d'une présentation à laquelle la personne assiste, sur des sujets scientifiques ou éducatifs avec des activités d'accompagnement.

- Forum:

Le forum est une activité composée de plusieurs sessions et organisée pour ouvrir la discussion avec l'assistance autour d'un sujet général, avec des animateurs ou des conférenciers et des présidents de sessions.

- Symposium :

Un symposium est une réunion de plusieurs experts dans un domaine spécifique, pendant laquelle on distribue des fiches de travail qui seront discutées entre les spécialistes, avec le but de trouver des recommandations sur les sujets spécifiés.

- Atelier de travail ou Séminaire :

C'est une activité dans laquelle participe de 10 à 50 spécialistes dans un domaine spécifique qui possèdent des compétences variées, ayant pour objectif commun d'entraîner et d'éduquer et cela pour enrichir les compétences des participants.

- Exhibition:

L'exhibition est une activité organisée pour permettre à différents fournisseurs et leurs clients de se rencontrer et de communiquer dans un local spécifié et à une date spécifique.

- Bazar:

Le bazar est un marché temporaire pendant lequel les membres et les magasins participants peuvent exposer leurs produits et les offrir à prix réduits.

- Les activités internationales:

Ce sont les activités dans lesquelles au moins 15% des visiteurs sont de nationalités différentes que celle du pays-hôte.

- Les incitations:

Un moyen administratif international où l'employeur offre des voyages à un employé comme récompense ou encouragement, en appréciation de sa performance dans certaines tâches.

(1) *Tourisme d'affaires, fiche produit, observatoire du tourisme, Maroc.* Site: www.observatoiretourisme.ma.

parcs d'exposition français, accaparant ainsi 40 % des salons professionnels dans une douzaine de villes dont Berlin, Stuttgart, Munich, Leipzig... Le salon de la machine-outil se tient désormais Outre-Rhin.⁽¹⁾

Conscient des potentialités que revêt le tourisme d'affaires, Le Maroc le place au centre de la vision 2020 parmi les niches à haute valeur ajoutée. L'objectif étant de capter un touriste d'affaires et de prolonger son séjour à travers l'organisation d'offres en synergie avec les segments sport, bien-être, animation et culture. L'idée est d'encourager les groupes étrangers et les Tours Opérateurs à venir organiser leurs congrès et meetings au Maroc. Le Maroc dispose d'atouts indéniables pour profiter de la nouvelle dynamique du tourisme d'affaires. Cependant, le secteur souffre d'un manque de structuration et une absence de visibilité globale, d'où l'intérêt de cette étude. L'objectif est d'étudier les tendances du tourisme d'affaire à l'international et de mettre en lumière la situation de l'industrie du MICE au Maroc en analysant l'offre et la demande⁽²⁾.

3-Les différents types des activités d'affaires:

Le tourisme d'affaires comprend plusieurs types d'activités:

- Meetings

Ce sont des réunions d'entreprises, d'associations ou de gouvernements organisées dans le but de prendre des décisions, d'assurer une formation, de permettre des rencontres, d'informer...etc. Ce segment se caractérise par une forte dépendance à l'économie. En 2009, 40% des meetings ont été annulés à cause de la crise financière.

- Incentives

Programmes de récompenses d'employés sous forme de voyages, pouvant inclure des meetings («meetcentives») ou non. C'est le segment le plus lucratif par touriste engendré, en raison de l'importance du temps libre (maximal) et des dépenses par jour (élevées, comme pour les autres segments MICE).

L'originalité des activités proposées constitue l'élément déterminant du choix de la destination, notamment pour les séjours en groupe. Les incentives sont le segment qui a la plus forte propension à préférer les destinations internationales que pour les autres segments du MICE.

- Conférences ou Congrès

Réunions portées par des associations ou gouvernements dans un but premier d'information. Ce segment interpelle une audience importante (moyenne autour de 650 participants, mais 30% des congrès ont moins de 500 participants). Les participants disposent de temps libre aménagé par les organisateurs.

Pour les associations non-nationales, elles optent uniquement pour des destinations internationales. Les organisateurs souhaiteraient diversifier les destinations afin de maintenir l'intérêt des participants. Aujourd'hui la tendance est à la recherche accrue du «plus pour moins», afin d'augmenter les services offerts en dépit de l'augmentation des coûts et de la baisse des budgets.

(1) Ibid.p.26.

(2) *Tourisme d'affaires*, fiche produit, observatoire du tourisme, Maroc, site: www.observatoiretourisme.ma.

a-1) Un potentiel considérable de création d'emplois

Le tourisme d'affaires est donc un secteur à fort potentiel de main d'œuvre. Tous les métiers sont ici concernés. Certains malheureusement, du fait même de la nature de l'activité, ne sont pas permanents mais une meilleure coordination avec le tourisme de loisirs devrait permettre un allongement de la durée de ce dernier et contribuer à apporter une solution à la délicate question du travail saisonnier.

S'agissant de l'organisation même des manifestations dans les palais des congrès et autres lieux de rencontre et d'exposition, les effectifs sont aussi importants. France congrès qui réalise depuis 1999 un suivi des retombées économiques sur 40 centres représentatifs au niveau national estime le nombre d'emploi à 33 350 en 2003. On estime que 7 500 entreprises emploient quelques 35 000 personnes sur le territoire pour monter les chapiteaux, structures mobiles et tentes!⁽¹⁾

a- 2) Une chance pour le développement des territoires et leur durabilité:

Le tourisme d'affaires concerne aujourd'hui de plus en plus de régions.

Sans lui certaines villes et certaines provinces ne seraient pas connues des étrangers qui n'hésitent pas à revenir avec leurs familles après un déplacement d'affaires.

Le tourisme d'affaires a l'avantage d'être très complémentaire, en termes de saisonnalité, avec le tourisme d'agrément. Les régions doivent saisir cette chance en se dotant d'une promotion lisible et adaptée à leurs objectifs de développement.

Pour le développement des destinations petites ou moyennes, le marché des événements d'entreprise (séminaires, *incentives*, conventions...) est particulièrement intéressant.

Les entreprises recherchent en permanence de nouveaux lieux. Chaque destination a donc sa chance d'attirer la clientèle, sous réserve d'être très professionnel et de fournir toutes les prestations souhaitées par les clients. On peut dire que c'est un segment du tourisme où l'offre crée la demande⁽²⁾.

Pour Henri Ceran «*Le développement du tourisme d'affaires, et plus particulièrement des congrès associatifs, conventions d'entreprises et salons professionnels, constitue la réponse la plus adaptée aux enjeux de développement économique de la France pour les années à venir*».

«*Seul secteur d'activité à contribuer de manière transversale au succès d'un pays ou d'une région, le tourisme d'affaires est un bras de levier important du développement de secteurs clés comme les pôles de compétitivité, l'implantation d'entreprises, l'enseignement supérieur, la recherche, l'aménagement du territoire et son attractivité et, bien sûr, l'emploi.*» Créer des emplois permanents de qualité, aménager le territoire dans un souci de durabilité, tout en diffusant les connaissances et les idées et en échangeant les produits et les technologies⁽³⁾.

Si on prend l'exemple de l'Allemagne, on peut constater que les quatre villes (Hanovre, Francfort, Cologne, Düsseldorf) offrent des capacités d'exposition égales ou supérieures à celles des

(1) M. Bernard PLAISAIT. *Le tourisme d'affaire: un atout majeur pour l'économie*.p.24.

(2) M. Bernard PLAISAIT. *Le tourisme d'affaire: un atout majeur pour l'économie*.p.25.

(3) Ibid.p.26.

ment, de restauration... Ce qui les sépare radicalement c'est l'objet du déplacement, essentiellement professionnel pour le second, même si l'attractivité du lieu, la fréquentation des musées, monuments historiques, théâtres et opéras peuvent aussi faire partie du séjour et orienter le choix de la destination.

Selon l'OMT, l'ONU, l'INSEE et certains professionnels, est touriste «*toute personne effectuant un voyage comprenant au moins une nuit passée hors de son environnement habituel, quel que soit le motif du voyage*». Cette définition inclut donc le voyageur d'affaires alors que pour ce dernier le voyage est contraint dans son objet, sa durée, son mode d'organisation et sa prise en charge financière. Son lien avec toute activité économique est ainsi gommé, ce qui est aussi le cas pour les voyageurs de commerce qui ont la liberté d'organiser à leur gré leurs contacts et leurs tournées.⁽¹⁾

En effet, ce secteur attire à part sa capacité à lutter contre la saisonnalité des autres formes de tourisme. Ce n'est donc pas sur le tourisme d'affaires que peuvent se différencier les territoires mais plutôt sur son organisation et sur les services proposés avec un maître mot: l'innovation⁽²⁾.

Les tours sont organisés avec le but d'assister aux exhibitions, aux congrès, aux conférences, ou de participer à ces événements. Beaucoup de pays s'intéressent à développer ces voyages en développant les éléments en relation, comme les centres d'exhibition, les salles de conférences, les hôtels, les aéroports, et en développant le potentiel organisationnel et les procédures gouvernementales et les capacités humaines. Ce genre de tours s'appelle actuellement le «tourisme d'affaire» ou le tourisme de conférences, de réunions et d'exhibitions, et cela avec pour but de le placer dans un contexte qui permet d'aborder ses éléments spécifiques et de les développer et les proposer au public. Par définition, ce sont les voyages touristiques dont le but principal est d'assister ou de participer à une exhibition, une conférence, un congrès ou un atelier de travail.

Il est essentiel de différencier entre «Tourisme d'affaires» et «Voyages d'affaires». Le premier terme désigne «**une industrie particulière du voyage, le plus souvent touristique, réalisée pour encadrer, stimuler, développer, créer des affaires et communiquer** ⁽¹⁾» alors que Le «Voyage d'affaires» est «**un bref séjour qu'entreprend un homme d'affaires, souvent à titre individuel pour le compte d'une entreprise, dans le cadre de son activité quotidienne**» ⁽³⁾

a) - Les enjeux essentiels du tourisme d'affaires:

Le tourisme d'affaire présente des intérêts majeurs d'un point de vue économique, social et environnemental. Comme cela a déjà été signalé un touriste d'affaires dépense entre 2,5 et cinq fois plus qu'un touriste de loisirs, il mobilise un large panel de métiers en créant de l'emploi et il peut contribuer à l'aménagement du territoire. Par ailleurs, la saisonnalité du tourisme d'affaires est peu marquée. Seules les périodes de vacances scolaires sont évitées. Les destinations de tourisme de loisirs peuvent trouver là un moyen de prolonger leur saison d'activités.⁽⁴⁾

(1) M. Bernard PLAISAIT. *Le tourisme d'affaires: un atout majeur pour l'économie*.p.17.

(2) Julia BOSSU .*Le tourisme d'affaires: un outil d'attractivité*.p.7.

(3) Maurice Dupuy, *Le Tourisme d'Affaires: Comprendre, organiser et réussir*. Editions TECHNIP, 2005.

(4) M. Bernard PLAISAIT. *Le tourisme d'affaire: un atout majeur pour l'économie*.p.23.

tre que celle d'exercer une profession rémunérée dans le pays même. Cette définition comprend les «touristes», c'est-à-dire les visiteurs séjournant au moins 24 heures dans le pays visité et dont les motifs de voyage peut être groupés en plusieurs catégories:

- a) loisirs, agrément, vacances, santé, études, religion et sports;
- b) affaires, famille, mission, réunions;

Et les «excursionnistes», c'est-à-dire les visiteurs temporaires séjournant moins de 24 heures dans le pays visité⁽¹⁾.

D'après ces définitions, on peut considérer les excursionnistes et les personnes séjournant dans la région visitée comme des touristes, quels que soient leurs motifs de visite, à condition qu'il ne soit pas pour le travail.

Un touriste d'affaires associe très souvent des temps de travail rémunéré à des temps de détente et de visite liés à la spécificité des lieux où il se trouve: visite d'un musée ou d'un monument historique, repas gastronomique, excursion voire détour circonstanciel explicitement effectué lors d'une mission ou prolongement de cette mission par un séjour touristique. Durant ce temps où se mélangent travail et tourisme, ce «touriste» fréquente largement des espaces qui associent fonctions de travail et de non travail: hôtels, palais des congrès, foires-expositions. Et même, certaines activités rangées dans le tourisme d'affaires, comme les voyages de stimulation (incentives), n'ont pratiquement qu'une fonction ludique alors qu'elles prennent place durant le temps de travail rémunéré par l'entreprise. Inversement, des villages de vacances proposent à leur clientèle des services «d'affaires» (secrétariat, informatique, télécopie...)⁽²⁾.

Le motif principal d'un voyage touristique se définit comme le motif en l'absence duquel le voyage n'aurait pas eu lieu. La classification des voyages touristiques en fonction du motif principal selon l'OMT est la suivante:

- loisirs, détente et vacances.
- visite familiale ou amicale.
- affaires et motifs professionnels, à condition de ne pas avoir un poste ou une rémunération dans le pays visité (immigrés et navetteurs exclus)
- traitement médical.
- motif religieux, pèlerinage.
- autres motifs de visite (notamment les équipages des moyens de transport utilisés par les touristes).

2-Le tourisme d'affaire (Définition et importance):

«Accoler les deux termes *tourisme* et *affaires* apparaît *a priori* antinomique. Le premier évoque immédiatement les vacances, la détente, l'agrément et tous les aspects ludiques qui lui sont rattachés; le second, au contraire, renvoie à une réalité bien différente, celle du commerce, de la création de richesses et d'emplois. Pourtant tous deux ont des points communs induits par une même nécessité, celle du déplacement et du recours aux mêmes services de transport, d'héberge-

(1) Jean-Luc MICHAUD. *Tourismeschances Pour L'économie, risques Pour Les Sociétés*, presses universitaires de France, 1992.p.217

(2) Jean-Michel DEWAILLY & Emile FLAMENT. *Le Tourisme*.p.10.

Le tourisme d'affaire: enjeux et perspectives (exemples des villes européennes, arabes et libanaises)

Racha Sultan

Le tourisme a progressivement acquis au cours de la seconde moitié du siècle la dimension et la reconnaissance d'un phénomène économique majeur, par l'ampleur des déplacements qu'il suscite, les flux économiques qu'il engendre, les échanges monétaires qu'il induit, les investissements qu'il nécessite et les emplois qu'il crée.

Qualifié parfois de la première industrie mondiale, le tourisme s'attribuerait 7% de l'investissement international et offrirait au total 74 millions d'emplois dont 33 millions dans les pays en voie de développement (f. Frangialli, 1991)⁽¹⁾

Le tourisme est un secteur créateur d'emploi par excellence, si la machine envahit tous les secteurs économiques, le tourisme est basé sur des services qui ne peuvent être gérés que par des personnes.

Ce sont les perspectives de création d'emplois qui sous-tendent la volonté de développer le tourisme.

L'emploi touristique se caractérise par sa saisonnalité. Puisque la plupart de ses formes (tourisme culturel, tourisme familial, tourisme gastronomique, tourisme sportif, tourisme de loisirs...) est en relation avec la période des vacances. Mais le tourisme d'affaires forme une activité continue tout au long de l'année, puisque ces clients sont des hommes d'affaires.

Notre étude se focalise sur le tourisme d'affaires, en expliquant son importance, ses formes, en donnant des exemples des villes qui émergent dans le tourisme d'affaires, en analysant l'état des lieux du tourisme d'affaires au Liban et qu'elle est la perspective du tourisme d'affaires à la ville de Tripoli-Liban.

1-Le tourisme: définition et importance

Selon l'ONU (New York, 1954): on entend par touriste «toute personne qui, sans distinction de race, de sexe, de langue ou de religion, pénètre sur le territoire d'un état contractant autre que celui où elle réside habituellement et y séjourne pendant 24 heures au moins et six mois au plus au cours d'une même période de douze mois. Si le voyage est dû à un motif légitime autre que l'immigration tels que: tourisme, agrément, sport, santé, famille, études, pèlerinages religieux ou affaires»⁽²⁾.

Les Nations Unies lors de la conférence de Rome, ont recommandé pour le tourisme international les définitions suivantes: «à des fins statistiques, le terme «visiteur» désigne toute personne qui se rend dans un pays autre que celui où il a son lieu de résidence habituel, pour toute raison au-

(1) Jean-Michel DEWAILLY & Emile FLAMENT. *Le Tourisme*. p.16.

(2) Jean-Luc MICHAUD. *Tourismeschances Pour L'économie, risques Pour Les Sociétés*, presses universitaires de France., 1992.